



عناصر الموضوع

المجلد الحادي والعشرون

مفهوم الصراط

أولًا: المعنى اللغوي:

أصل الصراط بالسين؛ لأنه من السرط، والصاد لغة، قال الفراء: وهي بالصاد لغة قريش الأولين التي جاء بها الكتاب، قال وعامة العرب تجعلها سينًا[1].

والصراط، بالكسر: الطريق، وجسر ممدود على متن جهنم[2].

قال الراغب: السراط: الطريق المستسهل، أصله من: سرطت الطعام وزردته: ابتلعته، فقيل: سراطٌ، تصورًا أن يبتلعه سالكه، أو يبتلع سالكه[3].

والأصل الذي تفيده كلمة الصراط في اللغة هو البلع، ففي لسان العرب: سرط الطعام سراطًا: بلعه، وانسرط الشيء في حلقه سار فيه سيرًا سهلًا، وسراط وسراطي إذا كان قاطعًا يمر في الضريبة، كأنه يسترط كل شيء يلتهمه، وإنما قيل للطريق الواضح: صراط؛ لأنه كأنه يسترط المارة لكثرة سلوكهم فيه[4].

والمستقيم لغة: المستوي القويم الذي لا اعوجاج فيه ولا التواء، يقال: طريق مستقيم. كما يطلق على العادل الذي لا ميل فيه عن الحق. فيقال: ميزان مستقيم[5].

ثانيًا: المعنى الاصطلاحي:

الصراط من السبيل: ما لا التواء فيه ولا اعوجاج، بل على جهة القصد، فهو أخص من السبيل الأخص من الطريق[6].

وعرفه بعضهم بأنه: الطريق مستقيمًا كان أو غيره، ويطلق على الجسر الممدود على متن جهنم، يعبره أهل الجنة على حسب أعمالهم[7].

والمستقيم اصطلاحًا: المستوي، والمراد به طريق الحق، وهي الملة الحنيفية السمحة

---

(١) لسان العرب، ابن منظور ٧/ ٣١٣.
(٢) القاموس المحيط، الفيروزآبادي ص ٦٧٥
(٣) المفردات ص ٤٠٧.
(٤) لسان العرب، ابن منظور ٧/ ٣١٣.
(٥) معجم ألفاظ القرآن الكريم، مجمع اللغة العربية ٢/ ٤٥٣.
(٦) التوقيف على مهمات التعاريف، المناوي ص ٢١٥.
(٧) جامع العلوم في اصطلاحات الفنون، القاضي نكري ٢/ ١٧٤.

المتوسطة بين الإفراط والتفريط[١].

وقال ابن عاشور: المستقيم اسم فاعل، استقام مطاوع قومته فاستقام، والمستقيم الذي لا عوج فيه ولا تعاريج، وأحسن الطرق الذي يكون مستقيما وهو الجادة؛ لأنه باستقامته يكون أقرب إلى المكان المقصود من غيره، فلا يضل فيه سالكه، ولا يتردد ولا يتحير. والمستقيم مستعار للحق البين الذي لا تخلطه شبهة باطل فهو كالطريق الذي لا تتخلله بنيات[٢]

فتبين أن الصراط المستقيم هو: الطريق الواضح الذي لا اعوجاج فيه[٣]. وهو المعارف الصالحات كلها من اعتقاد وعمل[٤].

وفائدة وصف الصراط في الفاتحة بالمستقيم هو: أن الصراط يطلق على ما فيه صعود أو هبوط، والمستقيم ما لا ميل فيه إلى جهة من الجهات الأربع[٥].

(١) إرشاد العقل السليم، أبو السعود ١/ ١٨.
(٢) التحرير والتنوير ١/ ١٩١.
(٣) جامع البيان، الطبري ١/ ١٧٠.
(٤) التحرير والتنوير ١/ ١٩١.
(٥) التوقيف على مهمات التعاريف، المناوي ص ٢١٥.

الصراط في الاستعمال القرآني

وردت لفظة (الصراط) في القرآن الكريم (٤٥) مرة[١].

والصيغ التي وردت، هي:

الصيغة	عدد المرات	المثال
المصدر	٤٥	﴿إِنَّ اللَّهَ رَبِّي وَرَبُّكُمْ فَاعْبُدُوهُ هَٰذَا صِرَاطٌ مُّسْتَقِيمٌ ۝٥١﴾ [آل عمران: ٥١]

وجاء (الصراط المستقيم) في القرآن الكريم تعبيرًا عن منهج الإسلام المتمثل بعبادة الله تعالى وحده.

قال الله تعالى: ﴿قُلْ إِنَّنِي هَدَانِي رَبِّي إِلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ دِينًا قِيَمًا مِّلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا ۚ وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ ۝١٦١﴾ [الأنعام: ١٦١].

وقال عز وجل: ﴿إِنَّ اللَّهَ رَبِّي وَرَبُّكُمْ فَاعْبُدُوهُ ۗ هَٰذَا صِرَاطٌ مُّسْتَقِيمٌ ۝٥١﴾ [آل عمران: ٥١]. أي: أنا وأنتم عبيد له، فقراء إليه، مشتركون في عبادته وحده لا شريك له، وهذا الذي جئتكم به هو الصراط المستقيم، وهو عبادة الرب، عز وجل، وحده[٢].

وتعبدنا الله تعالى بدعائه في كل ركعة من الصلاة أن يهدينا لهذا المنهج القويم، قال تعالى: ﴿اهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ ۝٦ صِرَاطَ الَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ غَيْرِ الْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلَا الضَّالِّينَ ۝٧﴾ [الفاتحة: ٦-٧].

ولم تأت كلمة الصراط بغير هذا المعنى إلا في آيتين، واستعمل (الصراط) فيهما بمعنى: الطريق، قال الله تعالى: ﴿وَلَا تَقْعُدُوا بِكُلِّ صِرَاطٍ تُوعِدُونَ وَتَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ اللَّهِ مَنْ آمَنَ بِهِ وَتَبْغُونَهَا عِوَجًا ۚ وَاذْكُرُوا إِذْ كُنتُمْ قَلِيلًا فَكَثَّرَكُمْ ۖ وَانظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُفْسِدِينَ ۝٨٦﴾ [الأعراف: ٨٦].

وهو خطاب موجه من النبي شعيب إلى قومه، فنهاهم عن رذائل كانوا متلبسين بها فقال: ﴿وَلَا تَقْعُدُوا بِكُلِّ صِرَاطٍ تُوعِدُونَ﴾ أي: ولا تقعدوا بكل طريق من الطرق المسلوكة

---

(١) انظر: المعجم المفهرس لألفاظ القرآن الكريم، محمد فؤاد عبدالباقي ص٤١٢-٤١٤، المعجم المفهرس الشامل، عبدالله جلغوم، ص٧٠٣-٧٠٥.

(٢) تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ٧/ ٢٣٧.



تهددون من آمن بي بالقتل، وتخيفونه بأنواع الأذى، وتلصقون بي - وأنا نبيكم - التهم التي أنا بريء منها، بأن تقولوا لمن يريد الإيمان برسالتي: إن شعيبا كذاب وإنه يريد أن يفتنكم عن دينكم[1].

وقد روي عن ابن عباس أن بلادهم كانت خصبة، وكان الناس يمتارون منهم، فكانوا يقعدون على الطريق، ويخوفون الناس أن يأتوا شعيبا، ويقولون لهم: إنه كذاب فلا يفتننكم عن دينكم[2].

وقال الله تعالى: ﴿وَلَوْ نَشَآءُ لَطَمَسْنَا عَلَىٰٓ أَعْيُنِهِمْ فَٱسْتَبَقُوا۟ ٱلصِّرَٰطَ فَأَنَّىٰ يُبْصِرُونَ ﴿٦٦﴾﴾ [يس: ٦٦].

والمعنى: لو نشاء لأعميناهم وتركناهم عميًا يترددون، وكيف يبصرون الطريق حينئذ؟[3].

(١) التفسير الوسيط، طنطاوي ٥/ ٣٢١.
(٢) تفسير المراغي ٨/ ٢١١.
(٣) التفسير البسيط، الواحدي ١٨/ ٥١٣.

الألفاظ ذات الصلة

١ الطريق:

الطريق لغة:

الطريق: السبيل، يذكر ويؤنث، تقول: الطريق الأعظم، والطريق العظمى، والجمع أطرقة وطرق. وطرقات: جمع الجمع.

وطريقة الرجل: مذهبه. يقال: ما زال فلان على طريقة واحدة، أي: حالة واحدة[١].

الطريق اصطلاحًا:

لا يختلف معناه الاصطلاحي عن معناه اللغوي.

الصلة بين الصراط والطريق:

الطريق أعم، فمنه السهل ومنه الصعب، ومنه المستقيم ومنه المعوج، وأما الصراط فهو طريق سهل لا اعوجاج فيه[٢].

٢ السبيل:

السبيل لغة:

الطريق وما وضح منه يذكر ويؤنث، وسبيل الله: طريق الهدى الذي دعا إليه[٣].

السبيل اصطلاحًا:

السبيل: طريق الجادة السائلة عليه الظاهر لكل سالك منهجه، فهو أخص من الطريق، فإنه كل ما يطرق الطارق معتادًا كان أو غيره، وسبيل الله: طريقه التي أمر بسلوكها، واشتقاقه من الجريان من قولك سبل السحاب مطر، والستر أرسله وطوله فسمي الطريق سبيلًا؛ لكثرة الجريان فيه بالمشي[٤].

الصلة بين الصراط والسبيل:

الصراط طريق سهل، والسبيل: اسم يقع على ما يقع عليه الطريق، وعلى ما لا يقع عليه الطريق، تقول: سبيل الله، وطريق الله.

(١) انظر: الصحاح، الجوهري ٤/ ١٥١٣، مختار الصحاح، الرازي ص ١٨٩، المحكم والمحيط الأعظم، ابن سيده ٦/ ٢٧٣.
(٢) الفروق اللغوية، العسكري ص ٢٩٨.
(٣) انظر: مختار الصحاح، الرازي ص ١٤١، المحكم والمحيط الأعظم، ابن سيده ٨/ ٥٠٦.
(٤) التوقيف على مهمات التعاريف، المناوي ص ١٩٠.



والفرق بينهما كالفرق بين الصراط والطريق.

٣ العوج:

العوج في اللغة:

العين والواو والجيم أصل صحيح يدل على ميلٍ في الشيء أو ميلٍ، وفروعه ترجع إليه[١].

والعَوَج، بالتحريك: مصدر قولك: عَوِجَ الشيء بالكسر فهو أعوج. والاسم العِوَج بكسر العين. قال ابن السكيت: وكل ما كان ينتصب كالحائط والعود قيل فيه عَوَجٌ بالفتح، والعِوَج بالكسر ما كان في أرض أو دين أو معاشٍ، يقال: في دينه عِوَج[٢].

والعِوَج: الانعطاف فيما كان قائما فمال، كالرمح والحائط.

والعوج في الأرض ألا تستوي. وفي التنزيل: ﴿لَّا تَرَىٰ فِيهَا عِوَجًا وَلَآ أَمْتًا ۝١٠٧﴾ [طه: ١٠٧].

وعَوَج الطريق وعِوَجُه: زيغه.

وعِوَج الدين والخلق: فساده وميله، على المثل[٣].

العوج في الاصطلاح:

وهو بفتح العين مختص بكل شيء مرئي كالأجسام، وبالكسر فيما ليس بمرئي، كالرأي والقول. وقيل: الكسر يقال فيهما معا، والأول أكثر[٤].

وقال الكفوي: هو في المحسوسات عدم الاستقامة الحسية، وفي غيرها: عدم كونها على ما ينبغي[٥].

الصلة بين العوج والاستقامة:

الاستقامة ضد العوج، فالعلاقة بينهما ضدية.

---

(١) مقاييس اللغة، ابن فارس ٤/ ١٧٩.
(٢) الصحاح، الجوهري ١/ ٣٣١.
(٣) المحكم والمحيط الأعظم، ابن سيده ٢/ ٢٨٢.
(٤) النهاية في غريب الحديث والأثر، ابن الأثير ٣/ ٣١٥.
(٥) الكليات ص ١٥١.

الله الهادي إلى الصراط المستقيم

من أسماء الله الحسنى: الهادي، فهو الذي يهدي ويرشد عباده إلى جميع المنافع، وإلى دفع المضار، ويعلمهم ما لا يعلمون، ويهديهم لهداية التوفيق والتسديد، ويلهمهم التقوى، ويجعل قلوبهم منيبة إليه منقادة لأمره[1].

قال سبحانه وتعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوًّا مِّنَ ٱلْمُجْرِمِينَ ۗ وَكَفَىٰ بِرَبِّكَ هَادِيًا وَنَصِيرًا ۝٣١﴾ [الفرقان: ٣١].

أي: وكفى ربك -أيها الرسول الكريم- هاديا يهدى عباده إلى ما تقتضيه حكمته ومشيئته، وكفى به سبحانه نصيرا لمن يريد أن ينصره على كل من عاداه[2].

وأجل محصول يحصل عليه العبد: أن يهديه الله إلى الصراط المستقيم، وهذه أكبر نعمة ينعم بها الهادي سبحانه على من يشاء من عباده، ولذلك كان وجوبا على العبد أن يسأل ربه الهداية في كل ركعة من صلاته ويردد: ﴿ٱهْدِنَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلْمُسْتَقِيمَ ۝٦﴾ [الفاتحة: ٦].

قال شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله: «والعبد مضطر دائما إلى أن يهديه الله الصراط المستقيم، فهو مضطر إلى مقصود هذا الدعاء؛ فإنه لا نجاة من العذاب، ولا وصول إلى السعادة إلا بهذه الهداية، فمن فاته فهو إما من المغضوب عليهم، وإما من الضالين، وهذا الهدى لا يحصل إلا بهدى الله، وأما سؤال من يقول: فقد هداهم، فلا حاجة بهم إلى السؤال وجواب من أجابه بأن المطلوب دوامها كلام من لم يعرف حقيقة الأسباب، وما أمر الله به؛ فإن الصراط المستقيم أن يفعل العبد في كل وقت ما أمر به في ذلك الوقت من علم وعمل، ولا يفعل ما نهي عنه، وهذا يحتاج في كل وقت إلى أن يعلم ويعمل ما أمر به في ذلك الوقت، وما نهي عنه، وإلى أن يحصل له إرادة جازمة لفعل المأمور، وكراهة جازمة لترك المحظور، فهذا العلم المفصل والإرادة المفصلة لا يتصور أن تحصل للعبد في وقت واحد، بل كل وقت يحتاج إلى أن يجعل الله في قلبه من العلوم والإرادات ما يهتدي به في ذلك الصراط المستقيم»[3].

ومعنى: ﴿ٱهْدِنَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلْمُسْتَقِيمَ ۝٦﴾ [الفاتحة: ٦] أي: دلنا وأرشدنا، ووفقنا للصراط المستقيم، وهو الطريق الواضح الموصل إلى الله، وإلى جنته، وهو معرفة الحق والعمل به، فاهدنا إلى الصراط واهدنا في الصراط. فالهداية إلى الصراط: لزوم دين الإسلام، وترك ما سواه من الأديان،

(١) تيسير الكريم الرحمن، السعدي ص ٩٤٩.
(٢) التفسير الوسيط، طنطاوي ١٠/ ١٩٣.
(٣) مجموع فتاوى ابن تيمية، ابن قاسم ١٤/ ٣٧-٣٨.

والهداية في الصراط، تشمل الهداية لجميع التفاصيل الدينية علمًا وعملًا.

فهذا الدعاء من أجمع الأدعية وأنفعها للعبد ولهذا وجب على الإنسان أن يدعو الله به في كل ركعة من صلاته، لضرورته إلى ذلك[1].

قال الرازي: «اعلم أن أهل الهندسة قالوا: الخط المستقيم هو أقصر خط يصل بين نقطتين، فالحاصل أن الخط المستقيم أقصر من جميع الخطوط المعوجة، فكأن العبد يقول: اهدنا الصراط المستقيم لوجوه:

الأول: أنه أقرب الخطوط وأقصرها، وأنا عاجز فلا يليق بضعفي إلا الطريق المستقيم.

الثاني: أن المستقيم واحد وما عداه معوجة وبعضها يشبه بعضا في الاعوجاج فيشتبه الطريق علي، أما المستقيم فلا يشابهه غيره فكان أبعد عن الخوف والآفات وأقرب إلى الأمان.

الثالث: الطريق المستقيم يوصل إلى المقصود، والمعوج لا يوصل إليه.

والرابع: المستقيم لا يتغير، والمعوج يتغير، فلهذه الأسباب سأل الصراط المستقيم، والله أعلم»[2].

وقد أرشدنا الله إلى طلب الهداية منه، ليكون عونا لنا ينصرنا على أهوائنا وشهواتنا بعد أن نبذل ما نستطيع من الجهد في معرفة أحكام الشريعة، ونكلف أنفسنا الجري على سننها، لنحصل على خيري الدنيا والآخرة[3].

والهداية هنا هي البيان والدلالة، ثم التوفيق والإلهام، وهو بعد البيان والدلالة، ولا سبيل إلى البيان والدلالة إلا من جهة الرسل. فإذا حصل البيان والدلالة والتعريف ترتب عليه هداية التوفيق.

وللهداية مرتبة أخرى -وهي آخر مراتبها- وهي الهداية يوم القيامة إلى طريق الجنة. وهو الصراط الموصل إليها. فمن هدى في هذه الدار إلى صراط الله المستقيم الذي أرسل به رسله، وأنزل به كتبه، هدي هناك إلى الصراط المستقيم، الموصل إلى جنته ودار ثوابه. وعلى قدر ثبوت قدم العبد على هذا الصراط الذي نصبه الله لعباده في هذه الدار، يكون ثبوت قدمه على الصراط المنصوب على متن جهنم. وعلى قدر سيره على هذا الصراط يكون سيره على ذاك الصراط. فمنهم من يمر كالبرق، ومنهم من يمر كالطرف، ومنهم من يمر كالريح، ومنهم من يمر كشد الركاب، ومنهم من يسعى سعيا، ومنهم من يمشي مشيا، ومنهم من يحبو حبوا، ومنهم المخدوش المسلم، ومنهم المكردس في الناس.

---

(١) تيسير الكريم الرحمن، السعدي ص ٣٩.

(٢) مفاتيح الغيب ١/ ٢٢٠.

(٣) تفسير المراغي ١/ ٣٦.

فلينظر العبد سيره على ذلك الصراط من سيره على هذا، حذو القذة بالقذة جزاء وفاقا ﴿هَلْ تُجْزَوْنَ إِلَّا مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾[1].

وقال تعالى: ﴿إِنِّي تَوَكَّلْتُ عَلَى اللَّهِ رَبِّي وَرَبِّكُم مَّا مِن دَابَّةٍ إِلَّا هُوَ آخِذٌ بِنَاصِيَتِهَا إِنَّ رَبِّي عَلَى صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٥٦﴾﴾ [هود: ٥٦].

أي: إن ربي على طريق الحق، يجازي المحسن من خلقه بإحسانه، والمسيء بإساءته، لا يظلم أحدًا منهم شيئًا، ولا يقبل منهم إلا الإسلام والإيمان به[2].

ولقد هدى الله تعالى رسله عليهم الصلاة والسلام وثبتهم على الصراط المستقيم، فعلى هذا الصراط المستقيم أقام الله نبيه الكريم من أول خطوه في الحياة[3]، قال تعالى: ﴿قُلْ إِنَّنِي هَدَانِي رَبِّي إِلَى صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ دِينًا قِيَمًا مِّلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ ﴿١٦١﴾﴾ [الأنعام: ١٦١].

فأمر تعالى نبيه صلى الله عليه وسلم، أن يقول ويعلن بما هو عليه من الهداية إلى الصراط المستقيم: الدين المعتدل المتضمن للعقائد النافعة، والأعمال الصالحة، والأمر بكل حسن، والنهي عن كل قبيح، الذي عليه الأنبياء والمرسلون، خصوصا إمام الحنفاء، ووالد من بعث من بعد موته من الأنبياء، خليل الرحمن إبراهيم عليه الصلاة والسلام، وهو الدين الحنيف المائل عن كل دين غير مستقيم، من أديان أهل الانحراف، كاليهود والنصارى والمشركين[4].

وفي قوله: ﴿قُلْ إِنَّنِي هَدَانِي رَبِّي﴾ دليل على أن الهداية لا تحصل إلا بالله تعالى[5].

وقال تعالى: ﴿إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحًا مُّبِينًا ﴿١﴾ لِّيَغْفِرَ لَكَ اللَّهُ مَا تَقَدَّمَ مِن ذَنبِكَ وَمَا تَأَخَّرَ وَيُتِمَّ نِعْمَتَهُ عَلَيْكَ وَيَهْدِيَكَ صِرَاطًا مُّسْتَقِيمًا ﴿٢﴾﴾ [الفتح: ١-٢].

والمعنى: يثبتك على الصراط المستقيم، ويزيدك هداية على هداية، ويهدى بك الخلق إلى الحق[6].

والاستقامة على الصراط المستقيم وإن كانت حاصلة قبل الفتح، لكن حصل بعد ذلك من اتضاح سبيل الحق، واستقامة مناهجه، ما لم يكن حاصلًا قبل[7].

وقال ابن عاشور: «ومعنى ويهديك صراطا مستقيما: يزيدك هديا لم يسبق وذلك بالتوسيع في بيان الشريعة والتعريف بما لم يسبق تعريفه به منها، فالهداية إلى الصراط المستقيم ثابتة للنبي صلى الله عليه وسلم من وقت بعثته، ولكنها تزداد بزيادة بيان الشريعة، وبسعة بلاد الإسلام، وكثرة

---

(١) التفسير القيم، ابن القيم ص ١٣-١٤.
(٢) جامع البيان، الطبري ١٥/ ٣٦٤.
(٣) التفسير القرآني للقرآن، عبدالكريم الخطيب ٤/ ٣٥٦.
(٤) تيسير الكريم الرحمن، السعدي ص ٢٨٢.
(٥) مفاتيح الغيب، الرازي ١٤/ ١٩٠.
(٦) لطائف الإشارات، القشيري ٣/ ٤١٨.
(٧) البحر المديد، ابن عجيبة ٥/ ٣٨٥.

المسلمين مما يدعو إلى سلوك طرائق كثيرة في إرشادهم وسياستهم وحماية أوطانهم، ودفع أعدائهم، فهذه الهداية متجمعة من الثبات على ما سبق هديه إليه، ومن الهداية إلى ما لم يسبق إليه وكل ذلك من الهداية»[1].

وقد امتن الله سبحانه على نبيه صلى الله عليه وسلم بالفتح المبين والفتح لا يكون إلا لمن هو على صراط الله، ولعل المراد بهذا الخطاب هو أمته[2].

وقال تعالى: ﴿وَتِلْكَ حُجَّتُنَآ ءَاتَيْنَٰهَآ إِبْرَٰهِيمَ عَلَىٰ قَوْمِهِۦ ۚ نَرْفَعُ دَرَجَٰتٍ مَّن نَّشَآءُ ۗ إِنَّ رَبَّكَ حَكِيمٌ عَلِيمٌ ﴿٨٣﴾ وَوَهَبْنَا لَهُۥٓ إِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ ۚ كُلًّا هَدَيْنَا ۚ وَنُوحًا هَدَيْنَا مِن قَبْلُ ۖ وَمِن ذُرِّيَّتِهِۦ دَاوُۥدَ وَسُلَيْمَٰنَ وَأَيُّوبَ وَيُوسُفَ وَمُوسَىٰ وَهَٰرُونَ ۚ وَكَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿٨٤﴾ وَزَكَرِيَّا وَيَحْيَىٰ وَعِيسَىٰ وَإِلْيَاسَ ۖ كُلٌّ مِّنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿٨٥﴾ وَإِسْمَٰعِيلَ وَٱلْيَسَعَ وَيُونُسَ وَلُوطًا ۚ وَكُلًّا فَضَّلْنَا عَلَى ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٨٦﴾ وَمِنْ ءَابَآئِهِمْ وَذُرِّيَّٰتِهِمْ وَإِخْوَٰنِهِمْ ۖ وَٱجْتَبَيْنَٰهُمْ وَهَدَيْنَٰهُمْ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٨٧﴾ ذَٰلِكَ هُدَى ٱللَّهِ يَهْدِى بِهِۦ مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ ۚ وَلَوْ أَشْرَكُوا۟ لَحَبِطَ عَنْهُم مَّا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿٨٨﴾﴾ [الأنعام: ٨٣-٨٨].

ومعنى: ﴿وَهَدَيْنَٰهُمْ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾ أي: وسددناهم فأرشدناهم إلى طريق غير معوج، وذلك دين الله الذي لا عوج فيه، وهو الإسلام الذي ارتضاه الله ربنا لأنبيائه، وأمر به عباده[3].

وقوله: ﴿ذَٰلِكَ هُدَى ٱللَّهِ يَهْدِى بِهِۦ مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ﴾ أي: ذلك الهدى إلى صراط مستقيم الذي اهتدى إليه أولئك الأخيار هو هدى الله الذي يهدى به من يشاء هدايته من عباده وهم المستعدون لذلك.

وفي قوله: ﴿مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ﴾ من الإبهام ما يبعث النفوس على طلب هدى الله تعالى والتعرض لنفحاته[4].

وأخبر سبحانه وتعالى عن هدايته لموسى وهارون عليهما الصلاة والسلام، فقال: ﴿وَهَدَيْنَٰهُمَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلْمُسْتَقِيمَ ﴿١١٨﴾﴾ [الصافات: ١١٨].

أي: دللناهما على طريق الحق عقلا وسمعا، وأمددناهما بالتوفيق والعصمة، وتشبيه الدلائل الحقة بالطريق المستقيم واضح[5].

وقال الشوكاني: ﴿وَهَدَيْنَٰهُمَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلْمُسْتَقِيمَ﴾ أي: القيم لا اعوجاج فيه، وهو دين الإسلام فإنه الطريق الموصلة إلى المطلوب[6].

---

(١) التحرير والتنوير ٢٦/ ١٤٨.
(٢) غرائب القرآن، النيسابوري ٦/ ١٤٥.
(٣) جامع البيان، الطبري ١١/ ٥١٣.
(٤) التفسير الوسيط، طنطاوي ٥/ ١٢٢.
(٥) مفاتيح الغيب، الرازي ٢٦/ ٣٥٢.
(٦) فتح القدير، الشوكاني ٤/ ٤٦٩.

وإذا أراد الله بعبده خيرا أمده بنور التحقيق، وأيده بحسن العصمة، فيميز بحسن البصيرة بين الحق والباطل فلا يظله غمام الريب، وينجلي عنه غطاء الغفلة، فلا تأثير لضباب الغداة في شعاع الشمس عند متوع النهار، وهذا معنى قوله: ﴿وَلِيَعْلَمَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ أَنَّهُ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّكَ فَيُؤْمِنُوا۟ بِهِۦ فَتُخْبِتَ لَهُۥ قُلُوبُهُمْ ۗ وَإِنَّ ٱللَّهَ لَهَادِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ۝٥٤﴾ [الحج: ٥٤][1].

فيهديهم في الدنيا والآخرة، أما في الدنيا فيرشدهم إلى الحق واتباعه، ويوفقهم لمخالفة الباطل واجتنابه، وفي الآخرة يهديهم إلى الصراط المستقيم، الموصل إلى درجات الجنات، ويزحزحهم عن العذاب الأليم والدركات[2].

وهدى الله تعالى عباده المؤمنين إلى الصراط المستقيم، فقال تعالى: ﴿يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ قَدْ جَآءَكُمْ رَسُولُنَا يُبَيِّنُ لَكُمْ كَثِيرًا مِّمَّا كُنتُمْ تُخْفُونَ مِنَ ٱلْكِتَٰبِ وَيَعْفُوا۟ عَن كَثِيرٍ ۚ قَدْ جَآءَكُم مِّنَ ٱللَّهِ نُورٌ وَكِتَٰبٌ مُّبِينٌ ۝١٥ يَهْدِى بِهِ ٱللَّهُ مَنِ ٱتَّبَعَ رِضْوَٰنَهُۥ سُبُلَ ٱلسَّلَٰمِ وَيُخْرِجُهُم مِّنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ بِإِذْنِهِۦ وَيَهْدِيهِمْ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ۝١٦﴾ [المائدة: ١٥-١٦].

فقوله: ﴿يَهْدِى بِهِ ٱللَّهُ﴾ أي: بالكتاب المبين من اتبع رضوانه من كان مطلوبه من طلب الدين اتباع الدين الذي يرتضيه الله تعالى، فأما من كان مطلوبه من دينه تقرير ما ألفه ونشأ عليه وأخذه من أسلافه مع ترك النظر والاستدلال، فمن كان كذلك فهو غير متبع رضوان الله تعالى.

ثم قال تعالى: ﴿سُبُلَ ٱلسَّلَٰمِ﴾ أي: طرق السلامة، ثم قال: ﴿وَيُخْرِجُهُم مِّنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ بِإِذْنِهِۦ﴾ أي: من ظلمات الكفر إلى نور الإيمان، وذلك أن الكفر يتحير فيه صاحبه كما يتحير في الظلام، ويهتدي بالإيمان إلى طرق الجنة كما يهتدي بالنور، وقوله: ﴿بِإِذْنِهِۦ﴾ أي: بتوفيقه، والباء تتعلق بالاتباع أي: اتبع رضوانه بإذنه، ولا يجوز أن تتعلق بالهداية ولا بالإخراج؛ لأنه لا معنى له، فدل ذلك على أنه لا يتبع رضوان الله إلا من أراد الله منه ذلك.

وقوله تعالى: ﴿وَيَهْدِيهِمْ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾ وهو الدين الحق، لأن الحق واحد لذاته، ومتفق من جميع جهاته، وأما الباطل ففيه كثرة، وكلها معوجة[3].

وهذه الهداية عين الهداية إلى سبل

(١) لطائف الإشارات، القشيري ٢/ ٥٥٥.

(٢) تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ٥/ ٤٤٦.

(٣) مفاتيح الغيب، الرازي ١١/ ٣٢٧.

السلام، وإنما عطفت عليها؛ تنزيلا للتغاير الوصفي منزلة التغاير الذاتي[1].

والله تعالى يهدي من يشاء إلى الطريق الذي لا عوج فيه، قال تعالى: ﴿لَّقَدْ أَنزَلْنَآ ءَايَٰتٍ مُّبَيِّنَٰتٍ وَٱللَّهُ يَهْدِى مَن يَشَآءُ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٤٦﴾﴾ [النور: ٤٦].

أي: لقد أنزلنا أيها الناس علامات واضحات دالات على طريق الحق وسبيل الرشاد ﴿وَٱللَّهُ يَهْدِى مَن يَشَآءُ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾ يقول: والله يرشد من يشاء من خلقه بتوفيقه، فيهديه إلى دين الإسلام، وهو الصراط المستقيم والطريق القاصد الذي لا اعوجاج فيه[2].

فعمم البيان التام لجميع الخلق، وخصص بالهداية من يشاء، فهذا فضله وإحسانه، وما فضل الكريم بممنون وذاك عدله، وقطع الحجة للمحتج، والله أعلم حيث يجعل مواقع إحسانه[3].

قال سيد قطب: «فآيات الله مبينة كاشفة تجلو نور الله، وتكشف عن ينابيع هداه. وتحدد الخير والشر، والطيب والخبيث، وتبين منهج الإسلام في الحياة كاملا دقيقا لا لبس فيه ولا غموض وتحدد أحكام الله في الأرض بلا شبهة ولا إبهام. فإذا تحاكم الناس إليها فإنما يتحاكمون إلى شريعة واضحة مضبوطة، لا يخشى منها صاحب حق على حقه ولا يلتبس فيها حق بباطل، ولا حلال بحرام.

﴿وَٱللَّهُ يَهْدِى مَن يَشَآءُ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾

والمشيئة مطلقة لا يقيدها قيد. غير أن الله سبحانه قد جعل للهدى طريقا، من وجه نفسه إليه وجد فيه هدى الله ونوره، فاتصل به، وسار على الدرب، حتى يصل - بمشيئة الله - ومن حاد عنه وأعرض فقد النور الهادي ولج في طريق الضلال حسب مشيئة الله في الهدى والضلال»[4].

وقال سبحانه: ﴿وَٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا صُمٌّ وَبُكْمٌ فِى ٱلظُّلُمَٰتِ ۗ مَن يَشَإِ ٱللَّهُ يُضْلِلْهُ وَمَن يَشَأْ يَجْعَلْهُ عَلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٣٩﴾﴾ [الأنعام: ٣٩] أي: من تعلقت مشيئة الله تعالى بإضلاله يضلله، كما أضل هؤلاء الذين استحبوا العمى على الهدى، فلم يستعملوا أسماعهم، ولا أفواههم، ولا عقولهم في آيات الله تعالى على أحقية ما جاء به رسول الله صلى الله عليه وسلم، وإنما إضلاله إياهم اقتضاء سننه في عقول البشر وغرائزهم وأخلاقهم أن يعرض المستكبر عن دعوة من يراه دونه واتباع من يراه مثله، وإن ظهر له الحق معه.

﴿وَمَن يَشَأْ يَجْعَلْهُ عَلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾

أي: ومن يشأ أن يجعله على طريق يرضاه،

(١) روح المعاني، الألوسي ٣/ ٢٧٠.
(٢) جامع البيان، الطبري ١٩/ ٢٠٤.
(٣) تيسير الكريم الرحمن، السعدي ص ٥٧١.
(٤) في ظلال القرآن ٤/ ٢٥٢٥.

وهو الإسلام، يجعله عليه، ويهده إليه، ويمته عليه، فلا يضل من مشى إليه، ولا يزل من ثبت قدمه عليه[1].

وقال تعالى: ﴿سَيَقُولُ ٱلسُّفَهَآءُ مِنَ ٱلنَّاسِ مَا وَلَّىٰهُمْ عَن قِبْلَتِهِمُ ٱلَّتِى كَانُوا۟ عَلَيْهَا ۚ قُل لِّلَّهِ ٱلْمَشْرِقُ وَٱلْمَغْرِبُ ۚ يَهْدِى مَن يَشَآءُ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ۝١٤٢﴾ [البقرة: ١٤٢].

فالمشرق لله والمغرب لله، فكل متجه فهو إليه في أي اتجاه، فالجهات والأماكن لا فضل لها في ذاتها. إنما يفضلها ويخصصها اختيار الله وتوجيهه، والله يهدي من يشاء إلى صراط مستقيم، فإذا اختار لعباده وجهة، واختار لهم قبلة، فهي إذن المختارة، وعن طريقها يسيرون إلى صراط مستقيم[2].

قال ابن عاشور: قوله: ﴿يَهْدِى مَن يَشَآءُ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾ إيماء إلى قبلة الإسلام، والمراد بالصراط المستقيم هنا وسيلة الخير وما يوصل إليه فيشمل ذلك كل هدي إلى خير، ومنه الهدي إلى استقبال أفضل جهة[3].

وقال تعالى: ﴿كَانَ ٱلنَّاسُ أُمَّةً وَٰحِدَةً فَبَعَثَ ٱللَّهُ ٱلنَّبِيِّـۧنَ مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ وَأَنزَلَ مَعَهُمُ ٱلْكِتَٰبَ بِٱلْحَقِّ لِيَحْكُمَ بَيْنَ ٱلنَّاسِ فِيمَا ٱخْتَلَفُوا۟ فِيهِ ۚ وَمَا ٱخْتَلَفَ فِيهِ إِلَّا ٱلَّذِينَ أُوتُوهُ مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَتْهُمُ ٱلْبَيِّنَٰتُ بَغْيًۢا بَيْنَهُمْ ۖ فَهَدَى ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لِمَا ٱخْتَلَفُوا۟ فِيهِ مِنَ ٱلْحَقِّ بِإِذْنِهِۦ ۗ وَٱللَّهُ يَهْدِى مَن يَشَآءُ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ۝٢١٣﴾ [البقرة: ٢١٣]

فالله تعالى يسدد من يشاء من خلقه ويرشده إلى الطريق القويم على الحق الذي لا اعوجاج فيه، كما هدى الذين آمنوا بمحمد صلى الله عليه وسلم، لما اختلف الذين أوتوا الكتاب فيه بغيًا بينهم، فسددهم لإصابة الحق والصواب فيه[4].

والخلاصة أن الله تعالى رسم حدود الصراط المستقيم وبين معالمه وتولى أمر الهداية إليه بواسطة الذين اصطفاهم واجتباهم من الأنبياء والمرسلين وورثتهم من العلماء العاملين.

(١) مراح لبيد، محمد الجاوي ١/ ٣١٨.
(٢) في ظلال القرآن ١/ ١٣٠.
(٣) التحرير والتنوير ٢/ ١٣.
(٤) جامع البيان، الطبري ٤/ ٢٨٦.

حقيقة الصراط المستقيم

المتأمل في آيات القرآن الكريم، يجد أن كلمة الصراط المستقيم قد وسعت كل شيء أحبه الله لعباده، فالداخل في الإسلام يقول: ﴿ٱهۡدِنَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلۡمُسۡتَقِيمَ ۝٦﴾ [الفاتحة: ٦].

وراسخ القدم فيه يقول: ﴿ٱهۡدِنَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلۡمُسۡتَقِيمَ﴾، والنبيون والشهداء والصالحون كلهم يقولون: ﴿ٱهۡدِنَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلۡمُسۡتَقِيمَ﴾.

فالواجب على كل عبد أن يقول ويقرأ في صلاته: ﴿ٱهۡدِنَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلۡمُسۡتَقِيمَ ۝٦ صِرَٰطَ ٱلَّذِينَ أَنۡعَمۡتَ عَلَيۡهِمۡ غَيۡرِ ٱلۡمَغۡضُوبِ عَلَيۡهِمۡ وَلَا ٱلضَّآلِّينَ ۝٧﴾ [الفاتحة: ٦-٧].

وهذا دعاء ورغبة من المربوب إلى الرب، والمعنى: دلنا على الصراط المستقيم وأرشدنا إليه، وأرنا طريق هدايتك الموصلة إلى أنسك وقربك[(١)].

وقد بين الله تعالى حقيقة الصراط المستقيم في آيات عديدة من كتابه، فقال في سورة الأنعام: ﴿وَهَٰذَا صِرَٰطُ رَبِّكَ مُسۡتَقِيمٗاۗ قَدۡ فَصَّلۡنَا ٱلۡأٓيَٰتِ لِقَوۡمٖ يَذَّكَّرُونَ ۝١٢٦﴾ [الأنعام: ١٢٦].

أي: هذا الذي بينا طريق ربك، والذي ارتضاه لنفسه دينا وجعله مستقيما لا عوج فيه، وهو الإسلام[(٢)].

قال ابن الجوزي: ﴿وَهَٰذَا صِرَٰطُ رَبِّكَ﴾ فيه ثلاثة أقوال:

أحدها: أنه القرآن، قاله ابن مسعود.

والثاني: التوحيد، قاله ابن عباس.

والثالث: ما هو عليه من الدين، قاله عطاء[(٣)].

وقال ابن عاشور: والإشارة بهذا إلى حاضر في الذهن وهو دين الإسلام، ويجوز أن تكون الإشارة إلى حاضر في الحس وهو القرآن[(٤)].

وقال تعالى: ﴿وَأَنَّ هَٰذَا صِرَٰطِي مُسۡتَقِيمٗا فَٱتَّبِعُوهُۖ وَلَا تَتَّبِعُواْ ٱلسُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمۡ عَن سَبِيلِهِۦۚ ذَٰلِكُمۡ وَصَّىٰكُم بِهِۦ لَعَلَّكُمۡ تَتَّقُونَ ۝١٥٣﴾ [الأنعام: ١٥٣].

فيه قولان:

أحدهما: القرآن.

والثاني: الشرع وسمي ذلك صراطًا[(٥)].

وقال ابن عاشور: «والإشارة إلى الإسلام: أي: وأن الإسلام صراطي، فالإشارة إلى حاضر في أذهان المخاطبين من أثر تكرر نزول القرآن وسماع أقوال الرسول عليه الصلاة والسلام، بحيث عرفه الناس وتبينوه، فنزل منزلة المشاهد، فاستعمل فيه اسم الإشارة الموضوع لتعيين ذات بطريق المشاهدة مع الإشارة، ويجوز أن تكون الإشارة إلى جميع التشريعات

---

(١) الجامع لأحكام القرآن، القرطبي ١/ ١٤٧.
(٢) الكشف والبيان، الثعلبي ٤/ ١٨٩.
(٣) زاد المسير ٢/ ٧٦.
(٤) التحرير والتنوير ٨/ ٦٢.
(٥) النكت والعيون، الماوردي ٢/ ١٨٨.

والمواعظ التي تقدمت في هذه السورة، لأنها صارت كالشيء الحاضر المشاهد»[(١)].

وبين النبي صلى الله عليه وسلم حقيقة الصراط المستقيم في حديث عبد الله بن مسعود رضي الله عنه قال: (خط رسول الله صلى الله عليه وسلم، خطا بيده، ثم قال: (هذا سبيل الله مستقيما)، قال: ثم خط عن يمينه، وشماله، ثم قال: (هذه السبل، ليس منها سبيل إلا عليه شيطان يدعو إليه) ثم قرأ: ﴿وَأَنَّ هَٰذَا صِرَٰطِي مُسْتَقِيمًا فَٱتَّبِعُوهُ وَلَا تَتَّبِعُوا۟ ٱلسُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَن سَبِيلِهِۦ﴾ [الأنعام: ١٥٣][(٢)].

فوحد لفظ الصراط، وجمع السبل المخالفة له، وهذا لأن الطريق الموصل إلى الله واحد، وهو ما بعث به رسله وأنزل به كتبه، لا يصل إليه أحد إلا من هذه الطريق، ولو أتى الناس من كل طريق، واستفتحوا من كل باب، فالطرق عليهم مسدودة، والأبواب عليهم مغلقة إلا من هذا الطريق الواحد، فإنه متصل بالله، موصل إلى الله[(٣)].

وقال تعالى: ﴿قُلْ إِنَّنِي هَدَىٰنِي رَبِّيٓ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ دِينًا قِيَمًا مِّلَّةَ إِبْرَٰهِيمَ حَنِيفًا ۚ وَمَا كَانَ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿١٦١﴾﴾ [الأنعام: ١٦١].

قال ابن عاشور: قوله: ﴿إِنَّنِي هَدَىٰنِي رَبِّيٓ﴾ متصل بقوله: ﴿وَأَنَّ هَٰذَا صِرَٰطِي مُسْتَقِيمًا فَٱتَّبِعُوهُ﴾ [الأنعام: ١٥٣].

الذي بينه بقوله: ﴿وَهَٰذَا كِتَٰبٌ أَنزَلْنَٰهُ مُبَارَكٌ﴾ [الأنعام: ٩٢].

فزاده بيانًا بقوله هذا: ﴿قُلْ إِنَّنِي هَدَىٰنِي رَبِّيٓ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾، ليبين أن هذا الدين إنما جاء به الرسول صلى الله عليه وسلم بهدي من الله، وأنه جعله دينا قيما على قواعد ملة إبراهيم عليه السلام، إلا أنه زائد عليه بما تضمنه من نعمة الله عليه؛ إذ هداه إلى ذلك الصراط الذي هو سبيل النجاة. وافتتح الخبر بحرف التأكيد؛ لأن الخطاب للمشركين المكذبين[(٤)].

وقال تعالى: ﴿الٓر ۚ كِتَٰبٌ أَنزَلْنَٰهُ إِلَيْكَ لِتُخْرِجَ ٱلنَّاسَ مِنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ بِإِذْنِ رَبِّهِمْ إِلَىٰ صِرَٰطِ ٱلْعَزِيزِ ٱلْحَمِيدِ ﴿١﴾﴾ [إبراهيم: ١].

فكشفت هذه الآية عن حقيقة الكتاب الذي دلت الآيات السابقة على أنه صراط الله المستقيم وخاصيته في إخراج الناس من الظلمات إلى النور، بتوفيق الله وهدايته حيث الانطلاق إلى رحاب المعية الإلهية بكل ما فيها من عزة وكرامة وحمد وثناء وشكر وولاء.

---

(١) التحرير والتنوير ٨/ ١٧٢.

(٢) أخرجه أحمد في مسنده، ٧/ ٤٣٦، رقم ٤٤٣٧.

وصححه الألباني في التعليقات الحسان على صحيح ابن حبان رقم ٦.

(٣) مدارج السالكين، ابن القيم ١/ ٣٧-٣٨.

(٤) التحرير والتنوير ٨/ ١٩٧-١٩٨.

وقد أخرج صلى الله عليه وسلم أمته من ظلمات عديدة إلى أنوار متعددة: أولها: ظلمة الكفر والشرك إلى نور الإيمان والإسلام، ثم من ظلمة الجهل والتقليد إلى نور العلم والتحقيق، ثم من ظلمة الذنوب والمعاصي إلى نور التوبة والاستقامة، ثم من ظلمة الغفلة والبطالة إلى نور اليقظة والمجاهدة، ثم من ظلمة الحظوظ والشهوات إلى نور الزهد والعفة، ثم من ظلمة رؤية الأسباب، والوقوف مع العوائد، إلى نور شهود المسبب، وخرق العوائد، ثم من ظلمة الوقوف مع الكرامات وحلاوة الطاعات إلى نور شهود المعبود، ثم من ظلمة الوقوف مع حس الأكوان الظاهرة إلى شهود أسرار المعاني الباطنة، فيغيب عن الأكوان بشهود المكون[1].

وقال تعالى: ﴿قَالَ هَٰذَا صِرَٰطٌ عَلَيَّ مُسْتَقِيمٌ ۝ إِنَّ عِبَادِي لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَٰنٌ إِلَّا مَنِ ٱتَّبَعَكَ مِنَ ٱلْغَاوِينَ ۝﴾ [الحجر: ٤١-٤٢].

أي: هذا الطريق الذي سلكه أهل الإخلاص في عبوديتهم هو طريق وارد علي، وموصل إلى جواري، لا سبيل لك على أهله؛ لأنه مستقيم لا عوج فيه[2].

وقال تعالى: ﴿فَٱسْتَمْسِكْ بِٱلَّذِىٓ أُوحِىَ إِلَيْكَ إِنَّكَ عَلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ۝﴾ [الزخرف: ٤٣]

والمعنى: فتمسك يا محمد بما يأمرك به هذا القرآن الذي أوحاه إليك ربك، ﴿إِنَّكَ عَلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾ ومنهاج سديد، وذلك هو دين الله الذي أمر به، وهو الإسلام[3].

وقد لخص الماوردي رحمه الله أقوال المفسرين في المراد بالصراط المستقيم في أربعة أقاويل:

أحدها: أنه كتاب الله تعالى، وهو قول علي وعبد الله، ويروى نحوه عن النبي صلى الله عليه وسلم.

والثاني: أنه الإسلام، وهو قول جابر بن عبد الله، ومحمد بن الحنفية.

والثالث: أنه الطريق الهادي إلى دين الله تعالى، الذي لا عوج فيه، وهو قول ابن عباس.

والرابع: هو رسول الله صلى الله عليه وسلم وأخيار أهل بيته وأصحابه، وهو قول الحسن البصري وأبي العالية الرياحي[4].

والمتأمل في الأقوال المتعددة التي أوردها المفسرون للصراط المستقيم يجد: أن اختلافهم في تعريف الصراط اختلاف تنوع لا اختلاف تضاد، فتفسير بعض أهل العلم للصراط المستقيم بالقرآن والبعض الآخر بالإسلام قولان متفقان؛ لأن دين

---

(١) البحر المديد، ابن عجيبة ٣/ ٤٢.
(٢) المصدر السابق ٣/ ٨٩.
(٣) جامع البيان، الطبري ٢١/ ٦١٠.
(٤) النكت والعيون، الماوردي ١/ ٥٩.

الإسلام هو اتباع القرآن، حيث نبه أحدهما على وصف غير الوصف الآخر.

وبعد أن نقل الإمام ابن كثير رحمه الله قول الإمام الطبري: «أجمعت الأمة من أهل التأويل جميعًا على أن الصراط المستقيم، هو الطريق الواضح الذي لا اعوجاج فيه»[1].

قال: ثم اختلفت عبارات المفسرين من السلف والخلف في تفسير الصراط، وإن كان يرجع حاصلها إلى شيء واحد، وهو المتابعة لله وللرسول[2].

وقال رحمه الله: وقيل: هو الإسلام ونسبه إلى ابن عباس وابن مسعود رضي الله عنهم، ثم أورد عن مجاهد تفسيره للصراط بأنه الحق، ثم قال: وهذا أشمل ولا منافاة بينه وبين ما تقدم، ونسب إلى أبي العالية تفسيره للصراط المستقيم بأنه النبي صلى الله عليه وسلم وصاحبه من بعده، وأنه ذكر ذلك للحسن فقال: صدق أبو العالية ونصح.

ثم عقب على هذا الذي أورده من الأقوال بقوله: وكل هذه الأقوال صحيحة، وهي متلازمة، فإن من اتبع النبي صلى الله عليه وسلم، واقتدى باللذين من بعده أبي بكر وعمر، فقد اتبع الحق، ومن اتبع الحق فقد اتبع الإسلام، ومن اتبع الإسلام فقد اتبع القرآن، وهو كتاب الله وحبله المتين، وصراطه المستقيم، فكلها صحيحة يصدق بعضها بعضا، ولله الحمد.

ثم يتبع ابن كثير ذلك برأي الإمام الطبري رحمه الله الذي رجح فيه من الأقوال بأنه التوفيق للثبات على ما ارتضاه الله ووفق له من أنعم عليهم من النبيين والصديقين والشهداء والصالحين مع بيانه لوجه كونه جامعا لغيره حيث قال: فقد وفق للإسلام[3].

وتابع الإمام القرطبي ابن جرير في الترجيح بالمراد بالصراط المستقيم، بأنه صراط النبيين والصديقين والشهداء والصالحين ونسبه إلى جمهور المفسرين وعقب عليه بقوله: «وجميع ما قيل إلى هذا يرجع، فلا معنى لتعديد الأقوال والله المستعان»[4].

وقال ابن عاشور: «المراد بالصراط المستقيم المعارف الصالحات كلها من اعتقاد وعمل بأن يوفقهم إلى الحق والتميز بينه وبين الضلال على مقادير استعداد النفوس وسعة مجال العقول النيرة والأفعال الصالحة، بحيث لا يعتريهم زيغ وشبهات في دينهم وهذا أولى ليكون الدعاء طلب تحصيل ما ليس بحاصل وقت الطلب، وإن المرء بحاجة إلى هذه الهداية في جميع

(١) جامع البيان، الطبري ١/ ١٧٠.
(٢) تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ١/ ١٣٧.
(٣) تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ١/ ١٣٩.
وانظر: جامع البيان، الطبري ١/ ١٧١.
(٤) الجامع لأحكام القرآن، القرطبي ١/ ١٤٩.

شؤونه كلها حتى في الدوام على ما هو متلبس به من الخير للوقاية من التقصير فيه أو الزيغ عنه. والهداية إلى الإسلام لا تقصر على ابتداء اتباعه وتقلده بل هي مستمرة باستمرار تشريعاته وأحكامه بالنص أو الاستنباط»[(١)].

وقال ابن القيم: فإن الناس قد تنوعت عباراتهم فيه وترجمتهم عنه بحسب صفاته ومتعلقاته وحقيقته شيء واحد، وهو طريق الله الذي نصه لعباده على ألسن رسله وجعله موصلا لعباده إليه، ولا طريق لهم إليه سواه، بل الطرق كلها مسدودة إلا هذا، وهو إفراده بالعبودية وإفراد رسوله بالطاعة، فلا يشرك به أحدا في عبوديته، ولا يشرك برسوله أحدًا في طاعته، فيجرد التوحيد، ويجرد متابعة الرسول.

وهذا معنى قول بعض العارفين: «إن السعادة والفلاح كله مجموع في شيئين: صدق محبته، وحسن معاملته».

وهذا كله مضمون شهادة أن لا إله إلا الله، وأن محمدًا رسول الله، فأي شيء فسر به الصراط فهو داخل في هذين الأصلين.

ونكتة ذلك وعقده: أن تحبه بقلبك كله، وترضيه بجهدك كله، فلا يكون في قلبك موضع إلا معمور بحبه، ولا تكون لك إرادة إلا متعلقة بمرضاته. الأول يحصل بالتحقيق بشهادة أن لا إله إلا الله، والثاني يحصل بالتحقيق بشهادة أن محمدًا رسول الله، وهذا هو الهادي، ودين الحق وهو معرفة الحق والعمل له، وهو معرفة ما بعث الله به رسله والقيام به، فقل ما شئت من العبارات التي هذا أحسنها وقطب رحاها[(٢)].

فتبين مما سبق: أن الصراط المستقيم هو عبادة الله تعالى وحده لا شريك له، وعبادته تتضمن كمال الحب مع كمال الذل له سبحانه، فكل ما تتقرب به، وكل فعل يفعله العبد يرجو به ثوابا، وكل ترك يتركه يخاف من تركه عقابا، فإن هذا داخل في معنى الصراط المستقيم.

---

(١) التحرير والتنوير ١/ ١٩١.

(٢) بدائع الفوائد ٢/ ٤٠.

الصراط في المثل القرآني

جعل الله تعالى فهم أمثال القرآن الكريم واستيعابها والإحاطة بأسرارها منوطا بأهل العلم، فقال: ﴿وَتِلْكَ الْأَمْثَالُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ وَمَا يَعْقِلُهَا إِلَّا الْعَالِمُونَ ﴿٤٣﴾﴾ [العنكبوت: ٤٣].

وخير الدروس ما ضرب له الأمثال وبينت بها الحكم وقرب إلى الناس بما يقع تحت حسهم، وما يكون في متناول عقولهم. والتمثيل ألطف ذريعةٍ إلى تسخير الوهم للعقل واستنزاله من مقام الاستعصاء عليه، وأقوى وسيلةٍ إلى تفهيم الجاهل الغبي وقمع سورة الجامع الأبي، كيف لا وهو رفع الحجاب عن وجوه المعقولات الخفية، وإبرازٌ لها في معرض المحسوسات الجلية، وإبداءٌ للمنكر في صورة المعروف وإظهارٌ للوحشي في هيئة المألوف[(١)].

ومن هذه الأمثال التي ضربها الله تعالى في كتابه قوله تعالى: ﴿وَضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا رَجُلَيْنِ أَحَدُهُمَا أَبْكَمُ لَا يَقْدِرُ عَلَىٰ شَيْءٍ وَهُوَ كَلٌّ عَلَىٰ مَوْلَاهُ أَيْنَمَا يُوَجِّهْهُ لَا يَأْتِ بِخَيْرٍ هَلْ يَسْتَوِي هُوَ وَمَنْ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَهُوَ عَلَىٰ صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ ﴿٧٦﴾﴾ [النحل: ٧٦].

فهذا مثل ضربه الله سبحانه لنفسه ولما يعبدون من دونه، فالصنم الذي يعبدون من دونه بمنزلة رجل أبكم لا يعقل ولا ينطق، بل هو أبكم القلب واللسان قد عدم النطق القلبي واللساني، ومع هذا فهو عاجز لا يقدر على شيء البتة، ومع هذا فأينما أرسلته لا يأتيك بخير ولا يقضي لك حاجة، والله سبحانه حي قادر متكلم يأمر بالعدل، وهو على صراط مستقيم وهذا وصف له بغاية الكمال والحمد، فإن أمره بالعدل وهو الحق يتضمن أنه سبحانه عالم به، معلم له راض به آمر لعباده به، محب لأهله لا يأمر بسواه، بل ينزه عن ضده الذي هو الجور والظلم والسفه والباطل، بل أمره وشرعه عدل كله وأهل العدل هم أولياؤه وأحباؤه[(٢)].

قال الطبري: وهذا مثل ضربه الله تعالى لنفسه والآلهة التي تعبد من دونه، فقال تعالى: ﴿وَضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا رَجُلَيْنِ أَحَدُهُمَا أَبْكَمُ لَا يَقْدِرُ عَلَىٰ شَيْءٍ﴾ يعني: بذلك الصنم أنه لا يسمع شيئا، ولا ينطق، لأنه إما خشب منحوت، وإما نحاس مصنوع لا يقدر على نفع لمن خدمه، ولا دفع ضر عنه وهو كلٌ على مولاه، يقول: وهو عيال على ابن عمه وحلفائه وأهل ولايته، فكذلك الصنم كل على من يعبده، يحتاج أن يحمله، ويضعه ويخدمه، كالأبكم من الناس الذي لا يقدر على شيء، فهو كَلٌّ على أوليائه من بني أعمامه وغيرهم ﴿أَيْنَمَا يُوَجِّهْهُ لَا يَأْتِ

(١) إرشاد العقل السليم، أبو السعود ١/ ٥٠.

(٢) الأمثال في القرآن ص ٢٢-٢٣.

﴿بِخَيْرٍ﴾ يقول: حيثما يوجهه لا يأت بخير؛ لأنه لا يفهم ما يقال له، ولا يقدر أن يعبر عن نفسه ما يريد، فهو لا يفهم، ولا يفهم عنه، فكذلك الصنم، لا يعقل ما يقال له، فيأتمر لأمر من أمره، ولا ينطق فيأمر وينهي.

يقول الله تعالى: ﴿هَلْ يَسْتَوِى هُوَ وَمَن يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ﴾، يعني: هل يستوي هذا الأبكم الكَلّ على مولاه الذي لا يأتي بخير حيث توجه ومن هو ناطق متكلم يأمر بالحق، ويدعو إليه وهو الله الواحد القهار، الذي يدعو عباده إلى توحيده وطاعته، يقول: لا يستوي هو تعالى ذكره، والصنم الذي صفته ما وصف.

وقوله: ﴿وَهُوَ عَلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾ أي: وهو مع أمره بالعدل، على طريق من الحق في دعائه إلى العدل، وأمره به مستقيم، لا يعوج عن الحق ولا يزول عنه[1].

ففي هذه الآية يصور الرجل الأبكم الضعيف البليد الذي لا يدري شيئا ولا يعود بخير. والرجل القوي المتكلم الآمر بالعدل، العامل المستقيم على طريق الخير ولا يسوي عاقل بين هذا وذاك. فكيف تمكن التسوية بين صنم أو حجر، وبين الله سبحانه وهو القادر العليم الآمر بالمعروف، الهادي إلى الصراط المستقيم؟[2].

(١) جامع البيان، الطبري ١٧/ ٢٦٢.
(٢) في ظلال القرآن ٤/ ٢١٨٤.

وهناك قول آخر: وهو أن هذا مثل للمؤمن والكافر، وهو مروي عن ابن عباس رضي الله عنهما[3].

فالمراد بالعبد المملوك الذي لا يقدر على شيء هو الكافر، فهو باعتبار حرمانه من عبودية الله وطاعته كالعبد الذليل الفقير العاجز. والمراد بقوله: ﴿وَمَن رَّزَقْنَٰهُ مِنَّا رِزْقًا حَسَنًا﴾ هو المؤمن، فإنه مشتغل بالتعظيم لأمر الله تعالى، والشفقة على خلق الله، فأبان تعالى أنهما لا يستويان في المرتبة والشرف والقرب من رضوان الله تعالى[4].

وعن ابن عباس في قوله عز وجل: ﴿ضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا عَبْدًا مَّمْلُوكًا﴾ قال: نزلت في رجل من قريش وعبده، وفي قوله: ﴿مَّثَلًا رَّجُلَيْنِ أَحَدُهُمَآ أَبْكَمُ لَا يَقْدِرُ عَلَىٰ شَىْءٍ﴾ إلى قوله: ﴿وَهُوَ عَلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾. قال: هو عثمان بن عفان، قال: والأبكم الذي أينما يوجهه لا يأتي بخير، ذاك مولى عثمان بن عفان كان عثمان ينفق عليه ويكفله ويكفيه المؤونة، وكان الآخر يكره الإسلام ويأباه، وينهاه عن الصدقة والمعروف فنزلت فيهما[5].

(٣) جامع البيان، الطبري ١٧/ ٢٦٣.
(٤) التفسير المنير، الزحيلي ١٤/ ١٨٩.
(٥) جامع البيان، الطبري ١٧/ ٢٦٤.
وانظر: أسباب النزول، الواحدي ص ٢٨٠، الصحيح المسند من أسباب النزول، الوادعي ص ١٢٤.

والراجح -والله أعلم- أن هذا المثل ضربه الله تعالى لنفسه والآلهة التي تعبد من دونه؛ لأن ما قبل هذه الآية وما بعدها إنما ورد في إثبات التوحيد، وفي الرد على القائلين بالشرك فحمل هذه الآية على هذا المعنى أولى(١).

وبذلك نرى أن هذه الآية قد ساقت مثلا لبيان الفرق الشاسع بين ذات الله تعالى الخلاق العليم، الرزاق الكريم، وبين تلك المعبودات الباطلة التي أشركها الضالون في العبادة مع الله عز وجل(٢).

وفي هذا المثل بيان لضلالة المشركين وبطلان عبادة الأصنام؛ لأن شأن الإله المعبود أن يكون مالكا قادرا على التصرف في الأشياء، وعلى نفع غيره ممن يعبدونه، وعلى الأمر بالخير والعدل، والتزام منهج الاستقامة والقسط في سيرته وسلوكه.

ومن الأمثلة القرآنية التي ورد فيها الصراط: قوله سبحانه: ﴿أَفَمَن يَمْشِي مُكِبًّا عَلَىٰ وَجْهِهِۦٓ أَهْدَىٰٓ أَمَّن يَمْشِي سَوِيًّا عَلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٢٢﴾﴾ [الملك: ٢٢].

وهذه استعارة تمثيلية وهو مثل للمؤمن والكافر، فالكافر أعمى لا يهتدي إلى الطريق بل يمشي متعسفًا فلا يزال يتعثر وينكب على وجهه، والمؤمن صحيح البصر يمشي في طريق واضحة مستقيمة سالما من العثور والخرور على وجهه. وهكذا تتجلى طريقة القرآن في التجسيد(٣).

ولعل الاكتفاء بما في الكب من الدلالة على حال المسلك للإشعار بأن ما عليه المشرك لا يستأهل أن يسمى طريقًا، كمشي المتعسف في مكان متعاد غير مستو(٤).

قال ابن كثير: وهذا مثل ضربه الله للمؤمن والكافر، فالكافر مثله فيما هو فيه كمثل من يمشي مكبا على وجهه، أي: يمشي منحنيا لا مستويا على وجهه، أي: لا يدري أين يسلك ولا كيف يذهب؟ بل تائه حائر ضال، أهذا أهدى ﴿أَمَّن يَمْشِي سَوِيًّا﴾، أي: منتصب القامة ﴿عَلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾ أي: على طريق واضح بين، وهو في نفسه مستقيم، وطريقه مستقيمة.

هذا مثلهم في الدنيا، وكذلك يكونون في الآخرة، فالمؤمن يحشر يمشي سويا على صراط مستقيم، مفض به إلى الجنة الفيحاء، وأما الكافر فإنه يحشر يمشي على وجهه إلى نار جهنم، ﴿۞ ٱحْشُرُوا۟ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ وَأَزْوَٰجَهُمْ وَمَا كَانُوا۟ يَعْبُدُونَ ﴿٢٢﴾ مِن دُونِ ٱللَّهِ فَٱهْدُوهُمْ إِلَىٰ صِرَٰطِ ٱلْجَحِيمِ ﴿٢٣﴾ وَقِفُوهُمْ ۖ إِنَّهُم مَّسْـُٔولُونَ ﴿٢٤﴾ مَا لَكُمْ لَا تَنَاصَرُونَ ﴿٢٥﴾ بَلْ هُمُ ٱلْيَوْمَ مُسْتَسْلِمُونَ ﴿٢٦﴾﴾

(١) مفاتيح الغيب، الرازي ٢٠/ ٢٤٧.
(٢) التفسير الوسيط، طنطاوي ٨/ ٢٠٢.
(٣) إعراب القرآن وبيانه، محيي الدين درويش ١٠/ ١٥٩.
(٤) أنوار التنزيل، البيضاوي ٥/ ٢٣١.

[الصافات: ٢٢-٢٦][1].

عن أنس بن مالك رضي الله عنه: أن رجلا قال: يا نبي الله يحشر الكافر على وجهه يوم القيامة؟ قال: (أليس الذي أمشاه على الرجلين في الدنيا قادرا على أن يمشيه على وجهه يوم القيامة)[2].

فهذا المكب على وجهه هو المشرك الذي يمشى على وجهه في النار يوم القيامة، والذي يمشى سويا هو الموحد الذي يحشر على قدميه إلى الجنة[3].

فأي الرجلين أهدى؟ من كان تائها في الضلال، غارقًا في الكفر قد انتكس قلبه، فصار الحق عنده باطلا والباطل حقًا؟ ومن كان عالمًا بالحق، مؤثرًا له، عاملا به، يمشي على الصراط المستقيم في أقواله وأعماله وجميع أحواله؟ فبمجرد النظر إلى حال هذين الرجلين، يعلم الفرق بينهما، والمهتدي من الضال منهما، والأحوال أكبر شاهد من الأقوال[4].

وبذلك نرى هذه الآيات الكريمة قد لفتت أنظار الناس إلى التفكر والاعتبار، ووبخت المشركين على جهالاتهم وطغيانهم، وساقت مثالا واضحا للمؤمن والكافر، ليهلك من هلك عن بينة ويحيى من حي عن بينة[5].

وهذا المثل غرضه إقامة الحجة وإقناع المخاطبين، وتربيتهم على التفكير السليم والمنطقي، وقد زودهم الله بعقل يتيح لهم ما لم يُتَحْ لغيرهم من الحيوانات والمخلوقات.

ولقد قرب النبي صلى الله عليه وسلم معنى الصراط المستقيم بضرب المثل، فعن النواس بن سمعان الأنصاري رضي الله عنه عن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: **(ضرب الله مثلًا صراطًا مستقيمًا، وعلى جنبتي الصراط سوران، فيهما أبواب مفتحة، وعلى الأبواب ستور مرخاة، وعلى باب الصراط داع يقول: أيها الناس، ادخلوا الصراط جميعا، ولا تتعرجوا، وداع يدعو من فوق الصراط، فإذا أراد يفتح شيئا من تلك الأبواب، قال: ويحك لا تفتحه، فإنك إن تفتحه تلجه، والصراط الإسلام، والسوران: حدود الله، والأبواب المفتحة: محارم الله، وذلك الداعي على رأس الصراط: كتاب الله، والداعي من فوق الصراط: واعظ الله في قلب كل مسلم)**[6].

(١) تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ٨/ ١٨١.
(٢) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب تفسير القرآن، سورة الفرقان، باب قوله: ﴿الذين يحشرون على وجوههم إلى جهنم أولئك شر مكانا وأضل سبيلا﴾، ٦/ ١٠٩، رقم ٤٧٦٠.
(٣) تفسير المراغي ٢٩/ ٢١.
(٤) تيسير الكريم الرحمن، السعدي ص ٨٧٧.
(٥) التفسير الوسيط، طنطاوي ١٥/ ٢٦
(٦) أخرجه أحمد في مسنده، ٢٩/ ١٨١، ١٧٦٣٤.
وصححه الألباني في صحيح الجامع،

فضرب النبي صلى الله عليه وسلم مثل الإسلام في هذا الحديث بصراط مستقيم، وهو الطريق السهل الواسع، الموصل سالكه إلى مطلوبه، وهو مع هذا مستقيم، لا عوج فيه، فيقتضي ذلك قربه وسهولته، وعلى جنبتي الصراط يمنة ويسرة سوران، وهما حدود الله، وكما أن السور يمنع من كان داخله من تعديه ومجاوزته، فكذلك الإسلام يمنع من دخله من الخروج عن حدوده ومجاوزتها، وليس وراء ما حد الله من المأذون فيه إلا ما نهى عنه[(١)].

وإنما ضرب المثل بذلك زيادة في التوضيح والتقريب، ليصير المعقول محسوسا، والمتخيل متحققا، فإن التمثيل إنما يصار إليه لكشف المعنى الممثل ورفع الحجاب عنه وإبرازه في صورة المشاهد، ليساعد فيه الوهم العقل، فإن المعنى الصرف إنما يدركه العقل مع منازعة الوهم؛ لأن طبعه الميل إلى الحس وحب المحاكاة، ولذلك شاعت الأمثال في الكتب الإلهية، وفشت في عبارات البلغاء، وإشارات الحكماء.

قال المناوي: سر هذا الحديث أنه أقام الصراط معنى للإسلام، وأقام الداعي معنى للكتاب والداعي الآخر معنى للعظة في قلب كل مؤمن، فأنت على الصراط الدائم، وهو الإسلام، وسامع النداء القائم وهو القرآن، فإن أنت أقمت حركاتك وسكناتك بمدبرك وخالقك بسقوط من سواه أقامك إليه به وقمت به إليه بسقوطك عنك، فحينئذ يكشف لك اسمه الأعظم الذي لا يخيب من قصده به[(٢)].

٢/ ٧٢١، رقم ٣٨٨٧.

(١) جامع العلوم والحكم، ابن رجب ٢/ ١٦١.

(٢) فيض القدير ٤/ ٢٥٤.

الهداية إلى الصراط المستقيم

أولًا: الداعون إلى الصراط المستقيم:

خلق الله الإنسان، وأسكنه في الأرض، ولم يتركه سدىً، بل أوجد له ما يحتاجه من طعام وشراب ولباس، وأنزل عليه في مختلف العصور منهجًا يسير على هديه، وصلاح البشرية وسعادتها في كل زمان ومكان، إنما يكون باتباع منهج الله وطرح ما سواه.

قال تعالى: ﴿وَأَنَّ هَٰذَا صِرَٰطِي مُسْتَقِيمًا فَٱتَّبِعُوهُ ۖ وَلَا تَتَّبِعُوا۟ ٱلسُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَن سَبِيلِهِۦ ۚ ذَٰلِكُمْ وَصَّىٰكُم بِهِۦ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴿١٥٣﴾﴾ [الأنعام: ١٥٣].

ولا يمكن أن يتحقق اتباع منهج الله إلا بالدعوة إليه، ولذلك فقد دعا الله إلى اتباع صراطه، فرسم حدود الصراط المستقيم وبين معالمه وتولى أمر الهداية إليه، بواسطة الذين اصطفاهم واجتباهم من الأنبياء والمرسلين وورثتهم من العلماء العاملين.

قال تعالى: ﴿وَٱللَّهُ يَدْعُوٓا۟ إِلَىٰ دَارِ ٱلسَّلَٰمِ وَيَهْدِى مَن يَشَآءُ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٢٥﴾﴾ [يونس: ٢٥].

يقول الطبري: يهدي من يشاء من خلقه فيوفقه لإصابة الطريق المستقيم، وهو الإسلام الذي جعله جل ثناؤه سببًا للوصول إلى رضاه، وطريقًا لمن ركبه وسلك فيه إلى جنانه وكرامته[١].

فدعاهم إلى دار السلام، وفي الحقيقة دعاهم إلى ما يوجب لهم الوصول إلى دار السلام وهو اعتناق أوامره والانتهاء عن زواجره[٢]، وعَمَّ سبحانه بالدعوة لإظهار الحجة، وخَصَّ بالهداية استغناء عن الخلق[٣].

والقرآن الكريم هو الداعي على رأس الصراط المستقيم، فعن النواس بن سمعان الأنصاري رضي الله عنه عن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: (**ضرب الله مثلا صراطا مستقيما، وعلى جنبتي الصراط سوران، فيهما أبواب مفتحة، وعلى الأبواب ستور مرخاة، وعلى باب الصراط داع يقول: أيها الناس، ادخلوا الصراط جميعا، ولا تتعرجوا، وداع يدعو من فوق الصراط، فإذا أراد يفتح شيئا من تلك الأبواب، قال: ويحك لا تفتحه، فإنك إن تفتحه تلجه، والصراط الإسلام، والسوران: حدود الله، والأبواب المفتحة: محارم الله،وذلك الداعي على رأس الصراط: كتاب الله،والداعي من فوق الصراط:واعظ الله في قلب كل مسلم**)[٤].

وأرسل الله تعالى أنبيائه ورسله عليهم الصلاة والسلام للدعوة إلى الصراط

(١) جامع البيان، الطبري ١٥/ ٥٩.
(٢) لطائف الإشارات، القشيري ٢/ ٩٠.
(٣) معالم التنزيل، البغوي ٢/ ٤١٧.
(٤) سبق تخريجه قريبًا.

المستقيم، والهداية إليه.

يقول الله تعالى عن دعوة نبيه محمد صلى الله عليه وسلم إلى الصراط المستقيم: ﴿وَإِنَّكَ لَتَدْعُوهُمْ إِلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٧٣﴾﴾ [المؤمنون: ٧٣].

أي: وإنك يا محمد لتدعو هؤلاء المشركين من قومك إلى دين الإسلام، وهو الطريق القاصد والصراط المستقيم الذي لا اعوجاج فيه[١].

وقال تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ رُوحًا مِّنْ أَمْرِنَا ۚ مَا كُنتَ تَدْرِي مَا الْكِتَابُ وَلَا الْإِيمَانُ وَلَٰكِن جَعَلْنَاهُ نُورًا نَّهْدِي بِهِ مَن نَّشَاءُ مِنْ عِبَادِنَا ۚ وَإِنَّكَ لَتَهْدِي إِلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٥٢﴾﴾ [الشورى: ٥٢].

وهذه الهداية يراد بها الدعوة والإرشاد إلى طريق الخير، والمعنى: وإنك لتهدي بذلك النور من تشاء هدايته إلى الحق القويم.

ثم فسر هذا الصراط بقوله: ﴿صِرَاطِ اللَّهِ الَّذِي لَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ﴾ [الشورى: ٥٣].

أي: هذا الطريق هو الطريق الذي شرعه الله مالك السموات والأرض والمتصرف فيهما، والحاكم الذي لا معقب لحكمه[٢].

وقال تعالى: ﴿وَإِنَّهُ لَعِلْمٌ لِّلسَّاعَةِ فَلَا تَمْتَرُنَّ بِهَا وَاتَّبِعُونِ ۚ هَٰذَا صِرَاطٌ مُّسْتَقِيمٌ ﴿٦١﴾﴾ [الزخرف: ٦١].

أي: وإن القرآن ليعلمكم بقيام الساعة، ويخبركم عنها وعن أهوالها، فلا تشكن فيها واتبعوا هداي، فهذا الذي أدعوكم إليه هو الصراط المستقيم الذي لا عوج فيه وهو الموصل إلى الحق[٣].

وأخبر الله تعالى عن طريقة إبراهيم عليه الصلاة والسلام في دعوته لأبيه إلى الصراط السوي، فقال: ﴿يَا أَبَتِ إِنِّي قَدْ جَاءَنِي مِنَ الْعِلْمِ مَا لَمْ يَأْتِكَ فَاتَّبِعْنِي أَهْدِكَ صِرَاطًا سَوِيًّا ﴿٤٣﴾﴾ [مريم: ٤٣].

يقول تعالى ذكره: قال إبراهيم لأبيه: يا أبت إني قد آتاني الله من العلم ما لم يؤتك فاتبعني: يقول: فاقبل مني نصيحتي ﴿أَهْدِكَ صِرَاطًا سَوِيًّا﴾ يقول: أبصرك هدى الطريق المستوي الذي لا تضل فيه إن لزمته، وهو دين الله الذي لا اعوجاج فيه[٤].

فأمره باتباعه لما ترجح عليه جانبه في كون الحق معه، وإن كان أكبر منه سنا، وبين أن الخلاص في اتباع أهل الحق، وأن الهلاك في الابتداع والتطوح في مغاليط الطرق[٥].

ولم يسم إبراهيم عليه السلام أباه بالجهل المفرط ولا نفسه بالعلم الفائق، بل جعل نفسه كرفيق له في مسير يكون أعرف

(١) جامع البيان، الطبري ١٩/ ٥٩.
(٢) تفسير المراغي ٢٥/ ٦٥.
(٣) المصدر السابق ٢٥/ ١٠٤.
(٤) جامع البيان، الطبري ١٨/ ٢٠٣-٢٠٤.
(٥) لطائف الإشارات، القشيري ٢/ ٤٣١.

بالطريق، ثم ثبطه عما كان عليه بأنه مع خلوه عن النفع مستلزم للضر[1].

وهذا داوود عليه السلام كان مرشدًا لأتباعه إلى الطريق الصحيح، قال تعالى عن وصف قومه له: ﴿إِذْ دَخَلُوا عَلَىٰ دَاوُودَ فَفَزِعَ مِنْهُمْ قَالُوا لَا تَخَفْ خَصْمَانِ بَغَىٰ بَعْضُنَا عَلَىٰ بَعْضٍ فَاحْكُمْ بَيْنَنَا بِالْحَقِّ وَلَا تُشْطِطْ وَاهْدِنَا إِلَىٰ سَوَاءِ الصِّرَاطِ ۝٢٢﴾ [ص: ٢٢].

أي: اهدنا إلى وسط طريق الحق بزجر الباغي عما سلكه من طريق الجور وإرشاده إلى منهاج العدل[2].

والمقصود من هذا: أن الخصمين قد عرف أن قصدهما الحق الواضح الصرف، وإذا كان ذلك، فسيقصان عليه نبأهما بالحق، فلم يشمئز نبي الله داود من وعظهما له، ولم يؤنبهما[3].

والمتأمل في آيات الهداية إلى الصراط المستقيم يجد أن فعل الهداية قد يعدى بنفسه، نحو قوله تعالى: ﴿فَاتَّبِعْنِي أَهْدِكَ صِرَاطًا سَوِيًّا﴾ [مريم: ٤٣].

وقوله: ﴿وَيَهْدِيَكَ صِرَاطًا مُسْتَقِيمًا﴾ [الفتح: ٢].

وقد يُعَدى بإلى كقوله: ﴿وَإِنَّكَ لَتَهْدِي إِلَىٰ صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾ [الشورى: ٥٢].

وقد يُعَدى باللام كقوله: ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي هَدَانَا لِهَٰذَا﴾ [الأعراف: ٤٣].

والفرق بين التعدية بالحرف والتعدية من دون حرف: أن التعدية بالحرف تقال إذا لم يكن فيه ذلك فيصل بالهداية إليه، وإن التعدية من دون حرف تقال لمن يكون فيه ولمن لا يكون فيه، فتقول: هديته إلى الطريق وهديته للطريق لمن لا يكون في الطريق فتوصله إليه، وتقول: «هديته الطريق» لمن كان فيه فتبصره به وتبينه له، وتقوله أيضًا لمن لا يكون فيه فتوصله إليه.

قال إبراهيم عليه السلام لأبيه: ﴿فَاتَّبِعْنِي أَهْدِكَ صِرَاطًا سَوِيًّا﴾ [مريم: ٤٣].

وأبوه ليس في الصراط، بل هو بعيد عنه.

وقال تعالى في المنافقين: ﴿وَلَوْ أَنَّا كَتَبْنَا عَلَيْهِمْ أَنِ اقْتُلُوا أَنْفُسَكُمْ أَوِ اخْرُجُوا مِنْ دِيَارِكُمْ مَا فَعَلُوهُ إِلَّا قَلِيلٌ مِنْهُمْ وَلَوْ أَنَّهُمْ فَعَلُوا مَا يُوعَظُونَ بِهِ لَكَانَ خَيْرًا لَهُمْ وَأَشَدَّ تَثْبِيتًا ۝٦٦ وَإِذًا لَآتَيْنَاهُمْ مِنْ لَدُنَّا أَجْرًا عَظِيمًا ۝٦٧ وَلَهَدَيْنَاهُمْ صِرَاطًا مُسْتَقِيمًا ۝٦٨﴾ [النساء: ٦٦-٦٨].

والمنافقون ليسوا على الصراط.

وقال على لسان رسل الله: ﴿وَمَا لَنَا أَلَّا نَتَوَكَّلَ عَلَى اللَّهِ وَقَدْ هَدَانَا سُبُلَنَا﴾ [إبراهيم: ١٢]. وهم في الصراط.

وقال مخاطبًا رسوله محمدًا صلى الله عليه وسلم: ﴿وَيُتِمَّ نِعْمَتَهُ عَلَيْكَ وَيَهْدِيَكَ صِرَاطًا مُسْتَقِيمًا﴾ [الفتح: ٢]. وهو سالك للصراط.

فتعدية الفعل بنفسه تقال لمن كان فيه أي

(١) أنوار التنزيل، البيضاوي ٤/ ١٢.
(٢) إرشاد العقل السليم، أبو السعود ٧/ ٢٢٠.
(٣) تيسير الكريم الرحمن، السعدي ص ٧١١.

في الصراط ولمن لم يكن فيه.

أما التعدية باللام وإلى فتكون لمن لم يكن فيه، وذلك نحو قوله تعالى على لسان الخصمين اللذين جاءا داود، عليه السلام، ليحكم بينهما: ﴿فَٱحْكُم بَيْنَنَا بِٱلْحَقِّ وَلَا تُشْطِطْ وَٱهْدِنَآ إِلَىٰ سَوَآءِ ٱلصِّرَٰطِ﴾ [ص: ٢٢].

وقوله: ﴿قُلْ هَلْ مِن شُرَكَآئِكُم مَّن يَهْدِىٓ إِلَى ٱلْحَقِّ﴾ [يونس: ٣٥]. أي: يوصل إليه[1].

ومن خلال ما تقدم تبين أهمية الدعوة إلى الصراط المستقيم، فقد تولاها الله تعالى بنفسه، فهو الذي يدعو عباده إلى طاعته وتقواه التي هي طريق الجنة، وينهاهم عن معصيته ومخالفة أمره التي هي طريق النار والعذاب، كما قال سبحانه وتعالى: ﴿وَٱللَّهُ يَدْعُوٓا۟ إِلَىٰ دَارِ ٱلسَّلَٰمِ وَيَهْدِى مَن يَشَآءُ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٢٥﴾﴾ [يونس: ٢٥].

ولذلك أرسل سبحانه وتعالى الرسل وأنزل الكتب التي فيها الأوامر الصريحة بتوحيده وتقواه وطاعته، كما أنه سبحانه وتعالى نصب الأدلة والبراهين من مخلوقاته وآياته على أنه الرب الخالق المدبر المتصرف في هذا الكون، والإله الحق الذي يجب أن تصرف جميع أنواع العبادة له سبحانه دون ما سواه. ودعا إلى الصراط المستقيم الأنبياء والمرسلون الذين هم خيار الخلق وأشرف العباد، فإن الله تعالى اصطفى من عباده خيارهم ليكلفهم بالدعوة إلى صراطه المستقيم وتبليغ دينه كما قال عز وجل: ﴿وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِى كُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولًا أَنِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ وَٱجْتَنِبُوا۟ ٱلطَّٰغُوتَ﴾ [النحل: ٣٦].

وقال جل وعلا: ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رَّسُولٍ إِلَّا نُوحِىٓ إِلَيْهِ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنَا۠ فَٱعْبُدُونِ ﴿٢٥﴾﴾ [الأنبياء: ٢٥].

وقوله سبحانه: ﴿رُّسُلًا مُّبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى ٱللَّهِ حُجَّةٌۢ بَعْدَ ٱلرُّسُلِ وَكَانَ ٱللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا ﴿١٦٥﴾﴾ [النساء: ١٦٥].

وقوله سبحانه: ﴿ٱللَّهُ أَعْلَمُ حَيْثُ يَجْعَلُ رِسَالَتَهُۥ﴾ [الأنعام: ١٢٤].

فهي وظيفة هؤلاء الأخيار الأطهار المصطفين من عباد الله، ويأتي في مقدمتهم فضلا ومكانة نبينا محمد صلى الله عليه وسلم.

ثانيًا: صفات المهتدين:

إن الهداية صفةٌ سامية، وعزة شامخة، ومنقبة عظيمه، وسعادة أبدية، لا ينالها إلا الشرفاء، ولا يوصف بها إلا الأتقياء، ولا يسعى إلى تحقيقها إلا الموحدون، ولا ينالها إلا الموفقون، ولا يحافظ عليها إلا الصابرون، ولا يخسرها إلا المحرومون،

(١) لمسات بيانية، فاضل السامرائي ص ٤٨-٤٩.

ولا يحجب عنها إلا المبعدون، وصفهم الله تعالى بصفات عديدة في كتابه الكريم، ومن أبرز هذه الصفات، ما يلي:

١ . التمسك بالكتاب والسنة.

من صفات المهتدين على صراط الله المستقيم: اعتصامهم بالله تعالى وبكتابه، وتمسكهم به، قال الله تعالى: ﴿وَكَيْفَ تَكْفُرُونَ وَأَنتُمْ تُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ آيَاتُ اللَّهِ وَفِيكُمْ رَسُولُهُ ۗ وَمَن يَعْتَصِم بِاللَّهِ فَقَدْ هُدِيَ إِلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿١٠١﴾﴾ [آل عمران: ١٠١].

أي: ومن يستمسك بدين الله وكتابه ورسوله، فقد حصل له الهدى إلى الصراط المستقيم لا محالة، كما تقول إذا جئت فلانا فقد أفلحت، إذ هو حينئذ لا تخفى عليه المهالك، ولا تروج لديه الشبهات[١].

فالاعتصام بالله والتوكل عليه هو العمدة في الهداية، والعدة في مباعدة الغواية، والوسيلة إلى الرشاد، وطريق السداد، وحصول المراد[٢].

وفي هذا إشارة إلى أن التمسك بدين الله وبكتابه كفيل بأن يبعد المسلمين الذين لم يشاهدوا الرسول صلى الله عليه وسلم عما يبيته لهم أعداؤهم من مكر وخداع[٣].

وقال تعالى: ﴿فَأَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَاعْتَصَمُوا بِهِ فَسَيُدْخِلُهُمْ فِي رَحْمَةٍ مِّنْهُ وَفَضْلٍ وَيَهْدِيهِمْ إِلَيْهِ صِرَاطًا مُّسْتَقِيمًا ﴿١٧٥﴾﴾ [النساء: ١٧٥].

أي: طريقًا واضحًا قَصْدًا قوامًا لا اعوجاج فيه ولا انحراف، وهذه صفة المؤمنين في الدنيا والآخرة، فهم في الدنيا على منهاج الاستقامة وطريق السلامة في جميع الاعتقادات والعمليات، وفي الآخرة على صراط الله المستقيم المفضي إلى روضات الجنات[٤].

وهذا الصراط المستقيم لا يهدى إليه إلا الاعتصام بالقرآن الكريم واتباع سنة سيد المرسلين، والمراد أنه يوفقهم ويثبتهم على تلك الهداية إلى الصراط المستقيم[٥].

فالآية واضحة الدلالة على أن خصوصية الهداية إلى الصراط المستقيم يبلغ بها درجة الصالحين ومنازل المقربين لمن توفر فيه شرط الإيمان بالله والاعتصام به.

وقال تعالى: ﴿يَا أَهْلَ الْكِتَابِ قَدْ جَاءَكُمْ رَسُولُنَا يُبَيِّنُ لَكُمْ كَثِيرًا مِّمَّا كُنتُمْ تُخْفُونَ مِنَ الْكِتَابِ وَيَعْفُو عَن كَثِيرٍ ۚ قَدْ جَاءَكُم مِّنَ اللَّهِ نُورٌ وَكِتَابٌ مُّبِينٌ ﴿١٥﴾ يَهْدِي بِهِ اللَّهُ مَنِ اتَّبَعَ رِضْوَانَهُ سُبُلَ السَّلَامِ وَيُخْرِجُهُم

(١) تفسير المراغي ٤/ ١٦.
(٢) تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ٢/ ٨٦.
(٣) التفسير الوسيط، طنطاوي ٢/ ١٩٧.
(٤) تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ٢/ ٤٨١.
(٥) تفسير المراغي ٦/ ٣٧.

﴿مِّنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ بِإِذۡنِهِۦ وَيَهۡدِيهِمۡ إِلَىٰ صِرَٰطٖ مُّسۡتَقِيمٖ ١٦﴾ [المائدة: ١٥-١٦].

أي: ينجيهم من المهالك، ويوضح لهم أبين المسالك فيصرف عنهم المحذور، ويحصل لهم أنجب الأمور، وينفي عنهم الضلالة، ويرشدهم إلى أقوم حالة[1].

فبينت هذه الآية أن الهداية التي خص الله بها أحبابه إنما جاءت نتيجة لاتباعهم سبل مراضاته بالإيمان به ورسوله وبما أنزل عليه من كلامه والعمل بما فيه، ولم تأت الهداية التي خص الله بها المهتدين إلا ثمرة من ثمار ما قدموا من شروط الأهلية لذلك.

٢. شكر النعم.

من صفات أهل الهداية: شكرهم للنعم التي يمن الله تعالى بها عليهم، قال الله تعالى عن إبراهيم عليه السلام: ﴿إِنَّ إِبۡرَٰهِيمَ كَانَ أُمَّةٗ قَانِتٗا لِّلَّهِ حَنِيفٗا وَلَمۡ يَكُ مِنَ ٱلۡمُشۡرِكِينَ ١٢٠ شَاكِرٗا لِّأَنۡعُمِهِۚ ٱجۡتَبَىٰهُ وَهَدَىٰهُ إِلَىٰ صِرَٰطٖ مُّسۡتَقِيمٖ ١٢١﴾ [النحل: ١٢٠-١٢١].

يخبر تعالى عما فضل به خليله إبراهيم عليه الصلاة والسلام، وخصه به من الفضائل العالية والمناقب الكاملة فقال: ﴿إِنَّ إِبۡرَٰهِيمَ كَانَ أُمَّةٗ﴾ أي: إمامًا جامعًا لخصال الخير هاديًا مهتديًا.

﴿قَانِتٗا لِّلَّهِ﴾ أي: مديمًا لطاعة ربه، مخلصًا له الدين.

﴿حَنِيفٗا﴾ مقبلًا على الله بالمحبة، والإنابة والعبودية معرضا عمن سواه.

﴿وَلَمۡ يَكُ مِنَ ٱلۡمُشۡرِكِينَ﴾ في قوله وعمله، وجميع أحواله لأنه إمام الموحدين الحنفاء.

﴿شَاكِرٗا لِّأَنۡعُمِهِۚ﴾ أي: آتاه الله في الدنيا حسنة، وأنعم عليه بنعم ظاهرة وباطنة، فقام بشكرها.

فكان نتيجة هذه الخصال الفاضلة أن ﴿ٱجۡتَبَىٰهُ﴾ ربه واختصه بخلته وجعله من صفوة خلقه، وخيار عباده المقربين.

﴿وَهَدَىٰهُ إِلَىٰ صِرَٰطٖ مُّسۡتَقِيمٖ﴾ في علمه وعمله فعلم بالحق وآثره على غيره[2].

فعلم أن الإيمان بالله والشكر لنعمه وطاعة العبد لربع وعبادته من أعظم المؤهلات لاصطفائه بهذه الهداية الخاصة.

٣. الإخبات لله سبحانه.

من صفات المهتدين على الصراط المستقيم عدم الاعتراض لأمر الله تعالى والانقياد لحكمه والإذعان لشرعه.

قال الله تعالى: ﴿وَلِيَعۡلَمَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلۡعِلۡمَ أَنَّهُ ٱلۡحَقُّ مِن رَّبِّكَ فَيُؤۡمِنُواْ بِهِۦ فَتُخۡبِتَ لَهُۥ قُلُوبُهُمۡۗ وَإِنَّ ٱللَّهَ لَهَادِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِلَىٰ صِرَٰطٖ مُّسۡتَقِيمٖ ٥٤﴾ [الحج: ٥٤].

فقوله: ﴿فَيُؤۡمِنُواْ بِهِۦ﴾ أي: يصدقوه

(١) تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ٣/ ٦٨.

(٢) تيسير الكريم الرحمن، السعدي ص ٤٥١.

وينقادوا له، ﴿فَتُخْبِتَ لَهُۥ قُلُوبُهُمْ﴾ أي: تخضع وتذل، ﴿وَإِنَّ ٱللَّهَ لَهَادِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾ أي: في الدنيا والآخرة، أما في الدنيا فيرشدهم إلى الحق واتباعه، ويوفقهم لمخالفة الباطل واجتنابه، وفي الآخرة يهديهم إلى الصراط المستقيم، الموصل إلى درجات الجنات، ويزحزحهم عن العذاب الأليم والدركات[(١)].

فهذه بعض صفات أهل الاستقامة على الصراط المستقيم ذكرها الله تعالى في كتابه للعمل بها والسير على منهج أهلها من النبيين والصديقين والشهداء والصالحين.

ثالثًا: ثمرات الهداية إلى الصراط المستقيم:

من أعظم النعم التي امتن الله تعالى على عباده المؤمنين: نعمة الهداية إلى الصراط المستقيم، وهذه النعمة لها ثمار يانعة، ولا يستطيع أحد أن يحيط بها، ولكن يكفينا هنا أن نشير إلى بعض ما تضمنته آيات الكتاب المبين والتي قد كشفت عن صنوف الثمار التي يتلقاها، ومن ذلك ما يلي:

١. ثمرات الهداية إلى الصراط المستقيم في الدنيا.

- **الهداية إلى الحق.**

فالإيمان يورث أهله هداية الدلالة والبيان، وهداية التوفيق والإلهام، قال تعالى: ﴿وَإِنَّ ٱللَّهَ لَهَادِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾ [الحج: ٥٤].

فإذا أراد الله بعبده خيرا أمده بنور التحقيق، وأيده بحسن العصمة، فيميز بحسن البصيرة بين الحق والباطل فلا يظله غمام الريب، وينجلي عنه غطاء الغفلة، فلا تأثير لضباب الغداة في شعاع الشمس عند متوع النهار[(٢)].

فهداية الدلالة والبيان تتضمن تعليم المؤمن ما لا يعلم من الحق المجمل والمفصل، قال تعالى: ﴿وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَيُعَلِّمُكُمُ ٱللَّهُ﴾ [البقرة: ٢٨٢].

أي: واتقوا الله فيما أمركم به ونهاكم عنه، فهو سبحانه الذي يعلمكم ما يصلح لكم[(٣)].

وقال: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِن تَتَّقُواْ ٱللَّهَ يَجْعَل لَّكُمْ فُرْقَانًا﴾ [الأنفال: ٢٩].

أي: فصلًا بين الحق والباطل، ليظهر به حقكم، ويخفي به باطل من خالفكم[(٤)].

أما هداية التوفيق والإلهام فتتضمن الإلهام للحق، والتوفيق لاتباعه، والثبات عليه إلى الممات، قال تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ ٱهْتَدَوْاْ زَادَهُمْ هُدًى وَءَاتَىٰهُمْ تَقْوَىٰهُمْ ۝١٧﴾ [محمد: ١٧].

(١) تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ٥/ ٤٤٦.

(٢) لطائف الإشارات، القشيري ٢/ ٥٥٥.

(٣) التفسير الوسيط، طنطاوي ١/ ٦٥١.

(٤) جامع البيان، الطبري ١٣/ ٤٩٠.

والمراد أنه زادهم إيمانا وعلما وبصيرة في الدين وآتاهم تقواهم أي: ألهمهم إياها وأعانهم عليها[1].

والله تعالى يسدد عباده المؤمنين إلى الطريق القويم الذي لا اعوجاج فيه، فقال تعالى: ﴿فَهَدَى اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا لِمَا اخْتَلَفُوا فِيهِ مِنَ الْحَقِّ بِإِذْنِهِ وَاللَّهُ يَهْدِي مَن يَشَاءُ إِلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾ [البقرة: ٢١٣].

والمعنى: «والله يسدد من يشاء من خلقه، ويرشده إلى الطريق القويم على الحق الذي لا اعوجاج فيه، كما هدى الذين آمنوا بمحمد صلى الله عليه وسلم، لما اختلف الذين أوتوا الكتاب فيه بغيًا بينهم، فسددهم لإصابة الحق والصواب فيه.

وفي هذه الآية البيان الواضح على صحة ما قاله أهل الحق: من أن كل نعمة على العباد في دينهم أو دنياهم، فمن الله جل وعز.

فإن قال لنا قائل: وما معنى قوله: ﴿فَهَدَى اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا لِمَا اخْتَلَفُوا فِيهِ﴾؟ أهداهم للحق، أم هداهم للاختلاف؟ فإن كان هداهم للاختلاف فإنما أضلهم! وإن كان هداهم للحق، فيكف قيل: ﴿فَهَدَى اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا لِمَا اخْتَلَفُوا فِيهِ﴾؟

قيل: إن ذلك على غير الوجه الذي ذهبت إليه، وإنما معنى ذلك: فهدى الله الذين آمنوا للحق فيما اختلف فيه من كتاب الله الذين أوتوه، فكفر بتبديله بعضهم، وثبت على الحق والصواب فيه بعضهم -وهم أهل التوراة الذين بدلوها- فهدى الله مما للحق بدلوا وحرفوا، الذين آمنوا من أمة محمد صلى الله عليه وسلم»[2].

ويقول جل ثناؤه: ﴿وَهُدُوا إِلَى الطَّيِّبِ مِنَ الْقَوْلِ وَهُدُوا إِلَىٰ صِرَاطِ الْحَمِيدِ ﴿٢٤﴾﴾ [الحج: ٢٤].

فهداهم ربهم في الدنيا إلى طريق الرب الحميد، وطريقه: دينه دين الإسلام الذي شرعه لخلقه وأمرهم أن يسلكوه[3].

فتبين أن أحق الناس بالهداية هم أهل الإيمان وهذه الثمرة من أعظم وأجل الثمار التي يجنيها المؤمن في هذه الحياة.

❁ **الحياة الطيبة.**

قال الله تعالى: ﴿مَنْ عَمِلَ صَالِحًا مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهُ حَيَاةً طَيِّبَةً﴾ [النحل: ٩٧].

يقول ابن كثير: «هذا وعد من الله تعالى لمن عمل صالحا؛ وهو العمل المتابع لكتاب الله تعالى وسنة نبيه صلى الله عليه وسلم من ذكر أو أنثى من بني آدم، وقلبه مؤمن بالله ورسوله»، وأن هذا العمل المأمور به مشروع من عند الله بأن يحييه الله حياة طيبة في الدنيا، وأن يجزيه بأحسن ما

(١) فتح القدير، الشوكاني ٥/ ٤٣.

(٢) جامع البيان، الطبري ٤/ ٢٨٦.

(٣) المصدر السابق ١٨/ ٥٩٥.

عمله في الدار الآخرة والحياة الطيبة تشمل وجوه الراحة من أي جهة كانت»[1].

فشرط الحياة الطيبة لكل ذكر وأنثى الإيمان والعمل الصالح.

- السعة في الرزق.

قال الله تعالى: ﴿فَقُلْتُ ٱسْتَغْفِرُوا۟ رَبَّكُمْ إِنَّهُۥ كَانَ غَفَّارًا ۝١٠ يُرْسِلِ ٱلسَّمَآءَ عَلَيْكُم مِّدْرَارًا ۝١١ وَيُمْدِدْكُم بِأَمْوَٰلٍ وَبَنِينَ وَيَجْعَل لَّكُمْ جَنَّـٰتٍ وَيَجْعَل لَّكُمْ أَنْهَـٰرًا ۝١٢﴾ [نوح: ١٠-١٢].

وقال تعالى: ﴿وَأَلَّوِ ٱسْتَقَـٰمُوا۟ عَلَى ٱلطَّرِيقَةِ لَأَسْقَيْنَـٰهُم مَّآءً غَدَقًا ۝١٦﴾ [الجن: ١٦].

وقال: ﴿وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ ٱلْقُرَىٰٓ ءَامَنُوا۟ وَٱتَّقَوْا۟ لَفَتَحْنَا عَلَيْهِم بَرَكَـٰتٍ مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ وَلَـٰكِن كَذَّبُوا۟ فَأَخَذْنَـٰهُم بِمَا كَانُوا۟ يَكْسِبُونَ ۝٩٦﴾ [الأعراف: ٩٦].

أي: يسرنا لهم خير السماء والأرض كما يحصل التيسير للأبواب المغلقة بفتح أبوابها قيل: المراد بخير السماء: المطر، وخير الأرض: النبات، والأولى حمل ما في الآية على ما هو أعم من ذلك[2].

وقال تعالى: ﴿وَلَوْ أَنَّهُمْ أَقَامُوا۟ ٱلتَّوْرَىٰةَ وَٱلْإِنجِيلَ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيْهِم مِّن رَّبِّهِمْ لَأَكَلُوا۟ مِن فَوْقِهِمْ وَمِن تَحْتِ أَرْجُلِهِم ۚ مِّنْهُمْ أُمَّةٌ مُّقْتَصِدَةٌ ۖ وَكَثِيرٌ مِّنْهُمْ سَآءَ مَا يَعْمَلُونَ ۝٦٦﴾ [المائدة: ٦٦].

- الولاية.

قال تعالى: ﴿ٱللَّهُ وَلِىُّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟﴾ [البقرة: ٢٥٧].

فهو النصير والمعين للمهتدين على الصراط المستقيم، يتولاهم بعونه، ولا يكلهم إلى غيره سبحانه يقول ابن جرير في معنى الآية: «نصيرهم وظهيرهم ويتولاهم بعونه وتوفيقه»[3].

- النصر على الأعداء.

قال تعالى: ﴿وَكَانَ حَقًّا عَلَيْنَا نَصْرُ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ [الروم: ٤٧].

قال الشوكاني: «هذا إخبار من الله سبحانه بأن نصره لعباده المؤمنين حق عليه، وهو صادق الوعد لا يخلف الميعاد، وفيه تشريف للمؤمنين ومزيد تكرمة لعباده الصالحين»[4].

- التمكين والاستخلاف في الأرض.

قال تعالى: ﴿وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مِنكُمْ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّـٰلِحَـٰتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِى ٱلْأَرْضِ كَمَا ٱسْتَخْلَفَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ ٱلَّذِى ٱرْتَضَىٰ لَهُمْ وَلَيُبَدِّلَنَّهُم مِّنۢ بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْنًا﴾ [النور: ٥٥].

فمن الثمار العظيمة التي تحصل لأهل الاستقامة على الصراط المستقيم: التمكين لهم، فالاستخلاف في الأرض والتمكين لهم وجعلهم أئمة الناس والولاة عليهم،

(١) تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ٤/ ٦٠١.
(٢) فتح القدير، الشوكاني ٢/ ٢٥٩.
(٣) جامع البيان، الطبري ٥/ ٤٢٤.
(٤) فتح القدير، الشوكاني ٤/ ٢٦٥.

وخضوع البلاد لهم لمن أعظم ثمار الإيمان؛ لأن به تصلح البلاد ويحصل الأمن للناس.

قال تعالى: ﴿وَاذْكُرُوٓا۟ إِذْ أَنتُمْ قَلِيلٌ مُّسْتَضْعَفُونَ فِى ٱلْأَرْضِ تَخَافُونَ أَن يَتَخَطَّفَكُمُ ٱلنَّاسُ فَـَٔاوَىٰكُمْ وَأَيَّدَكُم بِنَصْرِهِۦ وَرَزَقَكُم مِّنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿٢٦﴾﴾ [الأنفال: ٢٦].

وهذا الوعد عام يعم جميع الأمة بشرط الإيمان والعمل الصالح.

قال الشوكاني: «وهذا وعد من الله سبحانه لمن آمن بالله وعمل الأعمال الصالحات بالاستخلاف لهم في الأرض لما استخلف الذين من قبلهم من الأمم وهو وعد يعم جميع الأمة، وقيل هو خاص بالصحابة ولا وجه لذلك فإن الإيمان وعمل الصالحات لا يختص بهم، بل ويمكن وقوع ذلك من كل واحد من هذه الأمة، ومن عمل بكتاب الله وسنة رسوله فقد أطاع الله ورسوله»[1].

فهذه جملة من ثمار الاستقامة على الصراط المستقيم في الحياة الدنيا، ومن ضعفت استقامته لم تتحقق له هذه الثمار، كما هو مشاهد اليوم في حال المسلمين، ويوم يستقيم المسلمون على الصراط المستقيم، ويجددون إيمانهم ويثبتونه سيجنون هذه الثمار العظيمة إلى جانب ما ينتظرهم من الفوز العظيم في الدار الآخرة.

٢. ثمرات الهداية إلى الصراط المستقيم في الآخرة.

❁ تحقيق الأمن.

قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ قَالُوا۟ رَبُّنَا ٱللَّهُ ثُمَّ ٱسْتَقَٰمُوا۟ فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿١٣﴾﴾ [الأحقاف: ١٣].

قال ابن القيم رحمه الله: «فإن الطاعة حصن الله الأعظم، من دخله كان من الآمنين من عقوبات الدنيا والآخرة، ومن خرج عنه أحاطت به المخاوف من كل جانب، فمن أطاع الله انقلبت المخاوف في حقه أمانا، ومن عصاه انقلبت مآمنه مخاوف، فلا تجد العاصي إلا وقلبه كأنه بين جناحي طائر، إن حركت الريح الباب قال: جاء الطلب، وإن سمع وقع قدم خاف أن يكون نذيرًا بالعطب، يحسب أن كل صيحة عليه، وكل مكروه قاصد إليه، فمن خاف الله آمنه من كل شيء، ومن لم يخف الله أخافه من كل شيء»[2].

وقال زيد بن أسلم: يبشرونه عند موته، وفي قبره، وحين يبعث. وهذا القول يجمع الأقوال كلها، وهو حسن جدا، وهو الواقع[3].

وقال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ قَالُوا۟ رَبُّنَا ٱللَّهُ

(١) فتح القدير، الشوكاني ٤/ ٥٥.

(٢) الجواب الكافي ص ٧٥.

(٣) تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ٧/ ١٧٧.

﴿ثُمَّ ٱسْتَقَٰمُوا۟ تَتَنَزَّلُ عَلَيْهِمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ أَلَّا تَخَافُوا۟ وَلَا تَحْزَنُوا۟ وَأَبْشِرُوا۟ بِٱلْجَنَّةِ ٱلَّتِى كُنتُمْ تُوعَدُونَ ۝٣٠﴾ [فصلت: ٣٠].

والمعنى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ قَالُوا۟﴾ بكل صدق وإخلاص: ﴿رَبُّنَا ٱللَّهُ﴾ ربنا الله تعالى وحده، لا شريك له لا في ذاته ولا في صفاته. ﴿ثُمَّ ٱسْتَقَٰمُوا۟﴾ أي: ثم ثبتوا على هذا القول، وعملوا بما يقتضيه هذا القول من طاعة الله تعالى في المنشط والمكره، وفي العسر واليسر، ومن اقتداء برسوله صلى الله عليه وسلم في كل أحواله.

وتنزل الملائكة عليهم بهذه البشارات يشمل ما يكون في حياتهم عن طريق إلهامهم بما يشرح صدورهم، ويطمئن نفوسهم، كما يشمل تبشيرهم بما يسرهم عند موتهم وعند بعثهم[١].

النور الذي يكشف الطريق الموصلة إلى الجنة.

قال تعالى: ﴿يَوْمَ تَرَى ٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ يَسْعَىٰ نُورُهُم بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَبِأَيْمَٰنِهِم بُشْرَىٰكُمُ ٱلْيَوْمَ جَنَّٰتٌ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا ۚ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ ۝١٢﴾ [الحديد: ١٢].

يقول ابن كثير: يقول تعالى مخبرًا عن المؤمنين المتصدقين: أنهم يوم القيامة يسعى نورهم بين أيديهم في عرصات القيامة، بحسب أعمالهم، كما قال عبدالله ابن مسعود في قوله: ﴿يَسْعَىٰ نُورُهُم بَيْنَ أَيْدِيهِمْ﴾ قال: على قدر أعمالهم يمرون على الصراط، منهم من نوره مثل الجبل، ومنهم من نوره مثل النخلة، ومنهم من نوره مثل الرجل القائم، وأدناهم نورًا من نوره في إبهامه يتقد مرة ويطفأ مرة[٢].

وقال قتادة: ذكر لنا أن نبي الله صلى الله عليه وسلم كان يقول: (من المؤمنين من يضيء نوره من المدينة إلى عدن أبين وصنعاء فدون ذلك، حتى إن من المؤمنين من يضيء نوره موضع قدميه)[٣].

فهذا النور دليل لهم في طريقهم إلى الجنة، بسبب استقامتهم على صراط الله المستقيم في الحياة الدنيا.

دخول الجنة.

أهل الصراط المستقيم يكرمهم الله تعالى بجنته، قال تعالى: ﴿فَأَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِٱللَّهِ وَٱعْتَصَمُوا۟ بِهِۦ فَسَيُدْخِلُهُمْ فِى رَحْمَةٍ مِّنْهُ وَفَضْلٍ وَيَهْدِيهِمْ إِلَيْهِ صِرَٰطًا مُّسْتَقِيمًا ۝١٧٥﴾ [النساء: ١٧٥].

وفي الهداية المذكورة في الآية قولان:

أحدهما: أن يعطيهم في الدنيا ما يؤديهم إلى نعيم الآخرة، وهذا قول الحسن.

والثاني: هو الأخذ بهم في الآخرة إلى طريق الجنة، وهو قول بعض المفسرين

(١) التفسير الوسيط، طنطاوي ١٢/ ٣٤٩-٣٥٠.

(٢) تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ٨/ ١٥.

(٣) جامع البيان، الطبري ٢٣/ ١٧٨.

البصريين[1].

* **الدخول في معية النبيين والصديقين والشهداء والصالحين.**

ومن دخل في معية هؤلاء وفي كنفهم نال ما نالوه من الحظ عند الله تبارك وتعالى.

قال تعالى: ﴿وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَٱلرَّسُولَ فَأُوْلَٰٓئِكَ مَعَ ٱلَّذِينَ أَنْعَمَ ٱللَّهُ عَلَيْهِم مِّنَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ وَٱلصِّدِّيقِينَ وَٱلشُّهَدَآءِ وَٱلصَّٰلِحِينَ ۚ وَحَسُنَ أُوْلَٰٓئِكَ رَفِيقًا ﴿٦٩﴾﴾ [النساء: ٦٩].

فلما كان طالب الصراط المستقيم طالب أمر أكثر الناس ناكبون عنه، مريدا لسلوك طريق مرافقه فيها في غاية القلة والعزة، والنفوس مجبولة على وحشة التفرد، وعلى الأنس بالرفيق، نبه الله سبحانه على الرفيق في هذه الطريق، وأنهم هم الذين ﴿أَنْعَمَ ٱللَّهُ عَلَيْهِم مِّنَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ وَٱلصِّدِّيقِينَ وَٱلشُّهَدَآءِ وَٱلصَّٰلِحِينَ ۚ وَحَسُنَ أُوْلَٰٓئِكَ رَفِيقًا﴾ [النساء: ٦٩][2].

وهذه الصحبة لهذا الرهط العلوي، إنما هي من فضل الله. فما يبلغ إنسان بعمله وحده وطاعته وحدها أن ينالها، إنما هو الفضل الواسع الغامر الفائض العميم[3].

وليس المراد بكون من أطاع الله وأطاع الرسول مع النبيين والصديقين، كون الكل في درجة واحدة، لأن هذا يقتضي التسوية في الدرجة بين الفاضل والمفضول، وإنه لا يجوز، بل المراد كونهم في الجنة بحيث يتمكن كل واحد منهم من رؤية الآخر، وإن بعد المكان؛ لأن الحجاب إذا زال شاهد بعضهم بعضا، وإذا أرادوا الزيارة والتلاقي قدروا عليه، فهذا هو المراد من هذه المعية[4].

وكان سبب نزول هذه الآية ما أخرجه الطبراني، عن عائشة رضي الله عنها قالت: **(جاء رجل إلى النبي صلى الله عليه وسلم فقال: يا رسول الله، والله إنك لأحب إلي من نفسي، وإنك لأحب إلي من أهلي، وأحب إلي من ولدي، وإني لأكون في البيت، فأذكرك فما أصبر حتى آتيك، فأنظر إليك، وإذا ذكرت موتي وموتك عرفت أنك إذا دخلت الجنة رفعت مع النبيين، وإني إذا دخلت الجنة خشيت أن لا أراك. فلم يرد عليه النبي صلى الله عليه وسلم حتى نزل جبريل بهذه الآية:** ﴿وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَٱلرَّسُولَ فَأُوْلَٰٓئِكَ مَعَ ٱلَّذِينَ أَنْعَمَ ٱللَّهُ عَلَيْهِم مِّنَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ وَٱلصِّدِّيقِينَ وَٱلشُّهَدَآءِ وَٱلصَّٰلِحِينَ ۚ وَحَسُنَ أُوْلَٰٓئِكَ رَفِيقًا ﴿٦٩﴾﴾ [النساء: ٦٩][5].

(١) النكت والعيون، الماوردي ١/ ٥٤٧-٥٤٨.
(٢) مدارج السالكين، ابن القيم ١/ ٤٥.
(٣) في ظلال القرآن، سيد قطب ٢/ ٦٩٩.

(٤) مفاتيح الغيب، الرازي ١٠/ ١٣٣.
(٥) أخرجه الطبراني في المعجم الأوسط ١/ ١٥٢، رقم ٤٧٧، والصغير ١/ ٥٣، رقم ٥٢، وذكره الواحدي في أسباب النزول، ص ١٦٦.
وصححه الوادعي في الصحيح المسند من أسباب النزول ص ٧٠.

ولا شك أن هذه الميزة من أعظم ما توجهت به إرادة المحبين للنبي صلى الله عليه وسلم، وقد بين النبي صلى الله عليه وسلم أنها من أعز المطالب، ويدل على ذلك ما رواه مسلم في صحيحه عن ربيعة بن كعب الأسلمي رضي الله عنه قال: كنت أبيت مع رسول الله صلى الله عليه وسلم فأتيته بوضوئه وحاجته فقال لي: (سل) فقلت: أسألك مرافقتك في الجنة. قال: (أو غير ذلك) قلت: هو ذاك. قال: (فأعني على نفسك بكثرة السجود)[1].

فهذه نماذج من الثمار التي وعد الله بها أهل الاستقامة على الصراط المستقيم، والمقصود هنا ذكر طرف من هذا النعيم الذي ينعم به أهل الاستقامة في الحياة الآخرة.

(١) أخرجه مسلم في صحيحه، كتاب الصلاة، باب فضل السجود والحث عليه، ١/ ٣٥٣، رقم ٤٨٩.

الاعراض عن الصراط المستقيم

أولًا: الصادون عن الصراط المستقيم:

لم يكتف أعداء الصراط المستقيم برفض الدعوة إليه، بل سعوا جاهدين إلى صد الناس عن اتباع ما جاءت به الرسل عليهم الصلاة والسلام، وهذا الصد يكون بالرفض تارة، وبالإكراه تارة أخرى، وتارة بالتهديد، وتارة بالتشويه والتحريف، ولما كان دأب هؤلاء هو التشهير بالدعاة، فقد رد الله تعالى عليهم بمثل ما فعلوا، فشهر الله بهم وفضحهم على رؤوس الأشهاد، وبين أنهم معادون للحق ومعادون لأنفسهم في اعتراض دعوة الرسول عليهم الصلاة والسلام وتنفير الناس منها، ومن هؤلاء:

١ . إبليس.

أخبر الله تعالى عن إبليس بتوعده وتعهده ببذل غاية جهده في إضلال بني آدم، والترصد لهم، كما يترصد قطاع الطرق للسائرين فيها، فيصدهم، ويحاول بكل وسيلة أن يصرفهم عن الصراط المستقيم، ولن يتكاسل عن العمل على إفسادهم وإضلالهم.

قال تعالى: ﴿قَالَ فَبِمَآ أَغْوَيْتَنِي لَأَقْعُدَنَّ لَهُمْ صِرَٰطَكَ ٱلْمُسْتَقِيمَ ﴿١٦﴾ ثُمَّ لَءَاتِيَنَّهُم مِّنۢ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ وَمِنْ خَلْفِهِمْ وَعَنْ أَيْمَٰنِهِمْ وَعَن شَمَآئِلِهِمْ وَلَا تَجِدُ أَكْثَرَهُمْ

﴿شَٰكِرِينَ ١٧﴾ [الأعراف: ١٦-١٧].

أي: كما أغويتني. قال ابن عباس: كما أضللتني. وقال غيره: كما أهلكتني لأقعدن لعبادك الذين تخلقهم من ذرية هذا الذي أبعدتني بسببه على ﴿صِرَٰطَكَ ٱلۡمُسۡتَقِيمَ﴾ أي: طريق الحق وسبيل النجاة، ولأضلنهم عنها لئلا يعبدوك ولا يوحدوك بسبب إضلالك إياي.

وقال بعض النحاة: الباء هاهنا قسمية، كأنه يقول: فبإغوائك إياي لأقعدن لهم صراطك المستقيم.

قال مجاهد: ﴿صِرَٰطَكَ ٱلۡمُسۡتَقِيمَ﴾ يعني: الحق.

وقال محمد بن سوقة، عن عون بن عبد الله: يعني طريق مكة.

قال ابن جرير: والصحيح أن الصراط المستقيم أعم من ذلك كله[(١)].

فالله تعالى خلق في نفس إبليس مقدرة على إغواء الناس بقوله: ﴿إِنَّكَ مِنَ ٱلصَّٰغِرِينَ﴾ [الأعراف: ١٣].

وإنه جعله باقيا متصرفا بقواه الشريرة إلى يوم البعث، فأحس إبليس أنه سيكون داعية إلى الضلال والكفر، بجبلة قلبه الله إليها قلبا وهو من المسخ النفساني، وإنه فاعل ذلك لا محالة مع علمه بأن ما يصدر عنه هو ضلال وفساد، فصدور ذلك منه كصدور النهش من الحية، وكتحرك الأجفان عند مرور شيء على العين، وإن كان صاحب العين لا يريد تحريكهما.

وإضافة الصراط إلى اسم الجلالة على تقدير اللام، أي: الصراط الذي هو لك أي الذي جعلته طريقا لك، والطريق لله هو العمل الذي يحصل به ما يرضي الله بامتثال أمره، وهو فعل الخيرات، وترك السيئات، فالكلام تمثيل هيئة العازمين على فعل الخير، وعزمهم عليه، وتعرض الشيطان لهم بالمنع من فعله، بهيئة الساعي في طريق إلى مقصد ينفعه وسعيه إذا اعترضه في طريقه قاطع طريق منعه من المرور فيه[(٢)].

وهذا الكلام يدل على أن إبليس علم أن الله خلق البشر للصلاح والنفع، وأنه أودع فيهم معرفة الكمال، وأعانهم على بلوغه بالإرشاد، فلذلك سميت أعمال الخير، في حكاية كلام إبليس، صراطا مستقيما، وأضافه إلى ضمير الجلالة، لأن الله دعا إليه وارد من الناس سلوكه، ولذلك أيضا ألزم لأقعدن لهم صراطك المستقيم ثم لآتيناهم من بين أيديهم ومن خلفهم.

وبهذا الاعتبار كان إبليس عدوا لبني آدم؛ لأنه يطلب منهم ما لم يخلقوا لأجله وما هو مناف للفطرة التي فطر الله عليها البشر،

---

(١) انظر: تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ٣/ ٣٩٣-٣٩٤.

(٢) التحرير والتنوير، ابن عاشور ٨/ ٤٦-٤٧.

فالعداوة متأصلة وجبلية بين طبع الشيطان وفطرة الإنسان السالمة من التغيير[1].

وقد اتخذ إبليس مسلك التخويف من أعداء الله للصد عن صراط الله المستقيم، وقد قال النبي عليه الصلاة والسلام فيما أخرجه النسائي عن سبرة بن أبي فاكه رضي الله عنه قال: سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول: (**إن الشيطان قعد لابن آدم بأطرقه، فقعد له بطريق الإسلام، فقال: تسلم وتذر دينك ودين آبائك وآباء أبيك، فعصاه فأسلم، ثم قعد له بطريق الهجرة، فقال: تهاجر وتدع أرضك وسماءك، وإنما مثل المهاجر كمثل الفرس في الطول، فعصاه فهاجر، ثم قعد له بطريق الجهاد، فقال: تجاهد فهو جهد النفس والمال، فتقاتل فتقتل، فتنكح المرأة، ويقسم المال، فعصاه فجاهد**)، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: (**فمن فعل ذلك كان حقًا على الله عز وجل أن يدخله الجنة، ومن قتل كان حقًا على الله عز وجل أن يدخله الجنة، وإن غرق كان حقًا على الله أن يدخله الجنة، أو وقصته دابته كان حقًا على الله أن يدخله الجنة**)[2].

وذكر الله تعالى توعد إبليس وتعهده، ورد الله تعالى عليه في سورة الحجر، فقال تعالى: ﴿قَالَ رَبِّ بِمَآ أَغْوَيْتَنِى لَأُزَيِّنَنَّ لَهُمْ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٣٩﴾ إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمُ ٱلْمُخْلَصِينَ ﴿٤٠﴾ قَالَ هَٰذَا صِرَٰطٌ عَلَىَّ مُسْتَقِيمٌ ﴿٤١﴾ إِنَّ عِبَادِى لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَٰنٌ إِلَّا مَنِ ٱتَّبَعَكَ مِنَ ٱلْغَاوِينَ ﴿٤٢﴾﴾ [الحجر: ٣٩-٤٢].

معنى قوله: ﴿هَٰذَا صِرَٰطٌ عَلَىَّ مُسْتَقِيمٌ﴾ أي: مرجعكم كلكم إلي، فأجازيكم بأعمالكم، إن خيرًا فخير، وإن شرًا فشر، كما قال تعالى: ﴿إِنَّ رَبَّكَ لَبِٱلْمِرْصَادِ ﴿١٤﴾﴾ [الفجر: ١٤][3].

قال المراغي: أي: قال هذا طريق مرجعه إلي، فأجازي كل امرئ بعمله، إن خيرا فخير وإن شرا فشر، كما يقول القائل لمن يتوعده ويتهدده: طريقك علي. وأنا على طريقك: أي: لا مهرب لك مني، ونظير الآية قوله تعالى: ﴿إِنَّ رَبَّكَ لَبِٱلْمِرْصَادِ﴾. وهذا رد لما جاء في كلام إبليس حيث قال: ﴿قَالَ فَبِمَآ أَغْوَيْتَنِى لَأَقْعُدَنَّ لَهُمْ صِرَٰطَكَ ٱلْمُسْتَقِيمَ ﴿١٦﴾ ثُمَّ لَءَاتِيَنَّهُم مِّنۢ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ وَمِنْ خَلْفِهِمْ﴾[الأعراف: ١٦-١٧][4].

فالصراط هو الذي يسلكه عباد الله المخلصون، وليس لإبليس سلطان على

(١) المصدر السابق ٨/ ٤٨.
(٢) أخرجه النسائي في سننه، كتاب الجهاد، باب ما لمن أسلم وهاجر وجاهد، ٦/ ٢١، رقم ٣١٣٤.
وصححه الألباني في السلسلة الصحيحة، ٦/ ١١٨٦.
(٣) تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ٤/ ٥٣٥.
(٤) تفسير المراغي ١٤/ ٢٣.

أحد ممن سلك هذا السبيل، واستقام على هذا الصراط؛ لأن الله سبحانه وتعالى قد أوجب على نفسه حراسة المستقيمين عليه، من كيد الشيطان وإغوائه[1].

فكأنه سبحانه يقول في الرد على إبليس الذي اعترف بعجزه عن إغواء المخلصين من عباد الله: يا إبليس، إن عدم قدرتك على إغواء عبادي المخلصين منهج قويم من مناهجي التي اقتضتها حكمتي وعدالتي ورحمتي، وسنة من سنني التي آليت على نفسي أن ألتزم بها مع خلقي. إن عبادي المخلصين لا قوة ولا قدرة لك على إغوائهم؛ لأنهم حتى إذا مسهم طائف منك. أسرعوا بالتوبة الصادقة إلي، فقبلتها منهم. وغفرت لهم زلتهم، ولكنك تستطيع إغواء أتباعك الذين استحوذت عليهم فانقادوا لك[2].

٢. الكافرون.

الكفار هم ممن أغواهم الشيطان عن صراط الله المستقيم، فانتهجوا نهجه، فجعلوا من أنفسهم حواجز مانعة عن وصول الدين القويم إلى الناس.

ولقد عنى الأنبياء عليهم الصلاة والسلام من صد هؤلاء عن صراط الله المستقيم، فهذا نبي الله شعيب عليه الصلاة والسلام يعظ

(١) التفسير القرآني للقرآن، عبدالكريم الخطيب ٧/ ٢٣٨.

(٢) التفسير الوسيط، طنطاوي ٨/ ٤٥-٤٦.

قومه ويأمرهم بترك الصد عن صراط الله المستقيم، وعدم الاعتراض لدعوته فقال: ﴿وَلَا تَقْعُدُوا بِكُلِّ صِرَاطٍ تُوعِدُونَ وَتَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ اللَّهِ مَنْ آمَنَ بِهِ وَتَبْغُونَهَا عِوَجًا وَاذْكُرُوا إِذْ كُنتُمْ قَلِيلًا فَكَثَّرَكُمْ وَانظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُفْسِدِينَ ﴿٨٦﴾﴾ [الأعراف: ٨٦].

قال ابن كثير: نهاهم شعيب عليه السلام، عن قطع الطريق الحسي والمعنوي[3].

والمعنى: ولا تقعدوا بكل طريق من الطرق المسلوكة تهددون من آمن بي بالقتل، وتخيفونه بأنواع الأذى، وتلصقون بي وأنا نبيكم التهم التي أنا بريء منها، بأن تقولوا لمن يريد الإيمان برسالتي: إن شعيبًا كذاب وإنه يريد أن يفتنكم عن دينكم.

وقوله: ﴿وَتَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ اللَّهِ مَنْ آمَنَ بِهِ وَتَبْغُونَهَا عِوَجًا﴾ أي: وتصرفون عن دين الله وطاعته من آمن به، وتطلبون لطريقه العوج بإلقاء الشبه أو بوصفها بما ينقصها، مع أنها هي الطريق المستقيم الذي هو أبعد ما يكون عن شائبة الاعوجاج[4].

فإن قيل: صراط الحق واحد، ﴿وَأَنَّ هَٰذَا صِرَاطِي مُسْتَقِيمًا فَاتَّبِعُوهُ وَلَا تَتَّبِعُوا السُّبُلَ

(٣) تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ٣/ ٤٤٧.

(٤) التفسير الوسيط، طنطاوي ٥/ ٣٢١.

﴿فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَن سَبِيلِهِۦ﴾ [الأنعام: ١٥٣].

فكيف قيل بكل صراط؟.

الجواب: صراط الحق واحد ولكنه يتشعب إلى معارف وحدود وأحكام كثيرة مختلفة فكانوا إذا رأوا واحدا يشرع في شيء منه منعوه وصدوه[١].

وهذا هو نفس السلوك الذي اتخذه كفار قريش مع النبي صلى الله عليه وسلم فقد نصبوا له العداء وحذروا منه وقعدوا بكل صراط يوعدون ويهددون من آمن به، بل بلغ بهم الأمر أن منعوا المؤمنين عن المسجد الحرام وصدوهم عنه، فكانوا يعتقدون أنهم أهل المسجد، وأولى به من المؤمنين، ولذلك كانوا يصدون عن سبيل الله، ويصدون عن المسجد الحرام أيضًا.

قال تعالى: ﴿هُمُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَصَدُّوكُمْ عَنِ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ وَٱلْهَدْىَ مَعْكُوفًا أَن يَبْلُغَ مَحِلَّهُۥ﴾ [الفتح: ٢٥].

وقد كان ذلك في صلح الحديبية لما خرج النبي صلى الله عليه وسلم مع أصحابه من المدينة إلى مكة قاصدين العمرة ومصطحبين الهدي، فصدهم كفار مكة عن بلوغ المسجد الحرام وصدوا الهدي أيضًا أن يذبح في مكانه قربة لله تعالى.

٣. أهل الكتاب.

من طبيعة الكفرة من أهل الكتاب: الصد عن الصراط المستقيم، وغرضهم: ابتغاء سبيل الله معوجة: وقد جاءت الآيات صريحة في بيان هذه الغاية من الصد، قال تعالى: ﴿قُلْ يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ لِمَ تَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ مَنْ ءَامَنَ تَبْغُونَهَا عِوَجًا وَأَنتُمْ شُهَدَآءُ ۗ وَمَا ٱللَّهُ بِغَٰفِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ ﴿٩٩﴾﴾ [آل عمران: ٩٩].

أي: لأي سبب تصرفون من آمن بمحمد صلى الله عليه وسلم واتبعه عن الإيمان الذي يرقى عقل المؤمن بما فيه من طلب النظر في الكون، وترقى روحه بتزكيتها بالأخلاق الطيبة، والأعمال الصالحة، وتكذبون بذلك كفرا وعنادا، وكبرا وحسدا، وتلقون الشبهات الباطلة في قلوب الضعفاء من المسلمين بغيا وكيدا للنبي صلى الله عليه وسلم، تبغون لأهل دين الله ولمن هو على سبيل الحق عوجا وضلالا، وزيغا عن الاستقامة على الهدى والمحجة، وأنتم عارفون بتقدم البشارة به، عالمون بصدق نبوته، ومن كان كذلك فلا يليق به الإصرار على الباطل والضلال والإضلال[٢].

فسبيل الله هو الطريق المستقيم. وما عداه عوج غير مستقيم، وحين يصد الناس عن سبيل الله وحين يصد المؤمنون عن منهج الله، فإن الأمور كلها تفقد استقامتها، والموازين كلها تفقد سلامتها، ولا يكون في

(١) البحر المحيط في التفسير، أبو حيان ٥/ ١٠٧.

(٢) تفسير المراغي ٤/ ١٣.

الأرض إلا العوج الذي لا يستقيم»[1].

وفي هذه الآية دليل على شدة حرمة صرف الناس عن الحق والمعروف بأنواع الحيل وضروب الكذب والخداع.

❁ المنافقون.

يسلك المنافقون نفس مسلك أعداء الدين من الكفرة المشركين، فيحاولون بشتى الطرق الصد عن صراط الله المستقيم، قال الله تعالى عن حالهم إن دعو إلى تحكيم شرع الله ودينه، ليكون هو الحكم الفصل في الخصومات: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْا إِلَىٰ مَا أَنزَلَ اللَّهُ وَإِلَى الرَّسُولِ رَأَيْتَ الْمُنَافِقِينَ يَصُدُّونَ عَنكَ صُدُودًا ﴿٦١﴾﴾ [النساء: ٦١].

فهذا هو حال المنافقين لا يريدون لدين الله السمو والمرجعية والسيادة والحكم الفصل، ولذلك أكد الله وقوع فعل الصد حقيقة لا مجازًا بالمصدر فقال: ﴿صُدُودًا﴾، والمعنى أعرضوا إعراضًا لا رجعة فيه، وانصرفوا انصرافًا لا عودة فيه، وهذا نابع من عداوتهم لدين الله، ولذلك يجعلون مهمتهم أن يصرفوا أنفسهم والناس من حولهم عن هذا الدين القويم، فقاتلهم الله أنى يؤفكون.

ثانيًا: صفات المعرضين:

بين الله صفات المعرضين عن الصراط المستقيم، الصادين عنه؛ من أجل أن يتميزوا ويعرفوا ويحذر كيدهم ومكرهم، ويتقي شرهم، فمن هذه الصفات:

١ . العدول عن الصراط المستقيم.

من صفات المعرضين عن الصراط المستقيم: الكفر بالله واليوم الآخر، فهم لا يصدقون بالبعث بعد الموت، وقيام الساعة ومجازاة الله عباده في الآخرة عادلون عن محجة الحق وعن قصد السبيل وهو دين الله الذي ارتضاه لعباده.

قال الله تعالى: ﴿وَإِنَّكَ لَتَدْعُوهُمْ إِلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٧٣﴾ وَإِنَّ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ عَنِ الصِّرَاطِ لَنَاكِبُونَ ﴿٧٤﴾﴾ [المؤمنون: ٧٣-٧٤].

فسبب تنكبهم وابتعادهم عن دين الإسلام هو عدم إيمانهم بالآخرة، فالقلب الذي لا يعمره الإيمان بلقاء الله والجزاء يوم القيامة صاحبه ضد كل خير ومعروف ولا يؤمل منه بسبب كفره بالآخرة.

قال ابن عاشور: نزه سبحانه الإسلام عما وسموه به من الأباطيل، والتنزيه بإثبات ضد ذلك وهو أنه صراط مستقيم، أي: طريق لا التواء فيه ولا عقبات، فالكلام تعريض بالذين اعتقدوا خلاف ذلك.

وإطلاق الصراط المستقيم عليه من

---

(١) في ظلال القرآن ١/ ٤٣٧.

حيث إنه موصل إلى ما يتطلبه كل عاقل من النجاة وحصول الخير، فكما أن السائر إلى طلبته لا يبلغها إلا بطريق، ولا يكون بلوغه مضمونا ميسورا إلا إذا كان الطريق مستقيمًا فالنبي صلى الله عليه وسلم لما دعاهم إلى الإسلام دعاهم إلى السير في طريق موصل بلا عناء.

والتأكيد بـ «إن» واللام باعتبار أنه مسوق للتعريض بالمنكرين على ما دعاهم إليه النبي صلى الله عليه وسلم.

وكذلك التوكيد في قوله: ﴿وَإِنَّ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْـَٔاخِرَةِ عَنِ ٱلصِّرَٰطِ لَنَٰكِبُونَ﴾.

والتعبير فيه بالموصول وصلته إظهار في مقام الإضمار حيث عدل عن أن يقول: وإنهم عن الصراط لناكبون. والغرض منه ما تنبئ به الصلة من سبب تنكبهم عن الصراط المستقيم أن سببه عدم إيمانهم بالآخرة.

والتعريف في الصراط للجنس، أي: هم ناكبون عن الصراط من حيث هو حيث لم يتطلبوا طريق نجاة فهم ناكبون عن الطريق بله الطريق المستقيم؛ ولذلك لم يكن التعريف في قوله: ﴿عَنِ ٱلصِّرَٰطِ﴾ للعهد بالصراط المذكور؛ لأن تعريف الجنس أتم في نسبتهم إلى الضلال بقرينة أنهم لا يؤمنون بالآخرة التي هي غاية العامل من عمله فهم إذن ناكبون عن كل صراط موصل إذ لا همة لهم في الوصول[1].

وفي معنى قوله: ﴿لَنَٰكِبُونَ﴾ تأويلات:

أحدها: لعادلون، قاله ابن عباس.

الثاني: لحائدون، قاله قتادة.

الثالث: لتاركون، قاله الحسن.

الرابع: لمعرضون، قاله الكلبي، ومعانيها متقاربة[2].

وهذا تهديد للمشركين، بأنهم إذا هم لم يسيروا على هذا الصراط المستقيم الذي يدعوهم إليه الرسول صلوات الله وسلامه عليه لم يكن أمامهم إلا طرق الضلال، يركبونها إلى حيث تهوي بهم في قرار الجحيم[3].

٢. التيه في الضلال والغواية.

من صفات المعرضين عن الصراط المستقيم أنهم تائهين في غيهم وضلاهم، وحال من يعرض عن صراط الله المستقيم كمن يمشي في طريق وهو يتعثر في كل ساعة ويخر على وجهه في كل خطوة لتوعر طريقه واختلاف أجزائه انخفاضًا وارتفاعًا.

قال تعالى: ﴿أَفَمَن يَمْشِي مُكِبًّا عَلَىٰ وَجْهِهِۦٓ أَهْدَىٰٓ أَمَّن يَمْشِي سَوِيًّا عَلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٢٢﴾﴾ [الملك: ٢٢].

فهو غارق في الكفر قد انتكس قلبه،

(١) التحرير والتنوير، ابن عاشور ١٨/ ٩٨-٩٩.
(٢) النكت والعيون، الماوردي ٤/ ٦٣.
(٣) التفسير القرآني للقرآن، عبدالكريم الخطيب ٩/ ١١٦٢.

فصار الحق عنده باطلا والباطل حقًّا، فهو في غاية الضلال البعيد.

قال تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ يَسْتَحِبُّونَ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا عَلَى ٱلْءَاخِرَةِ وَيَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ وَيَبْغُونَهَا عِوَجًا أُوْلَٰٓئِكَ فِى ضَلَٰلٍۭ بَعِيدٍ ۝٣﴾ [إبراهيم: ٣].

وهذا أقصى مراتب الضلال هو الذي وصفه الله تعالى في هذه المرتبة فهذه المرتبة في غاية البعد عن طريق الحق، فإن شرط الضدين أن يكونا في غاية التباعد، مثل السواد والبياض، فكذا هاهنا الضلال الذي يكون واقعا على هذا الوجه يكون في غاية البعد عن الحق فإنه لا يعقل ضلال أقوى وأكمل من هذا الضلال[(١)].

٣. الكسب الحرام.

فالمال نعمة من نعم الله على العبد، وجعل الله طرقًا مشروعة لكسبه وإنفاقه، وحرم أكل الأموال بالباطل، ونهى عن البخل به وعدم الإنفاق منه في سبيل الله.

قال تعالى: ﴿۞ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِنَّ كَثِيرًا مِّنَ ٱلْأَحْبَارِ وَٱلرُّهْبَانِ لَيَأْكُلُونَ أَمْوَٰلَ ٱلنَّاسِ بِٱلْبَٰطِلِ وَيَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ وَٱلَّذِينَ يَكْنِزُونَ ٱلذَّهَبَ وَٱلْفِضَّةَ وَلَا يُنفِقُونَهَا فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ فَبَشِّرْهُم بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ۝٣٤﴾ [التوبة: ٣٤]

وفي ذلك تنبيه للمؤمنين حتى يتجنبوا تلك الصفات، ولذلك وجه الخطاب إليهم، والمعنى: يا أيها الذين صدقوا الله ورسوله، وأقروا بوحدانية ربهم، إن كثيرًا من العلماء والقراء من بني إسرائيل من اليهود والنصارى، يأخذون الرشى في أحكامهم، ويحرفون كتاب الله، ويكتبون بأيديهم كتبًا ثم يقولون: «هذه من عند الله»، ويأخذون بها ثمنًا قليلا من سفلتهم، ويصدون عن سبيل الله فيمنعون من أراد الدخول في الإسلام الدخول فيه، بنهيهم إياهم عنه[(٢)].

٤ . الحلف بالأيمان الكاذبة.

إن هذه الصفة ملازمة للمنافقين المعرضين عن الصراط المستقيم، فقد وصفهم الله تعالى بذلك في أكثر من موضع في كتابه.

قال تعالى: ﴿ٱتَّخَذُوٓاْ أَيْمَٰنَهُمْ جُنَّةً فَصَدُّواْ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ إِنَّهُمْ سَآءَ مَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ ۝٢﴾ [المنافقون: ٢].

أي: أظهروا الإيمان وأبطنوا الكفر وتستروا بالأيمان الكاذبة، فظن كثير ممن لا يعرف حقيقة أمرهم أنهم صادقون وبهذه الوسيلة صدوا كثيرا من الناس عن سبيل الله بتثبيط من لقوا عن الدخول فى الإسلام بتحقير شأنه في نظرهم[(٣)].

والآية دليل على ارتكابهم جرمين

(١) مفاتيح الغيب، الرازي ١٩/ ٦١.

(٢) جامع البيان، الطبري ١٤/ ٢١٦.

(٣) تفسير المراغي ٢٨/ ٢٣.

كبيرين: الحلف بالأيمان الكاذبة، والصد عن الدخول في الإسلام والجهاد في سبيل الله، مما استوجب وصف أفعالهم بالقبح(١).

٥. البطر والرياء.

وهاتان صفتان اتصف بهما كفار قريش حيث خرجوا يوم بدر بعد أن سلمت عيرهم قاصدين البطر بهذا الخروج والسمعة بين الناس، مليئة نفوسهم بالغرور والصد عن سبيل الله، فتمت المواجهة بينهم وبين المؤمنين وكان النصر والغلبة للقلة المؤمنة على الكثرة الكافرة، وهذا هو مصير كل صاد عن سبيل الله معرضا عن الحق.

قال تعالى: ﴿وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ خَرَجُوا مِن دِيَـٰرِهِم بَطَرًا وَرِئَآءَ ٱلنَّاسِ وَيَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ وَٱللَّهُ بِمَا يَعْمَلُونَ مُحِيطٌ ۝٤٧﴾ [الأنفال: ٤٧].

أي: عليكم أن تمتثلوا ما أمرتم به وتنتهوا عما نهيتم عنه، ولا تكونوا كأعدائكم المشركين الذين خرجوا من ديارهم في مكة وغيرها من الأماكن، بطرين بما أوتوا من قوة ونعم لا يستحقونها، مرائين الناس بها ليعجبوا بها ويثنوا عليهم بالغنى والقوة والشجاعة.

وهم بخروجهم يصدون عن سبيل الله وهو الإسلام بحملهم الناس على عداوة الرسول صلى الله عليه وسلم، والإعراض عن تبليغ دعوته، وتعذيب من أجابها إذا لم يكن لهم من يمنعهم ويحميهم من قرابة أو حلف أو جوار(٢).

وهكذا نرى مجموعة من هذه الصفات للمعرضين عن الصراط المستقيم، حتى يعرفوا من خلالها، فيحذر كيدهم ومكرهم وعداؤهم.

ثالثًا: جزاء المعرضين:

مما لا شك فيه أن المعرضين عن الصراط المستقيم قد ناصبوا الله ودينه ورسوله والمؤمنين العداء في الدنيا والآخرة، حيث انطلقوا من أسباب كفرية مفسدة، واتصفوا بصفات كفرية مهلكة، وكانت لهم وسائل وغايات مجرمة، فلا بد أن تكون عاقبة أمرهم خسرًا، وتنقلب غاياتهم غلبة عليهم وحسرة، ويذوقوا السوء والعذاب العظيم في الدنيا والآخرة بسبب ما قدمت أيديهم من ظلم وفتنة، وسنقف على وعيد الله بهم من خلال الآيات نفسها المتعلقة بجريمة الإعراض، وذلك فيما يلي:

١. ضنك المعيشة وعدم الهناء.

قال ابن القيم: في معنى قول الله تعالى في آخر سورة طه: ﴿وَمَنْ أَعْرَضَ عَن ذِكْرِى فَإِنَّ لَهُۥ مَعِيشَةً ضَنكًا وَنَحْشُرُهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ

(١) التفسير المنير، الزحيلي ٢٨/ ٢١٦.

(٢) تفسير المراغي ١٠/ ١٢.

﴿أَعْمَىٰ ۝١٢٤﴾ [طه: ١٢٤]: أخبر الله أن من أعرض عن ذكره وهو الهدى الذي من اتبعه لا يضل ولا يشقى بأن له معيشة ضنكا. أي: عذاب القبر، وهذا عذاب البرزخ، وكذلك يترك في العذاب وينسى فيه كما ترك العمل بالآيات.

وهذا عذاب دار البوار، وله الضنك والضيق في الحياة الدنيا كذلك، ومثله قوله تعالى: ﴿وَمَن يَعْشُ عَن ذِكْرِ ٱلرَّحْمَٰنِ نُقَيِّضْ لَهُۥ شَيْطَٰنًا فَهُوَ لَهُۥ قَرِينٌ ۝٣٦ وَإِنَّهُمْ لَيَصُدُّونَهُمْ عَنِ ٱلسَّبِيلِ وَيَحْسَبُونَ أَنَّهُم مُّهْتَدُونَ ۝٣٧﴾ [الزخرف: ٣٦-٣٧].

فأخبر سبحانه في هذه الآية أن من ابتلاه بقرينه من الشياطين، وضلاله به، إنما كان بسبب إعراضه وعشوه عن ذكره الذي أنزله على رسوله، فكان عقوبة هذا الإعراض أن قيض له شيطانًا يقارنه فيصده عن سبيل ربه وطريق فلاحه، وهو يحسب أنه مهتد. حتى إذا وافى ربه يوم القيامة مع قرينه. وعاين هلاكه وإفلاسه، قال: ﴿يَٰلَيْتَ بَيْنِى وَبَيْنَكَ بُعْدَ ٱلْمَشْرِقَيْنِ فَبِئْسَ ٱلْقَرِينُ﴾ [الزخرف: ٣٨].

وكل من أعرض عن الاهتداء بالوحي الذي هو ذكر الله فلا بد أن يقول هذا يوم القيامة، وهؤلاء لا عذر لهم يوم القيامة لأن ضلالهم منشؤه الإعراض عن الوحي الذي جاء به الرسول صلى الله عليه وسلم، ولو ظن أنه مهتد فإنه مفرط بإعراضه عن اتباع داعي الهدى، فإذا ضل فإنما أتي من تفريطه وإعراضه[1].

٢. استحقاقهم العذاب.

فقد توعد الله المعرضين عن سبيل الله حيث تهددهم الله بذلك في أكثر من آية.

قال تعالى: ﴿وَمَا لَهُمْ أَلَّا يُعَذِّبَهُمُ ٱللَّهُ وَهُمْ يَصُدُّونَ عَنِ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ وَمَا كَانُوٓا۟ أَوْلِيَآءَهُۥٓ ۚ إِنْ أَوْلِيَآؤُهُۥٓ إِلَّا ٱلْمُتَّقُونَ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ۝٣٤﴾ [الأنفال: ٣٤].

والمعنى: وأي شيء يمنع من عذاب مشركي قريش بعد خروجك -يا محمد- وخروج المؤمنين المستضعفين من بين أظهرهم؟ إنه لا مانع أبدًا من وقع العذاب عليهم وقد وجد مقتضية منهم، حيث اجترحوا من المنكرات والسيئات ما يجعلهم مستحقين للعقاب الشديد[2].

وقال تعالى: ﴿وَلَا تَتَّخِذُوٓا۟ أَيْمَٰنَكُمْ دَخَلًۢا بَيْنَكُمْ فَتَزِلَّ قَدَمٌۢ بَعْدَ ثُبُوتِهَا وَتَذُوقُوا۟ ٱلسُّوٓءَ بِمَا صَدَدتُّمْ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ ۖ وَلَكُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ۝٩٤﴾ [النحل: ٩٤].

فقوله: ﴿بِمَا صَدَدتُّمْ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾، أي: بما فتنتم من أراد الإيمان بالله ورسوله عن الإيمان ﴿وَلَكُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾ في

(١) مفتاح دار السعادة ١/ ٤٣.
(٢) التفسير الوسيط، طنطاوي ٦/ ٩٢.

الآخرة، وذلك نار جهنم[1].

وقال تعالى: ﴿اتَّخَذُوا أَيْمَانَهُمْ جُنَّةً فَصَدُّوا عَن سَبِيلِ اللَّهِ فَلَهُمْ عَذَابٌ مُّهِينٌ ﴿١٦﴾﴾ [المجادلة: ١٦].

والجنة: الوقاية والسترة، من جن، إذا استتر، أي: وقاية من شعور المسلمين بهم ليتمكنوا من صد كثير ممن يريد الدخول في الإسلام عن الدخول فيه؛ لأنهم يختلقون أكذوبات ينسبونها إلى الإسلام والمسلمين[2].

والله تعالى يضاعف العذاب للصادين عن دينه، قال تعالى: ﴿الَّذِينَ كَفَرُوا وَصَدُّوا عَن سَبِيلِ اللَّهِ زِدْنَاهُمْ عَذَابًا فَوْقَ الْعَذَابِ بِمَا كَانُوا يُفْسِدُونَ ﴿٨٨﴾﴾ [النحل: ٨٨].

يقول تعالى ذكره: الذين جحدوا يا محمد نبوتك وكذبوك فيما جئتهم به من عند ربك، وصدوا عن الإيمان بالله وبرسوله، ومن أراده زدناهم عذابًا يوم القيامة في جهنم فوق العذاب الذي هم فيه قبل أن يزادوه[3].

وتوعدهم الله تعالى بالسعير، فقال: ﴿فَمِنْهُم مَّنْ آمَنَ بِهِ وَمِنْهُم مَّن صَدَّ عَنْهُ وَكَفَىٰ بِجَهَنَّمَ سَعِيرًا ﴿٥٥﴾﴾ [النساء: ٥٥].

أي: وكفى بالنار عقوبة لهم على كفرهم وعنادهم ومخالفتهم كتب الله ورسله[4].

(١) جامع البيان، الطبري ١٧/ ٢٨٨.
(٢) التحرير والتنوير، ابن عاشور ٢٨/ ٤٩.
(٣) جامع البيان، الطبري ١٧/ ٢٧٦.
(٤) تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ٢/ ٣٣٦.

وقال تعالى: ﴿وَلَوْ نَشَاءُ لَطَمَسْنَا عَلَىٰ أَعْيُنِهِمْ فَاسْتَبَقُوا الصِّرَاطَ فَأَنَّىٰ يُبْصِرُونَ ﴿٦٦﴾﴾ [يس: ٦٦].

أي: ولو نشاء لعاقبناهم على كفرهم، فطمسنا على أعينهم، فصيرناهم عميا لا يبصرون طريقا، ولا يهتدون إلى شيء.

وإجمال المراد: لو شئنا لأذهبنا أحداقهم، فلو أرادوا الاستباق وسلوك الطريق الذي اعتادوا سلوكه لم يستطيعوا ذلك[5].

٣. حبوط الأعمال.

ضلال الأعمال هو انحرافها عن صراط الله المستقيم، وسيرها في طريق آخر لا يرضي الله، وإنما يرضي النفس الأمارة بالسوء، ويرضي الشيطان، وهذا مدعاة لخسران العمل وحبوطه.

قال تعالى: ﴿قُلْ هَلْ نُنَبِّئُكُم بِالْأَخْسَرِينَ أَعْمَالًا ﴿١٠٣﴾ الَّذِينَ ضَلَّ سَعْيُهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَهُمْ يَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ يُحْسِنُونَ صُنْعًا ﴿١٠٤﴾ أُولَٰئِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِ رَبِّهِمْ وَلِقَائِهِ فَحَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ فَلَا نُقِيمُ لَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَزْنًا ﴿١٠٥﴾﴾ [الكهف: ١٠٣-١٠٥].

ولذلك حكم الله بضلال الأعمال على ما يفعله الصادون عن سبيل الله تعالى.

قال تعالى: ﴿الَّذِينَ كَفَرُوا وَصَدُّوا عَن سَبِيلِ اللَّهِ أَضَلَّ أَعْمَالَهُمْ ﴿١﴾﴾ [محمد: ١].

أي: الذين جحدوا توحيد الله وآياته،

(٥) تفسير المراغي ٢٣/ ٢٨.

وعبدوا غيره، وصدوا غيرهم عن دين الإسلام، بنهيهم عن الدخول فيه، وهم كفار قريش، أبطل الله ثواب أعمالهم وأحبطها وجعلها ضائعة، ولم يجعل لها ثوابًا ولا جزاء في الآخرة.

فكل ما يسمونه مكارم الأخلاق، كصلة الرحم، وفك الأسارى، وقرى الأضياف، وعمارة المسجد الحرام بالسقاية والخدمة للحجاج، وإجارة المستجير، لا يقبل مع الكفر والصد[١].

وحكم الله تعالى على هذه الأعمال الضالة الصادرة عن المعرضين بالحبوط وهو الضياع وعدم الانتفاع بها.

قال تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَصَدُّوا عَن سَبِيلِ اللَّهِ وَشَاقُّوا الرَّسُولَ مِن بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ الْهُدَىٰ لَن يَضُرُّوا اللَّهَ شَيْئًا وَسَيُحْبِطُ أَعْمَالَهُمْ ۝٣٢﴾ [محمد: ٣٢].

فأخبر تعالى عمن كفر وصد عن سبيل الله، وخالف الرسول وشاقه، وارتد عن الإيمان من بعد ما تبين له الهدى: أنه لن يضر الله شيئا، وإنما يضر نفسه ويخسرها يوم معادها، وسيحبط الله عمله فلا يثيبه على سالف ما تقدم من عمله الذي عقبه بردته مثقال بعوضة من خير، بل يحبطه ويمحقه بالكلية، كما أن الحسنات يذهبن السيئات[٢].

٤. حمل الأوزار في يوم القيامة والخلود في النار.

بين الله تعالى جزاء المعرضين عن القرآن الكريم في قوله تعالى: ﴿كَذَٰلِكَ نَقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنبَاءِ مَا قَدْ سَبَقَ ۚ وَقَدْ آتَيْنَاكَ مِن لَّدُنَّا ذِكْرًا ۝٩٩ مَّنْ أَعْرَضَ عَنْهُ فَإِنَّهُ يَحْمِلُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وِزْرًا ۝١٠٠ خَالِدِينَ فِيهِ ۖ وَسَاءَ لَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ حِمْلًا ۝١٠١ يَوْمَ يُنفَخُ فِي الصُّورِ ۚ وَنَحْشُرُ الْمُجْرِمِينَ يَوْمَئِذٍ زُرْقًا ۝١٠٢ يَتَخَافَتُونَ بَيْنَهُمْ إِن لَّبِثْتُمْ إِلَّا عَشْرًا ۝١٠٣﴾ [طه: ٩٩-١٠٣].

أي: كما قصصنا عليك نبأ بني إسرائيل في خبر العجل وعبادتهم له، كذلك نقص عليك أخبار الأمم السابقة، كما وقعت، من غير زيادة ولا نقصان، لتكون عبرة وعظة، وذات فائدة في فهم ظروف الأحداث الجديدة، وأحوال الأمة في معاداة رسولها. وقد أعطيناك من عندنا ذكرا، وهو القرآن المجيد، لتتذكر به على الدوام، ولأنه لم يعط نبي من الأنبياء قبلك مثله، ولا أكمل منه، ولا أجمع لخبر المتقدمين غيره، وفيه صلاح الدين والدنيا والآخرة، ويكون المراد من كلمة «الذكر» القرآن.

وكل من كذب بالقرآن وأعرض عن اتباعه، فلم يؤمن به، ولا عمل بشرائعه وأحكامه، وابتغى الهدى في غيره، فإن هذا

(١) التفسير المنير، الزحيلي ٢٦/ ٧٩.

(٢) تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ٧/ ٣٢٢.



المعرض يتحمل إثما عظيما، ويتعرض لعقوبة ثقيلة يوم القيامة، بسبب إعراضه عن كتاب الله، كما جاء في آية أخرى: ﴿وَمَن يَكْفُرْ بِهِۦ مِنَ ٱلْأَحْزَابِ فَٱلنَّارُ مَوْعِدُهُۥ﴾ [هود: ١٧].

والإعراض عن القرآن يشمل كل من بلغه هذا الكتاب، من العرب والعجم من أهل الكتاب وغيرهم من الوثنيين والماديين، وأصحاب النحلات والملل، والمذاهب الفاسدة، والعقائد الباطلة.

ويكون أولئك المعرضون عن القرآن خالدين ماكثين على الدوام في الجزاء الأخروي، وهو النار لا محيد لهم عنه، وبئس الحمل الذي حملوه حملهم من الأوزار والأثقال، جزاء إعراضهم[١].

موضوعات ذات صلة:

الاستقامة، الإسلام، الإيمان، الضلال، الهداية

(١) التفسير الوسيط للزحيلي ٢/ ١٥٤٧.



صفات الله عز وجل

عناصر الموضوع

مفهوم صفات الله عز وجل

أولًا: المعنى اللغوي:

قال ابن فارس: «الصفة: الأمارة اللازمة للشيء»[(١)]، وقال: «النعت: وصفك الشيء بما فيه من حسن»[(٢)]؛ لأن الصفة: مصدر وصفت الشيء أصفه وصفًا، وصفة، مثل: وعد، وعدًا، وعدة[(٣)].

ثانيًا: المعنى الاصطلاحي:

«هي الاسم الدال على بعض أحوال الذات وهي الأمارة اللازمة بذات الموصوف الذي يعرف بها»[(٤)]، «وهي ما وقع الوصف مشتقًا منها، وهو دالٌّ عليها، وذلك مثل العلم والقدرة ونحوه»[(٥)].

«فإذا قيل: إن الله بكل شيء عليم، وهو رحمن رحيم، وعلى كل شيء قدير، فالمعاني القائمة بالرب تعالى التي دل عليها هذا الكلام، من العلم، والرحمة والقدرة، هي الصفات المقصودة، وإنكار ذلك مكابرة، أو عناد وضلال، وإلحاد»[(٦)].

«وقد نص الأئمة على أن صفاته داخلة في مسمى أسمائه، فلا يقال: إن علمه وقدرته زائدة عليه. ومن قال من أهل السنة: إن الصفات، زائدة على الذات، فمراده: أنها زائدة على ما أثبته أهل التعطيل، الذين أثبتوا ذاتًا مجردة عن الصفات؛ لأنه ليس في الوجود ذات مجردة عن الصفات، كما لا يمكن وجود صفات بلا ذات تقوم بها، فتخيل وجود أحدهما دون الآخر من الهوس»[(٧)].

والخلاصة: أن صفات الله هي التي تقوم بذاته، فهي نعوت الكمال القائمة بالذات الإلهية كالعلم والحكمة والسمع والبصر والكلام... إلخ.

---

(١) مقاييس اللغة ٥/ ٤٤٨.
(٢) المصدر السابق ٦/ ١١٥.
(٣) المصدر السابق.
(٤) التعريفات، الجرجاني ص ١٣٣.
(٥) الكليات، الكفوي ص٥٤٦ ويعنى بالوصف هنا الاسم؛ فالعلم صفة، والعالم وصف دال عليها، والقدرة صفة، والقادر وصف دال عليها.
(٦) شرح كتاب التوحيد من صحيح البخاري، عبدالله الغنيمان ١/ ٦٢.
(٧) المصدر السابق ١/ ٢٢٦.

صفات الله في الاستعمال القرآني

لم ترد «صفات الله» كمركب إضافي في الاستعمال القرآني، ولكن تحدث القرآن عن صفات الله عز وجل من خلال:

أولًا: الحديث عن ألفاظ ذات صلة بصفات الله تعالى.

كحديث القرآن عن أسماء الله تعالى الحسنى بما تتضمنه من صفات الكمال التي تليق بجلاله وكماله سبحانه وتعالى مثل: الحي، القيوم، الرحيم، الودود، العزيز، السميع، القدير، العليم، البصير.

ثانيًا: الحديث عن أنواع صفات الله تعالى:

فقد تحدث القرآن الكريم عن صفات الله تعالى في كثير من آياته، وهي تنقسم إلى:

١. **الصفات الذاتية**: كالحياة، والعلم، والقدرة، والعزة، والسمع، والبصر، والقوة.

٢. **الصفات الفعلية**: كالاستواء على العرش، والخلق، والرزق، والإتيان والمجيء لفصل القضاء يوم القيامة، والغضب، والرضا، والمحبة، والكره، والقبض، والبسط، وغير ذلك من أفعال الرب تبارك وتعالي.

٣. **الصفات المقابلة أو السلبية**: كالنوم، والموت، والضلال، والنسيان، والعجز، والتعب، والظلم، والبخل، والفقر، وغير ذلك مما تحدث عنه القرآن.

الألفاظ ذات الصلة

١ الأسماء:

الاسم لغة:

مشتق من السمو والعلو[(١)].

وهو اللفظ الموضوع لمعنًى تعيينًا أو تمييزًا، وقيل: هو العلامة توضع على الشيء يعرف بها[(٢)].

الحسنى لغة:

حسنى على وزن «فعلى» تأنيث أفعل التفضيل، فحسنى تأنيث أحسن، ككبرى تأنيث أكبر، وصغرى تأنيث أصغر، ولذلك يخطئ من يقول: «إنها تأنيث حسن»؛ لأن تأنيث «حسن» «حسنة»، ومن أجل ذلك لا يصح أن نقول: «إن أسماء الله حسنة»، والصواب هو أن نقول: «إن أسماء الله حسنى» كما وصفها الله بذلك[(٣)].

الأسماء الحسنى اصطلاحًا:

قال شيخ الإسلام ابن تيمية: «الأسماء الحسنى المعروفة هي التي يدعى الله بها، وهي التي جاءت في الكتاب والسنة، وهي التي تقتضي المدح والثناء بنفسها»[(٤)].

وقيل: أسماء الله تعالى الحسنى: هي التي تسمى بها سبحانه، واستأثر بها لنفسه جل وعلا[(٥)].

الصلة بين صفات الله والأسماء الحسنى:

أسماء الله الحسنى هي الأصل الذي يؤخذ منها الصفات العلى، ومن هنا فالعلاقة ذات صلة كبيرة إذ مبناها على الأصل وفرعه، وقد قال ابن القيم رحمه الله: «إثبات صفات الكمال الذي أثبته لنفسه وتنزيهه عن العيوب والنقائص والتمثيل وأن ما وصف الله به فهو الذي يوصف به لا ما وصفه به الخلق»[(٦)]. ولعل هذا مما يبين لنا العلاقة بين الاسم والصفة.

---

(١) انظر: الصحاح، الجوهري ٦/ ٢٣٨٣.
(٢) معتقد أهل السنة والجماعة في توحيد الأسماء والصفات، التميمي ص ٢٩.
(٣) انظر: المصدر السابق ص ٣٠.
(٤) شرح العقيدة الأصفهانية ص٣١.
(٥) مفهوم الأسماء والصفات، سعيد ندى، مجلة الجامعة الإسلامية، العدد ٤٥، ص٧٩.
(٦) الصواعق المرسلة ١/ ١٥٤.

ومن أهم ما يبين هذه الصلة الكبيرة بين الأسماء والصفات ما يلي:

أولًا: «إن أهل السنة يؤمنون بأن كل اسم من أسماء الله يدل على معنى الذي نسميه «الصفة» فلذلك كان لزامًا على من يؤمن بأسماء الله تعالى أن يراعي الأمور التالية:

١. الإيمان بثبوت ذلك الاسم لله عز وجل.

٢. الإيمان بما دل عليه الاسم من المعنى أي «الصفة».

٣. الإيمان بما يتعلق به من الآثار والحكم والمقتضى.

مثال ذلك: «السميع»: اسم من أسماء الله الحسنى، فلابد من الإيمان به من:

- إثبات اسم «السميع» باعتباره اسمًا من أسماء الله الحسنى.
- إثبات «السمع» صفة له.
- إثبات الحكم «أي الفعل» وهو أن الله يسمع السر والنجوى.
- إثبات المقتضى والأثر: وهو وجوب خشية الله ومراقبته وخوفه والحياء.

منه عز وجل»[1].

وكذلك الصفات: «فأهل السنة يرون أنه لزامًا على من أراد إثبات الصفات والإيمان بأنها صفات كمال تثبت لله حقيقة أن يراعي الأمور التالية:

١. إثبات تلك الصفة فلا يعاملها بالنفي والإنكار.

٢. أن لا يتعدى بها اسمها الخاص الذي سماها الله به، بل يحترم الاسم كما يحترم الصفة، فلا يعطل الصفة ولا يغير اسمها ويعيرها اسمًا آخر، كما تسمي المعطلة سمعه وبصره وكلامه «أعراضا» ويسمون وجهه ويديه وقدمه «جوارح و أبعاضًا» ويسمون علوه على خلقه واستواءه على عرشه «تحيزًا».

٣. عدم تشبيهها بما في المخلوق، فإن الله سبحانه ليس كمثله شيء لا في ذاته ولا في صفاته ولا في أفعاله.

٤. اليأس من إدراك كنهها وكيفياتها، فالعقل قد ييئس من تعرف كنه الصفة وكيفيتها، فإنه لا يعلم كيف الله إلا الله، وهذا معنى قول أهل السنة: «بلا كيف»، أي: بلا كيف يعقله البشر، فإن من لا تعلم حقيقة ذاته وماهيته كيف تعرف كيفية نعوته وصفاته؟ ولا يقدح ذلك في الإيمان بها، ومعرفة معانيها، فالكيفية وراء ذلك.

٥. تحقيق المقتضى والأثر لتلك الصفات، فلكل صفة عبودية خاصة هي من موجباتها

(١) معتقد أهل السنة والجماعة في توحيد الأسماء والصفات، التميمي ص ٣٥.

ومقتضياتها -أعني من موجبات العلم بها والتحقق بمعرفتها- فعلم العبد بتفرد الرب بالخلق والرزق والإحياء والإماتة، يثمر له عبودية « التوكل»، وعلم العبد بجلاله الله وعظمته وعزه، يثمر له الخضوع والاستكانة والمحبة»[1].

ثانيًا: إن أسماء الله مشتقة من صفاته:

وترجع أسماء الله الحسنى من حيث معانيها إلى أحد الأمور التالية:

١. صفات معنوية: كالعليم، والقدير، والسميع، والبصير.

٢. ما يرجع إلى أفعاله: كالخالق، والرازق، والبارئ، والمصور.

٣. ما يرجع إلى التنزيه المحض: ولا بد من تضمنه ثبوتًا إذ لا كمال في العدم المحض: كالقدوس، والسلام، والأحد.

٤. ما دل على جملة أوصاف عديدة ولم يختص بصفة معينة بل هو دال على معنى مفرد نحو: المجيد، العظيم، الصمد.[2]

(١) المصدر السابق ص ٣٦

(٢) الصفات الإلهية تعريفها أقسامها، التميمي ١٧-١٨.



منهج السلف في الايمان بصفات الله

لقد فهم السلف الصالح آيات الصفات فهمًا صحيحًا، حيث آمنوا بها إيمانًا يقينيًا، وذلك بإثباتها إثباتًا يثبت به اللفظ ومعناه اللائق به، ونفيها نفيًا يستوجب ضده، وهو الكمال المنفي من هذا السلب، فالواجب في أسمائه الحسنى وصفاته العليا أن تثبت على ما جاء به الكتاب والسنة على الوجه اللائق بجلال الله وعظمته، فلا ينفى منها اسم ولا ينفى من معانيها صفة ولا تشبه بصفات المخلوقين.

أولًا: بيان طريق أهل السنة والجماعة في أسماء الله تعالى وصفاته مع أمثلة توضح تلك الطريقة:

أهل السنة والجماعة طريقتهم في أسماء الله وصفاته أنهم يعتبرون أن ما ثبت من أسماء الله وصفاته في كتاب الله أو فيما صح عن رسول الله صلى الله عليه وسلم، فهو حق على حقيقته يراد به ظاهره ولا يحتاج إلى تحريف المحرفين وذلك لأن تحريف المحرفين مبني على سوء فهم، أو سوء قصد حيث ظنوا أنهم إذا أثبتوا تلك النصوص، أو تلك الأسماء والصفات على ظاهرها ظنوا أن ذلك إثبات للتمثيل، ولهذا صاروا يحرفون الكلم عن مواضعه، وقد يكونون ممن لم يفهموا هذا الفهم ولكن لهم سوء قصد في تفريق هذه الأمة الإسلامية شيعًا كل حزب بما لديهم فرحون.

ولهذا كانت طريقتهم أن أسماء الله وصفاته توقيفية لا يمكن لأحد أن يسمي الله بما لم يسم به نفسه، أو أن يصف الله بما لم يصف به نفسه.

فإن أي إنسان يقول: إن من أسماء الله كذا، أو ليس من أسماء الله، أو أن من صفات الله كذا، أو ليس من صفات الله بلا دليل أنه لاشك قول على الله بلا علم[1].

وقد قال الله سبحانه وتعالى: ﴿قُلْ إِنَّمَا حَرَّمَ رَبِّيَ الْفَوَاحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ وَالْإِثْمَ وَالْبَغْيَ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَأَن تُشْرِكُوا بِاللَّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِ سُلْطَانًا وَأَن تَقُولُوا عَلَى اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿٣٣﴾﴾ [الأعراف:٣٣].

قال ابن كثير رحمه الله تعالى: «وقوله: ﴿وَأَن تُشْرِكُوا بِاللَّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِ سُلْطَانًا وَأَن تَقُولُوا عَلَى اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾ أي: تجعلوا له شريكًا في عبادته، وأن تقولوا عليه من الافتراء والكذب من دعوى أن له ولدًا ونحو ذلك، مما لا علم لكم به»[2].

ثم إن طريقتهم في أسماء الله تعالى أن ما سمى الله به نفسه. فإن كان من الأسماء المتعدية فإنهم يرون من شرط تحقيق الإيمان به ما يلي:

(١) انظر معتقد أهل السنة والجماعة في توحيد الأسماء والصفات، التميمي ص ٣٦.
(٢) تفسير القرآن العظيم ٣/ ٤٠٩.

١. أن يؤمن المرء بذلك الاسم اسمًا له عز وجل.

٢. أن يؤمن بما دل عليه من الصفة سواء كانت الدلالة تضمنًا أو التزامًا.

٣. أن يؤمن بأثر ذلك الاسم الذي كان مما دل عليه الاسم من الصفة[1].

وهنا أضرب أمثلة:

من أسماء الله تعالى: «البصير» وقد ورد في آيات كثير منها قوله تعالى: ﴿وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ﴾ [الشورى:١١].

ومن صفاته: البصر: قال تعالى: ﴿قَدْ سَمِعَ اللَّهُ قَوْلَ الَّتِي تُجَادِلُكَ فِي زَوْجِهَا وَتَشْتَكِي إِلَى اللَّهِ وَاللَّهُ يَسْمَعُ تَحَاوُرَكُمَا إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ بَصِيرٌ ۝١﴾ [المجادلة:١].

وقد ذكر ابن كثير رحمه الله سبب نزول هذه الآية فقال: «عن عائشة قالت: الحمد لله الذي وسع سمعه الأصوات، لقد جاءت المجادلة إلى النبي صلى الله عليه وسلم تكلمه وأنا في ناحية البيت، ما أسمع ما تقول، فأنزل الله عز وجل: ﴿قَدْ سَمِعَ اللَّهُ قَوْلَ الَّتِي تُجَادِلُكَ فِي زَوْجِهَا﴾ إلى آخر الآية وهكذا رواه البخاري في كتاب التوحيد تعليقًا فقال: وقال الأعمش، عن تميم بن سلمة، عن عروة، عن عائشة، فذكره»[2].

ويجب على طريق أهل السنة والجماعة أن يثبت هذا الاسم من أسماء الله فيدعى الله به ويعبد به فيقال مثلًا عبد البصير ويقال يا بصير يا عليم وما أشبه، وكذلك أيضًا يثبت ما دل عليه هذا الاسم من الصفة وهي البصر فنثبت لله بصرًا عامًا شاملًا لا يخفى عليه أي شيء وإن ضعف، كما نثبت أيضًا أثر هذه الصفة وهي أن الله تبارك وتعالى يبصر كل شيء وبهذا ننتفع انتفاعًا كبيرًا من أسماء الله وصفاته لأنه يلزم من هذه الأمور الثلاثة التي أثبتناها في الاسم إذا كان متعديًا أن نتعبد الله به فنحقق قول الله عز وجل: ﴿وَلِلَّهِ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَى فَادْعُوهُ بِهَا﴾ [الأعراف:١٨٠].

قال ابن سعدي رحمه الله تعالى: «ومن تمام كونها «حسنى» أنه لا يدعى إلا بها، ولذلك قال: ﴿فَادْعُوهُ بِهَا﴾ وهذا شامل لدعاء العبادة، ودعاء المسألة، فيدعى في كل مطلوب بما يناسب ذلك المطلوب، فيقول الداعي مثلًا: اللهم اغفر لي وارحمني، إنك أنت الغفور الرحيم، وتب علي يا تواب، وارزقني يا رزاق، والطف بي يا لطيف، ونحو ذلك»[3].

ومن أسمائه «الحي».

فإن الحي من أسماء الله عز وجل،

(١) انظر معتقد أهل السنة والجماعة ص ٣٦، الصفات الإلهية تعريفها، أقسامها، التميمي ١٧-١٨.

(٢) تفسير القرآن العظيم ٨/ ٣٤.

والحديث أخرجه البخاري في صحيحه تعليقًا، رقم ٧٣٨٥.

(٣) تيسير الكريم الرحمن، السعدي ص ٣١٠.

نثبته اسمًا لله فنقول من أسماء الله تعالى: «الحي» وندعو الله به فنقول: «يا حي، يا قيوم» وهو متضمن لصفة الحياة الكاملة المطلقة وقد ورد في آيات كثيرة منها قوله تعالى: ﴿وَتَوَكَّلْ عَلَى الْحَيِّ الَّذِي لَا يَمُوتُ وَسَبِّحْ بِحَمْدِهِ وَكَفَىٰ بِهِ بِذُنُوبِ عِبَادِهِ خَبِيرًا ﴿٥٨﴾﴾ [الفرقان:٥٨].

«وإنما قال: ﴿عَلَى الْحَيِّ الَّذِي لَا يَمُوتُ﴾، لأن من توكل على الحي الذي يموت فإذا مات المتوكل عليه صار المتوكل ضائعًا، وأما الله تعالى فهو حي لا يموت فلا يضيع المتوكل عليه».[1]

ونؤمن بما دل عليه من صفة، سواء كان ذلك تضمنًا أو التزامًا، وهي الحياة الكاملة التي تتضمن كل ما يكون من صفات الكمال في الحي من علم، وقدرة، وسمع، وبصر، وكلام وغير ذلك، فعلى هذا نقول إذا كان الاسم من أسماء الله غير متعد فإن تحقيق الإيمان به يكون بأمرين:

أحدهما: إثباته اسمًا من أسماء الله.

والثاني: إثبات ما دل عليه من الصفة على وجه الكمال اللائق بالله تبارك وتعالى.[2]

وقال الشيخ محمد الأمين الشنقيطي: «اعلموا أن مبحث آيات الصفات دل القرآن العظيم أنه يتركز على ثلاثة أسس من جاء بها كلها فقد وافق الصواب وكان على الاعتقاد الذي كان عليه النبي صلي الله عليه وسلم، وأصحابه والسلف الصالح، ومن أخل بواحد من تلك الأسس الثلاثة فقد ضل. وكل هذه الأسس الثلاثة يدل عليها قرآن عظيم.

أحد هذه الأسس الثلاثة هو تنزيه الله جل وعلا عن أن يشبه شيء من صفاته شيئًا من صفات المخلوقين. وهذا الأصل يدل عليه قوله تعالى: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ﴾ [الشورى:١١].

﴿وَلَمْ يَكُن لَّهُ كُفُوًا أَحَدٌ ﴿٤﴾﴾ [الإخلاص:٤].

﴿فَلَا تَضْرِبُوا لِلَّهِ الْأَمْثَالَ﴾ [النحل:٧٤].

الثاني من هذه الأسس: هو الإيمان بما وصف الله به نفسه، لأنه لا يصف الله أعلم بالله من الله ﴿أَأَنتُمْ أَعْلَمُ أَمِ اللَّهُ﴾ [البقرة:١٤٠].

والإيمان بما وصفه به رسوله صلى الله عليه وسلم لأنه لا يصف الله بعد الله أعلم بالله من رسول الله صلى الله عليه وسلم، فيلزم كل مكلف أن يؤمن بما وصف الله به نفسه أو وصفه به رسوله صلى الله عليه وسلم وينزه ربه جل وعلا عن أن تشبه صفته صفة المخلوقين. وحيث أخل بأحد هذين الأصلين وقع في هوة ضلال، لأن

(١) اللباب في علوم الكتاب ١٤/ ٥٥٤.
(٢) انظر معتقد أهل السنة والجماعة في توحيد الأسماء والصفات ص ٣٦، الصفات الإلهية تعريفها أقسامها ص ١٧-١٨.

من تنطع بين يدي رب السموات والأرض وتجرأ على الله بهذه الجرأة العظيمة ونفى عن ربه وصفا أثبته لنفسه فهذا مجنون فالله جل وعلا يثبت لنفسه صفات كمال وجلال فكيف يليق لمسكين جاهل أن يتقدم بين يدي رب السموات والأرض ويقول هذا الذي وصفت به نفسك لا يليق بك ويلزمه من النقص كذا وكذا، فأنا أؤوله وألغيه وآتى ببدله من تلقاء نفسي من غير استناد إلى الكتاب أو السنة. سبحانك هذا بهتان عظيم!

ومن ظن أن صفة خالق السموات والأرض تشبه شيئا من صفات الخلق فهذا مجنون جاهل، ملحد ضال، ومن آمن بصفات ربه جل وعلا منزها ربه عن تشبيه صفاته بصفات الخلق فهو مؤمن منزه سالم من ورطة التشبيه والتعطيل. وهذا التحقيق هو مضمون قوله: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ﴾ [الشورى:١١].

فهذه الآية فيها تعليم عظيم يحل جميع الإشكالات ويجيب عن جميع الأسئلة حول الموضوع. ذلك لأن الله قال: ﴿وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ﴾ بعد قوله: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ﴾.

ومعلوم أن السمع والبصر من حيث هما سمع وبصر يتصف بهما جميع الحيوانات، فكأن الله يشير للخلق ألا ينفوا عنه سمعه وبصره بادعاء أن الحوادث تسمع وتبصر وأن ذلك تشبيه بل عليهم أن يثبتوا له صفة سمعه وبصره على أساس ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ﴾.

فالله جل وعلا له صفات لائقة بكماله وجلاله والمخلوقات لهم صفات مناسبة لحالهم وكل هذا حق ثابت لا شك فيه. إلا أن صفة رب السموات والأرض أعلى وأكمل من أن تشبه صفات المخلوقين، فمن نفي عن الله وصفا أثبته لنفسه فقد جعل نفسه أعلم بالله من الله سبحانك هذا بهتان عظيم!

ومن ظن أن صفة ربه تشبه شيئًا من صفة الخلق فهذا مجنون ضال ملحد لا عقل له يدخل في قوله تعالى: ﴿تَٱللَّهِ إِن كُنَّا لَفِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ۝٩٧ إِذْ نُسَوِّيكُم بِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ۝٩٨﴾ [الشعراء:٩٧-٩٨].

ومن يسوى رب العالمين بغيره فهو مجنون»[1].

(١) منهج ودراسات لآيات الأسماء والصفات، محمد الأمين الشنقيطي ١-٤.

انواع صفات الله تعالى

أولًا: الصفات الذاتية:

هي التي لم يزل ولا يزال متصفًا بها، فضابطها: هي التي لا تنفك عن الذات. أو: التي لم يزل ولا يزال الله متصفًا بها. أو: الملازمة لذات الله تعالى. وضابط هذه الصفات: هي ما قام بالذات الإلهية مما يميزها عن غيرها، ووردت به نصوص الكتاب والسنة[1].

كالعلم والقدرة والسمع والبصر والعزة والحكمة والعلو والعظمة. ومنها الصفات الخبرية: كالوجه واليدين والعينين. وتأمل اسم الله الأحد المتضمن صفة الأحدية، فهذه الصفة تدل على الكمال المطلق؛ كما تدل على نفي صفة الولادة والتولد، وإن ورد ذلك في آية أخرى وهي قوله في سورة الإخلاص: ﴿لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ ۝٣﴾ [الإخلاص:٣].

وقوله في سورة الجن: ﴿مَا اتَّخَذَ صَاحِبَةً وَلَا وَلَدًا﴾ [الجن:٣].

وصفة النفس كما في قوله تعالى: ﴿كَتَبَ رَبُّكُمْ عَلَىٰ نَفْسِهِ الرَّحْمَةَ﴾ [الأنعام:٥٤].

فهي تدل على الكمال المطلق، ولنضرب أمثلة على هذه الصفات الذاتية والتي منها:

١ . الوجه.

قال تعالى: ﴿وَيَبْقَىٰ وَجْهُ رَبِّكَ ذُو الْجَلَالِ وَالْإِكْرَامِ ۝٢٧﴾ [الرحمن:٢٧].

«يخبر تعالى أن جميع أهل الأرض سيذهبون ويموتون أجمعون، وكذلك أهل السموات، إلا من شاء الله، ولا يبقى أحد سوى وجهه الكريم؛ فإن الرب تعالى وتقدس لا يموت، بل هو الحي الذي لا يموت أبدًا.

وهذه الآية كقوله تعالى: ﴿كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُ﴾ [القصص:٨٨].

وقد نعت تعالى وجهه الكريم في هذه الآية الكريمة بأنه ﴿ذُو الْجَلَالِ وَالْإِكْرَامِ﴾ أي: هو أهل أن يجل فلا يعصى، وأن يطاع فلا يخالف، كقوله: ﴿وَاصْبِرْ نَفْسَكَ مَعَ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُم بِالْغَدَاةِ وَالْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُ﴾ [الكهف:٢٨].

وكقوله إخبارًا عن المتصدقين: ﴿إِنَّمَا نُطْعِمُكُمْ لِوَجْهِ اللَّهِ﴾ [الإنسان:٩].

قال ابن عباس: ﴿ذُو الْجَلَالِ وَالْإِكْرَامِ﴾ ذو العظمة والكبرياء»[2].

٢ . اليدان.

قال تعالى: ﴿مَا مَنَعَكَ أَن تَسْجُدَ لِمَا خَلَقْتُ بِيَدَيَّ﴾ [ص:٧٥].

(١) الصفات الإلهية تعريفها أقسامها، التميمي ص ١٢.

(٢) تفسير القرآن العظيم ٧/ ٤٩٤ بتصرف.

«إن لفظ اليد جاء في القرآن على ثلاثة أنواع. مفردًا، ومثنًى، ومجموعًا.

فالمفرد: كقوله: ﴿تَبَارَكَ الَّذِي بِيَدِهِ الْمُلْكُ﴾ [الملك:١].

والمثنى كقوله: ﴿خَلَقْتُ بِيَدَيَّ﴾

والمجموع كقوله: ﴿عَمِلَتْ أَيْدِينَا﴾ [يس:٧١].

فحيث ذكر اليد مثناة. أضاف الفعل إلى نفسه بضمير الإفراد، وعدى الفعل بالباء إليهما، وقال: ﴿خَلَقْتُ بِيَدَيَّ﴾. وحيث ذكرها مجموعة أضاف الفعل إليها، ولم يعد الفعل بالباء.

فهذه ثلاثة فروق: فلا يحتمل ﴿خَلَقْتُ بِيَدَيَّ﴾ من المجاز ما يحتمله عملت أيدينا فإن كل أحد يفهم من قوله: عملت أيدينا ما يفهمه من قوله: عملنا وخلقنا، كما يفهم ذلك من قوله: فبما كسبت أيديكم وأما قوله: ﴿خَلَقْتُ بِيَدَيَّ﴾ فلو كان المراد منه مجرد الفعل لم يكن لذكر اليد بعد نسبة الفعل إلى الفاعل معنى فكيف وقد دخلت عليها الباء؟! فكيف إذا ثنيت؟!

وسر الفرق أن الفعل قد يضاف إلى يد ذي اليد، والمراد الإضافة إليه كقوله: ﴿ذَٰلِكَ بِمَا قَدَّمَتْ يَدَاكَ﴾ [الحج:١٠]. ﴿فَبِمَا كَسَبَتْ أَيْدِيكُمْ﴾ وأما إذا أضيف إليه الفعل، ثم عدي بالباء إلى اليد مفردة أو مثناة، فهو مما باشرته يده»[1].

٣. العينان.

قال تعالى: ﴿وَاصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ فَإِنَّكَ بِأَعْيُنِنَا﴾ [الطور:٤٨].

«أي اصبر على أذاهم ولا تبال بهم فإنك بمرأى منا وتحت كلاءتنا والله يعصمك من الناس.

وقوله: ﴿وَحَمَلْنَاهُ عَلَىٰ ذَاتِ أَلْوَاحٍ وَدُسُرٍ ۝١٣ تَجْرِي بِأَعْيُنِنَا جَزَاءً لِّمَن كَانَ كُفِرَ ۝١٤﴾ [القمر:١٣-١٤].

وقوله: ﴿تَجْرِي بِأَعْيُنِنَا﴾: أي بأمرنا بمرأى منا وتحت حفظنا وكلاءتنا ﴿جَزَاءً لِّمَن كَانَ كُفِرَ﴾ أي: جزاء لهم على كفرهم بالله وانتصارًا لنوح عليه السلام» كبرياء[2].

ثانيًا: الصفات الفعلية:

هي التي تتعلق بمشيئته، إن شاء فعلها وإن شاء لم يفعلها، وضابطها: هي التي تنفك عن الذات.كالاستواء على العرش، والنزول إلى السماء الدنيا.. إلخ.

وقد تكون الصفة ذاتية فعلية باعتبارين كالكلام، فإنه باعتبار أصله صفة ذاتية، لأن الله تعالى لم يزل ولا يزال متكلمًا، وباعتبار آحاد الكلام صفة فعلية، لأن الكلام يتعلق بمشيئته، يتكلم متى شاء بما شاء، كما في

(١) التفسير القيم، ابن القيم ص ٤٥٤.
(٢) تفسير القرآن العظيم ٧/ ٤٠٧، ٤٤٢.

قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا أَمْرُهُ إِذَا أَرَادَ شَيْئًا أَن يَقُولَ لَهُ كُن فَيَكُونُ ﴿٨٢﴾﴾ [يس:٨٢].

وكل صفة تعلقت بمشيئته تعالى فإنها تابعة لحكمته «فإعادته للأموات، فرد من أفراد آثار خلقه، ولهذا قال: ﴿إِنَّمَا أَمْرُهُ إِذَا أَرَادَ شَيْئًا﴾ نكرة في سياق الشرط، فتعم كل شيء. ﴿أَن يَقُولَ لَهُ كُن فَيَكُونُ﴾ أي:في الحال من غير تمانع»(١).

ومن الصفات الفعلية:

❁ صفات العفو والمغفرة والرحمة والعزة والقدرة.

قال تعالى: ﴿إِن تُبْدُوا خَيْرًا أَوْ تُخْفُوهُ أَوْ تَعْفُوا عَن سُوءٍ فَإِنَّ اللَّهَ كَانَ عَفُوًّا قَدِيرًا ﴿١٤٩﴾﴾ [النساء:١٤٩].

«وقد بين تعالى في هذه الآية أن العفو مع القدرة من صفاته تعالى، وكفى بذلك حثًا عليه، وقوله تعالى في هذه الآية الكريمة: ﴿وَلْيَعْفُوا وَلْيَصْفَحُوا أَلَا تُحِبُّونَ أَن يَغْفِرَ اللَّهُ لَكُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ [النور:٢٢] دليل على أن العفو والصفح على المسيء المسلم من موجبات غفران الذنوب، والجزاء من جنس العمل، ولذا لما نزلت قال أبو بكر: بلى والله نحب أن يغفر لنا ربنا، ورجع للإنفاق على مسطح، ومفعول «أن يغفر الله» محذوف للعلم به، أي: يغفر لكم ذنوبكم»(٢).

(١) تيسير الكريم الرحمن، السعدي ص ٧٠٠.
(٢) أضواء البيان، الشنقيطي ٥/ ٤٨٨.

وقال تعالى: ﴿وَلِلَّهِ الْعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِ وَلِلْمُؤْمِنِينَ﴾ [المنافقون:٨].

«أخبر تعالى بأن العزة كلها لله وحده لا شريك له، ولمن جعلها له كما قال في الآية الأخرى: ﴿مَن كَانَ يُرِيدُ الْعِزَّةَ فَلِلَّهِ الْعِزَّةُ جَمِيعًا﴾ [فاطر:١٠].

وقال تعالى: ﴿وَلِلَّهِ الْعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِ وَلِلْمُؤْمِنِينَ﴾ [المنافقون:٨].

والمقصود من هذا التهييج طلب العزة من جناب الله، والالتجاء إلى عبوديته، والانتظام في جملة عباده المؤمنين الذين لهم النصرة في هذه الحياة الدنيا، ويوم يقوم الأشهاد»(٣).

صفة الرحمة والعلم: قال تعالى ﴿رَبَّنَا وَسِعْتَ كُلَّ شَيْءٍ رَّحْمَةً وَعِلْمًا﴾ [غافر:٧].

قال ابن جرير رحمه الله تعالى: «ويعني بقوله: ﴿وَسِعْتَ كُلَّ شَيْءٍ رَّحْمَةً وَعِلْمًا﴾: وسعت رحمتك وعلمك كل شيء من خلقك، فعلمت كل شيء، فلم يخف عليك شيء، ورحمت خلقك، ووسعتهم برحمتك»(٤).

وقد جمع الدليلين العلم والرحمة معًا في قوله تعالى: ﴿رَبَّنَا وَسِعْتَ كُلَّ شَيْءٍ رَّحْمَةً وَعِلْمًا﴾»(٥).

(٣) تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ٢/ ٤٣٥.
(٤) جامع البيان ٢١/ ٣٥٥.
(٥) أضواء البيان، الشنقيطي ٨/ ٦٩.

❁ صفة المحبة.

قال تعالى: ﴿وَأَحْسِنُوٓاْ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُحْسِنِينَ﴾ [البقرة:١٩٥]: « إثبات المحبة لله عز وجل؛ لقوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُحْسِنِينَ﴾؛ وهي محبة حقيقية على ظاهرها؛ وليس المراد بها الثواب؛ ولا إرادة الثواب خلافًا للأشاعرة، وغيرهم من أهل التحريف الذين يحرفون هذا المعنى العظيم إلى معنى لا يكون بمثابته؛ فإن مجرد الإرادة ليست بشيء بالنسبة للمحبة؛ وشبهتهم أن المحبة إنما تكون بين شيئين متناسبين؛ وهذا التعليل باطل، ومخالف للنص، ولإجماع السلف، ومنقوض بما ثبت بالسمع والحس من أن المحبة قد تكون بين شيئين غير متناسبين؛ فقد أثبت النبي صلى الله عليه وسلم: (أن أحدًا -وهو حصى- جبلٌ يحبنا ونحبه)[١]؛ والإنسان يجد أن دابته تحبه، وهو يحبها؛ فالبعير إذا سمعت صوت صاحبها حنت إليه،وأتت إليه؛ وكذلك غيره من المواشي؛ والإنسان يجد أنه يحب نوعا من ماله أكثر من النوع الآخر»[٢].

❁ صفة الاستواء على عرشه.

ذكرت في سبعة مواضع «أنه جل وعلا وصف نفسه بالاستواء على العرش، ووصف غيره بالاستواء على بعض المخلوقات، فتمدح جل وعلا في سبع آيات من كتابه باستوائه على عرشه، ولم يذكر صفة الاستواء إلا مقرونة بغيرها من صفات الكمال، والجلال، القاضية بعظمته وجلاله جل وعلا، وأنه الرب وحده، المستحق لأن يعبد وحده

وقد علمت مما تقدم أنه لا إشكال في ذلك، وأن للخالق جل وعلا استواء لائقًا بكماله وجلاله، وللمخلوق أيضا استواء مناسبًا لحاله، وبين استواء الخالق والمخلوق من المنافاة ما بين ذات الخالق والمخلوق على نحو ليس كمثله شيء وهو السميع البصير كما تقدم إيضاحه»[٣].

«ولهذا قال الإمام مالك رحمه الله تعالى وقد سئل عن قوله تعالى: ﴿ٱلرَّحْمَٰنُ عَلَى ٱلْعَرْشِ ٱسْتَوَىٰ ۝٥﴾ [طه:٥].

كيف استوى؟ فقال: «الاستواء معلوم، والكيف مجهول، والإيمان به واجب، والسؤال عنه بدعة ».

هذا هو اللفظ المشهور عنه واللفظ الذي نقل عنه بالسند قال: الاستواء غير مجهول، والكيف غير معقول، والإيمان به واجب،

(١) تفسير القرآن الكريم، ابن عثيمين، الفاتحة والبقرة ٢/ ٣٩١.

(٢) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب المغازي، باب أحد يحبنا ونحبه، ٥/ ١٠٣، رقم ٤٠٨٤، ومسلم في صحيحه، كتاب الحج، باب فضل المدينة، ٢/ ٩٩٣، رقم ١٣٦٥.

(٣) أضواء البيان ٢/ ٢٨-٢٩ بتصرف وحذف.

والسؤال عنه بدعة[1].

وهذا اللفظ أدق من اللفظ الذي سقناه قبل، لأن كلمة «الكيف غير معقول» تدل على أنه إذا انتفى عنه الدليلان النقلي والعقلي فإنه لا يمكن التكلم به.

هذه الصفة من صفات الله لم يرد اسم من أسماء الله مشتق منه فلم يرد من أسمائه المستوى، ولكننا نقول: إنه استوى على العرش ونؤمن بهذه الصفة على الوجه اللائق به ونعلم أن معنى الاستواء هو العلو، فهو علو خاص بالعرش، ليس العلو المطلق على جميع المخلوقات، بل هو علو خاص ولهذا نقول في قوله تعالى: ﴿ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ﴾ [الأعراف:٥٤].

أي: علا واستقر على وجه يليق بجلاله وعظمته، وليس كاستواء الإنسان على البعير والكرسي مثلًا؛ لأن استواء الإنسان على البعير والكرسي استواء مفتقر إلى مكانه الذي يستوي عليه، أما استواء الله جل ذكره فإنه ليس استواء مفتقر، بل إن الله تبارك وتعالى غني عن كل شيء، كل شيء مفتقر إلى الله، والله تبارك وتعالى غني عنه.

ومن زعم أنه بحاجة إلى عرش يقله فقد أساء بربه عز وجل فهو سبحانه وتعالى غير مفتقر إلى شيء من مخلوقاته، بل جميع مخلوقاته مفتقرة إليه.

فاعلم أنه لا يجوز أبدًا أن يتخيل كيفية ذات الله، أو كيفية صفة من صفاته، واعلم أنك إن تخيلت أو حاولت التخيل فإنك لابد أن تقع في أحد محذورين: إما التحريف والتعطيل، وإما التمثيل والتشبيه.

ولهذا يجب علينا أن لا نتخيل أي شيء من كيفية صفات الله عز وجل، لا أقول لا تثبتوا المعنى يجب أن يثبت، لكن تخيل كيفية تلك الصفة لا يمكن أن تتخيلها وعلى أي مقياس تقيس هذا التخيل.

لا يمكن أبدًا أن تتخيل كيفية صفات الله عز وجل لا بالتقدير ولا بالقول يجب عليك أن تتجنب هذا لأنك تحاول ما لا يمكن الوصول إليه بل تحاول ما يخشى أن يوقعك في أمر عظيم لا تستطيع الخلاص منه إلا بسلوك التمثيل والتعطيل وذلك لأن الرب جلت عظمته لا يمكن لأحد أن يتخيله على كيفية معينة لأنه إن فعل ذلك فقد قفا ما ليس له به علم وقد قال الله تعالى: ﴿وَلَا تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِۦ عِلْمٌ﴾ [الإسراء:٣٦].

وإن تخيله على وصف مقارب بمثيل فقد مثل الله والله سبحانه وتعالى يقول: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ ۖ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ﴾ [الشورى:١١].

وبهذا نعلم أن من أنكر صفات الله أنكرها لأنه تخيل أولًا، ثم قالوا: هذا التخيل يلزم منه التمثيل ثم حرفوا!!

(١) انظر الحلية، أبو نعيم ٦/ ٣٢٥-٣٢٦.

ولهذا نقول: إن كل معطل ومنكر للصفات فإنه ممثل سبق تمثيله تعطيله، مثل أولًا وعطل ثانيًا ولو أنه قدر الله حق قدره ولم يتعرض لتخيل صفاته سبحانه ما احتاج إلى هذا الإنكار وإلى هذا التعطيل»[١].

❁ صفة النزول.

قال تعالى: ﴿وَجَآءَ رَبُّكَ وَٱلْمَلَكُ صَفًّا صَفًّا ۝٢٢﴾ [الفجر:٢٢].

قال ابن كثير: «﴿وَجَآءَ رَبُّكَ﴾ يعني: لفصل القضاء بين خلقه، وذلك بعد ما يستشفعون إليه بسيد ولد آدم على الإطلاق محمد صلى الله عليه وسلم، بعدما يسألون أولي العزم من الرسل واحدًا بعد واحد، فكلهم يقول: لست بصاحب ذاكم حتى تنتهي النوبة إلى محمد صلى الله عليه وسلم فيقول: (أنا لها، أنا لها)[٢]، فيذهب فيشفع عند الله في أن يأتي لفصل القضاء فيشفعه الله في ذلك، وهي أول الشفاعات، وهي المقام المحمود كما تقدم بيانه في سورة «سبحان» فيجيء الرب تعالى لفصل القضاء كما يشاء، والملائكة يجيئون بين يديه صفوفًا صفوفًا»[٣].

وقال ابن القيم: «المجيء والإتيان والذهاب والهبوط هذه من أنواع الفعل اللازم القائم به، كما أن الخلق، والرزق، والإماتة، والإحياء، والقبض، والبسط أنواع الفعل المتعدي وهو سبحانه موصوف بالنوعين وقد يجمعهما كقوله: ﴿خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ﴾ [الحديد:٤]»[٤].

وقد تكون الحكمة معلومة لنا، وقد نعجز عن إدراكها، ولكننا نعلم علم اليقين أنه سبحانه لا يشاء شيئًا إلا وهو موافق للحكمة، كما يشير إليه قوله تعالى: ﴿وَمَا تَشَآءُونَ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلِيمًا حَكِيمًا ۝٣٠﴾ [الإنسان:٣٠][٥].

الفرق بين القسمين:

أن الصفات الذاتية لا تنفك عن الذات، أما الصفات الفعلية يمكن أن تنفك عن الذات على معنى أن الله إذا شاء لم يفعلها.

ولكن مع ذلك فإن كلا النوعين يجتمعان في أنهما صفات لله تعالى أزلًا وأبدًا لم يزل ولا يزال متصفًا بهما ماضيًا ومستقبلًا لائقان بجلال الله عز وجل[٦].

و«صفات الله عز وجل ذاتية وفعلية، والصفات الفعلية متعلقة بأفعاله، وأفعاله لا

(١) انظر منهاج أهل السنة والجماعة في العقيدة والعمل، ابن عثيمين ٨ - ١٧.

(٢) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب التوحيد، باب كلام الرب عز وجل يوم القيامة مع الأنبياء وغيرهم، ٩/ ١٤٦ رقم ٧٥١٠.

(٣) تفسير القرآن العظيم ٨/ ٣٩٩.

(٤) مختصر الصواعق ٢/ ٢٥٤.

(٥) القواعد المثلى، ابن عثيمين ٢٣-٢٥.

(٦) انظر: شرح العقيدة الطحاوية، ابن أبي العز ص١٧٢.

منتهى لها»[1].

و«معاني صفات الله عز وجل الثابتة بالكتاب أو السنة معلومة، وتفسر على الحقيقة، لا مجاز ولا استعارة فيها البتة، أما الكيفية؛ فمجهولة»[2].

ثالثًا: صفات مقابلة:

وفي الآيات والأحاديث، نجد أفعالًا لربنا سبحانه وتعالى وهي كما يلي بحسب التتبع:

أفعال: الخداع، المكر، الكيد، الاستهزاء، اللعن، الغضب، الاستخلاف، الإغراق، السخرية، السخط، النسيان، التدمير، النزول، الفرح، الضحك. فهل يمكن أن نشتق من هذه الأفعال-وأمثالها- أسماء لله تعالى فنسميه جل وعلا بالأسماء الآتية؟:الخادع أو المخادع، الماكر، الكايد، المستهزئ، اللاعن، الغاضب، المستخلف، المغرق، الساخر، الساخط، الناسي، المدمر، النازل الفرح، الضاحك؟ لا ينبغي أن نسمي الله بهذه الأسماء، ونقرنها بالأسماء الحسنى كالرحمن، والرحيم، والغفور، والودود، واللطيف، والعلي، والكبير، والسميع، والبصير، ونحو ذلك مما سمى الله تعالى به نفسه من أسمى وأجل وأعظم الأسماء، ولا أن نصف الله بها على سبيل الإطلاق،

(١) القواعد المثلى، ابن عثيمين ص٣٠.
(٢) انظر التدمرية، ابن تيمية ص ٤٣-٤٤.

بل نصفه بها بقيودها وأحوالها وضوابطها التي استخدمت فيها.

ولنضرب أمثلة من القرآن الكريم تبين ذلك:

قال تعالى في المنافقين: ﴿يُخَٰدِعُونَ ٱللَّهَ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا وَمَا يَخۡدَعُونَ إِلَّآ أَنفُسَهُمۡ﴾ [البقرة:٩].

فإنه ذكر هذا عقيب قوله: ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَقُولُ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَبِٱلۡيَوۡمِ ٱلۡأٓخِرِ وَمَا هُم بِمُؤۡمِنِينَ ۝٨﴾ [البقرة:٨].

فكان هذا القول منهم كذبًا وظلمًا في حق التوحيد والإيمان بالرسول صلى الله عليه وسلم وأتباعه.

«وقوله تعالى: ﴿يُخَٰدِعُونَ ٱللَّهَ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا﴾ أي: بإظهارهم ما أظهروه من الإيمان مع إسرارهم الكفر، يعتقدون بجهلهم أنهم يخدعون الله بذلك، وأن ذلك نافعهم عنده، وأنه يروج عليه كما يروج على بعض المؤمنين، كما قال تعالى: ﴿يَوۡمَ يَبۡعَثُهُمُ ٱللَّهُ جَمِيعٗا فَيَحۡلِفُونَ لَهُۥ كَمَا يَحۡلِفُونَ لَكُمۡ وَيَحۡسَبُونَ أَنَّهُمۡ عَلَىٰ شَيۡءٍۚ أَلَآ إِنَّهُمۡ هُمُ ٱلۡكَٰذِبُونَ ۝١٨﴾ [المجادلة:١٨].

ولهذا قابلهم على اعتقادهم ذلك بقوله: ﴿وَمَا يَخۡدَعُونَ إِلَّآ أَنفُسَهُمۡ وَمَا يَشۡعُرُونَ﴾ [البقرة:٩].

يقول: وما يغرون بصنيعهم هذا ولا يخدعون إلا أنفسهم، وما يشعرون بذلك من أنفسهم، كما قال تعالى: ﴿إِنَّ

﴿الْمُنَافِقِينَ يُخَادِعُونَ اللَّهَ وَهُوَ خَادِعُهُمْ﴾ [النساء:١٤٢]»[1].

وقال تعالى حيث ذكر بعض مكر اليهود بقوله: ﴿وَمَكَرُوا وَمَكَرَ اللَّهُ وَاللَّهُ خَيْرُ الْمَاكِرِينَ ﴿٥٤﴾﴾ [آل عمران:٥٤].

«قال تعالى مخبرًا عن ملأ بني إسرائيل فيما هموا به من الفتك بعيسى، عليه السلام، وإرادته بالسوء والصلب، حين تمالؤوا عليه ووشوا به إلى ملك ذلك الزمان، وكان كافرًا، فأنهوا إليه أن هاهنا رجلا يضل الناس ويصدهم عن طاعة الملك، ويفند الرعايا، ويفرق بين الأب وابنه إلى غير ذلك مما تقلدوه في رقابهم ورموه به من الكذب، وأنه ولد زانية حتى استثاروا غضب الملك، فبعث في طلبه من يأخذه ويصلبه وينكل به، فلما أحاطوا بمنزله وظنوا أنهم قد ظفروا به، نجاه الله من بينهم، ورفعه من روزنة ذلك البيت إلى السماء، وألقى الله شبهه على رجل ممن كان عنده في المنزل، فلما دخل أولئك اعتقدوه في ظلمة الليل عيسى، عليه السلام، فأخذوه وأهانوه وصلبوه، ووضعوا على رأسه الشوك. وكان هذا من مكر الله بهم، فإنه نجى نبيه ورفعه من بين أظهرهم، وتركهم في ضلالهم يعمهون، يعتقدون أنهم قد ظفروا بطلبتهم، وأسكن الله في قلوبهم قسوة وعنادا للحق ملازما لهم، وأورثهم ذلة لا تفارقهم إلى يوم التناد؛ ولهذا قال تعالى: ﴿وَمَكَرُوا وَمَكَرَ اللَّهُ وَاللَّهُ خَيْرُ الْمَاكِرِينَ﴾»[2].

وبين بعض مكر قوم صالح بقوله: ﴿وَمَكَرُوا مَكْرًا وَمَكَرْنَا مَكْرًا وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴿٥٠﴾ فَانْظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ مَكْرِهِمْ أَنَّا دَمَّرْنَاهُمْ وَقَوْمَهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٥١﴾﴾ [النمل:٥٠-٥١].

«﴿وَمَكَرُوا مَكْرًا﴾ دبروا أمرهم على قتل صالح وأهله على وجه الخفية حتى من قومهم خوفا من أوليائه ﴿وَمَكَرْنَا مَكْرًا﴾ بنصر نبينا صالح عليه السلام وتيسير أمره وإهلاك قومه المكذبين ﴿وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ﴾»[3].

قال تعالى: ﴿فَلَمَّا آسَفُونَا انْتَقَمْنَا مِنْهُمْ فَأَغْرَقْنَاهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٥٥﴾﴾ [الزخرف:٥٥].

«قال علي بن أبي طلحة، عن ابن عباس: ﴿آسَفُونَا﴾ أسخطونا. وقال الضحاك، عنه: أغضبونا. وهكذا قال ابن عباس أيضًا، ومجاهد، وعكرمة، وسعيد بن جبير، ومحمد بن كعب القرظي، وقتادة، والسدي، وغيرهم من المفسرين»[4].

قال تعالى: ﴿إِنَّهُمْ يَكِيدُونَ كَيْدًا ﴿١٥﴾ وَأَكِيدُ كَيْدًا ﴿١٦﴾﴾ [الطارق:١٥-١٦].

(١) تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ١/ ١٧٧.

(٢) تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ٢/ ٤٦.

(٣) تيسير الكريم الرحمن، السعدي ٦٠٦.

(٤) تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ٧/ ٢٣٢.

«قوله تعالى: ﴿إِنَّهُمْ يَكِيدُونَ كَيْدًا ۝ وَأَكِيدُ كَيْدًا ۝﴾ نسبة هذا الفعل له تعالى، قالوا: إنه من باب المقابلة كقوله: ﴿وَمَكَرُوا وَمَكَرَ اللَّهُ﴾، وقوله: ﴿إِنَّمَا نَحْنُ مُسْتَهْزِءُونَ اللَّهُ يَسْتَهْزِئُ بِهِمْ﴾ [البقرة: ١٤-١٥].

وقد اتفق السلف أنه لا ينسب إلى الله تعالى على سبيل الإطلاق، ولا يجوز أن يشتق له منه اسم، وإنما يطلق في مقابل فعل العباد؛ لأنه في غير المقابلة لا يليق بالله تعالى، وفي معرض المقابلة فهو في غاية العلم والحكمة والقدرة، والكيد أصله المعاجلة للشيء بقوة[(١)].

ثم شرع ابن جرير يوجه هذا القول وينصره؛ لأن المكر والخداع والسخرية على وجه اللعب والعبث منتف عن الله، عز وجل بالإجماع، وأما على وجه الانتقام والمقابلة بالعدل والمجازاة فلا يمتنع ذلك.

قال: وبنحو ما قلنا فيه روي الخبر عن ابن عباس: حدثنا أبو كريب، حدثنا عثمان، حدثنا بشر، عن أبي روق، عن الضحاك، عن ابن عباس في قوله تعالى: ﴿اللَّهُ يَسْتَهْزِئُ بِهِمْ﴾ قال: يسخر بهم للنقمة منهم.

وقوله تعالى: ﴿وَيَمُدُّهُمْ فِي طُغْيَانِهِمْ يَعْمَهُونَ﴾ قال السدي: عن أبي مالك، وعن أبي صالح، عن ابن عباس، وعن مرة، عن ابن مسعود، وعن أناس من الصحابة قالوا: يمدهم: يملي لهم. وقال مجاهد: يزيدهم.

قال ابن جرير: والصواب يزيدهم على وجه الإملاء والترك لهم في عتوهم وتمردهم، كما قال: ﴿وَنُقَلِّبُ أَفْئِدَتَهُمْ وَأَبْصَارَهُمْ كَمَا لَمْ يُؤْمِنُوا بِهِ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَنَذَرُهُمْ فِي طُغْيَانِهِمْ يَعْمَهُونَ ۝﴾ [الأنعام: ١١٠]»[(٢)].

وصفة النسيان كما في قوله تعالى: ﴿نَسُوا اللَّهَ فَنَسِيَهُمْ﴾ [التوبة: ٦٧].

وقوله ﴿فَالْيَوْمَ نَنسَاهُمْ كَمَا نَسُوا لِقَاءَ يَوْمِهِمْ هَٰذَا﴾ [الأعراف: ٥١].

أي: نعاملهم معاملة من نسيهم؛ لأنه تعالى لا يشذ عن علمه شيء ولا ينساه، كما قال تعالى: ﴿لَّا يَضِلُّ رَبِّي وَلَا يَنسَى﴾ [طه: ٥٢].

وإنما قال تعالى هذا من باب المقابلة، كما قال: ﴿نَسُوا اللَّهَ فَنَسِيَهُمْ﴾ [التوبة: ٦٧].

وقال: ﴿قَالَ كَذَٰلِكَ أَتَتْكَ آيَاتُنَا فَنَسِيتَهَا وَكَذَٰلِكَ الْيَوْمَ تُنسَىٰ ۝﴾ [طه: ١٢٦].

وقال تعالى: ﴿وَقِيلَ الْيَوْمَ نَنسَاكُمْ كَمَا نَسِيتُمْ لِقَاءَ يَوْمِكُمْ هَٰذَا﴾ [الجاثية: ٣٤].

وقال العوفي، عن ابن عباس في قوله «وقوله: ﴿فَالْيَوْمَ نَنسَاهُمْ كَمَا نَسُوا لِقَاءَ يَوْمِهِمْ هَٰذَا﴾ قال: نسيهم الله من الخير، ولم ينسهم من الشر»[(٣)].

والسبب في أنه لا ينبغي ولا يشرع لنا

(١) أضواء البيان للشنقيطي ٨/ ٤٩٦.

(٢) تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ١/ ١٨٤.
وانظر: جامع البيان، الطبري ١/ ٣٠٣.

(٣) تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ٣/ ٤٢٤.

أن نسمي الله سبحانه بمثل تلك الأسماء كالخادع وما ماثل ذلك أمران:

الأول: أنه لم يرد بها النص في الكتاب أو السنة.

الثاني: أن هذه الأسماء -كالخادع أو المخادع، والماكر، والكايد، والمستهزئ، والغاضب، والناسي، والمدمر وما ماثلها- ليست ممدوحة على إطلاقها، بل تمدح في مواضع، وتذم في مواضع أخرى، ومن ثم لا يجوز أن تطلق أفعالها على الله مطلقًا، فلا ينبغي أن يقال بإطلاق: الماكر، المخادع، المستهزئ، الكائد.

وغر هذا الجاهل أنه سبحانه وتعالى أطلق على نفسه هذه الأفعال، فاشتق له منها أسماء، وأسماؤه كلها حسنى، فأدخلها في الأسماء الحسنى، وأدخلها وقرنها بالرحيم، الودود، الحكيم، الكريم. وهذا جهل عظيم.

فإن هذه الأفعال ليست ممدوحة مطلقًا، بل تمدح في موضع وتذم في موضع، فلا يجوز إطلاق أفعالها على الله مطلقًا، فلا يقال: إنه تعالى يمكر ويخادع يستهزئ ويكيد.

وكذلك بطريق الأولى لا يشتق له منها أسماء يسمى بها، بل إذا كان لم يأت في أسمائه الحسنى المريد، ولا المتكلم، ولا الفاعل، ولا الصانع، لأن مسمياتها تنقسم إلى ممدوح ومذموم، وإنما يوصف بالأنواع المحمودة منها كالحليم، والحكيم، والعزيز، والفعال لما يريد، فكيف يكون منها الماكر، المخادع، المستهزئ؟

ثم يلزم هذا الغالط أن يجعل من أسمائه الحسنى: الداعي، والآتي، والجائي، والذاهب، والقادم، والرائد، والناسي، والقاسم، والساخط، والغضبان، واللاعن، إلى أضعاف أضعاف ذلك من الأسماء التي أطلقت على نفسه أفعالها في القرآن. وهذا لا يقوله مسلم ولا عاقل.

والمقصود أن الله سبحانه لم يصف نفسه بالكيد، والمكر، والخداع إلا على وجه الجزاء لمن فعل ذلك بغير حق، وقد علم أن المجازاة على ذلك حسنة من المخلوق، فكيف من الخالق سبحانه؟!»[1].

وقال ابن القيم في موضع آخر: «والصواب أن معانيها -«أي: معاني هذه الألفاظ» تنقسم إلى محمود، ومذموم، فالمذموم، منها: يرجع إلى الظلم والكذب، فما يذم منها إنما يذم لكونه متضمنًا للكذب، أو الظلم، أو لهما جميعًا. وهذا هو الذي ذمه الله تعالى»[2].

ثم قال: «فعلم أنه لا يجوز ذم هذه الأفعال على الإطلاق، كما لا تمدح على الإطلاق، والمكر والكيد والخداع لا يذم

(١) انظر: مختصر الصواعق المرسلة، البعلي ٢/ ٣٢-٣٤.

(٢) المصدر السابق ٢/ ٣٤-٣٥.

من جهة العلم، ولا من جهة القدرة، فإن العلم والقدرة من صفات الكمال، وإنما يذم من جهة سوء القصد، وفساد الإرادة، وهو أن الماكر المخادع يجور، ويظلم بفعل ما ليس له فعله، أو ترك ما يجب عليه فعله»[1].

وقال البغوي: «وقال أهل المعاني: الإلحاد في أسماء الله: تسميته بما لم يسم به، ولم ينطق به كتاب الله ولا سنة رسول الله صلى الله عليه وسلم.

وجملته: أن أسماء الله تعالى على التوقيف فإنه يسمى جوادًا ولا يسمى سخيا، وإن كان في معنى الجواد، ويسمى رحيما ولا يسمى رفيقا، ويسمى عالما ولا يسمى عاقلا وقال تعالى: ﴿يُخَٰدِعُونَ ٱللَّهَ وَهُوَ خَٰدِعُهُمۡ﴾ [النساء:١٤٢].

وقال عز من قائل: ﴿وَمَكَرُواْ وَمَكَرَ ٱللَّهُۖ وَٱللَّهُ خَيۡرُ ٱلۡمَٰكِرِينَ ۝٥٤﴾ [آل عمران:٥٤].

ولا يقال في الدعاء: يا مخادع، يا مكار، بل يدعى بأسمائه التي ورد بها التوقيف على وجه التعظيم، فيقال: يا الله، يا رحمن، يا رحيم، يا عزيز، يا كريم، ونحو ذلك ﴿سَيُجۡزَوۡنَ مَا كَانُواْ يَعۡمَلُونَ﴾ [الأعراف:١٨٠] في الآخرة»[2].

وقال ابن تيمية: «ولهذا سمى الله نفسه بأسماء وسمى صفاته بأسماء، فكانت تلك الأسماء مختصة به إذا أضيفت إليه لا يشركه فيها غيره، وسمى بعض مخلوقاته بأسماء مختصة بهم مضافة إليهم توافق تلك الأسماء إذا قطعت عن الإضافة والتخصيص، ولم يلزم من اتفاق الاسمين تماثل مسماهما واتحاده عند الإطلاق والتجريد عن الإضافة والتخصيص، لا اتفاقهما، ولا تماثل المسمى عند الإضافة والتخصيص، فضلا عن أن يتحد مسماهما عند الإضافة والتخصيص.

فقد سمى الله نفسه حيًا، فقال: ﴿ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلۡحَيُّ ٱلۡقَيُّومُۚ﴾ [البقرة:٢٥٥].

وسمى بعض عباده حيًا، فقال: ﴿يُخۡرِجُ ٱلۡحَيَّ مِنَ ٱلۡمَيِّتِ وَيُخۡرِجُ ٱلۡمَيِّتَ مِنَ ٱلۡحَيِّ﴾ [الروم:١٩].

وليس هذا الحي مثل هذا الحي، لأن قوله ﴿ٱلۡحَيُّ﴾ اسم لله مختص به، وقوله ﴿يُخۡرِجُ ٱلۡحَيَّ مِنَ ٱلۡمَيِّتِ﴾ اسم للحي المخلوق مختص به يتفقان إذا أطلقا وجردا عن التخصيص، ولكن ليس للمطلق مسمى موجود في الخارج، ولكن العقل يفهم من المطلق قدرًا مشتركا بين المسميين، وعند الاختصاص يقيد ذلك بما يتميز به الخالق عن المخلوق، والمخلوق عن الخالق، ولا بد من هذا في جميع أسماء الله وصفاته، يفهم منها ما دل عليه الاسم بالمواطأة والاتفاق،

(١) المصدر السابق.
(٢) معالم التنزيل، البغوي ٣/ ٣٠٧.

وما دل عليه بالإضافة والاختصاص، المانعة من مشاركة المخلوق للخالق في شيء من خصائصه سبحانه وتعالى.

وكذلك سمى الله نفسه عليمًا حليمًا، وسمى بعض عباده عليمًا، فقال: ﴿وَبَشَّرُوهُ بِغُلَٰمٍ عَلِيمٍ﴾ [الذاريات:٢٨] يعني إسحاق، وسمى آخر حليمًا، فقال: ﴿فَبَشَّرْنَٰهُ بِغُلَٰمٍ حَلِيمٍ ﴿١٠١﴾﴾ [الصافات:١٠١] يعني إسماعيل، وليس العليم كالعليم، ولا الحليم كالحليم»[1].

والخلاصة أن الصفات الواردة في كتاب الله منها ما اشتق من أسماء الله الواردة في القرآن وقد بينا تلك الأسماء مثل «الله» يتضمن صفة الألوهية و«الرب» يتضمن صفة الربوبية و«السميع» يتضمن صفة السمع و«العليم» يتضمن صفة العلم، وهكذا في باقي الأسماء، وأما الصفات غير المشتقة من تلك الأسماء فقد ذكرناها بأدلتها. فإن هذه الأفعال ليست ممدوحة مطلقًا، بل تمدح في موضع وتذم في موضع، فلا يجوز إطلاق أفعالها على الله مطلقًا، فلا يقال إنه تعالى يمكر ويخادع يستهزئ ويكيد، ولا تطلق عليه في غير ما سيقت فيه من الآيات، بمعنى أنه لا يجوز أن تجعل أفعالًا مطلقًا يتصف به الله تبارك وتعالى، بل تقيد بضوابطها وأحوالها.

والمقصود أن الله سبحانه لم يصف نفسه بالكيد، والمكر، والخداع إلا على وجه الجزاء لمن فعل ذلك بغير حق، وقد علم أن المجازاة على ذلك حسنة من المخلوق، فكيف من الخالق سبحانه؟!

(١) التدمرية ص٢١-٢٤.

دلائل اثبات صفات الكمال لله تعالى

أولًا: الأدلة الفطرية:

أما دلالة الفطرة على وجود الله الذي يدخل فيه الإيمان بأسمائه وصفاته فإن كل مخلوق قد فطر على الإيمان بخالقه من غير سابق تفكير أوتعليم، ولا ينصرف عن مقتضى هذه الفطرة إلا من طرأ على قلبه ما يصرفه عنها، لقول النبي صلى الله عليه وسلم: (ما من مولود يولد إلا على الفطرة، فأبواه يهودانه أو ينصرانه أو يمجسانه.)[1].

فالقلوب مفطورة على الإقرار بالله تصديقًا به مدينًا له، لكن يعرض لها ما يفسدها، ومعرفة الحق تقتضي محبته ومعرفة الباطل تقتضي بغضه بما في الفطرة من حب الحق وبغض الباطل «فإن كل أحد يرجع إلى فطرته وغريزته عرف خالقه، وذلك معنى قوله تعالى: ﴿فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا فِطْرَتَ اللَّهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ اللَّهِ ذَلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٣٠﴾﴾ [الروم:٣٠].

وهذه المعرفة هي التي أخبر الله تعالى بوجودها في الكفار، وذلك في قوله تعالى: ﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ قُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٢٥﴾﴾ [لقمان:٢٥].

وقوله تعالى: ﴿فَإِذَا رَكِبُوا فِي الْفُلْكِ دَعَوُا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ فَلَمَّا نَجَّاهُمْ إِلَى الْبَرِّ إِذَا هُمْ يُشْرِكُونَ ﴿٦٥﴾﴾ [العنكبوت:٦٥].

فحين ظهرت لهم حال الضرورة وانقطعوا عن أسباب الخلق، ولم يبق لهم تعلق بأحد، ظهرت منهم المعرفة الغريزية»[2].

ففي آية لقمان اعتراف منهم بأن الذي خلق ذلك هو الله وحده، وفي آية العنكبوت قادتهم فطرتهم في حالة الضرورة إلى دعوتهم الله تعالى دون سواه، وهذه هي المعرفة الغريزية.

ففي نفس كل مخلوق من العبر والحكمة والرحمة وغير ذلك ما يدل على خالقه وهو الله تبارك وتعالى وأنه واحد صمد، المتصف بصفات الكمال المطلق من الحكمة والرحمة والخبرة والعلم.. إلخ.

وقال تعالى: ﴿فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا فِطْرَتَ اللَّهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ اللَّهِ ذَلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٣٠﴾﴾ [الروم:٣٠].

قال ابن كثير: «يقول تعالى: فسدد وجهك واستمر على الذي شرعه الله لك

(١) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب الجنازة، باب إذا أسلم الصبي فمات هل يصلى عليه، ٢/ ٩٤، رقم ١٣٥٨.

(٢) الحجة في بيان المحجة، الأصبهاني ٢/ ٤١.

من الحنيفية ملة إبراهيم، الذي هداك الله لها، وكملها لك غاية الكمال، وأنت مع ذلك لازم فطرتك السليمة، التي فطر الله الخلق عليها، فإنه تعالى فطر خلقه على معرفته وتوحيده، وأنه لا إله غيره»[1].

وقال ابن سعدي: «يأمر تعالى بالإخلاص له في جميع الأحوال وإقامة دينه فقال: ﴿فَأَقِمْ وَجْهَكَ﴾ أي: انصبه ووجهه إلى الدين الذي هو الإسلام والإيمان والإحسان بأن تتوجه بقلبك وقصدك وبدنك إلى إقامة شرائع الدين الظاهرة. وشرائعه الباطنة كالمحبة والخوف والرجاء والإنابة وهذا الأمر الذي أمرناك به هو ﴿فِطْرَتَ اللَّهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا﴾ ووضع في عقولهم حسنها واستقباح غيرها، فإن جميع أحكام الشرع الظاهرة والباطنة قد وضع الله في قلوب الخلق كلهم، الميل إليها، فوضع في قلوبهم محبة الحق وإيثار الحق وهذا حقيقة الفطرة، ومن خرج عن هذا الأصل فلعارض عرض لفطرته أفسدها»[2].

ومما يدل على دلالة الفطرة أيضًا: قوله صلى الله عليه وسلم للجارية: (أين الله؟) قالت: في السماء. قال: (من أنا؟) قالت: رسول الله. قال: (أعتقها فإنها مؤمنة)[3].

«ولقد أودع الله في الفطر التي لم تتنجس بالتعطيل والجحود أنه سبحانه الكامل في أسمائه وصفاته وأنه الموصوف بكل كمال المنزه عن كل عيب ونقص»[4].

وهذا هو الشاهد من دلالة الفطرة على إثبات صفات الله عز وجل، فإن الفطرة السليمة تثبت إلهًا كاملًا لا نقص فيه بوجه من الوجوه، ولا يكون كاملًا إلا إذا اتصف بكل صفة كمال وتنزه عن كل صفة نقص، وكل صاحب فطرة قويمة يقر من داخله أن إثبات الصفات كمال، ونفيها نقص، فالذي ليس له صفات إما معدوم وإما ناقص، والله منزه عن ذلك وهذه المعرفة لا يترتب عليها كفر ولا إيمان ولا تتفاوت في ذاتها فهي معرفة عامة ولا يترتب عليها ثواب وعقاب ولكنها نافعة فيها لو تركت بدون معارضة خارجية لأنها تقود إلى الإيمان كذا لو تبعها نظر شرعي في ملكوت الله واتباع لشرع الله تعالى فإنها بذلك تكون وسيلة للهداية.

وقد روى البيهقي عن الإمام الشافعي أنه قال: « فأما فرض الله تعالى على القلب: فالإقرار والمعرفة، والعقد والرضا والتسليم بأن الله لا إله إلا هو وحده لا شريك له »[5].

وقال أبو بكر الخلال: «أخبرني

(١) تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ٦/ ٣١٣.
(٢) تيسير الكريم الرحمن، السعدي ص ٦٤١.
(٣) أخرجه مسلم في صحيحه، كتاب المساجد، باب تحريم الكلام في الصلاة، ١/ ٣٨١، رقم ٥٣٧.
(٤) مدارج السالكين، ابن القيم ٣/ ٤٦٧.
(٥) مناقب الشافعي ١/ ٣٨٧- ٣٩٣.

عبدالملك بن عبد الحميد قال: قال ـ أي أحمد ـ: والذي نقول: كل مولود يولد على الفطرة الأولى التي فطر الله الناس عليها. قلت: فما الفطرة الأولى: هي الدين ؟قال: نعم»[١].

وفي الحديث قال صلى الله عليه وسلم: **(إن الله تعالى خلق خلقه في ظلمة وألقى عليهم من نوره فمن أصاب من ذلك النور اهتدى ومن أخطأه ضل، فلذلك أقول: جف القلم عن علم الله تعالى)**[٢].

فالفطرة تبع للوحي في دلالتها على الصفات، وليست دليلًا مستقلًا عنه.

ثانيًا: الأدلة النقلية (الكتاب والسنة):

فقد دلت الأدلة القرآنية والحديثية الكثيرة على إثبات صفات الله عز وجل، فالوحي: «هو الطريق الوحيد المأمون العاقبة، الموصل للحقيقة، المعرف بالله عز وجل فيما يتعلق بوجوده وربوبيته وبألوهيته وبأسمائه وصفاته وأفعاله، إذ هو كلام الله عن نفسه وكلام أنبيائه الذين هم أعرف الخلق به، فهو الأسلم والأحكم والأبين والأفضل. فاتباع الوحي: قرآن وسنة، هو اتباع الصراط المستقيم، وبغير طريق الوحي لا تكون معرفة الله صحيحة صافية تبعث الإيمان في القلب وتشيد أركانه لأن معرفة أسماء الله وصفاته من أعظم الغيبيات التي أمرنا بالإيمان بها ولا أحد أعلم بالله من الله ولا أحد أعلم به سبحانه من خلقه كرسوله صلى الله عليه وسلم»[٣].

و قد قال الحافظ ابن كثير في رسالته في العقائد: « فإذا نطق الكتاب العزيز ووردت الأخبار الصحيحة بإثبات السمع والبصر والعين والوجه والعلم والقوة والقدرة والعظمة والمشيئة والإرادة والقول والكلام و الرضى والسخط والحب والبغض والفرح والضحك: وجب اعتقاد حقيقته، من غير تشبيه بشيء من ذلك بصفات المربوبين المخلوقين، والانتهاء إلى ما قاله الله سبحانه وتعالى ورسوله من غير إضافة ولا زيادة عليه، ولا تكييف له، ولا تشبيه، ولا تحريف، ولا تبديل، ولا تغيير، وإزالة لفظه عما تعرفه العرب وتصرفه عليه، والإمساك عما سوى ذلك»[٤].

ومن الأدلة الواردة في السور القرآنية: سورة الفاتحة والإخلاص والفلق والناس

(١) انظر: كتاب السنة ص٨٨١.

(٢) أخرجه الترمذي في سننه، أبواب الإيمان، باب ما جاء في افتراق هذه الأمة، ٥/ ٢٦، رقم ٢٦٤٢.
قال الترمذي: هذا حديث حسن.
وصححه الألباني في السلسلة الصحيحة، ٣/ ٦٤، رقم ١٠٧٧.

(٣) تحقيق العبودية بمعرفة الأسماء والصفات، فوز الكردي ص١٩٥- ٢٠٤.

(٤) انظر: علاقة الإثبات والتفويض، معطي رضا نعسان ص ٥١.

إلخ، وهذا أمر متواتر يعرفه العالم والمتعلم، وقد اتخذت دلالة لقرآن الكريم في تقرير هذا المعنى في هذا الباب جميع أنواع الدلالات وهي دلالة المطابقة والتضمن والالتزام.

ثالثًا: الأدلة العقلية:

الله سبحانه قد زود العباد بنوافذ المعرفة من الحواس المختلفة، لينظروا في آياته المبثوثة في كل جزء من صنعته التي هي أدلة متنوعة عليه ومناسبة لكل مستويات الإفهام والحفظ من الفهم والتعقل والإدراك وصاحب العقل الصحيح يفكر في الكون حوله فيعرف أن كل موجود لا بد له من خالق أوجده، وهذا الخالق لا بد أن يكون عظيمًا قويًا عالمًا حكيمًا، وينظر ويفكر في النفس البشرية وما أودع الله فيها من الأسرار وما حوته من بدائع الخلق في أجهزتها المختلفة فيستدل بها على الخالق الباريء المصور وعلى بعض صفاته سبحانه وتعالى.

ويفكر ويتأمل في نعم الله المتوالية على الأكوان التي لا يستطيع أحد إحصاءها إلا ربها وخالقها، فيستدل بها على المنعم المعطي الرزاق.

ويدله كل جمال وكمال لا نقص فيه، منحه الله عز وجل لمخلوقاته، على أن موجده ومانحه سبحانه وتعالى أولى به، فيثبت له الجمال المطلق والكمال المطلق وينزهه عن كل نقص وعيب وهذا هو ما يسمى بقياس الأولى، وهو القياس العقلي الصحيح الذي يستخدم للوصول لمعرفة أسماء الله وصفاته، إذ هو قياس عقلي قرآني. ومن ذلك قوله تعالى: ﴿أَفَلَا يَنظُرُونَ إِلَى ٱلْإِبِلِ كَيْفَ خُلِقَتْ ﴿١٧﴾﴾ [الغاشية:١٧].

قال ابن عادل: «لما ذكر الله تعالى أمر الدارين تعجب الكفار من ذلك، فكذبوا وأنكروا، فذكرهم الله صنعته، وقدرته، وأنه تعالى قادر على كل شيء، كما خلق الحيوانات والسماء والأرض، وذكر الإبل أولًا؛ لأنها كثيرة في بلاد العرب، ولم يروا الفيلة، فنبههم تعالى على عظيم من خلقه، قد ذلله للصغير من خلقه يقوده وينيخه وينهضه، ويحمل عليه الثقيل من الأحمال، وهو بارك، فينهض بثقيل حمله، وليس ذلك في شيء من الحيوان غيره، فأراهم عظيمًا من خلقه، يدلهم بذلك على توحيده، وعظيم قدرته تعالى»[1].

وقال تعالى: ﴿قُل لَّوْ كَانَ مَعَهُۥٓ ءَالِهَةٌ كَمَا يَقُولُونَ إِذًا لَّٱبْتَغَوْا۟ إِلَىٰ ذِى ٱلْعَرْشِ سَبِيلًا ﴿٤٢﴾ سُبْحَٰنَهُۥ وَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يَقُولُونَ عُلُوًّا كَبِيرًا ﴿٤٣﴾ تُسَبِّحُ لَهُ ٱلسَّمَٰوَٰتُ ٱلسَّبْعُ وَٱلْأَرْضُ وَمَن فِيهِنَّ ۚ وَإِن مِّن شَىْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِۦ وَلَٰكِن لَّا تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ ۗ إِنَّهُۥ كَانَ حَلِيمًا غَفُورًا ﴿٤٤﴾﴾ [الإسراء:٤٢-٤٤].

(١) اللباب في علوم الكتاب، ابن عادل ٢٠/ ٢٩.

«ومن أعظم ما صرف فيه الآيات والأدلة: التوحيد الذي هو أصل الأصول، فأمر به ونهى عن ضده وأقام عليه من الحجج العقلية والنقلية شيئا كثيرًا بحيث من أصغى إلى بعضها لا تدع في قلبه شكًا ولا ريبًا.

ومن الأدلة على ذلك هذا الدليل العقلي الذي ذكره هنا فقال: ﴿قُل﴾ للمشركين الذين يجعلون مع الله إلها آخر: ﴿لَّوْ كَانَ مَعَهُۥٓ ءَالِهَةٌ كَمَا يَقُولُونَ﴾ أي: على موجب زعمهم وافترائهم ﴿إِذًا لَّٱبْتَغَوْا۟ إِلَىٰ ذِى ٱلْعَرْشِ سَبِيلًا﴾ أي: لاتخذوا سبيلًا إلى الله بعبادته والإنابة إليه والتقرب وابتغاء الوسيلة، فكيف يجعل العبد الفقير الذي يرى شدة افتقاره لعبودية ربه إلهًا مع الله؟! هل هذا إلا من أظلم الظلم وأسفه السفه؟!

ويحتمل أن المعنى في قوله: ﴿قُل لَّوْ كَانَ مَعَهُۥٓ ءَالِهَةٌ كَمَا يَقُولُونَ إِذًا لَّٱبْتَغَوْا۟ إِلَىٰ ذِى ٱلْعَرْشِ سَبِيلًا﴾ أي: لطلبوا السبيل وسعوا في مغالبة الله تعالى، فإما أن يعلوا عليه فيكون من علا وقهر هو الرب الإله، أما وقد علموا أنهم يقرون أن آلهتهم التي يعبدون من دون الله مقهورة مغلوبة ليس لها من الأمر شيء فلم اتخذوها وهي بهذه الحال؟!

﴿سُبْحَـٰنَهُۥ وَتَعَـٰلَىٰ﴾ أي: تقدس وتنزه وعلت أوصافه ﴿عَمَّا يَقُولُونَ﴾ من الشرك به واتخاذ الأنداد معه ﴿عُلُوًّا كَبِيرًا﴾ فعلا قدره وعظم وجلت كبرياؤه التي لا تقادر أن يكون معه آلهة فقد ضل من قال ذلك ضلالًا مبينًا وظلم ظلمًا كبيرًا»[1].

فهذا هو مجال العقل في الدلالة على إثبات الصفات فهو يعمل تفكيره في المخلوقات وآثارها لكي يستدل على وجود خالقها الذي لاشك أنه متصف بكل صفات الكمال المطلق المنزه عن كل صفات النقص، وهذا هي المعرفة العامة الإجمالية.

أما الإدراك التفصيلي المتعلق بكنه حقيقة الربوبية وعظمة الألوهية وتوحيد الأسماء والصفات وكيفية ذلك فإنه لايستطيعها مهما فكر وتدبر قال تعالى: ﴿وَلَا يُحِيطُونَ بِهِۦ عِلْمًا﴾ [طه:١١٠].

«وقوله ﴿وَلَا يُحِيطُونَ بِهِۦ عِلْمًا﴾ يقول تعالى ذكره: ولا يحيط خلقه به علما. ومعنى الكلام: أنه محيط بعباده علمًا، ولا يحيط عباده به علمًا»[2]، «فنفى الإحاطة مع ثبوت العلم»[3].

«ومعلوم أن العقل لا مدخل له في باب صفات الله تعالى؛ لأنها فوق مستويات العقول ليس كمثله شيء وهو السميع البصير، ولا يحيطون به علمًا سبحانه وتعالى»[4].

أي: على جهة التفصيل المستقل عن

(١) تيسير الكريم الرحمن، السعدي ص٤٥٨.
(٢) جامع البيان، الطبري ١٨/ ٣٧٦.
(٣) معالم التنزيل، البغوي ٣/ ١٧٤.
(٤) أضواء البيان، الشنقيطي ٨/ ١٧.

الوحي.

وقد حذر السلف الصالح رحمهم الله ومنهم الإمام الطحاوي من عاقبة إعمال العقل فيما هو ليس من اختصاصه فقال: «من رام علم ما حظر عنه علمه، ولم يقتنع بالتسليم فهمه، حجبه مرامه عن خالص التوحيد، وصافي المعرفة وصحيح الإيمان»[(١)].

وهكذا فلا يمكن أن يكون العقل وحده طريقًا لمعرفة أسماء الله وصفاته بل ينبغي أن يكون خلف الوحي مسلمًا له، كما لم تكن الفطرة وحدها طريقًا لذلك، وإن كان يدلان على الواحد الأحد وعلى أن له الكمال المطلق من جهة عامة.

وقال ابن أبي العز الحنفي: «ومن المحال أن تستقل العقول بمعرفة ذلك وإدراكه على التفصيل، فاقتضت رحمة العزيز الرحيم أن بعث الرسل معرفين وإليه داعين، ولمن أجابهم مبشرين ولمن خالفهم منذرين وجعل مفتاح دعوتهم وزبدة رسالتهم معرفة المعبود سبحانه بأسمائه وصفاته وأفعاله، إذ على هذه المعرفة تبنى مطالب الرسالة كلها من أولها إلى آخرها »[(٢)].

وتأمل قوله: «ومن المحال أن تستقل العقول بمعرفة ذلك وإدراكه على التفصيل».

ولا إشكال في معرفة ذلك على الإجمال وهذا واضح في كلام علمائنا رحمهم الله.

وقال الشاطبي: « إن الله جعل للعقول في إدراكها حدًا تنتهي إليه لا تتعداه، ولم يجعل لها سبيلًا إلى الإدراك في كل مطلوب، ولو كانت كذلك لاستوت مع الباري تعالى في إدراك جميع ما كان وما يكون وما لا يكون»[(٣)].

وهذا يبين حدود العقل في المعرفة العامة للصفات وهو متاح للعقل أن يتحرى فيه، وغير متاح له في غير ذلك على جهة التفصيل.

«والعقل ميزان صحيح، فأحكامه يقينية لا كذب فيها غير أنك لا تطمع أن تزن به أمور التوحيد والآخرة وحقيقة النبوة وحقائق الصفات الإلهية وكل ما وراء طوره، فإن ذلك طمع في محال»[(٤)].

والخلاصة: أن الأدلة العقلية السليمة والقويمة تدل دلالة واضحة على إثبات الصفات لله تبارك وتعالى على وجه الكمال وذلك بالنظر والتفكر في المخلوقات وآثارها فيدرك أن الله هو العليم الحكيم الخالق وأن من صفاته العلم والحكمة والخلق.. إلخ.

وأما على جهة التفصيل فإن ذلك مختص

(١) شرح الطحاوية، ابن أبي العز ص ١٨٤.
(٢) المصدر السابق ص ٦.
(٣) الاعتصام، الشاطبي ٢/ ٣١٨.
(٤) مقدمة ابن خلدون ص ٥٥٩.

بالوحي فقط لأن الأسماء والصفات توقيفية، والعقل الصحيح الصريح في هذه الحالة يكون تابعًا للوحي ومؤيدًا له.

طريقة القرآن في عرض صفات الله

«فهذا القرآن عمدته ومقصوده الإخبار عن صفات الرب سبحانه وتعالى وأسمائه وأفعاله وأنواع حمده والثناء عليه والإنباء عن عظمته وعزته وحكمته وأنواع صنعته والتقدم إلى عباده بأمره ونهيه»[(١)].

ومن الأساليب البارزة عند تأمل طريقة القرآن في التعريف بالله وأسمائه وصفاته على سبيل الإجمال ما يلي:

١ . الحديث عن الأسماء والصفات مباشرة.

ومما تحدث عنه القرآن من أسماء الله وصفاته: اسم الله الدال على ألوهيته سبحانه وتعالى، والدال على جميع أسمائه وصفاته فقال عز وجل: ﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِى رَفَعَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ بِغَيْرِ عَمَدٍ تَرَوْنَهَا﴾ [الرعد:٢].

كما تحدث عن كمال حياته وقيامه على كل شيء فقال تعالى: ﴿ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلْحَىُّ ٱلْقَيُّومُ ۚ لَا تَأْخُذُهُۥ سِنَةٌ وَلَا نَوْمٌ ۚ لَّهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ﴾ [البقرة:٢٥٥].

وتحدث عن وحدانيته وكماله كما في قوله تعالى: ﴿ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ۖ لَهُ ٱلْأَسْمَآءُ ٱلْحُسْنَىٰ ﴿٨﴾﴾ [طه:٨].

وقال ابن القيم: «هذا القرآن من أوله لآخره إنما يدعو الناس إلى النظر في صفات

(١) طريق الهجرتين، ابن القيم ص١٢٨.

الله وأسمائه وأفعاله»[1].

ومراده رحمه الله بذلك دلالة المطابقة والالتزام والتضمن.

وقال تعالى: ﴿هُوَ الَّذِي خَلَقَ لَكُم مَّا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا ثُمَّ اسْتَوَىٰ إِلَى السَّمَاءِ فَسَوَّاهُنَّ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ۝٢٩﴾ [البقرة:٢٩].

قال ابن سعدي: «أي: لما خلق تعالى الأرض، قصد إلى خلق السماوات ﴿فَسَوَّاهُنَّ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ﴾ فخلقها وأحكمها، وأتقنها، ﴿وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾ وكثيرًا ما يقرن بين خلقه للخلق وإثبات علمه كما في هذه الآية»[2].

وقال أبو جعفر في تفسير قوله تعالى: ﴿وَاللَّهُ يَخْتَصُّ بِرَحْمَتِهِ مَن يَشَاءُ﴾ [البقرة:١٠٥]:

والله يختص من يشاء بنبوته ورسالته فيرسله إلى من يشاء من خلقه، فيتفضل بالإيمان على من أحب فيهديه له، واختصاصه إياهم بها إفرادهم بها دون غيرهم من خلقه، وإنما جعل الله رسالته إلى من أرسل إليه من خلقه وهدايته من هدى من عباده رحمة منه له ليصيره بها إلى رضاه ومحبته وفوزه بها بالجنة واستحقاقه بها ثناءه، وكل ذلك رحمة من الله له، ﴿وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ﴾ [البقرة:١٠٥].

خبر من الله عن أن كل خير ناله عباده في دينهم فإنه من عنده ابتداءً وتفضلًا منه عليهم غير استحقاق منهم ذلك عليه»[3].

وقال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اعْبُدُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ وَالَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ۝٢١ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ فِرَاشًا وَالسَّمَاءَ بِنَاءً وَأَنزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجَ بِهِ مِنَ الثَّمَرَاتِ رِزْقًا لَّكُمْ ۖ فَلَا تَجْعَلُوا لِلَّهِ أَندَادًا وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ ۝٢٢﴾ [البقرة:٢١-٢٢].

قال البغوي رحمه الله تعالى: «قوله تعالى ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ﴾ قال ابن عباس رضي الله عنهما: يا أيها الناس خطاب أهل مكة، و يا أيها الذين آمنوا خطاب أهل المدينة وهو هاهنا عام إلا من حيث إنه لا يدخله الصغار والمجانين ﴿الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ فِرَاشًا﴾ أي بساطًا وقيل: منامًا، وقيل: وطاء، أي: ذللها ولم يجعلها حزنة لا يمكن القرار عليها، والجعل هاهنا بمعنى الخلق ﴿وَالسَّمَاءَ بِنَاءً﴾ وسقفًا مرفوعًا. ﴿وَأَنزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً﴾ المطر ﴿فَأَخْرَجَ بِهِ مِنَ الثَّمَرَاتِ﴾ ألوان الثمرات وأنواع النبات ﴿رِزْقًا لَّكُمْ﴾ طعاما لكم وعلفا لدوابكم ﴿فَلَا تَجْعَلُوا لِلَّهِ أَندَادًا﴾ أي أمثالا تعبدونهم كعبادة الله.

قال أبو عبيدة: الند الضد، وهو من الأضداد، والله تعالى بريء من المثل

(١) مدارج السالكين، ابن القيم ١/ ٢٣٣.
(٢) تيسير الكريم الرحمن، السعدي ص٤٨.
(٣) جامع البيان ١/ ٥٤٦.

والضد. ﴿وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ أنه واحد خالق هذه الأشياء»[1].

وقال تعالى: ﴿وَإِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَاحِدٌ لَّا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ الرَّحْمَٰنُ الرَّحِيمُ ﴿١٦٣﴾﴾ [البقرة:١٦٣].

«ففي هذه الآية إثبات وحدانية الباري وإلهيته، وتقريرها بنفيها عن غيره من المخلوقين، وبيان أصل الدليل على ذلك وهو إثبات رحمته التي من آثارها وجود جميع النعم، واندفاع جميع النقم، فهذا دليل إجمالي على وحدانيته تعالى»[2].

بل تجد حديث القرآن عن بعض الصفات حديثًا مفصلًا وعلى سبيل المثال: صفة الاستواء حيث إنه جل وعلا وصف نفسه بالاستواء على العرش، ووصف غيره بالاستواء على بعض المخلوقات، فتمدح جل وعلا في سبع آيات من كتابه باستوائه على عرشه، ولم يذكر صفة الاستواء إلا مقرونة بغيرها من صفات الكمال والجلال، القاضية بعظمته وجلاله جل وعلا، وأنه الرب وحده، المستحق لأن يعبد وحده، ويحسب ترتيب المصحف الكريم إليك هذه المواضع:

الموضع الأول: في سورة الأعراف قوله تعالى: ﴿إِنَّ رَبَّكُمُ اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوَىٰ عَلَى الْعَرْشِ﴾ [الأعراف:٥٤].

الموضع الثاني: قوله تعالى في سورة يونس: ﴿إِنَّ رَبَّكُمُ اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوَىٰ عَلَى الْعَرْشِ﴾ [يونس:٣].

الموضع الثالث: قوله تعالى في سورة الرعد: ﴿اللَّهُ الَّذِي رَفَعَ السَّمَاوَاتِ بِغَيْرِ عَمَدٍ تَرَوْنَهَا ثُمَّ اسْتَوَىٰ عَلَى الْعَرْشِ﴾ [الرعد:٢].

الموضع الرابع: قوله تعالى في سورة طه: ﴿الرَّحْمَٰنُ عَلَى الْعَرْشِ اسْتَوَىٰ ﴿٥﴾﴾ [طه:٥]

الموضع الخامس: قوله تعالى في سورة الفرقان: ﴿ثُمَّ اسْتَوَىٰ عَلَى الْعَرْشِ ۚ الرَّحْمَٰنُ﴾ [الفرقان:٥٩].

الموضع السادس: قوله تعالى في سورة السجدة: ﴿اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوَىٰ عَلَى الْعَرْشِ﴾ [السجدة:٤]

الموضع السابع: قوله تعالى في سورة الحديد: ﴿هُوَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوَىٰ عَلَى الْعَرْشِ﴾ [الحديد:٤].

٢. ذكر مفعولات الرب سبحانه وتعالى وآياته.

فمن خلالها يتعرف على أسمائه وصفاته وأفعاله.

قال ابن القيم: «وإذا تأملت ما دعا الله سبحانه وتعالى في كتابه عباده إلى التفكر فيه، أوقعك على العلم به سبحانه وتعالى

(١) معالم التنزيل، البغوي ١/ ٧١-٧٣.
(٢) تيسير الكريم الرحمن، السعدي ص ٧٨.

وبوحدانيته وصفات كماله ونعوت جلاله، من عموم قدرته وعلمه وكمال حكمته ورحمته وإحسانه وبره ولطفه وعدله ورضاه وغضبه وثوابه وعقابه فبهذا تعرف إلى عباده وندبهم إلى التفكر في آياته»[1].

ومثال ذلك قوله تعالى: ﴿أَلَمْ نَجْعَلِ الْأَرْضَ مِهَادًا ۝٦ وَالْجِبَالَ أَوْتَادًا ۝٧ وَخَلَقْنَاكُمْ أَزْوَاجًا ۝٨ وَجَعَلْنَا نَوْمَكُمْ سُبَاتًا ۝٩ وَجَعَلْنَا اللَّيْلَ لِبَاسًا ۝١٠ وَجَعَلْنَا النَّهَارَ مَعَاشًا ۝١١ وَبَنَيْنَا فَوْقَكُمْ سَبْعًا شِدَادًا ۝١٢ وَجَعَلْنَا سِرَاجًا وَهَّاجًا ۝١٣ وَأَنْزَلْنَا مِنَ الْمُعْصِرَاتِ مَاءً ثَجَّاجًا ۝١٤ لِنُخْرِجَ بِهِ حَبًّا وَنَبَاتًا ۝١٥ وَجَنَّاتٍ أَلْفَافًا ۝١٦﴾ [النبأ:٦-١٦].

«لما حكى الله تعالى عنهم إنكار البعث والحشر، وأراد إقامة الدلائل على صحة الحشر قدم لذلك مقدمة في بيان كونه تعالى قادرًا على جميع الممكنات عالمًا بجميع المعلومات؛ لأنه إذا ثبت هذان الأصلان ثبت القول بصحة البعث، فأثبت هذين الأصلين بأن عدد أنواعًا من مخلوقاته المتقنة المحكمة؛ فإن هذه الأشياء من جهة حدوثها تدل على القدرة، ومن جهة إحكامها وإتقانها تدل على العلم، وإذا ثبت هذان الأصلان، وثبت أن الأجسام متساوية في قبول الصفات والأعراض ثبت لا محالة كونه قادرًا على تخريب الدنيا بسماواتها وكواكبها وأرضها، وعلى إيجاد عالم الآخرة، فهذا وجه النظم.»[2].

٣. التذكير بنعم الله عز وجل.

معرفة النعمة سبيل معرفة المنعم والهبات دالة على الوهاب والعطايا دالة على المعطي سبحانه وتعالى، لذا فقد ذكر القرآن كثيرًا بنعم الله مجملة تارة، ومفصلة تارة، ومن ذلك قوله تعالى: ﴿وَإِنْ تَعُدُّوا نِعْمَةَ اللَّهِ لَا تُحْصُوهَا إِنَّ اللَّهَ لَغَفُورٌ رَحِيمٌ ۝١٨﴾ [النحل:١٨].

قال القاسمي: «ثم نبه سبحانه وتعالى على كثرة نعمه عليهم وإحسانه بما لا يحصى، إشارة إلى أن حق عبادته غير مقدور، بقوله تعالى: ﴿وَإِنْ تَعُدُّوا نِعْمَتَ اللَّهِ لَا تُحْصُوهَا﴾ [النحل:١٨].

أي: لا تضبطوا عددها ولا تبلغه طاقتكم، فضلًا أن تطيقوا القيام بحقها من أداء الشكر. ﴿إِنَّ اللَّهَ لَغَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ أي: حيث يتجاوز عن التقصير في أداء شكرها، ولا يقطعها عنكم لتفريطكم. ولا يعاجلكم بالعقوبة على كفرانها. قاله الزمخشري.

ولحظ ابن جرير أن مغفرته تعالى ورحمته لهم، إذا تابوا وأنابوا. أي فيتجاوز عن تقصيرهم بشكرها الحقيقي، ولا يعذبهم بعد توبتهم وإنابتهم إلى طاعته»[3].

فالعارف يسير إلى الله بين مشاهدة

---

(١) مفتاح دار السعادة ١/ ١٨٧.

(٢) اللباب في علوم الكتاب، ابن عادل ٢٠/ ٩٥.

(٣) محاسن التأويل، القاسمي ٦/ ٣٦٠.

المنة ومطالعة عيب النفس، فمشاهدة المنة توجب له المحبة الحمد والشكر لولي النعم والإحسان، ومطالعة عيب النفس توجب له الذل والانكسار والتوبة.

٤. تعريف العباد بأنفسهم وأصل خلقتهم وضعفهم وفقرهم.

فمن عرف نفسه عرف ربه.

قال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ أَنتُمُ الْفُقَرَاءُ إِلَى اللَّهِ وَاللَّهُ هُوَ الْغَنِيُّ الْحَمِيدُ ۝١٥﴾ [فاطر: ١٥].

«يخاطب تعالى جميع الناس ويخبرهم بحالهم ووصفهم، وأنهم فقراء إلى الله من جميع الوجوه:

- فقراء في إيجادهم، فلولا إيجاده إياهم لم يوجدوا.
- فقراء في إعدادهم بالقوى والأعضاء والجوارح، التي لولا إعداده إياهم بها، لما استعدوا لأي عمل كان.
- فقراء في إمدادهم بالأقوات والأرزاق والنعم الظاهرة والباطنة، فلولا فضله وإحسانه وتيسيره الأمور، لما حصل لهم من الرزق والنعم شيء.
- فقراء في صرف النقم عنهم، ودفع المكاره، وإزالة الكروب والشدائد. فلولا دفعه عنهم، وتفريجه لكرباتهم، وإزالته لعسرهم، لاستمرت عليهم المكاره والشدائد.
- فقراء إليه في تربيتهم بأنواع التربية، وأجناس التدبير.
- فقراء إليه، في تألههم له، وحبهم له، وتعبدهم، وإخلاص العبادة له تعالى، فلو لم يوفقهم لذلك، لهلكوا، وفسدت أرواحهم، وقلوبهم وأحوالهم.
- فقراء إليه، في تعليمهم ما لا يعلمون، وعملهم بما يصلحهم، فلولا تعليمه، لم يتعلموا، ولولا توفيقه، لم يصلحوا.

فهم فقراء بالذات إليه، بكل معنى، وبكل اعتبار، سواء شعروا ببعض أنواع الفقر أم لم يشعروا، ولكن الموفق منهم، الذي لا يزال يشاهد فقره في كل حال من أمور دينه ودنياه، ويتضرع له، ويسأله أن لا يكله إلى نفسه طرفة عين، وأن يعينه على جميع أموره، ويستصحب هذا المعنى في كل وقت، فهذا أحرى بالإعانة التامة من ربه وإلهه، الذي هو أرحم به من الوالدة بولدها.

﴿وَاللَّهُ هُوَ الْغَنِيُّ الْحَمِيدُ﴾ أي: الذي له الغنى التام من جميع الوجوه، فلا يحتاج إلى ما يحتاج إليه خلقه، ولا يفتقر إلى شيء مما يفتقر إليه الخلق، وذلك لكمال صفاته، وكونها كلها صفات كمال ونعوت وجلال.

ومن غناه تعالى أن أغنى الخلق في الدنيا والآخرة، الحميد في ذاته، وأسمائه، لأنها حسنى، وأوصافه، لكونها عليا، وأفعاله لأنها فضل وإحسان وعدل وحكمة ورحمة، وفي

أوامره ونواهيه، فهو الحميد على ما فيه، وعلى ما منه، وهو الحميد في غناه الغني في حمده.»[1].

«﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ أَنتُمُ ٱلْفُقَرَآءُ إِلَى ٱللَّهِ﴾ إلى فضل الله والفقير المحتاج، ﴿وَٱللَّهُ هُوَ ٱلْغَنِىُّ ٱلْحَمِيدُ﴾ الغني عن خلقه المحمود في إحسانه إليهم»[2].

«فمن أراد الله به خيرًا فتح له باب الذل والانكسار ودوام اللجوء إلى الله سبحانه وتعالى والافتقار إليه ورؤية عيوب نفسه وجهلها وعدوانها كمشاهدة فضل ربه وإحسانه ورحمته وجوده وبره وغناه وحمده فالعارف سائر إلى الله تعالى بين هذين الجناحين لا يمكنه أن يسير إلا بهما»[3].

٥. مخاطبة عقول العباد بالأدلة الواضحة التي تبين لهم صفات المعبود الحق.

كما في قوله تعالى: ﴿أَمْ خُلِقُوا۟ مِنْ غَيْرِ شَىْءٍ أَمْ هُمُ ٱلْخَٰلِقُونَ ۝٣٥ أَمْ خَلَقُوا۟ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ ۚ بَل لَّا يُوقِنُونَ ۝٣٦﴾ [الطور: ٣٥-٣٦].

«من لابتداء الغاية، أي: أم أحدثوا وقدروا هذا التقدير البديع والشكل العجيب من غير محدث ومقدر، وقيل: أم خلقوا من أجل لا شيء من عبادة وجزاء، فمن للسببية. ﴿أَمْ هُمُ ٱلْخَٰلِقُونَ﴾ لأنفسهم فلذلك لا يعبدون الله تعالى ﴿أَمْ خَلَقُوا۟ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ ۚ بَل لَّا يُوقِنُونَ﴾ أي: إذا سئلوا من خلقكم وخلق السموات والأرض»[4].

فإن زعم الإنسان أنه خلق من غير شيء كان في ذلك مناقضة لقانون السببية الذي يربط بين مسببات وأسبابها والنتائج بمقدماتها والظواهر بعللها، فلا يوجد خلق بلا خالق.

ونتأمل طريقة القرآن الكريم في إبطال الشرك بكافة أنواعه على سبيل الإيجاز في الأمور الآتية:

١. بيان عجز الشركاء عن الخلق: ﴿أَفَمَن يَخْلُقُ كَمَن لَّا يَخْلُقُ ۗ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ۝١٧﴾ [النحل: ١٧].

٢. عجز الشركاء عن التصرف في الكون بالنفع والضر والإحياء والإماتة ونحو ذلك: ﴿قُلِ ٱدْعُوا۟ ٱلَّذِينَ زَعَمْتُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ ۖ لَا يَمْلِكُونَ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَلَا فِى ٱلْأَرْضِ﴾ [سبأ: ٢٢].

٣. إبطال الشركة أو الشراكة بين العبيد وساداتهم فيما يملكه السادة فمن باب أولى إبطال الشركة أو الشراكة بين الله وبين أحد من خلقه، والخلق كلهم عبيد لله ولم يبق إلا الرب وحده لا شريك له.

٤. غنى الله عن كل شيء ومنه غناه عن

---

(١) تيسير الكريم الرحمن، السعدي ص ٦٨٧.
(٢) معالم التنزيل، البغوي ٦/ ٤١٧.
(٣) الوابل الصيب، ابن القيم ص ١١.
(٤) روح البيان، الألوسي ٩/ ٢٠٢.

الصاحبة والولد إبطالًا لما قيل في حقه اتخذ الله ولدًا وأن الملائكة بناته تعالى الله عن ذلك علوًا كبيرًا.

٦ . تصحيح التصورات الخاطئة عن الله وأسمائه وصفاته.

وفي هذا الصدد نذكر على سبيل المثال: الرد على اليهود الذين لم يقدروا الله حق قدره فقالوا فيما يحكيه عنهم القرآن: ﴿وَقَالَتِ ٱلْيَهُودُ يَدُ ٱللَّهِ مَغْلُولَةٌ﴾ [المائدة: ٦٤].

فصحح هذه التصور الفاسد بقوله تعالى: ﴿بَلْ يَدَاهُ مَبْسُوطَتَانِ يُنفِقُ كَيْفَ يَشَآءُ﴾ [المائدة: ٦٤].

«قال ابن عباس وعكرمة والضحاك وقتادة: إن الله تعالى كان قد بسط على اليهود حتى كانوا من أكثر الناس مالًا وأخصبهم ناحية فلما عصوا الله في أمر محمد صلى الله عليه وسلم وكذبوا به كف الله عنهم ما بسط عليهم من السعة، فعند ذلك قال فنحاص بن عازوراء: يد الله مغلولة، أي: محبوسة مقبوضة عن الرزق نسبوه إلى البخل، تعالى الله عن ذلك. قيل: إنما قال هذه المقالة فنحاص، فلما لم ينهه الآخرون ورضوا بقوله أشركهم الله فيها. وقال الحسن: معناه يد الله مكفوفة عن عذابنا فليس يعذبنا إلا ما تبر به قسمه قدر ما عبد آباؤنا العجل. والأول أولى لقوله: ﴿يُنفِقُ كَيْفَ يَشَآءُ﴾.

﴿غُلَّتْ أَيْدِيهِمْ﴾ أي: أمسكت أيديهم عن الخيرات. وقال الزجاج: أجابهم الله تعالى فقال: أنا الجواد وهم البخلاء وأيديهم هي المغلولة الممسكة. وقيل: هو من الغل في النار يوم القيامة لقوله تعالى: ﴿إِذِ ٱلْأَغْلَٰلُ فِىٓ أَعْنَٰقِهِمْ وَٱلسَّلَٰسِلُ يُسْحَبُونَ ﴿٧١﴾﴾ [غافر: ٧١].

﴿وَلُعِنُوا﴾ عذبوا، ﴿بِمَا قَالُوا﴾ فمن لعنهم أنهم مسخوا قردة وخنازير وضربت عليهم الذلة والمسكنة في الدنيا وفي الآخرة بالنار، ﴿بَلْ يَدَاهُ مَبْسُوطَتَانِ﴾ ويد الله صفة من صفاته كالسمع، والبصر والوجه. وقال جل ذكره: ﴿لِمَا خَلَقْتُ بِيَدَىَّ﴾ [ص: ٧٥].

وقال النبي صلى الله عليه وسلم: (كلتا يديه يمين) والله أعلم بصفاته، فعلى العباد فيها الإيمان والتسليم. وقال أئمة السلف من أهل السنة في هذه الصفات: «أمروها كما جاءت بلا كيف»[(١)].

كذلك سبب نزول سورة الإخلاص: فعن أبي بن كعب أن المشركين قالوا لرسول الله صلى الله عليه وسلم انسب لنا ربك فأنزل الله ﴿قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ ﴿١﴾ ٱللَّهُ ٱلصَّمَدُ ﴿٢﴾﴾ [الإخلاص: ١-٢] إلى آخر السورة[(٢)].

---

(١) معالم التنزيل، البغوي ٣/ ٧٦ - ٧٧.
والحديث جزء من حديث أخرجه مسلم في صحيحه، كتاب الإمارة، باب فضيلة الإمام العادل وعقوبة الجائر، ٣/ ١٤٥٨، رقم ١٨٢٧.

(٢) أخرجه الترمذي في سننه، أبواب التفسير، باب ومن سورة الإخلاص، رقم ٣٣٦٤.
وحسنه الألباني في ضعيف سنن الترمذي رقم

«ولأن أهل التفسير قالوا: نزلت الآية جوابًا لأهل الشرك لما قالوا لرسول الله صلى الله عليه وسلم: صف لنا ربك، أمن ذهب أم من نحاس أم من صفر؟ فقال الله جل وعز ردًا عليهم: ﴿قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ﴾ ففي «هو» دلالة على موضع الرد ومكان الجواب»[1].

«وفي هذه السورة لما سألوا عن حقيقة الله ونسبه جاء الجواب بصفاته؛ لأن ما يسألون عنه إنما يكون في المخلوقات لا في الخالق سبحانه، وفي الممكن لا في الواجب الوجود لذاته، سبحان من لا يدرك كنهه غيره»[2].

الصفات المنفية عن الله تعالى

صفات الله تعالى تنقسم إلى قسمين:

١. صفات ثبوتية.

٢. صفات سلبية.

وهذا التقسيم هو مأخوذ من آيات الصفات وأحاديثها، فنجدها إما أن تثبت وإما أن تنفي أو العكس.

فالصفات الثبوتية: ما أثبت الله تعالى لنفسه في كتابه أو على لسان رسوله صلى الله عليه وسلم، وكلها صفات كمال لا نقص فيها بوجه من الوجوه، كالحياة، والعلم، والقدرة، والاستواء على العرش، والنزول إلى السماء الدنيا، والوجه، واليدين، ونحو ذلك، فيجب إثباتها لله تعالى حقيقة على الوجه اللائق به.

والصفات السلبية: ما نفاها الله سبحانه عن نفسه في كتابه، أو على لسان رسوله صلى الله عليه وسلم، وكلها صفات نقص في حقه، كالموت، والنوم، والجهل، والنسيان، والعجز، والتعب، فيجب نفيها عن الله تعالى لما سبق مع إثبات ضدها على الوجه الأكمل، وذلك لأن ما نفاه الله تعالى عن نفسه فالمراد به بيان انتفائه لثبوت كمال ضده لا لمجرد نفيه، لأن النفي ليس بكمال إلا أن يتضمن ما يدل على الكمال، وذلك لأن النفي عدم، والعدم ليس بشيء فضلًا

٦٦٦.

(١) الجامع لأحكام القرآن، القرطبي ١/ ٨٥.

(٢) أضواء البيان، الشنقيطي ٩/ ١٥٦.

عن أن يكون كمالًا، ولأن النفي قد يكون لعدم قابلية المحل له فلا يكون كمالًا، كما لو قلت: الجدار لا يظلم. وقد يكون للعجز عن القيام به فيكون نقصًا.

وعلى ذلك أمثلة:

المثال الأول: قوله تعالى: ﴿وَتَوَكَّلْ عَلَى الْحَيِّ الَّذِي لَا يَمُوتُ﴾ [الفرقان:٥٨].

فنفي الموت عنه يتضمن كمال حياته.

المثال الثاني: قوله تعالى: ﴿وَلَا يَظْلِمُ رَبُّكَ أَحَدًا﴾ [الكهف:٤٩].

نفي الظلم عنه يتضمن كمال عدله.

المثال الثالث: قوله تعالى: ﴿وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُعْجِزَهُ مِنْ شَيْءٍ فِي السَّمَاوَاتِ وَلَا فِي الْأَرْضِ﴾ [فاطر:٤٤].

فنفي العجز عنه يتضمن كمال علمه وقدرته، ولهذا قال بعده: ﴿إِنَّهُ كَانَ عَلِيمًا قَدِيرًا﴾؛ لأن العجز سببه: إما الجهل بأسباب الإيجاد، وإما قصور القدرة عنه، فلكمال علم الله تعالى وقدرته لم يكن ليعجزه شيء في السماوات ولا في الأرض. وبهذا المثال علمنا أن الصفة السلبية قد تتضمن أكثر من كمال.

والصفات الثبوتية صفات مدح وكمال فكلما كثرت وتنوعت دلالاتها ظهر من كمال الموصوف بها ما هو أكثر، ولهذا كانت الصفات الثبوتية التي أخبر الله بها عن نفسه أكثر بكثير من الصفات السلبية كما هو معلوم.

أما الصفات السلبية فلم تذكر غالبًا إلا في الأحوال التالية:

الأولى: بيان عموم كماله.

قال تعالى: ﴿لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ ۝ وَلَمْ يَكُنْ لَهُ كُفُوًا أَحَدٌ ۝﴾ [الإخلاص:٣-٤].

«وقوله: ﴿لَمْ يَلِدْ﴾ يقول: ليس بفان، لأنه لا شيء يلد إلا هو فان بائد ﴿وَلَمْ يُولَدْ﴾ يقول: وليس بمحدث لم يكن فكان، لأن كل مولود فإنما وجد بعد أن لم يكن، وحدث بعد أن كان غير موجود، ولكنه تعالى ذكره قديم لم يزل، ودائم لم يبد، ولا يزول ولا يفنى. وقوله: ﴿وَلَمْ يَكُنْ لَهُ كُفُوًا أَحَدٌ﴾ اختلف أهل التأويل في معنى ذلك، فقال بعضهم: معنى ذلك: ولم يكن له شبيه ولا مثل. وقال آخرون: معنى ذلك، أنه لم يكن له صاحبة»[1].

الثانية: نفي ما ادعاه في حقه الكاذبون.

قال تعالى: ﴿أَنْ دَعَوْا لِلرَّحْمَٰنِ وَلَدًا ۝ وَمَا يَنْبَغِي لِلرَّحْمَٰنِ أَنْ يَتَّخِذَ وَلَدًا ۝﴾ [مريم:٩١-٩٢]. «وهذا تقبيح وتشنيع لقول المعاندين الجاحدين، الذين زعموا أن الرحمن اتخذ ولدًا، كقول النصارى: المسيح ابن الله، واليهود: عزير ابن الله، والمشركين: الملائكة بنات الله، تعالى الله عن قولهم

(١) جامع البيان، الطبري ٢٤/ ٦٩٣.

علوًا كبيرًا»[(١)].

«فلشناعة هذه الفرية قدم ذكرها، ثم الرد على عدم إمكانها بقوله: ﴿وَمَا يَنۢبَغِى لِلرَّحْمَٰنِ أَن يَتَّخِذَ وَلَدًا ۝٩٢ إِن كُلُّ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ إِلَّآ ءَاتِى ٱلرَّحْمَٰنِ عَبْدًا ۝٩٣﴾ [مريم: ٩٢-٩٣]»[(٢)].

الثالثة: دفع توهم نقص من كماله فيما يتعلق بهذا الأمر المعين.

قال تعالى: ﴿وَقُلِ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى لَمْ يَتَّخِذْ وَلَدًا وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ شَرِيكٌ فِى ٱلْمُلْكِ وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ وَلِىٌّ مِّنَ ٱلذُّلِّ ۖ وَكَبِّرْهُ تَكْبِيرًۢا ۝١١١﴾ [الإسراء: ١١١].

«أمر الله جل وعلا في هذه الآية الكريمة الناس على لسان نبيه صلى الله عليه وسلم «لأن أمر القدوة أمر لأتباعه كما قدمنا» أن يقولوا: «الحمد لله» أي: كل ثناء جميل لائق بكماله وجلاله، ثابت له، مبينًا أنه منزه عن الأولاد والشركاء والعزة بالأولياء، سبحانه وتعالى عن ذلك كله علوًا كبيرًا»[(٣)].

وكما في قوله: ﴿وَمَا خَلَقْنَا ٱلسَّمَآءَ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا لَٰعِبِينَ ۝١٦﴾ [الأنبياء: ١٦].

«ما خلقناهما إلا بالحق أي الاستدلال على خالقهما، لعبادته وطاعته ولكن أكثرهم لا يعلمون أي حكمة خلقها، فيعرضون عنه»[(٤)].

(١) تيسير الكريم الرحمن، السعدي ص ٥٠١.
(٢) أضواء البيان، الشنقيطي ٩/ ١٥٣.
(٣) المصدر السابق ٣/ ١٨٩.
(٤) محاسن التأويل، القاسمي ٨/ ٤٢١.

ثمرات الإيمان بصفات الله تعالى

القرآن الكريم كلام الله عز وجل كتاب هداية وإرشاد، بين الله سبحانه وتعالى فيه أمور الدين أعظم بيان ومنها أمور الإيمان والتوحيد ولاسيما ما يتعلق بأسماء الله وصفاته وكذلك السنة النبوية الصحيحة.

فمن تدبر القرآن العظيم وجد أن الله سبحانه تعالى: قد تجلى فيه بأسمائه وصفاته متعرفًا إلى عباده بصفاته ألوهيته وصفات ربوبيته وصفات كماله وجلاله، وتأمل العبد في آياته يجعله « يعرف ربًا قد اجتمعت له صفات الكمال والجلال، منزه عن المثال بريئ من النقائص والعيوب، وله كل اسم حسن وكل وصف كمال فعال لما يريد، فوق كل شيء ومع كل شيء وقادر على كل شيء ومقيم لكل شيء»[(٥)].

قال ابن القيم: « فليس شيء أنفع للعبد في معاشه ومعاده وأقرب إلى نجاته من تدبر القرآن وإطالة التأمل فيه وجمع الفكر على معاني آياته فإنها تطلع العبد على معالم الخير والشر وتثبت قواعد الإيمان في قلبه وتشهده عدل الله وفضله، وتعرفه ذاته وأسمائه وصفاته وأفعاله.

فهذا القرآن عمدته ومقصوده الإخبار عن صفات الرب سبحانه وأسمائه وأفعاله

(٥) مدارج السالكين، ابن القيم ١/ ٤٥١.

وأنواع حمده والثناء عليه والإنباء عن عظمته وعزته وحكمته وأنواع صنعته والتقدم إلى عباده بأمره ونهيه»[1].

«فلو طهرت منا القلوب وصفت الأذهان، وزكت النفوس، وخلصت الأعمال وتجردت الهمم للتلقي عن الله ورسوله لشاهدنا من معاني كلام الله وأسراره وحكمه ما تضمحل عنده العلوم وتتلاشى عنده معارف الخلق، وبهذا تعرف قدر علوم الصحابة ومعارفهم وأن التفاوت الذي بين علومهم وعلوم من بعدهم كالتفاوت الذي بينهم في الفضل، والله أعلم حيث يجعل مواقع فضله ومن يختص برحمته»[2].

فاعتقاد المسلم بأسماء الله وصفاته الاعتقاد الجازم المثمر لأعمال القلوب والجوارح يؤثر في نظرته للحياة وعلاقته بربه تبارك وتعالى أيما تأثير ويحل له قضايا الوجود الكبرى كالهدف من وجوده وكالمبدأ والمعاد والجنة والنار وغير ذلك من القضايا والأمور العظيمة، ويبدد من داخل الإنسان الشك والحيرة والقلق ويكسبه اليقين والسعادة والفوز في الدنيا والآخرة.

ومن أهم ثمرات الأسماء والصفات الأمور الآتية:

(١) طريق الهجرتين، ابن القيم ص ١٨٢.

(٢) إعلام الموقعين، ابن القيم ١/ ١٧١.

١ . معرفة أسماء الله وصفاته تجلب أعظم الأثر في تحقيق العبودية لله رب العالمين.

إذ أن معرفة العبد بها واستحضاره لمعانيها وتفكره في آثارها تجعله موصولًا دائمًا بمعبوده الحق سبحانه وتعالى محبًا له راجيًا قربه وعطاءه، خائفًا غضبه وعذابه، متوكلًا مستعينًا منيبًا.

قال تعالى: ﴿وَلِلَّهِ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَىٰ فَادْعُوهُ بِهَا ۖ وَذَرُوا الَّذِينَ يُلْحِدُونَ فِي أَسْمَائِهِ ۚ سَيُجْزَوْنَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿١٨٠﴾﴾ [الأعراف: ١٨٠].

قال القرطبي: « قوله تعالى: ﴿فَادْعُوهُ بِهَا﴾ أي اطلبوا منه بأسمائه، فيطلب بكل اسم ما يليق به، تقول يا رحيم ارحمني، يا حكيم احكم لي، يا رازق ارزقني، يا هادي اهدني، يا فتاح افتح لي، يا تواب تب علي، هكذا. فإن دعوت باسم عام قلت: يا مالك ارحمني، يا عزيز احكم لي، يا لطيف ارزقني. وإن دعوت بالأعم الأعظم فقلت: يا الله، فهو متضمن لكل اسم. ولا تقول: يا رزاق اهدني، إلا أن تريد يا رزاق ارزقني الخير. قال ابن العربي: وهكذا، رتب دعاءك تكن من المخلصين»[3].

وقال العز بن عبد السلام: « فهم معاني أسماء الله تعالى وسيلة إلى معاملته بثمراتها من الخوف والرجاء والمهابة و المحبة

(٣) الجامع لأحكام القرآن، القرطبي ٧/ ٣٢٧.

والتوكل وغير ذلك من ثمرات معرفة الصفات»[1].

وقد علق الله النجاة يوم القيامة على صلاح القلب وسلامته من الشرك فقال تعالى: ﴿يَوْمَ لَا يَنفَعُ مَالٌ وَلَا بَنُونَ ﴿٨٨﴾ إِلَّا مَنْ أَتَى اللَّهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ ﴿٨٩﴾﴾ [الشعراء:٨٨-٨٩].

قال ابن كثير: «ولا ينفع يومئذ إلا الإيمان بالله، وإخلاص الدين له، والتبري من الشرك؛ ولهذا قال: ﴿إِلَّا مَنْ أَتَى اللَّهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ﴾ أي: سالم من الدنس والشرك وقال ابن عباس: ﴿إِلَّا مَنْ أَتَى اللَّهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ﴾ حيي يشهد أن لا إله إلا الله»[2].

فصلاح سائر الجسد وسلامته متعلق به دل عليه حديث رسول الله صلى الله عليه وسلم **(ألا وإن في الجسد مضغة إذا صلحت صلح الجسد كله وإذا فسدت فسد الجسد كله ألا وهي القلب)**[3].

كما بين رسول الله صلى الله عليه وسلم أن القلب هو محل نظر الله عز وجل بقوله: **(إن الله لا ينظر إلى أجسادكم ولا إلى صوركم ولكن ينظر إلى قلوبكم وأعمالكم)**[4].

(١) شجرة المعارف والأحوال، العز بن عبدالسلام ص١.

(٢) تفسير القرآن العظيم ٦/ ١٤٩.

(٣) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب الإيمان، باب من استبرأ لدينه، رقم ٥٢.

(٤) أخرجه مسلم في صحيحه، كتاب البر والصلة، باب تحريم ظلم المسلم وخذله رقم ٢٥٦٤.

ويتضمن هذا البيان ندبًا إلى الاهتمام بما يصل القلب ويحقق عبوديته ويزينه ويجمله، ورأس هذا معرفة الله وصفاته واعتقاد وحدانيته وإلهيته التي تبعث على طاعته عز وجل وإفراده بالعبادة الباطنة منها والظاهرة.

وتأمل على سبيل المثال: اسم الله الحيي الذي معناه كثير الحياء، وحياؤه سبحانه و تعالى وصف يليق بجلاله وعظمته ومن أثره ما يرى العبد من إكرام ربه له وإجابته دعوته وإعطائه سؤله.

العبد الراجي لربه متعلق الأمل ببره وجوده وكرمه، عابد له بأسمائه: الحليم الغفور الكريم القريب المجيب والشكور الودود ونحوها، فإذا استحضر العبد أن ربه قريب منه يجيب دعوته ويشكر سعيه، وإن أقبل عليه قبله وإن استغفره غفر له فإنه ولا شك يحبه ويرجو أن يكون محبوبًا عنده فيدفعه ذلك إلى تحقيق عبوديته له بأنواع الطاعات والعبادات التي ترضيه عنه[5].

قال تعالى: ﴿الَّذِينَ آمَنُوا وَتَطْمَئِنُّ قُلُوبُهُم بِذِكْرِ اللَّهِ﴾ أي: بكتاب الله وكلامه ﴿أَلَا بِذِكْرِ اللَّهِ تَطْمَئِنُّ الْقُلُوبُ﴾ [الرعد:٢٨].

«في (ذكر الله) هاهنا قولان:

أحدهما: أنه ذكر العبد ربه، فإنه يطمئن

(٥) انظر: تحقيق العبودية بمعرفة الأسماء والصفات ٣٩٢-٣٩٣.

إليه قلبه، ويسكن. فإذا اضطرب القلب وقلق فليس له ما يطمئن به سوى ذكر الله. ثم اختلف أصحاب هذا القول فيه. فمنهم من قال: هذا في الحلف واليمين، إذا حلف المؤمن على شيء سكنت قلوب المؤمنين إليه، واطمأنت. ويروى هذا عن ابن عباس رضي الله عنهما. ومنهم من قال: بل هو ذكر العبد ربه بينه وبينه، يسكن إليه قلبه، ويطمئن.

والقول الثاني: أن ذكر الله هاهنا القرآن، وهو ذكره الذي أنزله على رسوله به طمأنينة قلوب المؤمنين. فإن القلب لا يطمئن إلا بالإيمان واليقين.

ولا سبيل إلى حصول الإيمان واليقين إلا من القرآن. فإن سكون القلب وطمأنيته من يقينه، واضطرابه وقلقه من شكه. والقرآن هو المحصل لليقين الدافع للشكوك والظنون والأوهام. فلا تطمئن قلوب المؤمنين إلا به. وهذا القول هو المختار»[1].

فطمأنينة القلوب الصحيحة والفطر السليمة وسكونها إليه من أعظم الآيات، إذ يستحيل في العادة أن تطمئن القلوب وتسكن إلى الكذب والافتراء والباطل ومتى انفتح الباب للعبد انتفع بمطالعة تاريخ العالم وأحوال الأمم ومجريات الخلق[2].

فلا بد للعبد من تدبر ما ورد في باب أسماء الله تعالى وصفاته وينظر في كل آية وحديث بخصوصه وسياقه وما يبين معناه من القرآن والسنة والدلالات، فهذا أصل عظيم مهم نافع.

قال شيخ الإسلام ابن تيمية: «لفظة الأمر، فإن الله تعالى لما أخبر بقوله: ﴿إِنَّمَآ أَمْرُهُۥٓ إِذَآ أَرَادَ شَيْـًٔا أَن يَقُولَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ﴿٨٢﴾﴾ [يس:٨٢]. وقال: ﴿أَلَا لَهُ ٱلْخَلْقُ وَٱلْأَمْرُ﴾ [الأعراف:٥٤].

واستدل طوائف من السلف على أن الأمر غير مخلوق، بل هو كلامه وصفة من صفاته بهذه الآية وغيرها، صار كثير من الناس يطرد ذلك في لفظ الأمر حيث ورد فيجعله صفة طردًا للدلالة، ويجعل دلالته على غير الصفة تارة وعلى متعلقها أخرى: فإن الرحمة صفة لله ويسمى ما خلق رحمة، والقدر من صفات الله تعالى ويسمى المقدور قدرة، ويسمى تعلقها بالمقدور قدرة، والخلق من صفات الله تعالى ويسمى خلقًا، والعلم من صفات الله ويسمى المعلوم أو المتعلق علمًا فتارة يراد الصفة وتارة يراد متعلقها وتارة يراد نفس المتعلق.

والأمر مصدر فالمأمور به يسمى أمرًا ومن هذا الباب سمي عيسى صلى الله عليه وسلم كلمة، لأنه مفعول بالكلمة وكائن بالكلمة وهذا هو الجواب عن سؤال الجهمية لما

(١) التفسير القيم، ابن القيم ٣٣٦-٣٣٧.
(٢) انظر: مدارج السالكين ٣/ ٤٧١ و ١/ ٤٢٥.

قالوا: عيسى كلمة الله فهو مخلوق والقرآن إذا كان كلام الله لم يكن إلا مخلوقًا، فإن عيسى ليس هو نفس كلمة الله، وإنما سمي بذلك لأنه خلق بالكلمة على خلاف سنة المخلوقين فخرقت فيه العادة وقيل له: كن فكان، والقرآن نفس كلام الله.

فمن تدبر ما ورد في باب أسماء الله وصفاته، وأن دلالة ذلك في بعض المواضيع على ذات الله أو بعض صفاته لا يوجب أن يكون ذلك هو مدلول اللفظ حيث ورد حتى يكون ذلك طردًا للمثبت ونقضًا للمنافي، بل ينظر في كل آية وحديث بخصوصه وسياقه وما يبين معناه القرآن والدلالات، فهذا أصل عظيم مهم نافع في باب فهم الكتاب والسنة والاستدلال بهما مطلقًا ونافع في معرفة الاستدلال والاعتراض والجواب، وطرد الدليل ونقضه فهو نافع في كل علم خبري أو إنشائي وفي كل استدلال أو معارضته من الكتاب والسنة وفي سائر أدلة الخلق»[1].

ولا شك في من تدبر أسماء الله الحسنى وصفاته العليا التدبر الشرعي أثمر عنده حقيقة التعبد المطلق لله رب العالمين وعدم الإشراك به، وبضدها تتميز الأشياء فالشرك ومظاهره وأسبابه وأنواعه في جميع أبواب العقيدة والتوحيد يبطله ويقضي عليه التوحيد الخالص الحي في قلب المؤمن وسلوكه.

٢. اعتقاد المسلم أن الحياة نعمة ورحمة من الله المنعم عز وجل فتتأثر حياته بالسعي في شكرها وأداء حق الله تعالى في هذه النعمة.

قال تعالى: ﴿هَلْ أَتَىٰ عَلَى ٱلْإِنسَـٰنِ حِينٌ مِّنَ ٱلدَّهْرِ لَمْ يَكُن شَيْـًٔا مَّذْكُورًا ۝١ إِنَّا خَلَقْنَا ٱلْإِنسَـٰنَ مِن نُّطْفَةٍ أَمْشَاجٍ نَّبْتَلِيهِ فَجَعَلْنَـٰهُ سَمِيعًۢا بَصِيرًا ۝٢ إِنَّا هَدَيْنَـٰهُ ٱلسَّبِيلَ إِمَّا شَاكِرًا وَإِمَّا كَفُورًا ۝٣﴾ [الإنسان:١-٣].

«وقد ذكر تعالى نعمتين عظيمتين:

الأولى: إيجاد الإنسان من العدم بعد أن لم يكن شيئا مذكورًا، وهذه نعمة عظمى لا كسب للعبد فيها.

والثانية: الهداية بالبيان والإرشاد إلى سبيل الحق والسعادة، وهذه نعمة إرسال الرسل وإنزال الكتب، ولا كسب للعبد فيها أيضا. وقد قال العلماء: هناك ثلاث نعم لا كسب للعبد فيها:

الأولى: وجوده بعد العدم.

الثانية: نعمة الإيمان.

الثالثة: دخول الجنة»[2].

وقال تبارك وتعالى: ﴿مَّا يَفْعَلُ ٱللَّهُ بِعَذَابِكُمْ إِن شَكَرْتُمْ وَءَامَنتُمْ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ شَاكِرًا عَلِيمًا ۝١٤٧﴾ [النساء:١٤٧].

«أخبر تعالى عن كمال غناه وسعة حلمه

(١) مجموع فتاوى ابن تيمية ٦/ ١٧-١٩.

(٢) أضواء البيان، الشنقيطي ٨/ ٣٧٩.

ورحمته وإحسانه فقال: ﴿مَّا يَفۡعَلُ ٱللَّهُ بِعَذَابِكُمۡ إِن شَكَرۡتُمۡ وَءَامَنتُمۡ﴾ والحال أن الله شاكر عليم يعطي المتحملين لأجله الأثقال، الدائبين في الأعمال، جزيل الثواب وواسع الإحسان، ومن ترك شيئا لله أعطاه الله خيرا منه، ومع هذا يعلم ظاهركم وباطنكم، وأعمالكم وما تصدر عنه من إخلاص وصدق، وضد ذلك وهو يريد منكم التوبة والإنابة والرجوع إليه، فإذا أنبتم إليه، فأي شيء يفعل بعذابكم؟ فإنه لا يتشفى بعذابكم، ولا ينتفع بعقابكم، بل العاصي لا يضر إلا نفسه، كما أن عمل المطيع لنفسه.

والشكر هو خضوع القلب واعترافه بنعمة الله، وثناء اللسان على المشكور، وعمل الجوارح بطاعته وأن لا يستعين بنعمه على معاصيه»[1].

وقال عز وجل: ﴿وَٱللَّهُ جَعَلَ لَكُم مِّنۢ بُيُوتِكُمۡ سَكَنٗا وَجَعَلَ لَكُم مِّن جُلُودِ ٱلۡأَنۡعَٰمِ بُيُوتٗا تَسۡتَخِفُّونَهَا يَوۡمَ ظَعۡنِكُمۡ وَيَوۡمَ إِقَامَتِكُمۡ وَمِنۡ أَصۡوَافِهَا وَأَوۡبَارِهَا وَأَشۡعَارِهَآ أَثَٰثٗا وَمَتَٰعًا إِلَىٰ حِينٖ ٨٠ وَٱللَّهُ جَعَلَ لَكُم مِّمَّا خَلَقَ ظِلَٰلٗا وَجَعَلَ لَكُم مِّنَ ٱلۡجِبَالِ أَكۡنَٰنٗا وَجَعَلَ لَكُمۡ سَرَٰبِيلَ تَقِيكُمُ ٱلۡحَرَّ وَسَرَٰبِيلَ تَقِيكُم بَأۡسَكُمۡۚ كَذَٰلِكَ يُتِمُّ نِعۡمَتَهُۥ عَلَيۡكُمۡ لَعَلَّكُمۡ تُسۡلِمُونَ ٨١﴾ [النحل: ٨٠-٨١].

قال ابن كثير: «يذكر تبارك وتعالى تمام نعمه على عبيده، بما جعل لهم من البيوت التي هي سكن لهم، يأوون إليها، ويستترون بها، وينتفعون بها سائر وجوه الانتفاع، وجعل لهم أيضا ﴿مِّن جُلُودِ ٱلۡأَنۡعَٰمِ بُيُوتٗا﴾ أي: من الأدم، يستخفون حملها في أسفارهم، ليضربوها لهم في إقامتهم في السفر والحضر ﴿أَثَٰثٗا﴾ أي: تتخذون منه أثاثا، وهو المال. وقيل: المتاع. وقيل: الثياب والصحيح أعم من هذا كله، فإنه يتخذ من الأثاث البسط والثياب وغير ذلك، ويتخذ مالًا وتجارة. وقوله: ﴿إِلَىٰ حِينٖ﴾ أي: إلى أجل مسمى ووقت معلوم.

وقوله: ﴿وَٱللَّهُ جَعَلَ لَكُم مِّمَّا خَلَقَ ظِلَٰلٗا﴾ قال قتادة: يعني: الشجر.

﴿وَجَعَلَ لَكُم مِّنَ ٱلۡجِبَالِ أَكۡنَٰنٗا﴾ أي: حصونًا ومعاقل، كما ﴿وَجَعَلَ لَكُمۡ سَرَٰبِيلَ تَقِيكُمُ ٱلۡحَرَّ﴾ وهي الثياب من القطن والكتان والصوف.

﴿وَسَرَٰبِيلَ تَقِيكُم بَأۡسَكُمۡ﴾ كالدروع من الحديد المصفح والزرد وغير ذلك.

﴿كَذَٰلِكَ يُتِمُّ نِعۡمَتَهُۥ عَلَيۡكُمۡ﴾ أي: هكذا يجعل لكم ما تستعينون به على أمركم، وما تحتاجون إليه، ليكون عونًا لكم على طاعته وعبادته.

﴿لَعَلَّكُمۡ تُسۡلِمُونَ﴾ هكذا فسره الجمهور، وقرؤوه بكسر اللام من

(١) تيسير الكريم الرحمن، السعدي ص ٢١٢.

(تسلِمون) أي: من الإسلام. وقال قتادة في قوله: ﴿كَذَٰلِكَ يُتِمُّ نِعْمَتَهُۥ عَلَيْكُمْ لَعَلَّكُمْ تُسْلِمُونَ﴾ هذه السورة تسمى سورة النعم»[1].

وقال ابن القيم: «فمن عرف ربه بالغنى المطلق عرف نفسه بالفقر المطلق، ومن عرف ربه بالقدرة التامة عرف نفسه بالعجز التام، ومن عرف ربه بالعز التام عرف نفسه بالمسكنة التامة، ومن عرف رب بالعلم التام والحكمة عرف نفسه بالجهل، فالله سبحانه أخرج العبد من بطن أمه لا يعلم شيئًا ولا يقدر على شيء ولا يملك شيئًا ولا يقدر على عطاء ولا منع ولا ضر ولا نفع ولا شيء البتة. بل لم يزل عبدًا فقيرًا بذاته إلى بارئه وفاطره فلما أسبغ عليه نعمته وأفاض عليه من رحمته وساق إليه أسباب كمال وجوده ظاهرًا وباطنًا وجعل له السمع والبصر والفؤاد وعلمه وأقدره وصرفه وحركه»[2].

ألا يوجب ذلك وغيره عبادته وشكره ومحبته وطلب رضاه والبعد عن سخطه.

وتأمل قوله تعالى: ﴿أَلَآ إِنَّ أَوْلِيَآءَ ٱللَّهِ لَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٦٢﴾ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَكَانُوا۟ يَتَّقُونَ ﴿٦٣﴾ لَهُمُ ٱلْبُشْرَىٰ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَفِى ٱلْءَاخِرَةِ ۚ لَا تَبْدِيلَ لِكَلِمَـٰتِ ٱللَّهِ ۚ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ ﴿٦٤﴾﴾[يونس:٦٢-٦٤].

«ما البشارة في الدنيا، فهي: الثناء الحسن، والمودة في قلوب المؤمنين، والرؤيا الصالحة، وما يراه العبد من لطف الله به وتيسيره لأحسن الأعمال والأخلاق، وصرفه عن مساوئ الأخلاق.

وأما في الآخرة، فأولها البشارة عند قبض أرواحهم، كما قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ قَالُوا۟ رَبُّنَا ٱللَّهُ ثُمَّ ٱسْتَقَـٰمُوا۟ تَتَنَزَّلُ عَلَيْهِمُ ٱلْمَلَـٰٓئِكَةُ أَلَّا تَخَافُوا۟ وَلَا تَحْزَنُوا۟ وَأَبْشِرُوا۟ بِٱلْجَنَّةِ ٱلَّتِى كُنتُمْ تُوعَدُونَ ﴿٣٠﴾﴾ [فصلت:٣٠].

وفي القبر ما يبشر به من رضا الله تعالى والنعيم المقيم. وفي الآخرة تمام البشرى بدخول جنات النعيم، والنجاة من العذاب الأليم.

﴿لَا تَبْدِيلَ لِكَلِمَـٰتِ ٱللَّهِ﴾ بل ما وعد الله فهو حق، لا يمكن تغييره ولا تبديله، لأنه الصادق في قيله، الذي لا يقدر أحد أن يخالفه فيما قدره وقضاه.

﴿ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ﴾ لأنه اشتمل على النجاة من كل محذور، والظفر بكل مطلوب محبوب، وحصر الفوز فيه، لأنه لا فوز لغير أهل الإيمان والتقوى.

والحاصل أن البشرى شاملة لكل خير وثواب، رتبه الله في الدنيا والآخرة، على الإيمان والتقوى، ولهذا أطلق ذلك، فلم

(١) تفسير القرآن العظيم ٤/ ٥٩١.
(٢) طريق الهجرتين ص٢٣-٢٤.

يقيده»[1].

وقال صلى الله عليه وسلم: (لما خلق الله تعالى الخلق كتب في كتابه وهو يكتب على نفسه وهو وضع عنده العرش: إن رحمتي تغلب غضبي)[2].

وآثار رحمته مبثوثة في الكون والحياة وفي الخلق والأمر، فهو الذي عمت رحمته خلقه في جميع الأقطار، خلقهم وأنعم عليهم بالحياة والحواس والنعم العامة المتنوعة في أنفسهم التي لا يحصيها العد.

وبواسع رحمته وعظيم فضله عرفناه بأسمائه وصفاته وأفعاله حتى عرفنا أنه ربنا ومولانا، فأنواع النعم وصنوف الإحسان وخيرات الدنيا والآخرة كلها من آثار رحمته[3].

وقال صلى الله عليه وسلم: (أحبو الله لما يغذوكم به من نعمه)[4].

وأخبر صلى الله عليه وسلم: (أن حسب ابن آدم من الدنيا لقيمات يقمن صلبه فإن لم يقتصر عليها فثلث بطنه لطعامه وثلثه لشرابه وثلثه لنفسه)[5].

وليتأمل العبد هذا الدعاء وهو قوله صلى الله عليه وسلم: (أبوء بنعمتك علي وأبوء بذنبي)[6].

فإن معناه: ألتزم بالمنة بحق النعمة والاعتراف بالتقصير في شكرها واحتمال اللائمة فيه[7].

٣. طلب المسلم الهداية من الله تعالى إلى الصراط المستقيم في الدنيا والآخر.

لماذا يطلب المسلم الهادية في الدنيا ؟ يطلبها لتحقيق العبودية لله تعالى. ولماذا يطلبها في الآخرة ؟ ليمر على الصراط ويدخل الجنة بفضل الله، قال ابن القيم: «فمن هدي في هذه الدار إلى صراط الله المستقيم، هدي هناك إلى الصراط المستقيم الموصل إلى جنته ودار ثوابه، وعلى قدر

(١) تيسير الكريم الرحمن، السعدي ص٣٦٨.

(٢) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب التوحيد، باب قول الله (ويحذركم الله نفسه)، رقم ٧٤٠٤.

(٣) تحقيق العبودية بمعرفة الأسماء والصفات ص ٣٧٤-٣٧٥.

(٤) أخرجه الترمذي في سننه، أبواب المناقب، باب مناقب أهل بيت النبي صلى الله عليه وسلم، ٥/ ٦٦٤، رقم ٣٧٨٩.
قال الترمذي: حديث حسن غريب.
وضعفه الألباني في ضعيف الجامع، ١/ ٢٧، رقم ١٧٦.

(٥) أخرجه الترمذي في سننه، أبواب الزهد، باب ماجاء في كراهية كثرة الأكل، ٤/ ٥٩٠، رقم ٢٣٨٠.
قال الترمذي: هذا حديث حسن صحيح.
وصححه الألباني في صحيح الجامع، ٢/ ٩٩٠، رقم ٥٦٧٤.

(٦) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب الدعوات، باب أفضل الاستغفار، رقم ٦٣٠٦.

(٧) عدة الصابرين، ابن القيم ص ٣٤٨.

ثبوت قدم العبد على هذا الصراط الذي نصبه الله لعباده في هذه الدار، يكون ثبوت قدمه على الصراط المنصوب على متن جهنم. وعلى قدر سيره على هذه الصراط يكون سيره على ذاك الصراط.

فلينظر العبد الشبهات والشهوات التي تعوقه عن سيره على هذا الصراط المستقيم. فإنها الكلاليب التي بجنبتي ذاك الصراط تخطفه وتعوقه عن المرور عليه فإن كثرت هنا وقويت فكذلك هي هناك ﴿وَمَا رَبُّكَ بِظَلَّٰمٖ لِّلۡعَبِيدِ﴾ [فصلت:٤٦].

فسؤال الهداية متضمن لحصول كل خير، والسلامة من كل شر.

وقال تعالى: ﴿قَالَ هَٰذَا صِرَٰطٌ عَلَيَّ مُسۡتَقِيمٌ ۝٤١﴾ [الحجر:٤١].

قال مجاهد: الحق يرجع إلى الله وعليه طريقه، لا يعرج على شيء، وهذا مثل قول الحسن وأبين منه وهو من أصح ما قيل في الآية.

فإن قلت: فما الفائدة في ذكر « على » في ذلك أيضًا. وكيف يكون المؤمن مستعليًا على الحق وعلى الهدى؟

قلت: لما فيه من استعلائه وعلوه بالحق والهدى مع ثباته عليه واستقامته إليه فكان في الإتيان بأداة « على» ما يدل على علوه وثبوته واستقامته.

وتأمل قوله تعالى: ﴿وَإِنَّآ أَوۡ إِيَّاكُمۡ لَعَلَىٰ هُدًى أَوۡ فِي ضَلَٰلٖ مُّبِينٖ﴾ [سبأ:٢٤].

فإن طريق الحق تأخذ علوًا صاعدة بصاحبها إلى العلي الكبير وطريق الضلال تأخذ سفلًا هاوية بسالكها في أسفل سافلين.

وقوله تعالى: ﴿قَالَ هَٰذَا صِرَٰطٌ عَلَيَّ مُسۡتَقِيمٌ﴾ مجيبًا لإبليس الذي قال: ﴿رَبِّ بِمَآ أَغۡوَيۡتَنِي لَأُزَيِّنَنَّ لَهُمۡ فِي ٱلۡأَرۡضِ وَلَأُغۡوِيَنَّهُمۡ أَجۡمَعِينَ ۝٣٩ إِلَّا عِبَادَكَ مِنۡهُمُ ٱلۡمُخۡلَصِينَ ۝٤٠﴾ [الحجر:٣٩-٤٠].

فإنه لا سبيل لي إلى إغوائهم ولا طريق لي عليهم.

فقرر الله عز وجل ذلك أتم التقرير وأخبر أن الإخلاص صراط عليه مستقيم فلا سلطان لك على عبادي الذين هم على هذا الصراط؛ لأنه صراط علي ولا سبيل لإبليس إلى هذا الصراط ولا الحوم حول ساحته، فإنه محروس محفوظ بالله فلا يصل عدو الله إلى أهله فليتأمل العارف هذا الموضع حق التأمل ولينظر إلى هذا المعنى »[1].

وقال تعالى حاكيًا قول هود عليه السلام: ﴿إِنِّي تَوَكَّلۡتُ عَلَى ٱللَّهِ رَبِّي وَرَبِّكُمۚ مَّا مِن دَآبَّةٍ إِلَّا هُوَ ءَاخِذُۢ بِنَاصِيَتِهَآۚ إِنَّ رَبِّي عَلَىٰ صِرَٰطٖ مُّسۡتَقِيمٖ ۝٥٦﴾ [هود:٥٦]

وقال ابن القيم: « وأما آية هود: فصريحة لا تحتمل إلا معنى واحدًا وهو أن الله

(١) مدارج السالكين ١/٣١-٤١ بتصرف واختصار.

سبحانه على صراط مستقيم، وهو سبحانه أحق من كان على صراط مستقيم، فإن أقواله كلها صدق ورشد وهدى وعدل وحكمة ﴿وَتَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ صِدْقًا وَعَدْلًا﴾ [الأنعام:١١٥].

وأفعاله كلها مصالح وحكم ورحمة وعدل وخير.

وتأمل كيف ذكر هذا عقيب قوله تعالى: ﴿إِنِّي تَوَكَّلْتُ عَلَى اللَّهِ رَبِّي وَرَبِّكُمْ﴾ أي هو ربي فلا يسلمني ولا يضيعني، وهو ربكم فلا يسلطكم علي ولا يمكنكم مني فإن نواصيكم بيده، لا تفعلون شيئًا بدون مشيئته. لا يفعل ما يفعل من ذلك إلا بحكمة وعدل ومصلحة، ولو سلطكم علي فله من الحكمة في ذلك ما له الحمد عليه لأنه تسليط من هو على صراط مستقيم لا يظلم ولا يفعل شيئًا عبثًا بغير حكمة.

فهكذا تكون المعرفة بالله، لا معرفة القدرية والمجوسية والقدرية الجبرية نفاة الحكم والمصالح والتعليل والله الموفق سبحانه»[(١)].

٤ . ارتباط آثار معرفة أسماء الله وصفاته في النفس والكون والحياة الدنيا والآخرة.

ومشهد الأسماء والصفات من أجل المشاهد، والمطلع على هذا المشهد يعرف أن الوجود متعلق خلقًا وأمرًا بالأسماء الحسنى والصفات العلى ومرتبطًا بها و إن كل ما في العالم بما فيه، إنما هو من بعض آثارها ومقتضياتها.

وقد دل على هذا المعنى وغيره سورة الفاتحة وسورة الإخلاص وسورة الفلق والناس وغير ذلك من سور القرآن العظيم.

ودل على ذلك وغيره سنة النبي صلى الله عليه وسلم الصحيحة ومن ذلك: قوله صلى الله عليه وسلم: **(اللهم إني عبدك وابن عبدك وابن أمتك ناصيتي بيدك ماض في حكمك عدل في قضائك)**[(٢)].

وقوله عليه الصلاة والسلام: **(أعوذ بك من شر كل دابة أنت آخذ بناصيتها)**[(٣)].

وقوله صلى الله عليه وسلم: **(يمين الله ملأى لا تغيضها نفقة سحاء الليل والنهار أرأيتم ما أنفق منذ خلق السموات والأرض فإنه لم يغض ما في يمينه وعرشه على الماء وبيده الأخرى الفيض أو القبض يرفع ويخفض)**[(٤)].

وغير ذلك من الأحاديث.

قال ابن القيم: «وتأمل ارتباط الأمر بهذه

(١) مدارج السالكين ١/ ٤٤- ٤٥.

(٢) أخرجه أحمد في مسنده، مسند ابن مسعود. وصححه أحمد شاكر رقم ٣٧١٢ و ٤٣١٨.

(٣) أخرجه مسلم في صحيحه، كتاب الذكر، باب ما يقول عند النوم، ٤/ ٢٠٨٤، رقم ٢٧١٣.

(٤) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب التوحيد، باب (وكان عرشه على الماء)، رقم ٧٤١٩.

الأسماء الثلاثة وهي: الله، الرب، الرحمن، كيف نشأ عنها الخلق والأمر والثواب والعقاب وكيف جمعت الخلق وفرقتهم فلها الجمع ولها الفرق.

فاسم الرب له الجمع الجامع لجميع المخلوقات فهو رب كل شيء وخالقه والقادر عليه لا يخرج شيء عن ربوبيته وكل من في السموات والأرض عبد له في قبضته وتحت قهره. فاجتمعوا بصفة الربوبية وافترقوا بصفة الإلهية، فألهه وحده السعداء وأقروا له طوعًا بأنه الله الذي لا إله إلا هو الذي لا تنبغي العبادة والتوكل والرجاء والخوف والحب والإنابة والخشية والرحمة والتذلل والخضوع إلا له.

وهنا افترق الناس وصاروا فريقين: فريقًا مشركين في السعير، وفريقًا موحدين في الجنة.

فالإلهية هي التي فرقتهم كما أن الربوبية هي التي جمعتهم فالدين و الشرع والأمر والنهي مظهره، وقيامه من صفة الإلهية، والخلق والإيجاد والتدبير والفعل من صفة الربوبية. والجزاء بالثواب والعقاب والجنة والنار من صفة الملك وهو مالك يوم الدين، فأمرهم بإلهيته وأعانهم ووفقهم وهداهم وأضلهم بربوبيته وأثابهم وعاقبهم بملكه وعدله. وكل واحدة من هذه الأمور لا تنفك عن الأخرى»[1].

وانتظام العالم: العلوي والسفلي وارتباط بعضه ببعض وجريانه على نظام محكم لا يختلف ولا يفسر من أدل دليل على أن مدبره واحد لا إله غيره. قال تعالى: ﴿لَوْ كَانَ فِيهِمَآ ءَالِهَةٌ إِلَّا ٱللَّهُ لَفَسَدَتَا ۚ فَسُبْحَٰنَ ٱللَّهِ رَبِّ ٱلْعَرْشِ عَمَّا يَصِفُونَ ﴿٢٢﴾﴾ [الأنبياء:٢٢].

«فمن تأمل سريان آثار الأسماء والصفات في العالم وفي الأمر تبين له أن مصدر قضاء هذه الجنايات من العبيد، وتقديره: هو من كمال الأسماء والصفات والأفعال وغايتها أيضًا مقتضى حمده ومجده كما هو مقتضى ربوبيته وإلهيته فالله في كل ما قضاه وقدره الحكمة البالغة والآيات الباهرة. وظهور أسماء الله وصفاته في هذه الحياة وفي النفس البشرية وفي الكون كله واضح، لا يحتاج إلى دليل إلا أن الاهتداء إلى تلك الآثار أو الانتباه لها يتوقف على توقيف الله تعالى بل إن التوقيف نفسه من آثار رحمته التي وسعت كل شيء. فلو فكر الإنسان في هذا الكون الفسيح وفي نفسه لرجع من هذه الجولة الفكرية بعجائب واستفاد منها فوائد ما كان يحلم بها ولو تأملنا هذه الآية الكريمة لرأينا أمورًا تعجز عن التعبير عنها.

قال تعالى: ﴿أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَٰكُمْ عَبَثًا وَأَنَّكُمْ إِلَيْنَا لَا تُرْجَعُونَ ﴿١١٥﴾ فَتَعَٰلَى

(١) مدارج السالكين ١/ ٥٨ -٥٩ ..

﴿ٱللَّهُ ٱلْمَلِكُ ٱلْحَقُّ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ رَبُّ ٱلْعَرْشِ ٱلْكَرِيمِ ﴾ [المؤمنون:١١٥-١١٦][1].

وجوهر هذا التوحيد: إخلاص الدين كله لله وحقيقته: « أن تفنى بعبادة الله عما سواه، وبمحبته عن محبة ما سواه، وبخشيته عن خشية ما سواه، وبطاعته عن طاعة ما سواه، وكذلك بموالاته وسؤاله والاستغناء به والتوكل عليه ورجائه ودعائه و التفويض إليه والتحاكم إليه والملجأ إليه والرغبة فيما عنده »[2].

وعندما يحقق المكلفون أنفسهم معنى التوحيد؛ فإنهم بذلك يتواءمون مع الناموس العام للخلق، ويتناسق موقفهم في الكون مع بقية الخلائق المسخرة المنقادة له طوعًا أو كرها، كما قال تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ يَسْجُدُ لَهُۥ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَن فِى ٱلْأَرْضِ وَٱلشَّمْسُ وَٱلْقَمَرُ وَٱلنُّجُومُ وَٱلْجِبَالُ وَٱلشَّجَرُ وَٱلدَّوَآبُّ وَكَثِيرٌ مِّنَ ٱلنَّاسِ ۖ وَكَثِيرٌ حَقَّ عَلَيْهِ ٱلْعَذَابُ﴾ [الحج:١٨].

فالأرض بطبقاتها والسماوات بطبقاتها وما فيها وما عليها من خلق الله تعالى وحده، فهذه الحقيقة لا يستطيع أن يماري فيها أحد، مؤمنًا كان أو كافرًا، تحدى القرآن العباد وما قد يعبدون من دون الله أن يدلوا على شيء واحد مشاهد في الكون هو من خلق أحد غير الله.

قال تعالى: ﴿قُلْ أَرَءَيْتُم مَّا تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَرُونِى مَاذَا خَلَقُوا۟ مِنَ ٱلْأَرْضِ أَمْ لَهُمْ شِرْكٌ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ ۖ ٱئْتُونِى بِكِتَٰبٍ مِّن قَبْلِ هَٰذَآ أَوْ أَثَٰرَةٍ مِّنْ عِلْمٍ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴾ [الأحقاف:٤][3].

٥. الرؤيا الصحيحة لمعرفة أصل خلق الإنسان وعداوته مع إبليس عليه لعنة الله وفق مقتضى عدل الله ورحمته وحكمته وخبرته تبارك وتعالى.

قال تعالى: ﴿وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَٰٓئِكَةِ ٱسْجُدُوا۟ لِءَادَمَ فَسَجَدُوٓا۟ إِلَّآ إِبْلِيسَ أَبَىٰ وَٱسْتَكْبَرَ وَكَانَ مِنَ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٣٤﴾ وَقُلْنَا يَٰٓـَٔادَمُ ٱسْكُنْ أَنتَ وَزَوْجُكَ ٱلْجَنَّةَ وَكُلَا مِنْهَا رَغَدًا حَيْثُ شِئْتُمَا وَلَا تَقْرَبَا هَٰذِهِ ٱلشَّجَرَةَ فَتَكُونَا مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٣٥﴾ فَأَزَلَّهُمَا ٱلشَّيْطَٰنُ عَنْهَا فَأَخْرَجَهُمَا مِمَّا كَانَا فِيهِ ۖ وَقُلْنَا ٱهْبِطُوا۟ بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ ۖ وَلَكُمْ فِى ٱلْأَرْضِ مُسْتَقَرٌّ وَمَتَٰعٌ إِلَىٰ حِينٍ ﴿٣٦﴾ فَتَلَقَّىٰٓ ءَادَمُ مِن رَّبِّهِۦ كَلِمَٰتٍ فَتَابَ عَلَيْهِ ۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ ﴿٣٧﴾﴾ [البقرة:٣٤-٣٧].

ومن العبر الواردة في هذه الآيات: الاعتبار بحال أبوي الإنسان والجن، وبيان فضل آدم و إفضال الله عليه، وعداوة إبليس له.

قال أبو جعفر: « وتأويل قوله: ﴿إِنَّهُۥ هُوَ

(١) من عقيدة المسلمين في صفات رب العالمين، علي المصراتي ص ١٢٩-١٣٢ بتصرف.
(٢) مدارج السالكين ٣/ ٤٨٣.
(٣) الحكم والتحاكم في خطاب الوحي، عبدالعزيز مصطفى كامل ١/ ٤٥ ـ ٥٠ بتصرف.

﴿التَّوَّابُ الرَّحِيمُ﴾ أن الله جل ثناؤه هو التواب على من تاب إليه -من عباده المذنبين- من ذنوبه، التارك مجازاته بإنابته إلى طاعته بعد معصيته بما سلف من ذنبه. وقد ذكرنا أن معنى التوبة من العبد إلى ربه، إنابته إلى طاعته، وأوبته إلى ما يرضيه بتركه ما يسخطه من الأمور التي كان عليها مقيمًا مما يكرهه ربه. فكذلك توبة الله على عبده، هو أن يرزقه ذلك، ويؤوب له من غضبه عليه إلى الرضا عنه، ومن العقوبة إلى العفو والصفح عنه.

وأما قوله: ﴿الرَّحِيمُ﴾ فإنه يعني أنه المتفضل عليه مع التوبة بالرحمة. ورحمته إياه، إقالة عثرته، وصفحه عن عقوبة جرمه»[1].

ففي ضمن هذا، تحذير بني آدم من الشيطان، ولذلك كان من الحكم في إخراج آدم من الجنة تحقق اقتضاء أسماء الله الحسنى لمسمياتها ومتعلقاتها: كالغفور والرحيم والتواب والعفو والخافض والرافع.. إلخ.

وعن أبي موسى الأشعري رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: (**خلق آدم من قبضة قبضها من جميع الأرض، فجاء بنو آدم على قدر الأرض، فمنهم الأحمر والأبيض والأسود وبين ذلك السهل والحزن والطيب والخبيث**)[2].

ولا شك أن هذه المعرفة والرؤية الصحيحة لأصل خلق الإنسان تجعله يعرف طبيعة بشريته وبشرية من حوله وكيف يتعامل معهم ومع عدوه بميزان الشرع. قال ابن القيم: «وقد قيل إن طرد إبليس ولعنه، إنما كان بسبب التأويل فإنه عارض النص لنفسه أن هذا القياس العقلي مقدم على نص الأمر بالسجود فإنه قال: ﴿أَنَا خَيْرٌ مِّنْهُ﴾ [الأعراف:١٢].

وصار إمامًا لكل من عارض نصوص الوحي بتأويله الباطل إلى يوم القيامة وكذلك خروج آدم من الجنة إنما كان بسبب التأويل فهو صلى الله عليه وسلم لم يقصد بالأكل معصية الرب والتجرؤ على مخالفة نهيه وأن يكون ظالمًا مستحقًا للشقاء بخروجه من الجنة هذا لم يقصده أبو البشر قطعًا والصواب إن آدم صلوات الله وسلامه عليه لما قاسمه عدو الله أنه ناصح وأخرج الكلام على أنواع متعددة من التأكيد:

أحدها: القسم.

الثاني: الإتيان بالجملة إسمية لا فعلية.

الثالث: تصديرها بأداة التأكيد.

---

(١) جامع البيان، الطبري ١/ ٥٤٧.

(٢) أخرجه الترمذي في سننه، أبواب التفسير، باب ومن سورة البقرة، رقم ٢٩٥٥.
قال الترمذي: هذا حديث حسن صحيح.
وصححه الألباني في تعليقه على مشكاة المصابيح ١/ ٣٦.

الرابع: الإتيان بلام التأكيد في الخبر.

الخامس: الإتيان به اسم فاعل لا فعلًا دالًا على الحدث.

السادس: تقديم المعمول على العامل «فيه» فظن آدم صدقه وأنه إن أكل منها لم يخرج من الجنة »[1].

وقال ابن سعدي: « ولما علم الخبيث - أي إبليس - أنهم ضعفاء قد تغلب الغفلة على كثير منهم وكان جازمًا ببذل مجهوده على إغوائهم ظن وصدق ظنه فقال: ﴿وَلَا تَجِدُ أَكْثَرَهُمْ شَٰكِرِينَ﴾ [الأعراف:١٧].

فإن القيام بالشكر من سلوك الصراط المستقيم وهو يريد صدهم عنه وعدم قيامهم به.

قال تعالى: ﴿إِنَّمَا يَدْعُوا۟ حِزْبَهُۥ لِيَكُونُوا۟ مِنْ أَصْحَٰبِ ٱلسَّعِيرِ﴾ [فاطر:٦].

وإنما نبهنا الله على ما قال وعزم على فعله؛ لنأخذ حذرنا ونستعد لعدونا، ونحترز منه بعلمنا بالطريق التي يأتي منها ومداخله التي ينفذ منها، فله تعالى علينا بذلك أكمل نعمة »[2].

وقال ابن القيم في تفسير قوله تعالى: ﴿إِنَّهُۥ لَيْسَ لَهُۥ سُلْطَٰنٌ عَلَى ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ ﴿٩٩﴾﴾ [النحل:٩٩].

والصواب أن يقال: ليس له طريق يتسلط به عليهم: لا من جهة الحجة ولا من جهة القدرة

وقد أخبر سبحانه أنه لا سلطان لعدوه على عباده المخلصين المتوكلين فقال: ﴿قَالَ رَبِّ بِمَآ أَغْوَيْتَنِى لَأُزَيِّنَنَّ لَهُمْ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٣٩﴾ إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمُ ٱلْمُخْلَصِينَ ﴿٤٠﴾ قَالَ هَٰذَا صِرَٰطٌ عَلَىَّ مُسْتَقِيمٌ ﴿٤١﴾ إِنَّ عِبَادِى لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَٰنٌ إِلَّا مَنِ ٱتَّبَعَكَ مِنَ ٱلْغَاوِينَ ﴿٤٢﴾﴾ [الحجر:٣٩-٤٢].

ولما علم عدو الله أن الله تعالى لا يسلطه على أهل التوحيد والإخلاص قال: ﴿قَالَ فَبِعِزَّتِكَ لَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٨٢﴾ إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمُ ٱلْمُخْلَصِينَ ﴿٨٣﴾﴾ [ص:٨٢-٨٣].

فعلم عدو الله أن من اعتصم بالله عز وجل وأخلص له وتوكل عليه لا يقدر على إغوائه وإضلاله وإنما يكون له السلطان على من تولاه وأشرك مع الله، فهؤلاء رعيته فهو وليهم وسلطانه، والجميع بقضاء من أزمة الأمور بيده ومردها إليه وله الحجة البالغة فلو شاء لجعل الناس أمة واحدة ولكن أبت حكمته وحمده وملكه إلا ذلك.

﴿فَلِلَّهِ ٱلْحَمْدُ رَبِّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَرَبِّ ٱلْأَرْضِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٣٦﴾ وَلَهُ ٱلْكِبْرِيَآءُ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿٣٧﴾﴾ [الجاثية:٣٦-٣٧][3].

وقال ابن القيم: « فإن الله سبحانه وتعالى

(١) الصواعق المرسلة ١/ ٣٧٠ -٣٧٣ بتصرف واختصار.

(٢) تيسير الكريم الرحمن، السعدي ص ٢٤٧.

(٣) إغاثة اللهفان ١/ ١٧٠- ١٧٤ بتصرف.

خلق هذا الآدمي واختاره من بين سائر البرية، وجعل قلبه محل كنوزه من الإيمان والتوحيد والإخلاص والمحبة وجعل ثوابه إذا أقدم عليه أكمل الثواب وأفضله وهو النظر إلى وجهه والفوز برضوانه، وكان مع ذلك قد ابتلاه بالشهوة والغضب والغفلة وابتلاه بعدوه إبليس لا يفتر عنه فهو يدخل عليه من الأبواب التي هي من نفسه وطبعه فتميل نفسه معه فيتفق هو ونفسه وهواه على العبد.

فاقتضت رحمة ربه العزيز الحكيم به أن أعانه بجند آخر وأمده بمدد آخر يقاوم به هذا الجند الذي يريد هلاكه فأرسل إليه رسول وأنزل عليه كتابه وأيده بملك كريم يقابل عدوه الشيطان فهذا يلم به مرة وهذا مرة والمنصور من نصره الله عز وجل.

وجعل له مقابل نفسه الأمارة نفسًا مطمئنة فهو يطيع هذه مرة وهذه مرة وهو الغالب عليه منهما، وجعل له مقابل الهوى الحامل له على طاعة الشيطان والنفس الأمارة نورًا وبصيرة وعقلًا يرده عن الذهاب مع الهوى، فهو يطيع الناصح مرة ويمشي خلف دليل الهوى مرة فلما أن بلي العبد بما بلي به أعين بالعساكر والعدد والحصون»[(١)].

فليتأمل العاقل الناصح لنفسه هذا الأمر وعلى مقتضى إيمانه بأسماء الله وصفاته فإنه معين له في الخلاص من عدوه وحزبه والموصل له إلى مرضاة ربه عز وجل.

٦. الإيمان بالقضاء والقدر وفق المنهج الشرعي على مقتضى معرفة الأسماء والصفات.

فما يصيبه من خير ونعمة في الحياة الدنيا وفي الآخرة فبفضل الله ورحمته وعفوه وما يصيبه من شر وضر فبعدل الله وحكمته وخبرته عز وجل.

قال تعالى: ﴿إِنَّا كُلَّ شَيْءٍ خَلَقْنَٰهُ بِقَدَرٍ ٤٩﴾ [القمر: ٤٩].

قال البغوي: «أي: ما خلقناه فمقدور ومكتوب في اللوح المحفوظ، قال الحسن: قدر الله لكل شيء من خلقه قدره الذي ينبغي له»[(٢)].

وقال تبارك وتعالى: ﴿إِنَّ ٱلْمُتَّقِينَ فِي جَنَّٰتٍ وَنَهَرٍ ٥٤ فِي مَقْعَدِ صِدْقٍ عِندَ مَلِيكٍ مُّقْتَدِرٍۭ ٥٥﴾ [القمر: ٥٤-٥٥].

«وقوله: ﴿فِي مَقْعَدِ صِدْقٍ﴾ أي: في دار كرامة الله ورضوانه وفضله، وامتنانه وجوده وإحسانه، ﴿عِندَ مَلِيكٍ مُّقْتَدِرٍۭ﴾ أي: عند الملك العظيم الخالق للأشياء كلها ومقدرها، وهو مقتدر على ما يشاء مما يطلبون ويريدون»[(٣)].

وعن البراء بن عازب رضي الله عنه

(١) صحيح الوابل الصيب ص ٣٧- ٣٨ بتصرف.

(٢) معالم التنزيل، البغوي ٧/ ٤٣٥.

(٣) تفسير القرآن العظيم ٧/ ٤٨٧.

قال: (رأيت النبي صلى الله عليه وسلم يوم الخندق ينقل معنا التراب وهو يقول: (والله لولا الله ما اهتدينا ولا صمنا ولا صلينا فأنزلن سكينة علينا إذا أرادو فتنة أبينا)[1].

قال ابن الجوزي: «من ذاق طعم المعرفة وجد طعم المحبة، فالرضا من جملة ثمرات المعرفة، فإذا عرفته سبحانه رضيت بقضائه»[2].

وقال ابن القيم: «فأما مقام الإيمان والهدى والنجاة فمقام إثبات القدر والإيمان به وإسناد جميع الكائنات إلى مشيئة ربها وبارئها وفاطرها.

وتبين أن من لم يؤمن بالقدر فقد انسلخ من التوحيد ولبس جلباب الشرك بل لم يؤمن بالله ولم يعرفه وهذا في كل كتاب أنزله الله على رسله »[3].

وقال ابن تيمية: «وأما أهل الهدى والفلاح فيؤمنون بأن الله خالق كل شيء وربه ومليكه ما شاء كان وما لم يشأ لم يكن وهو على كل شيء قدير، أحاط بكل شيء علمًا وكل شيء أحصاه في كتاب مبين. ويتضمن هذا الأصل من إثبات علم الله وقدرته ومشيئته ووحدانيته وربوبيته وأنه خالق كل شيء وربه ومليكه ما هو من أصول الإيمان. ومع هذا لا ينكرون ما خلقه الله من الأسباب التي يخلق بها المسببات »[4].

وقال الخطابي: «أن الله سبحانه قد لطف بعباده فعلل طباعهم البشرية بوضع هذه الأسباب؛ ليأنسوا بها فيخفف عنهم ثقل الامتحان الذي تعبدهم به، وليتصرفوا بذلك بين الرجاء والخوف، وليستخرج منهم وظيفتي الشكر والصبر في طوري السراء والضراء والشدة والرخاء، ومن وراء ذلك علم الله تعالى فيهم ولله عاقبة الأمور وهو العليم الحكيم»[5].

وقال ابن القيم: « والطمأنينة إلى أسماء الرب تعالى وصفاته نوعان: طمأنينة إلى الإيمان بها وإثباتها واعتقادها. وطمأنينة إلى ما تقتضيه وتوجبه من آثار العبودية، مثاله الطمأنينة إلى القدر وإثباته والإيمان به يقتضي الطمأنينة إلى مواضع الأقدار التي لم يؤمر العبد بدفعها ولا قدرة له على دفعها، فيسلم لها ويرضى بها ولا يسخط ولا يشكو ولا يضطرب إيمانه، فلا يأسى على ما فاته ولا يفرح بما آتاه؛ لأن المصيبة فيه مقدرة قبل أن تصل إليه وقبل أن يخلق كما قال تعالى: ﴿مَآ أَصَابَ مِن مُّصِيبَةٍ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَا فِىٓ أَنفُسِكُمْ إِلَّا فِى كِتَـٰبٍ مِّن قَبْلِ أَن نَّبْرَأَهَآ ۚ إِنَّ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرٌ ﴿٢٢﴾﴾ [الحديد:٢٢].

(١) أخرجه البخاري في صحيحه من حديث البراء، باب حفر الخندق، رقم ٢٨٣٧.
(٢) صيد الخاطر ص ١٠٢.
(٣) طريق الهجرتين ص ١٥١.
(٤) التدمرية ص ٢٠٩- ٢١٠.
(٥) شأن الدعاء ص ١٢.

قال تعالى: ﴿مَا أَصَابَ مِن مُّصِيبَةٍ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ وَمَن يُؤْمِن بِاللَّهِ يَهْدِ قَلْبَهُ وَاللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ⑪﴾ [التغابن:١١].

قال غير واحد من السلف: هو العبد تصيبه المصيبة فيعلم أنها من عند الله فيرضى ويسلم، فهذه طمأنينة إلى أحكام الصفات وموجباتها وآثارها في العالم وهي قدر زائد على الطمأنينة بمجرد العلم بها واعتقادها»[(١)].

٧. تحقيق الأعمال من خلال الخبر عن الرب تعالى بأحكام أسمائه وصفاته.

أي: لا يكفي التصديق بالأسماء والصفات بل لابد من العمل بالتكاليف الشرعية، ولاسيما أن كثيرًا منها ارتبط مباشرة بذكر بعض هذه الأسماء، وبعضها ارتبط ببعض هذه الصفات، وخاصة في سورة الفاتحة.

قال ابن القيم رحمه الله: «الخبر عن الرب تعالى بأحكام أسمائه وصفاته نحو قولك: الله عز وجل يسمع أصوات عباده ويرى حركاته، ولا تخفى عليه خافية من أعمالهم وهو أرحم بهم من آبائهم وأمهاتهم وهو على كل شيء قدير، وهو أفرح بتوبة عبده من الفاقد راحلته ونحو ذلك.

وأفضل هذا النوع: الثناء عليه بما أثنى به على نفسه وبما أثنى به عليه رسول الله صلى الله عليه وسلم من غير تحريف ولا تعطيل ومن غير تشبيه ولا تمثيل. وهذا النوع أيضًا ثلاثة أنواع: حمدٌ وثناءٌ ومجدٌ.

فالحمد لله: الإخبار عنه بصفات كماله سبحانه وتعالى مع محبته والرضا به فلا يكون المحب الساكت حامدًا ولا المثني بلا محبة حامدًا حتى تجتمع له المحبة والثناء، فإن كرر المحامد شيئًا بعد شيءٍ كانت ثناء فإن كان المدح بصفات الجلال والعظمة والكبرياء والملك كان مجدًا.

وقد جمع الله تعالى لعبده الأنواع في أول الفاتحة فإذا العبد قال: ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ قال الله: حمدني عبدي وإذا قال: ﴿الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ﴾ قال: أثنى علي عبدي وإذا قال: ﴿مَالِكِ يَوْمِ الدِّينِ﴾ قال: مجدني عبدي»[(٢)].

ومن الذكر: ذكر أمره ونهيه وأحكامه، وهو أيضًا نوعان:

أحدهما: ذكره بذلك إخبار عنه بأنه أمر بكذا ونهى عن كذا وأحب كذا وأسخط كذا ورضي كذا.

والثاني: ذكره عند أمره فيبادر إليه عند نهيه فيهرب منه فذكر أمره ونهيه شيء وذكره

(١) الروح ص ٢٦٧.

(٢) أخرجه مسلم في صحيحه، كتاب الصلاة، باب وجوب قراءة الفاتحة في كل ركعة، وإنه إذا لم يحسن الفاتحة، ولا أمكنه تعلمها قرأ ما تيسر له من غيرها، ١/ ٢٩٦، رقم ٣٩٥.

عند أمره ونهيه شيء آخر، فإذا اجتمعت هذه الأنواع للذاكر فذكره أفضل الذكر وأجله وأعظمه.

فائدة: فهذا الذكر من الفقه الأكبر وما دونه أفضل الذكر إذا صحت فيه النية، ومن ذكره سبحانه وتعالى ذكر آلائه وإنعامه وإحسانه وأياديه ومواقع فضله على عبيده، وهذا أيضًا من أجل أنواع الذكر فهذه خمسة أنواع وهي تكون بالقلب واللسان تارة وذلك أفضل الذكر، وبالقلب وحده تارة وهي الدرجة الثانية، وباللسان وحده تارة وهي الدرجة الثالثة، فأفضل الذكر ما تواطأ عليه القلب واللسان، وإنما كان ذكر القلب وحده أفضل من ذكر اللسان وحده؛ لأن ذكر القلب يثمر المعرفة ويهيج المحبة ويثير الحياء ويبعث على المخافة ويدعو إلى المراقبة ويزع -أي: يمنع ويحبس- عن التقصير في الطاعات والتهاون في المعاصي والسيئات وذكر اللسان وحده لا يوجب شيئًا من هذه الآثار وإن أثمر شيئًا منها فثمرة ضعيفة»[1].

٨. تحقيق العلاقة الاستقرائية بين أقسام التوحيد لتحصل السعادة الشرعية في الدنيا والآخرة.

فشهادة أن لا إله إلا الله فيها الإلهيات وهي الأصول الثلاثة توحيد الربوبية وتوحيد الألوهية وتوحيد الأسماء والصفات وهذه الأصول الثلاثة تدور عليها أديان الرسل وما أنزل إليهم قال تعالى: ﴿فَاعْلَمْ أَنَّهُ لَا إِلَٰهَ إِلَّا اللَّهُ وَاسْتَغْفِرْ لِذَنبِكَ وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ﴾ [محمد:١٩].

قال ابن كثير: «هذا إخبار: بأنه لا إله إلا الله، ولا يتأتى كونه آمرًا بعلم ذلك؛ ولهذا عطف عليه بقوله: ﴿وَاسْتَغْفِرْ لِذَنبِكَ وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ﴾»[2].

وقال البخاري: «باب العلم قبل القول والعمل»[3].

«فتوحيد الربوبية يستلزم توحيد الألوهية، ويوجب ذلك ويقتضيه وهكذا توحيد الأسماء والصفات يستلزم تخصيص الله بالعبادة وإفراده بها؛ لأنه سبحانه هو الكامل في ذاته وفي أسمائه وصفاته وهو المنعم على عباده فهو المستحق لأن يعبدوه ويطيعوا أمره وينتهوا عن نهيه»[4].

وتأمل سورة الإخلاص-التي هي صفة الرحمن- فقد دلت على أنواع التوحيد الثلاثة: توحيد الذات، والصفات وذلك على سبيل المطابقة وعلى توحيد الربوبية وذلك على طريق التضمن. وتوحيد العبادة بالالتزام، إن دلالة الشيء على كل معناه

(١) صحيح الوابل الصيب من الكلم الطيب ص ١٥٤- ١٥٦.

(٢) تفسير القرآن العظيم ٧/ ٣١٦.

(٣) فتح الباري، ابن حجر ١/ ١٨٨.

(٤) تحفة الإخوان، ابن باز ص ٣٢.

يسمى مطابقة ودلالته على بعضه يسمى تضمنًا وعلى ما يلزم من جهة الخارج يسمى التزامًا»[1].

قال حافظ بن أحمد الحكمي: « هل جميع أنواع التوحيد متلازمة فيما بينها كلها ما ينافي نوعًا منها ؟ قال نعم هي متلازمة فمن أشرك في نوع منها فهو مشرك في البقية مثال ذلك دعاء غير الله وسؤاله ما لا يقدر عليه إلا الله فدعاؤه إياه عبادة بل مخ العبادة وصرفها لغير الله من دون الله، فهذا شرك في الإلهية، وسؤاله إياه تلك الحاجة من جلب خير أو رفع شر معتقدًا أنه قادر على قضاء ذلك، فهذا شرك في الربوبية حيث أنه متصرف مع الله في ملكوته، ثم إنه لم يدعه هذا الدعاء من دون الله إلا مع اعتقاده أنه يسمعه على البعد والقرب في أي وقت كان في أي مكان ويصرحون بذلك وهو شرك في الأسماء والصفات حيث أثبت له سمعًا محيطًا بجميع المسموعات فلا يحجبه قرب ولا بعد فاستلزم هذا الشرك في الإلهية الشرك في الربوبية والأسماء والصفات»[2].

وقال ابن القيم: «فاشتملت أي: سورة الفاتحة على التعريف بالمعبود تبارك وتعالى بثلاثة أسماء، مرجع الأسماء الحسنى والصفات العليا إليها ومدارها عليها وهي: « الله، الرب، الرحمن» وبنيت السورة على الإلهية والربوبية والرحمة.

فـ« إياك نعبد » مبني على الإلهية. و« إياك نستعين » على الربوبية. وطلب الهداية إلى الصراط المستقيم بصفة الرحمة، والحمد يتضمن الأمور الثلاثة فهو المحمود في إلهيته وربوبيته ورحمته، والثناء والمجد كمالان لمجده»[3].

وقال أيضًا: « فعلم أنه اسمه (الله) مستلزم لجميع معاني الأسماء الحسنى دال عليها بالإجمال والأسماء الحسنى تفصيل وتبين لصفات الإلهية التي اشتقت منها اسم الله، واسم (الله) دل على كونه مألوهًا معبدًا، وتألهه الخلائق محبة وتعظيمًا وخضوعًا وفزعًا إليه في الحوائج والنوائب وذلك مستلزم لكمال ربوبيته ورحمته المتضمنين لكمال الملك والحمد»[4].

وقال الشافعي رحمه الله: «وكان الإجماع من الصحابة والتابعين من بعدهم ومن أدركناهم يقولون الإيمان قول وعمل ونية لا يجزئ واحد من الثلاث إلا بالآخر»[5].

والإيمان والتوحيد معناهما واحد عند الإطلاق كما أن الإيمان والأسماء أيضًا

(١) مقدمة ابن باز على كتاب التنبيهات اللطيفة لابن سعدي ص ١٣.
(٢) أعلام السنة المنشورة، حافظ حكمي ص ٧٣.
(٣) مدارج السالكين ١/ ٣١.
(٤) المصدر السابق ١/ ٥٦.
(٥) مجموع فتاوى ابن تيمية ٧/ ٢٠٩.

معناهما واحد عند الإطلاق ولفظة التوحيد وردت في حديث جابر عن أبيه: (أن رسول الله صلى الله عليه وسلم أتى بكبشين أملحين عظيمين أقرنين، فأضجع أحدهما وقال: بسم الله الله أكبر، اللهم عن محمد وأمته، من شهد لك بالتوحيد وشهد لي بالبلاغ)[1].

وقال ابن عباس في قوله تعالى: (اعبدوا ربكم): وحدوا ربكم.

قال ابن جرير: «والذي أراد-إن شاء الله-وحدوا: أي أفردوا الطاعة والعبادة لربكم دون سائر خلقه»[2].

ويتأمل العبد في هذا الصدد مظاهر الوحدانية لله عز وجل التي لا يمكن أن يجزأها ويؤمن ببعضها دون البعض الآخر بل يفرد ربه تبارك وتعالى بها في جميع مظاهرها وأنواعها وبذلك تحقق العبودية له.

ومن فوائد الإيمان بالأسماء الحسنى والصفات العلى لله عز وجل:

١. أن هذا العلم -وهو العلم المتعلق بالله تعالى- أشرف العلوم وأجلها على الإطلاق.

٢. أن معرفة الله تعالى تدعو إلى محبته وخشيته وخوفه ورجائه وإخلاص العمل له وهذا عين سعادة العبد ولا سبيل إلى معرفة الله إلا بمعرفة أسمائه وصفاته والتفقه في فهم معانيها.

٣. أن الله خلق الخلق ليعبدوه ويعرفوه فهذا هو الغاية المطلوبة منهم فالاشتغال بذلك اشتغال بما خلق له العبد، وتركه وتضيعه إهمال لما خلق به، وقبيح بعبد لم تزل نعم الله عليه متواترة أن يكون جاهلًا بربه معرضًا عن معرفته.

٤. أن أحد أركان الإيمان بل أفضلها وأصلها الإيمان بالله وليس الإيمان بمجرد قوله: « آمنت بالله » من غير معرفة بربه بل حقيقة الإيمان أن يعرف الرب الذي يؤمن به ويبذل جهده في معرفة أسمائه وصفاته حتى يبلغ درجة اليقين.

٥. أن العلم به تعالى أصل الأشياء كلها حتى أن العارف به حق المعرفة يستدل بما عرف من صفاته وأفعاله على ما يفعله، وعلى ما يشرعه من الأحكام لأنه لا يفعل إلا ما هو مقتضى أسمائه وصفاته فالأفعال دائرة بين العدل والفضل والحكمة، وكذلك لا يشرع ما يشرعه من الأحكام إلا على حسب

(١) أخرجه أحمد في مسنده، مسند جابر، رقم ١٤٨٣٧.
قال الألباني: إسناده حسن رجاله ثقات رجال مسلم غير ابن عقيل فيه كلام لا ينزل به حديثه عن رتبة الحسن.
انظر: إرواء الغليل، رقم ١١٣٨.

(٢) جامع البيان ١/ ١٨٤.

ما اقتضاه حمده وحكمته وفضله وعدله، فأخباره كلها حق وصدق وأوامره ونواهيه عدل وحكمة، وهذا العلم من أعظم وأشهر من أن ينبه عليه لوضوحه[1].

هذه الثمرات والفوائد العلمية العقدية الفكرية يجب أن ترتكز في ضمير المؤمن لكي تقوده إلى عمل مستمر ومثمر يتمثل في عمله الصالح المنطلق من مفهوم الأسماء والصفات، فتصلح إيمانه وتصلح عمله معًا.

لأن هذا المفهوم الكبير المتمثل في الركن الأول من أركان الإيمان الستة له علاقته الوطيدة بجميع أحكام العقيدة والشريعة، ولذا جاءت هذه الثمار والفوائد بهذه الطريقة العلمية المتخصصة. والله أعلم وأحكم.

موضوعات ذات صلة:

أسماء الله، الإلحاد، الألوهية، الإيمان، التوحيد

(١) انظر: تيسير الكريم الرحمن، السعدي، المقدمة.





عناصر الموضوع

المجلد الحادي والعشرون

مفهوم الصلاة

أولًا: المعنى اللغوي:

اختلف في جذر الصلاة، فمن علماء اللغة من رجح كون الكلمة منحدرة من الجذر «ص ل ي» وهي بمعنى الصلي بالنار، يقال: صليت العود بالنار إذا لينته؛ لأن المصلي يلين بالخشوع[1]، ومنهم من رجح انحدارها من الجذر «ص ل و» لأن جمعها الصلوات، والتثنية منها صلوان[2]، وكلا الجذرين اشتركا في إدراج المعنى العام للصلاة، والصلاة من الله تعالى: الرحمة والثناء، وتأتي من المخلوقات بمعنى الاستغفار والدعاء[3].

قال الزجاج: الأصل في الصلاة اللزوم. يقال: قد صلي واصطلى إذا لزم، والصلاة لزوم ما فرض الله تعالى، والصلاة: واحدة الصلوات المفروضة، وهو اسمٌ يوضع موضع المصدر، أقول: صليت صلاةً ولا أقول: تصليةً، وهي العبادة المخصوصة، ولأن أصلها الدعاء فسميت ببعض أجزائها، وقيل: أصلها في اللغة التعظيم، وسميت الصلاة المخصوصة صلاةً لما فيها من تعظيم الرب تعالى[4].

ثانيًا: المعنى الاصطلاحي:

عرفت الصلاة بأنها: «عبارة عن أركان مخصوصة، وأذكار معلومة، بشرائط محصورة في أوقات مقدرة، وقد عرفها أهل الفقه أيضًا بأنها: «أقوال وأفعال مخصوصة مفتتحة بالتكبير مختتمة بالتسليم بشرائط مخصوصة»[5].

والمتأمل في التعريفين اللغوي والاصطلاحي يجد تناغمًا بينهما؛ فالصلاة المفروضة تجتمع فيها أغلب المعاني اللغوية، فهي دعاء واستغفار وتعظيم لله تعالى، وتقتضي التزامًا ونظامًا، وأثرها في تليين القلب وتقويم السلوك واضح وثابت في النصوص الشرعية.

---

(١) انظر: المصباح المنير، الفيومي ص٣٤٦.
(٢) انظر: العين، الفراهيدي ٧/ ١٥٢.
(٣) انظر: مختار الصحاح، الرازي ١/ ١٧٨.
(٤) انظر: لسان العرب، ابن منظور ١٤/ ٤٦٥.
(٥) نهاية المحتاج إلى شرح المنهاج، الرملي ١/ ٣٥٨.

الصلاة في الاستعمال القرآني

وردت مادة «صلو» في القرآن الكريم (٩٩) مرة[(١)].

والصيغ التي وردت، هي:

الصيغة	عدد المرات	المثال
الفعل الماضي	٣	﴿فَلَا صَدَّقَ وَلَا صَلَّىٰ ۝﴾ [القيامة:٣١]
الفعل المضارع	٦	﴿فَنَادَتْهُ الْمَلَائِكَةُ وَهُوَ قَائِمٌ يُصَلِّي فِي الْمِحْرَابِ﴾ [آل عمران:٣٩]
الفعل الأمر	٣	﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا صَلُّوا عَلَيْهِ وَسَلِّمُوا تَسْلِيمًا ۝﴾ [الأحزاب:٥٦]
المصدر	٨٣	﴿حَافِظُوا عَلَى الصَّلَوَاتِ وَالصَّلَاةِ الْوُسْطَىٰ﴾ [البقرة:٢٣٨]
اسم الفاعل	٣	﴿قَالُوا لَمْ نَكُ مِنَ الْمُصَلِّينَ ۝﴾ [المدثر:٤٣]
اسم مكان	١	﴿وَاتَّخِذُوا مِن مَّقَامِ إِبْرَاهِيمَ مُصَلًّى﴾ [البقرة:١٢٥]

وجاءت الصلاة في القرآن على أربعة وجوه[(٢)]:

أحدها: بمعناها اللغوي وهو الدعاء والاستغفار: ومنه قوله تعالى: ﴿وَصَلِّ عَلَيْهِمْ إِنَّ صَلَاتَكَ سَكَنٌ لَّهُمْ﴾ [التوبة:١٠٣]. يعني: ادع واستغفر لهم.

الثاني: بمعنى المغفرة والرحمة: ومنه قوله تعالى: ﴿أُولَٰئِكَ عَلَيْهِمْ صَلَوَاتٌ مِّن رَّبِّهِمْ وَرَحْمَةٌ﴾ [البقرة:١٥٧].

وقوله تعالى: ﴿هُوَ الَّذِي يُصَلِّي عَلَيْكُمْ وَمَلَائِكَتُهُ لِيُخْرِجَكُم مِّنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ﴾

(١) انظر: المعجم المفهرس لألفاظ القرآن الكريم، محمد فؤاد عبدالباقي ص٤١٢-٤١٤، المعجم المفهرس الشامل، عبدالله جلغوم، ص٧٠٣-٧٠٥.

(٢) انظر: الوجوه والنظائر، الدامغاني، ص٢٩٤-٢٩٥، نزهة الأعين النواظر في علم الوجوه والنظائر، ابن الجوزي، ص٣٩٤-٣٩٦، بصائر ذوي التمييز، الفيروزآبادي، ٣/ ٤٣٧-٤٣٨، عمدة الحفاظ في تفسير أشرف الألفاظ، السمين الحلبي، ٢/ ٣٤٩-٣٥١.

[الأحزاب:٤٣].

والثالث: الصلاة بمعناها الشرعي: ومنه قوله تعالى: ﴿أَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ لِدُلُوكِ ٱلشَّمْسِ إِلَىٰ غَسَقِ ٱلَّيْلِ﴾ [الإسراء:٧٨]. وهي الغالب في الاستعمال القرآني.

الرابع: موضع الصلاة: ومنه قوله تعالى: ﴿وَلَوْلَا دَفْعُ ٱللَّهِ ٱلنَّاسَ بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لَّهُدِّمَتْ صَوَٰمِعُ وَبِيَعٌ وَصَلَوَٰتٌ﴾ [الحج:٤٠]. يعني: بيوت الصلاة ومواضعها.

الألفاظ ذات الصلة

١ الدعاء:

الدعاء لغة:

مأخوذ من مادة «د ع و» التي تدل في الأصل على إمالة الشيء إليك بصوت وكلام يكون منك، ومن هذا الأصل الدعاء في معنى الرغبة إلى الله عز وجل، وهو واحد الأدعية، والفعل من ذلك دعا يدعو، والمصدر الدعاء والدعوى[(١)].

الدعاء اصطلاحًا:

هو سؤال العبد ربه حاجته.

الصلة بين الدعاء والصلاة:

المفردتان متقاربتان في المعنى، فالصلاة أصلها دعاء وابتهال إلى الله ليغفر الذنوب، وفريضة الصلاة تتضمن الدعاء في تفاصيلها ولا تقوم دونه.

٢ العبادة:

العبادة لغةً:

من الفعل عبد يعبد، عبادةً وعبوديةً، والمفعول: معبود، وعبد الله بمعنى وحده وأطاعه، وانقاد وخضع وذل له، والتزم شرائع دينه، وأدى فرائضه[(٢)].

العبادة اصطلاحًا:

قال المناوي: «العبادة فعل المكلف على خلاف هوى نفسه؛ تعظيمًا لربه، وقيل:هي الأفعال الواقعة على نهاية ما يمكن من التذلل والخضوع المتجاوز لتذلل بعض العباد لبعض، ولذلك اختصت بالرب، وهي أخص من العبودية التي تعني مطلق التذلل»[(٣)].

وقال الراغب: «العبودية: إظهار التذلل، والعبادة أبلغ منها؛ لأنها غاية التذلل، ولا يستحقها إلا من له غاية الإفضال وهو الله تعالى»[(٤)].

الصلة بين العبادة والصلاة:

العبادة أعم من الصلاة، فالصلاة نوع من أنواع العبادات التي شرعها الله تعالى.

(١) انظر: مقاييس اللغة، ابن فارس ٢/ ٢٨٠، الصحاح، الجوهري ٦/ ٢٣٣٧.
(٢) انظر: معجم اللغة العربية المعاصرة، أحمد مختار ٢/ ١٤٤٨.
(٣) التوقيف على مهمات التعاريف ص ٢٣٤.
(٤) المفردات ص ٣١٨.

الصلاة والمخلوقات

كل المخلوقات في هذا الكون عباد لله عز وجل، وإن اختلفت طرائق عباداتهم.

قال الله عز وجل: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يُسَبِّحُ لَهُ مَن فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَالطَّيْرُ صَافَّاتٍ كُلٌّ قَدْ عَلِمَ صَلَاتَهُ وَتَسْبِيحَهُ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِمَا يَفْعَلُونَ ﴿٤١﴾﴾ [النور:٤١].

وقد ذكر بعض العلماء أن الصلاة بمفهومها الاصطلاحي المعروف هي لبني آدم، أما التسبيح الذي هو التنزيه والتعظيم فلسائر الخلق[(١)].

وذكر الثعلبي تأويلين آخرين للآية بعيدًا عن تصنيف الصلاة للبشر والتسبيح لمن سواهم، أحدهما: أن كل مصل ومسبح قد علم الله صلاته وتسبيحه، والثاني: أن كل مسبح ومصل منهم قد علم صلاة نفسه وتسبيحه الذي كلفه الله، وقد علم كل منهم صلاة الله من تسبيحه، وعلى هذا فالصلاة والتسبيح غير مقصورين على أحد[(٢)].

وقد نقل الماوردي قولًا آخر، وهو احتمال أن يكون المقصود في الآية الطير على وجه الخصوص وأن ضرب أجنحتها صلاة وأن أصواتها تسبيح، وأنه قد تكون للطير صلاة ليس فيها ركوع ولا سجود[(٣)].

قال الشوكاني: «وفائدة الإخبار بأن كل واحد قد علم ذلك، أن صدور هذا التسبيح هو عن علم علمها الله ذلك وألهمها إليه، لا أن صدوره منها على طريقة الاتفاق بلا روية، وفي ذلك زيادة دلالة على بديع صنع الله سبحانه وعظيم شأنه، كونه جعلها مسبحة له عالمة بما يصدر منها غير جاهلة له»[(٤)].

وقال المراغي: «إن كل مصل ومسبح يعلم ما يجب عليه من الصلاة والتسبيح اللذين كلف بهما، وليس بالبعيد أن يلهم الله الطير دعاءه وتسبيحه كما ألهمها سائر العلوم الدقيقة التي لا يكاد العقلاء يهتدون إليها، انظر إلى النحل كيف تبنى بيوتها السداسية الأشكال التي لا يتمكن من بنائها فطاحل المهندسين إلا بدقيق الآلات، وإلى العنكبوت كيف تفعل الحيل اللطيفة لاصطياد الذباب»[(٥)].

وقد ثبت سجود جميع المخلوقات لله تعالى، قال عز وجل: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يَسْجُدُ لَهُ مَن فِي السَّمَاوَاتِ وَمَن فِي الْأَرْضِ وَالشَّمْسُ وَالْقَمَرُ وَالنُّجُومُ وَالْجِبَالُ وَالشَّجَرُ وَالدَّوَابُّ وَكَثِيرٌ مِّنَ النَّاسِ﴾ [الحج:١٨].

وقد ذهب علماء التفسير إلى أن جميع

---

(١) انظر: جامع البيان، الطبري ١٩/١٩٩، الجواهر الحسان، الثعالبي ٤/١٢٩.
(٢) انظر: الكشف والبيان ٧/١١٢.
(٣) انظر: النكت والعيون ٤/١١٢.
(٤) فتح القدير ٤/٤٨.
(٥) تفسير المراغي ١٨/١١٦.

مخلوقات الله من الملائكة في أقطار السموات، والحيوانات في جميع الجهات، من الإنس والجن والدواب والطير، تسجد لله تبارك وتعالى، وقوله: ﴿وَالشَّمْسُ وَالْقَمَرُ وَالنُّجُومُ﴾ [الحج:١٨].

إنما ذكر هذه على التنصيص؛ لأنها قد عبدت من دون الله، فبين أنها تسجد لخالقها، وأنها مسخرة له عز وجل[١].

ومذهب أهل السنة أن لله علمًا في الجمادات وسائر الحيوانات سوى العقلاء لا يقف عليه غيره، ولها صلاة وتسبيح وخشية كما قال عز وجل: ﴿وَإِن مِّن شَيْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ وَلَٰكِن لَّا تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ﴾ [الإسراء:٤٤].

فيجب على المرء الإيمان بذلك وأن يكل علمه إلى الله تعالى[٢].

وفي الحديث الصحيح عن جابر بن سمرة رضي الله عنه عن النبي صلى الله عليه وسلم قال: (**إني لأعرف حجرا بمكة كان يسلم علي قبل أن أبعث إني لأعرفه الآن**)[٣].

وقد وصف سيد قطب تناغم المخلوقات في كل الكون واجتماعها على العبادة والتسبيح وهي متجهة جميعًا إلى الله تعالى، ثم قال: «والإنسان وحده هو الذي يغفل عن تسبيح ربه وهو أجدر خلق الله بالإيمان والتسبيح والصلاة!»[٤].

فالحق سبحانه وتعالى حين يعرض قضية التسبيح والخضوع والقهر من المخلوقات جميعًا لله يأتي الكلام عامًا لكل الأجناس بدون استثناء، إلا عندما يكون الكلام عن الناس فيوصف بالعبادة بعض الناس فقط! والأجدر أن يكون الإنسان هو المدرك الأكبر لفضل الله وعظمته فهو المميز بنعمة العقل دون غيره[٥].

(١) انظر: تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ٦/ ٤٠٣.
(٢) انظر: جامع الرسائل، ابن تيمية ١/ ٤٢.
(٣) أخرجه مسلم في صحيحه، كتاب الفضائل، باب فضل نسب النبي صلى الله عليه وسلم وتسليم الحجر عليه قبل النبوة ٤/ ١٧٨٢، رقم ٢٢٧٧.
(٤) في ظلال القرآن ٤/ ٢٥٢٢.
(٥) انظر: تفسير الشعراوي ١٥/ ٩٦٠٨.

مقاصد الصلاة

الصلاة هي أحب الأعمال إلى الله، وقد ورد في فضلها نصوص كثيرة، وفي الحديث أن النبي صلى الله عليه وسلم سئل: (أي العمل أحب إلى الله؟ قال: الصلاة على وقتها، قال: ثم أي؟ قال: ثم بر الوالدين، قال: ثم أي؟ قال: الجهاد في سبيل الله، قال: حدثني بهن، ولو استزدته لزادني)[(١)].

ولعل من أسباب أهمية الصلاة ما تتضمنه من مقاصد شرعية عظيمة، ومن تلك المقاصد ما يأتي[(٢)]:

١ . تحقيق مبدأ الامتثال والانقياد في نفس المصلي.

وتعويده على الطاعة والتعبد والانتظام في منهج التكليف والاستخلاف، وتجديد العهد بالله تعالى في كل صلاة، وهذا المبدأ هو أساس معنى الإسلام، فالإسلام قائم على الاستسلام لله والخضوع له وحده لا شريك له والانقياد له بالطاعة، والإنسان بطبيعته بحاجة إلى أن ينقاد إلى إله يلجأ إليه ويتذلل له، والله تعالى هو الإله الحق المستحق للعبادة وهو المتفضل علينا بسائر النعم، وفي فرض الصلاة تمرين للنفس على النظام والالتزام.

قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلصَّلَوٰةَ كَانَتۡ عَلَى ٱلۡمُؤۡمِنِينَ كِتَٰبٗا مَّوۡقُوتٗا﴾ [النساء:١٠٣].

أي: هي مفروضة علينا حسب الأوقات التي حددها الشارع الحكيم[(٣)]، ولا يخفى ما في التزام النظام من استقرار نفسي و رقي سلوكي.

٢ . إصلاح النفس وتهذيبها، وتخليصها من الفواحش والمنكرات والهواجس والأوهام.

وهذه هي نتيجة الإخلاص والالتزام والخشوع في أداء الصلاة، فإن أقامها المؤمن باطمئنان وسكينة وتذكرٍ للرب العظيم الذي يقف بين يديه فسينتفع بثمراتها لا محالة.

قال تعالى: ﴿وَأَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَۖ إِنَّ ٱلصَّلَوٰةَ تَنۡهَىٰ عَنِ ٱلۡفَحۡشَآءِ وَٱلۡمُنكَرِۗ﴾ [العنكبوت:٤٥].

والمعنى أن الصلوات الخمس هي التي تكفر ما بينها من الذنوب، كما جاء عن أبي هريرة، أنه سمع رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول: (أرأيتم لو أن نهرًا بباب أحدكم يغتسل فيه كل يوم خمسًا، ما تقول: ذلك يبقي من درنه، قالوا: لا يبقي من درنه شيئًا، قال: فذلك مثل الصلوات الخمس، يمحو

(١) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب مواقيت الصلاة، باب فضل الصلاة لوقتها ١/ ١١٢، رقم ٥٢٧.

(٢) انظر: علم المقاصد الشرعية، نور الدين الخادمي ١/ ١٧١.

(٣) انظر: المنار، محمد رشيد رضا ٢/ ٣٣٨.

الله به الخطايا)[١].

وذكر القرطبي في تفسيره أن ما يتلى في الصلاة ينهى عن الفحشاء والمنكر، وعن الزنى والمعاصي[٢].

وذكر ابن عاشور أن أقوال الصلاة وأفعالها تعمل كمذكرات بالله تعالى وتكون للمصلي كالواعظ المذكر بالله تعالى إذ ينهى سامعه عن ارتكاب ما لا يرضي الله[٣].

قال ابن تيمية: «نفس فعل الطاعات يتضمن ترك المعاصي ونفس ترك المعاصي يتضمن فعل الطاعات ولهذا كانت الصلاة تنهى عن الفحشاء والمنكر فالصلاة تضمنت شيئين أحدهما نهيها عن الذنوب والثاني تضمنها ذكر الله»[٤].

٣. انشراح الصدر وطمأنة القلب وإراحة البال.

وهذه ثمرة عظيمة من ثمرات الصلاة، فالإنسان المؤدي للصلاة في أوقاتها ويراعي شروطها وأركانها يستنير قلبه وتنفرج أساريره ويطمئن قلبه، ويتعطش لها إذا ما أجبرته الظروف للتأخر عنها، فتتكدر نفسه ولا يهدأ إلا بها، وصدق رسولنا الكريم صلى الله عليه وسلم حينما قال لبلال رضي الله عنه: **(يا بلال أقم الصلاة أرحنا بها)**[٥].

كما شرعت الطهارة والصلاة للغضبان والمصاب والمكروب وغيرهم، فقد قال المولى تبارك وتعالى: ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَتَطۡمَئِنُّ قُلُوبُهُم بِذِكۡرِ ٱللَّهِۗ أَلَا بِذِكۡرِ ٱللَّهِ تَطۡمَئِنُّ ٱلۡقُلُوبُ ﴿٢٨﴾﴾ [الرعد:٢٨].

أي: تسكن وتستأنس قلوب المؤمنين بتذكر الله في القلب وذكره على اللسان، وهذا ما يتحصل للمؤمن حين يصلي[٦]، فالأساس في الصلاة هو الذكر، ﴿فَٱعۡبُدۡنِي وَأَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ لِذِكۡرِيٓ﴾ [طه:١٤].

وقد استخدم القرآن الكريم الأداة «ألا» للتنبيه على أهمية ذكر الله والإغراء على ذلك الذكر الجالب للطمأنينة[٧].

وقد ذكر الشعراوي في تفسيره للآية: «أن الاطمئنان مستوعب لكل القلوب؛ فكل إنسان له زاوية يضطرب فيها قلبه؛ وما أن يذكر الله حتى يجد الاطمئنان ويتثبت قلبه»[٨].

وفي السجود له سبحانه قرب وأنس، قال تعالى: ﴿كَلَّا لَا تُطِعۡهُ وَٱسۡجُدۡ وَٱقۡتَرِب ۩ ﴿١٩﴾﴾

---

(١) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب مواقيت الصلاة، باب الصلوات الخمس كفارة ١/ ١١٢، رقم ٥٢٨.
(٢) انظر: الجامع لأحكام القرآن ١٣/ ٣٤٧.
(٣) انظر: التحرير والتنوير ٢٠/ ٢٥٩.
(٤) الزهد والورع والعبادة ص١٨١.
(٥) أخرجه أبو داود في سننه، كتاب الأدب، باب في صلاة العتمة ٤/ ٢٩٦، رقم ٤٩٨٥. وصححه الألباني في صحيح الجامع، ٢/ ١٣٠٧، رقم ٧٨٩٢.
(٦) انظر: جامع البيان، الطبري ١٦/ ٤٣٢.
(٧) انظر: التفسير الوسيط، طنطاوي ٧/ ٤٧٨.
(٨) تفسير الشعراوي ١٢/ ٧٣٢٧.

[العلق:١٩].

وهذا القرب الحاصل في الصلاة قد لا يحصل في غيرها، فالسجود استكانة واطمئنان والتجاء يقتضي إلطافه تعالى، وإجابته لدعواتهم، وتحقيقه لرغباتهم[1].

٤. تحقيق الآثار الاجتماعية والإنسانية وتنميتها؛ كالأخوة والمساواة والتضامن.

ونفي الفرقة والتمييز المبني على اختلاف الجنس أو اللون أو الغنى أو الجاه أو المحسوبية أو ما شابه ذلك؛ فكل الناس موقوفون أما الخالق الكريم، يرجون رحمته ويخشون عذابه، وتجمعهم للصلاة فرصة عظيمة للتآلف والتضامن، فيتبادلون السلام والسؤال عن بعضهم بعضًا، كما يتشاورون في أمورهم الاجتماعية والحياتية، وقيام المسلم للصلاة بين يدي خالقه يساهم في توفير الإشباع الذاتي لحاجة الانتماء الاجتماعي؛ من خلال إحساسه بالانتماء إلى العقيدة الدينية ومشاركته ملايين المسلمين في أداء الفريضة، وهذا مما يساعد في زوال أمراض الشعور بالنقص، والتي قد تتولد لدى الفرد نتيجة مهنة بسيطة أو طبقة متدنية، وهذا يساهم في رفع الشعور بالمساواة لدى الفرد، فيشعر الفقير أنه كالغني، والقوي أنه كالضعيف، وتزال الحواجز الدنيوية البغيضة التي تفرق بين أبناء الأمة، الأمر الذي يزيد من تقبل الأدنى لذاته ورضاه عن واقعه، كما يشعر المصلي بأنه واحد من ملايين من البشر قد اتجهوا نحو مكان واحد لعبادة رب واحد وأداء عمل واحد هو الصلاة، وهذا الشعور يقوي عنده الإحساس بالقوة والعزة.

والصلاة لها آثار إيجابية على المسلم، فهي الجالبة لتوفيق الله عز وجل في أمور الدراسة والعمل والزواج وكل ما يهم الإنسان، وهي المتسببة الأولى في رضا الوالدين، وصحبة الصلاة والمسجد خير صحبة، فهم حفظة القرآن والمتخلقون بالخلق الحميد، الذين يدلون على فعل الخير، ليسوا كصحبة السوء الذين يدفعون بأصحابهم إلى فعل القبائح والبعد عن الخير والفلاح.

(١) انظر: تيسير الكريم الرحمن، السعدي ص٣٨٤.

اقتران الصلاة بالأعمال الصالحة

اقترنت الصلاة ببعض أعمال البر، ومن تلك الأعمال: الزكاة.

إن أغلب آيات الأمر بالزكاة جاءت بعد الأمر بالصلاة في نفس الآية.

قال تعالى: ﴿وَأَقِيمُوا الصَّلَوٰةَ وَءَاتُوا الزَّكَوٰةَ وَارْكَعُوا مَعَ الرَّٰكِعِينَ ﴿٤٣﴾﴾ [البقرة:٤٣].

وقال: ﴿إِنَّمَا يَعْمُرُ مَسَٰجِدَ اللَّهِ مَنْ ءَامَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْءَاخِرِ وَأَقَامَ الصَّلَوٰةَ وَءَاتَى الزَّكَوٰةَ وَلَمْ يَخْشَ إِلَّا اللَّهَ فَعَسَىٰٓ أُولَٰٓئِكَ أَن يَكُونُوا مِنَ الْمُهْتَدِينَ ﴿١٨﴾﴾ [التوبة:١٨].

وقد أرجع بعض العلماء هذا الارتباط إلى أهمية هاتين الفريضتين، فهما من أعظم الفرائض التي حث الإسلام على أدائها، حيث إن الصلاة هي الركن الثاني في الإسلام بعد الشهادتين، والزكاة هي الركن الثالث، كما أن الصلاة حق الله والزكاة حق العباد وحق الله، والصلاة هي العبادة البدنية والمعنوية، والزكاة عبادة مالية ومعنوية[(١)].

ولعل الصلاة والزكاة تشتركان في مفهوم التحرر من العبودية؛ فالصلاة تحرر من العبودية للمخلوقات والمصالح إلى عبودية الله رب الأرباب، والزكاة تحرر من عبودية المال والشهوات، هذه العبودية التي تستذل النفوس، وتنكس الرؤوس، فيتحرر الإنسان بها من الحرص الذي يذل أعناق الرجال[(٢)].

واقترنت الصلاة بالصبر في مواضع كثيرة، منها قوله تعالى: ﴿وَاسْتَعِينُوا بِالصَّبْرِ وَالصَّلَوٰةِ وَإِنَّهَا لَكَبِيرَةٌ إِلَّا عَلَى الْخَٰشِعِينَ ﴿٤٥﴾﴾ [البقرة:٤٥].

وقوله عز وجل: ﴿الَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَالصَّٰبِرِينَ عَلَىٰ مَآ أَصَابَهُمْ وَالْمُقِيمِي الصَّلَوٰةِ وَمِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ يُنفِقُونَ ﴿٣٥﴾﴾ [الحج:٣٥].

وقوله: ﴿وَالَّذِينَ صَبَرُوا ابْتِغَآءَ وَجْهِ رَبِّهِمْ وَأَقَامُوا الصَّلَوٰةَ وَأَنفَقُوا مِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ سِرًّا وَعَلَانِيَةً وَيَدْرَءُونَ بِالْحَسَنَةِ السَّيِّئَةَ أُولَٰٓئِكَ لَهُمْ عُقْبَى الدَّارِ ﴿٢٢﴾﴾ [الرعد:٢٢].

وهذا الاقتران يدلل على أهمية الأمرين، ويلاحظ في الآيات التي قرنت الصلاة بالصبر ذكر الصبر قبل الصلاة ولعل ذلك ترتيب منطقي؛ فالصلاة تحتاج إلى صبر ومجاهدة للنفس، فحسن أن يأتي ذكر الصبر قبلها، والله أعلم.

قال الأصفهاني: «والصلاة أرفع منزلة من الصبر، لأنها تجمع ضروبًا من الصبر، إذ هي حبس الحواس على العبادة، وحبس الخواطر والأفكار على الطاعة، ولهذا قال عز وجل: ﴿وَإِنَّهَا لَكَبِيرَةٌ إِلَّا عَلَى الْخَٰشِعِينَ﴾ [البقرة:٤٥]. وخصها برد الضمير إليها دون

(١) انظر: التفسير المنير، الزحيلي. ١٠/ ١٣٥.

(٢) انظر: في ظلال القرآن، سيد قطب ١/ ١٥٨.

الصبر﴾[1].

لكن بعض العلماء أرجع السبب في رد الضمير إلى الصلاة كون الصلاة أعم من الصبر، فهي تتضمن الصبر والخشوع والتذلل وغير ذلك من لوازم الصلاة[2].

أساليب القرآن في الحث على الصلاة

الصلاة عمود الدين، وثاني أركان الإسلام، وأول ما يحاسب عليه المرء يوم القيامة، وقد تنوعت الأساليب القرآنية في الحث على إقامتها والالتزام بها، وخاطب الله تعالى عباده بأسلوب الأمر تارة، وبأسلوب الثناء تارة، وبأسلوب الذم للتاركين تارة، كما سيأتي:

أولًا: أسلوب الأمر:

جاء الخطاب القرآني الداعي إلي إقامة الصلاة بصيغة الأمر مرات كثيرة، من ذلك استخدام فعل الأمر في قول الله تعالى: ﴿وَأَقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتُوا۟ ٱلزَّكَوٰةَ وَٱرْكَعُوا۟ مَعَ ٱلرَّٰكِعِينَ ﴿٤٣﴾﴾ [البقرة:٤٣].

وقوله عز وجل: ﴿وَأَقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتُوا۟ ٱلزَّكَوٰةَ وَمَا تُقَدِّمُوا۟ لِأَنفُسِكُم مِّنْ خَيْرٍ تَجِدُوهُ عِندَ ٱللَّهِ إِنَّ ٱللَّهَ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴿١١٠﴾﴾ [البقرة:١١٠].

وقوله: ﴿وَأَقِمْنَ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتِينَ ٱلزَّكَوٰةَ وَأَطِعْنَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥٓ﴾ [الأحزاب:٣٣].

وكذلك أتى الأمر بالصلاة بصيغة الإخبار بأن الفعل مكتوب على المخاطبين[3].

قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلصَّلَوٰةَ كَانَتْ عَلَى

(١) تفسير الراغب الأصفهاني ١/ ١٧٧.
(٢) انظر: معالم التنزيل، البغوي ٤/ ٤٣.
(٣) انظر: تاريخ التشريع الإسلامي، مناع القطان ١/ ٦٢.

﴿ٱلۡمُؤۡمِنِينَ كِتَٰبٗا مَّوۡقُوتٗا﴾ [النساء:١٠٣].

وكذلك أتى الأمر عن طريق أسلوب المضارع المقرون بلام الأمر، تأمل قول الله تعالى: ﴿وَلۡتَأۡتِ طَآئِفَةٌ أُخۡرَىٰ لَمۡ يُصَلُّواْ فَلۡيُصَلُّواْ مَعَكَ﴾ [النساء:١٠٢].

والأمر بكافة صيغه الواردة يقتضي وجوب المأمور به، والمبادرة بفعله فورًا، ومن الأدلة على أن الأمر يقتضي الوجوب قوله تعالى: ﴿فَلۡيَحۡذَرِ ٱلَّذِينَ يُخَالِفُونَ عَنۡ أَمۡرِهِۦٓ أَن تُصِيبَهُمۡ فِتۡنَةٌ أَوۡ يُصِيبَهُمۡ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ [النور:٦٣].

ووجه الدلالة أن الله حذر المخالفين عن أمر الرسول صلى الله عليه وسلم أن تصيبهم فتنة، أي زيغ، أو يصيبهم عذاب أليم، والتحذير بمثل ذلك لا يكون إلا على ترك، وقد قال الله عز وجل في شأن الصلاة على وجه الخصوص: ﴿۞فَخَلَفَ مِنۢ بَعۡدِهِمۡ خَلۡفٌ أَضَاعُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَٱتَّبَعُواْ ٱلشَّهَوَٰتِۖ فَسَوۡفَ يَلۡقَوۡنَ غَيًّا ۝٥٩﴾ [مريم:٥٩].

والغي لمن أضاع الصلاة دلالة على وجوبها، ومن الأدلة على أن الأمر للفور قوله تعالى: ﴿فَٱسۡتَبِقُواْ ٱلۡخَيۡرَٰتِ﴾ [البقرة:١٤٨].

والمأمورات الشرعية خير، والأمر بالاستباق إليها دليل على وجوب المبادرة إلا إذا جاء دليل يصرفها عن ذلك[(١)].

ثانيًا: أسلوب الثناء على المقيمين لها والآمرين بها:

أثنى القرآن الكريم على المقيمين للصلاة في كثير من المواضع ووعدهم بالأجر الكبير؛ ليحث على إقامتها والالتزام بها، من ذلك قوله عز وجل: ﴿ٱلَّذِينَ يُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَمِمَّا رَزَقۡنَٰهُمۡ يُنفِقُونَ ۝٣ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡمُؤۡمِنُونَ حَقّٗاۚ لَّهُمۡ دَرَجَٰتٌ عِندَ رَبِّهِمۡ وَمَغۡفِرَةٞ وَرِزۡقٞ كَرِيمٞ ۝٤﴾ [الأنفال:٣-٤].

فقد وصف الله تعالى المقيمين للصلاة المنفقين من مال الله بأنهم هم المؤمنون الذين لا شك في إيمانهم كشك المنافقين، أولئك لهم الجنة يرتقونها بأعمالهم، والرزق الكريم الذي أعده الله لهم فيها[(٢)].

وقال عز وجل: ﴿ٱلَّذِينَ يُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَيُؤۡتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ وَهُم بِٱلۡأٓخِرَةِ هُمۡ يُوقِنُونَ ۝٤ أُوْلَٰٓئِكَ عَلَىٰ هُدٗى مِّن رَّبِّهِمۡۖ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡمُفۡلِحُونَ ۝٥﴾ [لقمان:٤-٥].

واستخدم المولى تبارك وتعالى في هذه الآية محفزًا حسيًا يفهمه البشر، فقد وصف تعالى المصلين المزكين المؤمنين بوجود اليوم الآخر بأنهم على رشاد، ثم استخدم كلمة «المفلحون» في وصفهم، فالبشر يعون تمامًا فكرة الزراعة المبنية على البذر والتكاثر والحصاد، فاستدل بالأمر المشهود على الأمر الغيبي، كأنه تعالى يعدهم إذا

(١) انظر: الأصول من علم الأصول، ابن عثيمين ١/ ٢٣.

(٢) انظر: زاد المسير، ابن الجوزي ٢/ ١٨٩.

فعلوا تلك الأوامر أنه سيبارك في طاعتهم التي هي بذرهم، وسيجزل لهم الحصاد بفضله وكرمه عز وجل[1].

وامتدحهم المولى أيضًا عندما وصفهم بالخشية، ثم نعتهم بالمزكين لأنفسهم، قال تعالى: ﴿إِنَّمَا تُنذِرُ ٱلَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُم بِٱلْغَيْبِ وَأَقَامُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَمَن تَزَكَّىٰ فَإِنَّمَا يَتَزَكَّىٰ لِنَفْسِهِۦ وَإِلَى ٱللَّهِ ٱلْمَصِيرُ﴾ [فاطر:١٨].

والتزكية تعني التطهير، فالمقيم للصلاة يطهر نفسه بتلك الصلاة من شوائب الأعمال؛ حتى ينال وصف الخاشين لله تعالى، وقد وصفت الصلاة بأنها زكاة الأعمال لا زكاة الأموال، وأن صاحبها سيرى أثرها يوم القيامة عندما تصير النفوس إلى الله راجية رحمته وثوابه عز وجل[2].

كما أثنى المولى على المقيمين للصلاة في وقت كسب أرزاقهم، ووصفهم بالرجال الذي يخافون العقاب، ووعدهم بجزاء أحسن من عملهم، وزيادة من الفضل والرزق[3].

قال تعالى: ﴿رِجَالٌ لَّا تُلْهِيهِمْ تِجَٰرَةٌ وَلَا بَيْعٌ عَن ذِكْرِ ٱللَّهِ وَإِقَامِ ٱلصَّلَوٰةِ وَإِيتَآءِ ٱلزَّكَوٰةِ يَخَافُونَ يَوْمًا تَتَقَلَّبُ فِيهِ ٱلْقُلُوبُ وَٱلْأَبْصَٰرُ ﴿٣٧﴾ لِيَجْزِيَهُمُ ٱللَّهُ أَحْسَنَ مَا عَمِلُوا۟ وَيَزِيدَهُم مِّن فَضْلِهِۦ وَٱللَّهُ يَرْزُقُ مَن يَشَآءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴿٣٨﴾﴾ [النور:٣٧-٣٨].

وأكد تعالى أن إقامة الصلاة وإيتاء الزكاة بعد التوبة تقتضي الأخوة في الدين، وهذا ثناء عظيم ووعد بحياة جديدة طاهرة للتائب يساند فيها المسلم أخاه المسلم.

قال تعالى: ﴿فَإِن تَابُوا۟ وَأَقَامُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَوُا۟ ٱلزَّكَوٰةَ فَإِخْوَٰنُكُمْ فِى ٱلدِّينِ﴾ [التوبة:١١].

ثالثًا: ذم المضيعين لها:

ذم الله تعالى تضييع الصلاة والتهاون في أدائها، قال تعالى: ﴿فَوَيْلٌ لِّلْمُصَلِّينَ ﴿٤﴾ ٱلَّذِينَ هُمْ عَن صَلَاتِهِمْ سَاهُونَ ﴿٥﴾﴾ [الماعون:٤-٥].

فقد توعد الله تعالى الذين يؤخرون الصلاة عن وقتها ويغفلون عنها بسبب لهوهم في الحياة الدنيا بالويل[4] وهو العذاب الأليم أو وادٍ في جهنم، وهذه هي قمة الذم لمن يفرط في صلاته، ولعل العاقل يشمئز من هذا الوصف فيراجع نفسه ويعود لرشده، فيقيم الصلاة في وقتها ولا يهملها[5].

وقد ذمهم الحق مرة أخرى عندما وصفهم بتضييعها، وقد ذكر تضييع الصلاة ثم أعقبه باتباع الشهوات، فهذا ما يتبع

(١) انظر: تفسير الشعراوي ١/ ١٣٣.
(٢) انظر: اللباب في علوم الكتاب، ابن عادل الحنبلي ٢٠/ ٢٨٥.
(٣) انظر: مختصر معالم التنزيل، البغوي، عبد الله الزيد ٥/ ٦٥٤.
(٤) انظر: تفسير ابن فورك ٣/ ٢٨٢.
(٥) انظر: مفاتيح الغيب، الرازي ٣/ ٥٦٥.

تضييعها عادةً، ثم توعدهم الله تعالى بالغي، وهو الشرود والضلال، وعاقبة الشرود الضياع والهلاك[1].

قال تعالى: ﴿فَخَلَفَ مِنۢ بَعۡدِهِمۡ خَلۡفٌ أَضَاعُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَٱتَّبَعُواْ ٱلشَّهَوَٰتِۖ فَسَوۡفَ يَلۡقَوۡنَ غَيًّا ٥٩﴾ [مريم:٥٩].

ثم فصل المولى عز وجل في الوصف الذميم لتاركي الصلاة، تأمل قوله عز وجل: ﴿إِنَّ ٱلۡمُنَٰفِقِينَ يُخَٰدِعُونَ ٱللَّهَ وَهُوَ خَٰدِعُهُمۡ وَإِذَا قَامُوٓاْ إِلَى ٱلصَّلَوٰةِ قَامُواْ كُسَالَىٰ يُرَآءُونَ ٱلنَّاسَ وَلَا يَذۡكُرُونَ ٱللَّهَ إِلَّا قَلِيلٗا ١٤٢﴾ [النساء:١٤٢].

فوصفهم بادئ ذي بدء بالنفاق الممقوت؛ فهم يقيمون الصلاة تظاهرًا أمام الناس ليخدعوا المسلمين وليشاهدهم الناس وينخدعوا بهم، وفي الصلاة التي يراؤون بها الناس لا يقولون كل المطلوب منهم لتمامها، بل يقولون المطلوب قوله جهرًا فقط، كأن يتمتموا بالفاتحة وبعض القرآن ولكنهم في أثناء الركوع والسجود لا يسبحون باسم الله تعالى[2].

وتأكيدًا على الذم، قرر المولى عز وجل أن الشيطان هو المسؤول عن الصد عن ذكر الله والصلاة، وفي هذا تشنيع على المتمسك بتغييب عقله اللاهث وراء الشيطان وإغوائه.

قال تعالى: ﴿إِنَّمَا يُرِيدُ ٱلشَّيۡطَٰنُ أَن يُوقِعَ بَيۡنَكُمُ ٱلۡعَدَٰوَةَ وَٱلۡبَغۡضَآءَ فِي ٱلۡخَمۡرِ وَٱلۡمَيۡسِرِ وَيَصُدَّكُمۡ عَن ذِكۡرِ ٱللَّهِ وَعَنِ ٱلصَّلَوٰةِۖ فَهَلۡ أَنتُم مُّنتَهُونَ ٩١﴾ [المائدة:٩١].

وعندما ذم الله تعالى أعتى ظلمة الجاهلية - أبا جهل- وصفه بتكذيب كلام الله والإعراض عن الصلاة، قال تعالى: ﴿فَلَا صَدَّقَ وَلَا صَلَّىٰ ٣١ وَلَٰكِن كَذَّبَ وَتَوَلَّىٰ ٣٢﴾ [القيامة:٣١-٣٢].

ولعل اقتران ترك الصلاة مع التكذيب بالله فيه من التشنيع ما يكفي، فضلًا عن أن من وصف به هو أبو جهل! فالأصل أن يتجنب كل ذي لبٍ التشبه بعمل ذلك الكافر[3].

(١) انظر: في ظلال القرآن، سيد قطب ٣/ ٥٦٥.
(٢) انظر: تفسير الشعراوي ٥/ ٢٧٤١.
(٣) انظر: جامع البيان، الطبري ٢٤/ ٨١.

أحوال الناس مع الصلاة في القرآن

ذكر القرآن الكريم حالات للناس مع الصلاة، ومن تلك الحالات ما يأتي:

أولًا: المقيمون للصلاة:

إقامة الصلاة هي ما يأمر به الدين، قال تعالى: ﴿أَقِمِ الصَّلَوٰةَ لِدُلُوكِ الشَّمْسِ إِلَىٰ غَسَقِ الَّيْلِ وَقُرْءَانَ الْفَجْرِ إِنَّ قُرْءَانَ الْفَجْرِ كَانَ مَشْهُودًا ﴿٧٨﴾﴾ [الإسراء:٧٨].

وقال على لسان عبده لقمان: ﴿يَٰبُنَيَّ أَقِمِ الصَّلَوٰةَ وَأْمُرْ بِالْمَعْرُوفِ وَانْهَ عَنِ الْمُنكَرِ وَاصْبِرْ عَلَىٰ مَا أَصَابَكَ إِنَّ ذَٰلِكَ مِنْ عَزْمِ الْأُمُورِ ﴿١٧﴾﴾ [لقمان:١٧].

وامتدح عباده المؤمنين بإقامة الصلاة، قال عز وجل: ﴿الَّذِينَ إِن مَّكَّنَّٰهُمْ فِي الْأَرْضِ أَقَامُوا الصَّلَوٰةَ وَءَاتَوُا الزَّكَوٰةَ وَأَمَرُوا بِالْمَعْرُوفِ وَنَهَوْا عَنِ الْمُنكَرِ وَلِلَّهِ عَٰقِبَةُ الْأُمُورِ ﴿٤١﴾﴾ [الحج:٤١].

وكذلك وصفهم بإقامتها في قوله عز وجل: ﴿إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُهُ زَادَتْهُمْ إِيمَٰنًا وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ ﴿٢﴾ الَّذِينَ يُقِيمُونَ الصَّلَوٰةَ وَمِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ يُنفِقُونَ ﴿٣﴾﴾ [الأنفال:٢-٣].

فقد استخدم القرآن الكريم أسلوب الحصر، أي أن هؤلاء المذكورة أوصافهم هم المؤمنون بحق، وغيرهم -ممن لا يتصف بوجل القلب وزيادة الإيمان بتلاوة القرآن والتوكل و إقامة الصلاة والإنفاق- ليسوا بمؤمنين حقًا.

ويؤكد هذا المفهوم ما ورد بعد ذلك بآية، قال تعالى: ﴿أُولَٰئِكَ هُمُ الْمُؤْمِنُونَ حَقًّا﴾ [الأنفال:٤].

ومن لا يؤمن بحق فهو غير مؤمن أصلًا، يقول تعالى: ﴿فَمَاذَا بَعْدَ الْحَقِّ إِلَّا الضَّلَٰلُ﴾ [يونس:٣٢].

أي من لم يتبع الحق فهو بالتأكيد اتبع ما يخالفه[(١)]، وقد ذهب بعض العلماء إلى أن الآية تعني أن من اتصف بتلك الأوصاف هو المؤمن كامل الإيمان، بينما من لم يتصف بها هو المؤمن ناقص الإيمان، فلا ينتفي عنه الإيمان بالجملة[(٢)]، والله تعالى أعلى وأعلم.

وإقامة الصلاة تعني أداءها بشكل كامل، متممًا أركانها وفرائضها وشروطها مع الخضوع والخشوع لله تعالى، مع استحضار الخشية والرجاء لله تعالى[(٣)].

وهذه هي الصلاة التي تحقق آثارها المذكورة في قوله عز وجل: ﴿وَأَقِمِ

---

(١) انظر: جامع البيان، الطبري ١٣/ ٣٨٥، مفاتيح الغيب، الرازي ١٥/ ٤٥٠، في ظلال القرآن، سيد قطب ٣/ ١٤٧٤.

(٢) انظر: الجامع لأحكام القرآن، القرطبي ٧/ ٣٦٥، أنوار التنزيل، البيضاوي ٣/ ٤٩.

(٣) انظر: التفسير المنير، الزحيلي ٢٠/ ٢٤٨.

﴿ٱلصَّلَوٰةَۖ إِنَّ ٱلصَّلَوٰةَ تَنْهَىٰ عَنِ ٱلْفَحْشَآءِ وَٱلْمُنكَرِ﴾ [العنكبوت:٤٥].

قال ابن عباس: «في الصلاة منتهى ومزدجر عن معاصي الله، فمن لم تنهه صلاته عن المعاصي لم يزدد إلا بعدًا»[١].

ولأهمية الصلاة لم يسقطها الشرع عن المكلف أبدًا، فإن لم يستطع الإنسان تأديتها واقفًا، فقاعدًا، وإن أنهكه المرض عليه أن يؤديها بما بقي لديه من حواس، ولأهميتها أيضا نجد أنها تبقى مع الإنسان إلى آخر رمقٍ في حياته، وهي قد أخذت أهميتها في التشريع على قدر أهميتها في التكليف؛ فكل تكاليف الإسلام قد جاءت بواسطة الوحي إلا الصلاة، فقد جاءت مباشرة من الله تعالى عندما أمر عز وجل نبيه صلى الله عليه وسلم بها أثناء رحلة الإسراء والمعراج[٢].

ولم يأمر الله تعالى بالصلاة ولم يمدح بها إلا بلفظ الإقامة، نحو قوله تعالى: ﴿وَأَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ﴾ [لقمان:١٧].

وقوله: ﴿وَٱلْمُقِيمِينَ ٱلصَّلَوٰةَ﴾ [النساء:١٦٢].

وقوله: ﴿ٱلَّذِينَ يُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ﴾ [الأنفال:٣].

ولم يقل: «المصلي» إلا في معرض وصف المنافقين، تأمل قوله عز وجل:

﴿فَوَيْلٌ لِّلْمُصَلِّينَ ۝٤ ٱلَّذِينَ هُمْ عَن صَلَاتِهِمْ سَاهُونَ ۝٥﴾ [الماعون:٤-٥].

وذلك تنبيه أن المصلين المؤدين تأديةً مجردة عن الخشوع والإذعان والرجاء كثير والمقيمين لها قليل[٣].

ثانيًا: التاركون للصلاة:

ذكر القرآن الكريم صنفًا آخر من الناس، وهم الذين يتركون إقامة الصلاة، قال تعالى: ﴿فَلَا صَدَّقَ وَلَا صَلَّىٰ ۝٣١ وَلَٰكِن كَذَّبَ وَتَوَلَّىٰ ۝٣٢﴾ [القيامة:٣١-٣٢].

والمقصود بالآية الكريمة رأس الكفر أبو جهل، فلم يصدق بكتاب الله، ولم يصل له صلاة، وما كان منه إلا التكذيب بالقرآن والرسالة النبوية، والإدبار عن طاعة ربه تبارك وتعالى[٤].

وقد توعد المولى عز وجل أبا جهل ومن على شاكلته بالعقاب المنتظر يوم القيامة، قال تعالى: ﴿أَيَحْسَبُ ٱلْإِنسَٰنُ أَن يُتْرَكَ سُدًى ۝٣٦﴾ [القيامة:٣٦].

أي: هل يظن الجاهل أن الله سيتركه دون بعث أو حساب؟![٥].

وقد ذكر القرآن الكريم من اتخذ الصلاة هزوا ولعبًا في قوله تعالى: ﴿وَإِذَا نَادَيْتُمْ إِلَى

---

(١) التفسير الوسيط، الواحدي ٣/ ٤٢١.
(٢) انظر: تفسير الشعراوي ١١/ ٦٧٢٥.
(٣) انظر: تفسير الراغب الأصفهاني ١/ ٨١.
(٤) انظر: جامع البيان، الطبري ٢٣/ ٥٢٢.
(٥) انظر: الجامع لأحكام القرآن، القرطبي ١٩/ ١١٣.

﴿ٱلصَّلَوٰةِ ٱتَّخَذُوهَا هُزُوٗا وَلَعِبٗاۚ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمۡ قَوۡمٞ لَّا يَعۡقِلُونَ ٥٨﴾ [المائدة:٥٨].

وذكر في سبب نزول الآية أن منادي رسول الله صلى الله عليه وسلم كان إذا نادى إلى الصلاة وقام المسلمون إليها، قال اليهود والمنافقون: قد قاموا لا قاموا، وصلوا لا صلوا، ويضحكون على طريق الاستهزاء، فأنزل الله هذه الآية[(١)].

فهؤلاء الضالون اتخذوا من الصلاة -على ما لها من العظمة والجد- هزؤا، فيتعمدون الضحك والسخرية، وعلى شاكلتهم بعض الشباب الفاسد الذي ترك الصلاة واستهزأ بمن يصلي، ويبين سبحانه أن سبب ذلك عدم انتفاعهم بعقولهم فكأنهم لا عقول لهم، وذلك لأن تأمل مستلزمات الصلاة من التطهر لها وحسن التزين مع التخلي عن الدنيا والإقبال على المولى جل وعلا، والتحلي بالقراءة لأعظم الكلام، والخشوع والخضوع لمالك الملك بمجرده كافٍ في اعتقاد حسنها وعظمتها وهيبتها وكمالها[(٢)].

وقد ذكر المولى عز وجل أن جيلًا ظهر بعد ذرية الأنبياء الصالحة، كانوا من العاصين فضيعوا الصلاة ولم يؤدوها واتبعوا شهواتهم الدنيوية، وتوعدهم بالعذاب الشديد، أو هو واد في جهنم، تأمل قوله تعالى: ﴿۞ فَخَلَفَ مِنۢ بَعۡدِهِمۡ خَلۡفٌ أَضَاعُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَٱتَّبَعُواْ ٱلشَّهَوَٰتِۖ فَسَوۡفَ يَلۡقَوۡنَ غَيًّا ٥٩﴾ [مريم:٥٩].

وقد ورد في معنى إضاعة الصلاة عدة تأويلات، فقد تكون إضاعتها بتركها وهذا هو الأشهر، أو جحدها، أو تضييع مواقيتها[(٣)].

ويلاحظ أن إضاعة الصلاة هي مدخل اتباع الشهوات، كيف لا وهي الناهية عن الفحشاء والمنكر الرادعة عن كل قبيح!

وصور لنا المولى عز وجل موقف العذاب في نار جهنم للضالين، وبدأ أسباب العذاب بترك الصلاة ثم أورد عدم الإطعام، والخوض والتكذيب بيوم الدين، وهذا إن دل على شيء فإنما يدل على عظمة الصلاة ومنزلتها عند الله تعالى فقد ذكرها قبل كل شيء.

قال تعالى: ﴿مَا سَلَكَكُمۡ فِي سَقَرَ ٤٢ قَالُواْ لَمۡ نَكُ مِنَ ٱلۡمُصَلِّينَ ٤٣﴾ [المدثر:٤٢-٤٣].

والصلاة المقصودة هنا هي الصلوات المفروضة، وسقر اسم من أسماء نار جهنم، قال بشأنها رب العزة ﴿لَا تُبۡقِي وَلَا تَذَرُ ٢٨﴾ [المدثر:٢٨].

قال الواحدي: «إن سقر لإحدى الأمور العظام»[(٤)].

(١) انظر: لباب التأويل، الخازن ٢/ ٥٧.
(٢) انظر: نظم الدرر، البقاعي ٦/ ١٩٦.
(٣) انظر: الدر المنثور، السيوطي ٥/ ٥٢٦.
(٤) انظر: إرشاد العقل السليم، أبو السعود ٩/ ٦٢.

ولا تخفى ملاءمة العقاب لأهمية المأمور به.

ولعل مما يشير أيضًا إلى أهمية الصلاة، ذم القرآن الآمر بتركها الناهي عن إقامتها، قال تعالى: ﴿أَرَءَيْتَ ٱلَّذِى يَنْهَىٰ ۝٩ عَبْدًا إِذَا صَلَّىٰٓ ۝١٠﴾ [العلق:٩-١٠].

وفي الآية تعجبٌ من تغطرس أبي جهل وجراءته على ربه العظيم، فالله يأمرنا بالصلاة وهذا الفرعون ينهى رسول الله عنها![1]، فكان الرد الرباني متوعدًا ذلك الكافر بالعذاب، وآمرًا نبيه الكريم والمؤمنين بالتقرب والصلاة، قال تعالى: ﴿كَلَّا لَا تُطِعْهُ وَٱسْجُدْ وَٱقْتَرِب ۩ ۝١٩﴾ [العلق:١٩].

ثالثًا: الساهون عن الصلاة:

يعد السهو في الصلاة سببًا رئيسًا لاستحقاق العذاب يوم القيامة، قال المولى عز وجل: ﴿فَوَيْلٌ لِّلْمُصَلِّينَ ۝٤ ٱلَّذِينَ هُمْ عَن صَلَاتِهِمْ سَاهُونَ ۝٥ ٱلَّذِينَ هُمْ يُرَآءُونَ ۝٦ وَيَمْنَعُونَ ٱلْمَاعُونَ ۝٧﴾ [الماعون:٤-٧].

وقد توعدت الآيات من يلهو عن إقامة الصلاة وهم المنافقون ومن على شاكلتهم، يؤخرون أداءها حتى يضيع وقتها، وهم في أدائهم للصلاة مراؤون حتى يشكرهم الناس، ومن خصالهم أيضًا منعهم لأدوات المنزل الأساسية التي قد يحتاجها جيرانهم كالماء والنار وغير ذلك[2].

والساهي عن الصلاة غير مبالٍ فيها لا يكترث أصلى أم لم يصل[3].

وقد ذكر الطبري أن الساهين هم المنافقون يتركون الصلاة في السر، ويصلون في العلانية، والمنافق إن صلاها لوقتها لم يرج ثوابها، وإن تركها لم يخش عقابها، فصلاته لا روح فيها ولا إقبال، وهي وبالٌ عليه، والويل الذي توعدهم به الله تعالى هو الوادي الذي يسيل من صديد أهل جهنم[4].

وقد امتدح الله عز وجل في المقابل من لا يسهو عن وقت الصلاة مهما بلغت مشاغله الدنيوية، قال تعالى: ﴿رِجَالٌ لَّا تُلْهِيهِمْ تِجَٰرَةٌ وَلَا بَيْعٌ عَن ذِكْرِ ٱللَّهِ وَإِقَامِ ٱلصَّلَوٰةِ وَإِيتَآءِ ٱلزَّكَوٰةِ يَخَافُونَ يَوْمًا تَتَقَلَّبُ فِيهِ ٱلْقُلُوبُ وَٱلْأَبْصَٰرُ ۝٣٧ لِيَجْزِيَهُمُ ٱللَّهُ أَحْسَنَ مَا عَمِلُوا۟ وَيَزِيدَهُم مِّن فَضْلِهِۦ وَٱللَّهُ يَرْزُقُ مَن يَشَآءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ ۝٣٨﴾ [النور:٣٧-٣٨].

وهذا وصف المؤمنين المخلصين الذين لا تشغلهم معاملاتهم الرابحة من بيع وشراء عن إقامة الصلاة، رغم ما تقتضيه التجارة من تركيز عقلي وتعامل اجتماعي مع صنوف الناس، ورغم ما تستثيره من حب للدنيا

(١) التفسير الوجيز ١/ ١١٥١.

(٢) انظر: تفسير مقاتل بن سليمان ٤/ ٨٧١.

(٣) انظر: تفسير عبد الرزاق الصنعاني ٣/ ٤٦٣.

(٤) انظر: جامع البيان، الطبري ٢٤/ ٦٣٠-٦٣٢، تفسير القرآن العزيز، ابن أبي زمنين ٥/ ١٦٦.

وأرباحها، كل هذا لا يمنع المسلم الحق من إقامة الصلاة وتأدية الزكاة، فعلاقتهم بالله أولى وأوثق، وهو سبحانه العالم بهم المتفضل عليهم، يعدهم بأحسن مما عملوا، وبزيادة من الرزق، فهو الرزاق الذي لا حدود لكرمه[1].

والمولى عز وجل إذ يطلب من عباده صلاة مخلصة فهو لا يريد منهم شيئا لذاته سبحانه- فهو الغني عنهم- إنما يريد صلاح أنفسهم، وتقويم اعوجاجهم، وتطهير قلوبهم وسعادة حياتهم، يحب لهم حياة رفيعة قائمة على الشعور الصادق، والتآلف في الله، ونظافة القلب والسلوك[2].

رابعًا: المتكاسلون عن الصلاة:

جاء ذكر المتكاسلين في القيام إلى الصلاة في معرض الحديث عن صفات المنافقين، قال الله عز وجل: ﴿إِنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ يُخَٰدِعُونَ ٱللَّهَ وَهُوَ خَٰدِعُهُمْ وَإِذَا قَامُوٓا۟ إِلَى ٱلصَّلَوٰةِ قَامُوا۟ كُسَالَىٰ يُرَآءُونَ ٱلنَّاسَ وَلَا يَذْكُرُونَ ٱللَّهَ إِلَّا قَلِيلًا ﴿١٤٢﴾﴾ [النساء:١٤٢].

فالمنافقون يتثاقلون إلى الصلاة، لا يرون أنها حق عليهم[3]، ويكونون متقاعسين، كما ترى من يفعل شيئًا على كره لا عن طيب نفس[4].

قال التستري ذاكرًا عقاب الله على فعل أولئك المنافقين: «يسرع لهم الجزاء على إظهار الإيمان وإضمار الكفر بترك العصمة والتوفيق، وتمديد الأموال والبنين، والإطراق على عاجل الدنيا، وخاتمتهم النار»[5].

وفي قول آخر عن عقاب الله لهم: إنهم على الصراط يعطون نورًا كما يعطي المؤمنين، فإذا مضوا على الصراط، يسلبهم ربنا ذلك النور[6].

ويبقى المؤمنون ينظرون بنورهم، فينادون المؤمنين: ﴿ٱنظُرُونَا نَقْتَبِسْ مِن نُّورِكُمْ قِيلَ ٱرْجِعُوا۟ وَرَآءَكُمْ فَٱلْتَمِسُوا۟ نُورًا فَضُرِبَ بَيْنَهُم بِسُورٍ لَّهُۥ بَابٌۢ بَاطِنُهُۥ فِيهِ ٱلرَّحْمَةُ وَظَٰهِرُهُۥ مِن قِبَلِهِ ٱلْعَذَابُ ﴿١٣﴾ يُنَادُونَهُمْ أَلَمْ نَكُن مَّعَكُمْ قَالُوا۟ بَلَىٰ وَلَٰكِنَّكُمْ فَتَنتُمْ أَنفُسَكُمْ وَتَرَبَّصْتُمْ وَٱرْتَبْتُمْ وَغَرَّتْكُمُ ٱلْأَمَانِىُّ حَتَّىٰ جَآءَ أَمْرُ ٱللَّهِ وَغَرَّكُم بِٱللَّهِ ٱلْغَرُورُ ﴿١٤﴾ فَٱلْيَوْمَ لَا يُؤْخَذُ مِنكُمْ فِدْيَةٌ وَلَا مِنَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مَأْوَىٰكُمُ ٱلنَّارُ هِىَ مَوْلَىٰكُمْ وَبِئْسَ ٱلْمَصِيرُ ﴿١٥﴾﴾ [الحديد:١٣-١٥].

ولا يقبل الله عز وجل ما ينفق هؤلاء المنافقون؛ لأنهم كفروا به تعالى ولم يقيموا الصلاة، ولم ينفقوا إلا وهم كارهون، قال تعالى: ﴿وَمَا مَنَعَهُمْ أَن تُقْبَلَ مِنْهُمْ نَفَقَٰتُهُمْ إِلَّآ أَنَّهُمْ كَفَرُوا۟ بِٱللَّهِ وَبِرَسُولِهِۦ وَلَا يَأْتُونَ

(١) انظر: أنوار التنزيل، البيضاوي ٤/ ١٠٨.
(٢) انظر: في ظلال القرآن، سيد قطب ٦/ ٣٩٨٥.
(٣) انظر: تفسير مقاتل بن سليمان ١/ ٤١٦.
(٤) انظر: الكشاف، الزمخشري ١/ ٥٧٩.
(٥) تفسير التستري ١/ ٥٥.
(٦) انظر: الكشف والبيان، الثعلبي ٣/ ٤٠٤.

﴿ٱلصَّلَوٰةَ إِلَّا وَهُمْ كُسَالَىٰ وَلَا يُنفِقُونَ إِلَّا وَهُمْ كَٰرِهُونَ ﴿٥٤﴾﴾ [التوبة: ٥٤].

فهؤلاء المنافقون لم يكونوا ليصلوا لولا مخافتهم مذمة المؤمنين، فكانوا إذا أمنوا وضمنوا عدم رؤيتهم من المؤمنين تركوها ولم يقيموها[(١)].

وكان إتيانهم إلى الصلاة إتيان المتكاسل المتذمر المستاء منها، الذي لا يؤمن بوجوبها ولا بالثواب المترتب عليها ولا بالعقاب المترتب على تركها[(٢)]، على خلاف المؤمن الذي تتوق نفسه إلى مناجاة خالقه ولا ينتظر من صلاته شكرًا من البشر.

قال القشيري: «من أطاع من حيث العادة- من غير أن تحمله عليها لوعة الإرادة- لم يجد لطاعته راحة وزيادة، ويقال: من لاحظ الخلق في الجهر من أعماله، وركن إلى الكسل في السر من أحواله فقد وسم بالخذلان، وختم بالحرمان، وهذه هي أمارة الفرقة والقطيعة»[(٣)].

قال سيد قطب عن فعل المنافقين ومن على شاكلتهم: «فهم يأتونها مظهرًا بلا حقيقة، ولا يقيمونها إقامة واستقامة، يأتونها كسالى؛ لأن الباعث عليها لا ينبثق من أعماق الضمير، إنما يدفعون إليها دفعًا، فيحسون أنهم عليها مسخرون! وكذلك ينفقون ما ينفقون كارهين مكرهين، وما كان الله ليقبل هذه الحركات الظاهرة التي لا تحدو إليها عقيدة، ولا يصاحبها شعور دافع، فالباعث هو عمدة العمل والنية هي مقياسه الصحيح، ولقد كان هؤلاء المنفقون وهم كارهون ذوي مال وذوي أولاد، وذوي جاه في قومهم وشرف، ولكن هذا كله ليس بشيء عند الله، وكذلك يجب ألا يكون شيئًا عند الرسول والمؤمنين، فما هي بنعمة يسبغها الله عليهم ليهنؤوا بها، إنما هي الفتنة يسوقها الله إليهم ويعذبهم بها»[(٤)].

ولعل على المسلم الفطن أن يتأمل صلاته جيدًا، ويسأل نفسه: هل أقبل على الله تعالى بكل جوارحي؟ أو أصليها مشغولًا في ملاذ الدنيا؟ هل أذهب لملاقاة ربي في الصلاة بنشاط واجتهاد كما أذهب إلى مقابلة مديري في العمل؟ أو أذهب ذهاب الكسالى المتذمرين؟ هل أقيمها أم أنا من المؤدين؟ هل أتركها وأسهو عنها أم أنا من الملتزمين؟ هل أصلي صلاة المؤمنين؟ أم هي صلاة المنافقين؟

(١) انظر: جامع البيان، الطبري ١١/ ٤٩٩.
(٢) انظر: تفسير المراغي ١٠/ ١٣٧.
(٣) لطائف الإشارات ٢/ ٣٥.
(٤) في ظلال القرآن ٣/ ١٦٦٥.

الصلوات المذكورة في القرآن

خص الله تعالى بعض الصلوات بالذكر في القرآن الكريم، من تلك الصلوات ما يأتي:

أولًا: الصلوات الخمس:

الصلوات الخمس هن فرض الله تعالى على عباده، وعماد هذا الدين، وقد جاء في الصحيح (أن رجلا جاء إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم من أهل نجد ثائر الرأس، يسمع دوي صوته ولا يفقه ما يقول، حتى دنا، فإذا هو يسأل عن الإسلام، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: خمس صلوات في اليوم والليلة، فقال: هل علي غيرها؟ قال: لا، إلا أن تطوع، قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: وصيام رمضان قال: هل علي غيره؟ قال: لا، إلا أن تطوع، قال: وذكر له رسول الله صلى الله عليه وسلم الزكاة، قال: هل علي غيرها؟ قال: لا، إلا أن تطوع، قال: فأدبر الرجل وهو يقول: والله لا أزيد على هذا ولا أنقص، قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: أفلح إن صدق)[1].

وقد ذكرت الصلوات المفروضة في القرآن الكريم في أكثر من موضع، من ذلك قول المولى عز وجل: ﴿حَٰفِظُواْ عَلَى ٱلصَّلَوَٰتِ وَٱلصَّلَوٰةِ ٱلْوُسْطَىٰ وَقُومُواْ لِلَّهِ قَٰنِتِينَ ﴿٢٣٨﴾﴾ [البقرة:٢٣٨].

وفي الآية أمر بالمحافظة على إقامة تلك الصلوات، وقد ذكر الطبري أن المقصود بالصلاة الوسطى هي صلاة العصر[2]، وتخصيصها لأنها في وقت راحة الناس وقد يغفل عنها أو يسهو عن وقتها بعض الناس، أو لفضلها[3].

وقيل: هي صلاة الصبح؛ لأن القنوت المذكور في آخر الآية لا يكون إلا في صلاة الصبح[4]، أو هي صلاة الظهر، لكن الأظهر أنها صلاة العصر؛ لأن قبلها صلاتي نهار وبعدها صلاتي ليل؛ لذلك وصفت بالوسطى[5].

وقد نص القرآن الكريم على صلاة العشاء والفجر في قوله عز وجل: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لِيَسْتَـْٔذِنكُمُ ٱلَّذِينَ مَلَكَتْ أَيْمَٰنُكُمْ وَٱلَّذِينَ لَمْ يَبْلُغُواْ ٱلْحُلُمَ مِنكُمْ ثَلَٰثَ مَرَّٰتٍ مِّن قَبْلِ صَلَوٰةِ ٱلْفَجْرِ وَحِينَ تَضَعُونَ ثِيَابَكُم مِّنَ ٱلظَّهِيرَةِ وَمِنۢ بَعْدِ صَلَوٰةِ ٱلْعِشَآءِ ثَلَٰثُ عَوْرَٰتٍ لَّكُمْ﴾ [النور:٥٨].

وجاء الأمر بإقامة الصلاة لدلوك الشمس وغسق الليل والفجر في قوله تعالى: ﴿أَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ لِدُلُوكِ ٱلشَّمْسِ إِلَىٰ غَسَقِ ٱلَّيْلِ وَقُرْءَانَ ٱلْفَجْرِ إِنَّ قُرْءَانَ ٱلْفَجْرِ كَانَ مَشْهُودًا ﴿٧٨﴾﴾

---

(١) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب الإيمان، باب الزكاة من الإسلام ١/ ١٨، رقم ٤٦.

(٢) انظر: جامع البيان، الطبري ٥/ ١٦٩.
(٣) انظر: الكشف والبيان، الثعلبي ٢/ ١٩٤.
(٤) انظر: النكت والعيون، الماوردي ١/ ٣٠٩.
(٥) انظر: تفسير السمرقندي ١/ ١٥٦.

[الإسراء:٧٨].

وفي دلوك الشمس تأويلان:

الأول: أن دلوكها هو غروبها فتكون الصلاة المقصودة هي صلاة المغرب.

والثاني: زوالها فتكون المقصودة هي صلاة الظهر.

وفي غسق الليل تأويلان، أنها صلاة المغرب، أو صلاة العشاء[١].

ولا يلزم كثير من الترجيح في هذا الجانب؛ فالمؤمن يحافظ على جميع الصلوات، ويجتهد في استرضاء المولى عز وجل بإخلاص التوجه إليه في كل الفرائض، فكلها طاعة وبركة وبأدائها دون انتقاص يحصل الرضا والغفران ودخول الجنان.

ثانيًا: صلاة الجمعة:

ليوم الجمعة وصلاتها خصوصية وفضل عظيم، وقد أمر الله عباده بالامتناع عن البيع والشراء والانشغال بالدنيا إذا بدأت صلاة الجمعة وذلك حتى انتهائها.

قال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا نُودِيَ لِلصَّلَوٰةِ مِن يَوْمِ ٱلْجُمُعَةِ فَٱسْعَوْاْ إِلَىٰ ذِكْرِ ٱللَّهِ وَذَرُواْ ٱلْبَيْعَ ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ۝٩ فَإِذَا قُضِيَتِ ٱلصَّلَوٰةُ فَٱنتَشِرُواْ فِي ٱلْأَرْضِ وَٱبْتَغُواْ مِن فَضْلِ ٱللَّهِ وَٱذْكُرُواْ ٱللَّهَ كَثِيرًا لَّعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ۝١٠﴾ [الجمعة:٩-١٠].

وفي الآية نادى الله عباده بصفة الإيمان، لتحريك الإخلاص في قلوبهم، ولتحريضهم على المسارعة إلى صلاة الجمعة، إذ يلزم المؤمن القوي أن يكون مطيعا لما يأمره خالقه به، والنداء الوارد هو الأذان الخاص بصلاة الجمعة، والسعي المأمور به في الآية هو الاجتهاد في الذهاب إلى الصلاة دون إفراط في السرعة[٢]؛ لحديث النبي صلى الله عليه وسلم عن أبي قتادة، قال: (بينما نحن نصلي مع النبي صلى الله عليه وسلم إذ سمع جلبة رجال، فلما صلى قال: ما شأنكم؟ قالوا: استعجلنا إلى الصلاة؟ قال: فلا تفعلوا إذا أتيتم الصلاة فعليكم بالسكينة، فما أدركتم فصلوا وما فاتكم فأتموا)[٣].

وصلاة الجمعة هي الصلاة التي يجتمع فيها المسلمون كل أسبوع ليشهدوا خطبتها، ويستنيروا ببركتها، ولعظمتها ومكانتها أقسم بها المولى عز وجل في قوله تعالى: ﴿وَشَاهِدٍ وَمَشْهُودٍ ۝٣﴾ [البروج:٣].

فالشاهد -على الراجح- هو يوم الجمعة، والمشهود هو يوم عرفة[٤].

قال الشنقيطي: «ففي كل منهما نداء، وأذان الحج صلاة وسعي وإتيان وذكر لله،

---

(١) انظر: النكت والعيون، الماوردي ٣/ ٢٦٢-٢٦٣.

(٢) انظر: التفسير الوسيط، طنطاوي ١٤/ ٣٨٧.

(٣) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب الأذان، باب قول الرجل فاتتنا الصلاة ١/ ١٢٩، رقم ٦٣٥.

(٤) انظر: تفسير الشافعي ٣/ ١٤٣٤.

ثم انتشار وإفاضة مما يربط الجمعة بالحج في الشكل وإن اختلف الحجم، وفي الكيف وإن تفاوتت التفاصيل، وفي المباحث والأحكام كثرة وتنويع من متفق عليه ومختلف فيه، مما يجعل مباحث الجمعة لا تقل أهمية عن مباحث الحج، وتتطلب عناية بها كالعناية به»[1].

وقد أمر الله تعالى بترك البيع في وقت صلاة الجمعة، والبيع هو صفقة سريعة رابحة محببة إلى قلب البائع، وخص البيع دون الشراء؛ لأن البائع يبيع راغبًا منتظرًا للمال أما المشتري فقد يشتري وهو كاره، ومن السهل أن يؤجل الشراء، فالحق سبحانه حينما يأمرنا بترك البيع -على سرعة إتمامه غالبًا- فترك غيره من الأعمال أولى[2].

ثالثًا: صلاة الجماعة:

أمر القرآن الكريم بصلاة الجماعة في عدة مواضع، منها قول الله عز وجل: ﴿وَإِذَا كُنتَ فِيهِمْ فَأَقَمْتَ لَهُمُ ٱلصَّلَوٰةَ فَلْتَقُمْ طَآئِفَةٌ مِّنْهُم مَّعَكَ وَلْيَأْخُذُوٓا۟ أَسْلِحَتَهُمْ فَإِذَا سَجَدُوا۟ فَلْيَكُونُوا۟ مِن وَرَآئِكُمْ وَلْتَأْتِ طَآئِفَةٌ أُخْرَىٰ لَمْ يُصَلُّوا۟ فَلْيُصَلُّوا۟ مَعَكَ وَلْيَأْخُذُوا۟ حِذْرَهُمْ وَأَسْلِحَتَهُمْ﴾ [النساء:١٠٢].

فقد تحدثت الآية الكريمة عن صلاة الخوف، وتضمنت أمرا مباشرا بتأدية صلاة الجماعة مع النبي صلى الله عليه وسلم، فقد جاء الأمر له عليه السلام بالصلاة مع فئة من المجاهدين، بحيث يكون باقي الجيش في حراستهم، وبعد الانتهاء يأتي من كان في الحراسة للصلاة مع النبي صلى الله عليه وسلم، وذلك يعني أهمية صلاة الجماعة، ففي أمر الله بإقامة الجماعة في حال الخوف دليل على أن ذلك في حال الأمن أوجب[3].

وقد استدل بعض العلماء على وجوب صلاة الجماعة بقول المولى عز وجل: ﴿وَأَقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتُوا۟ ٱلزَّكَوٰةَ وَٱرْكَعُوا۟ مَعَ ٱلرَّٰكِعِينَ ۝٤٣﴾ [البقرة:٤٣].

فقد ذكرها ابن عثيمين في فوائد الآية، ولكنه أشار إلى أن الآية قد لا تدل على الجماعة؛ لأنها وردت في قوله تعالى: ﴿يَٰمَرْيَمُ ٱقْنُتِى لِرَبِّكِ وَٱسْجُدِى وَٱرْكَعِى مَعَ ٱلرَّٰكِعِينَ ۝٤٣﴾ [آل عمران:٤٣].

وصلاة الجماعة غير واجبة في حق المرأة[4].

ومما يدل على وجوب صلاة الجماعة ما جاء في الحديث عن أبي هريرة، قال: (أتى النبي صلى الله عليه وسلم رجل أعمى، فقال: يا رسول الله، إنه ليس لي قائد يقودني إلى المسجد، فسأل رسول الله صلى الله

(١) أضواء البيان ٨/ ١٢٠.
(٢) انظر: تفسير الشعراوي ١٤/ ٨٣٩٢.
(٣) انظر: الجامع لأحكام القرآن، القرطبي ٥/ ٣٦٥.
(٤) انظر: تفسير القرآن الكريم، ابن عثيمين، الفاتحة والبقرة ١/ ١٥٦.

عليه وسلم أن يرخص له، فيصلي في بيته، فرخص له، فلما ولى، دعاه، فقال: هل تسمع النداء بالصلاة؟ قال: نعم، قال: فأجب)[(١)]، وهذا شأن الأعمى، فما بالنا بالبصير!

رابعًا: الصلاة على الميت:

من الدلالات القرآنية على صلاة الميت قول المولى عز وجل: ﴿فَإِن رَّجَعَكَ ٱللَّهُ إِلَىٰ طَآئِفَةٖ مِّنۡهُمۡ فَٱسۡتَـٔۡذَنُوكَ لِلۡخُرُوجِ فَقُل لَّن تَخۡرُجُواْ مَعِيَ أَبَدٗا وَلَن تُقَٰتِلُواْ مَعِيَ عَدُوًّاۖ إِنَّكُمۡ رَضِيتُم بِٱلۡقُعُودِ أَوَّلَ مَرَّةٖ فَٱقۡعُدُواْ مَعَ ٱلۡخَٰلِفِينَ ۝٨٣ وَلَا تُصَلِّ عَلَىٰٓ أَحَدٖ مِّنۡهُم مَّاتَ أَبَدٗا وَلَا تَقُمۡ عَلَىٰ قَبۡرِهِۦٓۖ إِنَّهُمۡ كَفَرُواْ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَمَاتُواْ وَهُمۡ فَٰسِقُونَ ۝٨٤﴾ [التوبة:٨٣-٨٤].

فقد تحدثت الآيات الكريمة عن المنافقين الذين تخلفوا عن الخروج مع النبي صلى الله عليه وسلم للقتال، وأمر الله نبيه عليه السلام ألا يصلي على من مات منهم وألا يتولى وضعه في القبر أو تكفينه[(٢)]، وبمفهوم المخالفة هناك دلالة على لزوم الصلاة على المسلم، نحو قوله تعالى: ﴿كَلَّآ إِنَّهُمۡ عَن رَّبِّهِمۡ يَوۡمَئِذٖ لَّمَحۡجُوبُونَ ۝١٥﴾ [المطففين:١٥].

يعني: أن الكفار محجوبون، فدل على أن غير الكفار يرونه وهم المؤمنون، فذلك مثله، وقد وردت أدلة من السنة على صلاة الميت وأجمع عليها الأئمة.[(٣)].

وفي الحديث عن أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: (إذا صليتم على الميت فأخلصوا له الدعاء)[(٤)].

خامسًا: صلاة الخوف:

وردت صلاة الخوف في قول الله عز وجل: ﴿وَإِذَا كُنتَ فِيهِمۡ فَأَقَمۡتَ لَهُمُ ٱلصَّلَوٰةَ فَلۡتَقُمۡ طَآئِفَةٞ مِّنۡهُم مَّعَكَ وَلۡيَأۡخُذُوٓاْ أَسۡلِحَتَهُمۡۖ فَإِذَا سَجَدُواْ فَلۡيَكُونُواْ مِن وَرَآئِكُمۡ وَلۡتَأۡتِ طَآئِفَةٌ أُخۡرَىٰ لَمۡ يُصَلُّواْ فَلۡيُصَلُّواْ مَعَكَ وَلۡيَأۡخُذُواْ حِذۡرَهُمۡ وَأَسۡلِحَتَهُمۡۗ وَدَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَوۡ تَغۡفُلُونَ عَنۡ أَسۡلِحَتِكُمۡ وَأَمۡتِعَتِكُمۡ فَيَمِيلُونَ عَلَيۡكُم مَّيۡلَةٗ وَٰحِدَةٗۚ وَلَا جُنَاحَ عَلَيۡكُمۡ إِن كَانَ بِكُمۡ أَذٗى مِّن مَّطَرٍ أَوۡ كُنتُم مَّرۡضَىٰٓ أَن تَضَعُوٓاْ أَسۡلِحَتَكُمۡۖ وَخُذُواْ حِذۡرَكُمۡۗ إِنَّ ٱللَّهَ أَعَدَّ لِلۡكَٰفِرِينَ عَذَابٗا مُّهِينٗا ۝١٠٢﴾ [النساء:١٠٢].

ومعنى الآية: إذا كنت بحضرة العدو وحضرت الصلاة فلتقم فئة من المؤمنين للصلاة معك، وليأخذوا سلاحهم معهم، أو

---

(١) أخرجه مسلم في صحيحه، كتاب المساجد ومواضع الصلاة، باب يجب إتيان المسجد على من سمع النداء ١/ ٤٥٢، رقم ٦٥٣.
(٢) انظر: جامع البيان، الطبري ١٤/ ٤٠٥.
(٣) انظر: الجامع لأحكام القرآن، القرطبي ٨/ ٢٢١.
(٤) أخرجه أبو داود في سننه، كتاب الجنائز، باب الدعاء للميت ٣/ ٢١٠، رقم ٣١٩٩. وحسنه الألباني في صحيح الجامع، ١/ ٧٦، رقم ٦٦٩.

وليأخذ أسلحتهم من بقي بإزاء العدو، فإذا صلوا ركعة فلينصرفوا إلى موضع العدو، وليقفوا هناك ولتأت الفئة التي لم تصل، وكانوا بإزاء العدو فليصلوا معك ركعة أخرى، ولم يذكر في الآية لكل طائفة إلا ركعة واحدة ولكن ذكر في الخبر عن عبد الله بن عمر وغيره أن النبي صلى الله عليه وسلم حين صلى صلاة الخوف صلى بالطائفة الأولى ركعة، وبالطائفة الأخرى ركعة كما ذكر في الآية، ثم جاءت الطائفة الأولى وذهبت هذه الطائفة إلى موضع العدو، حتى قضت الطائفة الأولى الركعة الأخرى وسلموا، ثم جاءت الطائفة الأخرى، وقضوا الركعة الأولى وسلموا، حتى صارت لكل طائفة ركعتان، وهذا اختيار الجمهور في صلاة الخوف[(١)].

واختلف أهل العلم في الأمر بصلاة الخوف هل خص به النبي صلى الله عليه وسلم؟ على قولين: أحدهما: أنه خاص له وليس لغيره من أمته أن يصلي في الخوف كصلاته؛ لأن المشركين عزموا على الإيقاع بالمسلمين إذا اشتغلوا بصلاتهم، فاطلع الله نبيه على سرائرهم وأمره بالتحرز منهم، والقول الثاني: أن ذلك عام للنبي صلى الله عليه وسلم ولغيره من أمته إذا كان على مثل حاله في خوفه؛ لأن ذكر السبب الذي هو الخوف يوجب حمله عليه متى وجد كما فعل الصحابة بعده حين خافوا وهو قول الجمهور[(٢)].

سادسًا: صلاة السفر:

ذكرت صلاة السفر في مواضع عدة من القرآن الكريم، من ذلك قول المولى عز وجل: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَقۡرَبُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَأَنتُمۡ سُكَٰرَىٰ حَتَّىٰ تَعۡلَمُواْ مَا تَقُولُونَ وَلَا جُنُبًا إِلَّا عَابِرِي سَبِيلٍ حَتَّىٰ تَغۡتَسِلُواْۚ وَإِن كُنتُم مَّرۡضَىٰٓ أَوۡ عَلَىٰ سَفَرٍ أَوۡ جَآءَ أَحَدٞ مِّنكُم مِّنَ ٱلۡغَآئِطِ أَوۡ لَٰمَسۡتُمُ ٱلنِّسَآءَ فَلَمۡ تَجِدُواْ مَآءٗ فَتَيَمَّمُواْ صَعِيدٗا طَيِّبٗا فَٱمۡسَحُواْ بِوُجُوهِكُمۡ وَأَيۡدِيكُمۡۗ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَفُوًّا غَفُورًا ٤٣﴾ [النساء:٤٣].

وقوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا قُمۡتُمۡ إِلَى ٱلصَّلَوٰةِ فَٱغۡسِلُواْ وُجُوهَكُمۡ وَأَيۡدِيَكُمۡ إِلَى ٱلۡمَرَافِقِ وَٱمۡسَحُواْ بِرُءُوسِكُمۡ وَأَرۡجُلَكُمۡ إِلَى ٱلۡكَعۡبَيۡنِۚ وَإِن كُنتُمۡ جُنُبٗا فَٱطَّهَّرُواْۚ وَإِن كُنتُم مَّرۡضَىٰٓ أَوۡ عَلَىٰ سَفَرٍ أَوۡ جَآءَ أَحَدٞ مِّنكُم مِّنَ ٱلۡغَآئِطِ أَوۡ لَٰمَسۡتُمُ ٱلنِّسَآءَ فَلَمۡ تَجِدُواْ مَآءٗ فَتَيَمَّمُواْ صَعِيدٗا طَيِّبٗا فَٱمۡسَحُواْ بِوُجُوهِكُمۡ وَأَيۡدِيكُم مِّنۡهُۚ مَا يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيَجۡعَلَ عَلَيۡكُم مِّنۡ حَرَجٖ وَلَٰكِن يُرِيدُ لِيُطَهِّرَكُمۡ وَلِيُتِمَّ نِعۡمَتَهُۥ عَلَيۡكُمۡ لَعَلَّكُمۡ تَشۡكُرُونَ ٦﴾ [المائدة:٦].

والآيات فيها دلالة صريحة على وجوب

(١) انظر: تفسير السمرقندي ١/ ٣٣٣.

(٢) انظر: النكت والعيون، الماوردي ١/ ٥٢٤.

أداء الصلاة في حالة السفر، سواء توضأ بالماء حال وجوده، أو تيمم بالتراب، ولا يعفى من الصلاة أحد يعقل، وإنما يتاح للمسافر أن يقصر الصلاة تخفيفًا عنه؛ لأن السفر مظنة المشقة.

قال السرخسي: «والقصر في السفر في الظهر والعصر والعشاء؛ لأن القصر عبارة عن سقوط شطر الصلاة، وفي هذه الصلاة بعد سقوط الشطر تبقى صلاته كاملة بخلاف الفجر، فإن بعد سقوط الشطر منها لا يبقى إلا ركعة وهي لا تكون صلاة تامة، وكذلك في المغرب بعد سقوط شطر منها لا تبقى صلاة تامة؛ فلهذا لم يدخلها القصر، والسنن والتطوع لا يدخلها القصر»[1].

سابعًا: صلاة المريض:

أمر المولى عز وجل بإقامة الصلاة في حال المرض الذي لا يزول معه العقل، أما ما كان معه زوال العقل أو الإغماء فلا صلاة فيه، بدلالة قول النبي صلى الله عليه وسلم: (رفع القلم عن ثلاثة: عن النائم حتى يستيقظ، وعن المبتلى حتى يبرأ، وعن الصبي حتى يكبر)[2].

ودل على وجوب إقامة الصلاة للمريض قول الله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا قُمْتُمْ إِلَى ٱلصَّلَوٰةِ فَٱغْسِلُواْ وُجُوهَكُمْ وَأَيْدِيَكُمْ إِلَى ٱلْمَرَافِقِ وَٱمْسَحُواْ بِرُءُوسِكُمْ وَأَرْجُلَكُمْ إِلَى ٱلْكَعْبَيْنِ ۚ وَإِن كُنتُمْ جُنُبًا فَٱطَّهَّرُواْ ۚ وَإِن كُنتُم مَّرْضَىٰٓ أَوْ عَلَىٰ سَفَرٍ أَوْ جَآءَ أَحَدٌ مِّنكُم مِّنَ ٱلْغَآئِطِ أَوْ لَٰمَسْتُمُ ٱلنِّسَآءَ فَلَمْ تَجِدُواْ مَآءً فَتَيَمَّمُواْ صَعِيدًا طَيِّبًا﴾ [المائدة:٦].

وقد أجمع أهل العلم على أن من لا يستطيع القيام له أن يصلي جالسًا، فإن عجز عن الصلاة جالسًا فإنه يصلي على جنبه مستقبل القبلة بوجهه، والمستحب أن يكون على جنبه الأيمن، فإن عجز عن الصلاة على جنبه صلى مستلقيًا؛ لقوله صلى الله عليه وسلم لعمران بن حصين: (**صل قائما، فإن لم تستطع فقاعدا، فإن لم تستطع فعلى جنب**)[3].

ومن قدر على القيام وعجز عن الركوع أو السجود لم يسقط عنه القيام، بل يصلي قائمًا فيومئ بالركوع ثم يجلس ويومئ بالسجود؛ لقوله تعالى: ﴿فَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ مَا ٱسْتَطَعْتُمْ﴾ [التغابن:١٦].

ومن لم يقدر على الإيماء برأسه كفاه النية والقول، ولا تسقط عنه الصلاة ما دام عقله ثابتًا بأي حال من الأحوال، ومتى قدر

(١) المبسوط ١/ ٢٤٨.

(٢) أخرجه أبو داود في سننه، كتاب الحدود، باب في المجنون يسرق أو يصيب حدًا ٤/ ١٣٩، رقم ٤٣٩٨.
وصححه الألباني في صحيح الجامع، ١/ ٦٥٩، رقم ٣٥١٤.

(٣) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب الجمعة، باب إذا لم يطق قاعدا صلى على جنب ٢/ ٤٨، رقم ١١١٧.

المريض في أثناء الصلاة على ما كان عاجزًا عنه من قيام أو قعود أو ركوع أو سجود أو إيماء، انتقل إليه وبنى على ما مضى من صلاته، ولا يجوز ترك الصلاة بأي حال من الأحوال، بل يجب على المكلف أن يحرص على الصلاة أيام مرضه أكثر من حرصه عليها أيام صحته، فعليه أن يؤديها في وقتها حسب استطاعته، فإن شق عليه ذلك فليجمع، فإذا تركها عامدًا وهو عاقل عالم بالحكم الشرعي مكلف يقوى على أدائها ولو إيماءً فهو عالم، وقد ذهب جمع من أهل العلم إلى كفره بذلك؛ لقول النبي صلى الله عليه وسلم: **(إن بين الرجل وبين الشرك والكفر ترك الصلاة)**[1].

ثامنًا: صلاة الضحى:

أشار المولى تبارك وتعالى إلى صلاة الضحى في عدة آيات، لما لها من فضل عظيم، قال تعالى: ﴿إِنَّا سَخَّرْنَا الْجِبَالَ مَعَهُ يُسَبِّحْنَ بِالْعَشِيِّ وَالْإِشْرَاقِ ﴿١٨﴾﴾ [ص:١٨].

والمقصود بالآية هو نبي الله داوود عليه السلام حيث إن الله تعالى سخر الجبال يسبحن معه بالعشي، وذلك من وقت العصر إلى الليل، والإشراق وذلك بالغداة وقت الضحى[2].

وأخرج سعيد بن منصور عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: طلبت صلاة الضحى في القرآن فوجدتها ﴿بِالْعَشِيِّ وَالْإِشْرَاقِ﴾ [ص:١٨][3].

وقد ذكر الطبري في تفسيره أن الموعودين بالمغفرة في قوله عز وجل: ﴿فَإِنَّهُ كَانَ لِلْأَوَّابِينَ غَفُورًا﴾ [الإسراء:٢٥].

هم التائبون أو من يصلون الضحى، فهم الأوابون[4].

وصلاة الضحى سنة مؤكدة عن النبي صلى الله عليه وسلم، بين فضلها في قوله عليه السلام: **(يصبح على كل سلامى من أحدكم صدقة، فكل تسبيحة صدقة، وكل تحميدة صدقة، وكل تهليلة صدقة، وكل تكبيرة صدقة، وأمر بالمعروف صدقة، ونهي عن المنكر صدقة، ويجزئ من ذلك ركعتان يركعهما من الضحى)**[5].

وقد وصانا بها كما جاء في الحديث عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: **(أوصاني خليلي بثلاث لا أدعهن حتى أموت: صوم ثلاثة أيام من كل شهر، وصلاة الضحى،**

---

(١) أخرجه مسلم في صحيحه، كتاب الإيمان، باب بيان إطلاق اسم الكفر على من ترك الصلاة ١/ ٨٨، رقم ٨٢.

(٢) انظر: جامع البيان، الطبري ٢٠/ ٤٣.
(٣) انظر: الدر المنثور، السيوطي ٧/ ١٥١.
(٤) انظر: جامع البيان ١٧/ ٤٢٣.
(٥) أخرجه مسلم في صحيحه، كتاب صلاة المسافرين وقصرها، باب استحباب صلاة الضحى ١/ ٤٩٨، رقم ٧٢٠.

ونوم على وتر)[1].

تاسعًا: الركعتان بعد المغرب:

ذكرت ركعتا المغرب في قول المولى عز وجل: ﴿فَٱصْبِرْ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ قَبْلَ طُلُوعِ ٱلشَّمْسِ وَقَبْلَ ٱلْغُرُوبِ ۝٣٩ وَمِنَ ٱلَّيْلِ فَسَبِّحْهُ وَأَدْبَٰرَ ٱلسُّجُودِ ۝٤٠﴾ [ق:٣٩-٤٠].

قال مقاتل: «﴿وَأَدْبَٰرَ ٱلسُّجُودِ﴾ [ق:٤٠]. يعني: الركعتين بعد صلاة المغرب، وقتهما ما لم يغب الشفق»[2]، وقد قال بذلك كثير من المفسرين[3].

وفي الوقت بعد صلاة المغرب إلى العشاء بركة كبيرة يجب أن يستغلها الإنسان في الطاعات وصلة الأرحام والجلوس في حلقات الذكر وتحفيظ القرآن الكريم والاجتماع بالأسرة وتذكر الله تعالى وتسبيحه إتباعا لأمر الله تعالى وطمعًا في تحصيل مثوبته عز وجل.

عاشرًا: ركعتا الطواف:

ورد ذكر ركعتي الطواف في قول المولى عز وجل: ﴿وَإِذْ جَعَلْنَا ٱلْبَيْتَ مَثَابَةً لِّلنَّاسِ وَأَمْنًا وَٱتَّخِذُوا۟ مِن مَّقَامِ إِبْرَٰهِـۧمَ مُصَلًّى﴾ [البقرة:١٢٥].

والمعنى: اتخذوا من مقام إبراهيم مكانًا تصلون فيه بعد طوافكم[4].

قال ابن عاشور: «اتخاذ مقام إبراهيم مصلى كان من عهد إبراهيم عليه السلام ولما جاء الإسلام بقي الأمر على ذلك إلى أن كان عام حجة الوداع أو عام الفتح دخل رسول الله صلى الله عليه وسلم المسجد الحرام ومعه عمر بن الخطاب ثم سنت الصلاة عند المقام في طواف القدوم»[5].

«وجمهور أهل العلم على أن ركعتي الطواف لا يشترط في صحة صلاتهما أن تكون خلف المقام، بل لو صلاهما في أي موضع غيره صح ذلك»[6]، قال ابن عادل: «وليس للصلاة تعلق بالحرم، ولا بسائر المواضع إلا بهذا الموضع»[7].

الحادي عشر: صلاة العيد:

جاء ذكر صلاة العيد في قول الله عز وجل: ﴿فَصَلِّ لِرَبِّكَ وَٱنْحَرْ ۝٢﴾ [الكوثر:٢].

فالصلاة المذكورة قبل النحر كما قال قتادة: «هي صلاة الأضحى»[8].

فقد كان النبي صلى الله عليه وسلم ينحر

---

(١) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب الجمعة، باب صلاة الضحى في الحضر ٢/ ٥٨، رقم ١١٧٨.
(٢) تفسير مقاتل بن سليمان ٤/ ١١٦.
(٣) انظر: جامع البيان، الطبري ٢٢/ ٣٧٧، الجامع لأحكام القرآن، القرطبي ١٧/ ٢٥، التفسير الوجيز، الواحدي ١/ ١٠٢٥.
(٤) انظر: لباب التأويل، الخازن ١/ ٧٨.
(٥) التحرير والتنوير ١/ ٧١١.
(٦) أضواء البيان، الشنقيطي ٤/ ٤١٠.
(٧) اللباب في علوم الكتاب ٢/ ٤٦٤.
(٨) تفسير عبد الرزاق الصنعاني ٣/ ٤٦٦.

يوم الأضحى قبل الصلاة، فأمره الله تعالى أن ينحر بعدها[1]، وهذا جمع عظيم بين العبادة البدنية القلبية والعبادة المالية[2].

وصلاة العيد سنة مؤكدة عن النبي صلى الله عليه وسلم يخرج لها الصغير والكبير والمرأة والرجل، وفي الحديث أن النبي صلى الله عليه وسلم قال: (**لتخرج العواتق ذوات الخدور - أو العواتق وذوات الخدور -، والحُيَّض فيشهدن الخير ودعوة المسلمين، ويعتزل الحُيَّض المصلى**)[3].

ولصلاة العيد ونحره خصوصية عظيمة؛ فقد ذكرا بعد ذكر الله تعالى لنهر الكوثر الذي أعده الله للمؤمنين، وقد من الله تعالى بفضله ثم أمر بالصلاة والنحر، تحفيزًا وحثًا لهم على الطاعة.

قال الرازي: «قال أولا: إنا أعطيناك، ثم قال ثانيا: فصل لربك وانحر، وهذا يدل على أن إعطاءه للتوفيق والإرشاد سابق على طاعاتنا، وكيف لا يكون كذلك وإعطاؤه إيانا صفته وطاعتنا له صفتنا، وصفة الخلق لا تكون مؤثرة في صفة الخالق إنما المؤثر هو صفة الخالق في صفة الخلق»[4].

وفي قوله تعالى: ﴿لِرَبِّكَ﴾ [الكوثر:٢] تأكيدٌ وتنبيهٌ على ضرورة إخلاص الصلاة لله تعالى، وكذلك النحر وسائر العمل، وأمر لذوي الألباب بالبعد عن الرياء والتصنع والتظاهر، فهو وحده عز وجل العالم بما في قلوب عباده المجازي لهم بما يستحقون.

---

(١) انظر: الهداية إلى بلوغ النهاية، مكي بن أبي طالب ١٢/ ٨٤٦٩.

(٢) انظر: لطائف الإشارات، القشيري ٣/ ٧٧٥.

(٣) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب الحج، باب تقضي الحائض المناسك كلها إلا الطواف بالبيت ٢/ ١٦٠، رقم ١٦٥٢.

(٤) مفاتيح الغيب ٣٢/ ٣١٢.

فوائد الصلاة

الصلاة هي عمود الدين؛ لذلك أمر الله تعالى في كثير من المواضع بإقامتها، فمن ذلك قوله جل وعلا: ﴿حَٰفِظُواْ عَلَى ٱلصَّلَوَٰتِ وَٱلصَّلَوٰةِ ٱلْوُسْطَىٰ وَقُومُواْ لِلَّهِ قَٰنِتِينَ ٢٣٨﴾ [البقرة:٢٣٨].

وفي الحديث عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه سئل: (أي العمل أحب إلى الله؟ قال: الصلاة على وقتها، قال: ثم أي؟ قال: ثم بر الوالدين، قال: ثم أي؟ قال: الجهاد في سبيل الله)[١].

وقد أمرنا بالصلاة طاعة لله تعالى وانقيادًا لأوامره، ثم تهذيبًا لنفوسنا وراحة لأبداننا، وقد أقول: إن لم يكن من وراء الصلاة منفعة بشرية غير تكميل أركان الإسلام العظيم لكفتنا للامتثال والمحافظة عليها. ولعل مما نعرف من فوائد الصلاة ما يأتي:

١ . الراحة والطمأنينة.

راحة نفسية روحية: يقول المولى عز وجل: ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَتَطْمَئِنُّ قُلُوبُهُم بِذِكْرِ ٱللَّهِ أَلَا بِذِكْرِ ٱللَّهِ تَطْمَئِنُّ ٱلْقُلُوبُ ٢٨﴾ [الرعد:٢٨].

وكان صلى الله عليه وسلم إذا حز به أمر فزع إلى الصلاة متضرعًا إلى المولى تبارك وتعالى، وفي الحديث عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال: (يا بلال أقم الصلاة أرحنا بها)[٢].

والإنسان بفطرته يحتاج لإله يلوذ إليه ويتضرع إليه، وهذا ما يتحقق في الصلاة فيجلب لصاحبه الراحة والسكينة ويصرف عنه التوتر والقلق والتعب النفسي، والعلاقة الوثيقة بالمولى تعالى أثناء الصلاة والمناجاة تمنح الإنسان طاقة قوية وثقةً بالسند الرباني العظيم، فيقوى توكله على الله تعالى وكيل المؤمنين في هذه الدنيا، ويستشعر عزة وقوة تتأتى باجتماع المسلمين على إمام واحد في الصلاة، يتساوى بعضهم مع بعض في مناجاة الملك لا فرق بين الغني والفقير ولا القوي والضعيف، ولا يخفى ما في الصلاة من تربية للنفس وتعويد على الصبر والالتزام، قال تعالى: ﴿وَأْمُرْ أَهْلَكَ بِٱلصَّلَوٰةِ وَٱصْطَبِرْ عَلَيْهَا﴾ [طه:١٣٢].

هذا الصبر الذي يكسب المسلم معية الله عز وجل وثوابه للصابرين، قال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱسْتَعِينُواْ بِٱلصَّبْرِ وَٱلصَّلَوٰةِ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلصَّٰبِرِينَ ١٥٣﴾ [البقرة:١٥٣].

راحة بدنية صحية: في حركات الصلاة والوضوء فائدة صحية عظيمة أثبتتها كثير من الدراسات الطبية، من تلك الفوائد:

- الصلاة هي رياضة جسمية وعقلية بسيطة وخفيفة لا تتعب الجسم ولا العضلات ولا القلب ولا تضر بأعضاء البدن، بل على العكس فهي تنشط الجسم فتنشط

---

(١) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب مواقيت الصلاة، باب فضل الصلاة لوقتها ١/ ١١٢، رقم ٥٢٧.

(٢) أخرجه أبو داود في سننه، كتاب الأدب، باب في صلاة العتمة ٤/ ٢٩٦، رقم ٤٩٨٥. وصححه الألباني في صحيح الجامع، ٢/ ١٣٠٧، رقم ٧٨٩٢.

الجسم وتخلص الشخص من الخمول والكسل والإرهاق، والجميع يستطيع أن يؤديها مهما كان سنه وحاله.

- من فوائد الصلاة العظيمة أن الله جعل فيها الركوع والسجود اللذان يعملان على تقوية الاوعية الدموية وتنشيط الدورة الدموية ويريحان القلب ويحسنان من التروية الدماغية للمخ مما يقلل من نوبات الصداع ويجعلان الجسم يقوم بوظائفه على أكمل وجه وبالتالي، فإن الدم يصل إلى جميع أعضاء الجسم وخاصة المخ.
- تساعد الصلاة على تمرين المفاصل والعضلات، وتحمي المصلي من مرض دوالي الساقين، وتحمي الجسم من الترهلات وتقوي عضلات البطن وتزيد حركة الأمعاء مما يمنع حالات الإمساك وتقوي إفراز المرارة، والمشي إلى المسجد يقي الجسم من أمراض القلب والسمنة ويقوي العمود الفقري.
- عند الاستيقاظ لصلاة الفجر يكون غاز الأوزون في أعلى نسبة له في الجو وهو المنشط للجهاز العصبي وللأعمال العضلية والذهنية، والأوزون يعالج تليف الكبد والرئة، ويعالج أمراض الكبد الوبائية وتصلب الأوعية الدموية وانسداد الشرايين، ويعالج الربو والحساسية.
- الطهارة للصلاة تقاوم الكثير من الامراض كأمراض الأذن والتهاب اللوزتين والأمراض الجلدية، والاستنشاق في الأنف يطهر الانف من الميكروبات، والمسواك يطهر الفم والأسنان.

٢. تكفير الخطايا وتطهير الذنوب.

- الصلاة تنهى عن الفحشاء والمنكر، وهي المعين على فعل الخير، قال تعالى: ﴿وَأَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَۖ إِنَّ ٱلصَّلَوٰةَ تَنۡهَىٰ عَنِ ٱلۡفَحۡشَآءِ وَٱلۡمُنكَرِۗ﴾ [العنكبوت:٤٥]. والمعنى أن الصلوات الخمس هي التي تكفر ما بينها من الذنوب، قال ابن فورك: «وذلك أن فيها التكبير، والتسبيح والقراءة، وصنوف العبادة، وكل ذلك يدعو إلى شكله، ويصرف عن ضده»[(١)].
- الصلاة تكفر الذنوب والآثام، وفي الحديث كما جاء عن أبي هريرة، أنه سمع رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول: **(أرأيتم لو أن نهرًا بباب أحدكم يغتسل فيه كل يوم خمسًا، ما تقول: ذلك يبقي من درنه، قالوا: لا يبقي من درنه شيئًا، قال: فذلك مثل الصلوات الخمس، يمحو الله به الخطايا)**[(٢)].

---

(١) تفسير ابن فورك ١/ ٣٩٦.

(٢) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب مواقيت

٣. تحصيل الثواب الجزيل من الله تعالى.

بالصلاة يتحقق الفلاح في الدنيا والآخرة، وقد ذكر الله تعالى الخشوع في الصلاة كأول صفة من صفات المؤمنين الفالحين.

قال تعالى: ﴿قَدْ أَفْلَحَ ٱلْمُؤْمِنُونَ ۝١ ٱلَّذِينَ هُمْ فِى صَلَاتِهِمْ خَٰشِعُونَ ۝٢﴾ [المؤمنون:١-٢].

والمفلحون «هم الذين أدركوا البغية ووجدوا النعيم المقيم»[(١)].

والصلاة نور في القلب والوجه، ولصلاة الجماعة خصوصًا أجرٌ عظيم، وفي الحديث عن أبي هريرة، عن النبي صلى الله عليه وسلم قال: (صلاة الجميع تزيد على صلاته في بيته، وصلاته في سوقه، خمسًا وعشرين درجةً، فإن أحدكم إذا توضأ فأحسن، وأتى المسجد، لا يريد إلا الصلاة، لم يخط خطوةً إلا رفعه الله بها درجةً، وحط عنه خطيئةً، حتى يدخل المسجد، وإذا دخل المسجد، كان في صلاةٍ ما كانت تحبسه، وتصلي -يعني عليه الملائكة - ما دام في مجلسه الذي يصلي فيه: اللهم اغفر له، اللهم ارحمه، ما لم يحدث فيه)[(٢)].

والتزام المساجد خير كبير، والمحافظة على الصلوات الخمس في أوقاتها يكسب المسلم معية الله عز وجل وثوابه للصابرين، قال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا ٱسْتَعِينُوا بِٱلصَّبْرِ وَٱلصَّلَوٰةِ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلصَّٰبِرِينَ ۝١٥٣﴾ [البقرة:١٥٣].

فالصلاة سبب لسعادة الدنيا والآخرة ونجاة من شقاء الدنيا والآخرة.

موضوعات ذات صلة

الحج، الركوع، الزكاة، السجود، الصبر، الصيام، الطهارة، العبادة، المسجد

الصلاة، باب الصلوات الخمس كفارة ١/ ١١٢، رقم ٥٢٨.

(١) التفسير الوسيط، الواحدي ١/ ٨٣.
(٢) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب الصلاة، باب الصلاة في مسجد السوق ١/ ١٠٣، رقم ٤٧٧.



عناصر الموضوع

مفهوم الصلاح

أولًا: المعنى اللغوي:

الصلاح لغة: ضد الفساد، يقال: أصلح الشيء بعد فساده، أي: أقامه، وأصلح الدابة، إذا أحسن إليها[1]. قال ابن فارس: «صلح» الصاد واللام والحاء أصل واحد يدل على خلاف الفساد، يقال: صلح الشيء يصلح صلاحًا»[2].

والصلاح والفساد، يختصان في أكثر الاستعمال بالأفعال، وقوبل الصلاح في القرآن تارة بالفساد، وأخرى بالسوء[3].

وقال ابن سيده: «الصلاح ضد الطلاح، صلح يصلح ويصلح صلاحًا وصلوحًا، فهو صالح وصليح، والجمع صلحاء، وصلوح، والصالح هو: الذي يؤدي إلى الله عز وجل ما افترض عليه، ويؤدي إلى الناس حقوقهم، أي القائم بما عليه من حقوق الله وحقوق العباد[4]، وقيل الصالح: المستقيم الحال في نفسه»[5].

والمصلح هو: المقيم على الإيمان المؤدي فرائضه اعتقادًا وعملًا[6].

ثانيا: المعنى الاصطلاحي:

ذكر المفسرون عدة تعريفات للصلاح منها ما يأتي:

أولًا: الصلاح عند الإمام أبي جعفر الطبري: لفظ عام يشمل الصلاح في استواء الخلق، والصلاح في الدين، والصلاح في العقل والتدبير[7].

ثانيًا: عرف السمعاني الصلاح بقوله: «الصلاح هو الاستقامة على ما توجبه الشريعة»[8].

ثالثًا: عرفه الزمخشري بقوله: «هو الحصول على الحالة المستقيمة النافعة»[9].

---

(١) انظر: لسان العرب، ابن منظور ٢/ ٥١٦، تاج العروس، الزبيدي ٦/ ٥٤٧.
(٢) مقاييس اللغة ٣/ ٣٠٣.
(٣) انظر: التوقيف على مهمات التعاريف، المناوي ص٢١٨.
(٤) المحكم والمحيط الأعظم ٣/ ١٥٢.
(٥) انظر: الكليات، الكفوي ص ٥٦١.
(٦) انظر: المحكم والمحيط الأعظم، ابن سيده ٣/ ١٥٢.
(٧) جامع البيان ١٣/ ٣٠٨.
(٨) تفسير السمعاني ٣/ ٤٧٨.
(٩) الكشاف ١/ ٦٢.



الصلاح في الاستعمال القرآني

وردت مادة «صلح» في القرآن الكريم (١٨٠) مرة، يخص موضوع البحث منها (١٦٨) مرة[1].

والصيغ التي وردت، هي:

الصيغة	عدد المرات	المثال
الفعل الماضي	٢	﴿جَنَّٰتُ عَدْنٍ يَدْخُلُونَهَا وَمَن صَلَحَ مِنْ ءَابَآئِهِمْ﴾ [الرعد:٢٣]
اسم الفاعل	١٣٦	﴿مَّنْ عَمِلَ صَٰلِحًا فَلِنَفْسِهِۦ ۖ وَمَنْ أَسَآءَ فَعَلَيْهَا﴾ [فصلت:٤٦]

وجاء الصلاح في الاستعمال القرآني على أربعة أوجه[2]:

الأول: الإيمان: ومنه قوله تعالى: ﴿وَمَن صَلَحَ مِنْ ءَابَآئِهِمْ﴾ [الرعد:٢٣] يعني: ومن آمن من آبائهم.

الثاني: حسن المنزلة: ومنه قوله تعالى: ﴿وَتَكُونُوا۟ مِنۢ بَعْدِهِۦ قَوْمًا صَٰلِحِينَ﴾ [يوسف:٩] يعني: تحسن منزلتكم عند أبيكم.

الثالث: تسوية الخلق: ومنه قوله تعالى: ﴿فَلَمَّآ أَثْقَلَت دَّعَوَا ٱللَّهَ رَبَّهُمَا لَئِنْ ءَاتَيْتَنَا صَٰلِحًا لَّنَكُونَنَّ مِنَ ٱلشَّٰكِرِينَ ﴿١٨٩﴾ فَلَمَّآ ءَاتَىٰهُمَا صَٰلِحًا﴾ [الأعراف:١٨٩-١٩٠] يعني: سوي الخلق في صورة الإنس.

الرابع: الطاعة: ومنه قوله تعالى: ﴿إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ﴾ [الشعراء:٢٢٧] يعني: الطاعات التي أطاعوا الله عز وجل.

---

(١) انظر: المعجم المفهرس الشامل لألفاظ القرآن الكريم، عبد الله جلغوم، باب الصاد، ص٦٩٩-٧٠٣.

(٢) انظر: الوجوه والنظائر، الدامغاني، ص٢٩٩-٣٠٠، نزهة الأعين النواظر في علم الوجوه والنظائر، ابن الجوزي، ص٣٩٧-٣٩٨.

الألفاظ ذات الصلة

١ الإصلاح:

الإصلاح في اللغة:

خلاف الإفساد[(١)].

الإصلاح اصطلاحًا:

التغيير إلى استقامة الحال[(٢)].

وقيل: هو «إرجاع الشيء إلى حالة اعتداله بإزالة ما طرأ عليه من الفساد»[(٣)].

الصلة بين الصلاح والإصلاح:

أن الصلاح قاصر على الشخص نفسه، والإصلاح متعدي إلى الغير، بحيث يشمل إصلاح العقائد عن طريق إرشاد الخلق إلى حقائق المبدأ والمعاد وما بينهما تحت عنوان الإيمان بالله تعالى وملائكته ورسله واليوم الآخر، وإصلاح العبادات عن طريق إرشاد الخلق إلى ما يزكي النفوس ويغذي الأرواح ويقوم الإرادة ويفيد الفرد والمجموع منها، وإصلاح الأخلاق عن طريق إرشاد الخلق إلى فضائلهم وتنفيرهم من رذائلها في قصد واعتدال وعند حد وسط لا إفراط فيه ولا تفريط[(٤)].

(١) انظر: تهذيب اللغة، الأزهري ٤/ ١٤٢.
(٢) انظر: التبيان في تفسير غريب القرآن، ابن الهائم ص٥١.
(٣) القاموس الفقهي، سعدي أبو جيب ص٢١٥.
(٤) انظر: مناهل العرفان، الزرقاني ٢/ ٣٥١.



٢ الصلح:

الصلح لغة:

الصلح بالضم هو السلم-بكسر السين وفتحها-من تصالح القوم بينهما، والصلح أيضًا:اسم جماعةٍ متصالحين، يقال:هم لنا صلحٌ:أي مصالحون[١].

الصلح اصطلاحًا:

عبارة عن عقد وضع لرفع المنازعة بالتراضي[٢].

الصلة بين الصلاح والصلح:

أن الصلح سبب للصلاح والاستقامة؛ لأن القيام بالصلح بين الناس من أخلاق الصالحين.

٣ الفساد:

الفساد لغة هو:

خروج الشيء عن الاعتدال، قليلًا كان الخروج عنه أو كثيرًا، ويضاده الصلاح، ويستعمل ذلك في النفس والبدن والأشياء الخارجة عن الاستقامة[٣].

الفساد اصطلاحًا:

كلمة عامة تتناول كل ما هو خلاف الصلاح من المعاصي والهلاك قحط المطر وقلة النبات القتل السحر وغيرها[٤].

الصلة بين الصلاح والفساد:

أن الفساد ضد الصلاح ونقيضه.

(١) انظر: تاج العروس، الزبيدي ٦/ ٥٤٨.
(٢) انظر: أنيس الفقهاء، القونوي ص٩١.
(٣) انظر: المفردات، الراغب ص٦٣٦، لسان العرب، ابن منظور ٣/ ٣٣٥.
(٤) انظر: تفسير يحيى بن سلام ص ١١٥.

أنواع الصلاح

الصلاح في القرآن الكريم يأتي على نوعين هما:

أولًا: صلاح الخلق:

وصلاح الخلق على قسمين:

١ . الصلاح المادي.

وهو استواء الخلق والعقل كما قال تعالى: ﴿ ۞ هُوَ الَّذِي خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَاحِدَةٍ وَجَعَلَ مِنْهَا زَوْجَهَا لِيَسْكُنَ إِلَيْهَا فَلَمَّا تَغَشَّاهَا حَمَلَتْ حَمْلًا خَفِيفًا فَمَرَّتْ بِهِ فَلَمَّا أَثْقَلَت دَّعَوَا اللَّهَ رَبَّهُمَا لَئِنْ آتَيْتَنَا صَالِحًا لَّنَكُونَنَّ مِنَ الشَّاكِرِينَ ﴿١٨٩﴾ فَلَمَّا آتَاهُمَا صَالِحًا جَعَلَا لَهُ شُرَكَاءَ فِيمَا آتَاهُمَا فَتَعَالَى اللَّهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿١٩٠﴾ ﴾ [الأعراف:١٨٩-١٩٠].

قال أبو جعفر الطبري: « ﴿دَّعَوَا اللَّهَ رَبَّهُمَا﴾، يقول: نادى آدم وحواء ربهما وقالا يا ربنا: ﴿لَئِنْ آتَيْتَنَا صَالِحًا لَّنَكُونَنَّ مِنَ الشَّاكِرِينَ﴾، واختلف أهل التأويل في معنى الصلاح الذي أقسم آدم وحواء عليهما السلام أنه إن آتاهما صالحًا في حمل حواء: ﴿لَّنَكُونَنَّ مِنَ الشَّاكِرِينَ﴾، فقال بعضهم: ذلك هو أن يكون الحمل غلامًا، وقال آخرون: بل هو أن يكون المولود بشرًا سويًا مثلهما، ولا يكون بهيمة، فقد أشفقا أن لا يكون إنسانًا».

ثم قال أبو جعفر: «والصواب من القول في ذلك أن يقال: إن الله أخبر عن آدم وحواء أنهما دعوا الله ربهما بحمل حواء، وأقسما لئن أعطاهما ما في بطن حواء، صالحًا ليكونان لله من الشاكرين»[1].

وفي هذه الآية اختلف المفسرون في مرجع الضمير في قوله تعالى: ﴿جَعَلَا لَهُ شُرَكَاءَ﴾هل يعود إلى آدم وحواء، أم يعود إلى غيرهما، على أقوال، والراجح أن الضمير يرجع إلى ذرية بني آدم، ممن جاء بعده جعلا لله شركاء من الآلهة والأوثان حين رزقهما ما رزقهما من الولد[2].

قال الإمام الرازي: « قال الإمام القفال: إنه تعالى ذكر هذه القصة على تمثيل ضرب المثل وبيان أن هذه الحالة صورة حالة هؤلاء المشركين في جهلهم، وقولهم بالشرك، وتقرير هذا الكلام كأنه تعالى يقول: هو الذي خلق كل واحد منكم من نفس واحدة وجعل من جنسها زوجها إنسانا يساويه في الإنسانية، فلما تغشى الزوج زوجته وظهر الحمل، دعا الزوج والزوجة ربهما لئن آتيتنا ولدا صالحا سويا لنكونن من الشاكرين لآلائك ونعمائك. فلما آتاهما الله ولدا صالحا سويا، جعل الزوج والزوجة لله شركاء فيما آتاهما، لأنهم تارة

(١) جامع البيان ١٣/ ٣٠٦.
(٢) انظر: جامع البيان، الطبري ١٣/ ٣١٤.

ينسبون ذلك الولد إلى الطبائع كما هو قول الطبائعيين، وتارة إلى الكواكب كما هو قول المنجمين، وتارة إلى الأصنام والأوثان كما هو قول عبدة الأصنام، ثم قال تعالى: ﴿فَتَعَٰلَى ٱللَّهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ أي: تنزه الله عن ذلك الشرك، وهذا جواب في غاية الصحة والسداد»[1].

ومن الصلاح المادي في القرآن ما ورد في قوله تعالى: ﴿وَزَكَرِيَّآ إِذْ نَادَىٰ رَبَّهُۥ رَبِّ لَا تَذَرْنِى فَرْدًا وَأَنتَ خَيْرُ ٱلْوَٰرِثِينَ ﴿٨٩﴾ فَٱسْتَجَبْنَا لَهُۥ وَوَهَبْنَا لَهُۥ يَحْيَىٰ وَأَصْلَحْنَا لَهُۥ زَوْجَهُۥٓ إِنَّهُمْ كَانُوا۟ يُسَٰرِعُونَ فِى ٱلْخَيْرَٰتِ وَيَدْعُونَنَا رَغَبًا وَرَهَبًا وَكَانُوا۟ لَنَا خَٰشِعِينَ ﴿٩٠﴾﴾ [الأنبياء:٨٩-٩٠].

﴿وَأَصْلَحْنَا لَهُۥ زَوْجَهُۥٓ﴾ جعلناها صالحة للولادة بعد العقار أي: بعد عقرها، أو حسنة وكانت سيئة الخلق[2].

«قال قتادة وسعيد بن جبير وأكثر المفسرين: إنها كانت عاقرًا فجعلت ولودًا، وقال ابن عباس وعطاء: كانت سيئة الخلق، طويلة اللسان، فأصلحها الله تعالى فجعلها حسنة الخلق. قلت: ويحتمل أن تكون جمعت المعنيين فجعلت حسنة الخلق ولودا»[3].

وعموم اللفظ يتناول جميع الإصلاح[4].

قال الراغب الأصفهاني: «وإصلاح الله تعالى الإنسان يكون تارة بخلقه إياه صالحًا، وتارة بإزالة ما فيه من فساد بعد وجوده، وتارة يكون بالحكم له بالصلاح، قال تعالى: ﴿وَأَصْلَحَ بَالَهُمْ﴾ [محمد:٢].

قال تعالى: ﴿يُصْلِحْ لَكُمْ أَعْمَٰلَكُمْ﴾ [الأحزاب:٧١].

وقال تعالى: ﴿وَأَصْلِحْ لِى فِى ذُرِّيَّتِىٓ﴾ [الأحقاف:١٥] قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُصْلِحُ عَمَلَ ٱلْمُفْسِدِينَ﴾ [يونس:٨١].

أي: المفسد يضاد الله في فعله، فإنه يفسد والله تعالى يتحرى في جميع أفعاله الصلاح، فهو إذا لا يصلح عمله»[5].

٢ . الصلاح المعنوي.

والمراد به الإيمان والاستقامة على الدين، وهذا الصلاح قد يكون في جماعات وأمم، وقد يكون في أفراد، على ما يأتي:

الأول: فمن الصلاح المعنوي الذي يكون في جماعات وأمم، قوله تعالى في بني إسرائيل: ﴿وَقَطَّعْنَٰهُمْ فِى ٱلْأَرْضِ أُمَمًا ۖ مِّنْهُمُ ٱلصَّٰلِحُونَ وَمِنْهُمْ دُونَ ذَٰلِكَ ۖ وَبَلَوْنَٰهُم بِٱلْحَسَنَٰتِ وَٱلسَّيِّـَٔاتِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴿١٦٨﴾﴾ [الأعراف:١٦٨].

---

(١) مفاتيح الغيب ١٥/ ٤٢٧.

(٢) انظر: مدارك التنزيل، النسفي ٢/ ٤١٨.

(٣) انظر: الجامع لأحكام القرآن، القرطبي ١١/ ٣٣٦.

(٤) انظر: الجواهر الحسان، الثعالبي ٤/ ٩٩.

(٥) المفردات ص٤٨٩.

أي: فرقًا متباينين في أقطار الأرض فقل أرض لا يكون منهم فيها شرذمة، وهذا حالهم في كل مكان تحت الصغار والذلة سواء كان أهل تلك الأرض مسلمين أم كفارًا ومنهم منحطون عن الصالحين وهم الكفرة، وذلك إشارة إلى الصلاح أي ومنهم قوم دون أهل الصلاح؛ لأنه لا يعتدل التقسيم إلا على هذا التقدير(١).

«يذكر تعالى أنه فرق بني إسرائيل في الأرض أممًا أي طوائف وفرقًا كما قال: ﴿وَقُلْنَا مِنۢ بَعْدِهِۦ لِبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ٱسْكُنُوا۟ ٱلْأَرْضَ فَإِذَا جَآءَ وَعْدُ ٱلْـَٔاخِرَةِ جِئْنَا بِكُمْ لَفِيفًا ﴿١٠٤﴾﴾ [الإسراء:١٠٤].

منهم الصالحون ومنهم دون ذلك أي فيهم الصالح وغير ذلك»(٢)، وجعل كل فرقة منهم في قطر من أقطارها، بحث لا تخلو ناحية منها، منهم، تكملة لإدبارهم، حتى لا تكون لهم شوكة منهم الصالحون ومنهم دون ذلك، أي من ينحط عن درجة الصلاح، لكفر أو فسق(٣).

وقال تعالى: ﴿۞ لَيْسُوا۟ سَوَآءً ۗ مِّنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ أُمَّةٌ قَآئِمَةٌ يَتْلُونَ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ ءَانَآءَ ٱلَّيْلِ وَهُمْ يَسْجُدُونَ ﴿١١٣﴾ يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْـَٔاخِرِ وَيَأْمُرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ وَيُسَٰرِعُونَ فِى ٱلْخَيْرَٰتِ وَأُو۟لَٰٓئِكَ مِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿١١٤﴾﴾ [آل عمران:١١٣-١١٤].

فقد بين الله تعالى في الآية أن أهل الكتاب ليسوا سواء بل إن منهم أمة أهل الإيمان، ومنهم أمة أهل الكفر، فهم غير متساوين، ولكنهم متفاوتون في الصلاح والفساد، والخير والشر(٤).

الثاني: وقد يكون الصلاح المعنوي في أفراد وصفهم الله بذلك، قال تعالى في يحيى عليه السلام: ﴿أَنَّ ٱللَّهَ يُبَشِّرُكَ بِيَحْيَىٰ مُصَدِّقًۢا بِكَلِمَةٍ مِّنَ ٱللَّهِ وَسَيِّدًا وَحَصُورًا وَنَبِيًّا مِّنَ ٱلصَّٰلِحِينَ﴾ [آل عمران:٣٩].

والصالح الذي يؤدي لله ما افترض عليه، وإلى الناس حقوقهم(٥).

وقال سبحانه في عيسى عليه السلام: ﴿وَيُكَلِّمُ ٱلنَّاسَ فِى ٱلْمَهْدِ وَكَهْلًا وَمِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿٤٦﴾﴾ [آل عمران:٤٦] يعني أنه من العباد الصالحين مثل إبراهيم وإسحاق ويعقوب وموسى وغيرهم من الأنبياء وإنما ختم أوصاف عيسى عليه السلام بكونه من الصالحين بعد ما وصفه بالأوصاف العظيمة؛ لأن الصلاح من أعظم المراتب وأشرف المقامات؛ لأنه لا يسمى المرء صالحًا حتى يكون مواظبًا على النهج الأصلح والطريق الأكمل في جميع أقواله وأفعاله، فلما وصفه

(١) انظر: البحر المحيط في التفسير، أبو حيان ٥/ ٢٠٩.
(٢) انظر: تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ٣/ ٤٤٨.
(٣) انظر: محاسن التأويل، القاسمي ٥/ ٢١٤.
(٤) انظر: جامع البيان، الطبري ٧/ ١١٨.
(٥) انظر: الجامع لأحكام القرآن، القرطبي ٤/ ٧٩.

الله تعالى بكونه وجيها في الدنيا والآخرة ومن المقربين وأنه يكلم الناس في المهد وكهلًا أردفه بقوله ومن الصالحين ليكمل له أعلى الدرجات وأشرف المقامات[1].

وهذا كقوله تعالى: ﴿وَزَكَرِيَّا وَيَحْيَىٰ وَعِيسَىٰ وَإِلْيَاسَ كُلٌّ مِّنَ الصَّالِحِينَ ﴿٨٥﴾﴾ [الأنعام:٨٥].

والآيات الواردة في وصف الأنبياء بالصلاح كثيرة وما ذكرناه هو على سبيل المثال لا الحصر.

وقال تعالى في وصف الأفراد من غير النبيين: ﴿وَأَمَّا الْجِدَارُ فَكَانَ لِغُلَامَيْنِ يَتِيمَيْنِ فِي الْمَدِينَةِ وَكَانَ تَحْتَهُ كَنزٌ لَّهُمَا وَكَانَ أَبُوهُمَا صَالِحًا فَأَرَادَ رَبُّكَ أَن يَبْلُغَا أَشُدَّهُمَا وَيَسْتَخْرِجَا كَنزَهُمَا رَحْمَةً مِّن رَّبِّكَ ۚ وَمَا فَعَلْتُهُ عَنْ أَمْرِي ۚ ذَٰلِكَ تَأْوِيلُ مَا لَمْ تَسْطِع عَّلَيْهِ صَبْرًا ﴿٨٢﴾﴾ [الكهف:٨٢].

فقد روي عن ابن عباس رضي الله عنه قال: إن الله يصلح بصلاح الرجل ولده وولد ولده ويحفظه في ذريته والدويرات حوله، فما يزالون في ستر من الله وعافية[2].

أما صلاح الجن فإنه من الصلاح المعنوي، قال تعالى: ﴿وَأَنَّا مِنَّا الصَّالِحُونَ وَمِنَّا دُونَ ذَٰلِكَ ۖ كُنَّا طَرَائِقَ قِدَدًا ﴿١١﴾﴾ [الجن:١١]

«يقول تعالى مخبرًا عن الجن أنهم قالوا مخبرين عن أنفسهم: ﴿وَأَنَّا مِنَّا الصَّالِحُونَ وَمِنَّا دُونَ ذَٰلِكَ﴾ أي غير ذلك ﴿كُنَّا طَرَائِقَ قِدَدًا﴾ أي طرائق متعددة مختلفة وآراء متفرقة، قال ابن عباس ومجاهد وغير واحد﴿كُنَّا طَرَائِقَ قِدَدًا﴾ أي منا المؤمن، ومنا الكافر»[3].

والمعنى كما قال القرطبي: «أي لم يكن كل الجن كفارا بل كانوا مختلفين: منهم كفار، ومنهم مؤمنون صلحاء، ومنهم مؤمنون غير صلحاء»[4].

ثانيًا: صلاح الأعمال:

إن صلاح الأعمال يكون في إخلاصها لله سبحانه وتعالى، فالعمل الصالح هو ما أريد به وجه الله تعالى وينتظم جميع أنواعه من الصلاة والزكاة وغيرهما[5]، كما يكون العمل صالحًا، بالمتابعة على منهج الرسول صلى الله عليه وسلم، وقد جمع الله ذلك في قوله تعالى: ﴿وَمَن يَعْمَلْ مِنَ الصَّالِحَاتِ مِن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُولَٰئِكَ يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ وَلَا يُظْلَمُونَ نَقِيرًا ﴿١٢٤﴾ وَمَنْ أَحْسَنُ دِينًا مِّمَّنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُ لِلَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ وَاتَّبَعَ مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا ۗ وَاتَّخَذَ اللَّهُ إِبْرَاهِيمَ خَلِيلًا ﴿١٢٥﴾﴾ [النساء:١٢٤-١٢٥][6].

(١) انظر: لباب التأويل، الخازن ١/ ٢٤٦.
(٢) انظر: تفسير ابن أبي حاتم ٧/ ٢٣٧٥.
(٣) انظر: تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ٨/ ٢٥٤.
(٤) انظر: الجامع لأحكام القرآن ١٩/ ١٥.
(٥) انظر: روح البيان، إسماعيل حقي ٢/ ٢٩٠.
(٦) انظر: تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ٢/ ٣٧٣.

صلاح الخلق

أولًا: صلاح الأنبياء عليهم السلام:

وصف الله سبحانه وتعالى الأنبياء عليهم السلام بالصلاح، فقال في إبراهيم عليه السلام: ﴿وَمَن يَرْغَبُ عَن مِّلَّةِ إِبْرَاهِيمَ إِلَّا مَن سَفِهَ نَفْسَهُ وَلَقَدِ اصْطَفَيْنَاهُ فِي الدُّنْيَا وَإِنَّهُ فِي الْآخِرَةِ لَمِنَ الصَّالِحِينَ ﴿١٣٠﴾﴾ [البقرة:١٣٠].

وقال في يحيى عليه السلام: ﴿فَنَادَتْهُ الْمَلَائِكَةُ وَهُوَ قَائِمٌ يُصَلِّي فِي الْمِحْرَابِ أَنَّ اللَّهَ يُبَشِّرُكَ بِيَحْيَىٰ مُصَدِّقًا بِكَلِمَةٍ مِّنَ اللَّهِ وَسَيِّدًا وَحَصُورًا وَنَبِيًّا مِّنَ الصَّالِحِينَ ﴿٣٩﴾﴾ [آل عمران:٣٩].

وقال في عيسى عليه السلام: ﴿وَيُكَلِّمُ النَّاسَ فِي الْمَهْدِ وَكَهْلًا وَمِنَ الصَّالِحِينَ ﴿٤٦﴾﴾ [آل عمران:٤٦].

وقال سبحانه في زكريا وإلياس عليهم السلام مع السابقين: ﴿وَزَكَرِيَّا وَيَحْيَىٰ وَعِيسَىٰ وَإِلْيَاسَ كُلٌّ مِّنَ الصَّالِحِينَ ﴿٨٥﴾﴾ [الأنعام:٨٥].

وقال في لوط عليه السلام: ﴿وَلُوطًا آتَيْنَاهُ حُكْمًا وَعِلْمًا وَنَجَّيْنَاهُ مِنَ الْقَرْيَةِ الَّتِي كَانَت تَّعْمَلُ الْخَبَائِثَ إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمَ سَوْءٍ فَاسِقِينَ ﴿٧٤﴾ وَأَدْخَلْنَاهُ فِي رَحْمَتِنَا إِنَّهُ مِنَ الصَّالِحِينَ ﴿٧٥﴾﴾ [الأنبياء:٧٤-٧٥].

وقال في إسماعيل عليه السلام: ﴿وَإِسْمَاعِيلَ وَإِدْرِيسَ وَذَا الْكِفْلِ كُلٌّ مِّنَ الصَّابِرِينَ ﴿٨٥﴾ وَأَدْخَلْنَاهُمْ فِي رَحْمَتِنَا إِنَّهُم مِّنَ الصَّالِحِينَ ﴿٨٦﴾﴾ [الأنبياء:٨٥-٨٦].

وقال في يونس عليه السلام: ﴿فَاصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ وَلَا تَكُن كَصَاحِبِ الْحُوتِ إِذْ نَادَىٰ وَهُوَ مَكْظُومٌ ﴿٤٨﴾ لَّوْلَا أَن تَدَارَكَهُ نِعْمَةٌ مِّن رَّبِّهِ لَنُبِذَ بِالْعَرَاءِ وَهُوَ مَذْمُومٌ ﴿٤٩﴾ فَاجْتَبَاهُ رَبُّهُ فَجَعَلَهُ مِنَ الصَّالِحِينَ ﴿٥٠﴾﴾ [القلم:٤٨-٥٠].

ويمكن بيان الحكمة من وصفهم بالصلاح فيما يأتي:

أولًا: تعظيم صفة الصلاح، وتعظيم للموصوف بها، قال الزمخشري مبينًا الحكمة من وصف الأنبياء عليهم السلام بالصلاح: «واعلم أن الصفة قد تذكر للعظم في نفسها ولينوه بها إذا وصف بها عظيم القدر، كما يكون تنويها بقدر موصوفها. فالحاصل أنه كما يراد إعظام الموصوف بالصفة العظيمة، قد يراد إعظام الصفة بعظم موصوفها، وعلى هذا الأسلوب جرى وصف الأنبياء بالصلاح في قوله تعالى: ﴿وَبَشَّرْنَاهُ بِإِسْحَاقَ نَبِيًّا مِّنَ الصَّالِحِينَ ﴿١١٢﴾﴾ [الصافات:١١٢] وأمثاله، تنويهًا بمقدار الصلاح إذ جعل صفة الأنبياء، وبعثًا لآحاد الناس على الدأب في تحصيل صفته»[(١)].

وقال الرازي: «والمعنى وأولئك الموصوفون بما وصفوا به من جملة الصالحين الذين صلحت أحوالهم عند الله

---

(١) الكشاف ١/ ٦٣٦.

تعالى ورضيهم، واعلم أن الوصف بذلك غاية المدح ويدل عليه القرآن والمعقول، أما القرآن، فهو أن الله تعالى مدح بهذا الوصف أكابر الأنبياء عليهم الصلاة والسلام فقال: بعد ذكر إسماعيل وإدريس وذي الكفل وغيرهم: ﴿وَأَدْخَلْنَاهُمْ فِي رَحْمَتِنَا إِنَّهُم مِّنَ الصَّالِحِينَ ۝٨٦﴾ [الأنبياء:٨٦]وذكر حكاية عن سليمان عليه السلام أنه قال: ﴿وَأَدْخِلْنِي بِرَحْمَتِكَ فِي عِبَادِكَ الصَّالِحِينَ﴾ [النمل:١٩].

وقال: ﴿فَإِنَّ اللَّهَ هُوَ مَوْلَاهُ وَجِبْرِيلُ وَصَالِحُ الْمُؤْمِنِينَ﴾ [التحريم:٤].

وأما المعقول فهو أن الصلاح ضد الفساد، وكل ما لا ينبغي أن يكون فهو فساد، سواء كان ذلك في العقائد، أو في الأعمال، فإذا كان كل ما حصل من باب ما ينبغي أن يكون، فقد حصل الصلاح، فكان الصلاح دالًا على أكمل الدرجات»[١].

ثانيًا: خص الأنبياء بذكر الصلاح؛ لأنه لا يتخلل صلاحهم خلاف ذلك، وقال الزجاج: الصالح هو الذي يؤدي ما افترض عليه وإلى الناس حقوقهم.

ثالثًا: ومن الحكمة أيضًا أن الصلاح والإصلاح هو الغاية للنبوة؛ لتضمنها معنى الكمال والتكميل بالفعل على الإطلاق، كما أن وصفهم بالصلاح فيه بيان بأنهم من المستعدين لقبول الفيض الإلهي بلا واسطة[٢].

رابعًا: ووصف الأنبياء عليهم السلام بالصلاح يدل على أن الصلاح درجة عالية لا ينالها إلا أهل الاجتباء[٣].

وذكرها للتنويه بشأن الصلاح، فإن الأنبياء معدودون في زمرة أهله، وإلا فإن كل نبي لا بد أن يكون صالحًا، والنبوة أعظم أحوال الصلاح[٤]، وفي ذلك إيماء إلى أن الصلاح هو أصل الخير ورفع الدرجات[٥].

خامسًا: أن الصلاح وصف للأنبياء عليهم السلام، ومن دونهم؛ فيوصف النبي بأنه صالح، ويوصف متبع الرسول بأنه صالح[٦].

والصلاح على إطلاقه هو أكمل صفة وأتمها يمكن أن يظفر بها إنسان حتى الأنبياء فهى الكمال الإنسانى فى أعلى مراتبه وأشرف منازله، ولهذا كان من دعوات الأنبياء عليهم السلام أن يكونوا من عباد الله الصالحين.

كما قال الله تعالى على لسان سليمان عليه السلام: ﴿فَتَبَسَّمَ ضَاحِكًا مِّن قَوْلِهَا وَقَالَ

(١) مفاتيح الغيب ٨/ ٣٣٤.

(٢) انظر: روح البيان، إسماعيل حقي ٧/ ٤٧٩.
(٣) انظر: المصدر السابق ١٠/ ١٢٧.
(٤) انظر: التحرير والتنوير، ابن عاشور ٢٣/ ١٦٢.
(٥) انظر: المصدر السابق ٢٩/ ١٠٧.
(٦) انظر: تفسير القرآن الكريم، ابن عثيمين، الفاتحة والبقرة ٢/ ٧١.

﴿رَبِّ أَوْزِعْنِي أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ الَّتِي أَنْعَمْتَ عَلَيَّ وَعَلَىٰ وَالِدَيَّ وَأَنْ أَعْمَلَ صَالِحًا تَرْضَاهُ وَأَدْخِلْنِي بِرَحْمَتِكَ فِي عِبَادِكَ الصَّالِحِينَ ﴿١٩﴾﴾ [النمل:١٩].

وقال تعالى على لسان إبراهيم، وهو يطلب الولد الصالح: ﴿رَبِّ هَبْ لِي مِنَ الصَّالِحِينَ ﴿١٠٠﴾﴾ [الصافات:١٠٠].

وقال سبحانه في وصف عيسى عليه السلام: ﴿وَيُكَلِّمُ النَّاسَ فِي الْمَهْدِ وَكَهْلًا وَمِنَ الصَّالِحِينَ ﴿٤٦﴾﴾ [آل عمران:٤٦]ومعنى هذا أن الصلاح صفة ملازمة له، قبل النبوة ومع النبوة، فلو لم يكن نبيا من الأنبياء لكان صالحا من عباد الله الصالحين[1].

أما الحكمة من طلب الذرية الصالحة:

الحكمة من الدعاء بطلب الصالحين في قوله تعالى: ﴿رَبِّ هَبْ لِي مِنَ الصَّالِحِينَ ﴿١٠٠﴾﴾ [الصافات:١٠٠]؛ لأن الصلاح أفضل الصفات بدليل أن الخليل عليه السلام طلب الصلاح لنفسه، فقال: ﴿رَبِّ هَبْ لِي حُكْمًا وَأَلْحِقْنِي بِالصَّالِحِينَ ﴿٨٣﴾﴾ [الشعراء:٨٣].

وطلبه للولد فقال: ﴿رَبِّ هَبْ لِي مِنَ الصَّالِحِينَ ﴿١٠٠﴾﴾ [الصافات:١٠٠]؛ وذلك يدل على أن الصلاح أشرف مقامات العباد[2].

والمعنى: ﴿رَبِّ هَبْ لِي مِنَ الصَّالِحِينَ﴾ أي بعض الصالحين يعينني على الدعوة والطاعة ويؤنسني في الغربة يعني الولد لأن لفظ الهبة على الإطلاق خاص به[3]، ولقوله تعالى سأل إبراهيم رب هب لي من الصالحين [الصافات:١٠٠].

وكقوله: ﴿وَالَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا هَبْ لَنَا مِنْ أَزْوَاجِنَا وَذُرِّيَّاتِنَا قُرَّةَ أَعْيُنٍ وَاجْعَلْنَا لِلْمُتَّقِينَ إِمَامًا ﴿٧٤﴾﴾ [الفرقان:٧٤].

هكذا الواجب أن يطلب الولد، لا ما يطلبون من الاستئناس والاستنصار والاستعانة بأمر المعاش بهم[4].

لأن نعمة الولد تكون أكمل إذا كان صالحًا فإن صلاح الأبناء قرة عين للآباء، ومن صلاحهم برهم بوالديهم[5].

وفي قوله تعالى: ﴿وَوَصَّيْنَا الْإِنْسَانَ بِوَالِدَيْهِ إِحْسَانًا حَمَلَتْهُ أُمُّهُ كُرْهًا وَوَضَعَتْهُ كُرْهًا وَحَمْلُهُ وَفِصَالُهُ ثَلَاثُونَ شَهْرًا حَتَّىٰ إِذَا بَلَغَ أَشُدَّهُ وَبَلَغَ أَرْبَعِينَ سَنَةً قَالَ رَبِّ أَوْزِعْنِي أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ الَّتِي أَنْعَمْتَ عَلَيَّ وَعَلَىٰ وَالِدَيَّ وَأَنْ أَعْمَلَ صَالِحًا تَرْضَاهُ وَأَصْلِحْ لِي فِي ذُرِّيَّتِي إِنِّي تُبْتُ إِلَيْكَ وَإِنِّي مِنَ الْمُسْلِمِينَ ﴿١٥﴾﴾ [الأحقاف:١٥].

﴿وَأَصْلِحْ لِي فِي ذُرِّيَّتِي﴾ أي: واجعل الصلاح ساريًا في ذريتي راسخًا فيهم، أو: اجعل ذريتي موقعا للصلاح دائمًا فيهم، إني تبت إليك من كل ذنب، وإني من المسلمين

(١) انظر: التفسير القرآني للقرآن، عبدالكريم الخطيب ٢/ ٤٤٠.
(٢) انظر: مفاتيح الغيب، الرازي ٢٦/ ٣٤٥.
(٣) انظر: إرشاد العقل السليم، أبو السعود ٧/ ١٩٩.
(٤) انظر: محاسن التأويل، القاسمي ٢/ ٣١٠.
(٥) انظر: التحرير والتنوير، ابن عاشور ٢٣/ ١٤٨.

الذين أخلصوا لك أنفسهم، وانقادوا إليك بكليتهم[1].

وفي الآية إشارة لرغبة المؤمن في أن يتصل عمله الصالح في ذريته، وأن يؤنس قلبه شعوره بأن في عقبه من يعبد الله ويطلب رضاه، والذرية الصالحة أمل العبد الصالح، وهي آثر عنده من الكنوز والذخائر، وأروح لقلبه من كل زينة الحياة. والدعاء يمتد من الوالدين إلى الذرية ليصل الأجيال المتعاقبة في طاعة الله[2].

ولأن في صلاح الولد الإحسان إلى الوالدين في المشاهدة والغيبة وبجميع وسائل الإحسان الذي غايته حصول النفع لهما، وهو معنى قوله تعالى: ﴿وَقُل رَّبِّ ٱرْحَمْهُمَا كَمَا رَبَّيَانِى صَغِيرًا﴾ [الإسراء:٢٤].

وأن الله لما أمر بالدعاء للأبوين وعد بإجابته على لسان رسوله صلى الله عليه وسلم لقوله: **(إذا مات الإنسان انقطع عنه عمله إلا من ثلاثة: إلا من صدقة جارية، أو علم ينتفع به، أو ولد صالح يدعو له)**[3].

(١) انظر: البحر المديد، ابن عجيبة ٥/ ٣٣٤.
(٢) في ظلال القرآن، سيد قطب ٦/ ٣٢٦٣.
(٣) أخرجه مسلم في صحيحه، كتاب الهبات، باب ما يلحق الإنسان من الثواب بعد وفاته، رقم ١٦٣١ /٣/ ١٢٥٥، عن أبي هريرة رضي الله عنه.

ثانيًا: أسباب صلاح الخلق:

١ . الاصطفاء الإلهي.

إن من أسباب صلاح الخلق الاصطفاء الإلهي، قال تعالى: ﴿وَمَن يَرْغَبُ عَن مِّلَّةِ إِبْرَٰهِـۧمَ إِلَّا مَن سَفِهَ نَفْسَهُۥ ۚ وَلَقَدِ ٱصْطَفَيْنَٰهُ فِى ٱلدُّنْيَا ۖ وَإِنَّهُۥ فِى ٱلْـَٔاخِرَةِ لَمِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿١٣٠﴾﴾ [البقرة:١٣٠]

والاصطفاء حال يستحقه العبد بكونه صالحًا، والاصطفاء ضربان، أحدهما في الآخرة والآخر في الدنيا، وهو اختصاص الله بعض العبيد بولايته ونبوته لخصوصيته فيه[4].

والاصطفاء: الاختيار بإخراج الصفوة من العباد والصالح من بني آدم: هو المؤدي حقوق الله عليه[5].

وهذا خبر من الله تعالى ذكره عن أن من خالف إبراهيم فيما سن لمن بعده، فهو لله مخالف، وإعلام منه خلقه أن من خالف ما جاء به محمد صلى الله عليه وسلم، فهو لإبراهيم مخالف. وذلك أن الله تعالى ذكره أخبر أنه اصطفاه لخلته، وجعله للناس إمامًا، وأخبر أن دينه كان الحنيفية المسلمة، ففي ذلك أوضح البيان من الله تعالى ذكره عن أن من خالفه فهو لله عدو لمخالفته الإمام

(٤) انظر: تفسير الراغب الأصفهاني ١/ ٣١٧.
(٥) انظر: تفسير ابن فورك ٢/ ١٧١.

الذي نصبه الله لعباده[1].

وبسبب الصلاح اصطفى الله تعالى من ذكرهم وآباءهم وإخوانهم وذريتهم في قوله: ﴿وَوَهَبْنَا لَهُۥٓ إِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ ۚ كُلًّا هَدَيْنَا ۚ وَنُوحًا هَدَيْنَا مِن قَبْلُ ۖ وَمِن ذُرِّيَّتِهِۦ دَاوُۥدَ وَسُلَيْمَٰنَ وَأَيُّوبَ وَيُوسُفَ وَمُوسَىٰ وَهَٰرُونَ ۚ وَكَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿٨٤﴾ وَزَكَرِيَّا وَيَحْيَىٰ وَعِيسَىٰ وَإِلْيَاسَ ۖ كُلٌّ مِّنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿٨٥﴾ وَإِسْمَٰعِيلَ وَٱلْيَسَعَ وَيُونُسَ وَلُوطًا ۚ وَكُلًّا فَضَّلْنَا عَلَى ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٨٦﴾ وَمِنْ ءَابَآئِهِمْ وَذُرِّيَّٰتِهِمْ وَإِخْوَٰنِهِمْ ۖ وَٱجْتَبَيْنَٰهُمْ وَهَدَيْنَٰهُمْ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٨٧﴾﴾ [الأنعام: ٨٤-٨٧].

وقوله: ﴿فَٱصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ وَلَا تَكُن كَصَاحِبِ ٱلْحُوتِ إِذْ نَادَىٰ وَهُوَ مَكْظُومٌ ﴿٤٨﴾ لَّوْلَآ أَن تَدَٰرَكَهُۥ نِعْمَةٌ مِّن رَّبِّهِۦ لَنُبِذَ بِٱلْعَرَآءِ وَهُوَ مَذْمُومٌ ﴿٤٩﴾ فَٱجْتَبَٰهُ رَبُّهُۥ فَجَعَلَهُۥ مِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿٥٠﴾﴾ [القلم: ٤٨-٥٠].

وهذا الاصطفاء هو بمشيئة الله تعالى واختياره، قال تعالى: ﴿ٱللَّهُ يَجْتَبِىٓ إِلَيْهِ مَن يَشَآءُ وَيَهْدِىٓ إِلَيْهِ مَن يُنِيبُ﴾ [الشورى: ١٣].

والمعنى: أن الله يصطفي إليه من يشاء من خلقه، ويختار لنفسه وولايته من أحب، ويوفق للعمل بطاعته، واتباع ما بعث به نبيه صلى الله عليه وسلم من الحق من أقبل إلى طاعته، وراجع التوبة من معاصيه[2].

قال الشنقيطي: «وقد دلت هذه الآية الكريمة على أنه تعالى يجتبي من خلقه من يشاء اجتباءه، وقد بين في مواضع أخر بعض من شاء اجتباءه من خلقه، فبين أن منهم المؤمنين من هذه الأمة في قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱرْكَعُوا۟ وَٱسْجُدُوا۟ وَٱعْبُدُوا۟ رَبَّكُمْ وَٱفْعَلُوا۟ ٱلْخَيْرَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ۩ ﴿٧٧﴾ وَجَٰهِدُوا۟ فِى ٱللَّهِ حَقَّ جِهَادِهِۦ ۚ هُوَ ٱجْتَبَىٰكُمْ﴾ [الحج: ٧٧-٧٨].

وقوله تعالى: ﴿ثُمَّ أَوْرَثْنَا ٱلْكِتَٰبَ ٱلَّذِينَ ٱصْطَفَيْنَا مِنْ عِبَادِنَا ۖ فَمِنْهُمْ ظَالِمٌ لِّنَفْسِهِۦ وَمِنْهُم مُّقْتَصِدٌ وَمِنْهُمْ سَابِقٌۢ بِٱلْخَيْرَٰتِ بِإِذْنِ ٱللَّهِ ۚ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَضْلُ ٱلْكَبِيرُ ﴿٣٢﴾﴾ [فاطر: ٣٢].

وبين في موضع آخر أن منهم آدم، وهو قوله تعالى: ﴿ثُمَّ ٱجْتَبَٰهُ رَبُّهُۥ فَتَابَ عَلَيْهِ وَهَدَىٰ ﴿١٢٢﴾﴾ [طه: ١٢٢].

وذكر أن منهم إبراهيم في قوله: ﴿إِنَّ إِبْرَٰهِيمَ كَانَ أُمَّةً قَانِتًا لِّلَّهِ حَنِيفًا وَلَمْ يَكُ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿١٢٠﴾ شَاكِرًا لِّأَنْعُمِهِ ۚ ٱجْتَبَىٰهُ وَهَدَىٰهُ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿١٢١﴾﴾ [النحل: ١٢٠-١٢١].

إلى غير ذلك من الآيات الدالة على اجتباء بعض الخلق بالتعيين»[3].

---

(١) انظر: جامع البيان، الطبري ٣/ ٩١.
(٢) انظر: المصدر السابق ٢١/ ٥١٤.
(٣) أضواء البيان ٧/ ٦٣.

٢. المسارعة في الخيرات.

إن من أسباب صلاح الخلق المسارعة في الخيرات، فقد ذكر سبحانه أن من أسباب صلاح بعض أهل الكتاب وغيرهم هو المسارعة في الخيرات.

قال تعالى: ﴿يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ وَيُسَارِعُونَ فِي الْخَيْرَاتِ وَأُولَٰئِكَ مِنَ الصَّالِحِينَ ﴿١١٤﴾﴾ [آل عمران:١١٤].

قال ابن باديس: «ذكر الله تعالى في الآية الكريمة الأعمال، ثم حكم لأهلها بأنهم من الصالحين، فأفادنا أن الأعمال هي دلائل الصلاح، وأن الصلاح لا يكون إلا بها، ولا يستحقه إلا أهلها، ثم إن العباد يتفاوتون في درجات الصلاح على حسب تفاوتهم في الأعمال، ويكون لنا أن نقضي بتفاوتهم في الظاهر بحسب ما نشاهد. ولكن ليس لنا أن نقضي بين أهل الأعمال الصالحة في تفاوتهم عند الله في الباطن؟ فندعي أن هذا أعلى درجة في صلاحه عند الله تعالى من هذا، لأن الأعمال قسمان: أعمال الجوارح، وأعمال القلوب، وهذه أصل لأعمال الجوارح»[١].

والمسارعة في الخيرات سبب لصلاح الذرية والأزواج، ماديًّا ومعنويًّا، خَلْقًا وخُلُقًا، قال تعالى: ﴿فَاسْتَجَبْنَا لَهُ وَوَهَبْنَا لَهُ يَحْيَىٰ وَأَصْلَحْنَا لَهُ زَوْجَهُ ۚ إِنَّهُمْ كَانُوا يُسَارِعُونَ فِي الْخَيْرَاتِ وَيَدْعُونَنَا رَغَبًا وَرَهَبًا ۖ وَكَانُوا لَنَا خَاشِعِينَ ﴿٩٠﴾﴾ [الأنبياء:٩٠].

﴿وَأَصْلَحْنَا لَهُ زَوْجَهُ﴾ يروى أنها كانت عقيمًا فجعلها الله عز وجل ولودًا، ويروى أنه كان في خلقها سوء فأصلح الله ذلك وحسن خلقها[٢].

٣. الدعاء.

إن من أسباب صلاح الخلق الدعاء، فقد أرشد الله تعالى الإنسان إلى ذلك في قوله: ﴿وَوَصَّيْنَا الْإِنسَانَ بِوَالِدَيْهِ إِحْسَانًا ۖ حَمَلَتْهُ أُمُّهُ كُرْهًا وَوَضَعَتْهُ كُرْهًا ۖ وَحَمْلُهُ وَفِصَالُهُ ثَلَاثُونَ شَهْرًا ۚ حَتَّىٰ إِذَا بَلَغَ أَشُدَّهُ وَبَلَغَ أَرْبَعِينَ سَنَةً قَالَ رَبِّ أَوْزِعْنِي أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ الَّتِي أَنْعَمْتَ عَلَيَّ وَعَلَىٰ وَالِدَيَّ وَأَنْ أَعْمَلَ صَالِحًا تَرْضَاهُ وَأَصْلِحْ لِي فِي ذُرِّيَّتِي ۖ إِنِّي تُبْتُ إِلَيْكَ وَإِنِّي مِنَ الْمُسْلِمِينَ ﴿١٥﴾﴾ [الأحقاف:١٥].

ففي الآية إرشاد بالدعاء بصلاح الذرية، وإرشاد لمن بلغ الأربعين أن يجدد التوبة والإنابة إلى الله عز وجل ويعزم عليها[٣].

وروي: أن الآية نزلت في أبي بكر الصديق وأبيه أبي قحافة عثمان بن عمرو، وأمه أم الخير بنت صخر بن عمرو، قال علي بن أبي طالب رضي الله عنه: الآية نزلت في

(١) انظر: تفسير ابن باديس ص٧٥.

(٢) انظر: معاني القرآن وإعرابه، الزجاج ٣/ ٤٠٣.

(٣) أضواء البيان ٧/ ٢٥٩.

أبي بكر رضي الله عنه أسلم أبواه جميعا ولم يجتمع لأحد من المهاجرين أسلم أبواه غيره أوصاه الله بهما، ولزم ذلك من بعده، وكان أبو بكر صحب النبي صلى الله عليه وسلم وهو ابن ثماني عشرة سنة والنبي صلى الله عليه وسلم ابن عشرين سنة في تجارة إلى الشام، فلما بلغ أربعين سنة، ونبئ النبي صلى الله عليه وسلم آمن به ودعا ربه فقال رب أوزعني، ألهمني، أن أشكر نعمتك التي أنعمت علي وعلى والدي، بالهداية والإيمان، وأن أعمل صالحًا ترضاه.

قال ابن عباس رضي الله عنه: وأجابه الله عز وجل فأعتق تسعة من المؤمنين يعذبون في الله، ولم يرد أبو بكر رضي الله عنه شيئًا من الخير إلا أعانه الله عليه، ودعا أيضا فقال: وأصلح لي في ذريتي، فأجابه الله فلم يكن له ولد إلا آمنوا جميعا، فاجتمع له إسلام أبويه وأولاده جميعا فأدرك أبو قحافة النبي صلى الله عليه وسلم وابنه أبو بكر وابنه عبد الرحمن بن أبي بكر وابن عبد الرحمن أبو عتيق كلهم أدركوا النبي صلى الله عليه وسلم، ولم يكن ذلك لأحد من الصحابة. قوله: إني تبت إليك وإني من المسلمين[1].

و لما كان الدعاء سببًا في صلاح الخلق كان من سنة الأنبياء عليهم السلام، فقد قال الله تعالى عن إبراهيم عليه السلام: ﴿ٱلَّذِى خَلَقَنِى فَهُوَ يَهْدِينِ ۝٧٨ وَٱلَّذِى هُوَ يُطْعِمُنِى وَيَسْقِينِ ۝٧٩ وَإِذَا مَرِضْتُ فَهُوَ يَشْفِينِ ۝٨٠ وَٱلَّذِى يُمِيتُنِى ثُمَّ يُحْيِينِ ۝٨١ وَٱلَّذِىٓ أَطْمَعُ أَن يَغْفِرَ لِى خَطِيٓـَٔتِى يَوْمَ ٱلدِّينِ ۝٨٢ رَبِّ هَبْ لِى حُكْمًا وَأَلْحِقْنِى بِٱلصَّٰلِحِينَ ۝٨٣﴾ [الشعراء:٧٨-٨٣].

والمعنى في قوله: ﴿رَبِّ هَبْ لِى حُكْمًا﴾ أي كمالًا في العلم والعمل أستعد به لخلافة الحق ورئاسة الخلق. وألحقني بالصالحين ووفقني للكمال في العمل لأنتظم به في عداد الكاملين في الصلاح الذين لا يشوب صلاحهم كبير ذنب ولا صغيره[2].

وقال عن سليمان عليه السلام: ﴿فَتَبَسَّمَ ضَاحِكًا مِّن قَوْلِهَا وَقَالَ رَبِّ أَوْزِعْنِىٓ أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ ٱلَّتِىٓ أَنْعَمْتَ عَلَىَّ وَعَلَىٰ وَٰلِدَىَّ وَأَنْ أَعْمَلَ صَٰلِحًا تَرْضَىٰهُ وَأَدْخِلْنِى بِرَحْمَتِكَ فِى عِبَادِكَ ٱلصَّٰلِحِينَ ۝١٩﴾ [النمل:١٩]

فقد دعا سليمان ربه بأن يوفقه؛ لأن يعمل صالحًا، وأن يدخله في عباده الصالحين في الجنة[3] مما يدل على أن الدعاء سبب في صلاح الخلق.

وقال عن يوسف عليه السلام: ﴿ ﴾

(١) انظر: الكشف والبيان، الثعلبي ٩/ ١٢، معالم التنزيل، البغوي ٤/ ١٩٥.

(٢) انظر: أنوار التنزيل، البيضاوي ٤/ ١٤٢.

(٣) انظر: تفسير السمعاني ٤/ ٨٧.

﴿رَبِّ قَدْ ءَاتَيْتَنِي مِنَ ٱلْمُلْكِ وَعَلَّمْتَنِي مِن تَأْوِيلِ ٱلْأَحَادِيثِ فَاطِرَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ أَنتَ وَلِيِّۦ فِي ٱلدُّنْيَا وَٱلْآخِرَةِ تَوَفَّنِي مُسْلِمًا وَأَلْحِقْنِي بِٱلصَّٰلِحِينَ ﴿١٠١﴾﴾ [يوسف:١٠١].

يقول: وألحقني بصالح آبائي إبراهيم وإسحاق ومن قبلهم من أنبيائك ورسلك[(١)]، أو ألحقني بالصالحين قال: يعني أهل الجنة[(٢)].

وفي الآية إشارة إلى أن الدعاء سبب في صلاح الخلق الذي هو سبب للحوق الصالحين في الجنة.

٤. التواصي بالحق والتواصي بالصبر.

إن من أسباب الصلاح التواصي بالحق بين الناس، ويدل على ذلك قوله تعالى: ﴿وَٱلْعَصْرِ ﴿١﴾ إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لَفِي خُسْرٍ ﴿٢﴾ إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَتَوَاصَوْا۟ بِٱلْحَقِّ وَتَوَاصَوْا۟ بِٱلصَّبْرِ ﴿٣﴾﴾ [العصر:١-٣].

والحق الذي ذكر الله بالتواصي به هو كتاب الله تعالى، وقوله: ﴿وَتَوَاصَوْا۟ بِٱلصَّبْرِ﴾ يقول: وأوصى بعضهم بعضا بالصبر على العمل بطاعة الله[(٣)].

فأما الصبر فلأنه ملاك استقامة الأعمال ومصدرها فإذا تخلق به المؤمن صدرت عنها الحسنات والفضائل بسهولة[(٤)].

ثالثًا: مظاهر صلاح الخلق:

١. تحري أكل الطيبات.

إن من مظاهر صلاح الخلق تحري أكل الطيبات، قال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلرُّسُلُ كُلُوا۟ مِنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ وَٱعْمَلُوا۟ صَٰلِحًا ۖ إِنِّي بِمَا تَعْمَلُونَ عَلِيمٌ ﴿٥١﴾﴾ [المؤمنون:٥١].

فقد أمر الله كل نبى فى زمانه بأن يأكل من المال الحلال مالذ وطاب، وأن يعمل صالح الأعمال، ليكون ذلك جزاء ما أنعم به عليه من النعم الظاهرة والباطنة.

وهذا الأمر، وإن كان موجهًا إلى الأنبياء، فإن أممهم تبع لهم، وكأنه يقول: أيها المسلمون فى جميع الأقطار، كلوا من الطيبات أي من الحلال الصافي القوام، والحلال ما لا يعصى الله فيه، والصافي ما لا ينسى الله فيه، والقوام ما يمسك النفس ويحفظ العقل واعملوا صالح الأعمال[(٥)].

والمراد بالأكل الانتفاع من جميع الوجوه. وقيل: هو الأكل المعتاد[(٦)].

وعن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: (أيها

(١) انظر: جامع البيان، الطبري ١٦/ ٢٧٨.
(٢) انظر: تفسير ابن أبي حاتم ٧/ ٢٢٠٤.
(٣) انظر: جامع البيان، الطبري ٢٤/ ٥٩٠.
(٤) انظر: التحرير والتنوير، ابن عاشور ١٣/ ١٢٨.
(٥) تفسير المراغي ١٨/ ٢٩.
وانظر: أنوار التنزيل، البيضاوي ٤/ ٨٩.
(٦) انظر: الجامع لأحكام القرآن، القرطبي ٢/ ٢١٥.

الناس، إن الله طيب لا يقبل إلا طيبا، وإن الله أمر المؤمنين بما أمر به المرسلين، فقال: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلرُّسُلُ كُلُوا۟ مِنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ وَٱعْمَلُوا۟ صَٰلِحًا ۖ إِنِّى بِمَا تَعْمَلُونَ عَلِيمٌ ۝٥١﴾ [المؤمنون:٥١]. وقال: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ كُلُوا۟ مِن طَيِّبَٰتِ مَا رَزَقْنَٰكُمْ وَٱشْكُرُوا۟ لِلَّهِ إِن كُنتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ ۝١٧٢﴾ [البقرة:١٧٢].

ثم ذكر الرجل يطيل السفر أشعث أغبر، يمد يديه إلى السماء، يا رب، يا رب، ومطعمه حرام، ومشربه حرام، وملبسه حرام، وغذي بالحرام، فأنى يستجاب لذلك؟»[1].

وفي تقديم أكل الطيبات على العمل الصالح إيماء إلى أن العمل الصالح لا يتقبل إلا إذا سبق بأكل المال الحلال.

ثم علل هذا الأمر بقوله: ﴿إِنِّى بِمَا تَعْمَلُونَ عَلِيمٌ﴾ أي إني بأعمالكم عليم، لا يخفى على شيء منها، وأنا مجازيكم بجميعها، وموفيكم أجوركم، وثوابكم عليها، فخذوا في صالح الأعمال، واجتهدوا قدر طاقتكم فيها، شكرًا لربكم على ما أنعم به عليكم، وفي هذا تحذير من مخالفتهم ما أمروا به، وإذا قيل للأنبياء ذلك فما أجدر أممهم أن تأخذ حذرها، وترعوي عن غيها، وتخشى بأس الله وشديد عقابه[2].

(١) أخرجه مسلم في صحيحه، كتاب الزكاة، باب قبول الصدقة من الكسب الطيب وتربيتها، رقم ١٠١٥، ٢/ ٧٠٣.

(٢) انظر: تفسير المراغي ١٨/ ٢٩.

٢. الصدقات.

إن من مظاهر الصلاح الصدقات بكل أنواعها، وذلك لارتباط العمل الصالح بها، سواء أكان ذلك في الصدقات الواجبة، قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَأَقَامُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَوُا۟ ٱلزَّكَوٰةَ لَهُمْ أَجْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ۝٢٧٧﴾ [البقرة:٢٧٧]

فقد وعد سبحانه الذين آمنوا وعملوا الصالحات وأقاموا الصلاة وآتوا الزكاة بالأجر العظيم، والرحمة والرضوان، والأمن يوم الفزع الأكبر ذلك لأنهم استقاموا على الصراط المستقيم، وجاءتهم الموعظة فاستمعوا إليها، وامتثلوا لها، وانتهوا عما نهوا عنه من منكرات كانوا يأتونها وهم جاهلون، و«إيتاء الزكاة» هنا له آثاره فى التحريض على البذل والإنفاق على ذوي الحاجات، حتى لا تضطرهم الحاجة إلى التعامل بالربا[3].

أو كان ذلك في صدقات التطوع والتي منها الصدقات في الجهاد، قال تعالى: ﴿مَا كَانَ لِأَهْلِ ٱلْمَدِينَةِ وَمَنْ حَوْلَهُم مِّنَ ٱلْأَعْرَابِ أَن يَتَخَلَّفُوا۟ عَن رَّسُولِ ٱللَّهِ وَلَا يَرْغَبُوا۟ بِأَنفُسِهِمْ عَن نَّفْسِهِۦ ۚ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ لَا يُصِيبُهُمْ ظَمَأٌ وَلَا نَصَبٌ وَلَا مَخْمَصَةٌ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَلَا يَطَـُٔونَ

(٣) انظر: التفسير القرآني للقرآن، عبدالكريم الخطيب ٢/ ٣٥٩.

﴿مَوْطِئًا يَغِيظُ الْكُفَّارَ وَلَا يَنَالُونَ مِنْ عَدُوٍّ نَّيْلًا إِلَّا كُتِبَ لَهُم بِهِ عَمَلٌ صَالِحٌ إِنَّ اللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ ﴿١٢٠﴾ وَلَا يُنفِقُونَ نَفَقَةً صَغِيرَةً وَلَا كَبِيرَةً وَلَا يَقْطَعُونَ وَادِيًا إِلَّا كُتِبَ لَهُمْ لِيَجْزِيَهُمُ اللَّهُ أَحْسَنَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿١٢١﴾﴾ [التوبة: ١٢٠-١٢١].

فقد بينت الآية ارتباط صدقات التطوع في الجهاد بالعمل الصالح، مما يدل على ان الصدقات من مظاهر الصلاح.

وقد بين الله تعالى أن غير المتصدقين من المؤمنين قد أخلوا بسبب رئيس من أسباب الصلاح حيث قال الله تعالى: ﴿وَأَنفِقُوا مِن مَّا رَزَقْنَاكُم مِّن قَبْلِ أَن يَأْتِيَ أَحَدَكُمُ الْمَوْتُ فَيَقُولَ رَبِّ لَوْلَا أَخَّرْتَنِي إِلَىٰ أَجَلٍ قَرِيبٍ فَأَصَّدَّقَ وَأَكُن مِّنَ الصَّالِحِينَ ﴿١٠﴾﴾ [المنافقون: ١٠].

فقد ذكر الله المؤمنين بما في الإنفاق من الخير بأن عليهم أن يكثروا منه ما داموا مقتدرين قبل الفوت، أي قبل تعذر الإنفاق والإتيان بالأعمال الصالحة، وذلك حين يحس المرء بحالة تؤذن بقرب الموت ويغلب على قواه فيسأل الله أن يؤخر موته ويشفيه ليأتي بكثير مما فرط فيه من الحسنات طمعا أن يستجاب له فإن كان في أجله تأخير فلعل الله أن يستجيب له، فإن لم يكن في الأجل تأخير أو لم يقدر الله له الاستجابة فإنه خير كثير[1].

كما بين تعالى أن البخل بالإنفاق من أعمال المنافقين، قال تعالى: ﴿وَمِنْهُم مَّنْ عَاهَدَ اللَّهَ لَئِنْ آتَانَا مِن فَضْلِهِ لَنَصَّدَّقَنَّ وَلَنَكُونَنَّ مِنَ الصَّالِحِينَ ﴿٧٥﴾ فَلَمَّا آتَاهُم مِّن فَضْلِهِ بَخِلُوا بِهِ وَتَوَلَّوا وَّهُم مُّعْرِضُونَ ﴿٧٦﴾ فَأَعْقَبَهُمْ نِفَاقًا فِي قُلُوبِهِمْ إِلَىٰ يَوْمِ يَلْقَوْنَهُ بِمَا أَخْلَفُوا اللَّهَ مَا وَعَدُوهُ وَبِمَا كَانُوا يَكْذِبُونَ ﴿٧٧﴾﴾ [التوبة: ٧٥-٧٧].

أي: ومن المنافقين من أعطى الله عهده وميثاقه لئن أغناه من فضله مالا وثروة ليشكرن له نعمته بالصدقة منها، وليعملن عمل أهل الصلاح بأموالهم من صلة الرحم به والإنفاق فى سبيل الله: كإعداد العدة للجهاد وبذل المستطاع لخير الأمة وسعادتها بما يرقى بها فى مختلف شئونها.

﴿فَلَمَّا آتَاهُم مِّن فَضْلِهِ بَخِلُوا بِهِ وَتَوَلَّوا وَّهُم مُّعْرِضُونَ﴾ أي فلما رزقهم وأعطاهم ما طلبوا بخلوا بما آتاهم وأمسكوه فلم يتصدقوا منه بشيء، وتولوا وانصرفوا عن الاستعانة به على الطاعة وإصلاح حالهم وحال أمتهم كما عاهدوا الله عليه، ولم يكن ذلك التولي عارضا طارئا، بل تولوا بكل ما أوتوا من قوة بحافز نفسى ملك عليهم أمرهم ومنعهم عن التصدق، بحيث إذا ذكروا بما يجب عليهم لا يذكرون، وإذا دعوا لا يستجيبون[2].

[انظر: الإصلاح: الإصلاح في الأخلاق]

---

(١) انظر: التحرير والتنوير، ابن عاشور ٢٨/ ٢٥٣.

(٢) انظر: تفسير المراغي ١٠/ ١٦٨.

صلاح الأعمال

أولًا: اقتران الإيمان بالعمل الصالح:

يقترن العمل الصالح بالإيمان في القرآن الكريم في خمس وسبعين مرة، مع الوعد والبشرى بأن من يعمل صالحا وهو مؤمن، فلا يخاف ظلمًا ولا هضمًا، ولا كفران لسعيه، له جزاء الحسنى، وحياة طيبة.

وقد أخبر الله تعالى عن الذين يؤمنون بالله ويعملون الصالحات، وقليل ما هم، بأنهم لا خوف عليهم ولا هم يحزنون، وأن لهم الدرجات العلى، وأن لهم أجرهم عند ربهم، وأن لهم أجر كريم، وعظيم وكبير، وغير ممنون، ولهم مغفرة ورزق كريم، وليستخلفنهم الله في الأرض، ويزيدهم من فضله، وسيجعل لهم الرحمن ودًا، وهو خير البرية، وأصحاب الجنة، طوبى لهم وحسن مآب[1].

ومن هذه الآيات التي اقترن فيها العمل الصالح بالإيمان قوله تعالى: ﴿وَبَشِّرِ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ أَنَّ لَهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ ۖ كُلَّمَا رُزِقُوا مِنْهَا مِن ثَمَرَةٍ رِّزْقًا ۙ قَالُوا هَٰذَا الَّذِي رُزِقْنَا مِن قَبْلُ ۖ وَأُتُوا بِهِ مُتَشَابِهًا ۖ وَلَهُمْ فِيهَا أَزْوَاجٌ مُّطَهَّرَةٌ ۖ وَهُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ﴿٢٥﴾﴾ [البقرة:٢٥].

وقوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ أُولَٰئِكَ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ ۖ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ﴿٨٢﴾﴾ [البقرة:٨٢].

وقوله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَآتَوُا الزَّكَاةَ لَهُمْ أَجْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٢٧٧﴾﴾ [البقرة:٢٧٧].

وقوله تعالى: ﴿وَأَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ فَيُوَفِّيهِمْ أُجُورَهُمْ ۗ وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ الظَّالِمِينَ ﴿٥٧﴾﴾ [آل عمران:٥٧].

وغيرها من الآيات الكثير.

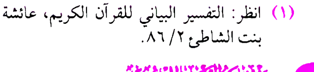
وتظهر الحكمة من اقتران العمل الصالح بالإيمان فيما يأتي:

أولًا: أنه لابد مع الإيمان من العمل الصالح؛ فمجرد الإيمان لا ينفع العبد حتى يقوم بواجبه، أي واجب الإيمان: وهو العمل الصالح.

ثانيًا: أن العمل لا يفيد حتى يكون صالحًا؛ والصلاح أن ينبني العمل على أمرين: الإخلاص لله عز وجل، وضده الشرك؛ والمتابعة، وضدها البدعة؛ فمن أخلص لله في شيء، ولكنه أتى بعمل مبتدع لم يقبل منه؛ ومن أتى بعمل مشروع لكن خلطه بالشرك لم يقبل منه؛ وأدلة هذا معروفة[2].

(١) انظر: التفسير البياني للقرآن الكريم، عائشة بنت الشاطئ ٢/ ٨٦.

(٢) انظر: تفسير القرآن الكريم، ابن عثيمين، الفاتحة والبقرة ٣/ ٣٨١.



ثالثًا: الإيمان أفرد وحده في آيات كثيرة، وقرن مع العمل الصالح في آيات كثيرة، فالآيات التي أفرد فيها يدخل فيه جميع عقائد الدين وشرائعه الظاهرة والباطنة، ولهذا يرتب الله عليه حصول الثواب، والنجاة من العقاب، ولولا دخول المذكورات ما حصلت آثاره، وهو عند السلف: قول القلب واللسان وعمل القلب واللسان والجوارح.

والآيات التي قرن الإيمان فيها بالعمل الصالح، كقوله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ﴾ [البقرة:٢٧٧].

يفسر الإيمان فيها بما في القلوب من المعارف والتصديق، والاعتقاد والإنابة، والعمل الصالح بجميع الشرائع القولية والفعلية[١].

رابعًا: أن عامة ذكر الإيمان في القرآن مقرونة بالأعمال الصالحة تنبيهًا إلى أن جملة الاعتقاد والمقال لا اعتداد بها ما لم يضامها الأعمال الصالحة، إذ الاعتقاد كالأس، والعمل كالبناء، ولا غناء في أس بلا بناء، كما لا ثبات لبناء بلا أس[٢].

خامسًا: أن الأعمال الصالحة من تمام الإيمان، ومن لم يأت بذلك فإنه يقال له مؤمن على المجاز[٣].

سادسًا: أن العمل الصالح خارج عن مسمى الإيمان؛ لأنه تعالى قال: ﴿وَالَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ﴾ فلو دل الإيمان على العمل الصالح لكان ذكر العمل الصالح بعد الإيمان تكرارًا، وإن كان يدخل فيه جميع الأعمال الصالحة[٤]؛ لأن العمل الصالح معتبر مع الإيمان، فإن الإيمان المجرد مفيد للنجاة دون رفع الدرجات ولا يبلغ المؤمن الدرجة العالية إلا بإيمانه وعمله الصالح، وأما الكافر فهو في الدركات بمجرد كفره فلو قال: والذين كفروا وعملوا السيئات في العذاب محضرون، لكان العذاب لمن يصدر منه المجموع، فإن قيل فمن يؤمن ويعمل السيئات غير مذكور في القسمين، فنقول: له منزلة بين المنزلتين لا على ما يقوله المعتزلة، بل هو في الأول في العذاب ولكن ليس من المحضرين دوام الحضور، وفي الآخرة هو في الرياض ولكنه ليس من المحبورين غاية الحبور كل ذلك بحكم الوعد[٥].

وقوله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ يَهْدِيهِمْ رَبُّهُم بِإِيمَانِهِمْ تَجْرِي مِن تَحْتِهِمُ الْأَنْهَارُ فِي جَنَّاتِ النَّعِيمِ ۝٩﴾ [يونس:٩] دلت هذه الآية على أن الإيمان الذي يستحق به العبد الهداية

(١) انظر: القواعد الحسان لتفسير القرآن، السعدي ص٤٨.
(٢) انظر: تفسير الراغب الأصفهاني ١/ ٢٤٥.
(٣) انظر: المصدر السابق ٤/ ٢٠٨.
(٤) انظر: مفاتيح الغيب، الرازي ٣/ ٥٨٤.
(٥) انظر: المصدر السابق ٢٥/ ٨٥.

والتوفيق والنور يوم القيامة، هو إيمان مقيد، وهو الإيمان المقرون بالعمل الصالح والإيمان الذي لم يقرن بالعمل الصالح فصاحبه لا توفيق له ولا نور[1].

وبهذا يتبين أن الإيمان هو الاعتقاد فقط، أما الأعمال الصالحات والإيمان فكل منهما غير الآخر ولكن الجمع بينهما شرط لاستحقاق البشارة بالجنات[2].

ثانيًا: أسباب صلاح الأعمال:

إن أسباب العمل الصالح تتمثل في: الإخلاص لله تعالى ومتابعة الرسول صلى الله عليه وسلم، ومن الآيات التي جمعت بين ذلك قوله تعالى:: ﴿وَمَن يَعْمَلْ مِنَ الصَّٰلِحَٰتِ مِن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُولَٰٓئِكَ يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ وَلَا يُظْلَمُونَ نَقِيرًا ﴿١٢٤﴾ وَمَنْ أَحْسَنُ دِينًا مِّمَّنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُۥ لِلَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ وَاتَّبَعَ مِلَّةَ إِبْرَٰهِيمَ حَنِيفًا وَاتَّخَذَ اللَّهُ إِبْرَٰهِيمَ خَلِيلًا ﴿١٢٥﴾﴾ [النساء:١٢٤-١٢٥].

فالآيتان تبينان شرطا العمل الصالح اللذان لا يصح عمل عامل بدونهما، وهما الإخلاص والمتابعة فمتى فقد العمل أحد هذين الشرطين فسد، فمتى فقد الإخلاص كان منافقا وهم الذين يراءون الناس، ومن فقد المتابعة كان ضالًا جاهلًا، ومتى جمعهما كان عمله من أعمال المؤمنين ﴿الَّذِينَ نَتَقَبَّلُ عَنْهُمْ أَحْسَنَ مَا عَمِلُوا وَنَتَجَاوَزُ عَن سَيِّـَٔاتِهِمْ﴾ [الأحقاف:١٦][3].

وكل عمل لا يقوم على أسباب العمل الصالح يكون يوم القيامة لا قيمة له ولا وزن، قال تعالى: ﴿وَقَدِمْنَآ إِلَىٰ مَا عَمِلُوا مِنْ عَمَلٍ فَجَعَلْنَٰهُ هَبَآءً مَّنثُورًا ﴿٢٣﴾﴾ [الفرقان:٢٣].

قال ابن كثير: «هذا يوم القيامة حين يحاسب الله العباد على ما عملوه من الخير والشر، فأخبر أنه لا يحصل لهؤلاء المشركين من الأعمال التي ظنوا أنها منجاة لهم شيء، وذلك لأنها فقدت الشرط الشرعي إما الإخلاص فيها وإما المتابعة لشرع الله. فكل عمل لا يكون خالصا وعلى الشريعة المرضية فهو باطل، فأعمال الكفار لا تخلو من واحد من هذين، وقد تجمعهما معا فتكون أبعد من القبول حينئذ، ولهذا قال تعالى: ﴿وَقَدِمْنَآ إِلَىٰ مَا عَمِلُوا مِنْ عَمَلٍ فَجَعَلْنَٰهُ هَبَآءً مَّنثُورًا ﴿٢٣﴾﴾ قال مجاهد والثوري ﴿وَقَدِمْنَآ﴾ أي: عمدنا، وكذا قال السدي، وبعضهم يقول: أتينا عليه.

وقوله تعالى: ﴿فَجَعَلْنَٰهُ هَبَآءً مَّنثُورًا﴾ قال سفيان الثوري عن أبي إسحاق عن الحارث عن علي رضي الله عنه في قوله: ﴿هَبَآءً مَّنثُورًا﴾ قال: شعاع الشمس إذا دخل الكوة، وكذا روي من غير هذا الوجه

---

(١) انظر: الكشاف، الزمخشري ٢/ ٣٣٠.

(٢) انظر: اتجاهات التفسير في القرن الرابع عشر، فهد الرومي ١/ ٣٣٩.

(٣) انظر: تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ٢/ ٣٧٣.

عن علي وروي مثله عن ابن عباس ومجاهد وعكرمة وسعيد بن جبير والسدي والضحاك وغيرهم، وكذا قال الحسن البصري: هو الشعاع في كوة أحدهم، ولو ذهب يقبض عليه لم يستطع. وقال علي بن أبي طلحة عن ابن عباس ﴿هَبَآءً مَّنثُورًا﴾ قال: هو الماء المهراق. وقال أبو الأحوص عن أبي إسحاق عن الحارث عن علي ﴿هَبَآءً مَّنثُورًا﴾ قال: الهباء رهج الدواب، وروي مثله عن ابن عباس أيضًا والضحاك، وقاله عبد الرحمن بن زيد بن أسلم»[1].

وكذلك قوله تعالى: ﴿قُلْ إِنَّمَآ أَنَا۠ بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يُوحَىٰٓ إِلَىَّ أَنَّمَآ إِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ فَمَن كَانَ يَرْجُوا۟ لِقَآءَ رَبِّهِۦ فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَٰلِحًا وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِۦٓ أَحَدًۢا ﴿١١٠﴾﴾ [الكهف:١١٠]

إن العمل لا يكون صحيحًا مقبولًا عند الله إلا إذا توفرت فيه ثلاثة شروط على وجه الإجمال، دل عليها الكتاب العزيز والسنة المطهرة، وهذه الشروط هي:

الشرط الأول: أن يكون العامل مؤمنًا موحدًا.

الشرط الثاني: الإخلاص وهو أن يقصد بعمله وجه الله عز وجل.

الشرط الثالث: المتابعة للنبي صلى الله عليه وسلم وهو أن يعمل مهتديا بشريعة النبي صلى الله عليه وسلم من دون غلو أو ابتداع[2].

والدليل على وجوب المتابعة قوله تعالى: ﴿قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ ٱللَّهَ فَٱتَّبِعُونِى يُحْبِبْكُمُ ٱللَّهُ﴾ [آل عمران:٣١].

قال ابن المنذر: «جعل الله اتباع نبيه صلى الله عليه وسلم علما لحبه، وكذب من خالفها، ثم جعل على كل قول دليلا من عمل يصدقه أو يكذبه، فإذا قال العبد قولا حسنا، وعمل عملا حسنا رفع الله قوله بعمله، وإذا قال العبد قولا حسنا، وعمل عملا حسنا رفع الله قوله بعمله، وإذا قال العبد قولا حسنا، وعمل عملا سيئا رد الله القول على العمل، وذلك في كتابه: ﴿إِلَيْهِ يَصْعَدُ ٱلْكَلِمُ ٱلطَّيِّبُ وَٱلْعَمَلُ ٱلصَّٰلِحُ يَرْفَعُهُۥ﴾ [فاطر:١٠]»[3].

ثالثًا: تمني القيام بالعمل الصالح بعد الموت:

بين الله تعالى أن من لا يعمل صالحًا يتمنى أن يرجع إلى الدنيا فيعمل صالحًا، قال تعالى: ﴿وَهُمْ يَصْطَرِخُونَ فِيهَا رَبَّنَآ أَخْرِجْنَا نَعْمَلْ صَٰلِحًا غَيْرَ ٱلَّذِى كُنَّا نَعْمَلُ أَوَلَمْ نُعَمِّرْكُم مَّا يَتَذَكَّرُ فِيهِ مَن تَذَكَّرَ وَجَآءَكُمُ ٱلنَّذِيرُ فَذُوقُوا۟ فَمَا لِلظَّٰلِمِينَ مِن نَّصِيرٍ ﴿٣٧﴾﴾ [فاطر:٣٧]

---

(١) تفسير القرآن العظيم ٦/ ٩٣.

(٢) انظر: الأمثال القرآنية القياسية المضروبة للإيمان بالله، الجربوع ٢/ ٥٤١.

(٣) تفسير ابن المنذر ١/ ١٦٩.

فهم يستغيثون ربهم يقولون: ﴿رَبَّنَا أَخْرِجْنَا نَعْمَلْ صَٰلِحًا غَيْرَ ٱلَّذِى كُنَّا نَعْمَلُ﴾، أي أخرجنا إلى الدنيا فنؤمن بدل الكفر ونطيع بدل المعصية، فوبخهم الله فقال: ﴿أَوَلَمْ نُعَمِّرْكُم مَّا يَتَذَكَّرُ فِيهِ مَن تَذَكَّرَ﴾[1].

قال الماوردي: ﴿أَوَلَمْ نُعَمِّرْكُم مَّا يَتَذَكَّرُ فِيهِ مَن تَذَكَّرَ﴾ فيه خمسة تأويلات:

أحدها: أنه البلوغ، قاله الحسن لأنه أول زمان التذكر.

الثاني: ثماني عشرة سنة.

الثالث: أربعون سنة، قاله ابن عباس ومسروق.

الرابع: ستون سنة، قاله علي بن أبي طالب مرفوعًا.

الخامس: سبعون سنة؛ لأنه آخر زمان التذكر، وما بعده هرم.

قوله عز وجل: ﴿وَجَآءَكُمُ ٱلنَّذِيرُ﴾ فيه أربعة أقاويل:

أحدها: محمد صلى الله عليه وسلم، قاله ابن زيد.

الثاني: الشيب، حكاه الفراء والطبري.

الثالث: الحمى.

الرابع: موت الأهل والأقارب.

ويحتمل خامسًا: أنه كمال العقل[2].

وقوله تعالى: ﴿وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذِ ٱلْمُجْرِمُونَ نَاكِسُوا۟ رُءُوسِهِمْ عِندَ رَبِّهِمْ رَبَّنَآ أَبْصَرْنَا وَسَمِعْنَا فَٱرْجِعْنَا نَعْمَلْ صَٰلِحًا إِنَّا مُوقِنُونَ ﴿١٢﴾﴾ [السجدة:١٢].

«يخبر تعالى عن حال المشركين يوم القيامة وقالهم حين عاينوا البعث وقاموا بين يدي الله عز وجل، حقيرين ذليلين ناكسي رؤوسهم، أي من الحياء والخجل يقولون: ربنا أبصرنا وسمعنا أي: نحن الآن نسمع قولك ونطيع أمرك، كما قال تعالى: ﴿أَسْمِعْ بِهِمْ وَأَبْصِرْ يَوْمَ يَأْتُونَنَا﴾ [مريم:٣٨].

وكذلك يعودون على أنفسهم بالملامة إذا دخلوا النار بقولهم: ﴿وَقَالُوا۟ لَوْ كُنَّا نَسْمَعُ أَوْ نَعْقِلُ مَا كُنَّا فِىٓ أَصْحَٰبِ ٱلسَّعِيرِ ﴿١٠﴾﴾ [الملك:١٠]، وهكذا هؤلاء يقولون: ﴿رَبَّنَآ أَبْصَرْنَا وَسَمِعْنَا فَٱرْجِعْنَا نَعْمَلْ صَٰلِحًا إِنَّا مُوقِنُونَ﴾ أي: قد أيقنا وتحققنا فيها أن وعدك حق ولقاءك حق، وقد علم الرب تعالى منهم أنه لو أعادهم إلى دار الدنيا لكانوا كما كانوا فيها كفارًا يكذبون بآيات الله ويخالفون رسله»[3].

ولا يقتصر تمني من لا يعمل صالحًا على ذلك في الآخرة بل يتمنى قبل ذلك عند حضور الموت، قال تعالى: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَ أَحَدَهُمُ ٱلْمَوْتُ قَالَ رَبِّ ٱرْجِعُونِ ﴿٩٩﴾ لَعَلِّىٓ

---

(١) انظر: معاني القرآن وإعرابه، الزجاج ٤/ ٢٧١.

(٢) النكت والعيون ٤/ ٤٧٦.

(٣) تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ٦/ ٣٢٣.

﴿أَعْمَلُ صَٰلِحًا فِيمَا تَرَكْتُ كَلَّآ إِنَّهَا كَلِمَةٌ هُوَ قَآئِلُهَا وَمِن وَرَآئِهِم بَرْزَخٌ إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ ﴿١٠٠﴾﴾ [المؤمنون:٩٩-١٠٠].

يخبر تعالى عن حال المحتضر عند الموت من الكافرين أو المفرطين في أمر الله تعالى، وقيلهم عند ذلك وسؤالهم الرجعة إلى الدنيا ليصلح ما كان أفسده في مدة حياته، ولهذا قال: ﴿رَبِّ ٱرْجِعُونِ ﴿٩٩﴾ لَعَلِّىٓ أَعْمَلُ صَٰلِحًا فِيمَا تَرَكْتُ﴾، كما قال تعالى: ﴿وَأَنفِقُوا۟ مِن مَّا رَزَقْنَٰكُم مِّن قَبْلِ أَن يَأْتِىَ أَحَدَكُمُ ٱلْمَوْتُ فَيَقُولَ رَبِّ لَوْلَآ أَخَّرْتَنِىٓ إِلَىٰٓ أَجَلٍ قَرِيبٍ فَأَصَّدَّقَ وَأَكُن مِّنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿١٠﴾ وَلَن يُؤَخِّرَ ٱللَّهُ نَفْسًا إِذَا جَآءَ أَجَلُهَا وَٱللَّهُ خَبِيرٌۢ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴿١١﴾﴾ [المنافقون:١٠-١١][1].

ولما تمنى أن يرجع ليعمل رد الله عليه ذلك بقوله: كلا إنها كلمة هو قائلها فجاء بكلمة الردع والزجر، والضمير في «إنها» يرجع إلى قوله: رب ارجعون أي: إن هذه الكلمة هو قائلها لا محالة، وليس الأمر على ما يظنه من أنه يجاب إلى الرجوع إلى الدنيا، أو المعنى: أنه أجيب إلى ذلك لما حصل منه الوفاء، كما في قوله: ﴿وَلَوْ رُدُّوا۟ لَعَادُوا۟ لِمَا نُهُوا۟ عَنْهُ وَإِنَّهُمْ لَكَٰذِبُونَ﴾ [الأنعام:٢٨]. وقيل: إن الضمير في ﴿قَآئِلُهَا﴾ يرجع إلى الله، أي: لا خلف في خبره[2].

(١) المصدر السابق ٥/ ٤٢٩.

(٢) انظر: فتح القدير، الشوكاني ٣/ ٥٨٩.

جزاء الصلاح في الدنيا والآخرة

بين الله تعالى في كتابه الكريم الجزاء على الصلاح، وأنه يكون في الدنيا للصالحين، ويكون كذلك في الآخرة بسبب صلاحهم.

أولًا: جزاء الصلاح في الدنيا:

إن جزاء الصلاح في الدنيا يتمثل في وراثة الأرض، وصلاح الأولاد، وولاية الله تعالى، والنجاة من المجرمين، والاصطفاء الإلهي، والتوفيق للهداية للحق والصواب، والمودة والمحبة في قلوب الخلق، وفضل الله تعالى على الصالحين، والخروج من الظلمات إلى النور، والخيرية بين الخلق، وبيان ذلك فيما يأتي:

١. وراثة الأرض.

قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ كَتَبْنَا فِى ٱلزَّبُورِ مِنۢ بَعْدِ ٱلذِّكْرِ أَنَّ ٱلْأَرْضَ يَرِثُهَا عِبَادِىَ ٱلصَّٰلِحُونَ ﴿١٠٥﴾﴾ [الأنبياء:١٠٥].

يقول تعالى مخبرًا عما حتمه وقضاه لعباده الصالحين من السعادة في الدنيا والآخرة ووراثة الأرض في الدنيا والآخرة؛ كقوله تعالى: ﴿وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مِنكُمْ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِى ٱلْأَرْضِ كَمَا ٱسْتَخْلَفَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ ٱلَّذِى ٱرْتَضَىٰ لَهُمْ وَلَيُبَدِّلَنَّهُم مِّنۢ بَعْدِ

﴿خَوۡفِهِمۡ أَمۡنٗا﴾ [النور:٥٥].

وأخبر تعالى أن هذا مسطور في الكتب الشرعية والقدرية وهو كائن لا محالة، ولهذا قال تعالى: ﴿وَلَقَدۡ كَتَبۡنَا فِي ٱلزَّبُورِ مِنۢ بَعۡدِ ٱلذِّكۡرِ﴾[1].

وقد اختلف المفسرون في معنى الأرض المذكورة في الآية، على أقوال، والراجح من هذه الأقوال: إن الأرض هي الدنيا[2]، ورجح هذا القول الإمام الزجاج[3]؛ وذلك لما مضى في السورة ذكر الأنبياء عليهم الصلاة والسلام وأممهم، وختم الحديث عنهم بذكر الساعة وقربها ومقدماتها، وأحوال الخلق يوم القيامة جاء في هذه الآية ذكر الأمة التي جاءت بعد تلك الأمم كلها، وهي أمة محمد صلى الله عليه وسلم، وإنما كانت هذه الآية في أمة محمد؛ لأنه لما تكلم على الأمم الخالية لم يسبق الكلام إلا عليها؛ فخوطبت بما قضاه الله وكتبه من إرث الصالحين الأرض.

ولأن المخاطبين بهذه الآية المكية هم المؤمنون بالله، الموحدون له، المتبعون لرسوله محمد صلى الله عليه وسلم المصدق لجميع الرسل صلوات الله عليهم، وهم أصحاب النبي صلى الله عليه وسلم وهم الصالحون الموجودون يوم ذاك على وجه الأرض، فكانت الآية إعلامًا بما كتبه الله لهم، ووعدًا بإرثهم الأرض[4].

٢ . صلاح الأولاد.

ذكر الله سبحانه وتعالى أن من جزاء الصلاح في الدنيا صلاح الأولاد، قال تعالى: ﴿وَأَمَّا ٱلۡجِدَارُ فَكَانَ لِغُلَٰمَيۡنِ يَتِيمَيۡنِ فِي ٱلۡمَدِينَةِ وَكَانَ تَحۡتَهُۥ كَنزٞ لَّهُمَا وَكَانَ أَبُوهُمَا صَٰلِحٗا فَأَرَادَ رَبُّكَ أَن يَبۡلُغَآ أَشُدَّهُمَا وَيَسۡتَخۡرِجَا كَنزَهُمَا رَحۡمَةٗ مِّن رَّبِّكَۚ وَمَا فَعَلۡتُهُۥ عَنۡ أَمۡرِيۚ ذَٰلِكَ تَأۡوِيلُ مَا لَمۡ تَسۡطِع عَّلَيۡهِ صَبۡرٗا ٨٢﴾ [الكهف:٨٢].

فقد أخرج ابن جرير الطبري وابن أبي حاتم عن ابن عباس، في قوله: ﴿وَكَانَ أَبُوهُمَا صَٰلِحٗا﴾ قال: حفظا بصلاح أبيهما، وما ذكر منهما صلاح[5].

وعن ابن عباس أيضا قال: إن الله يصلح بصلاح الرجل ولده وولد ولده ويحفظه في ذريته والدويرات حوله، فما يزالون في ستر من الله وعافية[6]، وبهذه الروايات يتبين أن صلاح الأولاد ثمرة وجزاء لصلاح الآباء في الدنيا.

(١) انظر: تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ٥/ ٣٣٧.
(٢) مفاتيح الغيب، الرازي ٢٢/ ١٩٢.
وانظر: جامع البيان، الطبري ١٨/ ٥٥٠، النكت والعيون، الماوردي ٣/ ٤٧٥، الجامع لأحكام القرآن، القرطبي ١١/ ٣٤٩.
(٣) انظر: معاني القرآن وإعرابه، الزجاج ٣/ ٤٠٧.
(٤) انظر: تفسير ابن باديس ص٣٤٥.
(٥) انظر: جامع البيان، الطبري ١٨/ ٩١، تفسير ابن أبي حاتم ٧/ ٢٣٧٥.
(٦) انظر: تفسير ابن أبي حاتم ٧/ ٢٣٧٥.

٣. ولاية الله تعالى.

ثبتت ولاية الله تعالى للصالحين في قوله تعالى: ﴿إِنَّ وَلِـِّۧيَ ٱللَّهُ ٱلَّذِي نَزَّلَ ٱلۡكِتَٰبَۖ وَهُوَ يَتَوَلَّى ٱلصَّٰلِحِينَ ١٩٦﴾ [الأعراف:١٩٦].

والمعنى: أن الله تعالى هو حسبي وكافي، وهو نصيري وعليه متكلي وإليه ألجأ، وهو وليي في الدنيا والآخرة وهو ولي كل صالح بعدي، وهذا كما قال هود عليه السلام لما قال له قومه: ﴿إِن نَّقُولُ إِلَّا ٱعۡتَرَىٰكَ بَعۡضُ ءَالِهَتِنَا بِسُوٓءٖۗ قَالَ إِنِّيٓ أُشۡهِدُ ٱللَّهَ وَٱشۡهَدُوٓاْ أَنِّي بَرِيٓءٞ مِّمَّا تُشۡرِكُونَ ٥٤ مِن دُونِهِۦۖ فَكِيدُونِي جَمِيعٗا ثُمَّ لَا تُنظِرُونِ ٥٥ إِنِّي تَوَكَّلۡتُ عَلَى ٱللَّهِ رَبِّي وَرَبِّكُمۚ مَّا مِن دَآبَّةٍ إِلَّا هُوَ ءَاخِذُۢ بِنَاصِيَتِهَآۚ إِنَّ رَبِّي عَلَىٰ صِرَٰطٖ مُّسۡتَقِيمٖ ٥٦﴾ [هود:٥٤-٥٦].

وكقول الخليل عليه السلام: ﴿قَالَ أَفَرَءَيۡتُم مَّا كُنتُمۡ تَعۡبُدُونَ ٧٥ أَنتُمۡ وَءَابَآؤُكُمُ ٱلۡأَقۡدَمُونَ ٧٦ فَإِنَّهُمۡ عَدُوّٞ لِّيٓ إِلَّا رَبَّ ٱلۡعَٰلَمِينَ ٧٧ ٱلَّذِي خَلَقَنِي فَهُوَ يَهۡدِينِ ٧٨﴾ [الشعراء:٧٥-٧٨].

وكقوله لأبيه وقومه: ﴿وَإِذۡ قَالَ إِبۡرَٰهِيمُ لِأَبِيهِ وَقَوۡمِهِۦٓ إِنَّنِي بَرَآءٞ مِّمَّا تَعۡبُدُونَ ٢٦ إِلَّا ٱلَّذِي فَطَرَنِي فَإِنَّهُۥ سَيَهۡدِينِ ٢٧ وَجَعَلَهَا كَلِمَةَۢ بَاقِيَةٗ فِي عَقِبِهِۦ لَعَلَّهُمۡ يَرۡجِعُونَ ٢٨﴾ [الزخرف:٢٦-٢٨][(١)].

قال الخازن: «إن وليي الله يعني: أن الذي يتولى حفظي وينصرني عليكم هو الله الذي نزل الكتاب، يعني القرآن، والمعنى كما أيدني بإنزال القرآن علي، كذلك يتولى حفظي وينصرني، وهو يتولى الصالحين يعني يتولاهم بنصره وحفظه، فلا تضرهم عداوة من عاداهم من المشركين وغيرهم ممن أرادهم بسوء أو كادهم بشر، قال ابن عباس: يريد بالصالحين الذين لا يعدلون بالله شيئًا ولا يعصونه وفي هذا مدح للصالحين لأن من تولاه الله يحفظه فلا يضره شيء»[(٢)].

وقال الشعراوي في قوله تعالى: ﴿وَهُوَ يَتَوَلَّى ٱلصَّٰلِحِينَ﴾ أي أنه لا يجعل الولاية خصوصية للرسول صلى الله عليه وسلم، بل يقول لكل واحد من أتباعه: كن صالحًا في أي وقت، أمام أي عدو، ستجد الله وهو يتولاك بالنصر، وساعة يعمم الله الحكم؛ فهو ينشر الطمأنينة الإيمانية في قلوب أتباعه صلى الله عليه وسلم، وكل من يحمل من أمر دعوته صلى الله عليه وسلم شيئًا ما سوف يكون له هذا التأييد، وهو سبحانه الذي جعل رسوله مبلغًا عنه هذا المنهج، وهو سبحانه يتولى الصالحين لعمارة الكون؛ لأن الله قد جعل الإنسان خليفة ليصلح في الكون، وأول مراتب الإصلاح أن يبقى الصالح على صلاحه، أو أن يزيده

(١) انظر: تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ٣/ ٤٧٩.

(٢) انظر: لباب التأويل ٢/ ٢٨٣.

صلاحًا إن أمكن»[1].

٤. النجاة من المجرمين.

إن الله تعالى ينجي الصالحين من المجرمين ومكرهم وتآمرهم كما نجى الله تعالى نبيه إبراهيم عليه السلام، قال تعالى: ﴿قَالُوا حَرِّقُوهُ وَانصُرُوا آلِهَتَكُمْ إِن كُنتُمْ فَاعِلِينَ ﴿٦٨﴾ قُلْنَا يَا نَارُ كُونِي بَرْدًا وَسَلَامًا عَلَىٰ إِبْرَاهِيمَ ﴿٦٩﴾ وَأَرَادُوا بِهِ كَيْدًا فَجَعَلْنَاهُمُ الْأَخْسَرِينَ ﴿٧٠﴾ وَنَجَّيْنَاهُ وَلُوطًا إِلَى الْأَرْضِ الَّتِي بَارَكْنَا فِيهَا لِلْعَالَمِينَ ﴿٧١﴾ وَوَهَبْنَا لَهُ إِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ نَافِلَةً ۖ وَكُلًّا جَعَلْنَا صَالِحِينَ ﴿٧٢﴾﴾ [الأنبياء: ٦٨-٧٢].

والمعنى: ونجينا إبراهيم ولوطًا من أعدائهما نمرود وقومه من أرض العراق ﴿إِلَى الْأَرْضِ الَّتِي بَارَكْنَا فِيهَا لِلْعَالَمِينَ﴾ وهي أرض الشام، فارق صلوات الله عليه قومه ودينهم وهاجر إلى الشام[2].

وكما نجى الله تعالى نبيه لوط عليه السلام، قال تعالى: ﴿وَلُوطًا آتَيْنَاهُ حُكْمًا وَعِلْمًا وَنَجَّيْنَاهُ مِنَ الْقَرْيَةِ الَّتِي كَانَت تَّعْمَلُ الْخَبَائِثَ ۗ إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمَ سَوْءٍ فَاسِقِينَ ﴿٧٤﴾ وَأَدْخَلْنَاهُ فِي رَحْمَتِنَا ۖ إِنَّهُ مِنَ الصَّالِحِينَ ﴿٧٥﴾﴾ [الأنبياء: ٧٤-٧٥].

والمعنى: ونجيناه من القرية التي كانت تعمل الخبائث يعني: قرية سدوم وأراد أهلها

(١) انظر: تفسير الشعراوي ٨/ ٤٥٣٠.
(٢) انظر: جامع البيان، الطبري ١٨/ ٤٦٨.

وأراد بالخبائث إتيان الذكور في أدبارهم، وكانوا يتضارطون في مجالسهم مع أشياء أخرى كانوا يعلمونها من المنكرات إنهم كانوا قوم سوء فاسقين وأدخلناه في رحمتنا قيل: أراد بالرحمة النبوة وقيل أراد بها الثواب إنه من الصالحين أي الأنبياء[3].

كما نجى الله تعالى نبيه موسى عليه السلام وبني إسرائيل من فرعون وقومه، قال تعالى: ﴿يَا بَنِي إِسْرَائِيلَ قَدْ أَنجَيْنَاكُم مِّنْ عَدُوِّكُمْ وَوَاعَدْنَاكُمْ جَانِبَ الطُّورِ الْأَيْمَنَ وَنَزَّلْنَا عَلَيْكُمُ الْمَنَّ وَالسَّلْوَىٰ ﴿٨٠﴾ كُلُوا مِن طَيِّبَاتِ مَا رَزَقْنَاكُمْ وَلَا تَطْغَوْا فِيهِ فَيَحِلَّ عَلَيْكُمْ غَضَبِي ۖ وَمَن يَحْلِلْ عَلَيْهِ غَضَبِي فَقَدْ هَوَىٰ ﴿٨١﴾ وَإِنِّي لَغَفَّارٌ لِّمَن تَابَ وَآمَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا ثُمَّ اهْتَدَىٰ ﴿٨٢﴾﴾ [طه: ٨٠-٨٢].

كقوله تعالى: ﴿وَإِذْ أَنجَيْنَاكُم مِّنْ آلِ فِرْعَوْنَ يَسُومُونَكُمْ سُوءَ الْعَذَابِ يُقَتِّلُونَ أَبْنَاءَكُمْ وَيَسْتَحْيُونَ نِسَاءَكُمْ ۚ وَفِي ذَٰلِكُم بَلَاءٌ مِّن رَّبِّكُمْ عَظِيمٌ ﴿١٤١﴾ ۞ وَوَاعَدْنَا مُوسَىٰ ثَلَاثِينَ لَيْلَةً وَأَتْمَمْنَاهَا بِعَشْرٍ فَتَمَّ مِيقَاتُ رَبِّهِ أَرْبَعِينَ لَيْلَةً ۚ وَقَالَ مُوسَىٰ لِأَخِيهِ هَارُونَ اخْلُفْنِي فِي قَوْمِي وَأَصْلِحْ وَلَا تَتَّبِعْ سَبِيلَ الْمُفْسِدِينَ ﴿١٤٢﴾﴾ [الأعراف: ١٤١-١٤٢].

فهذه الآيات الكريمة وغيرها مما هي في معناها فيها تذكير لبنى إسرائيل بنعمة من أجل نعم الله عليهم، حيث أنجاهم سبحانه ممن أراد لهم السوء، وعمل على قتلهم

(٣) انظر: لباب التأويل، الخازن ٣/ ٢٣٢

وإبادتهم واستئصال شأفتهم، وفي ذلك ما يدعوهم إلى الاجتهاد في شكر الله عز وجل لو كانوا ممن يحسنون شكر النعم[1].

وهذا كقوله تعالى: ﴿ثُمَّ نُنَجِّي رُسُلَنَا وَالَّذِينَ آمَنُوا كَذَلِكَ حَقًّا عَلَيْنَا نُنجِ الْمُؤْمِنِينَ ﴿١٠٣﴾﴾ [يونس:١٠٣].

قال أبو جعفر: «يقول تعالى ذكره: قل يا محمد، لهؤلاء المشركين من قومك: انتظروا مثل أيام الذين خلوا من قبلكم من الأمم السالفة الذين هلكوا بعذاب الله، فإن ذلك إذا جاء لم يهلك به سواهم، ومن كان على مثل الذي هم عليه من تكذيبك، ثم ننجي هناك رسولنا محمدا صلى الله عليه وسلم ومن آمن به وصدقه واتبعه على دينه، كما فعلنا قبل ذلك برسلنا الذين أهلكنا أممهم، فأنجيناهم ومن آمن به معهم من عذابنا حين حق على أممهم ﴿كَذَلِكَ حَقًّا عَلَيْنَا نُنجِ الْمُؤْمِنِينَ﴾، يقول: كما فعلنا بالماضين من رسلنا فأنجيناها والمؤمنين معها وأهلكنا أممها، كذلك نفعل بك، يا محمد، وبالمؤمنين، فننجيك وننجي المؤمنين بك، حقا علينا غير شك»[2].

والنجاة للصالحين تكون من أعدائهم، ومن مكاره الدنيا والآخرة، وشدائدهما ﴿كَذَلِكَ حَقًّا عَلَيْنَا﴾ أوجبناه على أنفسنا ﴿نُنجِ الْمُؤْمِنِينَ﴾ وهذا من دفعه عن المؤمنين، قال تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ يُدَافِعُ عَنِ الَّذِينَ آمَنُوا﴾[الحج:٣٨]

فإنه -بحسب ما مع العبد من الإيمان- تحصل له النجاة من المكاره[3].

٥. الاصطفاء الإلهي.

إن الاصطفاء حال يستحقه العبد بكونه صالحًا، والاصطفاء ضربان، أحدهما في الآخرة والآخر في الدنيا، وهو اختصاص الله بعض العبيد بولايته ونبوته لخصوصيته فيه[4]، والاصطفاء: الاختيار بإخراج الصفوة من العباد والصالح من بني آدم: هو المؤدي حقوق الله عليه[5].

وبسبب الصلاح اصطفى الله تعالى من ذكرهم وآباءهم وإخوانهم وذريتهم في قوله تعالى: ﴿وَوَهَبْنَا لَهُ إِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ كُلًّا هَدَيْنَا وَنُوحًا هَدَيْنَا مِن قَبْلُ وَمِن ذُرِّيَّتِهِ دَاوُودَ وَسُلَيْمَانَ وَأَيُّوبَ وَيُوسُفَ وَمُوسَى وَهَارُونَ وَكَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ ﴿٨٤﴾ وَزَكَرِيَّا وَيَحْيَى وَعِيسَى وَإِلْيَاسَ كُلٌّ مِّنَ الصَّالِحِينَ ﴿٨٥﴾ وَإِسْمَاعِيلَ وَالْيَسَعَ وَيُونُسَ وَلُوطًا وَكُلًّا فَضَّلْنَا عَلَى الْعَالَمِينَ ﴿٨٦﴾ وَمِنْ آبَائِهِمْ وَذُرِّيَّاتِهِمْ وَإِخْوَانِهِمْ وَاجْتَبَيْنَاهُمْ وَهَدَيْنَاهُمْ إِلَى صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٨٧﴾﴾ [الأنعام:٨٤-٨٧].

(١) انظر: التفسير الوسيط، طنطاوي ١/ ١٢٤.
(٢) انظر: جامع البيان، الطبري ١٥/ ٢١٦.
(٣) انظر: تيسير الكريم الرحمن، السعدي ص٣٧٥.
(٤) انظر: تفسير الراغب الأصفهاني ١/ ٣١٧
(٥) انظر: تفسير ابن فورك ٢/ ١٧١

وقوله: ﴿فَٱصۡبِرۡ لِحُكۡمِ رَبِّكَ وَلَا تَكُن كَصَاحِبِ ٱلۡحُوتِ إِذۡ نَادَىٰ وَهُوَ مَكۡظُومٞ ۝٤٨ لَّوۡلَآ أَن تَدَٰرَكَهُۥ نِعۡمَةٞ مِّن رَّبِّهِۦ لَنُبِذَ بِٱلۡعَرَآءِ وَهُوَ مَذۡمُومٞ ۝٤٩ فَٱجۡتَبَٰهُ رَبُّهُۥ فَجَعَلَهُۥ مِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ۝٥٠﴾ [القلم:٤٨-٥٠].

وهذا الاصطفاء هو بمشيئة الله تعالى واختياره، قال تعالى: ﴿ٱللَّهُ يَجۡتَبِيٓ إِلَيۡهِ مَن يَشَآءُ وَيَهۡدِيٓ إِلَيۡهِ مَن يُنِيبُ﴾ [الشورى:١٣].

والمعنى: أن الله يصطفي إليه من يشاء من خلقه، ويختار لنفسه وولايته من أحب، ويوفق للعمل بطاعته، واتباع ما بعث به نبيه عليه صلى الله عليه وسلم من الحق من أقبل إلى طاعته، وراجع التوبة من معاصيه[1].

٦. التوفيق للهداية للحق والصواب.

من الجزاء على الصلاح في الدنيا التوفيق للهداية للحق والصواب، قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ يَهۡدِيهِمۡ رَبُّهُم بِإِيمَٰنِهِمۡۖ تَجۡرِي مِن تَحۡتِهِمُ ٱلۡأَنۡهَٰرُ فِي جَنَّٰتِ ٱلنَّعِيمِ ۝٩﴾ [يونس:٩].

والهداية هي: الإرشاد على المقصد النافع والدلالة عليه، فمعنى: ﴿يَهۡدِيهِمۡ رَبُّهُم﴾ يرشدهم إلى ما فيه خيرهم، والمقصود الإرشاد التكويني، أي يخلق في نفوسهم المعرفة بالأعمال النافعة وتسهيل الإكثار منها، وأما الإرشاد الذي هو الدلالة بالقول والتعليم فالله يخاطب به المؤمنين والكافرين.

وفي تكوين هدايتهم إلى الخيرات بجعل الله تعالى، بأن يجعل الله للإيمان نورًا يوضع في عقل المؤمن، ولذلك النور أشعة نورانية تتصل بين نفس المؤمن وبين عوالم القدس فتكون سببًا مغناطيسيًا لانفعال النفس بالتوجه إلى الخير والكمال لا يزال يزداد يومًا فيومًا، ولذلك يقترب من الإدراك الصحيح المحفوظ من الضلال بمقدار مراتب الإيمان والعمل الصالح[2].

والهداية هي التسديد والمعنى: يسددهم بسبب إيمانهم للاستقامة على سلوك الطريق السديد المؤدي إلى الثواب ولذا جعل ﴿تَجۡرِي مِن تَحۡتِهِمُ ٱلۡأَنۡهَٰرُ﴾ بيانًا له وتفسيرًا إذ التمسك بسبب السعادة كالوصول إليها، أو يهديهم في الآخرة بنور إيمانهم إلى طريق الجنة[3].

٧. المودة والمحبة في قلوب الخلق.

ومن الجزاء على الصلاح في الدنيا أن الله تعالى يجعل المودة والمحبة في قلوب الخلق للصالحين بسبب صلاحهم، قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ سَيَجۡعَلُ لَهُمُ ٱلرَّحۡمَٰنُ وُدّٗا ۝٩٦﴾

(١) انظر: جامع البيان، الطبري ٢١/ ٥١٤.

(٢) انظر: التحرير والتنوير، ابن عاشور ١١/ ١٠١.

(٣) انظر: مدارك التنزيل، النسفي ٢/ ٨.

[مريم:٩٦].

أي: حبًا يحبهم ويحببهم إلى عباده المؤمنين من أهل السموات والأرضين[(١)].

يخبر تعالى أنه يغرس لعباده المؤمنين الذين يعملون الصالحات، - وهي الأعمال التي ترضي الله عز وجل لمتابعتها الشريعة المحمدية يغرس لهم في قلوب عباده الصالحين محبة ومودة-، وهذا أمر لا بد منه ولا محيد عنه، وقد وردت بذلك الأحاديث الصحيحة عن رسول الله صلى الله عليه وسلم من غير وجه[(٢)]، منها ما رواه أبو هريرة رضي الله عنه، عن النبي صلى الله عليه وسلم، قال: (**إذا أحب الله العبد نادى جبريل: إن الله يحب فلانا فأحببه، فيحبه جبريل، فينادي جبريل في أهل السماء: إن الله يحب فلانا فأحبوه، فيحبه أهل السماء، ثم يوضع له القبول في الأرض**)[(٣)].

وفي رواية أخرى عن أبي هريرة رضي الله عنه، قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: (**إن الله إذا أحب عبدا دعا جبريل فقال: إني أحب فلانا فأحبه، قال: فيحبه جبريل، ثم ينادي في السماء فيقول: إن الله يحب فلانا فأحبوه، فيحبه أهل السماء، قال ثم يوضع له القبول في الأرض، وإذا أبغض عبدا دعا جبريل فيقول: إني أبغض فلانا فأبغضه، قال فيبغضه جبريل، ثم ينادي في أهل السماء إن الله يبغض فلانا فأبغضوه، قال: فيبغضونه، ثم توضع له البغضاء في الأرض**)[(٤)].

ومودة الناس تكسب بأسباب متعارفة بينهم منها القرابة، ومنها الصداقة، ومنها صنائع المعروف، ومآثر الإحسان، أما هذا الود الذي وعد الله به الذين آمنوا وعملوا الصالحات، فسببه جعل من الله له في قلوب العباد لهم، دون تردد منهم، ولا توقف على تلك الأسباب، فيودهم من لم يكن بينه وبينهم علاقة نسب أو صداقة، ولا وصل إليه منهم معروف، فهذا نوع من الود خاص يكرمهم الله به، وينعم عليهم به الرحمن من جملة نعمه التي يحدثها ويجددها لهم، زيادة على ما يقتضيه الإيمان والعمل الصالح وهما سبب لإكرامات كثيرة من الله تعالى، هذا الجعل للود منها[(٥)].

٨. فضل الله.

إن من جزاء العمل الصالح في الدنيا أن الله تعالى يتفضل على الذين آمنوا وعملوا الصالحات بنعمه ورزقه زيادة على ما

(١) انظر: الكشف والبيان، الثعلبي ٦/ ٢٣٣.
(٢) تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ٥/ ٢٣٦.
(٣) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب بدء الخلق، باب ذكر الملائكة، رقم ٣٢٠٩، ٤/ ١١١.
(٤) أخرجه مسلم في صحيحه، كتاب البر والصلة والآداب، باب إذا أحب الله عبدًا حببه لعباده، رقم ٢٦٣٧، ٤/ ٢٠٣٠.
(٥) انظر: تفسير ابن باديس ص٣٤٠.

يطلبوه منه سبحانه، قال تعالى: ﴿وَيَسْتَجِيبُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَيَزِيدُهُم مِّن فَضْلِهِ ۚ وَالْكَافِرُونَ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ ﴿٢٦﴾﴾ [الشورى:٢٦].

قال الإمام ابن جرير في قوله تعالى: ﴿وَيَزِيدُهُم مِّن فَضْلِهِ﴾ يقول تعالى ذكره: ويزيد الذين آمنوا وعملوا الصالحات مع إجابته إياهم دعاءهم، وإعطائه إياهم مسألتهم من فضله على مسألتهم إياه، بأن يعطيهم ما لم يسألوه. وقيل: إن ذلك الفضل الذي ضمن جل ثناؤه أن يزيد هموه، هو أن يشفعهم في إخوان إخوانهم إذا هم شفعوا في إخوانهم، فشفعوا فيهم[(١)].

٩. الخروج من الظلمات إلى النور.

إن الله سبحانه وتعالى أنزل الكتاب كي يخرج الذين صدقوا الله ورسوله وعملوا بما أمرهم الله به وأطاعوه من الظلمات إلى النور، يعني من ظلمة الجهل إلى نور العلم، ومن ظلمة الباطل إلى ضياء الحق، ومن الكفر إلى الإيمان، ومن الباطل إلى الحق، وما أشبه ذلك، قال تعالى: ﴿رَّسُولًا يَتْلُو عَلَيْكُمْ آيَاتِ اللَّهِ مُبَيِّنَاتٍ لِّيُخْرِجَ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ ۚ وَمَن يُؤْمِن بِاللَّهِ وَيَعْمَلْ صَالِحًا يُدْخِلْهُ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا ۖ قَدْ أَحْسَنَ اللَّهُ لَهُ رِزْقًا ﴿١١﴾﴾ [الطلاق:١١][(٢)].

قال ابن كثير: «﴿رَّسُولًا يَتْلُو عَلَيْكُمْ آيَاتِ اللَّهِ مُبَيِّنَاتٍ﴾ أي في حال كونها بينة وواضحة جلية ليخرج الذين آمنوا وعملوا الصالحات من الظلمات إلى النور، كقوله تعالى: ﴿كِتَابٌ أَنزَلْنَاهُ إِلَيْكَ لِتُخْرِجَ النَّاسَ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ﴾ [إبراهيم:١].

وقال تعالى: ﴿اللَّهُ وَلِيُّ الَّذِينَ آمَنُوا يُخْرِجُهُم مِّنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ﴾ [البقرة:٢٥٧].

أي: من ظلمات الكفر والجهل إلى نور الإيمان والعلم، وقد سمى الله تعالى الوحي الذي أنزله نورًا لما يحصل به من الهدى كما سماه روحًا لما يحصل به من حياة القلوب، فقال تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ رُوحًا مِّنْ أَمْرِنَا ۚ مَا كُنتَ تَدْرِي مَا الْكِتَابُ وَلَا الْإِيمَانُ وَلَٰكِن جَعَلْنَاهُ نُورًا نَّهْدِي بِهِ مَن نَّشَاءُ مِنْ عِبَادِنَا ۚ وَإِنَّكَ لَتَهْدِي إِلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٥٢﴾﴾ [الشورى:٥٢]»[(٣)].

١٠ الخيرية بين الخلق.

إن الخيرية بين الخلق جزاء للعمل الصالح قال تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ أُولَٰئِكَ هُمْ خَيْرُ الْبَرِيَّةِ ﴿٧﴾﴾ [البينة:٧].

يعني أنهم بسبب أعمالهم الصالحة

(١) انظر: جامع البيان، الطبري ٢١/ ٥١٤.

(٢) انظر: جامع البيان، الطبري ٢٣/ ٤٦٨، النكت والعيون ٦/ ٣٦، تفسير السمعاني ٥/ ٤٦٨.

(٣) تفسير القرآن العظيم ٨/ ١٧٧.

واجتنابهم الشرك استحقوا هذا الاسم[١].

والمعنى: «إن الذين آمنوا أي بالله ورسوله محمد، صلى الله عليه وسلم وعملوا الصالحات، أي من بذل النفس في سبيل الجهاد للحق، وبذل المال في أعمال البر، مع القيام بفرائض العبادات، والإخلاص في سائر ضروب المعاملات؛ لأن إذعانهم الصحيح، ووجدانهم لذة معرفة الحق، ملكت الحق قيادهم، فعملوا الأعمال الصالحة، وقوله: ﴿أُولَٰئِكَ هُمْ خَيْرُ الْبَرِيَّةِ﴾ أي أفضل الخليقة؛ لأنهم بمتابعة الحق عند معرفته بالدليل القائم عليه، قد حققوا لأنفسهم معنى الإنسانية التي شرفهم الله بها، وبالعمل الصالح، قد حفظوا نظام الفضيلة الذي جعله الله قوام الوجود الإنساني، وهدوا غيرهم بحسن الأسوة إلى مثل ما هدوا إليه من الخير والسعادة فمن يكون أفضل منهم؟»[٢].

ثانيًا: جزاء الصلاح في الآخرة:

يتمثل جزاء الصلاح في الآخرة في مغفرة الذنوب، وتكفير السيئات، والجنة ونعيمها، والدرجات العليا، ومرافقة الذين أنعم الله عليهم، ورضا الله ورؤية وجهه الكريم، وبيان ذلك في النقاط الآتية:

١ . مغفرة الذنوب وتكفير السيئات.

ذكر الله تعالى في آيات كثيرات أن جزاء العمل الصالح في الآخرة هو مغفرة الذنوب وتكفير السيئات. منها قوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَآمَنُوا بِمَا نُزِّلَ عَلَىٰ مُحَمَّدٍ وَهُوَ الْحَقُّ مِن رَّبِّهِمْ ۙ كَفَّرَ عَنْهُمْ سَيِّئَاتِهِمْ وَأَصْلَحَ بَالَهُمْ ۝٢﴾ [محمد:٢].

وقوله تعالى: ﴿وَإِنِّي لَغَفَّارٌ لِّمَن تَابَ وَآمَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا ثُمَّ اهْتَدَىٰ ۝٨٢﴾ [طه:٨٢].

وقوله تعالى: ﴿إِلَّا مَن تَابَ وَآمَنَ وَعَمِلَ عَمَلًا صَالِحًا فَأُولَٰئِكَ يُبَدِّلُ اللَّهُ سَيِّئَاتِهِمْ حَسَنَاتٍ ۗ وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا ۝٧٠﴾ [الفرقان:٧٠].

وقوله تعالى: ﴿وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ ۙ لَهُم مَّغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ عَظِيمٌ ۝٩﴾ [المائدة:٩].

وقوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَنُكَفِّرَنَّ عَنْهُمْ سَيِّئَاتِهِمْ وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَحْسَنَ الَّذِي كَانُوا يَعْمَلُونَ ۝٧﴾ [العنكبوت:٧].

وغيرها من الآيات.

والمراد بالغفران والمغفرة من الله هو أن يصون العبد من أن يمسه العذاب[٣]، والمراد بتكفير السيئات: سترها بالإيمان والعمل الصالح، والمراد إزالها ولم يؤاخذهم بها[٤].

(١) انظر: لباب التأويل، الخازن ٤/ ٤٥٦.
(٢) انظر: محاسن التأويل، القاسمي ٩/ ٥٢٤.
(٣) انظر: المفردات، الراغب ص ٦٠٩.
(٤) انظر: روح المعاني، الألوسي ١٣/ ١٩٥.

٢. الجنة و نعيمها.

بين الله تعالى في آيات كثيرات أنه سيدخل الذين آمنوا وعملوا الصالحات الجنة وأن لهم فيها نعيم دائم وأزواج مطهرة وظلال وارف، منها قوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّلِحَتِ سَنُدْخِلُهُمْ جَنَّتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَرُ خَلِدِينَ فِيهَا أَبَدًا لَّهُمْ فِيهَا أَزْوَاجٌ مُّطَهَّرَةٌ وَنُدْخِلُهُمْ ظِلًّا ظَلِيلًا ۝٥٧﴾ [النساء:٥٧].

والجنات، يعني: بساتين تجري من تحتها الأنهار، وهم خالدون، أي باقون فيها أبدًا بغير نهاية ولا انقطاع، دائما ذلك لهم فيها أبدًا، ولهم في تلك الجنات أزواج مطهرة، يعني: بريئات من الأدناس والريب والحيض والغائط والبول والحبل والبصاق، وسائر ما يكون في نساء أهل الدنيا﴿وَنُدْخِلُهُمْ ظِلًّا ظَلِيلًا﴾ أي وندخلهم ظلًا كنينًا، كما قال جل ثناؤه: ﴿وَظِلٍّ مَّمْدُودٍ ۝٣٠﴾ [الواقعة:٣٠].

وكما ورد عن أبي هريرة رضي الله عنه، عن النبي صلى الله عليه وسلم قال: (إن في الجنة لشجرة يسير الراكب في ظلها مائة سنة، واقرؤوا إن شئتم ﴿وَظِلٍّ مَّمْدُودٍ ۝٣٠﴾ [الواقعة:٣٠])[1][2].

وقال تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ يُدْخِلُ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّلِحَتِ جَنَّتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَرُ يُحَلَّوْنَ فِيهَا مِنْ أَسَاوِرَ مِن ذَهَبٍ وَلُؤْلُؤًا وَلِبَاسُهُمْ فِيهَا حَرِيرٌ ۝٢٣﴾ [الحج:٢٣].

والأساور جمع أسورة، وأسورة واحدها سوار، وفيه ثلاث لغات: ضم السين وكسرها وإسوار، قال المفسرون: لما كانت الملوك تلبس في الدنيا الأساور والتيجان جعل الله ذلك لأهل الجنة، وليس أحد من أهل الجنة إلا وفي يده ثلاثة أسورة: سوار من ذهب، وسوار من فضة، وسوار من لؤلؤ، وفي فاطر: ﴿يُحَلَّوْنَ فِيهَا مِنْ أَسَاوِرَ مِن ذَهَبٍ وَلُؤْلُؤًا﴾ [فاطر:٣٣].

وقال في سورة الإنسان: ﴿وَحُلُّوا أَسَاوِرَ مِن فِضَّةٍ﴾ [الإنسان:٢١].

وفي صحيح مسلم من حديث أبي هريرة رضي الله عنه سمعت خليلي صلى الله عليه وسلم يقول: (تبلغ الحلية من المؤمن حيث يبلغ الوضوء)[3][4].

وفي الجملة إن الله تعالى يهب للذين آمنوا وعملوا الصالحات نعمًا كثيرة، وتنعيمًا عظيمًا في الجنة، قال تعالى: ﴿فَالَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّلِحَتِ فِى

(١) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب بدء الخلق، باب ما جاء في صفة الجنة وأنها مخلوقة، رقم ٣٢٥٢، ٤/ ١١٩.
(٢) انظر: جامع البيان، الطبري ٨/ ٤٨٨.
(٣) أخرجه مسلم في صحيحه، كتاب الطهارة، باب تبلغ الحلية حيث يبلغ الوضوء، رقم ٢٥٠، ١/ ٢١٩.
(٤) انظر: الجامع لأحكام القرآن، القرطبي ١٢/ ٢٨.

﴿جَنَّٰتِ ٱلنَّعِيمِ﴾ [الحج:٥٦]:والنعيم:النعمة الكثيرة، وتنعم:تناول ما فيه النعمة وطيب العيش، يقال:نعمه تنعيما فتنعم. أي:جعله في نعمة. أي:لين عيش وخصب[١].

٣. الدرجات العليا.

بين الله تعالى أن الدرجات العلى هي جزاء الذين آمنوا وعملوا الصالحات، قال تعالى: ﴿وَمَن يَأْتِهِۦ مُؤْمِنًا قَدْ عَمِلَ ٱلصَّٰلِحَٰتِ فَأُو۟لَٰٓئِكَ لَهُمُ ٱلدَّرَجَٰتُ ٱلْعُلَىٰ ﴿٧٥﴾﴾ [طه:٧٥].

أي: الجنة ذات الدرجات العاليات، والغرف الآمنات، والمساكن الطيبات[٢].

وهذه الدرجات العليا هي جنات الفردوس على أحد المعاني الواردة في قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ كَانَتْ لَهُمْ جَنَّٰتُ ٱلْفِرْدَوْسِ نُزُلًا ﴿١٠٧﴾﴾ [الكهف:١٠٧].

قال الإمام الماوردي: « في ﴿ٱلْفِرْدَوْسِ﴾ خمسة أقاويل:

أحدها: أن الفردوس وسط الجنة وأطيب موضع فيها، قاله قتادة.

الثاني: أنه أعلى الجنة وأحسنها، رواه ضمرة مرفوعًا.

الثالث: أنه البستان بالرومية، قاله مجاهد.

الرابع: أنه البستان الذي جمع محاسن كل بستان، قاله الزجاج.

الخامس: أنه البستان الذي فيه الأعناب، قاله كعب»[٣].

قال قتادة: الفردوس ربوة الجنة وأوسطها وأعلاها وأفضلها وأرفعها. وقال أبو أمامة الباهلي: الفردوس سرة الجنة. وقال كعب: ليس في الجنان جنة أعلى من جنة الفردوس، فيها الآمرون بالمعروف، والناهون عن المنكر[٤].

وفي صحيح البخاري عن أبي هريرة رضي الله عنه، قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: (من آمن بالله وبرسوله، وأقام الصلاة، وصام رمضان كان حقا على الله أن يدخله الجنة، جاهد في سبيل الله أو جلس في أرضه التي ولد فيها)، فقالوا: يا رسول الله، أفلا نبشر الناس؟ قال: (إن في الجنة مائة درجة، أعدها الله للمجاهدين في سبيل الله، ما بين الدرجتين كما بين السماء والأرض، فإذا سألتم الله، فاسألوه الفردوس، فإنه أوسط الجنة وأعلى الجنة - أراه - فوقه عرش الرحمن، ومنه تفجر أنهار الجنة)[٥].

والدرجات العليا هي الغرفات المذكورة

(١) انظر: المفردات، الراغب ص ٨١٥.
(٢) انظر: تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ٥/ ٢٦٩.
(٣) النكت والعيون ٣/ ٣٤٨.
(٤) انظر: الجامع لأحكام القرآن، القرطبي ١١/ ٦٨.
(٥) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب الجهاد والسير، باب درجات المجاهدين في سبيل الله، يقال: هذه سبيلي وهذا سبيلي، رقم ٢٧٩٠، ٤/ ١٦.

في قوله تعالى: ﴿وَمَآ أَمْوَٰلُكُمْ وَلَآ أَوْلَٰدُكُم بِٱلَّتِي تُقَرِّبُكُمْ عِندَنَا زُلْفَىٰٓ إِلَّا مَنْ ءَامَنَ وَعَمِلَ صَٰلِحًا فَأُوْلَٰٓئِكَ لَهُمْ جَزَآءُ ٱلضِّعْفِ بِمَا عَمِلُوا۟ وَهُمْ فِي ٱلْغُرُفَٰتِ ءَامِنُونَ ﴿٣٧﴾﴾ [سبأ:٣٧].

وفي قوله تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَنُبَوِّئَنَّهُم مِّنَ ٱلْجَنَّةِ غُرَفًا تَجْرِي مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا ۚ نِعْمَ أَجْرُ ٱلْعَٰمِلِينَ ﴿٥٨﴾﴾ [العنكبوت:٥٨].

والغرفة في اللغة: العلية وكل بناء عال فهو غرفة والمراد به الدرجات العالية[١].

٤ . مرافقة الذين أنعم الله عليهم.

أخبر الله تعالى أن مرافقة الذين أنعم الله عليهم من جزاء الصلاح في الآخرة، قال تعالى: ﴿وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَٱلرَّسُولَ فَأُوْلَٰٓئِكَ مَعَ ٱلَّذِينَ أَنْعَمَ ٱللَّهُ عَلَيْهِم مِّنَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ وَٱلصِّدِّيقِينَ وَٱلشُّهَدَآءِ وَٱلصَّٰلِحِينَ ۚ وَحَسُنَ أُوْلَٰٓئِكَ رَفِيقًا ﴿٦٩﴾﴾ [النساء:٦٩].

والمعنى: ومن يطع الله والرسول بالتسليم لأمرهما، وإخلاص الرضى بحكمهما، والانتهاء إلى أمرهما، والانزجار عما نهيا عنه من معصية الله، فهو مع الذين أنعم الله عليهم بهدايته والتوفيق لطاعته في الدنيا من أنبيائه، وفي الآخرة إذا دخل الجنة والصديقين وهم جمع صديق، والصالحين، وهم جمع صالح، وهو كل من صلحت سريرته وعلانيته، وحسن، هؤلاء الذين نعتهم ووصفهم، رفقاء في الجنة[٢].

والآية تدل على أن مرتبة الصلاح مرتبة عظيمة جامعة لجميع المراتب؛ لأن الصالح إذا ترقى من مقامه يسمى شهيدا ثم صديقا ثم نبيًا[٣]

٥ . رضا الله ورؤية وجهه الكريم.

ثبت رضا الله تعالى عن الذين آمنوا وعملوا الصالحات، بقوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ أُوْلَٰٓئِكَ هُمْ خَيْرُ ٱلْبَرِيَّةِ ﴿٧﴾ جَزَآؤُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ جَنَّٰتُ عَدْنٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا ۖ رَّضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا۟ عَنْهُ ۚ ذَٰلِكَ لِمَنْ خَشِيَ رَبَّهُۥ ﴿٨﴾﴾ [البينة:٧-٨].

﴿رَّضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ﴾ بما أطاعوه في الدنيا، وعملوا لخلاصهم من عقابه في ذلك ﴿وَرَضُوا۟ عَنْهُ﴾ بما أعطاهم من الثواب يومئذ، على طاعتهم ربهم في الدنيا، وجزاهم عليها من الكرامة[٤].

وهذا الرضا هو بسبب عملهم الصالح جزاءلهم قال تعالى: ﴿جَزَآؤُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ جَنَّٰتُ عَدْنٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا ۖ رَّضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا۟ عَنْهُ ۚ ذَٰلِكَ لِمَنْ خَشِيَ رَبَّهُۥ ﴿٨﴾﴾ [البينة:٨].

ومقام رضاه عنهم أعلى مما أوتوه من

(١) انظر: مفاتيح الغيب، الرازي ٢٤/ ٤٨٧.

(٢) انظر: جامع البيان، الطبري ٨/ ٥٣٠.

(٣) انظر: روح البيان، إسماعيل حقي ٤/ ٣٢٥.

(٤) انظر: جامع البيان، الطبري ٢٤/ ٥٤٢.

النعيم المقيم، ورضوا عنه فيما منحهم من الفضل العميم[1].

أما النظر إلى وجهه الكريم فيدل على ذلك قوله تعالى: ﴿لِّلَّذِينَ أَحْسَنُوا الْحُسْنَىٰ وَزِيَادَةٌ ۖ وَلَا يَرْهَقُ وُجُوهَهُمْ قَتَرٌ وَلَا ذِلَّةٌ ۚ أُولَٰئِكَ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ ۖ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ﴿٢٦﴾﴾ [يونس:٢٦].

قال الإمام ابن كثير: «يخبر تعالى أن لمن أحسن العمل في الدنيا بالإيمان والعمل الصالح: الحسنى في الدار الآخرة كقوله تعالى: ﴿هَلْ جَزَاءُ الْإِحْسَانِ إِلَّا الْإِحْسَانُ ﴿٦٠﴾﴾ [الرحمن:٦٠].

وقوله: ﴿وَزِيَادَةٌ﴾ هي تضعيف ثواب الأعمال بالحسنة عشر أمثالها إلى سبعمائة ضعف وزيادة على ذلك أيضا، ويشمل ما يعطيهم الله في الجنان من القصور والحور والرضا عنهم، وما أخفاه لهم من قرة أعين وأفضل من ذلك وأعلاه النظر إلى وجهه الكريم فإنه زيادة أعظم من جميع ما أعطوه لا يستحقونها بعملهم بل بفضله ورحمته، وقد روي تفسير الزيادة بالنظر إلى وجهه الكريم عن أبي بكر الصديق وحذيفة بن اليمان وعبد الله بن عباس وسعيد بن المسيب وعبد الرحمن بن أبي ليلى وعبد الرحمن بن سابط ومجاهد وعكرمة وعامر بن سعد وعطاء والضحاك والحسن وقتادة والسدي ومحمد بن إسحاق وغيرهم من السلف والخلف»[2].

والزيادة هي النظر إلى وجه الله في قول أبي بكر الصديق، وأبي موسى الأشعري، وحذيفة، وابن عباس رضي الله عنهم، وقتادة، والضحاك، ونحو ذلك فسرها النبي صلى الله عليه وسلم في الحديث الصحيح الذي رواه صهيب رضي الله عنه، عن النبي صلى الله عليه وسلم قال: (إذا دخل أهل الجنة، قال: يقول الله تبارك وتعالى: (تريدون شيئا أزيدكم؟ فيقولون: ألم تبيض وجوهنا؟ ألم تدخلنا الجنة، وتنجنا من النار؟ قال: فيكشف الحجاب، فما أعطوا شيئا أحب إليهم من النظر إلى ربهم عز وجل، ثم تلا هذه الآية: ﴿لِّلَّذِينَ أَحْسَنُوا الْحُسْنَىٰ وَزِيَادَةٌ﴾ [يونس:٢٦])[3][4].

موضوعات ذات صلة.

الإصلاح، التغيير، الدعوة، الدفع، الفساد، النصيحة

(١) انظر: تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ٨/ ٤٣٩

(٢) المصدر السابق ٤/ ٢٢٩.

(٣) أخرجه مسلم في صحيحه، كتاب الإيمان، باب إثبات رؤية المؤمنين في الآخرة ربهم سبحانه وتعالى، رقم ١٨١، ١/ ١٦٣.

(٤) انظر: التفسير الوسيط، الواحدي ٢/ ٥٤٤.





عناصر الموضوع

المجلد الحادي والعشرون

مفهوم الصيام

أولًا: المعنى اللغوي:

مصدر صام يصوم صومًا، ويطلق على الإمساك[(١)] عن أي فعل أو قول كان[(٢)]، وقيل: «الإمساك عن الشيء والترك له. وقيل للصائم: صائم؛ لإمساكه عن المطعم والمشرب والمنكح. وقيل للصامت: صائم، لإمساكه عن الكلام. وقيل للفرس: صائم، لإمساكه عن العلف مع قيامه»[(٣)].

وقال ابن فارس رحمه الله: «الصاد والواو والميم أصلٌ يدل على إمساكٍ وركودٍ في مكان. من ذلك صوم الصائم، هو إمساكه عن مطعمه ومشربه وسائر ما منعه. ويكون الإمساك عن الكلام صومًا، قالوا في قوله تعالى: ﴿إِنِّي نَذَرْتُ لِلرَّحْمَٰنِ صَوْمًا﴾[مريم: ٢٦]. إنه الإمساك عن الكلام والصمت»[(٤)].

وقال ابن منظور رحمه الله: «الصوم: ترك الطعام والشراب والنكاح والكلام، صام يصوم صومًا وصيامًا واصطام، ورجلٌ صائمٌ وصومٌ من قومٍ صوامٍ وصيامٍ وصومٍ، بالتشديد، وصيم، قلبوا الواو لقربها من الطرف؛ وصيمٍ؛ عن سيبويه، كسروا لمكان الياء، وصيامٍ وصيامى، الأخير نادرٌ، وصومٍ وهو اسمٌ للجمع، وقيل: هو جمع صائمٍ»[(٥)].

ثانيًا: المعنى الاصطلاحي:

عبارة عن إمساكٍ مخصوصٍ، وهو الإمساك عن الأكل والشرب والجماع من الصبح إلى المغرب مع النية[(٦)].

وعرفه الحافظ ابن كثير رحمه الله بقوله: «هو: الإمساك عن الطعام والشراب والوقاع بنية

---

(١) انظر: المصباح المنير، الفيومي ١/ ٣٥٢، التعريفات، الجرجاني ص ١٣٦، المعجم الوسيط، مجمع اللغة العربية بالقاهرة ١/ ٥٢٩، القاموس الفقهي، سعدي أبو جيب ص ٢١٨-٢١٩.

(٢) المعجم الوسيط، مجمع اللغة العربية بالقاهرة ١/ ٥٢٩.

(٣) تهذيب اللغة، الأزهري ١٢/ ١٨٢.

(٤) مقاييس اللغة، ابن فارس ٣/ ٢٥٢.
وانظر: المصباح المنير، الفيومي ص٣٥٢.

(٥) لسان العرب، ابن منظور ١٢/ ٣٥٠.

(٦) التعريفات، الجرجاني ص ١٣٦.
وانظر: القاموس الفقهي، سعدي أبو جيب ص ٢١٨-٢١٩.

خالصة لله عز وجل»[1].

فالصيام يكون بالإمساك عن جميع المفطرات من أكل وشرب وجماع من طلوع الفجر إلى غروب الشمس، لقوله تعالى: ﴿وَكُلُوا وَاشْرَبُوا حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَكُمُ الْخَيْطُ الْأَبْيَضُ مِنَ الْخَيْطِ الْأَسْوَدِ مِنَ الْفَجْرِ ثُمَّ أَتِمُّوا الصِّيَامَ إِلَى اللَّيْلِ﴾ [البقرة: ١٨٧].

فالصلة بين التعريفين اللغوي والاصطلاحي للصيام أنه في اللغة أعم فهو بمعنى الإمساك عن أي قول أو فعل، أو هو بمعنى الترك، وهو في الاصطلاح بمعنى الإمساك عن الأكل والشرب والجماع من طلوع الفجر إلى غروب الشمس، وكذلك هو ترك الأكل والشرب والنكاح من طلوع الفجر إلى غروب الشمس مع النية، فبينهما عموم وخصوص، فاللغة أعم من الاصطلاح.

(١) تفسير القرآن العظيم، ابن كثير، ١/ ٤٩٧.

الصيام في الاستعمال القرآني

وردت مادة «صوم» في القرآن الكريم (١٤) مرة[١].

والصيغ التي وردت، هي:

الصيغة	عدد المرات	المثال
الفعل المضارع	٢	﴿فَمَن تَطَوَّعَ خَيْرًا فَهُوَ خَيْرٌ لَّهُۥ ۚ وَأَن تَصُومُوا۟ خَيْرٌ لَّكُمْ ۖ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿١٨٤﴾﴾ [البقرة:١٨٤]
المصدر	١٠	﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ كُتِبَ عَلَيْكُمُ ٱلصِّيَامُ﴾ [البقرة:١٨٣]
اسم الفاعل	٢	﴿وَٱلْمُتَصَدِّقِينَ وَٱلْمُتَصَدِّقَٰتِ وَٱلصَّٰٓئِمِينَ وَٱلصَّٰٓئِمَٰتِ﴾ [الأحزاب:٣٥]

وجاء الصيام في الاستعمال القرآني على وجهين[٢]:

الأول: الصيام الشرعي المعروف: ومنه قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ كُتِبَ عَلَيْكُمُ ٱلصِّيَامُ﴾ [البقرة: ١٨٣].

الثاني: الصمت: ومنه قوله تعالى: ﴿فَقُولِىٓ إِنِّى نَذَرْتُ لِلرَّحْمَٰنِ صَوْمًا فَلَنْ أُكَلِّمَ ٱلْيَوْمَ إِنسِيًّا﴾ [مريم: ٢٦] أي: سكوتًا.

---

(١) انظر: المعجم المفهرس الشامل لألفاظ القرآن الكريم، عبد الله جلغوم، باب الصاد، ص٧٠٨.

(٢) انظر: نزهة الأعين النواظر في علم الوجوه والنظائر، ابن الجوزي، ص٣٨٦-٣٨٧، بصائر ذوي التمييز، الفيروزآبادي ٣/ ٤٥٦.

الألفاظ ذات الصلة

١ العبادة:

العبادة لغةً:

من الفعل عبد يعبد، عبادةً وعبوديةً، والمفعول: معبود، وعبد الله بمعنى وحده وأطاعه، وانقاد وخضع وذل له، والتزم شرائع دينه، وأدى فرائضه[1].

العبادة اصطلاحًا:

قال المناوي: «العبادة فعل المكلف على خلاف هوى نفسه؛ تعظيمًا لربه، وقيل: هي الأفعال الواقعة على نهاية ما يمكن من التذلل والخضوع المتجاوز لتذلل بعض العباد لبعض، ولذلك اختصت بالرب، وهي أخص من العبودية التي تعني مطلق التذلل»[2].

وقال الراغب: «العبودية: إظهار التذلل، والعبادة أبلغ منها؛ لأنها غاية التذلل، ولا يستحقها إلا من له غاية الإفضال وهو الله تعالى»[3].

الصلة بين العبادة والصيام:

العبادة أعم من الصيام، فالصيام نوع من أنواع العبادات التي شرعها الله تعالى.

٢ الإمساك:

الإمساك لغة:

أصل الإمساك حبس النفس عن الفعل ومنه المساك وهو مكان يمسك الماء أي يحبسه، والجمع مسكٌ، والمسكة السوار سمي بذلك لأنه يلزم المعصم فهو كالمحبوس فيه، ونقيض الاستمساك الاسترسال، ونقيض الإمساك الإرسال»[4]. والإمساك عن الكلام هو السكوت، فالسكوت إمساك عن قولة الحق والباطل[5].

وأيضًا الإمساك يطلق على البخل، فيقال: رجل مسيك يعني بخيل، وفيه إمساكٌ ومسكةٌ بالضم وبضمتين، وكسحاب وسحابةٍ وكتابٍ وكتابةٍ: بخلٌ[6].

(١) انظر: معجم اللغة العربية المعاصرة ٢/ ١٤٤٨.
(٢) التوقيف على مهمات التعاريف ص ٢٣٤.
(٣) المفردات ص ٣١٨.
(٤) الفروق اللغوية، العسكري ص ٥١٧.
(٥) الكليات، الكفوي ص ٥٠٩.
(٦) القاموس المحيط، الفيروزآبادي ص ٩٥٣.
وانظر: الكليات، الكفوي ص ٢٤٢.

الإمساك اصطلاحًا:

لا يخرج عن أحد معانيه اللغوية.

الصلة بين الإمساك والصيام:

أن الإمساك أعم من الصيام، والصيام أخص، وهو الإمساك عن المفطرات من أكل، وشرب، وجماع، وغير ذلك.

الصيام عبادة قديمة

إن الله تبارك وتعالى فرض الصوم على هذه الأمة كما فرضه على الأمم من قبل؛ لما فيه من الثواب العظيم والأجر الكبير، ولأن الله جعله سببًا في حصول التقوى فقال سبحانه: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ كُتِبَ عَلَيْكُمُ ٱلصِّيَامُ كَمَا كُتِبَ عَلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾ [البقرة: ١٨٣].

فأخبر الله تبارك وتعالى عباده المؤمنون بأنه فرض عليهم الصيام وأوجبه كما فرضه على الأمم السابقة[١].

قال ابن سعدي رحمه الله: «يخبر تعالى بما من به على عباده، بأنه فرض عليهم الصيام، كما فرضه على الأمم السابقة؛ لأنه من الشرائع والأوامر التي هي مصلحة للخلق في كل زمان.

وفيه تنشيط لهذه الأمة، بأنه ينبغي لكم أن تنافسوا غيركم في تكميل الأعمال، والمسارعة إلى صالح الخصال، وأنه ليس من الأمور الثقيلة، التي اختصيتم بها»[٢].

وقال أبو زهرة رحمه الله: «كتب بمعنى فرض؛ لأنه قرره الله تعالى، وكتبه حتى صار مكتوبًا على المؤمنين، وقد أكد سبحانه الفرضية بقوله تعالى: ﴿عَلَيْكُمُ﴾، وبأنه شريعة النبيين أجمعين؛ ولذا قال تعالى: ﴿كَمَا كُتِبَ عَلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾ وأنه سبيل لتقوى النفس؛ ولذا قال: ﴿وَلَعَلَّكُمْ﴾ وذكر أنه أيامًا معدودات معروفة القدر، مبينة الابتداء والانتهاء»[٣].

والمراد بقوله: ﴿ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ﴾، قيل: بأنهم أهل الكتاب، وقيل: بأنهم النصارى، وقيل: بأنهم جميع الناس[٤]، ولكن الآية عامة فتشمل جميع الأمم السابقة.

ثم إن أهل العلم اختلفوا في المعنى الذي وقع فيه التشبيه بين صومنا وصوم من قبلنا، فقال بعضهم كما قال الطبري رحمه الله: «الذين أخبرنا الله عن الصوم الذي فرضه علينا أنه كمثل الذي كان عليهم هم النصارى، وقالوا: التشبيه الذي شبه من أجله أحدهما بصاحبه هو اتفاقهما في الوقت والمقدار الذي هو لازم لنا اليوم فرضه.

وقال آخرون: بل التشبيه إنما هو من أجل أن صومهم كان من العشاء الآخرة إلى العشاء الآخرة، وذلك كان فرض الله جل ثناؤه على المؤمنين في أول ما افترض عليهم الصوم. ووافق قائلو هذا القول القائلي القول الأول أن الذين عنى الله جل ثناؤه بقوله: ﴿كَمَا كُتِبَ عَلَى ٱلَّذِينَ مِن

(١) جامع البيان، الطبري ٣/ ١٥٣-١٥٤.
(٢) تيسير الكريم الرحمن، السعدي ص ٨٦.
(٣) زهرة التفاسير، أبو زهرة ١/ ٥٥٠.
(٤) انظر: جامع البيان، الطبري ٣/ ١٥٣-١٥٥، الجامع لأحكام القرآن، القرطبي ٢/ ٢٧٥، تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ١/ ٤٩٧، اللباب في علوم الكتاب ٣/ ٢٥٤-٢٥٦.

﴿قَبْلِكُمْ﴾ النصارى »[1].

وقال الماوردي رحمه الله: « واختلفوا في موضع التشبيه بين صومنا، وصوم الذين من قبلنا، على قولين:

أحدهما: أن التشبيه في حكم الصوم وصفته، لا في عدده؛ لأن اليهود يصومون من العتمة إلى العتمة، ولا يأكلون بعد النوم شيئًا، وكان المسلمون على ذلك في أول الإسلام، لا يأكلون بعد النوم شيئًا حتى كان من شأن عمر بن الخطاب وأبي قيس بن صرمة ما كان، فأحل الله تعالى لهم الأكل والشرب، وهذا قول الربيع بن أنس، وقد روي عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال: (بين صومنا وصوم أهل الكتاب أكلة السحر)[2].

والقول الثاني: أن التشبيه في عدد الصوم، وفيه قولان:

أحدهما: أن النصارى كان الله فرض عليهم صيام ثلاثين يومًا كما فرض علينا، فكان ربما وقع في القيظ، فجعلوه في الفصل بين الشتاء والصيف، ثم كفروه بصوم عشرين يومًا زائدة؛ ليكون تمحيصًا لذنوبهم وتكفيرًا لتبديلهم، وهذا قول الشعبي.

والثاني: أنهم اليهود كان عليهم صيام ثلاثة أيام من كل يوم عاشوراء، وثلاثة أيام من كل شهر، فكان على ذلك سبعة عشر شهرًا إلى أن نسخ بصوم رمضان، قال ابن عباس: كان أول ما نسخ شأن القبلة والصيام الأول»[3].

ثم إنه حصل في صيام الإسلام ما يخالف صيام أهل الكتاب في قيود ماهية الصيام وكيفيتها، ولم يكن صيامنا مماثلًا لصيامهم تمام المماثلة، والتشبيه في أصل فرض ماهية الصوم لا في الكيفيات، والتشبيه يكتفى فيه ببعض وجوه المشابهة وهو وجه الشبه المراد في القصد، وليس المقصود من هذا التشبيه الحوالة في صفة الصوم على ما كان عليه عند الأمم السابقة، ولكن فيهم أغراضًا ثلاثة تضمنها التشبيه:

أحدها: الاهتمام بهذه العبادة، والتنويه بها؛ لأنها شرعها الله قبل الإسلام لمن كانوا قبل المسلمين، وشرعها للمسلمين، وذلك يقتضي اطراد صلاحها ووفرة ثوابها، وإنهاض همم المسلمين لتلقي هذه العبادة؛ كي لا يتميز بها من كان قبلهم،...

والغرض الثاني: أن في التشبيه بالسابقين تهوينًا على المكلفين بهذه العبادة أن يستثقلوا هذا الصوم فإن في الاقتداء بالغير أسوة في المصاعب.

والغرض الثالث: إثارة العزائم للقيام

(١) جامع البيان، الطبري ٣/ ١٥٣-١٥٤.

(٢) أخرجه مسلم في صحيحه، كتاب الصيام، باب فضل السحور وتأكيد استحبابه، واستحباب تأخيره وتعجيل الفطر، رقم ١٠٩٦.

(٣) النكت والعيون، الماوردي ١/ ٢٣٦.

بهذه الفريضة؛ حتى لا يكونوا مقصرين في قبول هذا الفرض بل ليأخذوه بقوة تفوق ما أدى به الأمم السابقة[1].

فالصيام عبادة قديمة فرضها الله سبحانه على هذه الأمة كما فرضه على الأمم السابقة، أخبرنا الله بهذا؛ لتشحذ الهمم وتنشط للعبادة؛ لتنال الغاية العظمى من الصيام وهي تقوى الله جل جلاله.

(١) انظر: التحرير والتنوير، ابن عاشور ٢/ ١٥٦-١٥٧، بتصرف.

انواع الصيام وحكمه

إن الله سبحانه وتعالى شرع هذا الدين للناس وهو الغني عنهم، لا تنفعه عبادة العابدين، ولا تضره معصية العاصين، شرع لعباده عبادة الصيام، والصيام أنواع كسائر العبادات، فمنه الواجب ومنه المندوب المستحب، والواجب منه ما هو واجب بأمر لله بفعله من المكلف كصوم رمضان، أو ما أوجبه على نفسه بالنذر؛ لأن النذر يجب الوفاء به، ومنه ما هو مندوب مستحب فعله، وسيأتي فيما يأتي بيان كل نوع على حدة.

أولًا: صوم رمضان:

صيام شهر رمضان فرض من الله تبارك وتعالى على عباده، ودليله من الكتاب والسنة والإجماع، فمن الكتاب قول الرب تبارك وتعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ كُتِبَ عَلَيۡكُمُ ٱلصِّيَامُ كَمَا كُتِبَ عَلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِكُمۡ﴾ [البقرة: ١٨٣].

إلى قوله: ﴿شَهۡرُ رَمَضَانَ ٱلَّذِيٓ أُنزِلَ فِيهِ ٱلۡقُرۡءَانُ هُدٗى لِّلنَّاسِ وَبَيِّنَٰتٖ مِّنَ ٱلۡهُدَىٰ وَٱلۡفُرۡقَانِۚ فَمَن شَهِدَ مِنكُمُ ٱلشَّهۡرَ فَلۡيَصُمۡهُۖ وَمَن كَانَ مَرِيضًا أَوۡ عَلَىٰ سَفَرٖ فَعِدَّةٞ مِّنۡ أَيَّامٍ أُخَرَۗ يُرِيدُ ٱللَّهُ بِكُمُ ٱلۡيُسۡرَ وَلَا يُرِيدُ بِكُمُ ٱلۡعُسۡرَ وَلِتُكۡمِلُواْ ٱلۡعِدَّةَ وَلِتُكَبِّرُواْ ٱللَّهَ عَلَىٰ مَا هَدَىٰكُمۡ وَلَعَلَّكُمۡ تَشۡكُرُونَ﴾ [البقرة: ١٨٥].

يعني: فرض عليكم مثل الذي فرض على الذين من قبلكم. وأخبر النبي صلى الله عليه وسلم بأن صوم رمضان أحد أركانه الخمسة التي بني عليها كما ثبت في الصحيحين عن ابن عمر رضي الله عنهما: (بني الإسلام على خمس، على أن يعبد الله، ويكفر بما دونه، وإقام الصلاة، وإيتاء الزكاة، وحج البيت، وصوم رمضان)[1].

ثم اختلف أهل التأويل في الذين عنى الله بقوله: ﴿كَمَا كُتِبَ عَلَى الَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ﴾ وفي المعنى الذي وقع فيه التشبيه بين فرض صومنا، وصوم الذين من قبلنا، فقال بعضهم: الذين أخبرنا الله عن الصوم الذي فرضه علينا أنه كمثل الذي كان عليهم هم النصارى، وقالوا: التشبيه الذي شبه من أجله أحدهما بصاحبه هو اتفاقهما في الوقت والمقدار الذي هو لازم لنا اليوم فرضه[2].

وقال الحافظ ابن كثير رحمه الله: «يقول تعالى مخاطبًا للمؤمنين من هذه الأمة وآمرًا لهم بالصيام، وهو: الإمساك عن الطعام والشراب والوقاع بنية خالصة لله عز وجل، لما فيه من زكاة النفس وطهارتها وتنقيتها من الأخلاط الرديئة والأخلاق الرذيلة. وذكر أنه كما أوجبه عليهم فقد أوجبه على من كان قبلهم، فلهم فيه أسوة، وليجتهد هؤلاء في أداء هذا الفرض أكمل مما فعله أولئك»[3].

فصيام شهر رمضان المبارك ثابت في القرآن وكذلك في السنة النبوية على صاحبها أفضل الصلاة والسلام، وأخبر سبحانه بأنه فرضه علينا كما فرضه على الأمم السابقة؛ تنشيطًا لهذه الأمة ودعوة لها للمسابقة والمنافسة للأمم السابقة، وبين سبحانه الغاية من فريضة الصيام وهو حصول التقوى فقال: ﴿لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾.

ثانيًا: صوم الكفارات:

تقدم أن الصيام هو الإمساك عن الأكل والشرب والجماع، يعني الإمساك عن جميع المفطرات، والكفارات هنا جمع كفارة، قال الكاساني رحمه الله: «الكفارات المعهودة في الشرع خمسة أنواع: كفارة اليمين، وكفارة الحلق، وكفارة القتل، وكفارة الظهار، وكفارة الإفطار، وكلها واجبة إلا أن أربعة منها عرف وجوبها بالكتاب العزيز، وواحدة منها عرف وجوبها بالسنة، أما الأربعة التي عرف وجوبها بالكتاب العزيز فكفارة اليمين، وكفارة الحلق، وكفارة القتل، وكفارة الظهار. والكفارة في عرف

(١) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب الإيمان، باب قول النبي صلى الله عليه وسلم: بني الإسلام على خمس، رقم ٨، ومسلم في صحيحه، كتاب الإيمان، باب قول النبي صلى الله عليه وسلم بني الإسلام على خمس، رقم ١٦.

(٢) جامع البيان، الطبري ٣/ ١٥٣.

(٣) تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ١/ ٤٩٧.

الشرع اسم للواجب»[(١)]، أي: ما أوجبه الله تعالى على من أتى شيئًا منهيًا عنه، أو قصر في مأمور به.

وسميت الكفارة بهذا الاسم؛ لأنها تكفر الذنوب وتسترها، فالحكمة من الكفارة تكفير للذنوب والسيئات التي تقع من العبد، والكفارات أنواع، هي:

١ . كفارة القتل الخطأ.

لشناعة القتل جعل الله تبارك وتعالى للقاتل عقوبة رادعة، فمن قتل عمدًا قتل قصاصًا، ومن قتل خطًا فإنه يلزمه الدية والكفارة، والكفارة هنا مغلظة هي تحرير رقبة مؤمنة مع الدية إلا أن يعفو فإن الدية تسقط لكن الكفارة لابد أن يأتي بها، فإن لم يستطع تحرير الرقبة فإن عليه أن يصوم شهرين متتابعين.

قال رب العزة مبينًا ذلك: ﴿وَمَن قَتَلَ مُؤْمِنًا خَطَـًٔا فَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مُّؤْمِنَةٍ وَدِيَةٌ مُّسَلَّمَةٌ إِلَىٰٓ أَهْلِهِۦٓ إِلَّآ أَن يَصَّدَّقُوا۟ ۚ فَإِن كَانَ مِن قَوْمٍ عَدُوٍّ لَّكُمْ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مُّؤْمِنَةٍ ۖ وَإِن كَانَ مِن قَوْمٍۭ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُم مِّيثَـٰقٌ فَدِيَةٌ مُّسَلَّمَةٌ إِلَىٰٓ أَهْلِهِۦ وَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مُّؤْمِنَةٍ ۖ فَمَن لَّمْ يَجِدْ فَصِيَامُ شَهْرَيْنِ مُتَتَابِعَيْنِ تَوْبَةً مِّنَ ٱللَّهِ ۗ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا﴾ [النساء: ٩٢].

قال الطاهر ابن عاشور رحمه الله: «وقوله: ﴿فَصِيَامُ شَهْرَيْنِ مُتَتَابِعَيْنِ﴾ وصف الشهران بأنهما متتابعان والمقصود تتابع أيامهما؛ لأن تتابع الأيام يستلزم توالي الشهرين»[(٢)].

وقال صاحب كتاب اللباب رحمه الله: «الكفارة تكون بإعتاق رقبةٍ مؤمنةٍ سواء كان المقتول مسلمًا أو معاهدًا، رجلًا أو امرأةً، حرًا كان أو عبدًا، وتكون في مال القاتل.

قوله تعالى: ﴿فَمَن لَّمْ يَجِدْ فَصِيَامُ شَهْرَيْنِ مُتَتَابِعَيْنِ تَوْبَةً مِّنَ ٱللَّهِ ۗ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا﴾، قوله: ﴿فَمَن لَّمْ يَجِدْ﴾ مفعوله محذوفٌ: أي: فمن لم يجد رقبة، وهي بمعنى وجدان الضال، فلذلك تعدت لواحدٍ، وقوله: ﴿فَصِيَامُ شَهْرَيْنِ﴾ ارتفاعه على أحد الأوجه المذكورة في قوله: ﴿فَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مُّؤْمِنَةٍ﴾، أي: فعليه صيام، أو: فيجب عليه صيام، أو فواجبه صيام»[(٣)].

وقال ابن سعدي رحمه الله: «﴿فَمَن لَّمْ يَجِدْ﴾ الرقبة ولا ثمنها، بأن كان معسرًا بذلك، ليس عنده ما يفضل عن مؤنته وحوائجه الأصلية شيء يفي بالرقبة، ﴿فَصِيَامُ شَهْرَيْنِ مُتَتَابِعَيْنِ﴾ أي: لا يفطر بينهما من غير عذر، فإن أفطر لعذر فإن العذر لا يقطع التتابع، كالمرض والحيض ونحوهما. وإن كان لغير عذر انقطع التتابع ووجب عليه استئناف الصوم.

---

(١) بدائع الصنائع، الكاساني ٥/ ٩٥

(٢) التحرير والتنوير، ابن عاشور ٥/ ١٦٢.

(٣) اللباب في علوم الكتاب ٦/ ٥٦٨، بتصرف يسير.

﴿تَوْبَةً مِّنَ ٱللَّهِ﴾ أي: هذه الكفارات التي أوجبها الله على القاتل توبة من الله على عباده ورحمة بهم، وتكفير لما عساه أن يحصل منهم من تقصير وعدم احتراز، كما هو واقع كثيرًا للقاتل خطأ»[1].

فكفارة قتل الخطأ تحرير رقبة مؤمنة فإن لم يستطع فصيام شهرين متتابعين، ومن قطع التتابع لعذر كمرض أو حيض أو نفاس فإنه يستأنف ولا يعيد، بخلاف من قطع من غير عذر فإنه يجب عليه أن يعيد من جديد.

٢. كفارة من لم يجد الهدي في الحج، ومن أحصر أو حلق رأسه.

بين الله تبارك وتعالى أن من أحرم بالحج أو العمرة فأحصر فلا يتحلل حتى ينحر هديه ومن لم يجد الهدي فإنه يصوم ثلاثة أيام في الحج وسبعة إذا رجع إلى بلده، وكذلك من كان به أذىً في رأسه أو مرضًا فإن له أن يحلق رأسه ويفتدي فقال سبحانه: ﴿وَأَتِمُّوا۟ ٱلْحَجَّ وَٱلْعُمْرَةَ لِلَّهِ ۚ فَإِنْ أُحْصِرْتُمْ فَمَا ٱسْتَيْسَرَ مِنَ ٱلْهَدْىِ ۖ وَلَا تَحْلِقُوا۟ رُءُوسَكُمْ حَتَّىٰ يَبْلُغَ ٱلْهَدْىُ مَحِلَّهُۥ ۚ فَمَن كَانَ مِنكُم مَّرِيضًا أَوْ بِهِۦٓ أَذًى مِّن رَّأْسِهِۦ فَفِدْيَةٌ مِّن صِيَامٍ أَوْ صَدَقَةٍ أَوْ نُسُكٍ ۚ فَإِذَآ أَمِنتُمْ فَمَن تَمَتَّعَ بِٱلْعُمْرَةِ إِلَى ٱلْحَجِّ فَمَا ٱسْتَيْسَرَ مِنَ ٱلْهَدْىِ ۚ فَمَن لَّمْ يَجِدْ فَصِيَامُ ثَلَٰثَةِ أَيَّامٍ فِى ٱلْحَجِّ وَسَبْعَةٍ إِذَا رَجَعْتُمْ ۗ تِلْكَ عَشَرَةٌ كَامِلَةٌ ۗ ذَٰلِكَ لِمَن لَّمْ يَكُنْ أَهْلُهُۥ حَاضِرِى ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ ۚ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ﴾ [البقرة: ١٩٦].

(١) تيسير الكريم الرحمن، السعدي ص ١٩٣.

قال الحافظ ابن كثير رحمه الله: «يقول تعالى: فمن لم يجد هديًا فليصم ثلاثة أيام في الحج، أي: في أيام المناسك، قال العلماء: والأولى أن يصومها قبل يوم عرفة في العشر، قاله عطاء. أو من حين يحرم، قاله ابن عباس وغيره، لقوله: ﴿فِى ٱلْحَجِّ﴾ ومنهم من يجوز صيامها من أول شوال، قاله طاوس ومجاهد وغير واحد. وجوز الشعبي صيام يوم عرفة وقبله يومين، وكذا قال مجاهد، وسعيد بن جبير، والسدي، وعطاء، وطاوس، والحكم، والحسن، وحماد، وإبراهيم، وأبو جعفر الباقر، والربيع، ومقاتل بن حيان. وقال العوفي، عن ابن عباس: إذا لم يجد هديًا فعليه صيام ثلاثة أيام في الحج قبل يوم عرفة، فإذا كان يوم عرفة الثالث فقد تم صومه وسبعة إذا رجع إلى أهله.

فلو لم يصمها أو بعضها قبل يوم العيد فهل يجوز أن يصومها في أيام التشريق؟ فيه قولان للعلماء، وهما للإمام الشافعي أيضًا، القديم منهما: أنه يجوز له صيامها لقول عائشة وابن عمر في صحيح البخاري: لم يرخص في أيام التشريق أن يصمن إلا لمن لا يجد الهدي. وإنما قالوا ذلك لعموم قوله: ﴿فَصِيَامُ ثَلَٰثَةِ أَيَّامٍ فِى ٱلْحَجِّ وَسَبْعَةٍ﴾، وقد روي عن علي أنه كان يقول: من فاته صيام ثلاثة أيام في الحج صامهن أيام التشريق. وبهذا يقول عبيد بن عمير الليثي وعكرمة، والحسن

البصري، وعروة بن الزبير؛ وإنما قالوا ذلك لعموم قوله: ﴿فَصِيَامُ ثَلَٰثَةِ أَيَّامٍ فِي ٱلْحَجِّ﴾ والجديد من القولين: أنه لا يجوز صيامها أيام التشريق، لما رواه مسلم عن نبيشة الهذلي رضي الله عنه، قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: (أيام التشريق أيام أكل وشرب وذكر الله)[1].

وقوله: ﴿وَسَبْعَةٍ إِذَا رَجَعْتُمْ﴾ فيه قولان:

أحدهما: إذا رجعتم في الطريق، ولهذا قال مجاهد: هي رخصة إذا شاء صامها في الطريق.

والقول الثاني: إذا رجعتم إلى أوطانكم؛ وروي عن ابن عمر رضي الله عنهما قال: إذا رجع إلى أهله، وحكى الإجماع على ذلك أبو جعفر ابن جرير»[2].

وقال ابن سعدي رحمه الله: «﴿فَمَن لَّمْ يَجِدْ﴾ أي: الهدي أو ثمنه ﴿فَصِيَامُ ثَلَٰثَةِ أَيَّامٍ فِي ٱلْحَجِّ﴾ أول جوازها من حين الإحرام بالعمرة، وآخرها ثلاثة أيام بعد النحر، أيام رمي الجمار، والمبيت بـ «منى» ولكن الأفضل منها أن يصوم السابع، والثامن، والتاسع، ﴿وَسَبْعَةٍ إِذَا رَجَعْتُمْ﴾ أي: فرغتم من أعمال الحج، فيجوز فعلها في مكة، وفي الطريق، وعند وصوله إلى أهله»[3].

(١) أخرجه مسلم في صحيحه، كتاب الصيام، باب تحريم صوم أيام التشريق، رقم ١١٤١.

(٢) تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ١/٥٣٨-٥٣٩، بتصرف.

(٣) تيسير الكريم الرحمن، السعدي ص ٩٠.

٣. كفارة من قتل صيدًا متعمدًا وهو محرم في الحرم.

قال الله تبارك وتعالى مبينًا ذلك: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَقْتُلُوا۟ ٱلصَّيْدَ وَأَنتُمْ حُرُمٌ ۚ وَمَن قَتَلَهُۥ مِنكُم مُّتَعَمِّدًا فَجَزَآءٌ مِّثْلُ مَا قَتَلَ مِنَ ٱلنَّعَمِ يَحْكُمُ بِهِۦ ذَوَا عَدْلٍ مِّنكُمْ هَدْيًۢا بَٰلِغَ ٱلْكَعْبَةِ أَوْ كَفَّٰرَةٌ طَعَامُ مَسَٰكِينَ أَوْ عَدْلُ ذَٰلِكَ صِيَامًا لِّيَذُوقَ وَبَالَ أَمْرِهِۦ﴾ [المائدة: ٩٥].

يقول تعالى ذكره: يا أيها الذين صدقوا الله ورسوله ﴿لَا تَقْتُلُوا۟ ٱلصَّيْدَ﴾ الذي بينت لكم، وهو صيد البر دون صيد البحر ﴿وَأَنتُمْ حُرُمٌ﴾ يقول: وأنتم محرمون بحج أو عمرة، والحرم: جمع حرام، والذكر والأنثى فيه بلفظ واحد، تقول: هذا رجل حرام، وهذه امرأة حرام، فإذا قيل محرم، قيل للمرأة محرمة. والإحرام: هو الدخول فيه، يقال: أحرم القوم: إذا دخلوا في الشهر الحرام، أو في الحرم. فتأويل الكلام: لا تقتلوا الصيد وأنتم محرمون بحج أو عمرة.

وقوله: ﴿وَمَن قَتَلَهُۥ مِنكُم مُّتَعَمِّدًا﴾ فإن هذا إعلام من الله تعالى ذكره عباده حكم القاتل من المحرمين الصيد الذي نهاه عن قتله متعمدًا ثم اختلف أهل التأويل في صفة العمد الذي أوجب الله على صاحبه به الكفارة والجزاء في قتله الصيد، فقال بعضهم: هو العمد لقتل الصيد مع نسيان قاتله إحرامه في حال قتله، وقال: إن قتله وهو ذاكر إحرامه متعمدًا قتله فلا حكم عليه وأمره إلى الله، قالوا: وهذا أجل أمرًا

من أن يحكم عليه أو يكون له كفارة[1].

وقال الحافظ ابن كثير رحمه الله: «وقوله: ﴿أَوْ كَفَّٰرَةٌ طَعَامُ مَسَٰكِينَ أَوْ عَدْلُ ذَٰلِكَ صِيَامًا﴾ أي: إذا لم يجد المحرم مثل ما قتل من النعم أو لم يكن الصيد المقتول من ذوات الأمثال، أو قلنا بالتخيير في هذا المقام من الجزاء والإطعام والصيام، كما هو قول مالك، وأبي حنيفة، وأبي يوسف، ومحمد بن الحسن، وأحد قولي الشافعي، والمشهور عن أحمد رحمهم الله، لظاهر الآية «أو» فإنها للتخيير. والقول الآخر: أنها على الترتيب.

فصورة ذلك أن يعدل إلى القيمة، فيقوم الصيد[2] المقتول عند مالك، وأبي حنيفة وأصحابه، وحماد، وإبراهيم. وقال الشافعي: يقوم مثله من النعم لو كان موجودًا، ثم يشترى به طعام ويتصدق به، فيصرف لكل مسكين مد[3] منه عند الشافعي، ومالك، وفقهاء الحجاز، واختاره ابن جرير.

وقال أبو حنيفة وأصحابه: يطعم كل مسكين مدين، وهو قول مجاهد.

وقال أحمد: مد من حنطة، أو مدان من غيره، فإن لم يجد، أو قلنا بالتخيير صام عن إطعام كل مسكين يومًا.

وقال ابن جرير: وقال آخرون: يصوم مكان كل صاع يومًا، كما في جزاء المترفه بالحلق ونحوه، فإن الشارع أمر كعب بن عجرة أن يقسم فرقًا بين ستة، أو يصوم ثلاثة أيام، والفرق ثلاثة آصع»[4].

فمن قتل الصيد متعمدًا فعليه جزاء مثل ما قتل من النعم، قال ابن سعدي رحمه الله: «﴿أَوْ كَفَّٰرَةٌ طَعَامُ مَسَٰكِينَ﴾ أي: كفارة ذلك الجزاء طعام مساكين، أي: يجعل مقابلة المثل من النعم، طعامًا يطعم المساكين.

قال كثير من العلماء: يقوم الجزاء، فيشترى بقيمته طعام، فيطعم كل مسكين مد بر أو نصف صاع من غيره. ﴿أَوْ عَدْلُ ذَٰلِكَ﴾ الطعام ﴿صِيَامًا﴾ أي: يصوم عن إطعام كل مسكين يومًا»[5].

٤ . كفارة اليمين.

من حلف على شيء فحنث فيها لزمته الكفارة، وكفارة اليمين إطعام عشرة مساكين أو كسوتهم أو تحرير رقبة، خيرهم بين هذين الأمرين الإطعام أو الكسوة أو تحرير الرقبة، فمن لم يستطع فعليه أن يصوم ثلاثة أيام،

---

(١) جامع البيان، الطبري ٨/ ٦٧٣.

(٢) يعني: يثمن.

(٣) المد اختلفوا فيه، فقيل: المد رطل وثلث بالعراقي، وبه يقول الشافعي وفقهاء الحجاز. وقيل: هو رطلان، وبه يقول أبو حنيفة وفقهاء العراق، وقال بعضهم: وخالف بعض الحنيفة، فقال: المد رطلان.
انظر: عمدة القاري، العيني ٣/ ٩٤.

(٤) تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ٣/ ١٩٤.

(٥) تيسير الكريم الرحمن، السعدي ص ٢٤٤.

كما قال سبحانه: ﴿لَا يُؤَاخِذُكُمُ اللَّهُ بِاللَّغْوِ فِي أَيْمَانِكُمْ وَلَٰكِن يُؤَاخِذُكُم بِمَا عَقَّدتُّمُ الْأَيْمَانَ ۖ فَكَفَّارَتُهُ إِطْعَامُ عَشَرَةِ مَسَاكِينَ مِنْ أَوْسَطِ مَا تُطْعِمُونَ أَهْلِيكُمْ أَوْ كِسْوَتُهُمْ أَوْ تَحْرِيرُ رَقَبَةٍ ۖ فَمَن لَّمْ يَجِدْ فَصِيَامُ ثَلَاثَةِ أَيَّامٍ ۚ ذَٰلِكَ كَفَّارَةُ أَيْمَانِكُمْ إِذَا حَلَفْتُمْ ۚ وَاحْفَظُوا أَيْمَانَكُمْ ۚ كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ آيَاتِهِ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ [المائدة: ٨٩].

فهذه خصال ثلاث في كفارة اليمين، أيها فعل الحانث أجزأ عنه بالإجماع. وقد بدأ بالأسهل فالأسهل، فالإطعام أيسر من الكسوة، كما أن الكسوة أيسر من العتق، فرقي فيها من الأدنى إلى الأعلى. فإن لم يقدر المكلف على واحدة من هذه الخصال الثلاث كفر بصيام ثلاثة أيام، كما قال تعالى: ﴿فَمَن لَّمْ يَجِدْ فَصِيَامُ ثَلَاثَةِ أَيَّامٍ﴾[1].

قال العلامة ابن سعدي رحمه الله: «﴿لَا يُؤَاخِذُكُمُ اللَّهُ بِاللَّغْوِ فِي أَيْمَانِكُمْ﴾ أي: في أيمانكم التي صدرت على وجه اللغو، وهي الأيمان التي حلف بها المقسم من غير نية ولا قصد، أو عقدها يظن صدق نفسه، فبان بخلاف ذلك. ﴿وَلَٰكِن يُؤَاخِذُكُم بِمَا عَقَّدتُّمُ الْأَيْمَانَ﴾ أي: بما عزمتم عليه، وعقدت عليه قلوبكم. كما قال في الآية الأخرى: ﴿وَلَٰكِن يُؤَاخِذُكُم بِمَا كَسَبَتْ قُلُوبُكُمْ﴾، ﴿فَكَفَّارَتُهُ﴾ أي: كفارة اليمين الذي عقدتموها بقصدكم ﴿إِطْعَامُ عَشَرَةِ مَسَاكِينَ﴾. وذلك الإطعام ﴿مِنْ أَوْسَطِ مَا تُطْعِمُونَ أَهْلِيكُمْ أَوْ كِسْوَتُهُمْ﴾ أي: كسوة عشرة مساكين، والكسوة هي التي تجزئ في الصلاة. ﴿أَوْ تَحْرِيرُ رَقَبَةٍ﴾ أي: عتق رقبة مؤمنة كما قيدت في غير هذا الموضع، فمتى فعل واحدًا من هذه الثلاثة فقد انحلت يمينه.

﴿فَمَن لَّمْ يَجِدْ﴾ واحدًا من هذه الثلاثة المذكور ﴿فَصِيَامُ ثَلَاثَةِ أَيَّامٍ﴾ ﴿كَفَّارَةُ أَيْمَانِكُمْ إِذَا حَلَفْتُمْ﴾ تكفرها وتمحوها وتمنع من الإثم»[2].

فهذه الآية دالة على جواز الصيام عند العجز عن الإطعام أو الكسوة أو تحرير الرقبة ولا يشترط تتابع الصيام؛ لأنه لا دليل على التتابع.

٥. كفارة الظهار.

الظهار الأصل فيه قول الرجل لامرأته أنت علي كظهر أمي[3].

قال الحافظ ابن كثير رحمه الله: «أصل الظهار مشتق من الظهر، وذلك أن الجاهلية

(١) تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ٣/ ١٧٦.

(٢) تيسير الكريم الرحمن، السعدي ٢٤٢.

(٣) انظر: بدائع الصنائع، الكاساني ٣/ ٢٢٩، بداية المبتدي ص ٨١، الكافي في فقه أهل المدينة، ابن عبد البر ٢/ ٦٠٣، البيان والتحصيل، ابن رشد ٥/ ١٧١، بداية المجتهد ونهاية المقتصد، ابن شد ٣/ ١٢٣، المجموع شرح المهذب، النووي ١٧/ ٣٤٤، الكافي في فقه الإمام أحمد، ابن قدامة ٢/ ٣٢٢، و ٣/ ١٦٥، المغني، ابن قدامة ٧/ ٤١٤.

كانوا إذا تظاهر أحد من امرأته قال لها: أنت علي كظهر أمي، ثم في الشرع كان الظهار في سائر الأعضاء قياسًا على الظهر، وكان الظهار عند الجاهلية طلاقًا، فأرخص الله لهذه الأمة وجعل فيه كفارة، ولم يجعله طلاقًا كما كانوا يعتمدون في جاهليتهم. هكذا قال غير واحد من السلف»[(١)].

وقال البغوي رحمه الله: «وصورة الظهار: أن يقول الرجل لامرأته: أنت علي كظهر أمي»[(٢)].

والظهار هذا سماه الله تبارك وتعالى زورًا؛ وذلك لأنه شبه زوجته بأمه كما في قوله سبحانه: ﴿ٱلَّذِينَ يُظَٰهِرُونَ مِنكُم مِّن نِّسَآئِهِم مَّا هُنَّ أُمَّهَٰتِهِمْۖ إِنْ أُمَّهَٰتُهُمْ إِلَّا ٱلَّٰٓـِٔي وَلَدْنَهُمْۚ وَإِنَّهُمْ لَيَقُولُونَ مُنكَرًا مِّنَ ٱلْقَوْلِ وَزُورًاۚ﴾ [المجادلة: ٢].

ثم بين الله تبارك وتعالى ما يلزم من ظاهر من زوجته ثم أراد أن يعود إليها من الكفارة، فقال سبحانه: ﴿وَٱلَّذِينَ يُظَٰهِرُونَ مِن نِّسَآئِهِمْ ثُمَّ يَعُودُونَ لِمَا قَالُواْ فَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مِّن قَبْلِ أَن يَتَمَآسَّاۚ ذَٰلِكُمْ تُوعَظُونَ بِهِۦۚ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ ۝٣ فَمَن لَّمْ يَجِدْ فَصِيَامُ شَهْرَيْنِ مُتَتَابِعَيْنِ مِن قَبْلِ أَن يَتَمَآسَّاۖ فَمَن لَّمْ يَسْتَطِعْ فَإِطْعَامُ سِتِّينَ مِسْكِينًاۚ ذَٰلِكَ لِتُؤْمِنُواْ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦۚ وَتِلْكَ حُدُودُ ٱللَّهِۗ وَلِلْكَٰفِرِينَ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ [المجادلة: ٣-٤].

الظهار قول الرجل لامرأته: أنت علي كظهر أمي، سمي ظهارًا؛ لأنه قصد تحريم ظهرها عليه، وقيل: لأنه قد جعلها عليه كظهر أمه، وقد كان في الجاهلية طلاقًا ثلاثًا لا رجعة فيه ولا إباحة بعده فنسخه الله إلى ما استقر عليه الشرع من وجوب الكفارة فيه بالعود[(٣)].

قال الطبري رحمه الله: «يقول تعالى ذكره: فمن لم يجد منكم ممن ظاهر من امرأته رقبة يحررها، فعليه صيام شهرين متتابعين من قبل أن يتماسا؛ والشهران المتتابعان هما اللذان لا فصل بينهما بإفطار في نهار شيء منهما إلا من عذر، فإنه إذا كان الإفطار بالعذر ففيه اختلاف بين أهل العلم، فقال بعضهم: إذا كان إفطاره لعذر فزال العذر بنى على ما مضى من الصوم. وقال آخرون: بل يستأنف؛ لأن من أفطر بعذر أو غير عذر لم يتابع صوم شهرين»[(٤)].

وقال: «وقوله: ﴿ذَٰلِكَ لِتُؤْمِنُواْ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦۚ﴾ يقول جل ثناؤه: هذا الذي فرضت على من ظاهر منكم ما فرضت في حال القدرة على الرقبة، ثم خففت عنه مع العجز بالصوم، ومع فقد الاستطاعة على الصوم بالإطعام، وإنما فعلته؛ كي تقر الناس

(١) تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ٨/ ٣٧.
وانظر: الجامع لأحكام القرآن، القرطبي ١٧/ ٢٧٣.
(٢) معالم التنزيل، البغوي ٦/ ٣١٧.
(٣) النكت والعيون، الماوردي ٥/ ٤٨٨.
(٤) جامع البيان، الطبري ٢٢/ ٤٦٢.

بتوحيد الله ورسالة الرسول محمد صلى الله عليه وسلم، ويصدقوا بذلك، ويعملوا به، وينتهوا عن قول الزور والكذب»[1].

ثالثًا: صوم التطوع:

إن من رحمة الله تبارك وتعالى بعباده أن شرع لهم بعد كل فريضة نافلة من جنسها؛ لتكون جابرة لما يعتريها من النقص والقصور، ومن ذلك الصيام، فقد شرع الله تبارك وتعالى بعد فريضة صيام رمضان نوافل متعددة، لكن لم يرد في كتاب الله تعالى ما يدل على نوافل الصيام صراحة، وإنما يدخل ذلك ضمن فعل الخيرات، ﴿وَأَن تَصُومُوا۟ خَيْرٌ لَّكُمْ﴾ [البقرة: ١٨٤].

وقال حاثًّا على المسارعة والمسابقة إلى فعل الخيرات: ﴿فَٱسْتَبِقُوا۟ ٱلْخَيْرَٰتِ﴾ [البقرة: ١٤٨].

وقال الله تبارك وتعالى آمرًا لنا بأخذ ما أتانا به نبينا محمد صلى الله عليه وسلم: ﴿وَمَآ ءَاتَىٰكُمُ ٱلرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَىٰكُمْ عَنْهُ فَٱنتَهُوا۟﴾ [الحشر: ٧].

(١) المصدر السابق ٢٢/ ٤٦٥.

حكم الصيام ومقاصده

إن الله تبارك وتعالى من أسمائه الحكيم سبحانه، فلا يخلق ولا يشرع ولا يأمر بشيء إلا لحكم عظيمة علمها من علمها وجهلها من جهلها، ومن ذلك أن الله تبارك وتعالى شرع فريضة الصيام، لحكم ومقاصد عظيمة فيما يلي نعرض لبعض هذه الحكم، التي ذكر الله سبحانه بعضها في كتابه، وبعضها ورد في سنة النبي صلى الله عليه وسلم، وبعضها تستنبط استنباطًا، فمنها:

أولًا: حصول التقوى:

أبان الله تبارك وتعالى في كتابه العظيم هذه الحكمة وهذا المقصد في كتابه الكريم فقال سبحانه: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ كُتِبَ عَلَيْكُمُ ٱلصِّيَامُ كَمَا كُتِبَ عَلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾ [البقرة: ١٨٣].

فالتقوى غاية ومقصد عظيم من مقاصد الصيام، هي أن يستشعر العبد عظمة الله تبارك وتعالى ومراقبته لنا في كل أحوالنا، حركاتنا وسكناتنا، في خلواتنا وبين الناس؛ لنرتقي في مفهوم العبادات، فمن المصيبة أن تتحول العبادات إلى عادات فلا نحس بها ولا تثمر فينا الخشية من الله ولا التقوى، وربما يكون نصيب العبد من صومه الجوع والعطش والعياذ بالله؛ لذا قال النبي صلى الله عليه وسلم محذرًا: (رب صائم ليس له

من صيامه إلا الجوع، ورب قائم ليس له من قيامه إلا السهر)[1].

قال البغوي رحمه الله في قوله: ﴿لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾: «يعني بالصوم؛ لأن الصوم وصلة إلى التقوى لما فيه من قهر النفس وكسر الشهوات، وقيل: لعلكم تحذرون عن الشهوات من الأكل والشرب والجماع»[2].

وقال الخطيب رحمه الله: «فقد كان الصوم مفروضًا على من تقدمنا من الأمم ﴿لَعَلَّكُمْ﴾ بسبب هذا الصيام ﴿تَتَّقُونَ﴾ الله تعالى، وتخشون غضبه، وتعملون بأوامره؛ ومن هذا يعلم أن الصيام يبعث على الإيمان الصادق، ويرقق القلب، ويصفي النفس، ويعين على خشية الله تعالى؛ ولذا استعان به الأنبياء في تحقيق مآربهم، والأولياء في تهذيب نفوسهم، والخاصة في شفاء قلوبهم، والعامة في شفاء جسومهم»[3].

فإن الصيام من أكبر أسباب التقوى؛ لأن فيه امتثال أمر الله واجتناب نهيه، فالصائم يترك ما حرم الله عليه من الأكل والشرب والجماع وغير ذلك مما تميل إليها نفسه، متقربًا بذلك إلى الله، راجيًا بتركها، ثوابه، فهذا من التقوى، فالتقوى هي التي تحرس هذه القلوب من إفساد الصوم بالمعصية، ولو تلك التي تهجس في البال، والمخاطبون بهذا القرآن يعلمون مقام التقوى عند الله، ووزنها في ميزانه.

فهي غاية تتطلع إليها أرواحهم. وهذا الصوم أداة من أدواتها، وطريق موصل إليها. ومن ثم يرفعها السياق أمام عيونهم هدفًا وضيئًا يتجهون إليه عن طريق الصيام ﴿لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾.

فالصيام يدرب الإنسان على مراقبة الله تعالى، وترك ما تهوى نفسه، مع قدرته عليه، ويضيق مجاري الشيطان؛ لأنه يجري من ابن آدم مجرى الدم، فبالصيام، يضعف نفوذه، وتقل المعاصي، وتكثر الطاعات التي هي من خصال التقوى.

فالصوم عبادة يتقرب بها العبد لربه بترك محبوباته، وقمع شهواته، فيضبط نفسه بالتقوى ومراقبة الله سبحانه وتعالى في كل مكان وزمان، قال العلامة ابن القيم رحمه الله كلامًا طيبًا عن الصيام: «فهو لجام المتقين، وجنة المحاربين، ورياضة الأبرار والمقربين، وهو لرب العالمين من بين سائر الأعمال، فإن الصائم لا يفعل شيئًا، وإنما يترك شهوته وطعامه وشرابه من أجل معبوده، فهو ترك محبوبات النفس وتلذذاتها إيثارًا لمحبة الله ومرضاته، وهو سرٌّ بين

---

(١) أخرجه وأحمد في مسنده، رقم ٩٦٨٥، وابن ماجه في سننه، أبواب الصيام، باب ما جاء في الغيبة والرفث للصائم، رقم ١٦٩٠. وصححه الألباني في صحيح الجامع، رقم ٣٤٨٨.

(٢) معالم التنزيل، البغوي ١/ ١٩٦.

(٣) أوضح التفاسير، الخطيب ٣٣.

العبد وربه لا يطلع عليه سواه، والعباد قد يطلعون منه على ترك المفطرات الظاهرة، وأما كونه ترك طعامه وشرابه وشهوته من أجل معبوده، فهو أمر لا يطلع عليه بشرٌ، وذلك حقيقة الصوم»[1].

وإن الناظر في كتاب الله يلحظ ما أعده الله لهم من الأجر العظيم والثواب الكبير، ودعانا للمسارعة فقال: ﴿وَسَارِعُوٓاْ إِلَىٰ مَغْفِرَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا ٱلسَّمَٰوَٰتُ وَٱلْأَرْضُ أُعِدَّتْ لِلْمُتَّقِينَ﴾ [آل عمران: ١٣٣].

وقال: ﴿إِنَّ لِلْمُتَّقِينَ عِندَ رَبِّهِمْ جَنَّٰتِ ٱلنَّعِيمِ﴾ [القلم: ٣٤].

وقال: ﴿إِنَّ لِلْمُتَّقِينَ مَفَازًا ۝٣١ حَدَآئِقَ وَأَعْنَٰبًا ۝٣٢ وَكَوَاعِبَ أَتْرَابًا﴾ [النبأ: ٣١-٣٣] الآيات.

ثانيًا: تزكية النفس وإبعادها عن الشهوات:

من مقاصد هذه العبادة الجليلة أن فيه تزكية للنفس وتهذيب لها وتنقية من الرذيلة؛ فبالصيام يضيق مجاري الشيطان في جسد الإنسان، وقد قال النبي صلى الله عليه وسلم: (إن الشيطان يجري من ابن آدم مجرى الدم)[2]؛ لهذا حث النبي صلى الله عليه وسلم وأرشد الذي لم يستطع الزواج على الصوم كما ثبت في الصحيحين: (يا معشر الشباب: من استطاع منكم الباءة فليتزوج؛ فإنه أغض للبصر وأحصن للفرج، ومن لم يستطع فعليه بالصوم فإنه له وجاء)[3]، فالجوع يكسر الشهوة ويكبح جماحها، قال الحافظ ابن كثير رحمه الله: «لأن الصوم فيه تزكية للبدن وتضييق لمسالك الشيطان؛ ولهذا ثبت في الصحيحين: (يا معشر الشباب، من استطاع منكم الباءة فليتزوج، ومن لم يستطع فعليه بالصوم فإنه له وجاء)، ثم بين مقدار الصوم، وأنه ليس في كل يوم؛ لئلا يشق على النفوس فتضعف عن حمله وأدائه، بل في أيام معدودات»[4].

وقال ابن القيم رحمه الله: «وللصوم تأثير عجيب في حفظ الجوارح الظاهرة والقوى الباطنة، وحميتها عن التخليط الجالب لها المواد الفاسدة التي إذا استولت عليها أفسدتها، واستفراغ المواد الرديئة المانعة لها من صحتها، فالصوم يحفظ على القلب والجوارح صحتها، ويعيد إليها ما استلبته منها أيدي الشهوات، فهو من أكبر العون على التقوى، كما قال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ

(١) زاد المعاد، ابن القيم ٢/ ٢٧.

(٢) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب الاعتكاف، باب هل يدرأ المعتكف عن نفسه، رقم ٢٠٣٩.

(٣) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب الصوم، باب الصوم لمن خاف على نفسه العزبة، رقم ١٩٠٥، ومسلم في صحيحه، كتاب النكاح، باب استحباب النكاح لمن تاقت نفسه إليه، ووجد مؤنه، واشتغال من عجز عن المؤن بالصوم، رقم ١٤٠٠.

(٤) تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ١/ ٤٩٧.

﴿ءَامَنُوا۟ كُتِبَ عَلَيۡكُمُ ٱلصِّيَامُ كَمَا كُتِبَ عَلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِكُمۡ لَعَلَّكُمۡ تَتَّقُونَ﴾[1].

قال الحافظ ابن رجب رحمه الله: «الصيام يضيق مجاري الدم التي هي مجاري الشيطان من ابن آدم؛ فإن الشيطان يجري من ابن آدم مجرى الدم فتسكن بالصيام وساوس الشيطان، وتنكسر سورة الشهوة والغضب، ولهذا جعل النبي صلى الله عليه وسلم «الصوم وجاء» لقطعه عن شهوة النكاح»[2].

فالصوم يسكن النفس الأمارة بالسوء، ويهذبها فالإنسان عندما يكون صائمًا يكون في بعدٍ من تأثير الشيطان عليه بسبب أن الصوم يضيق على الشيطان مجاري الدم فيه فيضعف تأثيره عليه، ويكون الصيام وقاية للعبد من النار؛ لأن النبي عليه الصلاة والسلام يقول: (الصيام جنة)[3].

ثالثًا: تذكر المساكين والمحتاجين:

من مقاصد وحكم هذه العبادة الجليلة أن العبد يحس بالجوع والتعب؛ ليتذكر حال إخوانه الفقراء والمحتاجين الذين يقاسون ويعانون مرارة الجوع والحرمان.

لا يعرف الشوق إلا من يكابده
ولا الصبابة إلا من يعانيها[4]

قال العلامة ابن الهمام رحمه الله: «كونه -أي: الصيام- موجبًا للرحمة والعطف على المساكين فإنه لما ذاق ألم الجوع في بعض الأوقات ذكر من هذا في عموم الأوقات فتسارع إليه الرقة عليه»[5].

وقال ابن رجب رحمه الله: «وسئل بعض السلف: لم شرع الصيام؟ قال: ليذوق الغني طعم الجوع فلا ينسى الجائع»[6].

فإذا أحس بالجوع عرف ما يعاني الفقراء والمساكين فعطف عليهم وواساهم وأحسن إليهم.

فهذا بعض ما تيسر قوله من حكم الصيام، وأولها وأعظمها تقوى الله عز وجل، وتزكية النفس وتهذيبها، وتذكر المساكين والمحتاجين، وغير ذلك.

---

(١) زاد المعاد، ابن القيم ٢/ ٢٨.
(٢) لطائف المعارف، ابن رجب الحنبلي ص ١٥٥.
(٣) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب الصوم، باب فضل الصوم، رقم ١٨٩٤، ومسلم في صحيحه، كتاب الصيام، باب فضل الصيام، رقم ١١٥١.
(٤) المثل السائر في أدب الكاتب والشاعر، ضياء الدين ابن الأثير ١/ ١٥٧.
(٥) فتح القدير، ابن الهمام ٢/ ٣٠١.
(٦) لطائف المعارف، ابن رجب ص ١٦٨.

أعذار الفطر

الله تبارك وتعالى خلق الخلق، وهو أعلم بهم وبما يمرون به من أحوال، من صحة ومرض، يسبب له عدم الاستطاعة للعبادة، أو يسبب له الوقوع في مشقة، ففرض عليهم الصيام، وهو -كما تقدم- الإمساك عن جميع المفطرات من طلوع الفجر إلى غروب الشمس، وبما أن الإنسان قد يقع في عذر يمنعه من الصيام، فسيتناول البحث بالحديث أعذار الفطر في الأسطر التالية، وهي كالتالي:

أولًا: أصحاب الأعذار في الفطر:

- المسافر والمريض.

قال تعالى: ﴿فَمَن كَانَ مِنكُم مَّرِيضًا أَوْ عَلَىٰ سَفَرٍ فَعِدَّةٌ مِّنْ أَيَّامٍ أُخَرَ﴾ [البقرة: ١٨٤].

بمعنى أن الله سبحانه وتعالى فرض على عباده صيام رمضان فمن كان مسافرًا أو مريضًا فيجوز أن يفطر ويصوم فيما بعد، والسفر هو قطع المسافة يقال ذلك إذا خرج للارتحال أو لقصد موضع فوق مسافة العدوى[1]؛ لأن العرب لا يسمون مسافة العدوى سفرًا وقال بعض المصنفين: «أقل السفر يوم»[2].

قال الحافظ ابن كثير رحمه الله في هذه الآية: « ثم بين حكم الصيام على ما كان عليه الأمر في ابتداء الإسلام، فقال: ﴿فَمَن كَانَ مِنكُم مَّرِيضًا أَوْ عَلَىٰ سَفَرٍ فَعِدَّةٌ مِّنْ أَيَّامٍ أُخَرَ﴾ أي: المريض والمسافر لا يصومان في حال المرض والسفر؛ لما في ذلك من المشقة عليهما، بل يفطران ويقضيان بعدة ذلك من أيام أخر، وأما الصحيح المقيم الذي يطيق الصيام، فقد كان مخيرًا بين الصيام وبين الإطعام، إن شاء صام، وإن شاء أفطر، وأطعم عن كل يوم مسكينًا، فإن أطعم أكثر من مسكين عن كل يوم فهو خير، وإن صام فهو أفضل من الإطعام، قاله ابن مسعود، وابن عباس، ومجاهد، وطاوس، ومقاتل ابن حيان، وغيرهم من السلف؛ ولهذا قال تعالى: ﴿وَعَلَى الَّذِينَ يُطِيقُونَهُ فِدْيَةٌ طَعَامُ مِسْكِينٍ ۖ فَمَن تَطَوَّعَ خَيْرًا فَهُوَ خَيْرٌ لَّهُ ۚ وَأَن تَصُومُوا خَيْرٌ لَّكُمْ ۖ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ »[3].

وقال البغوي رحمه الله: «قوله تعالى: ﴿فَمَن كَانَ مِنكُم مَّرِيضًا أَوْ عَلَىٰ سَفَرٍ فَعِدَّةٌ مِّنْ أَيَّامٍ أُخَرَ﴾ أباح الفطر لعذر المرض والسفر وأعاد هذا الكلام؛ ليعلم أن هذا الحكم ثابت في الناسخ ثبوته في المنسوخ. واختلفوا في المرض الذي يبيح الفطر،

(١) الفقهاء يقولون: مسافة العدوى وكأنهم استعاروها من هذه العدوى؛ لأن صاحبها يصل فيها الذهاب والعود بعدو واحد لما فيه من القوة والجلادة.
انظر: المصباح المنير، الفيومي ٢/ ٣٩٨، تاج العروس، الزبيدي ٣٩/ ١٩.

(٢) المصباح المنير، الفيومي ١/ ٢٧٨.

(٣) تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ١/ ٤٩٨.

فذهب أهل الظاهر إلى أن ما يطلق عليه اسم المرض يبيح الفطر وهو قول ابن سيرين، قال طريف بن تمام العطاردي: دخلت على محمد بن سيرين في رمضان، وهو يأكل فقال: إنه وجعت أصبعي هذه، وقال الحسن وإبراهيم النخعي: هو المرض الذي تجوز معه الصلاة قاعدًا، و ذهب الأكثرون إلى أنه مرض يخاف معه من الصوم زيادة علة غير محتملة، وفي الجملة أنه إذا أجهده الصوم أفطر، وإن لم يجهده فهو كالصحيح.

وأما السفر، فالفطر فيه مباح والصوم جائز عند عامة أهل العلم إلا ما روي عن ابن عباس وأبي هريرة وعروة بن الزبير وعلي بن الحسين أنهم قالوا: لا يجوز الصوم في السفر ومن صام فعليه القضاء، واحتجوا بقول النبي صلى الله عليه وسلم: (ليس من البر الصوم في السفر)[1]، وذلك عند الآخرين في حق من يجهده الصوم فالأولى له أن يفطر، والدليل عليه حديث: (كان رسول الله صلى الله عليه وسلم في سفر فرأى زحامًا، ورجلًا قد ظلل عليه، فقال ما هذا؟ قالوا هذا صائم، فقال: (ليس من البر الصوم في السفر).

واختلفوا في السفر الذي يبيح الفطر، فقال قوم: مسيرة يوم، وذهب جماعة إلى مسيرة يومين، وهو قول الشافعي رحمه الله، وذهب جماعة إلى مسيرة ثلاثة أيام، وهو قول سفيان الثوري، وأصحاب الرأي»[2].

وقال القرطبي رحمه الله: «اختلف العلماء في السفر الذي يجوز فيه الفطر والقصر، بعد إجماعهم على سفر الطاعة كالحج والجهاد، ويتصل بهذين سفر صلة الرحم، وطلب المعاش الضروري. أما سفر التجارات والمباحات فمختلف فيه بالمنع والإجازة، والقول بالجواز أرجح»[3].

فمن رحمة الله تبارك وتعالى خفف على المسافر والمريض فأباح لهم الفطر في رمضان؛ لكونهما مظنة المشقة.

- كبير السن.

وخفف الله سبحانه وتعالى عن الشيخ الكبير الذي لا يستطيع الصيام يفطر، ويتصدق عن كل يوم مسكينًا، كما أخبر الله بذلك، فقال: ﴿وَعَلَى الَّذِينَ يُطِيقُونَهُ فِدْيَةٌ طَعَامُ مِسْكِينٍ﴾، قال ابن عباس رضي الله عنه في تفسير الآية: «هو الشيخ الكبير كان يطيق صوم شهر رمضان وهو شاب فكبر، وهو لا يستطيع صومه فليتصدق على مسكين واحد لكل يوم أفطره، حين يفطر

(١) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب الصوم، باب قول النبي صلى الله عليه وسلم لمن ظلل عليه واشتد الحر: ليس من البر الصوم في السفر، رقم ١٩٤٦.

(٢) معالم التنزيل، البغوي ١/ ١٩٩-٢٠٠، بتصرف يسير.

(٣) الجامع لأحكام القرآن، القرطبي ٢/ ٢٧٧.

وحين يتسحر»[1].

وقال سعيد بن المسيب رحمه الله في الآية: «هو الكبير الذي كان يصوم فكبر وعجز عنه، وهي الحامل التي ليس عليها الصيام. فعلى كل واحد منهما طعام مسكين مد من حنطة لكل يوم حتى يمضي رمضان»، وقرأ ذلك آخرون: ﴿وَعَلَى ٱلَّذِينَ يُطِيقُونَهُۥ فِدْيَةٌ طَعَامُ مِسْكِينٍ﴾ وقالوا: «إنه الشيخ الكبير والمرأة العجوز اللذان قد كبرا عن الصوم، فهما يكلفان الصوم ولا يطيقانه، فلهما أن يفطرا ويطعما مكان كل يوم أفطراه مسكينًا، وقالوا: الآية ثابتة الحكم منذ أنزلت لم تنسخ، وأنكروا قول من قال: إنها منسوخة»[2]، وكان ابن عباس رضي الله عنه: يقرؤها: ﴿وَعَلَى ٱلَّذِينَ يُطِيقُونَهُۥ﴾ ويقول: «هو الشيخ الكبير يفطر، ويطعم عنه»[3].

وقال الحافظ ابن كثير رحمه الله: «وأما الشيخ الفاني الهرم الذي لا يستطيع الصيام فله أن يفطر ولا قضاء عليه؛ لأنه ليست له حال يصير إليها يتمكن فيها من القضاء، ولكن هل يجب عليه إذا أفطر أن يطعم عن كل يوم مسكينًا إذا كان ذا جدة؟ فيه قولان للعلماء، أحدهما: لا يجب عليه إطعام؛ لأنه ضعيف عنه لسنه، فلم يجب عليه فدية

(١) جامع البيان، الطبري ٣/ ١٧١.
(٢) المصدر السابق.
(٣) المصدر السابق ٣/ ١٧٢.

كالصبي؛ لأن الله لا يكلف نفسًا إلا وسعها، وهو أحد قولي الشافعي. والثاني -وهو الصحيح، وعليه أكثر العلماء-: أنه يجب عليه فدية عن كل يوم، كما فسره ابن عباس وغيره من السلف على قراءة من قرأ: ﴿وَعَلَى ٱلَّذِينَ يُطِيقُونَهُۥ﴾ أي: يتجشمونه، كما قاله ابن مسعود وغيره، وهو اختيار البخاري فإنه قال: وأما الشيخ الكبير إذا لم يطق الصيام، فقد أطعم أنس -بعد أن كبر عامًا أو عامين- كل يوم مسكينًا خبزًا ولحمًا، وأفطر»[4].

الحامل والمرضع.

يباح للحامل والمرضع الإفطار إذا خافتا على أنفسهما أو على الولد، سواء أكان الولد ولد المرضعة أم لا، أي نسبًا أو رضاعًا، وسواء أكانت أمًا أم مستأجرة، وكان الخوف نقصان العقل أو الهلاك أو المرض، والخوف المعتبر: ما كان مستندًا لغلبة الظن بتجربة سابقة، أو إخبار طبيب مسلم حاذق عدل.

ودليل الجواز لهما: القياس على المريض والمسافر، وقوله صلى الله عليه وسلم: **(إن الله عز وجل وضع عن المسافر الصوم وشطر الصلاة، وعن الحبلى والمرضع الصوم)**[5].

(٤) تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ١/ ٥٠٠.
(٥) أخرجه الترمذي في سننه، أبواب الصوم عن رسول الله صلى الله عليه وسلم، باب ما جاء في الرخصة في الإفطار للحبلى والمرضع،

ويحرم الصوم إن خافت الحامل، أو المرضع على نفسها أو ولدها الهلاك.

وقال الحافظ ابن كثير رحمه الله: «ومما يلتحق بهذا المعنى: الحامل والمرضع، إذا خافتا على أنفسهما أو ولديهما، ففيهما خلاف كثير بين العلماء، فمنهم من قال: يفطران ويفديان ويقضيان، وقيل: يفديان فقط، ولا قضاء. وقيل: يجب القضاء بلا فدية. وقيل: يفطران، ولا فدية ولا قضاء»[1].

- من لحقه الجوع والعطش الذي يخشي الهلاك بسببه.

فالذي لحق به الجوع والعطش وهو صائم الذي يخشى الهلاك بسبب ذلك فله أن يفطر ويمكن أن يستدل على ذلك بقول الله تعالى: ﴿فَاتَّقُوا اللَّهَ مَا اسْتَطَعْتُمْ﴾ [التغابن: ١٦].

ويقول: ﴿وَلَا تُلْقُوا بِأَيْدِيكُمْ إِلَى التَّهْلُكَةِ وَأَحْسِنُوا إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ﴾ [البقرة: ١٩٥].

- الحائض والنفساء.

يحرم على الحائض والنفساء أن تصوم، فمن أصابها الحيض أو النفاس فإن عليها أن تفطر أيام إصابتها بذلك حتى تطهر ثم تصوم، وتقضي بعد ذلك، عن معاذة، قالت: **(سألت عائشة رضي الله عنها فقلت: ما بال الحائض تقضي الصوم، ولا تقضي الصلاة. ؟ فقالت: أحرورية أنت؟ قلت: لست بحرورية، ولكني أسأل، قالت: (كان يصيبنا ذلك، فنؤمر بقضاء الصوم، ولا نؤمر بقضاء الصلاة)**[2].

روى الترمذي عن عائشة رضي الله عنها قالت: **(كنا نحيض على عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم، ثم نطهر، فيأمرنا بقضاء الصيام، ولا يأمرنا بقضاء الصلاة)**، وقال: «والعمل على هذا عند أهل العلم لا نعلم بينهم اختلافًا، أن الحائض تقضي الصيام ولا تقضي الصلاة»[3]، والنفساء تقاس على الحائض.

ثانيًا: التيسير في الصيام وحكمه:

إن الله تبارك وتعالى شرع هذا الدين ويسره للناس وهو العالم بأحوالهم، فراعى المسافر والمريض، ومن كان في بدنه ما يشق معه الصيام، فأباح لهم الفطر في نهار رمضان وقضاؤه في أيام أخر؛ لأنه يريد اليسر بعباده،

رقم ٧١٥، والنسائي في سننه، كتاب الصوم، باب وضع الصيام عن الحبلى والمرضع، رقم ٢٣١٥.

وحسنه الألباني في صحيح الجامع، ١/ ٣٧٥، رقم ١٨٣٠.

(١) تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ١/ ٥٠١.

(٢) أخرجه مسلم في صحيحه، كتاب الحيض، باب وجوب قضاء الصوم على الحائض دون الصلاة، رقم ٣٣٥.

(٣) أخرجه الترمذي في سننه، أبواب الصوم عن رسول الله صلى الله عليه وسلم، باب ما جاء في قضاء الحائض الصيام دون الصلاة، رقم ٧٨٧.

فقد قال سبحانه: ﴿يُرِيدُ ٱللَّهُ بِكُمُ ٱلْيُسْرَ وَلَا يُرِيدُ بِكُمُ ٱلْعُسْرَ﴾.

قال الحافظ ابن كثير رحمه الله: «ومن كان به مرض في بدنه يشق عليه الصيام معه، أو يؤذيه أو كان على سفر أي في حال سفر -فله أن يفطر، فإذا أفطر فعليه بعدة ما أفطره في السفر من الأيام؛ ولهذا قال: ﴿يُرِيدُ ٱللَّهُ بِكُمُ ٱلْيُسْرَ وَلَا يُرِيدُ بِكُمُ ٱلْعُسْرَ﴾ أي: إنما رخص لكم في الفطر في حال المرض وفي السفر، مع تحتمه في حق المقيم الصحيح، تيسيرًا عليكم ورحمة بكم»[1].

وقال البغوي رحمه الله: « قوله تعالى: ﴿يُرِيدُ ٱللَّهُ بِكُمُ ٱلْيُسْرَ﴾ بإباحة الفطر في المرض والسفر ﴿وَلَا يُرِيدُ بِكُمُ ٱلْعُسْرَ﴾ قرأ أبو جعفر: العسر واليسر ونحوهما بضم السين، وقرأ الآخرون بالسكون. وقال الشعبي: ما خير رجل بين أمرين فاختار أيسرهما إلا كان ذلك أحبهما إلى الله عز وجل: ﴿وَلِتُكْمِلُوا۟ ٱلْعِدَّةَ﴾ قرأ أبو بكر بتشديد الميم، وقرأ الآخرون بالتخفيف، وهو الاختيار لقوله تعالى: ﴿ٱلْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ﴾ [المائدة: ٣].

والواو في قوله تعالى: ﴿وَلِتُكْمِلُوا۟ ٱلْعِدَّةَ﴾ واو النسق، واللام لام كي، تقديره: ويريد لكي تكملوا العدة، أي: لتكملوا عدة أيام الشهر بقضاء ما أفطرتم في مرضكم وسفركم، وقال عطاء: ﴿وَلِتُكْمِلُوا۟ ٱلْعِدَّةَ﴾ أي: عدد أيام الشهر»[2].

قضاء الصوم:

ثم إن الله تبارك وتعالى فرض على من أفطر في رمضان لعذر ما أن يقضيه فيما بعد، فقال: ﴿وَمَن كَانَ مَرِيضًا أَوْ عَلَىٰ سَفَرٍ فَعِدَّةٌ مِّنْ أَيَّامٍ أُخَرَ﴾، وتقديره: من كان مريضًا، أو على سفر فأفطر فعدة من أيام أخر، قال ابن قدامة المقدسي رحمه الله: «ويلزم المسافر، والحائض، والمريض القضاء، إذا أفطروا، بغير خلاف؛ لقول الله تعالى: ﴿فَمَن كَانَ مِنكُم مَّرِيضًا أَوْ عَلَىٰ سَفَرٍ فَعِدَّةٌ مِّنْ أَيَّامٍ أُخَرَ﴾»[3].

وقال ابن بطال رحمه الله: «اختلف الناس في الحوامل والمراضع، فقال بعض العلماء: إذا ضعفن عن الصيام، وخافت على نفسها وولدها أفطرت، وأطعمت عن كل يوم مسكينًا، فإذا فطمت ولدها قضته، وهو قول مجاهد، وبه قال الشافعي وأحمد. وقال آخرون: عليهما الإطعام ولا قضاء، وهو قول ابن عباس، وابن عمر، وسعيد بن جبير. وقال آخرون: عليهما القضاء ولا إطعام عليهما، وجعلوهما بمنزلة المريض، وهو قول عطاء، والنخعي، والحسن، والزهري، وربيعة، والأوزاعي، وأبي حنيفة، والثوري،

(١) تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ١/ ٥٠٣.

(٢) معالم التنزيل، البغوي ١/ ٢٠١.

(٣) المغني، ابن قدامة ٣/ ١٤٦.

وروى ابن عبد الحكم عن مالك مثله، ذكره ابن القصار، وهو قول أشهب. وفرقة رابعة فرقت بين الحبلى، والمرضع، فقال في الحبلى: هي بمنزلة المريض تفطر وتقضى ولا إطعام عليها، والمرضع تفطر وتطعم وتقضى، هذا قول مالك في المدونة، وهو قول الليث. قال أبو عبيد: وكل هؤلاء إنما تأولوا قوله تعالى: ﴿وَعَلَى ٱلَّذِينَ يُطِيقُونَهُۥ فِدْيَةٌ﴾ فمن أوجب القضاء والإطعام معًا ذهب إلى أن الله حكم في تارك الصوم من عذر بحكمين، فجعل الفدية في آية والقضاء في أخرى، فلما لم يجد ذكر الحامل والمرضع مسمى في واحدة منهما جمعهما جميعًا عليهما احتياطًا لهما وأخذًا»[1].

(١) شرح صحيح البخارى، ابن بطال ٤/ ٩٣، بتصرف يسير.

الصيام والأعمال الصالحة

إن المتأمل في العبادات يدرك حكمة الله تبارك وتعالى ووحدانيته، فهو الخالق وحده وهو المشرع، ولأنه واحد جعل العبادات مترابطة، والصيام من جملة العبادات، فقد جعله الله تبارك وتعالى مرتبطًا بعبادات عدة، نقف مع كل عبادة على حدة على النحو التالي:

١ . الصيام والصلاة.

الصيام والصلاة عبادتان عظيمتان، وهما ركنان من أركان الإسلام، وقد قال النبي صلى الله عليه وسلم كما في حديث جبريل عليه السلام وسأله عن الإسلام: **(الإسلام أن تشهد أن لا إله إلا الله وأن محمدًا رسول الله صلى الله عليه وسلم، وتقيم الصلاة، وتؤتي الزكاة، وتصوم رمضان، وتحج البيت إن استطعت إليه سبيلا)**[2].

وعن ابن عمر رضي الله عنهما قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: **(بني الإسلام على خمس: شهادة أن لا إله إلا الله وأن محمدًا رسول الله، وإقام الصلاة، وإيتاء**

(٢) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب الإيمان، باب سؤال جبريل النبي صلى الله عليه وسلم عن الإيمان، والإسلام، والإحسان، وعلم الساعة، رقم ٥٠، ومسلم في صحيحه، كتاب الإيمان، باب معرفة الإيمان، والإسلام، والقدر وعلامة الساعة، رقم ٨.

الزكاة، والحج، وصوم رمضان)[1].

والصيام والصلاة كلاهما عبادات مكفرات لما بينهما إذا اجتنبت الكبائر، عن أبي هريرة رضي الله عنه، أن رسول الله صلى الله عليه وسلم كان يقول: (الصلوات الخمس، والجمعة إلى الجمعة، ورمضان إلى رمضان، مكفرات ما بينهن إذا اجتنب الكبائر)[2]، وشرع الاجتماع في صلاة التراويح في شهر رمضان المبارك، شهر الصيام.

٢. الصيام وقراءة القرآن:

شهر الصيام، هو شهر القرآن، وكان نزول القرآن في رمضان، قال الله تبارك وتعالى: ﴿شَهْرُ رَمَضَانَ ٱلَّذِىٓ أُنزِلَ فِيهِ ٱلْقُرْءَانُ هُدًى لِّلنَّاسِ وَبَيِّنَٰتٍ مِّنَ ٱلْهُدَىٰ وَٱلْفُرْقَانِ﴾ [البقرة: ١٨٥].

وقد كان جبريل عليه السلام ينزل فيدارس النبي صلى الله عليه وسلم القرآن في رمضان، عن ابن عباس رضي الله عنهما: (أن رسول الله صلى الله عليه وسلم كان من أجود الناس، وأجود ما يكون في رمضان، حين يلقاه جبريل، يلقاه كل ليلة يدارسه القرآن، فكان رسول الله صلى الله عليه وسلم حين يلقاه جبريل، أجود من الريح المرسلة)[3].

فقد كان السلف الكرام رحمهم الله يكثرون من قراءة القرآن في شهر القرآن، فكان البعض منهم يختم القرآن كل يوم ختمة، والبعض يختم القرآن في رمضان ستين مرة، ولا زال الناس يقبلون على قراءة القرآن في شهر رمضان إلى يومنا هذا.

٣. الصيام والاعتكاف:

الاعتكاف يطلق على الاحتباس على الشيء[4].

وقال ابن الأثير: «هو الإقامة على الشيء، وبالمكان ولزومهما، يقال: عكف يعكف ويعكف عكوفًا فهو عاكف، واعتكف يعتكف اعتكافًا فهو معتكف. ومنه قيل لمن لازم المسجد وأقام على العبادة فيه: عاكف ومعتكف»[5].

وقال الجرجاني رحمه الله: «الاعتكاف:

---

(١) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب الإيمان، باب قول النبي صلى الله عليه وسلم: بني الإسلام على خمس، رقم ٨، ومسلم في صحيحه، كتاب الإيمان، باب قول النبي صلى الله عليه وسلم: بني الإسلام على خمس، رقم ١٦.

(٢) أخرجه مسلم في صحيحه، كتاب الطهارة، باب الصلوات الخمس والجمعة إلى الجمعة، ورمضان إلى رمضان مكفرات لما بينهن ما اجتنبت الكبائر، رقم ٢٣٣.

(٣) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب الصوم، باب أجود ما كان النبي صلى الله عليه وسلم يكون في رمضان، رقم ١٩٠٢.

(٤) مختار الصحاح، الرازي ص ٢١٦.

(٥) النهاية في غريب الحديث والأثر، ابن الأثير ٣/ ٢٨٤.

هو في اللغة المقام والاحتباس، وفي الشرع: لبث صائم في مسجد جماعةٍ بنية»[1].

وقد ذكر الله تبارك وتعالى الاعتكاف في الآيات التي ذكر الصيام فيها في سورة البقرة، ونهى عن مباشرة النساء حال كونهم عاكفين في المساجد، وهذا دليل على كون الاعتكاف في المسجد، كما في قوله تعالى: ﴿وَلَا تُبَٰشِرُوهُنَّ وَأَنتُمْ عَٰكِفُونَ فِى ٱلْمَسَٰجِدِ﴾ أي: لا تقربوهن ما دمتم عاكفين في المسجد ولا في غيره.

قال الحافظ ابن كثير رحمه الله: «كان الفقهاء المصنفون يتبعون كتاب الصيام بكتاب الاعتكاف، اقتداءً بالقرآن العظيم، فإنه نبه على ذكر الاعتكاف بعد ذكر الصوم، وفي ذكره تعالى الاعتكاف بعد الصيام إرشاد وتنبيه على الاعتكاف في الصيام، أو في آخر شهر الصيام»[2].

وقال ابن سعدي رحمه الله: «ودلت الآية على مشروعية الاعتكاف، وهو لزوم المسجد لطاعة الله تعالى، وانقطاعًا إليه، وأن الاعتكاف لا يصح إلا في المسجد»[3].

وقد اعتكف النبي صلى الله عليه وسلم في العشر الأواخر من رمضان عن عائشة رضي الله عنها، زوج النبي صلى الله عليه وسلم: **(أن النبي صلى الله عليه وسلم، كان يعتكف العشر الأواخر من رمضان حتى توفاه الله، ثم اعتكف أزواجه من بعده)**[4]، وعن أبي هريرة رضي الله عنه، قال: **(كان النبي صلى الله عليه وسلم يعتكف في كل رمضان عشرة أيام، فلما كان العام الذي قبض فيه اعتكف عشرين يومًا)**[5].

٤ . الصيام والصدقة.

الصيام والصدقة بينهما ارتباط، فرمضان شهر الجود والكرم، عن ابن عباس رضي الله عنهما، قال: **(كان النبي صلى الله عليه وسلم أجود الناس، وأجود ما يكون في رمضان، حين يلقاه جبريل، وكان جبريل عليه السلام يلقاه في كل ليلة من رمضان، فيدارسه القرآن، فلرسول الله صلى الله عليه وسلم أجود بالخير من الريح المرسلة)**[6].

قال النووي رحمه الله: «وفي هذا الحديث فوائد منها بيان عظم جوده صلى الله

(١) التعريفات، الجرجاني ص ٣١.
(٢) تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ١/ ٥١٩.
(٣) تيسير الكريم الرحمن، السعدي ص ٨٧.
(٤) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب الاعتكاف، باب الاعتكاف في العشر الأواخر، والاعتكاف في المساجد كلها، رقم ٢٠٢٦، ومسلم في صحيحه، كتاب الاعتكاف، باب اعتكاف العشر الأواخر من رمضان، رقم ١١٧٢.
(٥) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب الاعتكاف، باب الاعتكاف في العشر الأوسط من رمضان، رقم ٢٠٤٤.
(٦) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب المناقب، باب صفة النبي صلى الله عليه وسلم، رقم ٣٥٥٤، ومسلم في صحيحه، كتاب الفضائل، باب كان النبي صلى الله عليه وسلم أجود الناس بالخير من الريح المرسلة، رقم ٢٣٠٨.

عليه وسلم ومنها استحباب إكثار الجود في رمضان»[1].

وقال القسطلاني رحمه الله: «كان النبي صلى الله عليه وسلم أجود الناس «أسخاهم» بالخير، وكان أجود ما يكون في رمضان»؛ لأنه شهر يتضاعف فيه ثواب الصدقة و«ما» مصدرية، أي: أجود أكوانه يكون في رمضان»[2].

وشرعت صدقة الفطر في شهر الصيام عن ابن عمر رضي الله عنهما، قال: (فرض النبي صلى الله عليه وسلم صدقة رمضان على الحر والعبد، والذكر والأنثى صاعًا من تمر، أو صاعًا من شعير) قال: (فعدل الناس به نصف صاع من بر)[3].

وعنه رضي الله عنهما، قال: (فرض رسول الله صلى الله عليه وسلم زكاة الفطر صاعًا من تمر، أو صاعًا من شعير على العبد والحر، والذكر والأنثى، والصغير والكبير من المسلمين، وأمر بها أن تؤدى قبل خروج الناس إلى الصلاة)[4].

فظهر بهذا أن شهر الصيام شهر مسارعة للخيرات، ومن ذلك فعل الصدقات، وخير السباقين والمسارعين رسول الهدى صلى الله عليه وسلم فقد كان أجود الناس في رمضان.

٥ . الصيام وقيام الليل.

إن قيام الليل مستحب في كل وقت، ويتأكد استحبابه في شهر الصيام، شهر رمضان، وذلك بصلاة التراويح، وفي حديث أبي هريرة رضي الله عنه: (من قام رمضان إيمانًا واحتسابًا، غفر له ما تقدم من ذنبه)[5].

٦ . الصيام والدعاء.

إن الدعاء عبادة من أعظم العبادات، بل لا تجد عبادةً إلا والدعاء له النصيب الأوفر فيها، ولقد قال رب العزة والجلال في كتابه الكريم في وسط آيات الصيام في سورة البقرة: ﴿وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌ أُجِيبُ دَعْوَةَ الدَّاعِ إِذَا دَعَانِ فَلْيَسْتَجِيبُوا لِي وَلْيُؤْمِنُوا بِي لَعَلَّهُمْ يَرْشُدُونَ﴾ [البقرة: ١٨٦].

وهذا فيه إشارة عظيمة لأهمية الدعاء

---

(١) شرح النووي على مسلم ١٥/ ٦٩.

(٢) إرشاد الساري، القسطلاني ٣/ ٣٥٢.

(٣) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب الزكاة، باب صدقة الفطر على الحر والمملوك، رقم ١٥١١، ومسلم في صحيحه، كتاب الزكاة، باب زكاة الفطر على المسلمين من التمر والشعير، رقم ٩٨٤.

(٤) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب الزكاة، باب فرض صدقة الفطر، رقم ١٥٠٣، ومسلم في صحيحه، كتاب الزكاة، باب زكاة الفطر على المسلمين من التمر والشعير، رقم ٩٨٤.

(٥) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب الإيمان، باب تطوع قيام رمضان من الإيمان، رقم ٣٧، ومسلم في صحيحه، كتاب صلاة المسافرين وقصرها، باب الترغيب في قيام رمضان، وهو التراويح، رقم ٧٥٩.

ومكانته وقت الصيام، ويمكن أن يستدل لذلك بما روي عن أبي هريرة، قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: (ثلاثة لا يرد دعاؤهم: الإمام العادل، والصائم حتى يفطر، ودعوة المظلوم، يرفعها الله فوق الغمام يوم القيامة، ويفتح لها أبواب السماء، ويقول الرب عز وجل: بعزتي لأنصرنك ولو بعد حين)[1].

والشاهد في الحديث: (والصائم حتى يفطر).

فيمكن أن يقال ملخصًا: إن الدعاء عبادة عظمى، داخل في كل عبادة، فلا تخلو عبادة من العبادات من دعاء، وفق الله الجميع لرضاه وتقواه، والحمد لله رب العالمين.

مبطلات الصيام

إن الله تبارك وتعالى بين لنا في كتابه الكريم أغلب الأحكام، وبين لنا النبي صلى الله عليه وسلم ووضح ما أجمل في القرآن؛ ففي الكتاب والسنة بيان جميع الأحكام.

وقد قال الله سبحانه: ﴿ٱلْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِى وَرَضِيتُ لَكُمُ ٱلْإِسْلَٰمَ دِينًا﴾ [المائدة: ٣].

وقال سبحانه آمرًا بأخذ ما جاء به النبي صلى الله عليه وسلم: ﴿وَمَآ ءَاتَىٰكُمُ ٱلرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَىٰكُمْ عَنْهُ فَٱنتَهُوا۟ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ إِنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ﴾ [الحشر: ٧].

ومما بينه في كتابه الكريم وبين لنا النبي صلى الله عليه وسلم في سنته مبطلات الصيام، والمبطلات:

منها: ما يبطل الصوم عامة:

فيبطل الصوم عامة إذا انتفى شرط من شروطه سواء كان شرط وجوب كالإسلام، أو شرط صحة كالطهارة من الحيض أو النفاس، فلو ارتد إنسان وهو صائم بطل صومه إجماعًا، ويلزمه القضاء إن رجع إلى الإسلام، وكذلك لو طرأ الحيض أو النفاس على امرأة وهي صائمة بطل صومها وعليها القضاء وقت الطهارة، ويبطل الصوم كذلك بعمل ما ينافيه كالأكل والشرب والجماع، أو تناول ما كان مغذيًا من الإبر الطبية وغيرها، ولا بد أن يكون

(١) أخرجه الإمام أحمد في مسنده، رقم ٩٧٤٣. وضعفه الألباني في السلسلة الضعيفة، رقم ١٣٥٨.



الصائم ذاكرًا مختارًا فيما يتناوله.

لكن لو أكل الصائم شيئًا، أو شرب ناسيًا فلا شيء عليه، ثبت في الصحيحين عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: (من نسي وهو صائم، فأكل أو شرب، فليتم صومه، فإنما أطعمه الله وسقاه)[1].

ومنها: ما يبطل الصوم ويوجب القضاء فقط:

يبطل الصوم ويوجب القضاء فقط دون الكفارة، كالأكل أو الشرب، أكل ما لا يؤكل عادة، أو شرب ما لا يشرب عادة، أو تناول أي شيء عامدًا عن طريق الفم، أو كمن فرط فأكل أو شرب أو جامع ظنًا منه أن الفجر لم يطلع والفجر قد طلع، أو أفطر قبل غروب الشمس ظانًا غروبها، وكذلك من أخرج منيه من غير جماع كمن استمنى أو قبل أو كرر النظر فأنزل، أو مساحقة امرأتين إذا أنزلت، فمن وقع في شيء من ذلك فقد بطل صومه وعليه القضاء والتوبة إلى الله تبارك وتعالى.

ومنها: ما يبطل الصوم ويوجب القضاء والكفارة:

ويبطل الصيام ويوجب القضاء والكفارة الجماع في قبلٍ أو دبرٍ أنزل أو لم ينزل، والكفارة هي عتق رقبة، فمن لم يجد فصوم شهرين متتابعين، فإن لم يستطع فإطعام ستين مسكينًا، وقد ثبت أن أبا هريرة رضي الله عنه قال: (بينما نحن جلوس عند النبي صلى الله عليه وسلم، إذ جاءه رجلٌ، فقال: يا رسول الله، هلكت. قال: (ما لك؟) قال: وقعت على امرأتي وأنا صائم، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: (هل تجد رقبة تعتقها؟)، قال: لا، قال: (فهل تستطيع أن تصوم شهرين متتابعين)، قال: لا، فقال: (فهل تجد إطعام ستين مسكينا). قال: لا، قال: فمكث النبي صلى الله عليه وسلم، فبينا نحن على ذلك أتي النبي صلى الله عليه وسلم بعرق فيها تمر -والعرق المكتل- قال: (أين السائل؟) فقال: أنا، قال: (خذها، فتصدق به)، فقال الرجل: أعلى أفقر مني يا رسول الله؟ فوالله ما بين لابتيها -يريد الحرتين- أهل بيت أفقر من أهل بيتي، فضحك النبي صلى الله عليه وسلم حتى بدت أنيابه، ثم قال: (أطعمه أهلك)[2].

(١) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب الصوم، باب الصائم إذا أكل أو شرب ناسيا، رقم ١٩٣٣، ومسلم في صحيحه، كتاب الصيام، باب أكل الناسي وشربه وجماعه لا يفطر، رقم ١١٥٥.

(٢) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب الصوم، باب إذا جامع في رمضان، ولم يكن له شيء، فتصدق عليه فليكفر، رقم ١٩٣٦، ومسلم في صحيحه، كتاب الصيام، باب تغليظ تحريم الجماع في نهار رمضان على الصائم، ووجوب الكفارة الكبرى فيه وبيانها، وأنها تجب على الموسر والمعسر وتثبت في ذمة المعسر حتى يستطيع، رقم ١١١١.

فظهر بهذا أن الصيام له مبطلات منها ما يوجب القضاء فقط، ومنها ما يوجب القضاء والكفارة، فعلى الإنسان المسلم أن يكون مراقبًا لله تبارك وتعالى حتى يأتي بصومه كما ينبغي، وعمومًا فمن الناس من لا يقع في شيء من مبطلات الصوم المتقدمة، لكنه يجرح صومه بالكلام في أعراض الناس، والغيبة، والنميمة، والسباب، والشتم، وقول الزور وقد ثبت عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: **(من لم يدع قول الزور والعمل به، فليس لله حاجة في أن يدع طعامه وشرابه)**[(١)].

قال ابن بطال رحمه الله: «قال المهلب: فيه دليل أن حكم الصيام الإمساك عن الرفث وقول الزور، كما يمسك عن الطعام والشراب، وإن لم يمسك عن ذلك فقد تنقص صيامه وتعرض لسخط ربه، وترك قبوله منه. وقال غيره: وليس معناه أن يؤمر بأن يدع صيامه إذا لم يدع قول الزور، وإنما معناه التحذير من قول الزور»[(٢)].

وقال ابن الأمير الصنعاني رحمه الله: «الحديث دليل على تحريم الكذب والعمل به وتحريم السفه على الصائم وهما محرمان على غير الصائم أيضًا إلا أن التحريم في حقه آكد، كتأكد تحريم الزنا من الشيخ، والخيلاء من الفقير، والمراد من قوله: **(فليس لله حاجة)** أي: إرادة، بيان عظم ارتكاب ما ذكر، وأن صيامه كلا صيام، ولا معنى لاعتبار المفهوم هنا فإن الله لا يحتاج إلى أحد هو الغني سبحانه ذكره ابن بطال، وقيل: هو كناية عن عدم القبول، كما يقول المغضب لمن رد شيئًا عليه: لا حيلة لي في كذا، وقيل: إن معناه أن ثواب الصيام لا يقاوم في حكم الموازنة ما يستحق من العقاب لما ذكر»[(٣)]، والحمد لله رب العالمين.

(١) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب الصوم، باب من لم يدع قول الزور، والعمل به في الصوم، رقم ١٩٠٣.
(٢) شرح صحيح البخارى، ابن بطال ٤/ ٢٣.
(٣) سبل السلام، الصنعاني ١/ ٥٦٧.

فوائد الصيام

إن من حكمة الله سبحانه أنه لا يشرع شيئًا من العبادات إلا لمصلحة الإنسان، وإن هذا الدين الإسلامي دين مبني بعد إفراد الله بالعبادة على الحكمة العظيمة، والخير الكثير، فشرع الله تبارك وتعالى أحكام هذا الدين لفوائد مرجوة، ومقاصد جليلة، فإن لهذه الشريعة الإسلامية تكاليف سامية المقاصد، نبيلة الفوائد، بديعة الأسرار، نذكر شيئًا من فوائدها:

١ . أن الصوم سبب في دخول الجنة.

وأن الله سبحانه أعد للصائمين بابًا في الجنة لا يدخل منه أحد غيرهم، وأنه يشفع لأصحابه، وأن الله سبحانه أعد للصائمين أجرًا عظيمًا، كما سيأتي بعد جزاء الصائمين.

٢ . أن الصيام يمنع أو يخفف المنكرات، ويعلم الالتزام بفعل الخيرات.

فالصائم يترك كليًا أو وقت صيامه الدخان، والقات والشمة، فالصائم تراه قارئًا للقرآن، غاضًا بصره عن الحرام، مؤديًا للصلاة في المسجد مع المسلمين، متقربًا لله تعالى بأنواع القربات، يتصدق ويحسن للفقراء والمساكين والمحتاجين؛ لأنه شعر بشيء مما هو واقع بهم وهو الجوع، متنفلًا لله بصلاة التراويح، والقيام، قال الحافظ ابن رجب الحنبلي رحمه الله: « قال بعض السلف: أهون الصيام ترك الشراب والطعام، وقال جابر: إذا صمت فليصم سمعك وبصرك ولسانك عن الكذب والمحارم، ودع أذى الجار، وليكن عليك وقار وسكينة يوم صومك، ولا تجعل يوم صومك ويوم فطرك سواءا»[(١)].

٣ . في الصيام جملة من الفوائد الصحية.

فبما أن الصيام هو الإمساك عن الطعام والشراب، فعندما يمسك الإنسان فترة من الوقت عن الأكل والشرب فإن الجهاز الهضمي يرتاح وقتًا لا بأس به، ويأخذ فترة للتخلص من الفضلات التي به، وكذلك يتخلص الجسم من السموم، والدهون الموجودة في الجسم، فالجسم البشري يتعرض لكثير من المواد الضارة والسموم التي قد تتراكم في أنسجته، وهذه السموم تأتي للجسم عبر الغذاء الذي يتناوله بكثرة، وتذكر بعض المراجع الطبية أن جميع الأطعمة تقريبًا في هذا الزمان تحتوي على كميات قليلة من المواد السامة، وهذه المواد تضاف إلى الطعام في أثناء إعداده، أو حفظه كالنكهات، والألوان، ومضادات الأكسدة، والمواد الحافظة، والإضافات الكيميائية للنبات أو الحيوان. هذا بالإضافة إلى

(١) لطائف المعارف ابن رجب ص ١٥٥.

السموم التي نستنشقها مع الهواء من عوادم السيارات، وغازات المصانع، وسموم الأدوية التي يتناولها الناس بغير ضابط، إلى غير ذلك من سموم الكائنات الدقيقة التي تقطن أجسامنا بأعداد تفوق الوصف والحصر، وأخيرًا مخلفات الاحتراق الداخلي للخلايا والتي تسبح في الدم كغاز ثاني أكسيد الكربون، واليوريا، والكرياتين، والأمونيا، والكبريتات، وحمض اليوريك، ومخلفات الغذاء المهضوم، والغازات السامة التي تنتج من تخمره وتعفنه مثل الأندول، والسكاتول، والفينول[1].

وعلاج مرض البول السكري في مراحله الأولى، وخاصة عند السمنة يكون بالصيام والحمية عن المواد السكرية والنشوية، وعفونة الأمعاء، وتخمراتها يعالج بالصيام.

ومرض ضغط الدم يفيد فيه الصيام بالإقلال من الملح، والدسم الذي يحوي الكولسترول الذي يسبب تصلب الشرايين.

وعسر الهضم يعالج بالحمية، وبتنظيم وجبات الطعام، وعدم إدخال الطعام على الطعام، وهذا موجود في الصيام. وللاستفادة من الصيام ينبغي ألا يسرف الإنسان في الأكل في الفطور، أو السحور، وأن يتبع الحديث النبوي: **(ما ملأ ابن آدم وعاء شرًا من بطنه، بحسب ابن آدم لقيماتٌ يقمن صلبه، فإن كان ولا محالة فاعلا فثلثٌ لطعامه، وثلثٌ لشرابه، وثلثٌ لنفسه)**[2]، وحتى يكون خفيفًا نشيطًا فيقدر على أعمال العبادة من صلوات التراويح إلى التهجد... إلخ[3].

٤ . يعلم الناس الصبر.

الصبر بجميع أنواعه، صبر على طاعة الله تبارك وتعالى بترك الشهوات، الأكل والشرب والجماع وغيرها طلبًا لمرضاة الرب عز وجل، والنفس كما هو معلوم تحب مثل هذه الأشياء فيلزمها تركها ويصبر على ذلك، وصبر عن معصية الله يلزم نفسه الإمساك عن جميع المفطرات؛ لأن ترك الإمساك معصية لرب الأرض والسماوات، وصبر على أقدار الله فالله سبحانه قدر هذا الإمساك وجعله عبادة من العبادات فلابد من الرضا بما قدر، والعمل بما أراد سبحانه، فظهر بهذا أن الصوم يعد مدرسةً لتعليم الصبر.

٥ . الصوم يعد مدرسة لتعليم النظام

---

(١) انظر: رحلة الإيمان في جسم الإنسان، د.حامد محمد حامد ١٩٩١.

(٢) أخرجه الترمذي في سننه، أبواب الزهد عن رسول الله صلى الله عليه وسلم، باب ما جاء في كراهية كثرة الأكل، رقم ٢٣٨٠، وأحمد في المسند، رقم ١٧١٨٦.
وصححه الألباني في صحيح الجامع، رقم ٥٦٧٤.

(٣) انظر: مجلة الجامعة الإسلامية بالمدينة المنورة ٧/ ٣٠٦.

والالتزام بالمواعيد.

وذلك لأن الصيام لا بد له من تبييت النية من الليل، ثم الإمساك من طلوع الفجر إلى وقت الغروب، فلا يفطر الإنسان إلا وقت غروب الشمس.

٦. يعلم الصوم أهمية وحدة المسلمين واجتماعها.

وذلك أن المسلمين في جميع أنحاء المعمورة يجب عليهم صيام شهر واحد هو رمضان، وكلهم يمسكون من طلوع الفجر إلى غروب الشمس، نظام دقيق من خالق حكيم سبحانه وتعالى.

وقد ذكر الحافظ ابن رجب الحنبلي رحمه الله فوائد متعددة للصيام نذكرها مختصرة:

فمنها: كسر النفس فإن الشبع، والري، ومباشرة النساء تحمل النفس على الأشر والبطر والغفلة.

ومنها: تخلي القلب للفكر والذكر؛ فإن تناول هذه الشهوات قد يقسي القلب ويعميه، ويحول بين العبد وبين الذكر والفكر، وتستدعي الغفلة. وخلو الباطن من الطعام والشراب ينور القلب ويوجب رقته ويزيل قسوته، ويخليه للذكر والفكر.

ومنها: أن الغني يعرف قدر نعمة الله عليه بإقداره له على ما منعه كثيرًا من الفقراء من فضول الطعام والشراب والنكاح؛ فإنه بامتناعه من ذلك في وقت مخصوص، وحصول المشقة له بذلك يتذكر به من منع من ذلك على الإطلاق فيوجب له ذلك شكر نعمة الله عليه بالغنى، ويدعوه إلى رحمة أخيه المحتاج ومواساته بما يمكن من ذلك.

ومنها: أن الصيام يضيق مجاري الدم التي هي مجاري الشيطان من ابن آدم؛ فإن الشيطان يجري من ابن آدم مجرى الدم، فتسكن بالصيام وساوس الشيطان وتنكسر سورة الشهوة والغضب[(١)].

وكل هذه الفوائد مصداقًا لقول الله تبارك وتعالى: ﴿وَأَن تَصُومُوا خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ [البقرة: ١٨٤].

نسأل الله أن يوفقنا لإخلاص العمل لوجهه الكريم.

(١) لطائف المعارف ابن رجب ص ١٥٥.

جزاء الصائمين

إن الله تبارك وتعالى كريم جواد يعطي على القليل الكثير، يضاعف الأجر لعباده، يعمل العبد العبادة فيثيبه رب العالمين الأجر الكبير، فالحسنة بعشر أمثالها ثم تضاعف إلى سبعمائة ضعف إلا الصوم؛ فإنه له سبحانه ويجزي عليه بالأجر العظيم.

وذكر الله جل وعلا جزاء الصائمين في قوله تعالى: ﴿إِنَّ الْمُسْلِمِينَ وَالْمُسْلِمَاتِ وَالْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ وَالْقَانِتِينَ وَالْقَانِتَاتِ وَالصَّادِقِينَ وَالصَّادِقَاتِ وَالصَّابِرِينَ وَالصَّابِرَاتِ وَالْخَاشِعِينَ وَالْخَاشِعَاتِ وَالْمُتَصَدِّقِينَ وَالْمُتَصَدِّقَاتِ وَالصَّائِمِينَ وَالصَّائِمَاتِ وَالْحَافِظِينَ فُرُوجَهُمْ وَالْحَافِظَاتِ وَالذَّاكِرِينَ اللَّهَ كَثِيرًا وَالذَّاكِرَاتِ أَعَدَّ اللَّهُ لَهُم مَّغْفِرَةً وَأَجْرًا عَظِيمًا﴾ [الأحزاب: ٣٥].

فالله سبحانه وتعالى جمع أصحاب هؤلاء الصفات ثم قال في آخر الآية: ﴿أَعَدَّ اللَّهُ لَهُم مَّغْفِرَةً وَأَجْرًا عَظِيمًا﴾، قال الحافظ ابن كثير رحمه الله: «أي: هيأ لهم منه لذنوبهم مغفرة وأجرًا عظيمًا وهو الجنة»[١].

والماوردي رحمه الله يقول: «﴿أَعَدَّ اللَّهُ لَهُم مَّغْفِرَةً وَأَجْرًا عَظِيمًا﴾ لعملهم، قاله ابن جبير»[٢].

(١) تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ٦/ ٤٢١.
(٢) النكت والعيون، الماوردي ٤/ ٤٠٤.

وقال السعدي رحمه الله: «﴿أَعَدَّ اللَّهُ لَهُم﴾ أي: لهؤلاء الموصوفين بتلك الصفات الجميلة، والمناقب الجليلة، التي هي، ما بين اعتقادات، وأعمال قلوب، وأعمال جوارح، وأقوال لسان، ونفع متعد وقاصر، وما بين أفعال الخير، وترك الشر، الذي من قام بهن، فقد قام بالدين كله، ظاهره وباطنه، بالإسلام والإيمان والإحسان.

فجازاهم على عملهم بـ «المغفرة» لذنوبهم؛ لأن الحسنات يذهبن السيئات، ﴿وَأَجْرًا عَظِيمًا﴾ لا يقدر قدره، إلا الذي أعطاه، مما لا عين رأت، ولا أذن سمعت، ولا خطر على قلب بشر، نسأل الله أن يجعلنا منهم»[٣].

لعظم هذه العبادة جعلها له سبحانه، ويجازي عبده بها، بخلاف غيرها من العبادات؛ فإن كل عمل ابن آدم له إلا الصيام كما ثبت عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: (**قال الله: كل عمل ابن آدم له، إلا الصيام؛ فإنه لي وأنا أجزي به، والصيام جنة، وإذا كان يوم صوم أحدكم فلا يرفث ولا يصخب، فإن سابه أحد أو قاتله، فليقل إني امرؤ صائم**)[٤].

(٣) تيسير الكريم الرحمن، السعدي ص ٦٦٥.
(٤) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب الصوم، باب هل يقول إني صائم إذا شتم، رقم ١٩٠٤، ومسلم في صحيحه، كتاب الصيام، باب فضل الصيام، رقم ١١٥١.

وعن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: (**كل عمل ابن آدم يضاعف، الحسنة عشر أمثالها إلى سبعمائة ضعف، قال الله عز وجل: إلا الصوم؛ فإنه لي وأنا أجزي به، يدع شهوته وطعامه من أجلي**)، (**للصائم فرحتان: فرحة عند فطره، وفرحة عند لقاء ربه**)[1].

يعني: أن الصوم أحب العبادات إلي، والمقدم عندي؛ لأنه قال: (**الصيام لي**)، فأضافه إلى نفسه وكفى به فضلًا على سائر العبادات[2].

وبين النبي صلى الله عليه وسلم حين طلب منه أن يرشد إلى أمر يؤخذ عنه، فأرشد إلى الصيام، وقال: (**فإنه لا مثل له**)، وفي رواية (**لا عدل له**)، كما ثبت عن أبي أمامة رضي الله عنه قال: (**أتيت رسول الله صلى الله عليه وسلم فقلت: مرني بأمر آخذه عنك، قال: (عليك بالصوم؛ فإنه لا مثل له)**)[3].

وفي رواية: (**عليك بالصوم؛ فإنه لا عدل له**)[4].

قال المناوي رحمه الله: «عليك بالصوم أي: الزمه، فإنه لا مثل له أي: لأنه يقوي القلب والفطنة، ويزيد في الذكاء والزكاء ومكارم الأخلاق»[5].

وقال رحمه الله: «وإذا صام المرء اعتاد قلة الأكل والشرب، وانقمعت شهواته، وانقلعت مواد الذنوب من أصلها، ودخل في الخير من كل وجه وأحاطت به الحسنات من كل جهة»[6].

ثم إن الله سبحانه وتعالى يجازي الصائمين بالدخول من باب خاصٍ بهم في الجنة لا يدخل معهم غيرهم، باب يقال له: الريان كما ثبت في الصحيحين من حديث سهل رضي الله عنه، عن النبي صلى الله عليه وسلم، قال: (**إن في الجنة بابًا يقال له: الريان، يدخل منه الصائمون يوم القيامة، لا يدخل منه أحد غيرهم، يقال: أين الصائمون؟ فيقومون لا يدخل منه أحد غيرهم، فإذا دخلوا أغلق فلم يدخل منه أحد**)[7].

---

(١) أخرجه مسلم في صحيحه، كتاب الصيام، باب فضل الصيام، رقم ١١٥١.

(٢) عمدة القاري، العيني ١٠/ ٢٦٠.

(٣) أخرجه النسائي، كتاب الصيام، باب وجوب الصيام، رقم ٢٢٢٠، وأحمد في المسند، رقم ٢٢٢٧٦.

وصححه الألباني في صحيح الجامع، رقم ٤٠٤٣.

(٤) أخرجه النسائي، كتاب الصيام، باب وجوب الصيام، رقم ٢٢٢٢، وأحمد في المسند، رقم ٢٢١٤٩.

(٥) التيسير بشرح الجامع الصغير، المناوي ٢/ ١٣٧.

(٦) فيض القدير شرح الجامع الصغير، المناوي ٤/ ٣٣٠.

(٧) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب الصوم،

قال النووي: «وفي هذا الحديث فضيلة الصيام، وكرامة الصائمين»[(١)].

وقال المناوي رحمه الله: « (إن في الجنة بابًا يقال له: الريان) بفتح الراء وشد المثناة التحتية فعلان من الري وهو باب يسقى منه الصائم شرابًا طهورا (يدخل منه) إلى الجنة، (الصائمون يوم القيامة) يعني الذين يكثرون الصوم في الدنيا (لا يدخل منه أحد غيرهم) كرر نفي دخول غيرهم تأكيدًا، (يقال) أي: تقول الملائكة بأمر الله تعالى في الموقف (أين الصائمون) المكثرون للصيام (فيقومون) أي: فينهضون إلى المنادي، فيقال لهم: ادخلوا الجنة (فيدخلون منه فإذا دخلوا) منه أي: دخل آخرهم (أغلق) بالبناء المفعول (فلم يدخل منه) بعد ذلك (أحد) عطف على أحد، أي: لم يدخل منه غير من دخل، ولا يعارضه أن جمعًا تفتح لهم أبواب الجنة يدخلون من أيها شاءوا؛ لإمكان صرف مشيئة غير مكثري الصوم عن دخول باب الريان» [(٢)].

وثبت في السنة أن الصيام يشفع لصاحبه يوم القيام كما في حديث عبد الله بن عمرو رضي الله عنهما: أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: (الصيام والقرآن يشفعان للعبد يوم القيامة، يقول الصيام: أي رب، منعته الطعام والشهوات بالنهار، فشفعني فيه، ويقول القرآن: منعته النوم بالليل، فشفعني فيه)، قال: (فيشفعان)[(٣)].

فهذا بعض ما ورد في جزاء الصائمين، فحري بكل أحد أن يتعب نفسه في مرضاة ربه، ويكابد النهار ويجوع ويعطش؛ ليحصل على ما تفضل الله به على عباده الصائمين. وفق الله الجميع لطاعته ورضاه.

باب الريان للصائمين، رقم ١٨٩٦، ومسلم في صحيحه، كتاب الصيام، باب فضل الصيام، رقم ١١٥٢.

(١) المنهاج شرح صحيح مسلم بن الحجاج، النووي ٨/ ٣٢.

(٢) التيسير بشرح الجامع الصغير، المناوي ١/ ٣٢٤.

(٣) أخرجه أحمد في المسند، رقم ٦٦٢٦، والبيهقي في شعب الإيمان، رقم ١٨٣٩.
قال المنذري في الترغيب والترهيب: «أخرجه أحمد والطبراني في الكبير، ورجاله محتج بهم في الصحيح »، وأخرجه ابن أبي الدنيا في كتاب الجوع وغيره بإسناد حسن والحاكم وقال: « صحيح على شرط مسلم»، انظر: الترغيب والترهيب، لعبد العظيم بن عبد القوي المنذري ٢/ ٥٠، رقم ١٤٥٥، وقال الألباني في صحيح الترغيب والترهيب: «حسن صحيح»، رقم ٩٨٤.

الاعجاز التشريعي في الصيام

إن كتاب الله تبارك وتعالى جاء بشرائع الهدى لإصلاح الخلق، وإقامتهم على طريق الحق والفلاح، فلم تسم شريعة من الشرائع أن تبلغ ما في شريعة القرآن من: إحكام، ويسر، ودقة، ذلك أنها شريعة الله تبارك وتعالى التي تنطلق في تكاليفها من رحمة الله تبارك وتعالى بعباده، ومراعاة مصالحهم وقدراتهم البشرية، قال جل وعلا: ﴿يُرِيدُ اللَّهُ بِكُمُ الْيُسْرَ وَلَا يُرِيدُ بِكُمُ الْعُسْرَ﴾ [البقرة: ١٨٥].

وقال: ﴿لَا يُكَلِّفُ اللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا﴾ [البقرة: ٢٨٦].

وقال سبحانه: ﴿مَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيَجْعَلَ عَلَيْكُم مِّنْ حَرَجٍ﴾ [المائدة: ٦].

فمن مظاهر التيسير ورفع الحرج عن هذه الأمة، أنه راعى للمسافر مكانته فأباح له الفطر في رمضان، والقضاء في وقت آخر، وكذلك المريض، وأباح للمرضع والحامل الفطر والقضاء فيما بعد، فكتاب الله سبحانه معجز في نظمه وبلاغته، معجز في تشريعه، معجز في كل شيء.

فالله سبحانه وتعالى قال في كتابه الكريم: ﴿وَأَن تَصُومُوا خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ [البقرة: ١٨٤].

فالصوم خير لنا في دنيانا وأخرانا، خير لنا في صحتنا، وشفاء كثير من الأمراض، فصحة الأبدان من الأمراض والأسقام من عاجل ذلك الخير، ولأهمية الصيام وأثره في الطب يطلب الأطباء من المريض أحيانًا الصيام لإجراء فحص، أو لإجراء جراحة، وهناك فرق بين الصيام الشرعي والصيام الطبي، فالصيام الشرعي تقدم أنه الإمساك عن الطعام والشراب والجماع من طلوع الفجر إلى غروب الشمس مع النية، أما بالنسبة للصيام الطبي فهو: الامتناع الكلي أو الجزئي عن تناول المأكولات والمشروبات معًا، أو عن تناول المأكولات فقط لفترة من الزمن طالت أم قصرت[1].

قال الشيخ محمد راتب النابلسي حفظه الله: «رأى العلماء أن في الصوم وقايةً وعلاجًا من أمراضٍ كثيرةٍ، فبعض الأمراض المستعصية قد يكون علاجها في الصوم؛ كالتهاب المعدة الحاد، وإقياء الحمل العنيد، وبعض أنواع داء السكري، وارتفاع التوتر الشرياني، والقصور الكلوي الحابس للملح، وخناق الصدر، والالتهابات الهضمية المزمنة، وحصيات المرارة، وبعض الأمراض الجلدية. الصوم علاجٌ لبعض الأمراض، ولكنه إذا طبق كما شرعه النبي عليه الصلاة والسلام فهو وقايةٌ من أمراضٍ كثيرةٍ. ثم إن في الصيام -كما يقرر

(١) انظر: التداوي بالصوم، شيلتون ١٩٨٧.

الأطباء- صحةً نفسيةً، وإن في الصيام رفعًا لمستوى النفس، وتعويدًا لها على الحرية من كل قيدٍ، وكل عادة رفعًا لمستوى النفس، وأفضل عادة ألا يتعود الإنسان أي عادةٍ، هذا الذي يدمن التدخين، كيف استطاع أن يقلع عنه في رمضان، إذًا في الإمكان أن يقلع عنه، وأكبر شاهدٍ على ذلك شهر الصيام.

إذًا الإنسان يقوي إرادته بالصيام، والإنسان بالصيام ينمي إخلاصه، إن الصيام عبادة الإخلاص، وإن الصيام أيضًا ينمي مشاعر الإنسان، فقد يكون الطعام والشراب متوفرًا، ولا يستطيع الإنسان أن يأكل أو يشرب منه شيئًا»[1].

وقد يكون من أوجه الإعجاز التشريعي في الصيام أن الله سبحانه شرع هذه العبادة وهو يعلم باستطاعة الناس له، فشرع لهم ما يستطيعون وكلفهم به، ويستحيل أن يكلف الله تبارك وتعالى عباده مالا طاقة لهم به، قال الله تعالى: ﴿يُرِيدُ ٱللَّهُ بِكُمُ ٱلۡيُسۡرَ وَلَا يُرِيدُ بِكُمُ ٱلۡعُسۡرَ﴾ [البقرة: ١٨٥].

قال الإمام الرازي رحمه الله: «الله تعالى أوجب الصوم على سبيل السهولة واليسر فإنه ما أوجبه إلا في مدة قليلة من السنة ثم ذلك القليل ما أوجبه على المريض ولا على المسافر وكل ذلك رعاية لمعنى اليسر والسهولة»[2].

ومن هذا اليسر والسهولة أنه راعى أصحاب الأعذار، فأباح لهم الفطر والقضاء في أيام أخر، كل هذا رحمة بهم.

يضاف إلى ذلك أن الكفارات ومنها الصيام أخذت طابع العقاب، وذلك لمخالفة الإنسان أوامر الرحمن، ولكنها مع ذلك يؤديها الإنسان عبادةً لله تبارك وتعالى، فهي عقوبة زاجرة وجابرة، صيام شهرين متتابعين في كفارة قتل الخطأ والوقاع، وصيام ثلاثة أيام في كفارة اليمين، والصيام في بقية الكفارات فيه كلفة ومشقة على الإنسان؛ كونه عقوبة له على ما اقترف من الإثم، ومع ذلك عبادة يؤديها الإنسان، فيعيش أيام الصيام ويكون وقت أداء الكفارة بمثابة محطة يقف فيها الإنسان، فتتولد له الكثير من معاني الندم والتوبة، والله تبارك وتعالى أعلم.

ومن أوجه الإعجاز التشريعي للصيام ما يلي[3]:

١ . التخلص من السموم.

يتعرض الجسم البشري لكثير من المواد الضارة والسموم التي قد تتراكم في أنسجته، وهذه السموم تأتي للجسم عبر الغذاء الذي

(١) موسوعة الإعجاز العلمي في القرآن والسنة، محمد راتب النابلسي ١/ ٧٤.

(٢) مفاتيح الغيب، الرازي ٥/ ٢٥٨.

(٣) نقلاً من موقع جامعة الإيمان بالجمهورية اليمنية: بحث بعنوان: « من أوجه الإعجاز العلمي في الصيام».

يتناوله بكثرة، وتذكر بعض المراجع الطبية أن جميع الأطعمة تقريبًا في هذا الزمان تحتوي على كميات قليلة من المواد السامة، وهذه المواد تضاف إلى الطعام في أثناء إعداده، أو حفظه كالنكهات، والألوان، ومضادات الأكسدة، والمواد الحافظة، والإضافات الكيميائية للنبات أو الحيوان. هذا بالإضافة إلى السموم التي نستنشقها مع الهواء من عوادم السيارات، وغازات المصانع، وسموم الأدوية التي يتناولها الناس بغير ضابط، إلى غير ذلك من سموم الكائنات الدقيقة التي تقطن أجسامنا بأعداد تفوق الوصف والحصر، وأخيرًا مخلفات الاحتراق الداخلي للخلايا والتي تسبح في الدم كغاز ثاني أكسيد الكربون، واليوريا، والكرياتين، والأمونيا، والكبريتات، وحمض اليوريك، ومخلفات الغذاء المهضوم، والغازات السامة التي تنتج من تخمره وتعفنه مثل الأندول، والسكاتول، والفينول[1].

كل هذه السموم جعل الله سبحانه للجسم منها فرجًا ومخرجًا حيث يقوم الكبد وهو الجهاز الرئيس بتنظيف الجسم من السموم، غير أن للكبد جهدًا وطاقة محدودة وقد يعتري خلاياه بعض الخلل لأسباب مرضية أو لأسباب خلقية كتقدم السن، فيترسب جزء من هذه المواد السامة في أنسجة الجسم، وخصوصًا في المخازن الدهنية، وفي الصيام تتحول كميات هائلة من الشحوم المختزنة في الجسم إلى الكبد حتى تؤكسد وينتفع بها وتستخرج منها السموم الذائبة فيها وتزال سميتها ويتخلص منها مع نفايات الجسد.

وبما أن عمليات الهدم في الكبد في أثناء الصيام تغلب عمليات البناء في التمثيل الغذائي فإن فرصة طرح السموم المتراكمة في خلايا الجسم تزداد خلال هذه الفترة ويزداد أيضًا نشاط الخلايا الكبدية في إزالة سمية كثير من المواد السامة وهكذا يعتبر الصيام شهادة صحية لأجهزة الجسم بالسلامة.

يقول الدكتور «ماك فادون» -وهو من الأطباء العالميين الذين اهتموا بدراسة الصوم وأثره-: «إن كل إنسان يحتاج إلى الصوم وإن لم يكن مريضًا؛ لأن سموم الأغذية والأدوية تجتمع في الجسم فتجعله كالمريض وتثقله فيقل نشاطه، فإذا صام الإنسان تخلص من أعباء هذه السموم وشعر بنشاط وقوة لا عهد له بهما من قبل»[2].

٢ . التخلص من الشحوم.

ترتبط السمنة بالإفراط في تناول الطعام

(١) رحلة الإيمان في جسم الإنسان، د.حامد محمد حامد ١٩٩١.

(٢) الصوم والصحة، نجيب الكيلاني ١٩٧٨.

وخصوصًا الأطعمة الغنية بالدهون هذا بالإضافة إلى أن وسائل الحياة المريحة، والسمنة مشكلة واسعة الانتشار، وقد وجد أن السمنة تقترن بزيادة خطر الأمراض القلبية الوعائية مثل قصور القلب والسكتة القلبية، ومرض الشريان التاجي، ومرض انسداد الشرايين المحيطة بالقلب.

والصيام الشرعي الإسلامي يعد النموذج الفريد للوقاية والعلاج من السمنة في آن واحد، حيث يمثل الأكل المعتدل والامتناع عنه مع النشاط والحركة عاملين مؤثرين في تخفيف الوزن، وذلك بزيادة معدل استقلاب الغذاء بعد وجبة السحور وتحريك الدهن المختزن لأكسدته في إنتاج الطاقة اللازمة بعد منتصف النهار.

وبهذا يحدث الصيام الشرعي المتمثل في الحفاظ على وجبة السحور، والاعتدال في الأكل، والحركة والنشاط في أثناء الصيام نظامًا غذائيًا ناجحًا في علاج السمنة.

٣. تجدد الخلايا.

اقتضت حكمة الله تعالى أن يحدث التغيير والتبديل في كل شيء وفق سنة ثابتة، فقد اقتضت هذه السنة في جسم الإنسان أن تتبدل محتوى خلاياه على الأقل كل ستة أشهر، وبعض الأنسجة تتجدد خلاياها في فترات قصيرة تعد بالأيام والأسابيع؛ فتهرم تلك الخلايا ثم تموت، وتنشأ أخرى جديدة تواصل مسيرة الحياة حتى يأتي أجل الإنسان.

إن عدد الخلايا التي تموت في الثانية الواحدة في جسم الإنسان يصل إلى ١٢٥ مليون خلية وأكثر من هذا العدد يتجدد يوميًا في سن النمو، ومثله في وسط العمر، ثم يقل عدد الخلايا المتجددة مع تقدم السن[(١)].

وبما أن الأحماض الأمينية هي التي تشكل البنية الأساسية في الخلايا ففي الصيام الشرعي الإسلامي تتجمع هذه الأحماض القادمة من الغذاء مع الأحماض الناتجة من عملية الهدم في مجمع الأحماض الأمينية في الكبد، ويحدث فيها تحول داخلي واسع النطاق؛ ليتم إعادة توزيعها بعد عملية التحول الداخلي ودمجها في جزيئات أخرى، ويصنع منها كل أنواع البروتينات الخلوية وبروتينات البلازما والهرمونات، وغير ذلك من المركبات الحيوية، وهذا يتيح لبنات جديدة للخلايا ويرفع كفاءتها الوظيفية مما يعود على الجسم البشري بالصحة والنماء والعافية.

٤. مقاومة الشيخوخة.

كشفت مجلة الطبيعة البريطانية[(٢)] عن

(١) يولد الطفل وعدد خلاياه تقارب ٩ مليار خلية.

(٢) مجلة الطبيعة البريطانية السبت الموافق ٢٥/ ١١/ ٢٠٠٠م.

دراسة علمية تفيد أن التجويع المخطط أو الجزئي -الصيام- يؤدي إلى تنشيط الجينات المسئولة عن إفراز هرمونات تساعد الخلايا في مواجهة زحف الشيخوخة على الإنسان وتزيد من حيوية ونشاط الجسم، وأكدت نتائج هذه الدراسة أن عملية التمثيل الغذائي، وهضم الطعام تنتج مواد سامة تتلف الخلايا، وأن الإقلال من كمية الطعام والإكثار من الحركة لحرق الطاقة يحسن من الوضع الصحي ويوقف عملية الهدم، وبالتالي تزيد من إمكانية رفع متوسط العمر، وأوضحت الدراسة أن الصيام الجزئي عن الطعام والتجويع المخطط قد يؤدي إلى رد فعل يجعل الخلايا تقاوم الموت وتعيش فترة أطول، وأضافت الدراسة أن مفتاح الصحة يتمثل في الحد من الطعام «الجوع الجزئي أو المخطط» في نظام غذائي مدى الحياة بقدر الإمكان مما يؤثر إيجابيًا، ويساعد على مقاومة الشيخوخة.

فالله تبارك وتعالى أنزل إلينا كتابه وأخبرنا فيه أننا إذا صمنا فالصيام خير لنا، قال الله تبارك وتعالى: ﴿وَأَن تَصُومُوا خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ [البقرة: ١٨٤].

فالصيام خير لنا في صحتنا وخير لنا في ديننا، وخير لنا في آخرتنا.

ولم يعرف الأطباء فوائد الصيام إلا قبل فترة قصيرة، بعد أن تقدمت البحوث وتوفرت الأجهزة الدقيقة في كشف الكثير من أسرار جسم الإنسان، بينما النبي صلى الله عليه وسلم أنزل عليه القرآن الكريم يخبره بأن الصوم خير للناس، ومن تتبع سنن الرسول صلى الله عليه وسلم في الصيام يجدها تحقق حكمًا طبية دقيقة لا يعرفها إلا أهل الاختصاص والدراسات العلمية الحديثة، فالنبي صلى الله عليه وسلم أمر بتقديم الفطور وتأخير السحور؛ لتنحصر مدة الصيام التي لا يصحبها ضرر على الصائم، ونهى صلى الله عليه وسلم عن الوصال الذي يسبب ضررًا على الصائمين، وندب أن يكون الفطور بتمر؛ لأن التمر يتميز بالسكر سهل الامتصاص، ويمكن الجسم من إعداد الجهاز الهضمي لاستقبال الطعام والتعامل معه بيسر وسهولة.

فمن الذي أعلم النبي صلى الله عليه وسلم بهذه الحقائق والأسرار العظيمة؟!

علمه ربه تبارك وتعالى القائل: ﴿وَأَن تَصُومُوا خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ﴾.

موضوعات ذات صلة

التقوى، الحج، الزكاة، الصبر، الصلاة، العبادة





عناصر الموضوع

مفهوم الضر

أولًا: المعنى اللغوي:

قال ابن فارس: الضاد والراء ثلاثة أصول، الأول: خلاف النفع، والثاني: اجتماع الشيء، والثالث: القوة[(١)]، والضر -بالفتح-: مصدر ضررته ضرًا، ضد النفع[(٢)]، والضر -بالضم-: اسم ما يضر، وهو عدم الخير، وهو كل ما ينال الإنسان من الهزال وسوء الحال، أي: ما كان من سوء الحال والفقر والشدة والبلاء في البدن[(٣)].

ثانيًا: المعنى الاصطلاحي:

قال الراغب الأصفهاني: «الضر: سوء الحال، إما في نفس؛ لقلة العلم والفضل والعفة، وإما في بدنه؛ لعدم جارحة ونقص، وإما في حالة ظاهرة من قلة مال وجاه، كما في قوله تعالى: ﴿فَكَشَفْنَا مَا بِهِۦ مِن ضُرٍّ﴾ [الأنبياء: ٨٤]. فهو محتمل لثلاثتها، وقوله: ﴿وَإِذَا مَسَّ ٱلْإِنسَٰنَ ٱلضُّرُّ﴾ [يونس: ١٢]، وقوله: ﴿فَلَمَّا كَشَفْنَا عَنْهُ ضُرَّهُۥ﴾ [يونس: ١٢]. يقال: ضَر ضُرًا: جلب إليه ضُرًا.

وقوله: ﴿لَن يَضُرُّوكُمْ إِلَّآ أَذًى﴾ [آل عمران: ١١١]. ينبههم على قلة ما ينالهم من جهتهم، ويؤمنهم من ضرر يلحقهم نحو: ﴿لَا يَضُرُّكُمْ كَيْدُهُمْ شَيْـًٔا﴾ [آل عمران: ١٢٠]، و﴿وَلَيْسَ بِضَآرِّهِمْ شَيْـًٔا﴾ [المجادلة: ١٠]، ﴿وَمَا هُم بِضَآرِّينَ بِهِۦ مِنْ أَحَدٍ﴾ [البقرة: ١٠٢]، وقال تعالى: ﴿وَيَتَعَلَّمُونَ مَا يَضُرُّهُمْ وَلَا يَنفَعُهُمْ﴾ [البقرة: ١٠٢]، وقال: ﴿يَدْعُواْ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَضُرُّهُۥ وَمَا لَا يَنفَعُهُۥ﴾ [الحج: ١٢]، وقوله: ﴿يَدْعُواْ لَمَن ضَرُّهُۥٓ أَقْرَبُ مِن نَّفْعِهِۦ﴾ [الحج: ١٣].

فالأول يعني به الضر والنفع اللذان بالقصد والارادة؛ تنبيهًا أنه لا يقصد في ذلك ضرًا ولا نفعًا؛ لكونه جمادًا، وفي الثاني يريد ما يتولد من الاستعانة به ومن عبادته، لا ما يكون منه بقصده»[(٤)].

---

(١) مقاييس اللغة، ابن فارس ٣/ ٦٦٣

(٢) تفسير السمرقندي ٢/ ١١٩

(٣) انظر: تهذيب اللغة، الأزهري، ٣/ ٢١٠٨، الصحاح، الجوهري ٢/ ٦١٩، المخصص، ابن سيده، ٣/ ٧٠، لسان العرب، ابن منظور، ٨/ ٤٤.

(٤) المفردات، الراغب الأصفهاني ص٥٠٣-٥٠٤.

الضر في الاستعمال القرآني

ورد الجذر «ض ر ر» في القرآن الكريم (٧٤)، وتكرر لفظ «الضر» (٦٦) مرة[(١)].

والصيغ التي وردت، هي:

الصيغة	عدد المرات	المثال
الفعل المضارع	٢٢	﴿وَلَا تَضُرُّوهُ شَيْئًا﴾[التوبة:٣٩]
المصدر	٢٩	﴿وَإِذَا مَسَّ الْإِنسَانَ الضُّرُّ دَعَانَا لِجَنبِهِ﴾[يونس:١٢]
اسم مصدر	٩	﴿وَالصَّابِرِينَ فِي الْبَأْسَاءِ وَالضَّرَّاءِ وَحِينَ الْبَأْسِ﴾[البقرة:١٧٧]
اسم	١	﴿لَا يَسْتَوِي الْقَاعِدُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ غَيْرُ أُولِي الضَّرَرِ وَالْمُجَاهِدُونَ﴾ [النساء:٩٥]
اسم فاعل من الثلاثي	٢	﴿وَمَا هُم بِضَارِّينَ بِهِ مِنْ أَحَدٍ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ﴾ [البقرة:١٠٢]
مصدر من الرباعي	٢	﴿وَلَا تُمْسِكُوهُنَّ ضِرَارًا لِّتَعْتَدُوا﴾[البقرة:٢٣١]
اسم فاعل من الرباعي	١	﴿مِن بَعْدِ وَصِيَّةٍ يُوصَىٰ بِهَا أَوْ دَيْنٍ غَيْرَ مُضَارٍّ﴾ [النساء:١٢]

وجاء الضر في القرآن بمعناه في اللغة وهو: سوء الحال إما في النفس، أو البدن، أو المال[(٢)].

(١) انظر: المعجم المفهرس لألفاظ القرآن الكريم، محمد فؤاد عبد الباقي، ص ٤١٩-٤٢٠.
(٢) انظر: المفردات، الراغب الأصفهاني، ص ٥٠٣.

الألفاظ ذات الصلة

١ البؤس:

البؤس لغة:

الباء والهمزة والسين أصلٌ واحدٌ: وهو الشدة وما ضارعها. فالبأس: الشدة في الحرب. ورجلٌ ذو بأسٍ وبئيسٌ أي: شجاعٌ. والبؤس: الشدة في العيش. والمبتئس: المفتعل من الكراهة والحزن[(١)]، قال تعالى: ﴿وَٱلصَّٰبِرِينَ فِى ٱلْبَأْسَآءِ وَٱلضَّرَّآءِ وَحِينَ ٱلْبَأْسِ﴾ [البقرة: ١٧].

والبؤس هو والبأس: الشدة، والقوة، والضرر، والمكروب، لكن البؤس في الفقر والحرب أكثر، والبأس والبأساء في الشكاية والتنكيل أكثر[(٢)].

وقيل: البأساء والبؤس والضراء: الزمانة في الجسد[(٣)]، وقيل: البأساء: الفقر والشدة، والضراء: المرض والزمانة[(٤)].

البؤس اصطلاحًا:

لا يخرج عن معناه اللغوي.

الصلة بين البؤس والضر:

قيل: البؤس اسم بمعنى الشدة وهو الفقر والمسكنة، ومنه يقال: فلان في بؤس وشدة، وأما الضراء فالأقرب فيه أنه ورود المضار عليه من الآلام والأوجاع وضروب الخوف، وقيل: البأساء عبارة عن تضييق جهات الخير والمنفعة عليه، والضراء عبارة عن انفتاح جهات الشر والآفة والألم عليه[(٥)].

٢ الأذى:

الأذى لغة:

أذي: الهمزة والذال والياء أصلٌ واحدٌ: وهو الشيء تتكرهه ولا تقر عليه[(٦)]، والأذى قد يكون بالكلام أو بالفعل، قال تعالى: ﴿لَن يَضُرُّوكُمْ إِلَّآ أَذًى ۖ وَإِن يُقَٰتِلُوكُمْ يُوَلُّوكُمُ ٱلْأَدْبَارَ ثُمَّ

---

(١) مقاييس اللغة، ابن فارس ١/ ٣٢٨.
(٢) الكليات، الكفوي ١/ ٢٤٩.
(٣) تفسير الصنعاني، ١/ ٦٦
(٤) انظر: الكشاف، الزمخشري، ١/ ٢٤٥، تفسير القرآن العظيم، ابن كثير، ٢/ ٢٣٤، إرشاد العقل السليم، أبو السعود، ١/ ١٩٤، وفتح القدير: الشوكاني، ١/ ١٧٣.
(٥) مفاتيح الغيب، الرازي، ٦/١٧-١٨.
(٦) مقاييس اللغة، ابن فارس ١/ ٧٨.



﴿لَا يُنصَرُونَ﴾ [آل عمران: ١١١].

قوله تعالى: ﴿لَن يَضُرُّوكُمْ إِلَّا أَذًى﴾ معناه: لن يصيبكم منهم ضرر في الأبدان ولا في الأموال، وإنما هو أذى بالألسنة[(١)].

الأذى اصطلاحًا:

لا يخرج عن معناه اللغوي.

الصلة بين الضر والأذى:

الأذى: هو الألم الخفيف وهو لا يبلغ حد الضر[(٢)].

٣ السراء:

السراء لغة:

اليسر، والضراء: العسر، وقيل: كثرة المال وقلته[(٣)]، وقيل: السراء: الرخاء، والضراء: الشدة، وقيل: السراء في الحياة، والضراء بعد الموت[(٤)].

السراء اصطلاحًا:

لا يخرج عن معناه اللغوي.

الصلة بين الضراء والسراء:

علاقة تضاد، فالضراء ضد السراء.

---

(١) المحرر الوجيز، ابن عطية ١/ ٤٩٠.
(٢) التحرير والتنوير، ابن عاشور ٣/ ١٩٢.
(٣) البسيط، الواحدي ١/ ٢٣٢.
(٤) فتح القدير، الشوكاني، ١/ ٣٨١

الأساليب القرآنية في عرض الضر

عرض القرآن الكريم الضر في ثلاث صور مختلفة، وهي:

أولًا: نفي إلحاق الضر بالله تعالى:

الله تعالى منزه عن أن يتضرر بكفر كافر وفسق فاسق[1].

قال تعالى: ﴿وَمَن يَنقَلِبْ عَلَىٰ عَقِبَيْهِ فَلَن يَضُرَّ اللَّهَ شَيْئًا ۗ وَسَيَجْزِي اللَّهُ الشَّاكِرِينَ﴾ [آل عمران: ١٤٤].

وقوله تعالى: ﴿وَلَا يَحْزُنكَ الَّذِينَ يُسَارِعُونَ فِي الْكُفْرِ ۚ إِنَّهُمْ لَن يَضُرُّوا اللَّهَ شَيْئًا ۗ يُرِيدُ اللَّهُ أَلَّا يَجْعَلَ لَهُمْ حَظًّا فِي الْآخِرَةِ ۖ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿١٧٦﴾ إِنَّ الَّذِينَ اشْتَرَوُا الْكُفْرَ بِالْإِيمَانِ لَن يَضُرُّوا اللَّهَ شَيْئًا وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ [آل عمران: ١٧٦-١٧٧].

وقوله: ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَصَدُّوا عَن سَبِيلِ اللَّهِ وَشَاقُّوا الرَّسُولَ مِن بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ الْهُدَىٰ لَن يَضُرُّوا اللَّهَ شَيْئًا وَسَيُحْبِطُ أَعْمَالَهُمْ﴾ [محمد: ٣٢] وغيرها.

ومجمل أقوال المفسرين في قوله تعالى: ﴿لَن يَضُرُّوا اللَّهَ شَيْئًا﴾ أن من يريد ضر الله تعالى، فما ضر إلا نفسه، بفوات الإيمان في الدنيا، وحصول العذاب الأليم في الآخرة، بأن لا يجعل لهم نصيبًا في الآخرة من ثوابه، وخذلهم فلم يوفقهم لما وفق إليه أولياءه[2]؛ لأن الله تعالى لا يجوز عليه المضار والمنافع[3]، وأنه غني عنه، وسيقيم دينه، ويعز عباده المؤمنين[4]. وقيل: هذا تهديد معناه: هم يظنون الشقاق مع الرسول، وهم به يشاقونه، وليس كذلك، بل الشقاق مع الله، فإن محمدًا رسول الله، ما عليه إلا البلاغ، فإن ضروا ضروا الرسل، لكن الله منزه عن أن يتضرر بكفر كافر وفسق فاسق[5].

وبعضهم أول الآية ردًا وإنكارًا؛ لظن الخوف[6]، والكلام على حذف مضاف، والمراد أولياء الله مثلًا؛ للقرينة العقلية عليه، وفي حذف ذلك وتعليق نفي الضرر به تعالى تشريف للمؤمنين، وإيذان بأن مضارتهم بمنزلة مضارته سبحانه وتعالى، وفي ذلك مبالغة في التسلية[7]، وقوله: ﴿وَيَسْتَخْلِفُ رَبِّي قَوْمًا غَيْرَكُمْ وَلَا تَضُرُّونَهُ شَيْئًا﴾ [هود: ٥٧].

يعني: إن لم تؤمنوا به فلا تنقصون من ملكه شيئًا، ويقال: إهلاككم لا ينقصه شيئًا،

---

(١) مفاتيح الغيب، الرازي ٢٨/ ٦٢.

(٢) تيسير الكريم الرحمن، السعدي ص١٥٨.

(٣) الكشاف، الزمخشري ١/ ٤٥٠.

(٤) انظر: جامع البيان، الطبري، ٧/ ٢٥٢، وتفسير السمعاني، ١/ ٣٦٣، الجامع لأحكام القرآن، القرطبي، ٤/ ٢٢٦، والبحر المحيط، أبو حيان، ٣/ ٧٥، تيسير الكريم الرحمن، السعدي، ص١٥٠.

(٥) مفاتيح الغيب، الرازي ٢٨/ ٦٢.

(٦) انظر: المصدر السابق ٩/ ٨٥.

(٧) روح المعاني، الألوسي ٤/ ١٣٣.

إن ربي على كل شيء حفيظ[1].

وقوله تعالى: ﴿إِلَّا تَنفِرُوا يُعَذِّبْكُمْ عَذَابًا أَلِيمًا وَيَسْتَبْدِلْ قَوْمًا غَيْرَكُمْ وَلَا تَضُرُّوهُ شَيْئًا وَاللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ [التوبة: ٣٩].

أي: لا تضروا الله بترك امتثال أمره بالنفير شيئًا أو لا تضروا رسول الله صلى الله عليه وسلم بترك نصرته والنفير معه شيئًا، ومن جملة مقدوراته تعذيبكم والاستبدال بكم[2].

والكناية -في قول الحسن- راجعة إلى الله تعالى، أي: لا تضروا الله؛ لأنه غني عن العالمين، وفي قول الباقين يعود إلى الرسول صلى الله عليه وسلم، أي: لا تضروا الرسول؛ لأن الله عصمه من الناس، ولأنه تعالى لا يخذله إن تثاقلتم عنه[3].

روى مسلم بسنده عن أبي ذرٍ عن النبي صلى الله عليه وسلم فيما روى عن الله تبارك وتعالى أنه قال: (يا عبادي إنكم لن تبلغوا ضري فتضروني، ولن تبلغوا نفعي فتنفعوني)[4].

ثانيًا: نفي إلحاق الضرر من المخلوق للمخلوق:

الله تعالى متولٍ أمورنا الدينية والدنيوية، فعلينا الرضا بأقداره وليس في أيدينا من الأمر شيء، قال تعالى: ﴿قُل لَّن يُصِيبَنَا إِلَّا مَا كَتَبَ اللَّهُ لَنَا هُوَ مَوْلَانَا وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ﴾ [التوبة: ٥١].

وعلى الله وحده فليتوكل المؤمنون، وليعتمدوا عليه وحده في جلب مصالحهم، ودفع المضار عنهم، وليثقوا به في تحصيل مطالبهم، وأما من توكل على غيره، فإنه مخذول، غير مدرك لما أمل[5].

وأنه لن يصيبنا خير ولا شر، ولا خوف ولا رجاء، ولا شدة ولا رخاء، إلا ما هو مقدر علينا مكتوب عند الله، وكونه مكتوب عند الله يدل على كونه معلومًا عند الله مقضيًا به عنده، فإن ما سواه ممكن، والممكن لا يترجح إلا بترجيح الواجب، والممكنات بأسرها منتهية إلى قضائه وقدره[6].

لذا ورد نفي إلحاق الضر من المخلوق للمخلوق في آيات كثيرة، وبين الله فيها أن النفع والضر لا يحصلان إلا بمشيئته[7].

وفي قوله تعالى: ﴿وَمَا يُضِلُّونَ إِلَّا أَنفُسَهُمْ وَمَا يَضُرُّونَكَ مِن شَيْءٍ﴾ [النساء:

---

(١) انظر: تفسير السمرقندي ٢/ ١٥٦، مفاتيح الغيب، الرازي ١٨/ ١٢، المحرر الوجيز، ابن عطية، ٣/ ١٨٢.

(٢) فتح القدير، الشوكاني ٢/ ٣٦٢.

(٣) انظر: جامع البيان، الطبري ١٠/ ١٣٤، تفسير القرآن العظيم، ابن كثير، ٢/ ٣٥٩، روح المعاني، الألوسي، ١٠/ ٩٦.

(٤) أخرجه مسلم في صحيحه، كتاب البر والصلة والآداب، باب تحريم الظلم، رقم ٢٥٧٧.

(٥) تيسير الكريم الرحمن، السعدي ص٣٣٩.

(٦) مفاتيح الغيب، الرازي ١٦/ ٦٩.

(٧) المصدر السابق ١٥/ ٦٨.

113] دليلٌ على ذلك، لذا قيل: وما يضرك هؤلاء الذين هموا لك أن يزيلوك عن الحق في أمر هذا الخائن من قومه وعشيرته من شيء؛ لأن الله مثبتك ومسددك في أمورك، ومبين لك أمر من سعوا في إضلالك عن الحق في أمره، ففاضحه وإياهم، فأنت يا محمد صلى الله عليه وسلم حفظت الله فحفظك وسددك[1].

ومن ذلك قوله تعالى: ﴿قُلْ أَتَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَمْلِكُ لَكُمْ ضَرًّا وَلَا نَفْعًا وَاللَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ﴾ [المائدة: 76].

قيل هو: عيسى بن مريم، أي: لا يستطيع أن يضركم بمثل ما يضركم به الله من البلايا والمصائب في الأنفس والأموال، ولا أن ينفعكم بمثل ما ينفعكم به من صحة الأبدان والسعة والخصب، ولأن كل ما يستطيعه البشر من المضار والمنافع فبأقدار الله وتمكينه، فكأنه لا يملك منه شيئًا، وهذا دليل قاطع على أن أمره مناف للربوبية حيث جعله لا يستطيع ضرًا ولا نفعًا، وصفة الرب أن يكون قادرًا على كل شيء لا يخرج مقدر على قدرته[2].

وهذا دليل آخر على فساد قول النصارى، وهو يحتمل أنواعًا من الحجة، أن اليهود كانوا يعادونه ويقصدونه بالسوء، فما قدر على الإضرار بهم، وكانوا أنصاره وصحابته يحبونه، فما قدر على إيصال نفع من منافع الدنيا إليهم، والعاجز عن الإضرار والنفع كيف يعقل أن يكون إلهًا؟![3].

فإذا كان هذا عيسى بن مريم الذي وصفه قومه بالألوهية والربوبية وغيرها من الأوصاف، ما استطاع دفع الضرر عن نفسه، ولا عن غيره، فغيره أعجز من أن يلحق ضررًا بغيره، إلا بإذنه تعالى.

وقوله تعالى: ﴿وَلَا تَدْعُ مِن دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَنفَعُكَ وَلَا يَضُرُّكَ فَإِن فَعَلْتَ فَإِنَّكَ إِذًا مِّنَ الظَّالِمِينَ﴾ [يونس: 10].

قيل: هذا وصف لكل مخلوق أنه لا ينفع ولا يضر، وإنما النافع والضار هو الحق تعالى[4].

بعد أن تبين لنا نفي إلحاق الضرر من المخلوق للمخلوق إلا بإذن الله، فلابد من الإرشاد إلى السلامة من شر الأشرار وكيد الفجار بالإتيان بالأسباب التي تدفع الضر عن المخلوقين، والتي سيأتي بيانها -إن شاء الله-؛ لأن المنفي عنه هو استطاعة المخلوق للضر، وليس نفي وقوع الضر، فوقوعه ثابت بإذن الله، كما قال تعالى: ﴿وَإِن تَصْبِرُوا وَتَتَّقُوا لَا يَضُرُّكُمْ كَيْدُهُمْ شَيْئًا إِنَّ اللَّهَ بِمَا

(1) جامع البيان، الطبري 5/ 275.
(2) الكشاف، الزمخشري 1/ 698.
(3) مفاتيح الغيب، الرازي 12/ 52-53.
(4) انظر: مفاتيح الغيب، الرازي، 17/ 139، تيسير الكريم الرحمن، السعدي ص375.

﴿يَعۡمَلُونَ مُحِيطٌ﴾ [آل عمران: ١٢٠][1].

وفي الحديث عن عبد الله بن عباس رضي الله عنهما قال: (كنت خلف النبي صلى الله عليه وسلم يوما، فقال: (يا غلام، إني أعلمك كلمات: احفظ الله يحفظك احفظ الله تجده تجاهك، وإذا سألت فسال الله، وإذا استعنت فاستعن بالله، واعلم أن الأمة لو اجتمعت على أن ينفعوك فلن ينفعوك إلا بشيء قد كتبه الله لك، ولو اجتمعت على أن يضروك فلن يضروك إلا بشيء قد كتبه الله عليك، رفعت الأقلام وجفت الصحف)[2].

ثالثًا: النهي عن إلحاق الضرر في التعامل:

١. والد المولود ووالدته.

قال تعالى: ﴿وَعَلَى ٱلۡمَوۡلُودِ لَهُۥ رِزۡقُهُنَّ وَكِسۡوَتُهُنَّ بِٱلۡمَعۡرُوفِۚ لَا تُكَلَّفُ نَفۡسٌ إِلَّا وُسۡعَهَاۚ لَا تُضَآرَّ وَٰلِدَةُۢ بِوَلَدِهَا وَلَا مَوۡلُودٞ لَّهُۥ بِوَلَدِهِۦۚ وَعَلَى ٱلۡوَارِثِ مِثۡلُ ذَٰلِكَۗ﴾ [البقرة: ٢٣٣].

قوله: ﴿وَعَلَى ٱلۡمَوۡلُودِ لَهُۥ رِزۡقُهُنَّ وَكِسۡوَتُهُنَّ بِٱلۡمَعۡرُوفِۚ﴾ أي: وعلى والد الطفل نفقة الوالدات وكسوتهن بالمعروف، أي: بما جرت به عادة أمثالهن في بلدهن من غير إسراف ولا إقتار، بحسب قدرته في يساره، وتوسطه وإقتاره، كما قال تعالى: ﴿لِيُنفِقۡ ذُو سَعَةٖ مِّن سَعَتِهِۦۖ وَمَن قُدِرَ عَلَيۡهِ رِزۡقُهُۥ فَلۡيُنفِقۡ مِمَّآ ءَاتَىٰهُ ٱللَّهُۚ لَا يُكَلِّفُ ٱللَّهُ نَفۡسًا إِلَّا مَآ ءَاتَىٰهَاۚ سَيَجۡعَلُ ٱللَّهُ بَعۡدَ عُسۡرٖ يُسۡرٗا﴾ [الطلاق: ٧].

قال الضحاك: إذا طلق زوجته وله منها ولد، فأرضعت له ولده، وجب على الوالد نفقتها وكسوتها بالمعروف.

وقوله: ﴿لَا تُضَآرَّ وَٰلِدَةُۢ بِوَلَدِهَا﴾ أي: بأن تدفعه عنها؛ لتضر أباه بتربيته، ولكن ليس لها دفعه إذا ولدته حتى تسقيه اللبن الذي لا يعيش بدون تناوله غالبا، ثم بعد هذا لها دفعه عنها إذا شاءت، ولكن إن كانت مضارة لأبيه، فلا يحل لها ذلك، كما لا يحل له انتزاعه منها لمجرد الضرار لها، ولهذا قال: ﴿وَلَا مَوۡلُودٞ لَّهُۥ بِوَلَدِهِۦۚ﴾ أي: بأن يريد أن ينتزع الولد منها إضرارا بها.

وقوله تعالى: ﴿وَعَلَى ٱلۡوَارِثِ مِثۡلُ ذَٰلِكَۗ﴾ قيل: في عدم الضرار لقريبه، قاله مجاهد والشعبي والضحاك، وقيل: عليه مثل ما على والد الطفل من الإنفاق على والدة الطفل والقيام بحقوقها وعدم الإضرار بها، وهو قول الجمهور، وقد استدل بذلك من ذهب من الحنفية والحنابلة إلى وجوب نفقة

(١) انظر: معالم التنزيل، البغوي، ١/ ٣٤٦، المحرر الوجيز في الكتاب العزيز، ابن عطية ١/ ٤٩٨.

(٢) أخرجه الترمذي في سننه، أبواب صفة القيامة، ٤/ ٦٦٧، رقم ٢٥١٦.
قال الترمذي: حديث حسن صحيح.
وصححه الألباني في صحيح الجامع، ٢/ ١٣١٧، رقم ٧٩٥٧.

الأقارب بعضهم على بعض، وهو مروي عن عمر بن الخطاب وجمهور السلف[1]، ومن هدايات الآية: أنه عبر عن الوالد بالمولود له؛ إيماء إلى أنه الحقيق بهذا الحكم؛ لأن منافع الولد منجزة إليه، وهو لاحق به ومعتز به في القبيلة، حسب مصطلح الأمم، فهو الأجدر بإعاشته، وتقويم وسائلها[2]، وفي الآية دلالة على: «على وجوب نفقة الأقارب المعسرين، على القريب الوارث الموسر»[3].

٢. الكاتب والشهود.

قال تعالى: ﴿وَلَا يُضَآرَّ كَاتِبٌ وَلَا شَهِيدٌ﴾.

قال الطبري رحمه الله: «معنى ذلك: ولا يضار كاتب ولا شهيد، بمعنى: ولا يضارهما من استكتب هذا أو استشهد هذا بأن يأبى على هذا إلا أن يكتب له، وهو مشغول بأمر نفسه، ويأبى على هذا إلا أن يجيب إلى الشهادة وهو غير فارغ، وإنما قلنا هذا القول؛ لأن الخطاب من الله عز وجل في هذه الآية من مبتدئها إلى انقضائها على وجه افعلوا أو لا تفعلوا، إنما هو خطاب لأهل الحقوق والمكتوب بينهم الكتاب والمشهود لهم أو عليهم بالذي تداينوه بينهم من الديون، فأما ما كان من أمر أو نهي فيها لغيرهم، فإنما هو على وجه الأمر والنهي للغائب غير المخاطب كقوله: ﴿وَلْيَكْتُب بَّيْنَكُمْ كَاتِبٌ﴾ [البقرة: ٢٨٢].

وكقوله: ﴿وَلَا يَأْبَ ٱلشُّهَدَآءُ إِذَا مَا دُعُواْ﴾ [البقرة: ٢٨٢].

وما أشبه ذلك، فالواجب إذا كان المأمورون فيها مخاطبين بقوله: ﴿وَإِن تَفْعَلُواْ فَإِنَّهُۥ فُسُوقٌۢ بِكُمْ﴾ [البقرة: ٢٨٢]. أشبه منه بأن يكون مردودا على الكاتب والشهيد، ومع ذلك إن الكاتب والشهيد لو كانا هما المنهيين عن الضرار لقيل: وإن يفعلا فإنه فسوق بهما، لأنهما اثنان، وإنما غير مخاطبين بقوله: ﴿وَلَا يُضَآرَّ﴾ بل النهي بقوله: ﴿وَلَا يُضَآرَّ﴾ نهي للغائب غير المخاطب، فتوجيه الكلام إلى ما كان نظيرا لما في سياق الآية، أولى من توجيهه إلى ما كان منعدلا عنه»[4].

وقال ابن عاشور رحمه الله: «نهي عن المضارة، وهي تحتمل أن يكون الكاتب والشهيد مصدرًا للإضرار، أو أن يكون المكتوب له والمشهود له مصدرًا للإضرار؛ لأن (يضار) يحتمل البناء للمعلوم وللمجهول، ولعل اختيار هذه المادة هنا مقصود؛ لاحتمالها حكمين؛ ليكون الكلام موجهًا فيحمل على كلا معنييه؛ لعدم

(١) تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ١/ ٤٧٧.
(٢) التحرير والتنوير ٢/ ٤١١.
(٣) تيسير الكريم الرحمن، السعدي ص ١٠٤.
(٤) جامع البيان، الطبري ٥/ ١١٧.

تنافيهما، وهذا من وجه الإعجاز.

والمضارة: إدخال الضر بأن يوقع المتعاقدان الشاهدين والكاتب في الحرام والخسارة، أو ما يجر إلى العقوبة، وأن يوقع الشاهدان أحد المتعاقدين في إشاعة حق أو تعب في الإجابة إلى الشهادة. وقد أخذ فقهاؤنا من هذه الآية أحكامًا كثيرة تتفرع عن الإضرار؛ منها ركوب الشاهد من المسافة البعيدة، ومنها ترك استفساره بعد المدة الطويلة التي هي مظنة النسيان، ومنها استفساره استفسارًا يوقعه في الاضطراب، ويؤخذ منها أنه ينبغي لولاة الأمور جعل جانب من مال بيت المال لدفع مصاريف انتقال الشهود وإقامتهم في غير بلدهم وتعويض ما سينالهم من ذلك الانتقال من الخسائر المالية في إضاعة عائلاتهم، إعانة على إقامة العدل بقدر الطاقة والسعة»[1] والآية تدل على النهي عن مضارة الكاتب والشهود.

(١) التحرير والتنوير ١/ ٣١٢.

وسائل دفع الضر

هناك عدة وسائل لدفع الضر في القرآن الكريم، منها:

أولًا: الالتجاء إلى الله تعالى:

يخبرنا الله تعالى أنه لا إله إلا هو، وأنه لا ينبغي العبادة إلا له وحده لا شريك له، فإنه مالك كل شيء وخالقه وربه، قال تعالى: ﴿وَلَهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَلَهُ ٱلدِّينُ وَاصِبًا ۚ أَفَغَيْرَ ٱللَّهِ تَتَّقُونَ﴾[النحل: ٥٢].

قال ابن عباس ومجاهد: أي: دائمًا، وقيل: واجبًا، قيل: خالصًا، أي: له العبادة وحده ممن في السموات والأرض، كقوله تعالى: ﴿أَلَا لِلَّهِ ٱلدِّينُ ٱلْخَالِصُ ۚ وَٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُوا۟ مِن دُونِهِۦٓ أَوْلِيَآءَ مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَآ إِلَى ٱللَّهِ زُلْفَىٰٓ إِنَّ ٱللَّهَ يَحْكُمُ بَيْنَهُمْ فِى مَا هُمْ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى مَنْ هُوَ كَٰذِبٌ كَفَّارٌ﴾[الزمر: ٣].

ثم أخبر أنه مالك النفع والضر، قال تعالى: ﴿وَمَا بِكُم مِّن نِّعْمَةٍ فَمِنَ ٱللَّهِ ۖ ثُمَّ إِذَا مَسَّكُمُ ٱلضُّرُّ فَإِلَيْهِ تَجْـَٔرُونَ﴾[النحل: ٥٣].

وأن ما بالعباد من رزق ونعمة وعافية ونصر فمن فضله عليهم، وإحسانه إليهم، وعلموا أن كل ما يتقلبون فيه من نعمة منه سبحانه، ثم أخبر سبحانه عن طبيعة الإنسان من حيث هو، إذا مسه الضر، من مرض، أو مصيبة اجتهد في الدعاء، وسأل الله في

جميع أحواله؛ قائمًا وقاعدًا ومضجعًا، وفائدة ذكر هذه الأحوال: أن المضرور لا يزال داعيًا، ولا يفتر عن الدعاء حتى يزول عنه الضر، فهو يدعونا في حالاته كلها[1]، وألح في الدعاء؛ ليكشف عنه ضره، كما قال تعالى: ﴿وَمَا بِكُم مِّن نِّعْمَةٍ﴾ قال ابن عباس: يريد الأسقام والأمراض والحاجة، ﴿فَإِلَيْهِ تَجْأَرُونَ﴾ ترفعون أصواتكم إليه بالاستغاثة، يقال: جأر يجأر جئورًا[2]، ويقال: جأر الرجل إلى الله، أي: تضرع بالدعاء[3]، قال الأعشى:[4]

فطافت ثلاثًا بين يومٍ وليلةٍ وكان النكير أن تضيف وتجأرا

فذكر الله تعالى: أن الإنسان في وقت الكرب، يبتهل إلى ربه بالدعاء في جميع أحواله، فإذا فرج الله كربه، أعرض عن ذكر ربه ونسي ما كان فيه، ومنه قوله تعالى: ﴿وَإِذَا مَسَّ الْإِنسَانَ ضُرٌّ دَعَا رَبَّهُ مُنِيبًا إِلَيْهِ ثُمَّ إِذَا خَوَّلَهُ نِعْمَةً مِّنْهُ نَسِيَ مَا كَانَ يَدْعُو إِلَيْهِ مِن قَبْلُ وَجَعَلَ لِلَّهِ أَندَادًا لِّيُضِلَّ عَن سَبِيلِهِ قُلْ تَمَتَّعْ بِكُفْرِكَ قَلِيلًا إِنَّكَ مِنْ أَصْحَابِ النَّارِ﴾ [الزمر: ٨].

وقوله: ﴿فَإِذَا مَسَّ الْإِنسَانَ ضُرٌّ دَعَانَا ثُمَّ إِذَا خَوَّلْنَاهُ نِعْمَةً مِّنَّا قَالَ إِنَّمَا أُوتِيتُهُ عَلَىٰ عِلْمٍ بَلْ هِيَ فِتْنَةٌ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [الزمر: ٤٩].

وقوله: ﴿وَإِذَا مَسَّكُمُ الضُّرُّ فِي الْبَحْرِ ضَلَّ مَن تَدْعُونَ إِلَّا إِيَّاهُ فَلَمَّا نَجَّاكُمْ إِلَى الْبَرِّ أَعْرَضْتُمْ وَكَانَ الْإِنسَانُ كَفُورًا﴾ [الإسراء: ٦٧].

وقوله: ﴿وَأَيُّوبَ إِذْ نَادَىٰ رَبَّهُ أَنِّي مَسَّنِيَ الضُّرُّ وَأَنتَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ﴾ [الأنبياء: ٨٣].

وقوله: ﴿وَإِذَا مَسَّ النَّاسَ ضُرٌّ دَعَوْا رَبَّهُم مُّنِيبِينَ إِلَيْهِ ثُمَّ إِذَا أَذَاقَهُم مِّنْهُ رَحْمَةً إِذَا فَرِيقٌ مِّنْهُم بِرَبِّهِمْ يُشْرِكُونَ﴾ [الروم: ٣٣][5].

كل هذه الآيات تشير إلى لجوء الإنسان وقت الضر إلى إله واحد، أحد صمد، ولعلمهم أنه لا يكشف الضر إلا هو. حتى المشركون الذين عبدوا من دون الله أصنامًا، يتوجهون إليها وقت الرخاء، إذا أصابهم الضر نسوا ما كانوا يعبدون من قبل، ورجعوا إلى الفطرة السليمة، وتضرعوا إليه تعالى؛ لعلمهم أنها لا تنفع ولا تضر، حتى فرعون الذي طغى وتجبر حين توسط البحر وعلم أن لا ملجأ من الله إلا إليه كما في قوله تعالى: ﴿وَجَاوَزْنَا بِبَنِي إِسْرَائِيلَ الْبَحْرَ فَأَتْبَعَهُمْ فِرْعَوْنُ وَجُنُودُهُ بَغْيًا وَعَدْوًا حَتَّىٰ إِذَا أَدْرَكَهُ

(١) انظر: الكشاف، الزمخشري ٢/ ٣١٧، مدارك التنزيل، النسفي ٢/ ١٢٠.
(٢) انظر: جامع البيان، الطبري ١٤/ ١٢١، زاد المسير، ابن الجوزي، ٤/ ٤٥٧.
(٣) الجامع لأحكام القرآن، القرطبي، ١٠/ ١١٤.
(٤) انظر: أدب الكاتب، ابن قتيبة الدينوري، ١/ ٢١٧.
ومنهم من نسبه للنابغة الجعدي، انظر: شرح أدب الكاتب، الجواليقي ١/ ٩٩.
(٥) انظر: تفسير السمرقندي، ٢/ ١٥٢، تفسير السمعاني ٢/ ٣٦٩.

﴿الْغَرَقُ قَالَ آمَنتُ أَنَّهُ لَا إِلَٰهَ إِلَّا الَّذِي آمَنَتْ بِهِ بَنُو إِسْرَائِيلَ وَأَنَا مِنَ الْمُسْلِمِينَ﴾[يونس: ٩٠].

وكان من قبل يقول: ﴿وَقَالَ فِرْعَوْنُ يَا أَيُّهَا الْمَلَأُ مَا عَلِمْتُ لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرِي فَأَوْقِدْ لِي يَا هَامَانُ عَلَى الطِّينِ فَاجْعَل لِّي صَرْحًا لَّعَلِّي أَطَّلِعُ إِلَىٰ إِلَٰهِ مُوسَىٰ وَإِنِّي لَأَظُنُّهُ مِنَ الْكَاذِبِينَ﴾[القصص: ٣٨].

وقال تعالى عنه: ﴿فَمَا آمَنَ لِمُوسَىٰ إِلَّا ذُرِّيَّةٌ مِّن قَوْمِهِ عَلَىٰ خَوْفٍ مِّن فِرْعَوْنَ وَمَلَئِهِمْ أَن يَفْتِنَهُمْ ۚ وَإِنَّ فِرْعَوْنَ لَعَالٍ فِي الْأَرْضِ وَإِنَّهُ لَمِنَ الْمُسْرِفِينَ﴾[يونس: ٨٣].

فوجب على الإنسان أن يكون مشغولًا بالمنعم وقت النعمة، وملتجئًا إليه في كل أوقاته.

قال القرطبي: «وهذه الحالة التي ذكرها الله تعالى لا تختص بأهل الكفر، بل تتفق لكثير من المسلمين، تلين ألسنتهم بالدعاء وقلوبهم بالخشوع والتذلل، عند نزول ما يكرهون، وتضرعوا لرفع ما نزل بهم من الضر ودفع ما أصابهم من المكروه، ومما يدل على أن الآية تعم المسلم والكافر، كما يشعر به لفظ الناس ولفظ الإنسان»[(١)].

وقوله تعالى: ﴿وَإِذَا مَسَّكُمُ الضُّرُّ فِي الْبَحْرِ ضَلَّ مَن تَدْعُونَ إِلَّا إِيَّاهُ﴾[الإسراء: ٦٧]. نموذجًا للالتجاء إلى الله وقت الشدة والضر، أي: ذهب عن قلوبكم كل ما تعبدون غير الله تعالى، كما اتفق لعكرمة بن أبي جهل لما ذهب فارًا من رسول الله صلى الله عليه وسلم حين فتح مكة، فذهب هاربًا فركب في البحر ليدخل الحبشة، فجاءهم ريح عاصف، فقال القوم بعضهم لبعض: إنه لا يغني منكم إلا أن تدعو الله وحده، فقال عكرمة في نفسه: والله إن كان لا ينفع في البحر غيره، فإنه لا ينفع في البر غيره، اللهم لك علي عهد لئن أخرجتني منه لأذهبن، فلأضعن يدي في يد محمد، فلأجدنه رءوفًا رحيمًا، فخرجوا من البحر، فرجع إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم فأسلم وحسن إسلامه[(٢)]، وهكذا الإنسان حتى الكافر، إذا ضاقت به الحيل، ولم يجد منفذًا، لجأ إلى المنفذ الحقيقي، الذي لا ينسد.

ثانيًا: اتخاذ الأسباب الواقية:

من وسائل دفع الضر:

١ . اتخاذ الأسباب الواقية قبل وقوع الضرر.

فالوقاية خير من العلاج، فكل من رزقه الله تعالى الهداية والسداد والتوفيق والرشاد، فإنه مستثنى من قوله تعالى:

(١) انظر: الجامع لأحكام القرآن، القرطبي، ٨/ ٣٩٧، فتح القدير، الشوكاني ٢/ ٤٢٩.

(٢) صححه ابن الملقن في البدر المنير ٩/ ١٥٣، وعبدالحق الإشبيلي في الأحكام الصغرى ٥٤٩.

﴿وَإِذَا مَسَّ ٱلْإِنسَٰنَ ٱلضُّرُّ دَعَانَا لِجَنۢبِهِۦٓ أَوْ قَاعِدًا أَوْ قَآئِمًا فَلَمَّا كَشَفْنَا عَنْهُ ضُرَّهُۥ مَرَّ كَأَن لَّمْ يَدْعُنَآ إِلَىٰ ضُرٍّ مَّسَّهُۥ كَذَٰلِكَ زُيِّنَ لِلْمُسْرِفِينَ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ﴾[يونس: ١٢].

هذه الآية في وصف حال غير المؤمن، أما فالمؤمن فإنه يعرف الله في السراء والضراء، ولا تنقطع صلته بالله على أي حال كان، كما قال صلى الله عليه وسلم: **(عجبًا لأمر المؤمن، لا يقضي الله له قضاء إلا كان خيرًا له، إن أصابته ضراء صبر فكان خيرًا له، وإن أصابته سراء شكر فكان خيرًا له، وليس ذلك لأحد إلا للمؤمن)**[(١)].

فمن كان في وقت النعمة مشغولًا بالمنعم، لزم أن يكون وقت البلاء مشغولًا بالمبتلي. وإذا كان المنعم والمبتلي واحدًا كان نظره أبدًا على مطلوب واحد، وكان مطلوبه منزهًا عن التغيير مقدسًا عن التبدل، ومن كان كذلك وقت البلاء، وفي وقت النعماء، غرقًا في بحر السعادات، واصلًا إلى أقصى الكمالات[(٢)].

ومن شأنه أن يكون كثير الدعاء والتضرع في أوقات الراحة والرفاهية، حتى يكون مجاب الدعوة وقت المحنة، عن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: **(من سره أن يستجيب الله له عند الشدائد والكرب، فليكثر الدعاء عند الرخاء)**[(٣)].

٢. التقوى والصبر والتوكل.

قال تعالى: ﴿وَإِن تَصْبِرُوا۟ وَتَتَّقُوا۟ لَا يَضُرُّكُمْ كَيْدُهُمْ شَيْـًٔا إِنَّ ٱللَّهَ بِمَا يَعْمَلُونَ مُحِيطٌ﴾[آل عمران: ١٢٠].

وقوله تعالى: ﴿وَٱلصَّٰبِرِينَ فِى ٱلْبَأْسَآءِ وَٱلضَّرَّآءِ وَحِينَ ٱلْبَأْسِ أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ صَدَقُوا۟ وَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُتَّقُونَ﴾[البقرة: ١٧٧].

في الآية الأولى يرشدهم الله تعالى إلى السلامة من شر الأشرار، وكيد الفجار، باستعمال الصبر والتقوى والتوكل على الله الذي هو محيط بأعدائهم، فلا حول ولا قوة لهم إلا به، وهو الذي ما شاء كان وما لم يشأ لم يكن، ولا يقع في الوجود شيء إلا بتقديره ومشيئته، ومن توكل على الله كفاه، ثم شرع في ذكر قصة غزوة أحد وما كان فيها من الاختبار لعباده المؤمنين، والتميز بين المؤمنين والمنافقين وبيان الصابرين[(٤)].

وقيل: فإذا أتيتم بالأسباب التي وعد الله عليها النصر -وهي الصبر والتقوى- فلن

---

(١) أخرجه مسلم في صحيحه، كتاب الزهد والرقائق، باب المؤمن أمره كله خيرٌ، رقم ٢٩٩٩.

(٢) مفاتيح الغيب، الرازي ١٧/ ٤١-٤٣.

(٣) أخرجه الترمذي في سننه، أبواب الدعوات، باب ما جاء أن دعوة المسلم مستجابة، ٥/ ٤٦٢، رقم ٣٣٨٢.
قال الترمذي: غريب.
وحسنه الألباني في صحيح الجامع، ٢/ ١٠٧٨، رقم ٦٢٩٠.

(٤) انظر: جامع البيان، الطبري، ٤/ ٦٨، المحرر الوجيز، ١/ ٤٩٨.

يضركم مكرهم، بل يجعل الله مكرهم في نحورهم؛ لأن محيط بهم علمه وقدرته، فلا منفذ لهم، ولا يخفى عليهم منهم شيء»[1].

٣. الرضا بقضاء الله وقدره.

ومثاله: ﴿وَأَيُّوبَ إِذْ نَادَىٰ رَبَّهُۥٓ أَنِّى مَسَّنِىَ ٱلضُّرُّ وَأَنتَ أَرْحَمُ ٱلرَّٰحِمِينَ﴾ [الأنبياء: ٨٣].

وقوله: ﴿وَخُذْ بِيَدِكَ ضِغْثًا فَٱضْرِب بِّهِۦ وَلَا تَحْنَثْ إِنَّا وَجَدْنَٰهُ صَابِرًا نِّعْمَ ٱلْعَبْدُ إِنَّهُۥٓ أَوَّابٌ﴾ [ص: ٤٤].

فجعلوه أسوة وقدوة عندما يصيبهم الضر[2].

إلا أن هناك من يرى أن الشكوى تقدح في الصبر، فبين العلماء أن الشكوى مع الرضا بقضاء الله لا تقدح في الصبر، وفي ذلك قيل: أليس أن الشكوى تقدح في كون أيوب صابرًا؛ لأنه قال: ﴿أَنِّى مَسَّنِىَ ٱلضُّرُّ﴾ الآية؟.

الجواب: قال سفيان بن عيينه رحمه الله: «من شكا إلى الله تعالى فإنه لا يعد جزعًا إذا كان في شكواه راضيًا بقضاء الله؛ إذ ليس من شرط الصبر استحلاء البلاء، ألم تسمع قول يعقوب عليه السلام ﴿قَالَ إِنَّمَآ أَشْكُوا۟ بَثِّى وَحُزْنِىٓ إِلَى ٱللَّهِ وَأَعْلَمُ مِنَ ٱللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾ [يوسف: ٨٦]»[3].

واعلم أن المؤمن إذا ابتلي ببلية ومحنة وجب عليه أن يكون راضيًا بقضاء الله غير معترض بالقلب واللسان عليه، وإنما وجب عليه ذلك؛ لأن الله تعالى مالك على الإطلاق، وملك بالاستحقاق، فله أن يفعل في ملكه ما يشاء، كما يشاء، ولأنه تعالى حكيم على الإطلاق منزه عن فعل الباطل والعبث، فكل ما فعله فهو حكمة وصواب، وإذا كان كذلك فحينئذ يعلم أنه تعالى إن أبقى عليه تلك المحبة فهو عدل، وإن أزالها فهو فضل، فحينئذ عليه الصبر والسكوت وترك الغلق والاضطراب[4].

٤. إصلاح النفوس.

بفعل الخيرات ولزوم الشرع بما فيه من جهاد وأمر بمعروف ونهي عن المنكر، والاستقامة على الدين، وطاعة الله وغيرها.

قال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ عَلَيْكُمْ أَنفُسَكُمْ لَا يَضُرُّكُم مَّن ضَلَّ إِذَا ٱهْتَدَيْتُمْ إِلَى ٱللَّهِ مَرْجِعُكُمْ جَمِيعًا فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ [المائدة: ١٠٥].

ذكر السمرقندي: من أسباب دفع الضر، ما روي عن أبي بكر الصديق رضي الله عنه: سئل عن هذه الآية فقال: إذا رأيتم شحًا مطاعًا وهوىً متبعًا ودنيا مؤثرةً وإعجاب كل ذي رأي برأيه، فعليكم بخويصة أنفسكم. وروى عمر بن جابر اللخمي عن أبي أمية قال:

(١) انظر: فتح القدير: الشوكاني، ٢/ ٨٤-٨٥، تيسير الكريم الرحمن، السعدي ص١٤٥.
(٢) تيسير الكريم الرحمن، السعدي ص٥٢٩.
(٣) مفاتيح الغيب، الرازي ١٧/ ٤١-٤٣.
(٤) المصدر السابق ٢٢/ ١٨١.

سألت أبا ثعلبة الخشني عن هذه الآية فقال: لقد سألت عنها خبيرًا، سألت عنها رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال: (يا أبا ثعلبة ائتمروا بالمعروف، وتناهوا عن المنكر، فإذا رأيت دنيا مؤثرة وشحًا مطاعًا وإعجاب كل ذي رأي برأيه فعليك بنفسك، فإن من بعدكم أياما الصابر المتمسك يومئذ بمثل الذي أنتم عليه له كأجر خمسين عاملًا. قالوا يا رسول الله: كأجر خمسين عاملًا منهم؟ قال: لا بل كأجر خمسين عاملًا منكم)[١].

وقيل: حفظ النفس من ملابسة المعاصي والإصرار على الذنوب[٢].

وقيل: اجتهدوا في إصلاحها وكمالها وإلزامها سلوك الصراط المستقيم، فإنكم إذا أصلحتم لا يضركم من ضل عن الصراط، ولم يهتد إلى الدين القويم، إنما يضر نفسه، ولا يتم هدى الإنسان إلا بالإتيان بما يجب عليه من الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر[٣].

وقال ابن زيد: معنى الآية ﴿عَلَيْكُمْ أَنفُسَكُمْ﴾ في الاستقامة على الدين ولا يضركم ضلال الأسلاف إذا اهتديتم[٤].

وأخرج ابن أبي حاتم من طريق العوفي عن ابن عباس في قوله: ﴿عَلَيْكُمْ أَنفُسَكُمْ﴾ يقول: إذا ما أطاعني العبد فيما أمرته من الحلال والحرام فلا يضره من ضل إذا عمل بما أمرته به. وأخرج ابن جرير من طريق الضحاك عن ابن عباس الآية: ما لم يكن سيفًا أو سوطًا[٥].

ثالثًا: المصالحة والتفاهم:

وذلك بمصانعة أهل الدنيا لدنياهم، وتحب أهل الأخرة لآخرتهم، وتخفي ذنبك بينك وبين ربك فإنك إن فعلت ذلك فلا يضرك من ضل إذا اهتديت. وذلك بأن تحب من أحب الله من أحمر وأبيض، وأن تجتنب الغيب[٦].

وقيل: اشتغال الإنسان بخاصة نفسه وتركه العرض لمعائب الناس والبحث عن أحوالهم، فإنهم لا يسألون عن حاله، فلا يسأل عن حالهم، كقوله تعالى: ﴿كُلُّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ رَهِينَةٌ﴾[المدثر: ٣٨].

---

(١) أخرجه أبو داوود في سننه، كتاب الملاحم، باب الأمر والنهي، ٤/ ١٢٣، رقم ٤٣٤١، والترمذي في سننه، أبواب تفسير القرآن، باب ومن سورة المائدة، ٥/ ٢٥٧، رقم ٣٠٥٨.
قال الترمذي: حديث حسن غريب.
وضعفه الألباني في ضعيف الجامع، ١٣٤٦، رقم ٢٣٤٤.
وانظر: تفسير السمر قندي، ١/ ٤٤٥-٤٤٥، معالم التنزيل، البغوي، ٢/ ٧٢.

(٢) البسيط، الواحدي ١/ ٣٣٨-٣٣٩، تفسير الجلالين، ص١٥٨.

(٣) تيسير الكريم الرحمن، السعدي ص٢٤٦.

(٤) انظر: المحرر الوجيز، ابن عطية ٢/ ٢٥٠.

(٥) انظر: تفسير ابن أبي حاتم ٤/ ١٢٢٥-١٢٢٨.

(٦) الدر المنثور، السيوطي ٣/ ٢١٨.

وقوله تعالى: ﴿وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّكُم مَّرْجِعُكُمْ فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ﴾[الأنعام: ١٦٤].

وقوله تعالى: ﴿مَّنِ اهْتَدَىٰ فَإِنَّمَا يَهْتَدِي لِنَفْسِهِ ۖ وَمَن ضَلَّ فَإِنَّمَا يَضِلُّ عَلَيْهَا ۚ وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ ۗ وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّىٰ نَبْعَثَ رَسُولًا﴾ [الاسراء: ١٥].

وقوله تعالى: ﴿وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ ۚ وَإِن تَدْعُ مُثْقَلَةٌ إِلَىٰ حِمْلِهَا لَا يُحْمَلْ مِنْهُ شَيْءٌ وَلَوْ كَانَ ذَا قُرْبَىٰ﴾[فاطر: ١٨][1].

ومن صور المصالحة والتفاهم في الإسلام، والتي كانت سببًا لدفع الضر ما فعله رسول الله صلى الله عليه وسلم حينما وصل المدينة بالمصالحة مع اليهود وإبرام العهود، حتى يأمن المسلمين شرهم، واستطاع بذلك دفع ضرهم وأذاهم عن المسلمين.

آثار نزول الضر

لحوق الضرر بالإنسان له آثار ونتائج، منها:

أولًا: الإخلاص لله تعالى عند اشتداد الضر:

عند اشتداد الضر على الإنسان مسلمًا كان أو كافر، فإنه يعود إلى الله وحده كاشف الضر، فينيب ويتضرع إلى الله تعالى، وقد بين الله ذلك في قوله تعالى: ﴿وَإِذَا مَسَّكُمُ الضُّرُّ فِي الْبَحْرِ ضَلَّ مَن تَدْعُونَ إِلَّا إِيَّاهُ ۖ فَلَمَّا نَجَّاكُمْ إِلَى الْبَرِّ أَعْرَضْتُمْ ۚ وَكَانَ الْإِنسَانُ كَفُورًا﴾[الاسراء: ٦٧].

وقوله: ﴿ضَلَّ مَن تَدْعُونَ إِلَّا إِيَّاهُ﴾ أي: ذهب عن قلوبكم كل ما تعبدون غير الله، كما اتفق لعكرمة بن أبي جهل لما ذهب فارا من رسول الله صلى الله عليه وسلم حين فتح مكة، فذهب هاربًا، فركب في البحر ليدخل الحبشة، فجاءتهم ريح عاصف، فقال القوم بعضهم لبعض: إنه لا يغني عنكم إلا أن تدعو الله وحده. فقال عكرمة في نفسه: والله لئن كان لا ينفع في البحر غيره، فإنه لا ينفع في البر غيره، اللهم لك علي عهد، لئن أخرجتني منه لأذهبن فأضعن يدي في يديه، فلأجدنه رءوفًا رحيمًا. فخرجوا من البحر، فرجع إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم فأسلم وحسن إسلامه، رضي الله عنه

(١) الجامع لأحكام القرآن، القرطبي ٦/ ٣٤٤.

وأرضاه[١].

ومعنى الآية: أن الكفار إنما يعتقدون في أصنامهم وسائر معبوداتهم أنها نافعة لهم في غير هذه الحالة، فأما في هذه الحالة فإن كل واحد منهم يعلم بالفطرة علمًا لا يقدر على مدافعته أن الأصنام ونحوها لا فعل لها[٢].

وفي معنى هذه الآية جاءت آيات كثيرة، منها: ﴿هُوَ الَّذِي يُسَيِّرُكُمْ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ حَتَّىٰ إِذَا كُنتُمْ فِي الْفُلْكِ وَجَرَيْنَ بِهِم بِرِيحٍ طَيِّبَةٍ وَفَرِحُوا بِهَا جَاءَتْهَا رِيحٌ عَاصِفٌ وَجَاءَهُمُ الْمَوْجُ مِن كُلِّ مَكَانٍ وَظَنُّوا أَنَّهُمْ أُحِيطَ بِهِمْ دَعَوُا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ لَئِنْ أَنجَيْتَنَا مِنْ هَٰذِهِ لَنَكُونَنَّ مِنَ الشَّاكِرِينَ﴾ [يونس: ٢٢].

﴿قُلْ مَن يُنَجِّيكُم مِّن ظُلُمَاتِ الْبَرِّ وَالْبَحْرِ تَدْعُونَهُ تَضَرُّعًا وَخُفْيَةً لَّئِنْ أَنجَانَا مِنْ هَٰذِهِ لَنَكُونَنَّ مِنَ الشَّاكِرِينَ﴾ [الأنعام: ٦٣].

إلى غير ذلك من الآيات[٣].

وقصة فرعون مع شدة كفره يعترف بالله ساعة الضر والهلاك ويرجع إلى فطرته، فالرجوع إلى الله تعالى من سائر الناس ساعة الكرب والشدة دليل على ما هو كامن في نفوسهم من الفطرة التي فطرهم الله عليها[٤].

وخص الله الشدة في البحر بالذكر؛ لأن اليأس عند وقوع الشدة فيه أغلب.

وهذه الحالة عند اشتداد الضر يستدل بها في إثبات وجود الله تعالى، ونفي الشركاء عنه تعالى، وقد ذكر الإمام الألوسي في تفسيره: «من اللطائف أن بعض الناس قال لبعض الأئمة: أثبت لي وجود الله تعالى ولا تذكر لي الجوهر والعرض. فقال: هل ركبت البحر؟ قال نعم، قال: فهل عصفت الريح؟ قال: نعم، قال: هل أشرفت بك السفينة على الغرق؟ قال: نعم، قال: يئست من نفع من في السفينة ونحوهم من المخلوقين لك وإنجائهم مما أنت فيه إياك، قال: نعم، قال: ذلك هو الله عز وجل فاستحسن ذلك»[٥].

ثانيًا: بيان عجز الآلهة المزعومة عند اللجوء إليها حال الضر:

إن ما تم ذكره -سابقًا- من أن الكفار حينما يشتد عليهم الضر ينسوا آلهتهم ولا يرجعون إليها بل يرجعون إلى الإله الحق، الذي يملك النفع والضر، دليل واضح في إثبات عجز الآلهة المزعومة عن دفع ضر أو جلب نفع. وقد ورد في القرآن الكريم آيات كثيرة تدل على ذلك:

منها: ما ذكر مقارنة بين القادر الذي يخلق من العدم ثم يعيد الخلق من بعد فنائه، وبين العاجز وهو الآلهة التي يعبدونها،

(١) تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ٥/ ٩٦.
(٢) فتح القدير، الشوكاني ٣/ ٢٤٣.
(٣) أضواء البيان، الشنقيطي ٣/ ١٧١-١٧٢.
(٤) تفسير السمعاني ٣/ ٢٦١.
(٥) روح المعاني، الألوسي ١٥/ ١١٥.

قال تعالى: ﴿قُلْ هَلْ مِن شُرَكَآئِكُم مَّن يَبْدَؤُا۟ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥ ۚ قُلِ اللَّهُ يَبْدَؤُا۟ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥ ۖ فَأَنَّىٰ تُؤْفَكُونَ﴾[يونس: ٣٤].

ومنها: ما وضح الله فيه ثلاث احتمالات لإثبات عجز الآلهة.

قال تعالى: ﴿أَمْ خُلِقُوا۟ مِنْ غَيْرِ شَىْءٍ أَمْ هُمُ الْخَٰلِقُونَ ﴿٣٥﴾ أَمْ خَلَقُوا۟ السَّمَٰوَٰتِ وَالْأَرْضَ ۚ بَل لَّا يُوقِنُونَ ﴿٣٦﴾ أَمْ عِندَهُمْ خَزَآئِنُ رَبِّكَ أَمْ هُمُ الْمُصَۣيْطِرُونَ﴾[الطور: ٣٥-٣٧].

والاحتمال الرابع هو أن يكون هناك خالق غير هذه المخلوقات وأن يتصف هذا الخالق بصفات لا تشبه صفات المخلوق وهو الاحتمال الصحيح.

وكذلك سيدنا إبراهيم عليه السلام استطاع أن يثبت قدرة الله تعالى بإثبات عجز غيره ممن أدعى الألوهية، في ذلك يقول الله تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِى حَآجَّ إِبْرَٰهِۦمَ فِى رَبِّهِۦٓ أَنْ ءَاتَىٰهُ اللَّهُ الْمُلْكَ إِذْ قَالَ إِبْرَٰهِۦمُ رَبِّىَ الَّذِى يُحْىِۦ وَيُمِيتُ قَالَ أَنَا۠ أُحْىِۦ وَأُمِيتُ ۖ قَالَ إِبْرَٰهِۦمُ فَإِنَّ اللَّهَ يَأْتِى بِالشَّمْسِ مِنَ الْمَشْرِقِ فَأْتِ بِهَا مِنَ الْمَغْرِبِ فَبُهِتَ الَّذِى كَفَرَ ۗ وَاللَّهُ لَا يَهْدِى الْقَوْمَ الظَّٰلِمِينَ﴾[البقرة: ٢٥٨].

وغيرها من الآيات الكثيرة التي تدل على عجز الآلهة عند اللجوء إليها في كشف الضر وبيان حقيقتها، وبطلان ألوهيتها[(١)].

فصفات الآلهة الضعف والعجز، وهي غير قادرة على الخلق، ولا تستطيع نصر نفسها ولا عابديها، لا تجيب ولا تستجيب، ولا تضر ولا تنفع، فاقدة كل الحواس، لا تملك من أمر نفسها شيئًا، كما صورها لنا سيدنا إبراهيم عليه السلام.

قال تعالى: ﴿فَرَاغَ إِلَىٰٓ ءَالِهَتِهِمْ فَقَالَ أَلَا تَأْكُلُونَ ﴿٩١﴾ مَا لَكُمْ لَا تَنطِقُونَ ﴿٩٢﴾ فَرَاغَ عَلَيْهِمْ ضَرْبًۢا بِالْيَمِينِ﴾[الصافات: ٩١-٩٣].

وقوله: ﴿قَالَ بَلْ فَعَلَهُۥ كَبِيرُهُمْ هَٰذَا فَسْـَٔلُوهُمْ إِن كَانُوا۟ يَنطِقُونَ ﴿٦٣﴾ فَرَجَعُوٓا۟ إِلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ فَقَالُوٓا۟ إِنَّكُمْ أَنتُمُ الظَّٰلِمُونَ ﴿٦٤﴾ ثُمَّ نُكِسُوا۟ عَلَىٰ رُءُوسِهِمْ لَقَدْ عَلِمْتَ مَا هَٰٓؤُلَآءِ يَنطِقُونَ ﴿٦٥﴾ قَالَ أَفَتَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَنفَعُكُمْ شَيْـًٔا وَلَا يَضُرُّكُمْ ﴿٦٦﴾ أُفٍّ لَّكُمْ وَلِمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ ۖ أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾[الأنبياء: ٦٣-٧٦].

انظر كيف استطاع سيدنا إبراهيم عليه السلام إثبات عجز الآلهة وإقامة الحجة على عابديها. كما ستتبرأ من عابديها يوم القيامة، ﴿إِذْ تَبَرَّأَ الَّذِينَ اتُّبِعُوا۟ مِنَ الَّذِينَ اتَّبَعُوا۟ وَرَأَوُا۟ الْعَذَابَ وَتَقَطَّعَتْ بِهِمُ الْأَسْبَابُ﴾[البقرة: ١٦٦].

وقوله: ﴿إِن تَدْعُوهُمْ لَا يَسْمَعُوا۟ دُعَآءَكُمْ وَلَوْ سَمِعُوا۟ مَا اسْتَجَابُوا۟ لَكُمْ ۖ وَيَوْمَ الْقِيَٰمَةِ يَكْفُرُونَ بِشِرْكِكُمْ ۚ وَلَا يُنَبِّئُكَ مِثْلُ خَبِيرٍ﴾ [فاطر: فاطر/ ١٣-١٤.

(١) منها: المائدة / ٧٦ و الرعد / ١٦ و طه / ٨٩ و الفرقان / ٣ و النمل / ٦٤ و المؤمنون ٩١-٩٢ و الحج / ٧٣-٧٤ و النحل / ٢٠-٢١ و

١٤].

فتستحيل الألوهية لمن يتصف بهذه الصفات.

ثالثًا: المشرك يزداد طغيانًا بعد كشف الضر عنه، والمؤمن يزداد إيمانًا:

هذا إخبار عن طبيعة الإنسان، وأنه إذا مسه ضر من مرض أو مصيبة اجتهد في الدعاء، وسأل الله في جميع أحواله، ألح ليكشف الله عنه ضره. فلما كشف الضر عنه استمر في غفلته معرضًا عن ربه وكأنه ما جاءه ضر، فكشفه الله عنه[1].

قال تعالى: ﴿وَإِذَا مَسَّ ٱلْإِنسَٰنَ ٱلضُّرُّ دَعَانَا لِجَنۢبِهِۦٓ أَوْ قَاعِدًا أَوْ قَآئِمًا فَلَمَّا كَشَفْنَا عَنْهُ ضُرَّهُۥ مَرَّ كَأَن لَّمْ يَدْعُنَآ إِلَىٰ ضُرٍّ مَّسَّهُۥ ۚ كَذَٰلِكَ زُيِّنَ لِلْمُسْرِفِينَ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ﴾ [يونس: ١٢].

مر طاغيًا على ترك الشكر؛ لنسيانه ما دعا الله فيه وما صنع به، كما زين لهذا الكافر الدعاء عند البلاء والإعراض عند الرخاء[2].

ذم الله تعالى من هذه صفته وطريقته فقال: ﴿مَرَّ كَأَن لَّمْ يَدْعُنَآ إِلَىٰ ضُرٍّ مَّسَّهُۥ ۚ كَذَٰلِكَ زُيِّنَ لِلْمُسْرِفِينَ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ﴾.

وهذه صفات الكافر في الغالب، كما ذكر ابن الجوزي: «الكافر يدعو عند البلاء ويعرض عند الرخاء، كذلك المسرفون وهم المجاوزون الحد في الكفر والمعصية في عملهم»[3].

وقيل: يراد به المشركون الذين يرون أن للأصنام أفعالًا من الشفاء وجلب الخير ودفع الضر، فهم إذا شفاهم الله عظموا أصنامهم وأضافوا ذلك الشفاء لها[4].

إلا أن الله استثنى من هذه الصفات الذميمة من رزقه الله الهداية والسداد والتوفيق والرشاد من عباده المؤمنين بقوله: ﴿وَلَئِنْ أَذَقْنَٰهُ نَعْمَآءَ بَعْدَ ضَرَّآءَ مَسَّتْهُ لَيَقُولَنَّ ذَهَبَ ٱلسَّيِّـَٔاتُ عَنِّىٓ ۚ إِنَّهُۥ لَفَرِحٌ فَخُورٌ ﴿١٠﴾ إِلَّا ٱلَّذِينَ صَبَرُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ أُو۟لَٰٓئِكَ لَهُم مَّغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ كَبِيرٌ﴾ [هود: ١٠-١١][5].

قال الفراء: هذا استثناء منقطع معناه: لكن الذين صبروا وعملوا الصالحات فإنهم إن نالتهم شدة صبروا، وإن نالوا نعمة شكروا، أولئك لهم مغفرة لذنوبهم وأجر كبير هو الجنة[6].

فالمؤمن يزداد إيمانًا بكشف الضر عنه، أما الكافر فيزداد طغيانًا وكفرًا، ومن ذلك حديث رسول الله صلى الله عليه وسلم: **(عجبًا لأمر المؤمن لا يقضي الله له قضاء إلا كان خيرًا له، إن أصابته ضراء فصبر كان**

(١) تيسير الكريم الرحمن، السعدي ص٣٥٩.
(٢) انظر: البسيط الواحدي، ١/ ٤٩١، معالم التنزيل، البغوي، ٢/ ٣٤٦.
(٣) زاد المسير، ابن الجوزي ٤/ ١٣.
(٤) المحرر الوجيز: ابن عطية ٣/ ٤٠١.
(٥) أضواء البيان، الشنقيطي، ٢/ ١٥٢.
(٦) معالم التنزيل، البغوي ٢/ ٣٧٥.

خيرًا له، وإن أصابته سراء فشكر كان خيرًا له»[1].

قال الألوسي: «فذا فسره الزمخشري بقوله: إلا الذين آمنوا فإن عادتهم إذا أتتهم رحمة أن يشكروا، وإذا زالت عنهم نعمة أن يصبروا، فلذا حسنت الكناية به عن الإيمان. ودلالة «صبروا» على أن العمل الصالح شكر؛ لأنه ورد في الأثر الإيمان نصفان: نصف صبر ونصف شكر، ودلالة «عملوا» على أن الصبر إيمان؛ لأنهما ضميمتان في الأكثر، أي: الإيمان والعمل: آمنوا وعملوا، فغير مطابق لما نحن فيه أن يراد وجه آخر، كأنه قيل: إلا المؤمن الصالح الصابر الشاكر»[2].

إلا أن بعض المفسرين يرى أن هذه الحالة التي ذكرها الله للداعي لا تختص بأهل الكفر وحدهم بل تتفق لكثير من المسلمين، كما نرى في أنفسنا، ونرى غيرنا، تلين ألسنتهم بالدعاء وقلوبهم بالخشوع والتذلل عند نزول ما يكرهون بهم، فإذا كشفه الله عنهم غفلوا عن الدعاء والتضرع، وذهلوا عما يجب عليهم من شكر النعمة التي أنعم بها عليهم من إجابة دعائهم ورفع ما نزل بهم من الضر ودفع ما أصابهم من مكروه، وهذا مما يدل على أن الآية تعم المسلم والكافر كما يشعر لفظ الناس ولفظ الإنسان[3]، وإن لم يغفلوا نهائيًا كما يغفل الكافر، إلا أنهم يقل اجتهادهم بالدعاء، كما ذكر الله تعالى، أن الإنسان وقت الكرب يبتهل بالدعاء في جميع أحواله، فإذا فرج الله كربه، أعرض عن ذكر ربه، ونسي ما كان فيه، كأنه لم يكن قط. وفيه مواضع كثيرة في القرآن منها قوله تعالى: ﴿وَإِذَا مَسَّ ٱلْإِنسَٰنَ ٱلضُّرُّ دَعَانَا لِجَنۢبِهِۦٓ أَوْ قَاعِدًا أَوْ قَآئِمًا فَلَمَّا كَشَفْنَا عَنْهُ ضُرَّهُۥ مَرَّ كَأَن لَّمْ يَدْعُنَآ إِلَىٰ ضُرٍّ مَّسَّهُۥ كَذَٰلِكَ زُيِّنَ لِلْمُسْرِفِينَ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ﴾ [يونس: ١٢].

وقوله تعالى: ﴿ثُمَّ إِذَا كَشَفَ ٱلضُّرَّ عَنكُمْ إِذَا فَرِيقٌ مِّنكُم بِرَبِّهِمْ يُشْرِكُونَ﴾ [النحل: ٥٤].

وقوله تعالى: ﴿وَلَوْ رَحِمْنَٰهُمْ وَكَشَفْنَا مَا بِهِم مِّن ضُرٍّ لَّلَجُّوا۟ فِى طُغْيَٰنِهِمْ يَعْمَهُونَ﴾ [المؤمنون: ٧٥].

وقوله تعالى: ﴿وَإِذَا مَسَّ ٱلنَّاسَ ضُرٌّ دَعَوْا۟ رَبَّهُم مُّنِيبِينَ إِلَيْهِ ثُمَّ إِذَآ أَذَاقَهُم مِّنْهُ رَحْمَةً إِذَا فَرِيقٌ مِّنْهُم بِرَبِّهِمْ يُشْرِكُونَ﴾ [الروم: ٣٣].

وقوله تعالى: ﴿وَإِذَا مَسَّ ٱلْإِنسَٰنَ ضُرٌّ دَعَا رَبَّهُۥ مُنِيبًا إِلَيْهِ ثُمَّ إِذَا خَوَّلَهُۥ نِعْمَةً مِّنْهُ نَسِىَ مَا كَانَ يَدْعُوٓا۟ إِلَيْهِ مِن قَبْلُ وَجَعَلَ لِلَّهِ أَندَادًا لِّيُضِلَّ عَن سَبِيلِهِۦ قُلْ تَمَتَّعْ بِكُفْرِكَ قَلِيلًا إِنَّكَ مِنْ أَصْحَٰبِ ٱلنَّارِ﴾ [الزمر: ٨].

فكل هذه الآيات تشير إلى أن فطرة

(١) سبق تخريجه.
(٢) روح المعاني، الألوسي ١٢/ ١٦.
(٣) انظر: الجامع لأحكام القرآن، القرطبي ٧/ ٣١٧، فتح القدير، الشوكاني ٢/ ٤٢٩.

الإنسان مؤمنًا كان أو كافر عند اشتداد الضر يلجأ إلى الله تعالى، وإذا كشف الضر عنه ازداد طغيانًا وكفرًا، إلا من رحم الله من عباده المؤمنين، فإنهم يزدادوا إيمانًا، خير مثال لهم قدوتنا وحبيبنا المصطفى صلى الله عليه وسلم، كان يصلي حتى تتفطر قدماه شكرًا لله تعالى على نعمه[1].

موضوعات ذات صلة

الابتلاء، الأذى، الخير، الشر، الفتنة

(١) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب تفسير القرآن، باب قوله: (ليغفر لك الله ما تقدم من ذنبك وما تأخر)، ٦/ ١٣٥، رقم ٤٨٣٧، ومسلم في صحيحه، كتاب صفة القيامة، باب إكثار الأعمال والاجتهاد في العبادة، ٤/ ٢١٧١،رقم ٢٨١٩.





عناصر الموضوع

مفهوم الضعف

أولًا: المعنى اللغوي:

مصدر قولهم: ضعف يضعف، وهو مأخوذٌ من مادة «ض ع ف» التي تدل على خلاف القوة، يقال منه: ضَعُف فهو ضعيفٌ، والضَعْف بفتح الضاد لغة تميم، وبضمها لغة قريش، وقيل: الضُعف -بالضم- في الجسد، والضَعف -بالفتح- في الرأي والعقل[(١)].

ويقول الراغب الأصفهاني: والضعف قد يكون في النفس، وفي البدن، وفي الحال[(٢)].

والضُعفة: ضعف الفؤاد وقلة الفطنة، ورجل مضعوفٌ ومبهوتٌ إذا كان في عقله ضعفٌ.

وأضعف الرجل: ضعفت دابته يقال هو ضعيفٌ مضعف: فالضعيف في بدنه والمضعف في دابته، وضعفه السير: أي أضعفه[(٣)]. ففي حديث خيبر: (من كان مضعفًا فليرجع)[(٤)]، أي: من كان دابته ضعيفةً[(٥)].

ثانيًا: المعنى الاصطلاحي:

الضعف وهن القوة حسًا أو معنى، وهو من فعل الله تعالى، كما أن القوة من فعل الله، تقول: خلقه الله ضعيفًا، أو خلقه قويًا، قال تعالى: ﴿وَخُلِقَ ٱلْإِنسَٰنُ ضَعِيفًا﴾ [النساء: ٢٨].

ويكون الضعف في النفس، وفي البدن، وفي الحال. وقيل: الضعف في العقل والرأي، وبالضم في الجسم، وبالكسر بمعنى المثل[(٦)].

يقول ابن القيم: فإنه -أي الإنسان- ضعيف البنية ضعيف القوة ضعيف الإرادة ضعيف العلم ضعيف الصبر، والآفات إليه مع هذا الضعف أسرع من السيل في صيب الحدور، فبالاضطرار لابد له من حافظ معين يقويه ويعينه وينصره ويساعده، فإن تخلى عنه هذا المساعد المعين، فالهلاك أقرب إليه من نفسه[(٧)].

فالمعنى الاصطلاحي لا يخرج عن معناه اللغوي، فكلاهما يدل على خلاف القوة.

(١) لسان العرب، ابن منظور ٥/ ٣٠٥.
(٢) المفردات، الراغب الأصفهاني ص ٥٠٧.
(٣) لسان العرب ٥/ ٥٠٤.
(٤) أخرجه الطبراني في الكبير ٨/ ١٩٢، رقم ٧٧٩٢.
(٥) انظر: الفائق في غريب الحديث، الزمخشري ٢/ ٣٤٠.
(٦) موسوعة نضرة النعيم ١٠/ ٤٧٨٧.
(٧) طريق الهجرتين ص١٨٥.



الضعف في الاستعمال القرآني

وردت مادة (ض ع ف) الدالة على الضعف في القرآن الكريم (٣٠) مرة[1].

والصيغ التي وردت، هي:

الصيغة	عدد المرات	المثال
الفعل الماضي	٨	﴿ضَعُفَ ٱلطَّالِبُ وَٱلْمَطْلُوبُ ۝٧٣﴾ [الحج:٧٣]
الفعل المضارع	٢	﴿وَجَعَلَ أَهْلَهَا شِيَعًا يَسْتَضْعِفُ طَآئِفَةً مِّنْهُمْ﴾ [القصص:٤]
اسم المفعول	٥	﴿وَٱذْكُرُوٓا۟ إِذْ أَنتُمْ قَلِيلٌ مُّسْتَضْعَفُونَ فِى ٱلْأَرْضِ﴾ [الأنفال:٢٦]
اسم تفضيل	٢	﴿فَسَيَعْلَمُونَ مَنْ أَضْعَفُ نَاصِرًا وَأَقَلُّ عَدَدًا ۝٢٤﴾ [الجن:٢٤]
مصدر	٤	﴿۞ ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن ضَعْفٍ ثُمَّ جَعَلَ مِنۢ بَعْدِ ضَعْفٍ قُوَّةً﴾ [الروم:٥٤]
صفة مشبهة	٩	﴿وَخُلِقَ ٱلْإِنسَٰنُ ضَعِيفًا ۝٢٨﴾ [النساء:٢٨]

وجاء (الضعف) في القرآن الكريم بمعناها اللغوي، وهو خلاف القوة[2].

---

(١) انظر: المعجم المفهرس لألفاظ القرآن الكريم، محمد فؤاد عبد الباقي ص٤٢٠- ٤٢١.

(٢) انظر: مقاييس اللغة، ابن فارس ٣/ ٣٦٢، المفردات، الراغب الأصفهاني ص٢٩٥، لسان العرب، ابن منظور ٩/ ٢٠٣.

ألفاظ ذات الصلة

١ الوهن:

الوهن لغة:

مأخوذ من مادة «و هـ ن» التي تدل على الضعف. تقول منه: وهن الشيء يهن وهنًا: ضعف، وأوهنته أنا «أي أضعفته». والوهن: الضعف في العمل وفي الأشياء، وكذلك في العظم ونحوه[(١)].

الوهن اصطلاحًا:

لا يختلف المعنى الاصطلاحي عن المعنى اللغوي الدال على الضعف، سواء في العمل أو الأشياء.

٢ الاستكانة:

الاستكانة لغة:

مأخوذة من مادة «س ك ن» التي تدل على الخضوع والذلة، ويقال: استكان فلان، إذا خضع[(٢)].

الاستكانة اصطلاحًا:

لا يختلف عن معناه اللغوي الدال على الاستسلام والخضوع والذل.

الصلة بين الضعف، والوهن، والاستكانة:

فرق الرازي بينها بأن الوهن: ضعف القلب أو الجبن، والضعف: مطلقٌ شاملٌ لكافة أنواع الضعف البدني والمادى. والاستكانة: التظاهر بالعجز[(٣)].

(١) تهذيب اللغة، الأزهري ٦/ ٢٣٤.
(٢) لسان العرب، ابن منظور ٥/ ٣٩٧٠.
(٣) انظر: مفاتيح الغيب، الرازي ٣/ ٢٥.



أنواع الضعف

يتحدث هذا العنوان عن أنواع الضعف عند الإنسان، وهو نوعان:

أولًا: الضعف الطبيعي:

كل عباد الله ضعفاء ضعفًا ذاتيًا وهو ضعف طبيعي، لقوله تعالى: ﴿وَخُلِقَ ٱلْإِنسَٰنُ ضَعِيفًا﴾ [النساء: ٢٨].

والمراد بضعف الإنسان الطبيعي ثلاثة أقوال:

أحدهما: أنه ضعيف في أصل الخلقة.

قال الحسن: هو أنه خلق من ماء مهين.

والثاني: أنه قلة الصبر على النساء.

والثالث: أنه ضعف العزم عن قهر الهوى[1]، فإن هواه يستميله، وشهوته وغضبه يستخفانه، وهذا أشد الضعف[2].

وقال مجاهد وغيره: ﴿وَخُلِقَ ٱلْإِنسَٰنُ ضَعِيفًا﴾ فناسبه التخفيف لضعفه في نفسه، وضعف عزمه وهمته[3].

ويقول الشيخ السعدي رحمه الله: «وذلك لرحمته التامة، وإحسانه الشامل، وعلمه وحكمته بضعف الإنسان من جميع الوجوه، ضعف البنية، وضعف الإرادة، وضعف العزيمة، وضعف الإيمان، وضعف الصبر، فناسب ذلك أن يخفف الله تعالى عنه ما يضعف عنه، وما لا يطيقه إيمانه وصبره وقوته»[4].

وقد تحدث القرآن الكريم عن بعض مظاهر هذا الضعف، والتي منها:

١ . ضعف في أصل الخلقة.

قال تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَٰٓئِكَةِ إِنِّى خَٰلِقٌۢ بَشَرًا مِّن صَلْصَٰلٍ مِّنْ حَمَإٍ مَّسْنُونٍ﴾ [الحجر: ٢٨].

إن الله تبارك وتعالى خلق هذا الإنسان من صلصال من حمإ مسنون، ذلك لأن لعنصرى الصلصال والحمإ المسنون في خلق الإنسان وفي حياته بعد ذلك دورًا لا يمكن إغفاله، فالصلصال لا يتماسك كثيرًا، بل سرعان ما يتحطم ويتفتت، فهو هش لأنه الطين الذي جففته الشمس، فهو لا يملك خاصية المحافظة على ذاته، فسرعان ما يتفتت، فليس في شدته كالفخار الذي سوته النار، والحمأ المسنون: الطين الذي اشتد سواده وتغيرت رائحته تغيرًا مكروهًا والمسنون المصور. هاتان خصيصتان: عدم التماسك وعدم الاحتفاظ بخاصية الصلاح وطروء الفساد والتغير، وهما ملازمتان للإنسان، إلا إذا تداركه الله بعفوه ورحمته، فإنه حين ذلك يكون قويًا بعيدًا عن أن يطرأ

(١) زاد المسير، ابن الجوزي ٢/ ٣٩.
(٢) الجامع لأحكام القرآن، القرطبي ٣/ ١٣٥.
(٣) تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ١/ ٤٦٠.

(٤) تيسير الكريم الرحمن ص٣٢٥.

عليه فساد[1].

٢. ضعف أمام الشهوات.

فالإنسان يميل بفطرته إلى حب الشهوات كما قال تعالى: ﴿زُيِّنَ لِلنَّاسِ حُبُّ الشَّهَوَاتِ مِنَ النِّسَاءِ وَالْبَنِينَ وَالْقَنَاطِيرِ الْمُقَنْطَرَةِ مِنَ الذَّهَبِ وَالْفِضَّةِ وَالْخَيْلِ الْمُسَوَّمَةِ وَالْأَنْعَامِ وَالْحَرْثِ﴾[آل عمران: ١٤].

ففي الإنسان هذا الميل إلى هذه الشهوات، وهو جزء من تكوينه الأصيل، وهذا ضروري للحياة البشرية كي تتأصل وتنمو[2].

والإنسان بطبعه خلق خلقًا لا يتمالك.

قال النبي صلى الله عليه وسلم: (لما صور الله آدم في الجنة تركه ما شاء الله أن يتركه، فجعل إبليس يطيف به، وينظر ما هو، فلما رآه أجوف عرف أنه خلق خلقًا لا يتمالك)[3].

وقد تحدث القرآن الكريم عن بعض الصفات البشرية الدالة على الضعف، ومنها:

١. ظلوم كفار.

قال تعالى: ﴿إِنَّ الْإِنْسَانَ لَظَلُومٌ كَفَّارٌ﴾[إبراهيم: ٣٤].

هذه طبيعة الإنسان من حيث هو ظالمٌ متجرئ على المعاصي، مقصر في حقوق ربه، كفار لنعم الله لا يشكرها ولا يعترف بها، إلا من هداه الله، فشكر نعمه، وعرف حق ربه، وقام به[4].

وقال تعالى في موضع آخر واصفًا الإنسان بأنه جهول: ﴿إِنَّهُ كَانَ ظَلُومًا جَهُولًا﴾ [الأحزاب: ٧٢].

وهذا دليل على كثرة الظلم والجهالة، لا ينفك الإنسان من التخلق منها رغم كل ما وصل إليه وما سيصل إليه من حضارة وتقدم.

٢. عجول.

لقد وصف القرآن الكريم الإنسان بأنه عجول.

قال تعالى: ﴿وَكَانَ الْإِنْسَانُ عَجُولًا﴾[الإسراء: ١١].

والعجل هو العجلة والتسرع والسبق إلى مخاطر الأمور من غير تفكير، وقوله تعالى: ﴿خُلِقَ الْإِنْسَانُ مِنْ عَجَلٍ﴾[الأنبياء: ٣٧].

هذا التعبير فيه تأكيد في عجلته، وكأنه يكون من عجلة، وهذا كناية عن استعجاله للأمور، وفيه مجاز بتشبيه في عجلته وكونها طبعًا له غير منفصل عن ذاته بأنه خلق منها طبعًا له لا تنفصل عنه[5].

فالعجلة في طبعه وتكوينه وهو يمد ببصره دائمًا إلى ما وراء اللحظة الحاضرة

(١) قصص القرآن الكريم، فضل عباس ص ١١٣.
(٢) في ظلال القرآن ١/ ٣٧٤.
(٣) أخرجه مسلم في صحيحه، كتاب البر والصلة، باب خلق الإنسان خلقًا لا يتمالك، رقم ٣٦١١.

(٤) تيسير الكريم الرحمن ص٤٧٠.
(٥) زهرة التفاسير ٩/ ٤٨٦٤.

يريد ليتناوله بيده، ويريد ليحقق كل ما يخطر له بمجرد أن يخطر بباله، ويريد أن يستحضر ما يوعد به ولو كان في ذلك ضرره وإيذاؤه.

٣. يؤوس قنوط.

قال تعالى: ﴿لَا يَسْـَٔمُ ٱلْإِنسَٰنُ مِن دُعَآءِ ٱلْخَيْرِ وَإِن مَّسَّهُ ٱلشَّرُّ فَيَـُٔوسٌ قَنُوطٌ﴾ [فصلت: ٤٩].

هذه هي طبيعة الإنسان يؤوس من الخير، كفور بالنعمة بمجرد أن تنزع منه، مع أنها كانت هبة من الله تعالى له [١].

٤. هلوع.

قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ خُلِقَ هَلُوعًا﴾ [المعارج: ١٩].

الهلع قلة إمساك النفس عن اعتراء ما يحزنها أو ما يسرها أو عند توقع ذلك والإشفاق منه. والهلع طبيعة كامنة فيه مع خلقه تظهر عند ابتداء شعوره بالنافع والضار فهو من طباعه المخلوقة كغيرها من طباعها البشرية. والهلع صفة غير محمودة فوصف الإنسان هنا بها لوم عليه في تقصيره عن التخلق بدفع آثارها [٢].

ثانيًا: ضعف طارئ:

الضعف الطارئ هو الضعف الكسبي، أي ما يكتسبه العبد من أعمال وأقوال تدل على هذا الضعف.

فعن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: (المؤمن القوي خير وأحب إلى الله من المؤمن الضعيف، وفي كلٍ خيرٌ) [٣].

فالتفاوت في ضعف المؤمنين وقوتهم هو بسبب قبول أسباب ضعف الإيمان أو قبول أسباب قوته، فإذا سعى المؤمن في إزالة ضعفه بمقتضى الأسباب المزيلة له، توصل إلى إزالة الضعف الذي يضر به، وهو الكسبي، ولا يضره الضعف الطبيعي الوهبي، لأن ما يصل به إلى درجة الكمال هو الإقبال على ما يتحقق به كمال إيمانه. والضعف الطارئ في المؤمنين يكون على قسمين: ديني، ودنيوي.

وعموم الضعف في المؤمنين يرجع إلى ضعف في الدين وهو المعنوي، وضعف في أمور الدنيا وهو الحسي، ومن المؤمنين من يجتمع فيه الضعفان. فأما الضعف في الدين فأصنافه اثنان: فقراء طالحون وأغنياء طاغون، فهؤلاء فقراء في الدين.

قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ تَوَفَّىٰهُمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ ظَالِمِىٓ أَنفُسِهِمْ قَالُوا۟ فِيمَ كُنتُمْ ۖ قَالُوا۟ كُنَّا مُسْتَضْعَفِينَ فِى ٱلْأَرْضِ ۚ قَالُوٓا۟ أَلَمْ تَكُنْ أَرْضُ ٱللَّهِ وَٰسِعَةً فَتُهَاجِرُوا۟ فِيهَا ۚ فَأُو۟لَٰٓئِكَ مَأْوَىٰهُمْ جَهَنَّمُ ۖ وَسَآءَتْ مَصِيرًا﴾ [النساء: ٩٧].

(١) في ظلال القرآن ٤/ ١٨٦٠.
(٢) التحرير والتنوير ١٢/ ٢٩ بتصرف.
(٣) أخرجه مسلم في صحيحه، كتاب القدر، باب الأمر بالقوة وترك العجز، رقم ٢٦٦٤.

وقوله: ﴿وَبَرَزُوا لِلَّهِ جَمِيعًا فَقَالَ الضُّعَفَاءُ لِلَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا إِنَّا كُنَّا لَكُمْ تَبَعًا فَهَلْ أَنْتُمْ مُغْنُونَ عَنَّا مِنْ عَذَابِ اللَّهِ مِنْ شَيْءٍ﴾ [إبراهيم: ٢١].

وأما الضعفاء في الدنيا فاثنان أيضًا: فقراء صالحون وفقراء فاسدون، والفقراء المنحرفون اجتمع فيهم الضعفان أيضًا، فعن حارثة بن وهب رضي الله عنه، أن النبي صلى الله عليه وسلم قال: (ألا أخبركم بأهل الجنة؟ كل ضعيف متضعف، لو أقسم على الله لأبره، ألا أخبركم بأهل النار؟ كل عتل جواظ مستكبر)(١).

قال الحافظ ابن حجر: «والمراد بالضعيف: من نفسه ضعيفة، لتواضعه وضعف حاله في الدنيا، والمستضعف: المحتقر، لخموله في الدنيا»(٢).

فالحديث دل على الضعف الحسي والمعنوي الممدوحين، فالضعف في الدين إذا كان بمعنى التواضع فهو ممدوح، والضعف الحسي إذا أجبر بالقوة الإيمانية فهو ممدوح. ومن الأدلة العامة في القرآن الكريم على الضعف الطارئ من حيث المعنى: قوله تعالى: ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَعْبُدُ اللَّهَ عَلَى حَرْفٍ فَإِنْ أَصَابَهُ خَيْرٌ اطْمَأَنَّ بِهِ وَإِنْ أَصَابَتْهُ فِتْنَةٌ انْقَلَبَ عَلَى وَجْهِهِ خَسِرَ الدُّنْيَا وَالْآخِرَةَ ذَلِكَ هُوَ الْخُسْرَانُ الْمُبِينُ﴾ [الحج: ١١].

أي: على طرف من الدين لا في وسطه وقلبه، فهو في قلق واضطراب فيه لا في سكون وطمأنينة، فمثله مثل الذي يكون على طرف من العسكر إن أحس بغنيمة قر وسكن، وإن كانت هزيمة فر وهام على وجهه، وهذا هو النفاق بعينه كما يرشد إلى ذلك قوله تعالى في المنافقين: ﴿مُذَبْذَبِينَ بَيْنَ ذَلِكَ لَا إِلَى هَؤُلَاءِ وَلَا إِلَى هَؤُلَاءِ وَمَنْ يُضْلِلِ اللَّهُ فَلَنْ تَجِدَ لَهُ سَبِيلًا﴾ [النساء: ١٤٣].

وقوله تعالى: ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَقُولُ آمَنَّا بِاللَّهِ فَإِذَا أُوذِيَ فِي اللَّهِ جَعَلَ فِتْنَةَ النَّاسِ كَعَذَابِ اللَّهِ وَلَئِنْ جَاءَ نَصْرٌ مِنْ رَبِّكَ لَيَقُولُنَّ إِنَّا كُنَّا مَعَكُمْ﴾ [العنكبوت: ١٠].

فجعل فتنة الناس له على الإيمان وطاعة رسله كعذاب الله لمن يعذبه على الشرك ومخالفة رسله.

وقد أشار القرآن الكريم إلى بعض مظاهر الضعف الطارئ، والتي منها:

١ . الجهل.

قال تعالى: ﴿وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ يَجْهَلُونَ﴾ [الأنعام: ١١١].

وقوله تعالى على لسان نبي الله لوط عليه السلام: ﴿بَلْ أَنْتُمْ قَوْمٌ تَجْهَلُونَ﴾ [النمل:

(١) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب التفسير، باب عتل بعد ذلك زنيم، رقم ٤٩١٨، ومسلم في صحيحه، كتاب صفة الجنة، باب أهل الجنة وأهل النار وعلاماتهم في الدنيا، رقم ٢٨٥٣.

(٢) فتح الباري ٨/ ٧٢٧.

[55].

فالجهل ضارب أطنابه على كثير من الناس، وهو فيهم بحسب قلة إقبالهم على علم الشريعة وكثرته، يقول ابن القيم رحمه الله: «أما شجرة الجهل فتثمر كل ثمرة قبيحة من الكفر والفساد والشرك والظلم والبغي والعدوان والجزع والهلع والكنود والعجلة والطيش والحدة والفحش والبذاءة والشح والبخل»[1].

٢. تمكن الشهوات والشبهات من القلوب.

قد ذكر الله تعالى هذين المرضين في كتابه، أما مرض الشبهات وهو أصعبهما وأقتلهما للقلب، ففي قوله في حق المنافقين: ﴿فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ فَزَادَهُمُ اللَّهُ مَرَضًا﴾[البقرة: ١٠].

وقوله تعالى: ﴿وَلِيَقُولَ الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ وَالْكَافِرُونَ مَاذَا أَرَادَ اللَّهُ بِهَٰذَا مَثَلًا﴾[المدثر: ٣١].

وقال تعالى: ﴿لِّيَجْعَلَ مَا يُلْقِي الشَّيْطَانُ فِتْنَةً لِّلَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ وَالْقَاسِيَةِ قُلُوبُهُمْ﴾[الحج: ٥٣].

فهذه ثلاثة مواضع المراد بمرض القلب فيها مرض الجهل والشبهة، وأما مرض الشهوة، ففي قوله: ﴿يَا نِسَاءَ النَّبِيِّ لَسْتُنَّ كَأَحَدٍ مِّنَ النِّسَاءِ إِنِ اتَّقَيْتُنَّ فَلَا تَخْضَعْنَ بِالْقَوْلِ فَيَطْمَعَ الَّذِي فِي قَلْبِهِ مَرَضٌ وَقُلْنَ قَوْلًا مَّعْرُوفًا﴾ [الأحزاب: ٣٢].

أي: لا تلن في الكلام، فيطمع الذي في قلبه فجور وزنا»[2].

وقال ابن بطة: «لا تجعل قلبك للإيرادات والشبهات، مثل السفنجة، فيتشربها فلا ينضح إلا بها، ولكن اجعله كالزجاجة المصمتة تمر الشبهات بظاهرها ولا تستقر فيها، فيراها بصفائه ويدفعها بصلابته، وإلا فإذا أشربت قلبك كل شبهة تمر عليها صار مقرًا للشبهات»[3].

٣. السقوط في الفتن.

والفتنة ما يقع به اضطراب الأحوال، ومرجها وتشتت البال وهي تظهر الضعف الكامن في باطن العبد، فإذا وقعت الفتنة في أي مجتمع إيماني لا تخرج ولا تنتهي إلا بنصيبها من المؤمنين، فمنهم من تنسفه، ومنهم من تزلزله، ومنهم من تضعفه في سيره إلى الله وتمسكه بدينه.

قال تعالى: ﴿وَمِنْهُم مَّن يَقُولُ ائْذَن لِّي وَلَا تَفْتِنِّي ۚ أَلَا فِي الْفِتْنَةِ سَقَطُوا﴾ [التوبة: ٤٩].

وقال تعالى على لسان موسى عليه السلام: ﴿إِنْ هِيَ إِلَّا فِتْنَتُكَ تُضِلُّ بِهَا مَن تَشَاءُ وَتَهْدِي مَن تَشَاءُ﴾ [الأعراف: ١٥٥].

أي: تضل بمقتضاها من تشاء من عبادك

(١) المصدر السابق ١/ ٣٨٢- ٣٨٣.

(٢) المصدر السابق ١/ ٣٦٧.

(٣) الإبانة، ابن بطة، كتاب الإيمان ١/ ٣٩٠.

ولست بالظالم لهم في تقديرك، وتهدي من تشاء ولست بالمحابي لهم في توفيقك، فأمرهم دائر بين العدل والفضل[1].

مراعاة الضعف في الأحكام الشرعية

الناظر إلى الأحكام الشرعية يجد أنها جاءت في حدود الوسع وعدم المشقة، وليس فيها تضييق ولا حرج ولها أسباب منها اختيارية كالسفر والجهل والإكراه، ومنها أسباب اضطراريه وهي ما تحصل للإنسان رغمًا عنه كالمرض والنسيان.

قال تعالى: ﴿لَا يُكَلِّفُ اللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا﴾ [البقرة: ٢٨٦].

وقوله تعالى: ﴿لَا يُكَلِّفُ اللَّهُ نَفْسًا إِلَّا مَا آتَاهَا﴾ [الطلاق: ٧].

وقال سبحانه وتعالى: ﴿وَلَا نُكَلِّفُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا وَلَدَيْنَا كِتَابٌ يَنْطِقُ بِالْحَقِّ﴾ [المؤمنون: ٦٢].

هكذا يتصور المسلم رحمة ربه وعدله في التكاليف التي يفرضها الله عليه في خلافته للأرض، وفي ابتلائه في أثناء الخلافة، وفي جزائه على عمله في نهاية المطاف ويطمئن إلى رحمة الله وعدله في هذا كله، فلا يتبرم بتكاليفه، ولا يضيق بها صدرًا، ولا يستثقلها كذلك، وهو يؤمن أن الله الذي فرضها عليه أعلم بحقيقة طاقته، ولو لم تكن في طاقته ما فرضها عليه. فهناك أوامر ونواهي، ولكنها في حدود الوسع وعدم المشقة وليس فيها تضييق وعسر وإحراج، لقوله تعالى: ﴿مَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيَجْعَلَ عَلَيْكُم مِّنْ حَرَجٍ﴾

(١) تفسير المراغي ٣/ ٢٨٢.

[المائدة: ٦].

وقوله تعالى: ﴿هُوَ ٱجۡتَبَىٰكُمۡ وَمَا جَعَلَ عَلَيۡكُمۡ فِي ٱلدِّينِ مِنۡ حَرَجٖ﴾ [الحج: ٧٨].

وقوله: ﴿مَّا كَانَ عَلَى ٱلنَّبِيِّ مِنۡ حَرَجٖ فِيمَا فَرَضَ ٱللَّهُ لَهُۥ﴾ [الأحزاب: ٣٨].

هذا الكلام يفيد النفي المؤكد بأنه ليس في الدين حرج، والمعنى: ما كان من أمر الله تعالى في عباده أن يجعل الدين عليهم فيه مشقة مجهدة أو ضيق وحرج. ومثل ذلك الآيات التي جاءت تنفي الحرج عن فئة معينة، كقوله تعالى في سورتي النور والفتح: ﴿لَّيۡسَ عَلَى ٱلۡأَعۡمَىٰ حَرَجٞ وَلَا عَلَى ٱلۡأَعۡرَجِ حَرَجٞ وَلَا عَلَى ٱلۡمَرِيضِ حَرَجٞ﴾ [الفتح: ١٧].

ولهذا التخفيف ومراعاة الضعف في الأحكام الشرعية أسباب تنقسم إلى قسمين:

١. أسباب اختيارية: وهي التي ينشئها الإنسان باختياره كالسفر المبيح للإفطار، وقصر الصلاة، وجمعها، فإن الإنسان مخير في إنشائه، إن شاء سافر، وإن شاء لم يسافر، إلى غير ذلك من الأمور التي ذكرت في كتب الفقه ولا يتسع المقام هنا للحديث عنها.

٢. أسباب اضطرارية: وهي ما تحصل للإنسان رغمًا عنه، دون أن يكون له دخل في اختيارها، أو يحدثها بنفسه كالمرض والنسيان، وسنكتفي فيما يأتي بذكر طائفة محدودة مما أورده العلماء من التيسيرات سواء كانت في العبادات أو في غيرها: ففي حالة المرض نجد أن الشرع راعى التخفيف في كثير من العبادات منها:

- التيسيرات في الطهارة: رخص له في التيمم بالتراب من أجل الصلاة عند الخوف على النفس أو العضو، أو زيادة المرض أو بطء شفائه، أو حدوث شيء قبيح في عضو ظاهر، ومن ذلك تجويز المسح على الجبيرة، أو ما يغطي الجروح[1].
- التيسيرات في الصلاة: طلب من المريض أداءها بالكيفية التي يستطيعها، قاعدًا أو مضطجعًا أو مومئًا وجوز له التخلف عما فيه مشقة عليه، كالتخلف عن الجمعة والجماعة، مع حصول الفضيلة، والجمع بين الصلاتين.
- التيسيرات في الصوم: أباح له الفطر في رمضان، والخروج من المعتكف، والانتقال من الصوم إلى الإطعام في كفارتي الظهار والإفطار المتعمد في نهار رمضان، وأجاز لمن كان فيه عجز دائم كالشيخ الهرم ترك الصيام مع وجوب الفدية عليه، قال تعالى: ﴿فَمَن كَانَ مِنكُم مَّرِيضًا أَوۡ عَلَىٰ سَفَرٖ فَعِدَّةٞ مِّنۡ أَيَّامٍ أُخَرَۚ وَعَلَى ٱلَّذِينَ يُطِيقُونَهُۥ فِدۡيَةٞ

(١) الأشباه والنظائر، السيوطي ص٨٥.

﴿طَعَامُ مِسْكِينٍ﴾[البقرة: ١٨٤].

❁ التيسيرات في الحج: رخص له في الاستنابة فيه، أو في بعض أفعاله كرمي الجمار، وإباحة محظورات الإحرام، كلبس الثياب، أو حلق الرأس مثلًا، مع الفدية، والتحلل على رأي، قال تعالى: ﴿وَلَا تَحْلِقُوا رُءُوسَكُمْ حَتَّى يَبْلُغَ الْهَدْيُ مَحِلَّهُ فَمَن كَانَ مِنكُم مَّرِيضًا أَوْ بِهِ أَذًى مِّن رَّأْسِهِ فَفِدْيَةٌ مِّن صِيَامٍ أَوْ صَدَقَةٍ أَوْ نُسُكٍ فَإِذَا أَمِنتُمْ فَمَن تَمَتَّعَ بِالْعُمْرَةِ إِلَى الْحَجِّ فَمَا اسْتَيْسَرَ مِنَ الْهَدْيِ فَمَن لَّمْ يَجِدْ فَصِيَامُ ثَلَاثَةِ أَيَّامٍ فِي الْحَجِّ وَسَبْعَةٍ إِذَا رَجَعْتُمْ تِلْكَ عَشَرَةٌ كَامِلَةٌ ذَلِكَ لِمَن لَّمْ يَكُنْ أَهْلُهُ حَاضِرِي الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ﴾[البقرة: ١٩٦].

❁ التيسير فيما عدا العبادات: وفيما عدا العبادات أبيح ما تدعوا إليه الضرورة أو الحاجة، مما به المحافظة على نفسه[١].

قال تعالى: ﴿إِنَّمَا حَرَّمَ عَلَيْكُمُ الْمَيْتَةَ وَالدَّمَ وَلَحْمَ الْخِنزِيرِ وَمَا أُهِلَّ بِهِ لِغَيْرِ اللَّهِ فَمَنِ اضْطُرَّ غَيْرَ بَاغٍ وَلَا عَادٍ فَلَا إِثْمَ عَلَيْهِ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾[البقرة: ١٧٣].

❁ التيسير في السهو والنسيان: فهما عذران شرعيان، يسقطان المؤاخذة في بعض الحالات، رحمة بالناس ورفعًا للحرج والمشقة عنهم، قال تعالى: ﴿رَبَّنَا لَا تُؤَاخِذْنَا إِن نَّسِينَا أَوْ أَخْطَأْنَا﴾ [البقرة: ٢٨٦].

حقوق الضعفاء بين الرعاية والنصرة

حرص الشرع الحنيف على رعاية الضعفاء والمحتاجين والدفاع عنهم ونصرتهم، سواء كانت هذه الرعاية والنصرة معنوية أو حسية، فأوصى بالصغير ورعايته من قبل أن يخرج إلى الحياة الدنيا، كما أقر أن لليتيم حقوق يجب أن تراعى، منها: الإحسان إليه، والاهتمام به من الناحية النفسية، والاجتماعية، والمالية. بل نالت اليتيمة في القرآن الكريم رعاية خاصة. فكما عالجت مشكلة اليتامى الصغيرات من الناحيتين المادية والاجتماعية شأنها في ذلك شأن اليتامى الذكور.

عالجت أيضًا مشكلة اليتيمات إذا بلغن سن الزواج. بل للنساء على وجه العموم حق الرعاية والنصرة، وللوالدين كذلك حق الرعاية والإحسان.

وأما أصحاب الضعف الطارئ كالفقراء والمساكين وغيرهم من المحتاجين لأسباب بدنية (أولو الضرر) هؤلاء ينبغي العناية بهم واحترامهم ورعايتهم؛ فدعا سبحانه وتعالى إلى مجالستهم والإحسان إليهم، والإنفاق عليهم.

بل فرض على المخالفين لأحكامه الشرعية أن يدفعوا جزءًا من مالهم عند كل مخالفة لأحكام الشريعة ككفارة عن تلك

(١) انظر: المصدر السابق ص٨٥.

المخالفة وحدد الشرع مسؤلية المسلم نحو هؤلاء الضعفاء فأوجب نصرتهم وعدم خذلانهم.

أولًا: رعاية الضعفاء والمحتاجين:

لقد كفل دين الإسلام جميع الحقوق لأتباعه عامة، وللضعفاء منهم خاصة، فأوجب وحث على رعاية هذه الحقوق:

١. رعاية أصحاب الضعف الطبيعي:

أولًا: رعاية حقوق الأطفال:

لما كانت مرحلة الطفولة من المراحل المهمة والأساسية في بناء شخصية الفرد إيجابًا أو سلبًا، وفقًا لما يلاقيه من اهتمام جاء الإسلام ليقرر أن لهؤلاء الأطفال حقوقًا وواجبات لابد من رعايتها والاهتمام بها، ولا يمكن إغفالها أو التغاضي عنها. وهذه الحقوق التى كفلها الإسلام متعددة الجوانب:

فمنها: حقه قبل ولادته؛ لأن الدور الأكبر في رعاية وتنشئة الطفل تنشئة سليمة يتمثل في دور الوالدين، فقد حرص الإسلام على أن تنشأ الأسرة في الأساس بزوج تقي وزوجة صالحة.

قال تعالى: ﴿وَأَنكِحُوا الْأَيَامَىٰ مِنكُمْ وَالصَّالِحِينَ مِنْ عِبَادِكُمْ وَإِمَائِكُمْ﴾[النور: ٣٢].

ومنها: الاستبشار بالمولود عند ولادته، وذلك على نحو ما جاء في قوله تعالى عن بشارة الملائكة لإبراهيم عليه السلام: ﴿قَالُوا لَا تَوْجَلْ إِنَّا نُبَشِّرُكَ بِغُلَامٍ عَلِيمٍ﴾ [الحجر: ٥٣].

ومنها أيضًا بشارة زوجه: ﴿وَامْرَأَتُهُ قَائِمَةٌ فَضَحِكَتْ فَبَشَّرْنَاهَا بِإِسْحَاقَ وَمِن وَرَاءِ إِسْحَاقَ يَعْقُوبَ﴾[هود: ٧١].

وقوله تعالى حكاية عن زكريا عليه السلام: ﴿فَنَادَتْهُ الْمَلَائِكَةُ وَهُوَ قَائِمٌ يُصَلِّي فِي الْمِحْرَابِ أَنَّ اللَّهَ يُبَشِّرُكَ بِيَحْيَىٰ مُصَدِّقًا بِكَلِمَةٍ مِّنَ اللَّهِ وَسَيِّدًا وَحَصُورًا وَنَبِيًّا مِّنَ الصَّالِحِينَ﴾[آل عمران: ٣٩].

وهذه البشارة للذكر والأنثى على السواء من غير تفرقة بينهما: ﴿وَإِذَا بُشِّرَ أَحَدُهُم بِالْأُنثَىٰ ظَلَّ وَجْهُهُ مُسْوَدًّا وَهُوَ كَظِيمٌ﴾[النحل: ٥٨].

ومنها: إتمام الرضاعة، والرضاعة عملية لها أثرها البعيد في التكوين الجسدي والانفعالي والاجتماعي في حياة الإنسان وليدًا ثم طفلًا، فكان على الأم أن ترضع طفلها حولين كاملين، وجعل ذلك حقًا من حقوق الطفل.

قال تعالى: ﴿وَالْوَالِدَاتُ يُرْضِعْنَ أَوْلَادَهُنَّ حَوْلَيْنِ كَامِلَيْنِ ۖ لِمَنْ أَرَادَ أَن يُتِمَّ الرَّضَاعَةَ﴾ [البقرة: ٢٣٣].

وقوله: ﴿وَفِصَالُهُ فِي عَامَيْنِ﴾ [لقمان: ١٤].

ثانيًا: رعاية اليتيم:

واليتم نوعان:

١. اليتيم الحقيقي: ويطلق على كل من مات أبوه، ذكرًا كان أو أنثى وهو دون سن البلوغ، ويبقى يتيمًا حتى يبلغ، فإذا بلغ زال عنه اسم اليتيم.

٢. اليتيم الحكمي: هو الذي فقد معيله وحاميه وراعيه، ويمكن أن يقاس عليه الأطفال الذين لهم آباء على قيد الحياة لكنهم في حكم الأموات، ويمكن اعتبار أولادهم في حكم الأيتام، وفي المجتمع نماذج كثيرة من هذه الأصناف كاللقطاء، وأبناء المعاقين، والأطفال المتشردين «أبناء الشوارع»، فهم في حكم الأيتام من الناحية الفعلية، وهم بحاجة إلى الرعاية والمساعدة والنفقة كالأيتام الحقيقين.

وقد تعرضت الآيات في القرآن الكريم لبيان حقوق اليتيم ومن تدبرها وجدها مقسمة إلى ثلاثة أقسام:

الأول: الإحسان إلى اليتيم والوصية به:

قال تعالى: ﴿وَاعْبُدُوا اللَّهَ وَلَا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا وَبِذِي الْقُرْبَىٰ وَالْيَتَامَىٰ وَالْمَسَاكِينِ﴾[النساء:٣٦].

وقوله تعالى: ﴿وَيُطْعِمُونَ الطَّعَامَ عَلَىٰ حُبِّهِ مِسْكِينًا وَيَتِيمًا وَأَسِيرًا﴾[الإنسان:٨].

وقوله سبحانه: ﴿وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الْيَتَامَىٰ قُلْ إِصْلَاحٌ لَّهُمْ خَيْرٌ﴾[البقرة: ٢٢٠].

ورعاية اليتيم لا تقتصر على الشريعة الخاتمة بل كانت في الشرائع السابقة لشرعنا، فمن جملة بنود الميثاق الذي أخذه الله تعالى على بني إسرائيل: الإحسان إلى اليتامى.

قال تعالى: ﴿وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَاقَ بَنِي إِسْرَائِيلَ لَا تَعْبُدُونَ إِلَّا اللَّهَ وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا وَذِي الْقُرْبَىٰ وَالْيَتَامَىٰ وَالْمَسَاكِينِ وَقُولُوا لِلنَّاسِ حُسْنًا وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ ثُمَّ تَوَلَّيْتُمْ إِلَّا قَلِيلًا مِّنكُمْ وَأَنتُم مُّعْرِضُونَ﴾[البقرة: ٨٣].

الثاني: الاهتمام باليتيم من الناحية النفسية والاجتماعية:

فأوصى له من يبادله العطف والحنان، والتربية الصالحة ليكون فردًا صالحًا لا تؤثر على نفسيته حياة اليتم. ولما كان النبي صلى الله عليه وسلم قد نشأ يتيمًا بين الله تعالى له بأنه قد أنعم عليه وكفله وأغناه، فقال تعالى: ﴿أَلَمْ يَجِدْكَ يَتِيمًا فَآوَىٰ ۝ وَوَجَدَكَ ضَالًّا فَهَدَىٰ ۝ وَوَجَدَكَ عَائِلًا فَأَغْنَىٰ ۝ فَأَمَّا الْيَتِيمَ فَلَا تَقْهَرْ﴾[الضحى: ٦ - ٩].

وهذه الآيات الكريمة يستنبط منها ما يحتاجه اليتيم في الحياة الاجتماعية:

- المسكن الذي يأوي إليه.
- التربية الصالحة بما تشتمل عليه من تأديب وتعليم حتى لا يقع فريسة

الضلال.

- والمال الذي ينفق عليه منه.
- المعاملة الحسنة والرفق به، وعدم إهانته وقد ذم الله تعالى أولئك الذين يهينون اليتيم ولا يكرمونه، فقال تعالى: ﴿أَرَءَيْتَ ٱلَّذِى يُكَذِّبُ بِٱلدِّينِ ۝١ فَذَٰلِكَ ٱلَّذِى يَدُعُّ ٱلْيَتِيمَ ۝٢ وَلَا يَحُضُّ عَلَىٰ طَعَامِ ٱلْمِسْكِينِ﴾ [الماعون:١-٣]. وقوله تعالى: ﴿كَلَّا بَل لَّا تُكْرِمُونَ ٱلْيَتِيمَ﴾[الفجر:١٧]

الثالث: الاهتمام باليتيم من الناحية المالية:

١. إذا كان اليتيم فقيرًا فقد شرع له موارد كثيرة يأخذ منها المال، منها: قوله تعالى:﴿وَءَاتَى ٱلْمَالَ عَلَىٰ حُبِّهِۦ ذَوِى ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْيَتَٰمَىٰ وَٱلْمَسَٰكِينَ﴾[البقرة: ١٧٧].

وقوله تعالى: ﴿يَسْـَٔلُونَكَ مَاذَا يُنفِقُونَ قُلْ مَآ أَنفَقْتُم مِّنْ خَيْرٍ فَلِلْوَٰلِدَيْنِ وَٱلْأَقْرَبِينَ وَٱلْيَتَٰمَىٰ وَٱلْمَسَٰكِينِ وَٱبْنِ ٱلسَّبِيلِ وَمَا تَفْعَلُوا۟ مِنْ خَيْرٍ فَإِنَّ ٱللَّهَ بِهِۦ عَلِيمٌ﴾[البقرة:٢١٥].

وفرض الله تعالى لهم نصيبًا من الخمس مما يحصل عليه المسلمون من الغنائم التي غنموها من قتال الكفار، قال تعالى: ﴿وَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّمَا غَنِمْتُم مِّن شَىْءٍ فَأَنَّ لِلَّهِ خُمُسَهُۥ وَلِلرَّسُولِ وَلِذِى ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْيَتَٰمَىٰ وَٱلْمَسَٰكِينِ وَٱبْنِ ٱلسَّبِيلِ﴾[الأنفال: ٤١].

وفرض لهم نصيبًا من الفيء؛ وهو كل مال أخذ من الكفار من غير قتال.

قال تعالى: ﴿مَّآ أَفَآءَ ٱللَّهُ عَلَىٰ رَسُولِهِۦ مِنْ أَهْلِ ٱلْقُرَىٰ فَلِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ وَلِذِى ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْيَتَٰمَىٰ وَٱلْمَسَٰكِينِ وَٱبْنِ ٱلسَّبِيلِ﴾[الحشر:٧].

بالإضافة إلى ما يستحقه من أموال الزكاة، قال تعالى: ﴿إِنَّمَا ٱلصَّدَقَٰتُ لِلْفُقَرَآءِ وَٱلْمَسَٰكِينِ وَٱلْعَٰمِلِينَ عَلَيْهَا وَٱلْمُؤَلَّفَةِ قُلُوبُهُمْ وَفِى ٱلرِّقَابِ وَٱلْغَٰرِمِينَ وَفِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَٱبْنِ ٱلسَّبِيلِ فَرِيضَةً مِّنَ ٱللَّهِ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ﴾[التوبة:٦٠].

فاليتيم الفقير يدخل في هذه الآية.

٢. أما إذا كان اليتيم غنيًا فقد حذر الله سبحانه وتعالى من أكل مال اليتامى، أو التهاون فيه، أو التضييع له.

قال تعالى: ﴿وَءَاتُوا۟ ٱلْيَتَٰمَىٰٓ أَمْوَٰلَهُمْ وَلَا تَتَبَدَّلُوا۟ ٱلْخَبِيثَ بِٱلطَّيِّبِ وَلَا تَأْكُلُوٓا۟ أَمْوَٰلَهُمْ إِلَىٰٓ أَمْوَٰلِكُمْ إِنَّهُۥ كَانَ حُوبًا كَبِيرًا﴾[النساء: ٢].

ويدعو سبحانه وتعالى القومة على اليتامى، من أولياء وأوصياء أن يضعوهم دائمًا تحت التجربة والاختبار، لسياسة أموالهم، وتدبيرها بأنفسهم، وذلك بأن يشركوهم معهم في بعض التصرفات، ويطلعوهم على طرق الأخذ والعطاء بين الناس، فقال تعال: ﴿وَٱبْتَلُوا۟ ٱلْيَتَٰمَىٰ حَتَّىٰٓ إِذَا بَلَغُوا۟ ٱلنِّكَاحَ فَإِنْ ءَانَسْتُم مِّنْهُمْ رُشْدًا فَٱدْفَعُوٓا۟ إِلَيْهِمْ أَمْوَٰلَهُمْ وَلَا تَأْكُلُوهَآ إِسْرَافًا وَبِدَارًا أَن يَكْبَرُوا۟﴾

[النساء:٦].

تحذيرًا للأولياء والأوصياء على اليتامى، من أن ينزع بهم الطمع في مال اليتيم إلى استغلاله والمبادرة باجتناء ثمرته لهم، قبل أن يخرج من أيديهم إلى أصحابه اليتامى، عند رشدهم.

وقوله تعالى: ﴿وَمَن كَانَ غَنِيًّا فَلْيَسْتَعْفِفْ وَمَن كَانَ فَقِيرًا فَلْيَأْكُلْ بِالْمَعْرُوفِ فَإِذَا دَفَعْتُمْ إِلَيْهِمْ أَمْوَالَهُمْ فَأَشْهِدُوا عَلَيْهِمْ وَكَفَى بِاللَّهِ حَسِيبًا﴾ [النساء:٦].

وحذر الله تعالى أشد الحذر من أكل أموال اليتامى بالباطل، فقال تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَأْكُلُونَ أَمْوَالَ الْيَتَامَى ظُلْمًا إِنَّمَا يَأْكُلُونَ فِي بُطُونِهِمْ نَارًا وَسَيَصْلَوْنَ سَعِيرًا﴾ [النساء:١٠].

ونالت اليتيمة في القرآن الكريم رعاية خاصة: فالشريعة الإسلامية قد أولت يتامى النساء عناية كبيرة، فكما عالجت مشكلة اليتامى الصغيرات من الناحيتين المادية والاجتماعية -كما سبق بيانه- شأنها في ذلك شأن اليتامى الذكور، عالجت أيضًا مشكلة اليتيمات إذا بلغن سن الزواج، فقال تعالى: ﴿وَإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا تُقْسِطُوا فِي الْيَتَامَى فَانكِحُوا مَا طَابَ لَكُم مِّنَ النِّسَاءِ مَثْنَى وَثُلَاثَ وَرُبَاعَ فَإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا تَعْدِلُوا﴾[النساء:٣].

والمعنى: أما وقد خفتم أيها الأوصياء على اليتامى، أن تأكلوا أموالهم بالباطل، تريدون بهذا مرضاة الله، فإن من تمام هذا الأمر أن تخافوا ظلم اليتيمات في أنفسهن، بعد أن خفتم ظلمهن في مالهن فإن كنتم على خوف من ظلمهن وتريدون أن تجنبوا أنفسكم هذا الموقف، فدعوهن لشأنهن ولا تتزوجوهن وهن في أيديكم، لا يملكون من أمرهن شيئًا، وإن لكم في غيرهن من النساء ما تشاءون مثنى وثلاث ورباع، ففي هذه التوسعة لكم في زواج أكثر من واحدة نعمة من نعم الله عليكم، ومن شكر هذه النعمة ألا تطمع أعينكم إلى اليتيمات، وما في الزواج بهن من حرج.

وعن عروة بن الزبير أنه سأل عائشة عن قول الله تعالى: ﴿وَإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا تُقْسِطُوا فِي الْيَتَامَى﴾ قالت: ياابن أختي هذه اليتيمة تكون في حجر وليها تشركه في ماله ويعجبه مالها وجمالها، فيريد وليها أن يتزوجها بغير أن يقسط في صداقها فيعطيها مثل ما يعطيها غيره، فنهوا أن ينكحوهن، إلا أن يقسطوا إليهن ويبلغوا بهن أعلى سنتهن في الصداق، وأمروا أن ينكحوا ما طاب لهم من النساء سواهن، قال عروة: قالت عائشة رضى الله عنها: وإن الناس استفتوا رسول الله صلى الله عليه وسلم بعد هذه الآية فأنزل الله تعالى: ﴿وَيَسْتَفْتُونَكَ فِي النِّسَاءِ﴾، وقوله: ﴿وَتَرْغَبُونَ أَن تَنكِحُوهُنَّ﴾ رغبة أحدكم عن يتيمته إذا كانت قليلة المال والجمال، فنهوا أن ينكحوا من رغبوا في مالها وجمالها من

النساء إلا بالقسط، من أجل رغبتهم عنهن، إذا كن قليلات المال والجمال[(١)].

ومن ذلك يتضح أن اليتيمة كغيرها من النساء لها الحرية الكاملة في اختيار ما تشاء من الأزواج، ولا تمنع مهرها أو شيئًا منه كسائر النساء، إلا إذا كان ذلك عن رغبتها وإرادتها، ولا يجوز للولي أو غيره إكراهها على شيء من ذلك.

ثالثًا: رعاية حقوق النساء:

إن من استقرأ كتاب الله تعالى وسنة رسوله صلى الله عليه وسلم يدرك مقاصد الإسلام في رعايته للمرأة، وعنايته واهتمامه بكافة قضاياها وعامة شئونها، وفي تقديمه الحلول الصحيحة، والمعالجات الناجحة لكافة مشاكلها الحياتية والفكرية والنفسية أن المرأة بين يدي الإسلام قسيمة الرجل، لها ما لها من الحقوق، وعليها أيضًا من الواجبات ما يلائم تكوينها وفطرتها، وذلك ما أجمله الله عز وجل في قوله: ﴿وَلَهُنَّ مِثْلُ الَّذِي عَلَيْهِنَّ بِالْمَعْرُوفِ وَلِلرِّجَالِ عَلَيْهِنَّ دَرَجَةٌ وَاللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾[البقرة: ٢٢٨].

تلك هي درجة الرعاية والحياطة، ولا يتجاوزها إلى قهر النفس، وجحود الحق. وكما قرن الله سبحانه بينهما في شئون الحياة، كذلك ساوى بينهما في الإنسانية، والموالاة، وتكاليف الإيمان، وحسن المثوبة، وإدخار الأجر، وارتقاء الدرجات العلى في الجنة»[(٢)].

قال تعالى: ﴿إِنَّ الْمُسْلِمِينَ وَالْمُسْلِمَاتِ وَالْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ وَالْقَانِتِينَ وَالْقَانِتَاتِ وَالصَّادِقِينَ وَالصَّادِقَاتِ وَالصَّابِرِينَ وَالصَّابِرَاتِ وَالْخَاشِعِينَ وَالْخَاشِعَاتِ وَالْمُتَصَدِّقِينَ وَالْمُتَصَدِّقَاتِ وَالصَّائِمِينَ وَالصَّائِمَاتِ وَالْحَافِظِينَ فُرُوجَهُمْ وَالْحَافِظَاتِ وَالذَّاكِرِينَ اللَّهَ كَثِيرًا وَالذَّاكِرَاتِ أَعَدَّ اللَّهُ لَهُمْ مَغْفِرَةً وَأَجْرًا عَظِيمًا﴾ [الأحزاب: ٣٥].

ويقرر الإسلام الأهلية الكاملة في تصرفاتها متى بلغت الرشد، فليس لأحد أن يجبرها على ما تكره، ولا أن يكرهها على ما لا تريد، ولا أن يتصرف بغير إذنها فيما تملك، ويضفي عليها من معاني الرعاية والتكريم في كل أدوار حياتها ما هي جديرة به مستحقة له.

قال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا يَحِلُّ لَكُمْ أَنْ تَرِثُوا النِّسَاءَ كَرْهًا وَلَا تَعْضُلُوهُنَّ لِتَذْهَبُوا بِبَعْضِ مَا آتَيْتُمُوهُنَّ إِلَّا أَنْ يَأْتِينَ

(١) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب التفسير، باب (وإن خفتم أن لا تقسطوا في اليتامى)، رقم ٤٥٧٤، ومسلم في صحيحه، كتاب التفسير، باب في قوله تعالى: (وإن خفتم ألا تقسطوا في اليتامى)، وقوله: (يستفتونك في النساء)، رقم ٣٠١٨.

(٢) المرأة بين تكريم الإسلام وإهانة الجاهلية، محمد المقدم ص٧٥.

﴿بِفَٰحِشَةٖ مُّبَيِّنَةٖ﴾[النساء:١٩].

ومن أعظم حقوقها على زوجها: المعاشرة بالمعروف، ولقد كفى وشفى في الأمر بحسن المعاشرة آية جليلة جامعة، فمن ذا الذي يستمع قوله تعالى: ﴿وَعَاشِرُوهُنَّ بِٱلۡمَعۡرُوفِۚ فَإِن كَرِهۡتُمُوهُنَّ فَعَسَىٰٓ أَن تَكۡرَهُواْ شَيۡـٔٗا وَيَجۡعَلَ ٱللَّهُ فِيهِ خَيۡرٗا كَثِيرٗا﴾ [النساء:١٩].

ثم يجفوا امرأته، أو يتسخطها بعد ذلك؟

ولقد شبه الله تعالى حسن القيام على الزوجة بحسن القيام على الوالدين، فقال تعالى في حق الوالدين: ﴿وَصَاحِبۡهُمَا فِي ٱلدُّنۡيَا مَعۡرُوفٗا﴾[لقمان:١٥].

وقال تعالى في حق الزوجات: ﴿وَعَاشِرُوهُنَّ بِٱلۡمَعۡرُوفِ﴾.

قال القرطبي: أي على ما أمر الله به من حسن المعاشرة، والخطاب للجميع، إذ لكل أحدٍ عشرة، زوجًا كان أو وليًا، ولكن المراد بهذا الأمر في الأغلب الأزواج. وذلك توفيه حقها من المهر والنفقة، وألا يعبس في وجهها بغير ذنب، وأن يكون منطلقًا في القول ولا فظًّا ولا غليظًا ولا مظهرًا ميلًا إلى غيرها، وقال ابن كثير رحمه الله في قوله: ﴿وَعَاشِرُوهُنَّ بِٱلۡمَعۡرُوفِ﴾ أي طيبوا أقوالكم لهن وحسنوا أفعالكم وهيآتكم بحسب قدرتكم، كما تحب منها، فافعل أنت بها مثله، كما قال تعالى: ﴿وَلَهُنَّ مِثۡلُ ٱلَّذِي عَلَيۡهِنَّ بِٱلۡمَعۡرُوفِ﴾[البقرة: ٢٢٨][١].

بل جبر خاطر المطلقة بشيء من المال تخفيفًا عن أحزانها، فقال تعالى: ﴿وَلِلۡمُطَلَّقَٰتِ مَتَٰعُۢ بِٱلۡمَعۡرُوفِۖ حَقًّا عَلَى ٱلۡمُتَّقِينَ﴾[البقرة: ٢٤].

وحفظ لها حقها في التعليم، كي تكون على مستوى يجعلها تصوغ لبنات المجتمع على أكمل وجه، فقال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ قُوٓاْ أَنفُسَكُمۡ وَأَهۡلِيكُمۡ نَارٗا وَقُودُهَا ٱلنَّاسُ وَٱلۡحِجَارَةُ﴾[التحريم: ٦].

جاء عن علي رضي الله عنه في تفسيرها: «أدبوهم، وعلموهم»[٢].

وقال تعالى مخاطبًا أمهات المؤمنين رضي الله عنهن: ﴿وَٱذۡكُرۡنَ مَا يُتۡلَىٰ فِي بُيُوتِكُنَّ مِنۡ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ وَٱلۡحِكۡمَةِۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ لَطِيفًا خَبِيرًا﴾[الأحزاب: ٣٤].

رابعًا: حقوق الوالدين ومراعاتهن عند الكبر:

قد كثرت وصايا القرآن الكريم والأحاديث النبوية بالأبوين كليهما إن وجدا، أو بأحدهما إن بقى منفردًا وفارقه الآخر، وذلك في حياتهما وبعد مماتهما:

- **أداء حقهما في حياتهم:**

قال تعالى: ﴿قُلۡ تَعَالَوۡاْ أَتۡلُ مَا حَرَّمَ رَبُّكُمۡ عَلَيۡكُمۡۖ أَلَّا تُشۡرِكُواْ بِهِۦ شَيۡـٔٗاۖ

(١) انظر: المصدر السابق ص٣٩٥-٣٦٠.
(٢) زاد المسير، ابن الجوزي ٤/ ٨٣.

﴿وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا﴾ [الأنعام: ١٥١].

وقوله تعالى: ﴿وَقَضَىٰ رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا إِيَّاهُ وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا ۚ إِمَّا يَبْلُغَنَّ عِندَكَ الْكِبَرَ أَحَدُهُمَا أَوْ كِلَاهُمَا فَلَا تَقُل لَّهُمَا أُفٍّ وَلَا تَنْهَرْهُمَا وَقُل لَّهُمَا قَوْلًا كَرِيمًا﴾ [الإسراء:٢٣].

فإذا كان الوحدانية برًا بالخالق، فإن الإحسان إلى الوالدين برٌ بمن جعلهم الله سببًا ماديًا في وجود الولد. والوصية بهما هي الإحسان إليهما.

وقال تعالى: ﴿وَقَضَىٰ رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا إِيَّاهُ وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا﴾[الإسراء:٢٣].

وإن الأمر بالإحسان يتضمن النهي عن الإساءة.يقول صاحب تفسير المنار: «ولو لم يرد في التنزيل إلا قوله تعالى:﴿وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا﴾ ولو غير مكرر لكفى في الدلالة على عظم عناية الشرع بأمر الوالدين بما تدل عليه الصيغة والتعدية فكيف وقد قرنه بعبادته وجعله ثانيها في الوصايا وأكده بما أكده به في سورة الإسراء كما قرن شكرهما بشكره في وصية سورة لقمان فقال:﴿أَنِ اشْكُرْ لِي وَلِوَالِدَيْكَ﴾[لقمان:١٤].

ذلك كله بأن حق الوالدين على الولد أكبر من جميع حقوق الخلق عليهم، فمن قصر في بر والديه والإحسان بهما كان فاسد الفطرة مضياعًا للحقوق كلها فلا يرجى منه خير لأحد»[(١)].

وعلى ذلك تتفق الآيات القرآنية على واجب رعاية الوالدين والإحسان إليهما، وتحريم عقوقهما، والإلزام ببرهما، وترك إغضابهما وإيذائهما، والتضييق عليهما، ولا نجد ترغيبًا في أمر خلقي في القرآن الكريم أكثر من الترغيب في بر الوالدين والأمر به، والتحذير من العقوق، الذي يأتي دائمًا بعد الأمر بعبادة الله وتحريم الشرك.

وتوالت الأحاديث النبوية الكثيرة في تأكيد الأمر ببر الوالدين والإحسان إليهما، فعن أبي عبدالرحمن عبدالله بن مسعود رضي الله عنه قال: (سألت النبي صلى الله عليه وسلم: أي العمل أحب إلى الله تعالى؟ قال: (الصلاة على وقتها)، قلت: ثم أي؟ قال: (بر الوالدين) قلت: ثم أي؟ قال: (الجهاد في سبيل الله)[(٢)].

فبر الوالدين أفضل حقوق الناس، وأداء فريضة الصلاة في وقتها أفضل حقوق الله، وتقدمت منزلة بر الوالدين في هذا الحديث الشريف على منزلة الجهاد في سبيل الله، الذي هو ذروة سنام الإسلام. ولضعف الأم جعلها الشرع في الترتيب بينها وبين الأب مقدمة في البر بمراتب ثلاث، والأب بعدها في المرتبة الرابعة.

(١) المنار، محمد رشيد رضا ٨/ ١٤٨.
(٢) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب الأدب، باب البر والصلة، رقم ٥٩٧٠.

فعن أبي هريرة رضي الله عنه قال: (جاء رجل إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال: من أحق الناس بحسن صحابتي؟ - أي صحبتي- قال: (أمك)، قال: ثم من؟ قال: (أمك) قال: ثم من؟ قال: (أمك) قال: ثمن من؟ قال: (أبوك)[(١)].

والحاجة إلى الإحسان للأبوين أشد في حال الكبر والعجز أو الضعف من أي وقت آخر.

قال تعالى: ﴿إِمَّا يَبْلُغَنَّ عِندَكَ ٱلْكِبَرَ أَحَدُهُمَآ أَوْ كِلَاهُمَا فَلَا تَقُل لَّهُمَآ أُفٍّ وَلَا تَنْهَرْهُمَا وَقُل لَّهُمَا قَوْلًا كَرِيمًا وَٱخْفِضْ لَهُمَا جَنَاحَ ٱلذُّلِّ مِنَ ٱلرَّحْمَةِ وَقُل رَّبِّ ٱرْحَمْهُمَا كَمَا رَبَّيَانِي صَغِيرًا﴾ [الإسراء:٢٣-٢٤].

قال القرطبي رحمه الله: «خص حالة الكبر لأنها الحالة التي يحتاجان فيها إلى بره لتغير الحال عليهما بالضعف والكبر، فألزم في هذه الحالة من مراعاة أحوالهما أكثر مما ألزمه من قبل، لأنهما في هذه الحالة قد صارا كلا عليه، فيحتاجان أن يلي منهما في الكبر ما كان يحتاج في صغره أن يليا منه، فلذلك خص هذه الحالة بالذكر، وأيضًا: فطول المكث للمرء يوجب الاستقال للمرء عادة، ويحصل الملل ويكثر الضجر فيظهر غضبه على أبويه، وتنتفخ أوداجه، ويستطيل عليهما بدالة البنوة وقلة الديانة، وأقل المكروه ما يظهره بتنفسه المتردد من الضجر، وقد أمر أن يقابلهما بالقول الموصوف بالكرامة وهو السالم عن كل عيب»[(٢)].

ولا يختص بر الوالدين بأن يكونا مسلمين، بل إن كانا كافرين يبرهما ويحسن إليهما إذا كان لهما عهد[(٣)].

قال تعالى: ﴿لَّا يَنْهَىٰكُمُ ٱللَّهُ عَنِ ٱلَّذِينَ لَمْ يُقَٰتِلُوكُمْ فِى ٱلدِّينِ وَلَمْ يُخْرِجُوكُم مِّن دِيَٰرِكُمْ أَن تَبَرُّوهُمْ وَتُقْسِطُوٓاْ إِلَيْهِمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُقْسِطِينَ﴾ [الممتحنة: ٨].

وعن أسماء قالت: (قدمت أمي وهي مشركة في عهد قريش ومدتهم إذا عاهدوا النبي صلى الله عليه وسلم مع أبيها، فاستفيت النبي صلى الله عليه وسلم: إن أمي قدمت وهي راغبة[(٤)] أفأصلها؟ قال: نعم صلي أمك)[(٥)].

وجاءت السنة النبوية مؤكدة تحريم العقوق، فعن أبي بكرة بن الحارث رضي الله عنه، قال: قال رسول الله صلى الله عليه

(١) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب الأدب، باب البر والصلة، رقم ٥٩٧١، ومسلم في صحيحه، كتاب البر والصلة، باب في بر الوالدين وأيهما أحق بحسن الصحبة، رقم ٢٥٤٨.

(٢) الجامع لأحكام القرآن ٥/ ٥٧٧.

(٣) المصدر السابق ٥/ ٥٧٦.

(٤) راغبة: أي طامعة في برى تسألني شيئًا. انظر: النهاية في غريب الحديث، ابن الأثير ٢/ ٢٣٧.

(٥) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب الجزية باب إثم من عاهد ثم غدر، رقم ٣١٨٣.



وسلم: (ألا أنبئكم بأكبر الكبائر ثلاثًا؟ قلنا: بلى يارسول الله، قال: الإشراك بالله وعقوق الوالدين. وكان متكئًا فجلس فقال: ألا وقول الزور، وشهادة الزور، فما زال يكررها حتى قلنا ليته سكت)[1].

فجاء العقوق في ترتيب الجرائم بعد الشرك بالله عز وجل فكما أن بر الوالدين جاء بعد الأمر بالتوحيد في أعمال البر، فكذلك ففي المقابل جاء النهي عن العقوق وبيان خطره بعد النهي عن الشرك. وعن أبي هريرة رضي الله عنه، عن النبي صلى الله عليه وسلم قال: (رغم أنف، ثم رغم أنف، ثم رغم أنف: من أدرك أبويه عند الكبر، أحدهما أو كلاهما فلم يدخل الجنة)[2].

أي: التصق بالرغام وهو التراب، وهو دعاء عليه بالذل والفقر، ودليل على أن عقوق الوالدين أو إيذاءهما أو ضربهما من الكبائر الموجبة لدخول النار.

حقوق في الدنيا ومستمرة بعد الممات:

قد جعل الإسلام البر والإحسان إلى الوالدين موصولًا بعد مماتهم أيضًا وهذا لعظم حقهما، فمن ذلك: الاستغفار للوالدين وطلب الرحمة لهما في حياتهما وبعد الممات، فهذا نبي الله نوح عليه السلام يدعو ربه قائلًا: ﴿رَّبِّ ٱغْفِرْ لِى وَلِوَٰلِدَىَّ وَلِمَن دَخَلَ بَيْتِىَ مُؤْمِنًا وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ وَلَا تَزِدِ ٱلظَّٰلِمِينَ إِلَّا تَبَارًۢا﴾[نوح: ٢٨].

وقال تعالى: ﴿وَقُل رَّبِّ ٱرْحَمْهُمَا كَمَا رَبَّيَانِى صَغِيرًا﴾[الإسراء:٢٤].

فأمر الله عز وجل الأبناء بالترحم على آبائهم والدعاء لهم، وأن ترحمهما كما رحماك وترفق بهما كما رفقا بك[3].

وقال صلى الله عليه وسلم: (إذا مات ابن آدم انقطع عمله إلا من ثلاث: أو ولد صالح يدعو له)[4].

حقوق بعد الممات:

ومن ذلك: أداء الدين الذي عليهما، فعن ابن عباس رضي الله عنهما: (أن امرأة من جهينة جاءت إلى النبي صلى الله عليه وسلم فقالت: إن أمي نذرت أن تحج فلم تحج حتى ماتت، أفأحج عنها؟ قال: (نعم حجي عنها، أرأيت لو كان على أمك دين أكنت قاضيته؟ اقضوا الله، فالله أحق بالوفاء)[5].

ومن ذلك: الصدقة الجارية، فالصدقة

(١) أخرجه البخاري كتاب الأدب، باب عقوق الوالدين من الكبائر، رقم ٥٩٧٥، ومسلم في صحيحه، كتاب الإيمان، باب أكبر الكبائر الإشراك بالله، رقم ٨٧.

(٢) أخرجه مسلم في صحيحه، كتاب البر والصلة، باب رغم أنف من أدرك أبويه أو أحدهما عند الكبر فلم يدخل الجنة، رقم ٢٥٥١.

(٣) انظر: الجامع لأحكام القرآن ٥/ ٥٨٠.

(٤) أخرجه مسلم في صحيحه، كتاب الوقف، باب ما يلحق الإنسان ثوابه بعده، رقم ١٦٣١.

(٥) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب جزاء الصيد، باب الحج والنذور عن الميت والرجل يحج عن المرأة، رقم ١٨٥٢.

عن الميت يصل ثوابها إليه، فعن ابن عباس رضي الله عنهما، أن رجلًا[1] قال لرسول الله صلى الله عليه وسلم: إن أمه توفيت أينفعها إن تصدقت عنها؟ قال: (نعم)، قال: فإني لي مخرافًا، فأنا أشهدك أني قد تصدقت به عنها[2].

ومن ذلك: الصوم عنهما، فيجوز الصيام عنهما إذا ماتا وعليهما صيام، فعن ابن عباس رضي الله عنهما قال: جاءت امرأة إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم فقالت: يارسول الله، إن أمي ماتت وعليها صوم نذر أفأصوم عنها؟ قال: (أرأيت لو كان على أمك دين فقضيته أكان يؤدي ذلك عنها؟) قالت: نعم، قال: (فصومي عن أمك)[3].

ومن ذلك: الحج والعمرة عن الوالدين، فيستحب الحج والعمرة عن الوالدين إذا ماتا أو كانا كبيرين لا يستطيعان الحج، فعن أبي رزين أنه قال: يارسول الله، إن أبي شيخ كبير لا يستطيع الحج ولا العمرة ولا الظعن، قال: (احجج عن أبيك واعتمر)[4].

(١) في بعض الروايات عند البخاري رقم ٢٧٦٢: أن هذا الرجل هو سعد بن عبادة رضي الله عنه.

(٢) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب الوصايا، باب إذا وقف أرضًا ولم يبين الحدود فهو جائز، رقم ٢٧٧٠.

(٣) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب الصوم، باب من مات وعليه صوم، رقم ١٩٥٢.

(٤) أخرجه أبوداود في سننه، كتاب المناسك، باب الرجل يحج عنه غيره، ٢/ ١٦٢، رقم ١٨١٠. وصححه الألباني في صحيح الجامع، ١/ ٩٩، رقم ١٨٨.

٢. حقوق أصحاب الضعف الطارئ:

أولًا: الفقراء والمساكين وغيرهم من المحتاجين:

الفقير من لا مال له ولا كسب يقع موقعًا من حاجته، من الفقار كأنه أصيب فقاره، والمسكين من له مال أو كسب لا يكفيه، من السكون كأن العجز أسكنه[5].

وهؤلاء الفقراء والمساكين ومن شابههم من المحتاجين كالسائل وابن السبيل والغارمين طائفة من الناس ينبغي العناية بهم واحترامهم ورعايتهم، حتى لا يتحولوا عالة على الناس أو ضررًا على الأمة أو تنشأ عقدة في نفوسهم، كما ينبغي أن يشعروا أنهم مثل غيرهم من الأفراد، لذا توالت الوصايا القرآنية والنبوية في حقهم: فبين سبحانه وتعالى أن هذه الرعاية لهؤلاء الفقراء والمساكين تقوم على أن المال مال الله، وأن العباد مستخلفون فيه، أعطاه الله لهم.

قال تعالى: ﴿ءَامِنُوا بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَأَنفِقُوا مِمَّا جَعَلَكُم مُّسْتَخْلَفِينَ فِيهِ ۖ فَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا مِنكُمْ وَأَنفَقُوا لَهُمْ أَجْرٌ كَبِيرٌ﴾[الحديد:٧].

وذكر سبحانه وتعالى أنه هو الذي يبسط الرزق على من يشاء ويضيق على من يشاء:

(٥) التفسير المنير، الزحيلي ٥/ ٦١٢.

﴿قُلْ إِنَّ رَبِّي يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَن يَشَاءُ وَيَقْدِرُ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾[سبأ: ٣٦].

لذا يجب عليهم الالتزام بأوامر وتوجيهات المالك الأصلي للمال الموزع للأرزاق بعلمه وقدرته. فدعا سبحانه وتعالى إلى الجلوس معهم ورعايتهم وملاطفتهم، فقال تعالى: ﴿وَاصْبِرْ نَفْسَكَ مَعَ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُم بِالْغَدَاةِ وَالْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُ وَلَا تَعْدُ عَيْنَاكَ عَنْهُمْ تُرِيدُ زِينَةَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا﴾[الكهف: ٢٨].

وفرض الله عز وجل الزكاة وفاء بحاجات المحتاجين، وتحقيقًا لمصالح المجتمع، والزكاة مورد مالي ضخم حيث تعتبر من أهم موارد الدخل للفقراء والمساكين والمحتاجين من أصحاب الديون وغيرهم، فقال تعالى: ﴿إِنَّمَا الصَّدَقَاتُ لِلْفُقَرَاءِ وَالْمَسَاكِينِ وَالْعَامِلِينَ عَلَيْهَا وَالْمُؤَلَّفَةِ قُلُوبُهُمْ وَفِي الرِّقَابِ وَالْغَارِمِينَ وَفِي سَبِيلِ اللَّهِ وَابْنِ السَّبِيلِ فَرِيضَةً مِّنَ اللَّهِ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ﴾[التوبة: ٦٠].

وقال تعالى: ﴿وَفِي أَمْوَالِهِمْ حَقٌّ لِّلسَّائِلِ وَالْمَحْرُومِ﴾[الذاريات: ١٩].

ومن شأن اعتبار ذلك حقًا وليس منة أن لا يحس الفقراء والمساكين بالعار عندما يأخذون الصدقات من الأغنياء لأنهم بنص القرآن يأخذون حقهم مثل الشريك يأخذ حقه في الربح من شركه. وكذلك عند قسمة الميراث إذا حضر القسمة الأقارب والفقراء والمساكين الذين لا حظ لهم في الميراث ولا مال لهم، فطيب خاطرهم بجزءٍ من المال أو جزءٍ التركة، قال تعالى: ﴿وَإِذَا حَضَرَ الْقِسْمَةَ أُولُو الْقُرْبَىٰ وَالْيَتَامَىٰ وَالْمَسَاكِينُ فَارْزُقُوهُم مِّنْهُ وَقُولُوا لَهُمْ قَوْلًا مَّعْرُوفًا﴾[النساء: ٨].

ولم يكتف التشريع القرآني بفرض حقوق مالية للفقراء والمساكين في أموال الأغنياء فحسب، بل فرض على المخالفين لأحكامه الشرعية أن يدفعوا جزءًا من مالهم عند كل مخالفة لأحكام الشريعة حدد لها كفارة تكفيرًا عن تلك المخالفة، من ذلك:كفارة اليمين.

قال تعالى: ﴿لَا يُؤَاخِذُكُمُ اللَّهُ بِاللَّغْوِ فِي أَيْمَانِكُمْ وَلَٰكِن يُؤَاخِذُكُم بِمَا عَقَّدتُّمُ الْأَيْمَانَ فَكَفَّارَتُهُ إِطْعَامُ عَشَرَةِ مَسَاكِينَ مِنْ أَوْسَطِ مَا تُطْعِمُونَ أَهْلِيكُمْ أَوْ كِسْوَتُهُمْ﴾[المائدة:٨٩].

ومنها: كفارة الظهار، قال تعالى: ﴿فَمَن لَّمْ يَسْتَطِعْ فَإِطْعَامُ سِتِّينَ مِسْكِينًا﴾[المجادلة: ٤].

ومنها: كفارة التمتع في الحج، قال تعالى: ﴿فَمَن تَمَتَّعَ بِالْعُمْرَةِ إِلَى الْحَجِّ فَمَا اسْتَيْسَرَ مِنَ الْهَدْيِ﴾[البقرة: ١٩٦].

ومنها: كفارة قتل الصيد في الحج، قال تعالى: ﴿وَمَن قَتَلَهُ مِنكُم مُّتَعَمِّدًا فَجَزَاءٌ مِّثْلُ مَا قَتَلَ مِنَ النَّعَمِ يَحْكُمُ بِهِ ذَوَا عَدْلٍ مِّنكُمْ هَدْيًا بَالِغَ الْكَعْبَةِ أَوْ كَفَّارَةٌ طَعَامُ مَسَاكِينَ أَوْ عَدْلُ ذَٰلِكَ

﴿صِيَامًا لِّيَذُوقَ وَبَالَ أَمْرِهِ﴾[المائدة: ٩٥].

وشرع تبارك وتعالى الفدية لمن لم يتمكن من العباد المكلفين من القيام ببعض ما افترض الله عليهم أو لمن لا يتمكن من أدائه على الوجه الأكمل، فقد أباح لهم الفطر ورخصة لهم مقابل فدية.

قال تعالى: ﴿وَعَلَى الَّذِينَ يُطِيقُونَهُ فِدْيَةٌ طَعَامُ مِسْكِينٍ فَمَن تَطَوَّعَ خَيْرًا فَهُوَ خَيْرٌ لَّهُ وَأَن تَصُومُوا خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ [البقرة:١٨٤].

وشرع لهم الأضاحي والهدى فقال تعالى: ﴿لِّيَشْهَدُوا مَنَافِعَ لَهُمْ وَيَذْكُرُوا اسْمَ اللَّهِ فِي أَيَّامٍ مَّعْلُومَاتٍ عَلَىٰ مَا رَزَقَهُم مِّن بَهِيمَةِ الْأَنْعَامِ فَكُلُوا مِنْهَا وَأَطْعِمُوا الْبَائِسَ الْفَقِيرَ﴾[الحج: ٢٨].

وقال تعالى: ﴿وَالْبُدْنَ جَعَلْنَاهَا لَكُم مِّن شَعَائِرِ اللَّهِ لَكُمْ فِيهَا خَيْرٌ فَاذْكُرُوا اسْمَ اللَّهِ عَلَيْهَا صَوَافَّ فَإِذَا وَجَبَتْ جُنُوبُهَا فَكُلُوا مِنْهَا وَأَطْعِمُوا الْقَانِعَ وَالْمُعْتَرَّ﴾[الحج: ٣٦].

أي: الفقير الذي لا يسأل تقنعًا، وتعففًا، والفقير الذي يسأل، فكل منهما له حق فيهما[(١)].

وشرع لهم الحقوق التطوعية من الأموال، كالصدقات في قوله تعالى: ﴿إِن تُبْدُوا الصَّدَقَاتِ فَنِعِمَّا هِيَ وَإِن تُخْفُوهَا وَتُؤْتُوهَا الْفُقَرَاءَ فَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ﴾[البقرة:٢٧١].

وفي الغنيمة للفقراء والمساكين، قال تعالى: ﴿وَاعْلَمُوا أَنَّمَا غَنِمْتُم مِّن شَيْءٍ فَأَنَّ لِلَّهِ خُمُسَهُ وَلِلرَّسُولِ وَلِذِي الْقُرْبَىٰ وَالْيَتَامَىٰ وَالْمَسَاكِينِ وَابْنِ السَّبِيلِ﴾[الأنفال: ٤١].

وفي الفيء في قوله تعالى: ﴿مَّا أَفَاءَ اللَّهُ عَلَىٰ رَسُولِهِ مِنْ أَهْلِ الْقُرَىٰ فَلِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ وَلِذِي الْقُرْبَىٰ وَالْيَتَامَىٰ وَالْمَسَاكِينِ وَابْنِ السَّبِيلِ كَيْ لَا يَكُونَ دُولَةً بَيْنَ الْأَغْنِيَاءِ مِنكُمْ﴾[الحشر:٧].

وفي النفقات والإحسان إليهم، قال تعالى: ﴿يَسْأَلُونَكَ مَاذَا يُنفِقُونَ قُلْ مَا أَنفَقْتُم مِّنْ خَيْرٍ فَلِلْوَالِدَيْنِ وَالْأَقْرَبِينَ وَالْيَتَامَىٰ وَالْمَسَاكِينِ وَابْنِ السَّبِيلِ وَمَا تَفْعَلُوا مِنْ خَيْرٍ فَإِنَّ اللَّهَ بِهِ عَلِيمٌ﴾[البقرة: ٢١٥].

وجعل من أسباب المغفرة، الإنفاق على الضعفاء من اليتامى والمساكين، فقال تعالى: ﴿فَلَا اقْتَحَمَ الْعَقَبَةَ (١١) وَمَا أَدْرَاكَ مَا الْعَقَبَةُ (١٢) فَكُّ رَقَبَةٍ (١٣) أَوْ إِطْعَامٌ فِي يَوْمٍ ذِي مَسْغَبَةٍ (١٤) يَتِيمًا ذَا مَقْرَبَةٍ (١٥) أَوْ مِسْكِينًا ذَا مَتْرَبَةٍ (١٦) ثُمَّ كَانَ مِنَ الَّذِينَ آمَنُوا وَتَوَاصَوْا بِالصَّبْرِ وَتَوَاصَوْا بِالْمَرْحَمَةِ (١٧) أُولَٰئِكَ أَصْحَابُ الْمَيْمَنَةِ﴾[البلد:١١ - ١٨].

وذكر تعالى أنه يسلط عقوبته في الحياة الدنيا على من منع إعطاء حق المساكين والفقراء، فقال تعالى: ﴿إِنَّا بَلَوْنَاهُمْ كَمَا بَلَوْنَا أَصْحَابَ الْجَنَّةِ إِذْ أَقْسَمُوا لَيَصْرِمُنَّهَا مُصْبِحِينَ (١٧) وَلَا يَسْتَثْنُونَ (١٨) فَطَافَ عَلَيْهَا طَائِفٌ مِّن رَّبِّكَ وَهُمْ نَائِمُونَ (١٩) فَأَصْبَحَتْ كَالصَّرِيمِ (٢٠) فَتَنَادَوْا مُصْبِحِينَ (٢١) أَنِ اغْدُوا عَلَىٰ حَرْثِكُمْ إِن كُنتُمْ صَارِمِينَ (٢٢) فَانطَلَقُوا وَهُمْ يَتَخَافَتُونَ

---

(١) تيسير الكريم الرحمن ص٢٨٥.

﴿أَن لَّا يَدْخُلَنَّهَا الْيَوْمَ عَلَيْكُم مِّسْكِينٌ ﴿٢٤﴾ وَغَدَوْا عَلَىٰ حَرْدٍ قَادِرِينَ ﴿٢٥﴾ فَلَمَّا رَأَوْهَا قَالُوا إِنَّا لَضَالُّونَ ﴿٢٦﴾ بَلْ نَحْنُ مَحْرُومُونَ﴾[القلم:١٧ - ٢٧].

وقد ذم الكفار لاتصافهم بترك إطعام المسكين ترهيبًا لمن يحذو حذوهم، فقال تعالى: ﴿إِنَّهُ كَانَ لَا يُؤْمِنُ بِاللَّهِ الْعَظِيمِ ﴿٣٣﴾ وَلَا يَحُضُّ عَلَىٰ طَعَامِ الْمِسْكِينِ﴾[الحاقة: ٣٣-٣٤].

وذكر أن من ترك الإنفاق عليهم والاهتمام بإطعامهم، من أوصاف أهل النار، فقال تعالى: ﴿إِلَّا أَصْحَابَ الْيَمِينِ ﴿٣٩﴾ فِي جَنَّاتٍ يَتَسَاءَلُونَ ﴿٤٠﴾ عَنِ الْمُجْرِمِينَ ﴿٤١﴾ مَا سَلَكَكُمْ فِي سَقَرَ ﴿٤٢﴾ قَالُوا لَمْ نَكُ مِنَ الْمُصَلِّينَ ﴿٤٣﴾ وَلَمْ نَكُ نُطْعِمُ الْمِسْكِينَ﴾[المدثر: ٣٩ -٤٤].

ثانيًا: الضعفاء لأسباب بدنية (أولوا الضرر):

لا شك أن منزلة ذوي الاحتياجات الخاصة من مبادئ الإسلام كسائر ما ينزل بساحة الفرد أو الجماعة من المسلمين من إبتلاء، وبمقتضى العقيدة الإسلامية ينبغي استقباله على أنه قدر الله عز وجل المكتوب في الأزل لا راد له إلا هو.

قال تعالى: ﴿وَلَنَبْلُوَنَّكُم بِشَيْءٍ مِّنَ الْخَوْفِ وَالْجُوعِ وَنَقْصٍ مِّنَ الْأَمْوَالِ وَالْأَنفُسِ وَالثَّمَرَاتِ ۗ وَبَشِّرِ الصَّابِرِينَ ﴿١٥٥﴾ الَّذِينَ إِذَا أَصَابَتْهُم مُّصِيبَةٌ قَالُوا إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّا إِلَيْهِ رَاجِعُونَ ﴿١٥٦﴾ أُولَٰئِكَ عَلَيْهِمْ صَلَوَاتٌ مِّن رَّبِّهِمْ وَرَحْمَةٌ ۖ وَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُهْتَدُونَ﴾

[البقرة: ١٥٥-١٥٧].

وقد أولى الإسلام ذوي الاحتياجات الخاصة عناية فائقة، وراعي ظروفهم واعتني بشئونهم، وأوجب عليهم من العطف واللطف مالم يفعله مع غيرهم، فجعل لهم أسس لمعاملتهم، وطرق الإنفاق عليهم، كما يتجلى ذلك في القرآن الكريم والسنة النبوية، نذكر منها:

❁ على المستوى النفسي:

فقد اهتم الإسلام بهذا الجانب اهتمامًا كبيرًا فحفظ لهم هذا الاعتبار الأدبي في أحكام الشرع ما ورد من النهي عن السخرية من الآخرين والتنابز بالألقاب، قال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا يَسْخَرْ قَوْمٌ مِّن قَوْمٍ عَسَىٰ أَن يَكُونُوا خَيْرًا مِّنْهُمْ وَلَا نِسَاءٌ مِّن نِّسَاءٍ عَسَىٰ أَن يَكُنَّ خَيْرًا مِّنْهُنَّ ۖ وَلَا تَلْمِزُوا أَنفُسَكُمْ وَلَا تَنَابَزُوا بِالْأَلْقَابِ ۖ بِئْسَ الِاسْمُ الْفُسُوقُ بَعْدَ الْإِيمَانِ﴾[الحجرات: ١١].

والتنابز بالألقاب: هو دعاء المرء صاحبه بما يكرهه من اسم أو صفة، وعم الله تعالى بنهيه ذلك ولم يخصص به بعض الألقاب دون بعض، فغير جائز لأحد من المسلمين أن ينبز أخاه باسم يكرهه، أو صفة يكرهها[(١)].

ولا شك أن مناداة صاحب الاحتياجات الخاصة بها من أكره الأشياء إلى قلبه.

❁ على المستوى البدني:

(١) سيول النفحات في تفسير سورة الحجرات، محمد ضيف الله ص٦٦.

لقد وضع الإسلام عن ذوي الاحتياجات الخاصة كثيرًا من التكاليف وخفف عنهم في أخرى، كما دلت على ذلك أحكام كثيرة وشواهد عديدة، كسبب نزول قوله تعالى: ﴿لَّا يَسْتَوِى الْقَاعِدُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ غَيْرُ أُولِى الضَّرَرِ وَالْمُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ فَضَّلَ اللَّهُ الْمُجَاهِدِينَ بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ﴾ [النساء: ٩٥].

فعن سهل بن سعد الساعدي أنه رأى مروان بن الحكم في المسجد، فأقبلت حتى جلست إلى جنبه، فأخبرنا أن زيد بن ثابت أخبره: (أن رسول الله صلى الله عليه وسلم أملى عليه: ﴿لَّا يَسْتَوِى الْقَاعِدُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ غَيْرُ أُولِى الضَّرَرِ وَالْمُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ﴾ [النساء:٩٥].

فجاءه ابن أم مكتوم وهو يملها علي قال: يارسول الله، والله لو استطيع الجهاد لجاهدت-وكان أعمى- فأنزل الله على رسوله صلى الله عليه وسلم وفخذه على فخذي، فثقلت علي حتى خفت أن ترض فخذي، ثم سري عنه فأنزل الله: ﴿غَيْرُ أُولِى الضَّرَرِ﴾)[1].

ومعنى الآية الكريمة: لا يعتدل المتخلفون عن الجهاد في سبيل الله من أهل الإيمان بالله وبرسوله، المؤثرون الدعة والخفض والقعود في منازلهم على مقاساة حزونة الأسفار والسير في الأرض، ومشقة ملاقاة أعداء الله بجهادهم في ذات الله، وقتالهم في طاعة الله، إلا أهل العذر منهم بذهاب أبصارهم، وغير ذلك من العلل التي لا سبيل لأهلها - للضرر الذي بهم- إلى قتالهم وجهادهم في سبيل الله[2].

وخفف الشارع الحكيم عليهم من بعض التكاليف الشرعية بما يوافق حالهم ويناسب ضعفهم ويتماشى مع إعاقتهم أو إصابتهم، ومن ذلك قوله تعالى: ﴿لَّيْسَ عَلَى الضُّعَفَاءِ وَلَا عَلَى الْمَرْضَىٰ وَلَا عَلَى الَّذِينَ لَا يَجِدُونَ مَا يُنفِقُونَ حَرَجٌ إِذَا نَصَحُوا لِلَّهِ وَرَسُولِهِ ۚ مَا عَلَى الْمُحْسِنِينَ مِن سَبِيلٍ ۚ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ [التوبة: ٩١].

ومعنى الآية: ليس على الضعفاء العاجزين عن القتال لعلة في تكوينهم، أو لشيخوخة تقعدهم، ولا على المرضى الذين لا يستطيعون الحركة والجهد، ولا على المعدمين الذين لا يجدون ما يتزودون به ليس على هؤلاء حرج إذا تخلفوا عن المعركة في الميدان، وقلوبهم مخلصة لله ورسوله، لا يغشون ولا يخدعون، ويقومون بعد ذلك بما يستطيعونه-دون القتال- من حراسة أو صيانة أو قيام على النساء والذرية في دار الإسلام، أو أعمال أخرى تعود

(١) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب التفسير، باب (لا يستوي القاعدون من المؤمنين)، رقم ٤٥٩٢.

(٢) التسهيل لتأويل التنزيل، سورة النساء، مصطفى بن العدوي ٢/ ٢١٨.

بالنفع على المسلمين. ليس عليهم جناح، وهم يحسنون بقدر ما يستطيعون. وقوله تعالى: ﴿لَّيْسَ عَلَى الْأَعْمَىٰ حَرَجٌ وَلَا عَلَى الْأَعْرَجِ حَرَجٌ وَلَا عَلَى الْمَرِيضِ حَرَجٌ﴾[الفتح: ١٧].

فالأعمى والأعرج معهما عذر دائم هو العجز المستمر عن تكاليف الخروج والجهاد، والمريض معه عذر موقوت بمرضه حتى يبرأ.

❁ وعلى المستوى الاجتماعي:

وكفى بهذه المكانة الاجتماعية لذوي الاحتياجات الخاصة من خلال حدث مهم سجله القرآن الكريم في قوله تعالى: ﴿عَبَسَ وَتَوَلَّىٰ ﴿١﴾ أَن جَاءَهُ الْأَعْمَىٰ ﴿٢﴾ وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّهُ يَزَّكَّىٰ ﴿٣﴾ أَوْ يَذَّكَّرُ فَتَنفَعَهُ الذِّكْرَىٰ ﴿٤﴾ أَمَّا مَنِ اسْتَغْنَىٰ ﴿٥﴾ فَأَنتَ لَهُ تَصَدَّىٰ ﴿٦﴾ وَمَا عَلَيْكَ أَلَّا يَزَّكَّىٰ ﴿٧﴾ وَأَمَّا مَن جَاءَكَ يَسْعَىٰ ﴿٨﴾ وَهُوَ يَخْشَىٰ ﴿٩﴾ فَأَنتَ عَنْهُ تَلَهَّىٰ ﴿١٠﴾﴾[عبس: ١-١٠].

سبب نزول هذه الآيات الكريمات، أنه جاء رجل من المؤمنين أعمى يسأل النبي صلى الله عليه وسلم ويتعلم منه، وهو عبدالله ابن أم مكتوم رضي الله عنه، وجاء النبي صلى الله عليه وسلم رجل من الأغنياء، وكان صلى الله عليه وسلم حريصًا على هداية الخلق، فمال صلى الله عليه وسلم، وأصغى إلى الغني، وصد عن الأعمى الفقير، رجاء لهداية ذلك الغنى، وطمعًا في تزكيته، فعاتبه الله بهذا العتاب اللطيف[1].

ومن المستوى الاجتماعي أيضًا: الدمج والانسجام في المجتمع، فقد حرص الإسلام على الانسجام الاجتماعي من جهة ودمج ذوي الاحتياجات الخاصة في النسيج الاجتماعي.

وهذا ما أكد عليه القرآن في قوله تعالى: ﴿لَّيْسَ عَلَى الْأَعْمَىٰ حَرَجٌ وَلَا عَلَى الْأَعْرَجِ حَرَجٌ وَلَا عَلَى الْمَرِيضِ حَرَجٌ وَلَا عَلَىٰ أَنفُسِكُمْ أَن تَأْكُلُوا مِن بُيُوتِكُمْ أَوْ بُيُوتِ آبَائِكُمْ أَوْ بُيُوتِ أُمَّهَاتِكُمْ أَوْ بُيُوتِ إِخْوَانِكُمْ أَوْ بُيُوتِ أَخَوَاتِكُمْ أَوْ بُيُوتِ أَعْمَامِكُمْ أَوْ بُيُوتِ عَمَّاتِكُمْ أَوْ بُيُوتِ أَخْوَالِكُمْ أَوْ بُيُوتِ خَالَاتِكُمْ أَوْ مَا مَلَكْتُم مَّفَاتِحَهُ أَوْ صَدِيقِكُمْ ۚ لَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَن تَأْكُلُوا جَمِيعًا أَوْ أَشْتَاتًا﴾[النور: ٦١].

والمعنى: أنهم كانوا يتحرجون من الأكل مع الأعمى، لأنه لا يرى الطعام وما فيه من الطيبات، فربما سبقه غيره إلى ذلك ولا مع الأعرج، لأنه لا يتمكن من الجلوس، فيفتات عليه جليسه، والمريض لا يستوفي من الطعام كغيره، فكرهوا أن يؤاكلوهم لئلا يظلموهم، فأنزل الله هذه الآية رخصة في ذلك. قال الضحاك: كانوا قبل البعثة يتحرجون من الأكل مع هؤلاء تقذرًا وتعززًا ولئلا يتفضلوا عليهم، فأنزل الله هذه

(١) تيسير الكريم الرحمن ص ٣٥٤.

الآية[1].

- على المستوى المادي:

فلهم في أموال القادرين حق معلوم يحقق لهم كفايتهم فيكفل لهم مستوى العيش الكريم بتوفير الغذاء والكساء والمسكن والدواء.

قال تعالى: ﴿وَالَّذِينَ فِي أَمْوَالِهِمْ حَقٌّ مَعْلُومٌ ۝ لِلسَّائِلِ وَالْمَحْرُومِ﴾[المعارج: ٢٤-٢٥].

ثانيًا: نصرة الضعفاء والمحتاجين:

النصرة في الدين من الإيمان بالله عز وجل، وقد قال تعالى: ﴿إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ﴾[الحجرات: ١٠].

ونصرة الضعفاء والمحتاجين من الإيمان، قال تعالى: ﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا وَهَاجَرُوا وَجَاهَدُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَالَّذِينَ آوَوْا وَنَصَرُوا أُولَٰئِكَ هُمُ الْمُؤْمِنُونَ حَقًّا ۚ لَهُمْ مَغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ﴾[الأنفال: ٧٤].

بل عقد الله تعالى بينهم وبين هؤلاء الضعفاء عقد موالاة ومحبة فقال: ﴿أُولَٰئِكَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ﴾[الأنفال: ٧٢].

والولاية هي المحبة والمودة والمناصرة، فلقد اهتم الإسلام اهتمامًا كبيرًا بالضعفاء من الفقراء والمساكين وأبناء السبيل وذوي الاحتياجات الخاصة، وحدد الدين الإسلامي مسئولية المسلم نحو مجتمعه وأكد على كرامة الفرد واحترامه وإعطاء كل ذي حق حقه، وأوجب نصرته وعدم خذلانه، لأن ترك النصرة والإعانة شيء شنيع، فلابد من نصرة المسلم للمسلم، كما قال صلى الله عليه وسلم: **(ولينصر الرجل أخاه ظالمًا أو مظلومًا)**[2].

والمعنى: إذا كان مظلومًا أن تأخذ له بحقه، وإذا كان ظالمًا أن تأخذ له من نفسه، وأن تأخذ على يديه، والنصرة هي الإعانة.

وقد أمر الشارع الحكيم بنصرة الضعفاء والمحتاجين وإعطائهم حقوقهم ويكون ذلك بأمور:

منها: الدفاع عنهم وعدم تركهم مع من يؤذيهم: لقوله صلى الله عليه وسلم: **(المسلم أخو المسلم، لا يظلمه، ولا يخذله، ولا يحقره، التقوى هاهنا -ويشير إلى صدره ثلاث مراتٍ- بحسب امرئ من الشر أن يحقر أخاه المسلم، كل المسلم على المسلم حرامٌ دمه وماله وعرضه)**[3].

أي: لا يتركه مع من يؤذيه ولا فيما يؤذيه، بل ينصره ويدفع عنه، وهذا أخص من ترك الظلم، وقد يكون واجبًا وقد يكون مندوبًا

(١) تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ٣/ ٣٠٨.

(٢) أخرجه مسلم في صحيحه، كتاب الظلم، باب لينصر الرجل أخاه ظالمًا أو مظلومًا، رقم ٢٥٨٤.

(٣) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب المظالم والغصب، باب لا يظلم المسلم المسلم ولا يسلمه، رقم ٢٤٤٢، ومسلم في صحيحه، كتاب البر والصلة، باب المسلم أخو المسلم لا يظلمه ولا يخذله، رقم ٢٥٦٤.

بحسب اختلاف الأحوال[1].

ويتجلى رقي الإسلام ونصرته للضعفاء في الحفاظ على كرامة الخادم وعدم إهانته وتوفير مقومات الحياة الكريمة له، وتوفير كل أشكال الحماية لهم من الذين قد يدفعهم المال أو المنصب أو السلطان إلى ظلم عباد الله والإساءة إليهم.

وقد ضرب لنا رسول الله صلى الله عليه وسلم أروع الأمثلة في التعامل معهم واحترام مشاعرهم، وهذا أنس رضي الله عنه يحدثنا عن رحمته وشفقته بالخدم، قال: (كان رسول الله صلى الله عليه وسلم أحسن الناس خلقًا. فأرسلني يومًا لحاجة، فقلت: والله لا أذهب، وفي نفسي أن أذهب لما أمرني به نبي الله صلى الله عليه وسلم، فخرجت حتى أمر على صبيانٍ وهم يلعبون في السوق، فإذا رسول الله صلى الله عليه وسلم قد قبض بقفاي من ورائي، قال: فنظرت إليه وهو يضحك، فقال: ياأنيس أذهبت حيث أمرتك؟ قلت: نعم، أنا أذهب يارسول الله. قال أنس: والله لقد خدمته تسع سنين ما علمته قال لشيءٍ صنعته: لم فعلت كذا وكذا؟ أو لشيءٍ تركته: هلا فعلت كذا وكذا)[2].

ومنها: ستر عيوبهم وقضاء حوائجهم وتنفيس كرباتهم: بين الرسول صلى الله عليه وسلم أن الجزاء من جنس العمل فذكر فضل إعانة المؤمن أخاه المؤمن في الدنيا، وكذلك فضل تفريج كربه، وستر عيبه.

قال تعالى: ﴿مَّن يَشْفَعْ شَفَٰعَةً حَسَنَةً يَكُن لَّهُۥ نَصِيبٌ مِّنْهَا ۖ وَمَن يَشْفَعْ شَفَٰعَةً سَيِّئَةً يَكُن لَّهُۥ كِفْلٌ مِّنْهَا﴾[النساء: ٨٥].

والشفاعة الحسنة: أن توصل الخير إلى الغير، وأن تسعى في قضاء حوائجهم دون أن يأخذوا ما ليس بحقهم، أو أن يعتدوا على حق الغير.

وعن أبي هريرة رضي الله عنه قال، قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: (لا يستر عبدٌ عبدًا في الدنيا إلا ستره الله يوم القيامة)[3].

وعنه أيضًا قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: (من نفس عن مؤمن كربةً من كرب الدنيا، نفس الله عنه كربة من كرب يوم القيامة، ومن يسر على معسر، يسر الله عليه في الدنيا والآخرة، ومن ستر مسلمًا ستره الله في الدنيا والآخرة، والله في عون

---

(١) فتح الباري، ابن حجر ٥/١٣٨.

(٢) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب الوصايا، باب استخدام اليتيم في السفر والحضر إذا كان صلاحًا له، رقم ٢٧٦٨، ومسلم في صحيحه، كتاب فضائل النبي صلى الله عليه وسلم باب كان النبي صلى الله عليه وسلم من أحسن الناس خلقًا، رقم ٢٣٠٩.

(٣) أخرجه مسلم في صحيحه، كتاب البر والصلة، باب الستر على العبد، رقم ٢٥٩٠.

العبد ما كان العبد في عون أخيه)[١].

ومنها: تفعيل دور وسائل الإعلام في رعاية الضعفاء والمحتاجين ونشر قضياهم، والدعوة لنصرتهم وإعانتهم وذلك من خلال توجيه الناس بعدم التحقير والتقليل من شأنهم، لقوله صلى الله عليه وسلم: (إن الله لا ينظر إلى أجسادكم ولا إلى صوركم ولكن إنما ينظر إلى قلوبكم)[٢].

والقيام بذكر قضاياهم وإشهار حقوقهم وتبيين المظالم التي وقعت عليهم، يقول سبحانه وتعالى: ﴿لَّا يُحِبُّ اللَّهُ الْجَهْرَ بِالسُّوٓءِ مِنَ الْقَوْلِ إِلَّا مَن ظُلِمَ ۚ وَكَانَ اللَّهُ سَمِيعًا عَلِيمًا﴾ [النساء:١٤٨].

وما كان النبي صلى الله عليه وسلم يترك أحدًا من أصحابه قريبًا أو بعيدًا إلا ونصره، روي البخاري بسنده، أن أنس ابن مالك حدث (أن الربيع وهي ابنة النضر-وهي عمة أنس- كسرت ثنية جارية، فطلبوا إليها العفو فأبوا، فعرضوا الأرش فأبوا، فأتوا رسول الله صلى الله عليه وسلم وأبوا إلا القصاص، فأمر رسول الله صلى الله عليه وسلم بالقصاص.

فقال أنس بن النضر: يا رسول الله صلى الله عليه وسلم، أتكسر ثنية الربيع؟ لا والذي بعثك بالحق لا تكسر ثنيتها.

فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: (يا أنس كتاب الله القصاص).

فرضي القوم فعفوا، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: (إن من عباد الله من لو أقسم على الله لأبره)[٣].

(١) أخرجه مسلم في صحيحه، كتاب الذكر، باب الاجتماع على تلاوة كتاب الله، رقم ٢٦٩٩.

(٢) أخرجه مسلم في صحيحه، كتاب البر والصلة، باب المسلم أخو المسلم لا يظلمه ولا يخذله، رقم ٢٥٦٤.

(٣) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب الديات، باب السن بالسن، رقم ٦٨٩٤.

الاستضعاف

أولًا: أسباب الاستضعاف:

١ . قلة العدد.

قال تعالى: ﴿وَٱذْكُرُوٓا۟ إِذْ أَنتُمْ قَلِيلٌ مُّسْتَضْعَفُونَ فِى ٱلْأَرْضِ تَخَافُونَ أَن يَتَخَطَّفَكُمُ ٱلنَّاسُ فَـَٔاوَىٰكُمْ وَأَيَّدَكُم بِنَصْرِهِۦ وَرَزَقَكُم مِّنَ ٱلطَّيِّبَـٰتِ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾[الأنفال: ٢٦].

صور الله سبحانه وتعالى الحال فقال: ﴿إِذْ أَنتُمْ قَلِيلٌ﴾أي: عدد قليل فإن الإسلام إذ نشأ كان عدد المسلمين قليلًا، وكان المشركون يستذلونهم، ويستضعفونهم، ويؤذونهم، مرة بالسخرية والاستهزاء، ومرة بالضرب والأذى، ومرة بوضع الحجر المحمي على ظهورهم، حتى كانوا يضطروهم إلى أن ينطقوا بكلمة الكفر، وقلوبهم مطمئنة بالإيمان، ولم يسلم النبي صلى الله عليه وسلم من الأذى، حتى إنه ليرمي عليه فرث الجزور وهو يصلي، ومع هذا الاستضعاف في الأرض غير مستقرين في أنفسهم وأموالهم فهم في خوف وفزع واضطراب، ولذا وصفهم الله تعالى بقوله: ﴿تَخَافُونَ أَن يَتَخَطَّفَكُمُ ٱلنَّاسُ﴾.

والتخطف معناه: سلبهم أو سلب أموالهم سريعًا من غير تلبث، والتخطف هو موضع الخوف، ولا يكون معه استقرار أبدًا، فلا يأمن التاجر، ولا العامل، ولا الزارع، لا على ماله، ولا على نفسه[١].

وجاء ذلك في أقوال بعض التابعين، فقد روي عن قتادة السدوسي في هذه الآية أنه قال: كان هذا الحي من العرب أذل الناس ذلًا، وأشقاها عيشًا، وأجوعها بطونًا، وأعراها جلودًا، وأبينها ضلالًا، من عاش منهم عاش شقيًا، ومن مات منهم زوي في النار. يؤكلون، ولا يأكلون، والله ما نعلم من حاضر أهل يومئذ من كانوا شرًا منزلًا منهم حتى جاء الإسلام، فمكن به في البلاد، ووسع به في الرزق، وجعلهم ملوكًا على رقاب الناس، وبالإسلام أعطى الله ما رأيتم، فاشكروا الله على نعمة، فإن ربكم منعم يحب الشكر، وأهل الشكر في مزيد من الله[٢].

وفي هذه الآية من العبرة: التي يجب على المؤمنين أن يتذكروها أنه أورث من اهتدى بهديه سعادة الدنيا وبسطة السلطان ومكن لأهله في الأرض وأنالهم ما لم يكونوا يرجونه لولا هدى الدين، وأورثهم في الآخرة فوزًا ورضوانًا من ربهم وروحًا وريحانًا وجنة نعيم هذا حين كانوا يعملون بهديه فلما أعرضوا عنه ونأوا بجانبهم عاقبهم الله بما جرت به سننه في الأرض

(١) زهرة التفاسير، أبو زهرة ٦/ ٣١٠٣.
(٢) تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ٢/ ٢٣٠.

فأضاعوا ملكهم وسلط عليهم أعداءهم، فليعتبر المسلمون بما حل بهم، وليرجعوا إلى تاريخ أسلافهم، وليستضيئوا بنورهم وليثوبوا إلى رشدهم، لعله يعيد إليهم تراثهم الغابر وعزهم الماضي: ﴿إِنَّ ٱلۡأَرۡضَ لِلَّهِ يُورِثُهَا مَن يَشَآءُ مِنۡ عِبَادِهِۦۖ وَٱلۡعَٰقِبَةُ لِلۡمُتَّقِينَ﴾[الأعراف:١٢٨][1].

وبسبب جهل المسلمين بدينهم وبعدهم عنه، يمروا هذه الأيام بمرحلة استضعاف رهيبة غير معهودة في سالف عصورهم، فقد تسلط عليهم الأعداء في جميع المجالات، ولم يعد لهم هيبة في أعين أعدائهم، وما ذلك إلا بسبب الذنوب والمعاصي التي طغت على المجتمعات الإسلامية فأورثتها المذلة أمام الأعداء، وعدم العمل بالشريعة الإسلامية وتحكيمها على مستوى الفرد والمجتمع.

فعن ثوبان رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: (**يوشك أن تتداعى عليكم الأمم كما تتداعى الأكلة على قصعتها، قالوا: أو من قلة يارسول الله؟ قال: بل أنتم كثير، ولكنكم غثاء كغثاء السيل، ولينزعن الله المهابة من قلوب أعدائكم، وليقذفن الله في قلوبكم الوهن. قالوا: وما الوهن يارسول الله؟ قال: حب الدنيا وكراهية الموت**)[2].

٢. الاختلاف والتفرق.

قال تعالى: ﴿۞شَرَعَ لَكُم مِّنَ ٱلدِّينِ مَا وَصَّىٰ بِهِۦ نُوحٗا وَٱلَّذِيٓ أَوۡحَيۡنَآ إِلَيۡكَ وَمَا وَصَّيۡنَا بِهِۦٓ إِبۡرَٰهِيمَ وَمُوسَىٰ وَعِيسَىٰٓۖ أَنۡ أَقِيمُواْ ٱلدِّينَ وَلَا تَتَفَرَّقُواْ فِيهِۚ كَبُرَ عَلَى ٱلۡمُشۡرِكِينَ مَا تَدۡعُوهُمۡ إِلَيۡهِۚ ٱللَّهُ يَجۡتَبِيٓ إِلَيۡهِ مَن يَشَآءُ وَيَهۡدِيٓ إِلَيۡهِ مَن يُنِيبُ ١٣ وَمَا تَفَرَّقُوٓاْ إِلَّا مِنۢ بَعۡدِ مَا جَآءَهُمُ ٱلۡعِلۡمُ بَغۡيَۢا بَيۡنَهُمۡۚ وَلَوۡلَا كَلِمَةٞ سَبَقَتۡ مِن رَّبِّكَ إِلَىٰٓ أَجَلٖ مُّسَمّٗى لَّقُضِيَ بَيۡنَهُمۡۚ وَإِنَّ ٱلَّذِينَ أُورِثُواْ ٱلۡكِتَٰبَ مِنۢ بَعۡدِهِمۡ لَفِي شَكّٖ مِّنۡهُ مُرِيبٖ ١٤ فَلِذَٰلِكَ فَٱدۡعُۖ وَٱسۡتَقِمۡ كَمَآ أُمِرۡتَۖ وَلَا تَتَّبِعۡ أَهۡوَآءَهُمۡۖ﴾[الشورى: ١٣-١٥].

أمر تعالى باجتماع المسلمين على دينهم، ونهاهم عن التفرقة، وأخبرهم أنهم ينبغي لهم أن لا يغتروا بما أنزل الله عليهم من الكتاب. فإن أهل الكتاب لم يتفرقوا حتى أنزل الله عليهم الكتاب الموجب للاجتماع، ففعلوا ضد ما يأمر به كتابهم، وذلك كله بغيًا وعدوانًا منهم، فإنهم تباغضوا وتحاسدوا، وحصلت بينهم المشاحنة والعداوة، فوقع الاختلاف فاحذروا أيها المسلمون أن

(١) تفسير المراغي ٣/ ٣٤٤.

(٢) أخرجه أحمد في مسنده، ١٤/ ٣٣١، رقم ٨٧١٣، وأبوداود في سننه، كتاب الملاحم، باب في تداعي الأمم على الإسلام، ٤/ ١١١، رقم ٤٢٩٧.
وصححه الألباني في السلسلة الصحيحة، ٢/ ٦٤٧، رقم ٩٥٨.

تكونوا مثلهم[1].

فالإسلام أمر بالوحدة والالتئام ومنع التفرق والانقسام لأن التفرق والانقسام يؤدي إلى التصدع والانفصام لذلك فهو يرفض التحزب والانشطار في قلب الأمة المحمدية الواحدة. ولهذا فقد ذم الله عز وجل الفرقة ونهى عنها في أكثر من موضع في كتابه؛ لأنها سببًا في تمزيق وحدة الأمة المسلمة فيستضعفها أعدائها.

قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ فَرَّقُوا۟ دِينَهُمْ وَكَانُوا۟ شِيَعًا لَّسْتَ مِنْهُمْ فِى شَىْءٍ ۚ إِنَّمَآ أَمْرُهُمْ إِلَى ٱللَّهِ ثُمَّ يُنَبِّئُهُم بِمَا كَانُوا۟ يَفْعَلُونَ﴾[الأنعام: ١٥٩].

فنجد أن المراد بالذين فرقوا دينهم وكانوا شيعًا أهل الكتاب والمراد بجعل الرسول صلى الله عليه وسلم بريئًا منهم تحذير أمته من مثل فعلهم ليعلم أن من فعل فعلهم من هذه الأمة فالرسول صلى الله عليه وسلم برئ منهم بالأولى، فهذه الآية «عامة في كل من فارق دين الله وكان مخالفًا له، فإن الله بعث رسوله بالهدى ودين الحق ليظهره على الدين كله، وشرعه واحد لا اختلاف فيه ولا افتراق، فمن اختلف فيه قد برأ رسوله مما هم فيه»[2].

كما أن الاختلاف والتنازع مدعاة للفشل وهو الخيبة والنكول عن إمضاء الأمر وأكبر أسبابه الضعف والجبن، قال تعالى: ﴿وَأَطِيعُوا۟ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَلَا تَنَٰزَعُوا۟ فَتَفْشَلُوا۟ وَتَذْهَبَ رِيحُكُمْ﴾[الأنفال: ٤٦].

وأما قوله: ﴿وَتَذْهَبَ رِيحُكُمْ﴾ فمعناه تذهب قوتكم وترتخي أعصاب شدتكم فيظهر عدوكم عليكم. والريح في اللغة الهواء المتحرك وهي مؤنثة وقد تذكر بمعنى الهواء وتستعار للقوة والغلبة إذ لا يوجد في الأجسام أقوى منها فإنها تهيج البحار وتقتلع أكبر الأشجار وتهدم الدور والقلاع.

وقال الأخفش وغيره تستعار للدولة لشبهها بها في نفوذ أمرها. ويقولون هبت «رياح فلان» إذا دالت له الدولة وجرى أمره على ما يريد كما يقولون ركدت ريحه أو رياحه إذا ضعف أمره وولت دولته[3].

وبين سبحانه وتعالى أن الاختلاف والتفرق سببًا في تسليط الأقوياء على الضعفاء، فقال تعالى حكاية عن فرعون: ﴿إِنَّ فِرْعَوْنَ عَلَا فِى ٱلْأَرْضِ وَجَعَلَ أَهْلَهَا شِيَعًا يَسْتَضْعِفُ طَآئِفَةً مِّنْهُمْ يُذَبِّحُ أَبْنَآءَهُمْ وَيَسْتَحْىِۦ نِسَآءَهُمْ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ مِنَ ٱلْمُفْسِدِينَ﴾

[القصص: ٤].

أي: وفرقهم فرقًا مختلفة، وأحزابًا متعددة، وأغرى بينهم العداوة والبغضاء، كيلا يتفقوا على أمر ولا يجمعوا على رأي، ويشتغل بعضهم بالكيد لبعض، وبذا يلين

(١) انظر: تيسير الكريم الرحمن، السعدي ص٣٧٥.

(٢) تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ٣/ ٣٧٧.

(٣) المصدر السابق ١٠/ ٢٠.

له قيادهم، ولا يصعب عليه خضوعهم واستسلامهم، وتلك هي سياسة الدول الكبرى في العصر الحاضر، وذلك هو دستورها في حكمها لمستعمراتها، وقد نقش حكامها في صدورهم ذلك الدستور الذي ساروا عليه «فرق تسد» وطالما أجدى عليهم في سياسة تلك البلاد، التي يعمها الجهل ويطغى على أهلها حب الظهور. ويرضون بالنفاية والقشور[1].

وقال تعالى: ﴿وَٱعْتَصِمُوا۟ بِحَبْلِ ٱللَّهِ جَمِيعًا وَلَا تَفَرَّقُوا۟﴾[آل عمران: ١٠٣].

فالإسلام يأمر باتحاد وإتفاق كل قوم تضمهم أرض وتحكمهم الشريعة على الخير والمصلحة فيها، وإن اختلفت أديانهم وأجناسهم، ويأمر مع ذلك باتفاق أوسع، وهو الاعتصام بحبل الله بين جميع الأقوام والأجناس لتتحقق بذلك الأخوة في الله، ولذلك قال بعد الأمر بالاعتصام والاجتماع والنهي عن التفرق: ﴿وَٱذْكُرُوا۟ نِعْمَتَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ كُنتُمْ أَعْدَآءً فَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ فَأَصْبَحْتُم بِنِعْمَتِهِۦٓ إِخْوَٰنًا﴾[آل عمران: ١٠٣].

يشير إلى ما كان عليه المؤمنون في عصر التنزيل من أخوة الإيمان التي بها قاسم الأنصار والمهاجرين أموالهم وديارهم وبها كانوا يؤثرون بعضهم بعضًا بالشيء على نفسه، وهو في خصاصة وحاجة شديدة إلى ذلك الشيء. بعدما كان بينهم في الجاهلية من العداوة والبغضاء وتسافك الدماء ما هو معروف في جملته، ومنها أن الحروب تطاولت بين الأوس والخزرج مئة وعشرين سنة حتى أطفأها الإسلام، وألف الله بين قلوبهم برسوله صلى الله عليه وسلم. فصاروا بهذه الألفة أسعد الناس، ثم صاروا سادات الأرض وأنقذهم بذلك من النار فكانوا به سعداء الدارين والفائزين بالحسنيين[2].

والتفرق والاختلاف قسمان:

الأول: هو الخلاف في الفهم والرأي ولا مفر منه لأنه مما فطر عليه البشر، كما قال تعالى: ﴿وَلَوْ شَآءَ رَبُّكَ لَجَعَلَ ٱلنَّاسَ أُمَّةً وَٰحِدَةً ۖ وَلَا يَزَالُونَ مُخْتَلِفِينَ ﴿١١٨﴾ إِلَّا مَن رَّحِمَ رَبُّكَ ۚ وَلِذَٰلِكَ خَلَقَهُمْ ۗ وَتَمَّتْ كَلِمَةُ رَبِّكَ لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنَ ٱلْجِنَّةِ وَٱلنَّاسِ أَجْمَعِينَ﴾ [هود: ١١٨-١١٩].

فاستواء الناس في العقول والأفهام مما لا سبيل إليه ولا مطمع فيه إذ هو من قبيل الحب والبغض، فالأخوة الأشقاء في البيت الواحد تختلف أفهامهم في الشيء، كما يختلف حبهم له وميلهم إليه.

الثاني: هو الافتراق في الدين وذهاب أهله مذاهب تجعلهم شيعًا تتحكم فيهم الأهواء، وهو أشد الأشياء ضررًا في البشر

(١) تفسير المراغي ٧/ ١١٨.

(٢) المنار، محمد رشيد رضا ٤/ ٩٨٥.

لأنه يطمس أعلام الهداية التي يلجأ إليها في إزالة المضار التي في النوع الأول من الخلاف. هذا النوع من الخلاف هو الذي ذلت به الأمم بعد عزها، وهوت بعد رفعتها وضعفت بعد قوتها كما حصل من الفرق الإسلامية[1].

ولافتراق هذه الأمة في دينها وما تبعه من ضعفها في دنياها أربعة أسباب كلية:

١. السياسية والتنازع على الملك.

٢. عصبية الجنس والنسب.

٣. عصبية المذاهب في الأصول والفروع.

٤. القول في دين الله بالرأي.

وهناك سبب خامس قد دخل في كل منها وهو دسائس أعداء هذا الدين وكيدهم له.

٣. الضعف المعنوي.

عموم الضعف في المؤمنين يرجع إلى ضعف الدين وهو الضعف المعنوي، الذي يجعل صاحبه يرضى بالذل والقعود، يفر من حياة العز والكبرياء ويقبل حياة الذل والخنوع، ولقد وصفهم سبحانه وتعالى في كتابه بأنهم ظالمي أنفسهم، فقال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ تَوَفَّىٰهُمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ ظَالِمِىٓ أَنفُسِهِمْ قَالُوا۟ فِيمَ كُنتُمْ قَالُوا۟ كُنَّا مُسْتَضْعَفِينَ فِى ٱلْأَرْضِ﴾ [النساء: ٩٧].

فهذا هو الجواب على السؤال السابق: فيم كنتم؟ قالوا: كنا مستضعفين. ولاحظ أن المستضعفين لا يعتذرون يومئذ إلى الملائكة بـ «الضعف»، وإنما يعتذرون بالاستضعاف. والسبب واضح، فلم يجعل الله تعالى في النظام الاجتماعي والسياسي والاقتصادي ضعيفًا وقويًا، وإنما الإنسان هو الذي يأذن للآخرين أن يستدرجوه إلى الضعف، ويسلبوه إرادته وقوته وصموده وكفاءاته وإمكاناته، فيكون مستضعفًا. ليس في النظام الاجتماعي ضعف وقوة، ولكن في هذا النظام استضعافًا واستكبارًا، وأحدهما يستدعي الآخر. من كل ذلك تحولوا إلى كتلة عائمة تطيع وتتبع من غير نقاش ولا مراجعة، وإلى هذا المعنى يشير قوله تعالى حكاية عن فرعون وقومه: ﴿فَٱسْتَخَفَّ قَوْمَهُۥ فَأَطَاعُوهُ إِنَّهُمْ كَانُوا۟ قَوْمًا فَٰسِقِينَ﴾[الزخرف: ٥٤].

وهكذا نجد أن الاستكبار يؤدي إلى الاستضعاف، والاستضعاف يؤدي إلى الاستكبار. وهؤلاء المستضعفون عذابهم كبير وأليم لأن جريمتهم هي تمكين المجرمين من أنفسهم ومن المؤمنين، ولولا رضوخهم للظلم لم يتمكن الظالمون من ظلم المستضعفين واستضعافهم وإذلالهم.

وهذا وصف آخر للمستضعفين حال تخاذلهم عند لقاء العدو بحجة الضعف، فقال تعالى حكاية عن بني إسرائيل مع نبي الله موسى عليه السلام: ﴿قَالُوا۟ يَٰمُوسَىٰٓ إِنَّ

(١) انظر: المصدر السابق ٤/ ٩٨٦- ٩٨٧.

﴿فِيهَا قَوْمًا جَبَّارِينَ وَإِنَّا لَن نَّدْخُلَهَا حَتَّىٰ يَخْرُجُوا مِنْهَا فَإِن يَخْرُجُوا مِنْهَا فَإِنَّا دَاخِلُونَ﴾ [المائدة: ٢٢].

والمعنى: أن موسى عليه السلام لما قرب بقومه من حدود الأرض المقدسة أمرهم بدخولها مستعدين لقتال من يقاتلهم من أهلها وأنهم لما غلب عليهم من الضعف والذل باضطهاد المصرين لهم وظلمهم إياهم، أبوا وتمردوا واعتذروا بضعفهم وقوة أهل تلك البلاد[1].

ومن هذا يتضح لنا: «أن الشعوب التي تنشأ في مهد الاستبداد، وتساس بالظلم والاضطهاد، تفسد أخلاقها، وتذل نفوسها، ويذهب بأسها، وتضرب عليها الذلة والمسكنة، وتألف الخضوع، وتأنس بالمهانة والخنوع، وإذا طال عليها أمد الظلم، تصير هذه الأخلاق موروثة مكتسبة، حتى تكون كالغرائز الفطرية، والطبائع الخلقية، وهذا شأن البشر في كل ما يألفونه ويجرون عليه من خير وشر، وإيمان وكفر»[2].

وهذا الضعف المعنوي يخالف القضايا التي حرص الإسلام على تأصيلها في نفوس المسلمين أينما كانوا وهي القوة المعنوية حيث وجه الإسلام المسلمين إلى ضرورة أن يبقوا محافظين على هذا الأمر، فقد قال تعالى: ﴿وَلَا تَهِنُوا وَلَا تَحْزَنُوا وَأَنتُمُ الْأَعْلَوْنَ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾ [آل عمران: ١٣٩].

٤ . الرق.

الأصل في الإنسان الحرية، وكان وقوع الرق في التاريخ البشري خروجًا عن هذه القاعدة، وكان لأحوال عارضة وقعت نتيجةً لكثير من التقلبات التي تعرض لها الإنسان من حروب سواء كانت عادلة أو ظالمة، أو كوارث طبيعية، أو عدوان من الإنسان على الإنسان، أو استغلال لحالة ضعف يمر بها، وإذا نظرنا في أسباب الرق في البيئات التي ظهرت فيها في صور من الظلم المباشر كبيع الحر أو قهر إنسان للتغلب عليه، أو استغلال حالة ضعف يمر بها كدينٍ يرهقه، ويعجز عن الوفاء به، أو جريمة يرتكبها كسرقة أو قتل إذا لم يقتل، أو يلتقط التقاطًا فيقع تحت حكم غيره: إما أن يرمه، أو يسترقه لنفسه، أو يبيعه لغيره.

وقد كشف القرآن الكريم عن بعض هذه الأساليب من خلال ما جرى ليوسف عليه السلام كما في قوله تعالى: ﴿وَجَاءَتْ سَيَّارَةٌ فَأَرْسَلُوا وَارِدَهُمْ فَأَدْلَىٰ دَلْوَهُ ۖ قَالَ يَا بُشْرَىٰ هَٰذَا غُلَامٌ ۚ وَأَسَرُّوهُ بِضَاعَةً ۚ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِمَا يَعْمَلُونَ ﴿١٩﴾ وَشَرَوْهُ بِثَمَنٍ بَخْسٍ دَرَاهِمَ مَعْدُودَةٍ وَكَانُوا فِيهِ مِنَ الزَّاهِدِينَ﴾ [يوسف: ١٩- ٢٠].

وما أجراه على أخيه في الظاهر حسب

(١) المنار، محمد رشيد رضا ٦/ ٢٤٦.
(٢) المصدر السابق ٦/ ٢٤٩.

القوانين التي كانت سائدة: ﴿وَقَالَ ٱلَّذِى ٱشْتَرَىٰهُ مِن مِّصْرَ لِٱمْرَأَتِهِۦٓ أَكْرِمِى مَثْوَىٰهُ عَسَىٰٓ أَن يَنفَعَنَآ أَوْ نَتَّخِذَهُۥ وَلَدًا﴾[يوسف: ٢١].

وما أجراه على أخيه في الظاهر حسب القوانين التي كانت سائدة: ﴿قَالُوا۟ جَزَٰٓؤُهُۥ مَن وُجِدَ فِى رَحْلِهِۦ فَهُوَ جَزَٰٓؤُهُۥ ۚ كَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلظَّٰلِمِينَ﴾[يوسف: ٧٥][1].

وأيضًا ما حدث لسلمان الفارسي رضي الله عنه حين شغل الرق حينًا من الزمن، فقد كان مولى أحد الوجهاء، فذهب إلى النبي صلى الله عليه وسلم، فأشار عليه النبي صلى الله عليه وسلم أن يكاتب سيده، فكاتبه على ثلاثمائة نخلة يغرسها له وأربعين أوقية من ذهب.

ومن هذه المعاني السابقة يتبين أن الرق حالة حكمية تضرب على الرقيق فتحول بينه وبين كمال أهليته لا إزالة أصلها، أي يلحق بها نقص حيث يصبح بذاته مملوكًا لسيده، فلا يملك ولا يمارس لنفسه أيًا مما يتعلق به حق من الاسترقاق الجماعي. وذلك ما يحرمه الإسلام حين يقرر مبادئ المساواة، ويحرم الظلم بكل صوره[2].

٥ . الفقر والحاجة.

عوامل استضعاف الإنسان الأساسية هي: الفقر والجهل والمرض زائدًا الغربة- التي يعبر عنها القرآن الكريم بابن السبيل- فهذه العوامل تتكاتف على المستضعف وتجعله في إطار الضعف ليأتي المستكبر فيستضعفه ويكرس استضعافه ويحاول أن يبقيه في حالة الاستضعاف.

ولعل استضعاف الفقر (الاستضعاف المالي) هو أهم عامل من عوامل الاستضعاف، وهذا ما حدثتنا السيرة عنه، «بأن الذين دخلوا في الإسلام، في الفترة المكية كان معظمهم خليطًا من الفقراء والضعفاء والأرقاء، وهذه الظاهرة هي الثمرة الطبيعية لدعوة الأنبياء في فترتها الأولى، فكان هؤلاء المستضعفون يعتبرون أن الأنبياء هم طوق النجاة لهم.

ألم تر إلى قوم نوح عليه السلام كيف كانوا يعيرونه بأن أتباعه الذين من حوله ليسوا إلا من أراذل الناس ودهمائهم: ﴿مَا نَرَىٰكَ إِلَّا بَشَرًا مِّثْلَنَا وَمَا نَرَىٰكَ ٱتَّبَعَكَ إِلَّا ٱلَّذِينَ هُمْ أَرَاذِلُنَا بَادِىَ ٱلرَّأْىِ﴾[هود: ٢٧].

وإلى فرعون وشيعته كيف كانوا يرون اتباع موسى عليه السلام أذلاء مستضعفين.

قال تعالى: ﴿إِنَّ هَٰٓؤُلَآءِ لَشِرْذِمَةٌ قَلِيلُونَ﴾ [الشعراء: ٥٤].

حتى قال عنهم بعد أن تحدث عن هلاك فرعون وأشياعه: ﴿وَأَوْرَثْنَا ٱلْقَوْمَ ٱلَّذِينَ كَانُوا۟ يُسْتَضْعَفُونَ مَشَٰرِقَ ٱلْأَرْضِ وَمَغَٰرِبَهَا

(١) الرق قضية إنسانية وعلاج قرآني، أحمد البشايرة ص١١٥.

(٢) انظر: المصدر السابق ص١٣٠-١٣١.

﴿الَّتِي بَـٰرَكۡنَا فِيهَا﴾[الأعراف: ١٣٧][1].

والفقر والحاجة في الحق ليس عذرًا لأن من أخلد إلى السكون، وقعد عن نصرة الدين، وعذر نفسه بأنه فقير ضعيف ليس له حول ولا قوة، ففي الحقيقة غير معذور لأنه تنازل عن أخص خصائص الإنسان الكريم على الله حين تنازل عن حريته الشخصية في الاعتقاد والاتجاه، وجعل نفسه تبعًا للمستكبرين والطغاة، ودان لغير الله من عبيده واختارهم على الدينونة لله. والضعف ليس عذرًا، بل هو الجريمة، فما يريد الله لأحد أن يكون ضعيفًا، وهو يدعو الناس كلهم إلى حماه يعتزون به والعزة لله.

قال تعالى: ﴿وَلِلَّهِ ٱلۡعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِۦ وَلِلۡمُؤۡمِنِينَ وَلَٰكِنَّ ٱلۡمُنَٰفِقِينَ لَا يَعۡلَمُونَ﴾ [المنافقون: ٨].

والقوة المادية -كائنة ما كانت- لا تملك أن تستعبد إنسانًا يريد الحرية، ويستمسك بكرامته الآدمية، فقصارى ما تملكه تلك القوة أن تملك الجسد، تؤذيه وتعذبه وتكبله وتحبسه. أما الضمير، أما الروح. أما العقل فلا يملك أحد حبسها ولا استذلالها، إلا أن يسلمها صاحبها للحبس والإذلال.

من ذا الذي يملك أن يجعل أولئك الضعفاء تبعًا للمستكبرين في العقيدة وفي التفكير، وفي السلوك؟ من ذا الذي يملك أن يجعل أولئك الضعفاء يدينون لغير الله، والله خالقهم ورازقهم وكافلهم دون سواه؟ لا أحد. لا أحد إلا أنفسهم الضعيفة. فهم ضعفاء لا لأنهم أقل قوة مادية من الطغاة، ولا لأنهم أقل جاهًا أو مالًا أو منصبًا أو مقامًا كلا، إن هذه كلها أعراض خارجية لا تعد بذاتها ضعفًا يلحق صفة الضعف بالضعفاء إنما هم ضعفاء لأن الضعف في أرواحهم وفي قلوبهم وفي اعتزازهم بأخص خصائص الإنسان[2].

ولذلك انتهى الضعفاء والطغاة المستكبرون إلى عذاب الله على سواء.

قال تعالى: ﴿وَإِذۡ يَتَحَآجُّونَ فِي ٱلنَّارِ فَيَقُولُ ٱلضُّعَفَـٰٓؤُاْ لِلَّذِينَ ٱسۡتَكۡبَرُوٓاْ إِنَّا كُنَّا لَكُمۡ تَبَعٗا فَهَلۡ أَنتُم مُّغۡنُونَ عَنَّا نَصِيبٗا مِّنَ ٱلنَّارِ ۝٤٧ قَالَ ٱلَّذِينَ ٱسۡتَكۡبَرُوٓاْ إِنَّا كُلّٞ فِيهَآ إِنَّ ٱللَّهَ قَدۡ حَكَمَ بَيۡنَ ٱلۡعِبَادِ﴾ [غافر: ٤٧-٤٨].

وللأسف نجد الآن بسبب الفقر والضيق والعوز من يترك دينه ويتنصر لأجل مال أو وظيفة أو زواج، وفي الحقيقة -كما سبق وقلنا- هذا ليس عذرًا ولا حول ولا قوة إلا بالله.

٦. الضعف الطبيعي.

وهذا الضعف لا يأتي في إطار التجاذب بين المستضعفين والمستكبرين، كقوله

(١) فقه السيرة النبوية، البوطي ص٧٠.

(٢) انظر: في ظلال القرآن ٤/ ٢٠٩٦.

تعالى: ﴿أَيَوَدُّ أَحَدُكُمْ أَن تَكُونَ لَهُ جَنَّةٌ مِّن نَّخِيلٍ وَأَعْنَابٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ لَهُ فِيهَا مِن كُلِّ الثَّمَرَاتِ وَأَصَابَهُ الْكِبَرُ وَلَهُ ذُرِّيَّةٌ ضُعَفَاءُ فَأَصَابَهَا إِعْصَارٌ فِيهِ نَارٌ فَاحْتَرَقَتْ﴾ [البقرة: ٢٦٦].

وقوله تعالى: ﴿فَإِن كَانَ الَّذِي عَلَيْهِ الْحَقُّ سَفِيهًا أَوْ ضَعِيفًا أَوْ لَا يَسْتَطِيعُ أَن يُمِلَّ هُوَ فَلْيُمْلِلْ وَلِيُّهُ بِالْعَدْلِ﴾[البقرة: ٢٨٢].

وقوله: ﴿لَّيْسَ عَلَى الضُّعَفَاءِ وَلَا عَلَى الْمَرْضَىٰ وَلَا عَلَى الَّذِينَ لَا يَجِدُونَ مَا يُنفِقُونَ حَرَجٌ إِذَا نَصَحُوا لِلَّهِ وَرَسُولِهِ مَا عَلَى الْمُحْسِنِينَ مِن سَبِيلٍ﴾[التوبة: ٩١].

وقوله: ﴿وَلْيَخْشَ الَّذِينَ لَوْ تَرَكُوا مِنْ خَلْفِهِمْ ذُرِّيَّةً ضِعَافًا خَافُوا عَلَيْهِمْ فَلْيَتَّقُوا اللَّهَ وَلْيَقُولُوا قَوْلًا سَدِيدًا﴾[النساء: ٩].

فالآيات الأربع تتناول حالات الضعف الناتج عن صغر السن «الذرية» أو ضعف البدن أو العقل «بالسفه» أو كبر السن وهي كلها حالات ضعف لا تجري عليها سنن وقوانين الاستضعاف، لأن الاستضعاف إنما هو وضع اجتماعي بالأساس ناتج عن ظروف ضعف يمكن أن تكون طارئة أو يمكن العمل على إزالتها بالعمل والجهد والعرق والكفاح والإصلاح.

أما هذه الحالات من الضعف فقد لا يطرأ عليها تغيير -اللهم إلا في حالة الذرية التي يرجى لها مع السنين أن تكبر- فهي ليست في حاجة إلى أن تستضعف في الأساس.

وقد استثنى الله عز وجل أولئك الوعيد لأنهم أصحاب استضعاف حقيقي، فقال تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ تَوَفَّاهُمُ الْمَلَائِكَةُ ظَالِمِي أَنفُسِهِمْ قَالُوا فِيمَ كُنتُمْ قَالُوا كُنَّا مُسْتَضْعَفِينَ فِي الْأَرْضِ قَالُوا أَلَمْ تَكُنْ أَرْضُ اللَّهِ وَاسِعَةً فَتُهَاجِرُوا فِيهَا فَأُولَٰئِكَ مَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ وَسَاءَتْ مَصِيرًا ﴿٩٧﴾ إِلَّا الْمُسْتَضْعَفِينَ مِنَ الرِّجَالِ وَالنِّسَاءِ وَالْوِلْدَانِ لَا يَسْتَطِيعُونَ حِيلَةً وَلَا يَهْتَدُونَ سَبِيلًا﴾ [النساء:٩٧-٩٨].

ففي الآية الأولى تحدث عن المستضعفين الغير معذورين، لأنه كان يجب عليهم الهجرة إلى المؤمنين الذين يعتزون بهم، فهم بحبهم لبلادهم، وإخلادهم إلى أرضهم، وسكونهم إلى أهليهم ومعارفهم، ضعفاء في الحق لا مستضعفون.

ثم قال تعالى في الآية الثانية: ﴿إِلَّا الْمُسْتَضْعَفِينَ مِنَ الرِّجَالِ وَالنِّسَاءِ وَالْوِلْدَانِ﴾، دل الوعيد في الآية السابقة مع الاستثناء في هذه الآية على أن أولئك الذين اعتذروا عن عدم إقامة دينهم وعدم الفرار به هجرة إلى الله ورسوله غير صادقين في اعتذارهم فإن الاستضعاف الحقيقي عذر صحيح ولذلك استثنى أهله من الوعيد بهذه الآية.

وقرن الرجال بالنساء والولدان فيها يشعر بأن المراد بالرجال الشيوخ الضعفاء والعجزة الذين هم كمن ذكر معهم ﴿لَا يَسْتَطِيعُونَ حِيلَةً

﴿وَلَا يَهْتَدُونَ سَبِيلًا﴾ أي قد ضاقت بهم الحيل كلها، وعميت عليهم الطرق جميعها فلم يهتدوا طريقًا منها، إما للزمانة والمرض، وأما للفقر والجهل بمسالك الأرض[1].

وذكر سبحانه وتعالى أصحاب الاستضعاف الحقيقي في قوله: ﴿لِلْفُقَرَاءِ الَّذِينَ أُحْصِرُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ لَا يَسْتَطِيعُونَ ضَرْبًا فِي الْأَرْضِ يَحْسَبُهُمُ الْجَاهِلُ أَغْنِيَاءَ مِنَ التَّعَفُّفِ تَعْرِفُهُمْ بِسِيمَاهُمْ لَا يَسْأَلُونَ النَّاسَ إِلْحَافًا﴾[البقرة: ٢٧٣].

أي: منعوا من الكسب الذي يطلبه صاحبه مجاهدًا في طلبه. والإحصار هو التشديد في التضييق بالمنع من الحركة والسير والعمل؛ والمنع يكون لعجزٍ مطلق بمرض أو شيخوخة أو صغر أو غير ذلك.

ثانيًا: وسائل مقاومة الاستضعاف:

١ . الوحدة.

إذا كانت الفرقة هي طريق الاستضعاف والانحطاط، فإن الوحدة هي سبيل القوة والارتقاء. وإن اتحاد الأمة الإسلامية على أسس من ديننا العظيم أمل كل المسلمين الصادقين في كل مكان، ذلك أن الإسلام هو الذي جعل من العرب المتناحرين أخوة في دين الله.

قال تعالى: ﴿إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ﴾ [الحجرات: ١٠].

كما أن الإسلام بعقيدته الصحيحة وعبادته الصادقة، وأخلاقه الرفيعة، صهر الأمم والشعوب والحضارات التي دخلت فيه وجعل منهم أمة واحدة مترابطة ترابط الجسد الواحد لا فرق بين الفارسي ولا البربري، ولا الرومي ولا العربي، ولا بين الفقير والغني إلا بالتقوى.

وأصبحت أمة الإسلام أمة واحدة في عقيدتها ومنهجها.

قال تعالى: ﴿وَاعْتَصِمُوا بِحَبْلِ اللَّهِ جَمِيعًا وَلَا تَفَرَّقُوا﴾[آل عمران: ١٠٣].

وقال تعالى: ﴿وَإِنَّ هَذِهِ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَأَنَا رَبُّكُمْ فَاتَّقُونِ﴾[المؤمنون: ٥٢].

هذه دعوة إلى الإخاء الإنساني، وإلى إزالة هذه السدود التي تعزل المجتمعات الإنسانية بعضها عن بعض، وخاصةً إذا كانوا جميعًا يتجهون إلى الله، ويؤمنون به، فوجهتهم جميعًا هي الله، وإن كان لكلٍ وجهة هو موليها، وكذلك ينبغي أن تكون وجهتهم جميعًا هي الإنسانية، وإن كان لكل إنسان لونه، ووطنه، وجنسه[2].

ومن أهم الأسباب في تحقيق الوحدة أن يجتمع المسلمون على أصول ثابتة:

(١) المنار، محمد رشيد رضا ٥/ ٢٥٦.

(٢) التفسير القرآني للقرآن، عبدالكريم الخطيب ٥/ ١١٤٤.

✿ وحدة العقيدة.

لا يمكن أن تقوم وحدة للمسلمين ما لم تجمعهم عقيدة واحدة، والعقيدة تشكل أساسًا مهمًا في البناء الفردي والاجتماعي وهي التي تصلح لجمع شتات المسلمين،قال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الرُّسُلُ كُلُوا مِنَ الطَّيِّبَاتِ وَاعْمَلُوا صَالِحًا إِنِّي بِمَا تَعْمَلُونَ عَلِيمٌ ۝ وَإِنَّ هَذِهِ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَأَنَا رَبُّكُمْ فَاتَّقُونِ﴾ [المؤمنون: ٥١-٥٢]

✿ تحقيق الأخوة بين أفراد المسلمين.

فإن من الأصول العظيمة التي تحقق وحدة المسلمين، تحقيق الأخوة في أواسطهم[(١)].

إن الأخوة منحة من الله عز وجل يعطيها الله للمخلصين من عباده والأصفياء والأتقياء من أوليائه وجنده وحزبه.

قال تعالى: ﴿هُوَ الَّذِي أَيَّدَكَ بِنَصْرِهِ وَبِالْمُؤْمِنِينَ﴾[الأنفال: ٦٢].

إن النبي صلى الله عليه وسلم اعتمد على معاني الأخوة وعمل على تحقيقها وجعلها من الوسائل المهمة في بناء المجتمع الإسلامي وإن أهمية هذا الأساس تظهر في تحقيق مبادئ العدالة والمساواة بين الأفراد، ولا يتم ذلك ما لم تقم على أساس من التآخي والمحبة فيما بينهم. ولذلك جعل النبي صلى الله عليه وسلم من هذه الأخوة مسئولية حقيقية تشيع بين هؤلاء الأخوة، وكانت هذه المسئولية محققة فيما بينهم على خير وجه، لقد كانت رابطة الأخوة بين الصحابة الكرام من أسباب قوتهم ونصرة الله لهم. إن التحابب بين المسلمين والحرص على روابط الأخوة المستمدة من الإيمان والعقيدة سر قوة الأمة، ومفتاح نجاحها[(٢)].

٢ . الصبر والثبات.

الصبر هو زاد المؤمنين وعتادهم في مسيرتهم إلى الله، وبلوغ مرضاته، وبغير الصبر وتوطين النفس على ما تكره، لا يستقيم خطو الإنسان أبدًا على طريق الحق والخير، إذ كان ذلك الطريق دائمًا موحشًا، تعترض سالكه الحواجز والمزالق والعثرات!

قال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اصْبِرُوا وَصَابِرُوا وَرَابِطُوا وَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾[آل عمران: ٢٠٠].

هذه الآية الكريمة دعوة خالصة للصبر، تغري المسلمين به، وتحرضهم عليه، وتفتح لهم طريق النجاح والفلاح بيده!

فالصبر والمصابرة والمرابطة وتقوى الله، هن اللائي يمكن من أن يضع قدميه على طريق النجاح والفلاح، وأن يقطع هذا

(١) تبصير المؤمنين بفقه النصر والتمكين، علي الصلابي ص٣٠٨.

(٢) فقه السيرة النبوية، البوطي ص٢٠١.

الطريق إلى غايته، فيظفر برضا الله، ويفوز برضوانه. والصبر هو القوة التي يلقى بها المرء المكاره والشدائد، فيحتملها في إصرار وعزم، وفي غير وهن أو ضعف، فذلك هو الصبر الذي يدعوا إليه الإسلام ويزكيه[1].

فقد أمر الله تعالى في هذه الآية بأمور أربعة: الصبر، والمصابرة، والمرابطة، والتقوى.

والصبر: معناه ضبط النفس عن أهوائها، وتحمل المكاره راضيًا غير ساخط، والقيام بالطاعات على وجهها، وتجنب المعاصي، وتحمل آثار الهزيمة، والعمل على النهوض بعد الكبوة، وتحمل أذى الأعداء وسخريتهم.

والمصابرة هي المغالبة بالصبر، وهي تكون في الجهاد مع الأعداء في الملحمة، أو في المجادلة، أو في أي مغالبة على أي لون كانت، والمرابطة هي القيام على الثغور الإسلامية لحمايتها من الأعداء، فهي استعداد ودفاع وحماية للديار الإسلامية[2].

وقد نصر الله عز وجل المؤمنون الصابرون من بني إسرائيل لما ثبتوا أمام عدوهم فقال تعالى: ﴿وَلَمَّا بَرَزُوا لِجَالُوتَ وَجُنُودِهِ قَالُوا رَبَّنَا أَفْرِغْ عَلَيْنَا صَبْرًا وَثَبِّتْ أَقْدَامَنَا وَانصُرْنَا عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ ﴿٢٥٠﴾ فَهَزَمُوهُم بِإِذْنِ اللَّهِ وَقَتَلَ دَاوُودُ جَالُوتَ وَآتَاهُ اللَّهُ الْمُلْكَ وَالْحِكْمَةَ وَعَلَّمَهُ مِمَّا يَشَاءُ﴾ [البقرة: ٢٥٠-٢٥١].

ابتدءوا بالدعاء بالصبر؛ لأن الصبر هو عدة القتال الأولى وبه ضبط النفس فلا تفزع. والدعاء الثاني: أن يمنحهم ربهم الثبات في الزحف وعدم الفرار في النزال، والدعاء الثالث: إجابته هو تحقيق لثمرة الصبر والثبات.

بل بالصبر والثبات جعل منهم أئمة يهدون بأمر الله عز وجل، قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ فَلَا تَكُن فِي مِرْيَةٍ مِّن لِّقَائِهِ وَجَعَلْنَاهُ هُدًى لِّبَنِي إِسْرَائِيلَ ﴿٢٣﴾ وَجَعَلْنَا مِنْهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا لَمَّا صَبَرُوا وَكَانُوا بِآيَاتِنَا يُوقِنُونَ﴾ [السجدة: ٢٣-٢٤].

٣. المدافعة حسب الاستطاعة.

اقتضت حكمة الله تبارك وتعالى إجراء سنة المدافعة والصراع بين الحق والباطل.

قال تعالى: ﴿وَلَوْلَا دَفْعُ اللَّهِ النَّاسَ بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لَّفَسَدَتِ الْأَرْضُ وَلَٰكِنَّ اللَّهَ ذُو فَضْلٍ عَلَى الْعَالَمِينَ﴾ [البقرة: ٢٥١].

والمعنى: أن ما فطر الله عز وجل عليه الناس من مدافعة بعضهم بعضًا عن الحق

(١) التفسير القرآني للقرآن، عبدالكريم الخطيب ١/ ٦٨٠.
(٢) زهرة التفاسير، أبو زهرة ٣/ ١٥٦٠.

والمصلحة، وهو المانع من فساد الأرض، أي: هو سبب بقاء الحق وبقاء الصلاح.

ويعزز ذلك قوله تعالى في بيان حكمة الإذن للمسلمين بالقتال: ﴿أُذِنَ لِلَّذِينَ يُقَٰتَلُونَ بِأَنَّهُمْ ظُلِمُوا۟ ۚ وَإِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ نَصْرِهِمْ لَقَدِيرٌ ۝٣٩ ٱلَّذِينَ أُخْرِجُوا۟ مِن دِيَٰرِهِم بِغَيْرِ حَقٍّ إِلَّآ أَن يَقُولُوا۟ رَبُّنَا ٱللَّهُ ۗ وَلَوْلَا دَفْعُ ٱللَّهِ ٱلنَّاسَ بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لَّهُدِّمَتْ صَوَٰمِعُ وَبِيَعٌ وَصَلَوَٰتٌ وَمَسَٰجِدُ يُذْكَرُ فِيهَا ٱسْمُ ٱللَّهِ كَثِيرًا ۗ وَلَيَنصُرَنَّ ٱللَّهُ مَن يَنصُرُهُۥٓ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَقَوِىٌّ عَزِيزٌ﴾ [الحج: ٣٩ - ٤٠].

فهذا إرشاد إلى تنازع البقاء والدفاع عن الحق، وأنه ينتهي ببقاء الأمثل، وحفظ الأفضل[(١)].

فبين سبحانه أن سنته في خلقه أن يدفع الخير والشر، وأن تكون المدافعة بينهما مستمرة، حتى لا تفسد الأرض، فإنه إن غلب الشر كان الخراب والدمار، لذا قال: ﴿وَلَوْلَا دَفْعُ ٱللَّهِ ٱلنَّاسَ بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لَّفَسَدَتِ ٱلْأَرْضُ﴾ [البقرة: ٢٥١].

وهذا التدافع هو ما عناه النبي صلى الله عليه وسلم بقوله: **(لا تزال طائفة من أمتي يقاتلون على الحق ظاهرين إلى يوم القيامة)**[(٢)].

وبالتدافع يتحقق الخير للبشرية، وبه يتحقق السلام العالمي؛ لأنه أزال كل طاغوت يعبد من دون الله، ويستضعف الناس.

قال تعالى: ﴿وَقَٰتِلُوهُمْ حَتَّىٰ لَا تَكُونَ فِتْنَةٌ وَيَكُونَ ٱلدِّينُ كُلُّهُۥ لِلَّهِ ۚ فَإِنِ ٱنتَهَوْا۟ فَإِنَّ ٱللَّهَ بِمَا يَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾ [الأنفال: ٣٩].

٤ . الهجرة.

كشف القرآن الكريم في آيات متعددة أن الهجرة مما أمر به الله أنبياءه وجعلها لهم سنة من سننهم، وتمكينًا لأهلهم وأقوامهم من المؤمنين في الأرض، فهجرة الرسول صلى الله عليه وسلم من بلده مكة المكرمة إلى المدينة كانت جريًا على سنة الأنبياء والمرسلين الذين سبقوه، فإن دعوتهم كانت تعوق من جانب أعدائهم ويضطهدون من قومهم، ويؤذون إيذاء قد يصل إلى حد الإعتداء على حياتهم كما حدث للنبيين الكريمين زكريا ويحيى عليهما السلام فيضطرون للهجرة طلبًا للسلامة وتبليغًا لرسالة ربهم.

والهجرة في نظر القرآن الكريم انتصار، لأنها فرار إلى الله القوي العزيز، حتى لو أدى ذلك إلى الموت.

قال تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ هَاجَرُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ثُمَّ قُتِلُوٓا۟ أَوْ مَاتُوا۟ لَيَرْزُقَنَّهُمُ ٱللَّهُ رِزْقًا

---

(١) المنار، محمد رشيد رضا ٢/ ٣٤٢.

(٢) أخرجه مسلم في صحيحه، كتاب الإمارة، باب لا تزال طائفة من أمتي ظاهرين على الحق، ٣/ ١٥٢٤، رقم ١٩٢٣.

حَسَنًا وَإِنَّ ٱللَّهَ لَهُوَ خَيْرُ ٱلرَّٰزِقِينَ﴾ [الحج: ٥٨].

إن المتدبر في هذه الآية الكريمة يجد أن القرآن الكريم يهتم بالهجرة، حيث أنه يعالج مخاوف النفس المتنوعة، وهي تواجه مخاطر الهجرة، في مثل تلك الظروف التي كانت قائمة، والتي قد تتكرر بذاتها أو بما يشابهها من المخاوف في كل حين[(١)].

وتظهر أيضًا منزلة الهجرة من الإيمان حين تكون رمزًا لحقيقة الإيمان.

قال تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَهَاجَرُوا۟ وَجَٰهَدُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَٱلَّذِينَ ءَاوَوا۟ وَّنَصَرُوٓا۟ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُؤْمِنُونَ حَقًّا لَّهُم مَّغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ﴾ [الأنفال: ٧٤].

وقال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَٱلَّذِينَ هَاجَرُوا۟ وَجَٰهَدُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ أُو۟لَٰٓئِكَ يَرْجُونَ رَحْمَتَ ٱللَّهِ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ [البقرة: ٢١٨].

فكرر الموصول «الذين» هنا للإشارة إلى أن الهجرة وحدها عمل زائد على الإيمان يستحق وحده الثواب لأنه ترك للمال والأهل، وطلب للعزة وإعزاز الدين، بدل البقاء في الذلة والرضا بحياة المستضعفين.

وقد أمر الله عز وجل بالهجرة عند الاستضعاف، ونهى عن البقاء تحت نير غير المسلمين، ولذا قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ تَوَفَّىٰهُمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ ظَالِمِىٓ أَنفُسِهِمْ قَالُوا۟ فِيمَ كُنتُمْ قَالُوا۟ كُنَّا مُسْتَضْعَفِينَ فِى ٱلْأَرْضِ قَالُوٓا۟ أَلَمْ تَكُنْ أَرْضُ ٱللَّهِ وَٰسِعَةً فَتُهَاجِرُوا۟ فِيهَا فَأُو۟لَٰٓئِكَ مَأْوَىٰهُمْ جَهَنَّمُ وَسَآءَتْ مَصِيرًا ﴿٩٧﴾ إِلَّا ٱلْمُسْتَضْعَفِينَ مِنَ ٱلرِّجَالِ وَٱلنِّسَآءِ وَٱلْوِلْدَٰنِ لَا يَسْتَطِيعُونَ حِيلَةً وَلَا يَهْتَدُونَ سَبِيلًا ﴿٩٨﴾ فَأُو۟لَٰٓئِكَ عَسَى ٱللَّهُ أَن يَعْفُوَ عَنْهُمْ وَكَانَ ٱللَّهُ عَفُوًّا غَفُورًا وَمَن يُهَاجِرْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ يَجِدْ فِى ٱلْأَرْضِ مُرَٰغَمًا كَثِيرًا وَسَعَةً وَمَن يَخْرُجْ مِنۢ بَيْتِهِۦ مُهَاجِرًا إِلَى ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ ثُمَّ يُدْرِكْهُ ٱلْمَوْتُ فَقَدْ وَقَعَ أَجْرُهُۥ عَلَى ٱللَّهِ وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا﴾ [النساء: ٩٧-١٠٠][(٢)].

وهذا تحريضٌ على الهجرة، وترغيبٌ في مفارقة المشركين، وأن المؤمن حيثما ذهب وجد عنهم مندوحة وملجأ يتحصن فيه، عن أبي ضمرة بن العيص الزرقي الذي كان مصاب البصر وكان بمكة، فلما نزلت ﴿إِلَّا ٱلْمُسْتَضْعَفِينَ مِنَ ٱلرِّجَالِ وَٱلنِّسَآءِ وَٱلْوِلْدَٰنِ لَا يَسْتَطِيعُونَ حِيلَةً﴾ فقلت: إني لغنيٌّ وإني لذو حيلة، فتجهز يريد النبي صلى الله عليه وسلم، فأدركه الموت بالتنعيم، فنزلت هذه الآية: ﴿وَمَن يُهَاجِرْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ يَجِدْ فِى ٱلْأَرْضِ مُرَٰغَمًا كَثِيرًا وَسَعَةً وَمَن يَخْرُجْ مِنۢ بَيْتِهِۦ مُهَاجِرًا إِلَى ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ﴾[(٣)].

فبالرغم من إصابة بصره «قال لبنيه: احملوني فإني لست من المستضعفين، وإني لأهتدي الطريق، وإني لا أبيت الليلة بمكة،

(١) انظر: الهجرة في القرآن الكريم، أحزمي جزولي ص٧٥.

(٢) زهرة التفاسير، أبو زهرة ٢/ ٦٩٤.

(٣) تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ١/ ٥٢٢.

فحملوه على سرير، متوجهًا إلى المدينة، وكان شيخًا كبيرًا، فمات بالتنعيم، ولما أدركه الموت أخذ يصفق بيمينه على شماله، ويقول: اللهم هذه لك وهذه لرسولك صلى الله عليه وسلم، أبايعك على ما بايع عليه رسولك»[1].

فهؤلاء هم الصادقون في إيمانهم، إذ قد فعلوا ما يدل على الإخلاص فيه والرغبه الصادقة من نيل المغفرة والكرامة عند ربهم.

قال تعالى: ﴿لِلْفُقَرَآءِ ٱلْمُهَٰجِرِينَ ٱلَّذِينَ أُخْرِجُوا۟ مِن دِيَٰرِهِمْ وَأَمْوَٰلِهِمْ يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِّنَ ٱللَّهِ وَرِضْوَٰنًا وَيَنصُرُونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥٓ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلصَّٰدِقُونَ﴾[الحشر: ٨].

فهم قد أخرجوا من ديارهم وهي العزيزة على النفوس، المحببة إلى القلوب، «وما فعلوا ذلك إلا لإعلاء منار الدين ورفعة شأنه، وذيوع ذكره فحق لهم من ربهم النعيم المقيم، وجزيل الثواب بما لا عين رأت، ولا أذن سمعت، ولا خطر على قلب بشر، كفاء ما قاموا به من جليل الأعمال وعظيم الخلال»[2].

ثالثًا: عاقبة الاستضعاف:

إن الواجب الشرعي يحتم علينا أن نتدبر القرآن العظيم في قصص الأنبياء، نجد أن عاقبة الاستضعاف التمكين.

(١) أسباب النزول، الواحدي ص١٨١.
(٢) تفسير المراغي ١٠/ ٢٨.

قال تعالى: ﴿قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِ ٱسْتَعِينُوا۟ بِٱللَّهِ وَٱصْبِرُوٓا۟ ۖ إِنَّ ٱلْأَرْضَ لِلَّهِ يُورِثُهَا مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ ۖ وَٱلْعَٰقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ ﴿١٢٨﴾ قَالُوٓا۟ أُوذِينَا مِن قَبْلِ أَن تَأْتِيَنَا وَمِنۢ بَعْدِ مَا جِئْتَنَا ۚ قَالَ عَسَىٰ رَبُّكُمْ أَن يُهْلِكَ عَدُوَّكُمْ وَيَسْتَخْلِفَكُمْ فِى ٱلْأَرْضِ فَيَنظُرَ كَيْفَ تَعْمَلُونَ﴾[الأعراف: ١٢٨-١٢٩].

إنه مشهد النبي موسى عليه السلام مع قومه، يحدثهم بقلب النبي ولغته، ومعرفته بحقيقة ربه، وبسنته وقدره، فيوصيهم باحتمال الفتنة، والصبر على البلية، والاستعانة بالله عليها، ويعرفهم بحقيقة الواقع الكوني، فالأرض لله يورثها من يشاء من عباده، والعاقبة لمن يتقون الله ولا يخشون أحدًا سواه[3].

فنجد أن موسى عليه السلام أمر قومه بشيئين، وبشرهم بشيئين:

- أما اللذان أمر موسى عليه السلام بهما فهما: الاستعانة بالله تعالى، والصبر على بلاء الله، وإنما أمرهم بذلك لأنه ليس للمستضعفين «إلا ملاذ واحد، وهو الملاذ الحصين الأمين، وإلا وليٌّ واحد وهو الولي القوي المتين، وعليهم أن يصبروا حتى يأذن الولي بالنصرة في الوقت الذي قدره بحكمته

(٣) في ظلال القرآن، سيد قطب ٣/ ١٣٥٥.

وعلمه وألا يعجلوا، فهم لا يطلعون الغيب، ولا يعلمون الخير»[1]، قال تعالى: ﴿وَٱعْتَصِمُوا۟ بِٱللَّهِ هُوَ مَوْلَىٰكُمْ ۖ فَنِعْمَ ٱلْمَوْلَىٰ وَنِعْمَ ٱلنَّصِيرُ﴾ [الحج: ٧٨].

❁ وأما اللذان بشر بهما، فالأول: وراثة الأرض وهذا إطماع من موسى قومه في أن يورثهم الله تعالى أرض فرعون بعد إهلاكه، وذلك معنى الإرث: وهو جعل الشيء للخلف بعد السلف.

والثاني: قوله: ﴿وَٱلْعَـٰقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ﴾ أي: العاقبة الحسنى والمصير الأفضل لكل من اتقى الله تعالى وخافه، سواء في الدنيا أو الآخرة، أما في الدنيا فهو الفتح والنصر على الأعداء، وأما في الآخرة فهو نعيم الجنة[2].

إن الأرض لله، وما فرعون وقومه إلا نزلاء فيها، والله يورثها من يشاء من عباده -وفق سنته وحكمته- فلا ينظر المستضعفون إلى شيء من ظواهر الأمور التي تخيل للناظرين أن الطاغوت مكين في الأرض غير مزحزح عنها، فصاحب الأرض ومالكها هو الذي يقرر متى يطردهم منها. وإن العاقبة للمتقين طال الزمن أم قصر، فلا يخالج قلوب المستضعفين قلق على المصير، ولا يخايل لهم تقلب الذين كفروا في البلاد، فيحسبونهم باقين[3].

وتم الوعد الحق، وأورثهم الله جل جلاله مشارق الأرض ومغاربها المباركة بما صبروا.

قال تعالى: ﴿وَأَوْرَثْنَا ٱلْقَوْمَ ٱلَّذِينَ كَانُوا۟ يُسْتَضْعَفُونَ مَشَـٰرِقَ ٱلْأَرْضِ وَمَغَـٰرِبَهَا ٱلَّتِى بَـٰرَكْنَا فِيهَا ۖ وَتَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ ٱلْحُسْنَىٰ عَلَىٰ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ بِمَا صَبَرُوا۟ ۖ وَدَمَّرْنَا مَا كَانَ يَصْنَعُ فِرْعَوْنُ وَقَوْمُهُۥ وَمَا كَانُوا۟ يَعْرِشُونَ﴾[الأعراف: ١٣٧].

وقال تعالى: ﴿وَلَقَدْ كَتَبْنَا فِى ٱلزَّبُورِ مِنۢ بَعْدِ ٱلذِّكْرِ أَنَّ ٱلْأَرْضَ يَرِثُهَا عِبَادِىَ ٱلصَّـٰلِحُونَ﴾[الأنبياء: ١٠٥].

فجدير بالمؤمنين بالله تعالى ورسله أن يتفكروا في وعد الله تعالى للمؤمنين بالنصر كما وعد المرسلين إذا هم قاموا بما أمرهم تعالى به على ألستهم، وأن لا يستعظموا في هذه السبيل قوة الدول الظالمة لهم»[4].

قال تعالى: ﴿إِنَّا لَنَنصُرُ رُسُلَنَا وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَيَوْمَ يَقُومُ ٱلْأَشْهَـٰدُ﴾ [غافر: ٥١].

وقال تعالى: ﴿وَكَانَ حَقًّا عَلَيْنَا نَصْرُ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾[الروم: ٤٧].

وقوله سبحانه وتعالى: ﴿وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مِنكُمْ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّـٰلِحَـٰتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُم

(١) المصدر السابق.
(٢) التفسير المنير، الزحيلي ٥/ ٥٨.
(٣) في ظلال القرآن ٣/ ١٣٥٥.
(٤) المنار، محمد رشيد رضا ٩/ ٧٦.

﴿فِي الْأَرْضِ كَمَا اسْتَخْلَفَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ الَّذِي ارْتَضَىٰ لَهُمْ وَلَيُبَدِّلَنَّهُم مِّن بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْنًا يَعْبُدُونَنِي لَا يُشْرِكُونَ بِي شَيْئًا وَمَن كَفَرَ بَعْدَ ذَٰلِكَ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ﴾[النور: ٥٥].

ولعل في قصة موسى عليه السلام في سورة القصص ما يبين للمسلم كيف تتدخل قدرة الله تعالى في نصر المستضعفين.

قال تعالى: ﴿وَنُرِيدُ أَن نَّمُنَّ عَلَى الَّذِينَ اسْتُضْعِفُوا فِي الْأَرْضِ وَنَجْعَلَهُمْ أَئِمَّةً وَنَجْعَلَهُمُ الْوَارِثِينَ ۝ وَنُمَكِّنَ لَهُمْ فِي الْأَرْضِ وَنُرِيَ فِرْعَوْنَ وَهَامَانَ وَجُنُودَهُمَا مِنْهُم مَّا كَانُوا يَحْذَرُونَ﴾[القصص: ٥-٦].

فكان الضعف علامة على التمكين، «فذكر سبحانه ما أكرم به هذه الأمة وما أتاح لها من السلطان الديني والدنيوي، فتأسست لهم دولة عظيمة في بلاد الشام، وصاروا يتصرفون في أرض مصر كما شاؤوا وخلاصة الأمر:

- إن فرعون علا في الأرض.
- استضعف حزبًا من أحزاب مصر.
- قتل الأبناء.
- استحيا النساء.
- إنه كان من المفسدين

وقد قابل سبحانه هذه الخمسة بخمسة مثلها تكرمه لبني إسرائيل:

- إنه مَنَّ عليهم بإنقاذهم من بطش فرعون وجبروته.
- إنه جعلهم أئمة مقدمين في الدارين.
- إنه ورثهم أرض الشام.
- إنه مكن لهم في أرض الشام ومصر.
- إنه أرى فرعون وهامان وجنودهما ما كانوا يحذرون من ذهاب ملكهم على أيديهم.

وانظر إلى الدولتين الفارسية والرومية، وما كان لهما من مجد بازخ، وملك واسع، كيف دالت دولتهما، وذهب ريحهما بظلم أهلهما، وتقسم ملكهما، ثم قامت بعدهما الدولة العربية وعاشت ما شاء الله أن تعيش، ثم قام بعدها بنوا عثمان، وملكوا أكثر مما كان بيد الأمة العربية، ثم هرمت دولتهم وشاخت واستولت عليها ممالك أوربا: ﴿قُلِ اللَّهُمَّ مَالِكَ الْمُلْكِ تُؤْتِي الْمُلْكَ مَن تَشَاءُ وَتَنزِعُ الْمُلْكَ مِمَّن تَشَاءُ وَتُعِزُّ مَن تَشَاءُ وَتُذِلُّ مَن تَشَاءُ بِيَدِكَ الْخَيْرُ إِنَّكَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾[آل عمران: ٢٦]»[١].

موضوعات ذات صلة

الذل، العزم، المرض، الوهن

(١) تفسير المراغي ٧/ ١١٩-١٢٠.





عناصر الموضوع

المجلد الحادي والعشرون

مفهوم الضلال

أولًا: المعنى اللغوي:

الضاد واللام أصل يدل على ضياع الشيء، وذهابه في غير حقه، يقال: ضَلَّ اللبن في الماء، بمعنى: استهلك وضاع، وأضل الميت، إذا دفن، وكأنه شيء قد ضاع، يقال: ضَلَلْت أَضِلُّ وأَضَلُّ، لغتان، وضَلَلْتُ أَضِلُّ وأَضَلُّ، وهما لغتان أيضًا، والضَّلَال والضَّلَالة بمعنىً واحدٍ، ورجلٌ ضِلِّيلٌ ومُضَلَّلٌ، إذا كان صاحب ضلالٍ وباطلٍ[1].

وكل جائرٍ عن القصد فهو ضالٌ، وما كان ضد الهدى والرشاد فهو ضلالٌ وضلالةٌ[2]، وكل حيادةٍ عن طريق الحق فهو ضلالٌ أيضًا، والنسيان من الضلال[3].

وأما قولهم: الضالة، فإنها لا تقع إلا على الحيوان ذكرًا كان أو أنثى، وأما الأمتعة من غير الحيوان، فلا يقال لها ضالة، ولكنها تسمى لقطة[4].

إن مادة ضل جاءت في اللغة على معانٍ متعددة، منها: ضاع، ومات، وصار ترابًا وعظامًا، وخفي وغاب، ونسي[5].

ثانيًا: المعنى الاصطلاحي:

إن الضلال والضلالة مصطلحان متقاربان، لكنهما يختلفان في نقاط، أهمها[6]:

إن الضلالة والضلال يشتركان في أن كليهما يعني فقد ما يوصل إلى المطلوب، إلا أن الضلال يختص بأنه خطأ الشيء في مكانه دون الاهتداء إليه.

والضلالة بمعنى الهلاك والإضاعة، والضلال بمعنى الضياع والعدول عن الطريق المستقيم.

وعلى هذا فإن الضلالة أعم من الضلال، لكن الضلال أخص وأدق في طبيعة تشخيص أمراض الأمة، كما أنه محل هذه الدراسة، ومن ثم فقد فطن العلماء للفرق بينهما، وهذه

---

(١) انظر: مقاييس اللغة، ابن فارس ٣/ ٣٥٦، المحكم والمحيط الأعظم، ابن سيده ٨/ ١٥٣.
(٢) انظر: مقاييس اللغة، ابن فارس ٣/ ٣٥٦، المحكم والمحيط الأعظم، ابن سيده ٨/ ١٥٣، لسان العرب، ابن منظور ١١/ ٣٩٠.
(٣) انظر: مشارق الأنوار، القاضي عياض ٢/ ٥٨،
(٤) انظر: الزاهر في غريب ألفاظ الشافعي، الأزهري ص١٧٧.
(٥) انظر: القاموس المحيط، الفيروزآبادي ص١٠٢٤.
(٦) انظر: الكليات، الكفوي ص٥٧٦.



بعض تعريفاتهم لمصطلح الضلال، وذلك فيما يأتي:

عرفه السيوطي رحمه الله بأنه: «اعتقاد الباطل حقًا، أو الكذب صدقًا، أو القبح جميلًا، وبالعكس»[(١)].

وعرفه الراغب الأصفهاني رحمه الله تعالى بأنه: «العدول عن الطريق المستقيم، ويضاده الهداية»[(٢)].

وعرفه الجرجاني والمناوي رحمهما الله تعالى بأنه: «فقدان ما يوصل إلى المطلوب»[(٣)].

وذكر البعض تعريفًا له بأنه: كل عدول عن النهج عمدًا أو سهوًا قليلًا كان أو كثيرًا[(٤)].

وبالنظر إلى التعريفات السابقة لمصطلح الضلال يتبين أن التعريف الأخير هو الراجح؛ لموافقته المعنى اللغوي من جهة، ولاشتماله على جميع المعاني المتفرعة من مادة ضل في القرآن الكريم من جهة أخرى، والله أعلم.

---

(١) مقاليد العلوم، السيوطي ص٢٠٢.
(٢) المفردات، الراغب الأصفهاني ص٥٠٩.
(٣) التعريفات، الجرجاني ص١٣٨، التوقيف على مهمات التعاريف، المناوي ص٢٢٣.
(٤) انظر: التوقيف على مهمات التعاريف، المناوي ص٢٢٣.

الضلال في الاستعمال القرآني

وردت مادة (ض ل ل) في القرآن الكريم(١٩١) مرة [١].

والصيغ التي وردت، هي:

الصيغة	عدد المرات	المثال
الفعل الماضي	٥٨	﴿وَلَا تَتَّبِعُوٓا۟ أَهْوَآءَ قَوْمٍ قَدْ ضَلُّوا۟ مِن قَبْلُ وَأَضَلُّوا۟ كَثِيرًا وَضَلُّوا۟ عَن سَوَآءِ ٱلسَّبِيلِ ﴿٧٧﴾﴾[المائدة:٧٧]
الفعل المضارع	٥٩	﴿لَهَمَّت طَّآئِفَةٌ مِّنْهُمْ أَن يُضِلُّوكَ وَمَا يُضِلُّونَ إِلَّآ أَنفُسَهُمْ﴾[النساء:١١٣]
المصدر	٤٨	﴿فَمَاذَا بَعْدَ ٱلْحَقِّ إِلَّا ٱلضَّلَٰلُ﴾[يونس:٣٢]
اسم الفاعل	١٧	﴿وَٱغْفِرْ لِأَبِىٓ إِنَّهُۥ كَانَ مِنَ ٱلضَّآلِّينَ ﴿٨٦﴾﴾[الشعراء:٨٦]
أفعل التفضيل	٩	﴿إِنْ هُمْ إِلَّا كَٱلْأَنْعَٰمِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ سَبِيلًا ﴿٤٤﴾﴾[الفرقان:٤٤]

وجاء الضلال في القرآن الكريم على ثلاثة وجوه [٢]:

الأول: الضلال بمعناه اللغوي الذي هو ضد الهدى، وهو الحيرة والضياع والبعد عن الصواب، ويدخل فيه الغواية والخطأ والخسران وغير ذلك: ومنه قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ أَضَلَّ مِنكُمْ جِبِلًّا كَثِيرًا﴾[يس:٦٢].يعني: أغوى.

الثاني: الإبطال: ومنه قوله تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَصَدُّوا۟ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ أَضَلَّ أَعْمَٰلَهُمْ ﴿١﴾﴾ [محمد:١].يعني: أبطلها.

الثالث: الجهل أو النسيان: ومنه قوله تعالى: ﴿فَإِن لَّمْ يَكُونَا رَجُلَيْنِ فَرَجُلٌ وَٱمْرَأَتَانِ مِمَّن تَرْضَوْنَ مِنَ ٱلشُّهَدَآءِ أَن تَضِلَّ إِحْدَىٰهُمَا فَتُذَكِّرَ إِحْدَىٰهُمَا ٱلْأُخْرَىٰ﴾[البقرة:٢٨٢] يعني: تنسى.

(١) انظر: المعجم المفهرس لألفاظ القرآن الكريم، محمد فؤاد عبد الباقي، ص٤٢١-٤٢٤، المعجم المفهرس الشامل، عبد الله جلغوم، باب الضاد ص٧١٤-٧١٧.

(٢) انظر: الوجوه والنظائر، الدامغاني، ص٣١٠-٣١٢، نزهة الأعين النواظر في علم الوجوه والنظائر، ابن الجوزي، ص٤٠٦-٤٠٩، بصائر ذوي التمييز، الفيروزآبادي، ٣/ ٤٨١-٤٨٥.

الألفاظ ذات الصلة

١ الغي:

الغي لغةً:

الإمعان في الضلال، قال تعالى: ﴿مَا ضَلَّ صَاحِبُكُمْ وَمَا غَوَىٰ﴾ [النجم: ٢].

فهو غاوٍ، وغويٌّ وغيان، وأغواه أضله وأغراه[١].

الغي اصطلاحًا:

«سوء التصرف في الشيء، وإجراؤه على ما يسوء عاقبته»[٢].

الصلة بين الغي والضلال:

الضلال أوسع دلالةً، إذ إنه يعني: أن لا يجد السالك إلى مقصده طريقًا أصلًا، سواء أكان حكمًا أو عملًا، والغواية: أن لا يكون له إلى المقصد طريق مستقيم.

٢ الكفر:

الكفر لغة:

الستر والتغطية، يقال لمن غطى درعه بثوب: قد كفر درعه، والمكفر: الرجل المتغطي بسلاحه، وهو ضد الإيمان، لأنه تغطية للحق[٣].

الكفر اصطلاحًا:

«الجحود بالوحدانية أو النبوة، أو الشريعة، أو بثلاثتها»[٤].

وقيل: هو تغطية الحق بالباطل، بما يكون نقيض الإيمان[٥].

الصلة بين الكفر والضلال:

الضلال أوسع مضمونًا من الكفر؛ إذ إن الكفر يعني الجانب العمد من العدول عن المنهج، بما يكون نقيضًا للإيمان.

(١) انظر: المعجم الوسيط، مجمع اللغة العربية ٢/ ٦٦٧.
(٢) التوقيف على مهمات التعاريف، المناوي ص٢٥٥.
(٣) انظر: مقاييس اللغة، ابن فارس ٥/ ١٩١.
(٤) انظر: المفردات، الراغب الأصفهاني ص٤٧٩، المعجم الوسيط، مجمع اللغة العربية ٢/ ٧٩١.
(٥) انظر: مقاليد العلوم، السيوطي ص٧٤.

٣ الشرك:

الشرك لغة:

مأخوذ من شرك، ومنه: «أشرك بالله: كفر أي: جعل له شريكًا في ملكه تعالى الله عن ذلك»[١]، وقد يأتي بمعنى المخالطة والنصيب، لكن المراد هنا هو الكفر.

الشرك اصطلاحًا:

تسوية غير الله بالله فيما هو من خصائصه سبحانه[٢].

الصلة بين الشرك والضلال:

الشرك والضلال يتفقان أن كونهما عدولٌ عن المنهج، لكن الضلال أعم كونه يشمل العدول سهوًا أو عمدًا، وأن الضلال العمد أعم من الشرك؛ إذ إن من الضلال ما لا يخرج من الدين، ومنه ما يخرج.

٤ الهلاك:

الهلاك لغةً:

الموت، يقال: هلك هلاكًا، وهلكًا، وتهلوكًا وهلوكًا، واستهلك المال: أنفقه وأنفذه، وأهلكه: باعه، والمهلكة: المفازة[٣].

الهلاك اصطلاحًا:

«تداعي الشيء إلى أن يبطل ويفنى»[٤].

الصلة بين الهلاك والضلال:

الضلال أعم وأشمل من كون أن الهلاك يعني النفاذ والموت والإنفاق والبيع، فقد لا يترتب على فعله حكم شرعي، وقد يترتب، أما الضلال فهو جانب له علاقة بالقلب أولًا من كونه يترتب عليه حكم شرعي غالبًا.

(١) تاج العروس من جواهر القاموس، الزبيدي، ٢٧/ ٢٢٤.
(٢) أصول الإيمان في ضوء الكتاب والسنة، نخبة من العلماء، ص ٥٨.
(٣) انظر: القاموس المحيط، الفيروزآبادي ص٩٥٨.
(٤) التوقيف على مهمات التعاريف، المناوي ص٣٤٤.

٥ الحق:

الحق لغة:

هو نقيض الباطل وخلافه، وهو مصدر من حق الشيء إذا ثبت وكان واجبا[١]، ولا يصح إنكاره، يقول ابن فارس: يدل على إحكام الشيء وصحته[٢].

الحق اصطلاحًا:

هو الحكم المطابق للواقع في الأقوال والعقائد والأديان، ويقابله الباطل[٣].

الصلة بين الحق والضلال:

الحق هو ضد الباطل، الذي أعم من الضلال، والحق هو الشيء الثابت الذي لا يتغير بتغير زمان أو مكان.

---

(١) انظر: العين، الفراهيدي ٣/ ٦، المصباح المنير، الفيومي ١/ ١٤٣.
(٢) مقاييس اللغة ٢/ ١٥-١٧ بتصرف.
(٣) انظر: التعريفات، الجرجاني ص ٨٩.

الضلال والهداية بيد الله تعالى

من الأمور المسلم بها أن الضلال والهداية بيد الله تعالى؛ فلا يضل أحدٌ إلا بعلمه، ولا يهتدي أحدٌ إلا بإذنه، وسوف يتم تناول هذا -إن شاء الله تعالى- بالتفصيل فيما يلي:

أولًا: الضلال والهداية بمشيئة الله تعالى:

قال تعالى: ﴿وَالَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا صُمٌّ وَبُكْمٌ فِي الظُّلُمَاتِ مَن يَشَإِ اللَّهُ يُضْلِلْهُ وَمَن يَشَأْ يَجْعَلْهُ عَلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾ [الأنعام: ٣٩].

أي: مثلهم في جهلهم، وقلة علمهم، وعدم فهمهم، كمثل أصم، وهو الذي لا يسمع، أبكم وهو الذي لا يتكلم، وهو مع هذا في ظلماتٍ لا يبصر، فكيف يهتدي مثل هذا إلى الطريق أو يخرج مما هو فيه، ولهذا فهو المتصرف في خلقه بما يشاء[(١)].

وقوله: ﴿مَن يَشَإِ اللَّهُ يُضْلِلْهُ﴾ دل على أنه شاء ضلال الكافر وأراده؛ لينفذ فيه عدله، وقوله: ﴿وَمَن يَشَأْ يَجْعَلْهُ عَلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾ أي: على دين الإسلام؛ لينفذ فيه فضله، والمشيئة راجعة إلى الكاذبين، فمنهم من يضله ومنهم من يهديه[(٢)].

(١) انظر: تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ٣/ ٢٥٥.

(٢) انظر: الجامع لأحكام القرآن، القرطبي ٦/ ٤٢٢.

وقال تعالى: ﴿فَمَن يُرِدِ اللَّهُ أَن يَهْدِيَهُ يَشْرَحْ صَدْرَهُ لِلْإِسْلَامِ وَمَن يُرِدْ أَن يُضِلَّهُ يَجْعَلْ صَدْرَهُ ضَيِّقًا حَرَجًا كَأَنَّمَا يَصَّعَّدُ فِي السَّمَاءِ كَذَٰلِكَ يَجْعَلُ اللَّهُ الرِّجْسَ عَلَى الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ [الأنعام: ١٢٥].

أي: فمن يرد الله تعالى أن يكتب له الهداية التوفيقية فضلًا عن الإرشادية يشرح صدره، فيوسع قلبه لقبول الإيمان، والخير، وذلك أن الإنسان إذا اعتقد في عملٍ من الأعمال أن نفعه زائد، وخيره راجح، مال بطبعه إليه، وقويت رغبته فيه، فتسمى هذه الحالة سعة النفس وانشراح الصدر، والشرح نورٌ يقذفه الله تعالى في قلب العبد، فيعرف بذلك النور الحق، فيقبله وينشرح صدره له. وأما من يريد الله تعالى أن يكتب له الضلالة فإنه يجعل صدره ضيقًا؛ حتى لا يدخله الإيمان، فليس للخير فيه منفذ[(٣)].

وقد وردت آية أخرى قريبة من هذا المعنى، وهي قوله تعالى: ﴿مَن يَهْدِ اللَّهُ فَهُوَ الْمُهْتَدِ وَمَن يُضْلِلْ فَلَن تَجِدَ لَهُ وَلِيًّا مُّرْشِدًا﴾ [الكهف: ١٧].

وفي ذلك يقول الرسول صلى الله عليه وسلم: (من يرد الله به خيرًا يفقهه في الدين)[(٤)]، ولا يكون ذلك إلا بشرح الصدر

(٣) انظر: لباب التأويل، الخازن ٢/ ١٥٤-١٥٥.

(٤) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب العلم، باب من يرد الله به خيرًا يفقهه في الدين ١/ ٢٥، رقم ٧١، ومسلم في صحيحه، كتاب

وتنويره[1].

وقد وضع القرآن الكريم عدة معالم في هذا الموضوع، منها:

١ . لا هادي لمن أضله الله تعالى.

قد ورد معنى كون الهداية والإضلال بيده سبحانه في قوله تعالى: ﴿وَمَن يَهْدِ ٱللَّهُ فَهُوَ ٱلْمُهْتَدِ ۖ وَمَن يُضْلِلْ فَلَن تَجِدَ لَهُمْ أَوْلِيَآءَ مِن دُونِهِۦ ۖ وَنَحْشُرُهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ عَلَىٰ وُجُوهِهِمْ عُمْيًا وَبُكْمًا وَصُمًّا ۖ مَّأْوَىٰهُمْ جَهَنَّمُ ۖ كُلَّمَا خَبَتْ زِدْنَٰهُمْ سَعِيرًا﴾ [الإسراء: ٩٧].

قال الإمام الرازي: «فالمقصود تسلية الرسول صلى الله عليه وسلم وهو أن الذين سبق لهم حكم الله بالإيمان والهداية وجب أن يصيروا مؤمنين، ومن سبق لهم حكم الله بالضلال والجهل استحال أن ينقلبوا عن ذلك الضلال، واستحال أن يوجد من يصرفهم عن ذلك الضلال»[2].

ثم تبين هذه الآية الكريمة أن هؤلاء الضالين الذين أضلهم الله تعالى سيسحبون يوم القيامة على وجوههم، أو يمشون بها، فكما مشوا في الدنيا على أقدامهم سيمشون يوم القيامة على وجوههم[3].

الزكاة، باب النهي عن المسألة ٢/ ٧١٨، رقم ١٠٣٧.

(١) انظر: الجامع لأحكام القرآن، القرطبي ٧/ ٨١.

(٢) مفاتيح الغيب، الرازي ٢١/ ٤١١.

(٣) انظر: أنوار التنزيل، البيضاوي ٣/ ٢٦٧.

ثم تأتي الفاصلة القرآنية في هذه الآية لتبين عاقبة الضالين بأنهم «كلما أكلت لحومهم، فسكن لهبها، بدلوا أجسادًا أخر، ثم صارت ملتهبةً أكثر مما كانت»[4].

وإن هذه الآية الكريمة حالها كحال الآيات المكية، تبين أن الهداية هنا هداية إلى الإيمان، والضلال فهو استحباب الكفر على الإيمان، ولذلك فإن سحب الولاية المذكور في الآية يأتي في سياق أن الكافرين الضالين إذا اختاروا الضلالة سوف يكتب لهم الغواية، وسيستدرجون إلى مزيد من الذنوب؛ حتى يأخذهم الله تعالى للعذاب الأليم، يضاف إلى أن مبدأ النصرة لهم من دون الله تعالى محالٌ في حقهم.

٢ . عِلْم الله تعالى بالضالين.

قال تعالى: ﴿إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ مَن يَضِلُّ عَن سَبِيلِهِۦ ۖ وَهُوَ أَعْلَمُ بِٱلْمُهْتَدِينَ﴾ [الأنعام: ١١٧].

فقد بينت الآية السابقة أن الرسول صلى الله عليه وسلم إن يطع أكثر أهل الأرض من كفار قريش فيما يدعونه إلى ملة آبائهم؛ فإن أكثر أهل الأرض كانوا كفارًا، وإن هؤلاء الكفار ما يتبعون إلا الظن في أكل الميتة واستحلالها، وما هم إلا كاذبون في استحلالهم الميتة[5].

(٤) التسهيل لعلوم التنزيل، ابن جزي ١/ ٤٥٥.

(٥) انظر: تفسير السمرقندي ١/ ٤٧٧.

وتأتي هذه الآية لتبين أن الله تعالى الذي هو رب كل شيء، هو أعلم من يضل عن سبيل الله الذي هو الدين[1].

فهو يعلم أن محمدًا صلى الله عليه وسلم على الهدى، وأن المشركين ضلوا عن سبيله، وفي هذا بشارةٌ للنبي محمد صلى الله عليه وسلم أنك على الصراط المستقيم، أما المشركون فهم الذين عدلوا عن الصراط المستقيم عمدًا وإمعانًا في الضلال[2].

وقال تعالى: ﴿إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَن ضَلَّ عَن سَبِيلِهِۦ وَهُوَ أَعْلَمُ بِٱلْمُهْتَدِينَ﴾ [القلم: ٧].

أي: إن الله تعالى الذي هو ربك يا محمد صلى الله عليه وسلم هو أعلم بمن عدل عن طريق الحق وهو أعلم أيضًا بالمهتدين الذين يتبعون ذلك الحق.

والمقصود أن الله تعالى يبين بأنه هو الأعلم بالنبي محمد صلى الله عليه وسلم وأنه المهتدي وأن قومه هم الضالون[3].

٣. الإضلال بعد إقامة الحجة بالرسل وورثتهم.

قد ورد ذكر الإضلال بعد إقامة الحجة جليًا في قوله تعالى: ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن رَّسُولٍ إِلَّا بِلِسَانِ قَوْمِهِۦ لِيُبَيِّنَ لَهُمْ فَيُضِلُّ ٱللَّهُ مَن يَشَآءُ وَيَهْدِى مَن يَشَآءُ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ﴾ [إبراهيم: ٤].

فالمعنى: لست يا محمد صلى الله عليه وسلم ببدعٍ من الرسل، وإنما أرسلناك لتخرج الناس من الظلمات إلى النور، على عادتنا في رسلنا، في أن نبعثهم بألسنة القوم الذين أرسلوا إليهم؛ ليقع البيان والعبارة المتمكنة، ثم إن النبي صلى الله عليه وسلم إنما يطلب منه أن يبلغ ويبين، ولم يكلف أن يهدي ويضل، بل إن ذلك بيد الله تعالى، ينفذ فيه سابق قضائه، وله في ذلك العزة التي لا تعارض[4].

وإن من لطفه تعالى أنه يرسل إلى خلقه رسلًا منهم بلغاتهم؛ ليفهموا عنهم ما يريدون، وما أرسلوا به إليهم[5]، قال الرسول صلى الله عليه وسلم: (لم يبعث الله عز وجل نبيًا إلا بلغة قومه)[6].

وقد أفردت كلمة «لسان» رغم إضافته إلى القوم؛ لأن المراد اللغة، وهي اسم جنس

(١) انظر: تفسير القرآن العظيم، ابن أبي حاتم ٤/ ١٣٧٥.

(٢) انظر: تفسير القرآن العزيز، ابن أبي زمنين ٢/ ٩٤.

(٣) انظر: الهداية إلى بلوغ النهاية، مكي بن أبي طالب ١٢/ ٧٦٢٣.

(٤) انظر: المحرر الوجيز، ابن عطية ٣/ ٣٢٣.

(٥) انظر: تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ٤/ ٤٧٧.

(٦) أخرجه أحمد في مسنده، حديث أبي ذر الغفاري رضي الله عنه، ٣٥/ ٣٢٣، رقم ٢١٤١٠.

وصححه الألباني في صحيح الجامع، ٢/ ٩٢٢، رقم ٥١٩٧.

يقع على القليل والكثير[1].

وثمة سؤال يتم طرحه، وهو: كيف تذكر هذه الآية أنه ما من رسولٍ إلا ويبعث بلغة قومه، مع أن النبي صلى الله عليه وسلم بعث إلى كافة الخلق، مع اختلاف لغاتهم؟ وجواب ذلك أن الرسول صلى الله عليه وسلم بعث من العرب بلسانهم، والناس تبعٌ لهم[2].

ثانيًا: نسبة الضلال إلى الإنسان:

قد ورد ذكر نسب الضلال إلى الإنسان جليًا في قوله تعالى: ﴿قُلْ إِن ضَلَلْتُ فَإِنَّمَآ أَضِلُّ عَلَىٰ نَفْسِى ۖ وَإِنِ ٱهْتَدَيْتُ فَبِمَا يُوحِىٓ إِلَىَّ رَبِّىٓ ۚ إِنَّهُۥ سَمِيعٌ قَرِيبٌ﴾ [سبأ: ٥٠].

أي: قل يا محمد صلى الله عليه وسلم إن عدلت عن الطريق الواضحة، فإن إثم ضلالتي وعدولي عن المنهج يكون على نفسي[3]، فإن ما تدينت به من الدين إن كان ضلالًا -كما تقولون- فإنما وبال ضلالي يعود إلى نفسي، فكيف أختار الوبال على نفسي، مع أنه لا جنون بي، ولا منفعة دنيوية تعود إلي؟!

وإن كان هذا هدايةً، فليس من قبل نفسي، ولا من عند أحدٍ من أهل هذا البلد؛ لأن ظاهر الأمر أني أميٌّ ما كتبت ولا قرأت، فلا يمكن أن يكون هذا القرآن إلا مستقىً من الله تعالى وحيًا فلزم، بل وجب عليكم أن تتبعوني، فتهتدوا كما اهتديت[4].

إن الرد القرآني في هذه الآية الكريمة على الكفار -الذين زعموا أنه صلى الله عليه وسلم غير صادق في دعوى الرسالة، وأنه على ضلال- كان قاطعًا بأنه على هدىً، بقوله: ﴿قُلْ جَآءَ ٱلْحَقُّ وَمَا يُبْدِئُ ٱلْبَٰطِلُ وَمَا يُعِيدُ﴾ [سبأ: ٤٩].

وانتقل هنا إلى متاركة جدالهم، وتركهم وشأنهم؛ لقلة جدوى مراجعتهم، وصيغة القصر هنا لتبين أن الضلال المفروض على نفسي لا عليكم؛ لأنهم كانوا يحاولون أن يقلعوه عما دعاهم إليه، ولم يقتصروا على صدودهم[5].

(١) انظر: الجامع لأحكام القرآن، القرطبي ٩/ ٣٤٠.
(٢) انظر: معالم التنزيل، البغوي ٣/ ٣٠.
(٣) انظر: فتح البيان، القنوجي ١١/ ٢١٠.
(٤) انظر: التفسير المظهري، ٨/ ٣٨.
(٥) انظر: التحرير والتنوير، ابن عاشور ٢٢/ ٢٣٩.

شراء الضلالة

ورد شراء الضلالة في موضعين من القرآن الكريم، وهما:

الأول: قوله تعالى: ﴿أُولَٰئِكَ الَّذِينَ اشْتَرَوُا الضَّلَالَةَ بِالْهُدَىٰ فَمَا رَبِحَت تِّجَارَتُهُمْ وَمَا كَانُوا مُهْتَدِينَ﴾ [البقرة: ١٦].

حيث إن هذه الآية جاءت في سياق الحديث عن المنافقين وصفاتهم؛ حتى حكم عليهم بأنهم أخذوا الضلالة، وتركوا الهدى، فيكونون بذلك قد استبدلوا الكفر بالإيمان؛ لأن استبدالهم الضلالة بالهدى كان استحبابًا فيه، ومثل هؤلاء المنافقين في الوصف القرآني قوم ثمود؛ حيث قال الله تعالى فيهم: ﴿وَأَمَّا ثَمُودُ فَهَدَيْنَاهُمْ فَاسْتَحَبُّوا الْعَمَىٰ عَلَى الْهُدَىٰ﴾ [فصلت: ١٧].

وتأتي الفاصلة القرآنية لتبين أن النتيجة عند الله تعالى أن صفقتهم في هذه البيعة كانت خاسرة، ومن ثم فإنهم لم يكونوا راشدين في صنيعهم ذلك[١]؛ إذ إنهم أضاعوا ما سعوا له، ولم يعرفوا ما يوصل إلى خير الآخرة، ولا ما يضر المسلمين، وهذا نداءٌ عليهم بسفه الرأي، وهو العلة لعدم ربح التجارة، حيث شبه سوء تصرفهم بسوء تصرف من يريد الربح، فيقع في الخسران[٢].

قال السمرقندي رحمه الله: «وفي الآية دليل أن الشراء قد يكون بالمعنى دون اللفظ وهو المبادلة؛ لأن الله تعالى سمى استبدالهم الضلالة بالهدى شراء، ولم يكن هنالك لفظ شراء»[٣]؛ ولذلك فإن الربح قد أسند إلى التجارة على عادة العرب في قولهم: ربح بيعك، وخسرت صفقتك، وهو من الإسناد المجازي[٤].

الثاني: قوله تعالى: ﴿أُولَٰئِكَ الَّذِينَ اشْتَرَوُا الضَّلَالَةَ بِالْهُدَىٰ وَالْعَذَابَ بِالْمَغْفِرَةِ ۚ فَمَا أَصْبَرَهُمْ عَلَى النَّارِ﴾ [البقرة: ١٧٥].

حيث وردت هذه الآية في معرض الحديث عن اليهود عامة، وعلمائهم خاصة، فقد بينت الآية السابقة أن هناك وعيدًا شديدًا لمن كتم ما أنزل تعالى على رسله من العلم الذي أخذ الله تعالى الميثاق على أهله أن يبينوه ولا يكتموه، فيكونون يبتغون بذلك تحصيل المال، فمن تعوض عنه بالحطام الدنيوي، ونبذ أمر الله تعالى فإن هذا المال الذي يأخذونه نارٌ في بطونهم؛ لأنه اكتسابٌ حصل لهم بأقبح المكاسب، وأعظم المحرمات، وليس الأمر كذلك فحسب، بل يسخط الله تعالى عليهم، ويعرض عنهم يوم القيامة، ولا يطهرهم من الأخلاق الرذيلة،

(١) انظر: تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ١/ ١٨٥.
(٢) انظر: التحرير والتنوير، ابن عاشور ١/ ٢٩٨.
(٣) تفسير السمرقندي ١/ ٣٠.
(٤) انظر: فتح القدير، الشوكاني ١/ ٥٤.

وفوق كل هذا أعد الله لهم عذابًا كثير الألم[1].

وتبين هذه الآية الكريمة جرأة اليهود في استهانتهم بعذاب النار، الذي أعده الله تعالى لهم، وفي ذلك يقول الإمام الرازي -رحمه الله تعالى-: «اعلم أنه تعالى لما وصف علماء اليهود بكتمان الحق وعظم في الوعيد عليه، وصف ذلك الجرم؛ ليعلم أن ذلك العقاب إنما عظم لهذا الجرم العظيم، واعلم أن الفعل إما أن يعتبر حاله في الدنيا أو في الآخرة، أما في الدنيا فأحسن الأشياء الاهتداء والعلم، وأقبح الأشياء الضلال والجهل، فلما تركوا الهدى والعلم في الدنيا، ورضوا بالضلال والجهل، فلا شك أنهم في نهاية الخيانة في الدنيا، وأما في الآخرة فأحسن الأشياء المغفرة، وأخسرها العذاب، فلما تركوا المغفرة ورضوا بالعذاب، فلا شك أنهم في نهاية الخسارة في الآخرة.

وإذا كانت صفتهم على ما ذكرناه، كانوا لا محالة أعظم الناس خسارًا في الدنيا وفي الآخرة، وإنما حكم تعالى عليهم بأنهم اشتروا العذاب بالمغفرة لأنهم لما كانوا عالمين بما هو الحق، وكانوا عالمين بأن في إظهاره وإزالة الشبهة عنه أعظم الثواب، وفي إخفائه وإلقائه الشبهة فيه أعظم العقاب، فلما أقدموا على إخفاء ذلك الحق كانوا بائعين للمغفرة بالعذاب لا محالة»[2].

ثم تأتي الفاصلة القرآنية باستفهام توبيخي، يعني: ما الذي أصبرهم، وأي شيء صبرهم على النار؛ حتى تركوا الحق واتبعوا الباطل، ويحتمل أن يكون الاستفهام للتعجب والتقرير بأن الراضي بموجب الشيء لابد أن يكون راضيًا بمعلومه ولازمه، إذا علم ذلك اللزوم، فلما أقدموا على ما يوجب النار، ويقتضي عذاب الله تعالى مع علمهم بهذه العاقبة المنتظرة صاروا كالراضين بعذاب الله تعالى، والصابرين عليه[3].

إن ما بدر من علماء اليهود بهذه الصفقة الغبية أشبه بكونها «صفقة يدفعون فيها الهدى، ويقبضون الضلالة، ويؤدون المغفرة ويأخذون فيها العذاب، فما أخسرها من صفقة وأغباها! ويا لسوء ما ابتاعوا وما اختاروا! وإنها لحقيقة، فقد كان الهدى مبذولًا لهم فتركوه وأخذوا الضلالة، وكانت المغفرة متاحة لهم فتركوها واختاروا العذاب»[4].

(١) انظر: تيسير الكريم الرحمن، السعدي ص٨٢.

(٢) مفاتيح الغيب، الرازي ٥/ ٢٠٦.

(٣) انظر: مفاتيح الغيب، الرازي ٥/ ٢٠٦.

(٤) في ظلال القرآن، سيد قطب ١/ ١٥٨.

الضلال المبين والبعيد

وصف الله تعالى في القرآن الكريم الضلال بأنه بعيدٌ تارةً، وبأنه مبين تارةً أخرى، وسيتم الوقوف إن شاء الله تعالى هنا على هذه المواضع كما وردت في السياق القرآني؛ لتجلية ما في ذلك من حكمٍ وأسرار أطلعنا الله تعالى عليها، وذلك فيما يأتي:

أولًا: وصف الضلال بالمبين:

وقد ورد ذلك في ستة عشر موضعًا، ومنها:

قوله تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَٰهِيمُ لِأَبِيهِ ءَازَرَ أَتَتَّخِذُ أَصْنَامًا ءَالِهَةً إِنِّيٓ أَرَىٰكَ وَقَوْمَكَ فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ﴾ [الأنعام: ٧٤].

أتنسك لصنم تعبده من دون الله؟! إني أراك وكل السالكين مسلكك تائهين لا تهتدون أين تسلكون، بل أنتم في حيرة وجهلٍ، وأمركم في الجهالة والضلال، وهذا بينٌ واضحٌ لكل ذي عقلٍ سليم[1].

كما وصف قوم نوحٍ نوحًا عليه السلام بالضلال بالمبين في قوله تعالى: ﴿قَالَ ٱلْمَلَأُ مِن قَوْمِهِۦٓ إِنَّا لَنَرَىٰكَ فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ﴾ [الأعراف: ٦٠].

والقوم هنا هم قوم نوح عليه السلام، والمعنى: إنا لنراك يا نوح في دعوتك إيانا قد صرت من الضالين التائهين عن طريق الحق، وهكذا حال الفجار، ومثل هذا قوله تعالى: ﴿وَإِذَا رَأَوْهُمْ قَالُوٓا۟ إِنَّ هَٰٓؤُلَآءِ لَضَآلُّونَ﴾ [المطففين: ٣٢][2].

كما وصفت امرأة العزيز بالضلال بالمبين في قوله تعالى: ﴿وَقَالَ نِسْوَةٌ فِى ٱلْمَدِينَةِ ٱمْرَأَتُ ٱلْعَزِيزِ تُرَٰوِدُ فَتَىٰهَا عَن نَّفْسِهِۦ ۖ قَدْ شَغَفَهَا حُبًّا ۖ إِنَّا لَنَرَىٰهَا فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ﴾ [يوسف: ٣٠].

إن هذا القول جاء على لسان نسوةٍ وصفًا لامرأة العزيز على حبها ليوسف عليه السلام، وتعلق قلبها به، لكن الله تعالى عصمه منها[3].

كما وُصِفَ أبو يوسف بالضلال المبين في قوله تعالى: ﴿إِذْ قَالُوا۟ لَيُوسُفُ وَأَخُوهُ أَحَبُّ إِلَىٰٓ أَبِينَا مِنَّا وَنَحْنُ عُصْبَةٌ إِنَّ أَبَانَا لَفِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ﴾ [يوسف: ٨].

والمقصود بالضلال هنا الذهاب عن وجه التدبير في إيثار اثنين على عشرة مع استوائهم في الانتساب إليه[4].

كما وصف الكافرين بالضلال المبين في قوله تعالى: ﴿أَسْمِعْ بِهِمْ وَأَبْصِرْ يَوْمَ يَأْتُونَنَا ۖ لَٰكِنِ ٱلظَّٰلِمُونَ ٱلْيَوْمَ فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ﴾ [مريم: ٣٨].

والضلال هنا هو ضلال عن طريق الجنة

(١) انظر: تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ٣/ ٢٨٩.

(٢) انظر: المصدر السابق ٣/ ٤٣٢.

(٣) انظر: الجامع لأحكام القرآن، القرطبي ٩/ ١٧٧.

(٤) انظر: المصدر السابق ٩/ ١٣٠.

بخلاف المؤمنين[(١)].

كما وصف قوم إبراهيم عليه السلام بالضلال المبين في قوله تعالى: ﴿قَالَ لَقَدْ كُنتُمْ أَنتُمْ وَءَابَآؤُكُمْ فِي ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ﴾ [الأنبياء: ٥٤].

الضلال هو العدول عن المنهج عدولًا ظاهرًا لا يخفى على عاقل[(٢)].

كما وصف جنود إبليس بالضلال المبين في قوله تعالى: ﴿تَاللَّهِ إِن كُنَّا لَفِي ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ﴾ [الشعراء: ٩٧].

الضلال هنا هو الخطأ البين[(٣)].

ويتبين -بعد الرجوع إلى تفسير بعض النماذج القرآنية التي وصفت الضلال بالمبين- الملاحظات الآتية:

الملاحظة الأولى: إن السواد الأعظم من الآيات التي وصفت الضلال بالمبين مكيةٌ؛ حيث بلغ عدد المكيات منها أربع عشرة آية، في مقابل آيتين مدنيتين.

الملاحظة الثانية: إن الضلال المبين الذي ورد في المواضع التي ذكر فيها تحتمل المعاني الآتية:

١. البين الواضح لكل ذي عقلٍ سليم.
٢. الخطأ البين.
٣. الظاهر الذي لا يخفى على عاقل.
٤. الخسران الظاهر.
٥. الغواية الظاهرة.
٦. الضلال الظاهر الواضح.
٧. لا شبهة فيه.
٨. ذهابٌ عن الحق.

ولا شك أن جميعها تدور حول المعنى العام للضلال، الذي هو عدول عن المنهج عمدًا كان أو سهوًا، مما يبين أن الضلال له وجوه متعددة، متفرعة عن المعنى العام له؛ لتعالج الموقف المناسب بمعنىً يختص به.

ثانيًا: وصف الضلال البعيد:

وقد ورد ذلك في سبعة مواضع، منها:

وصف الله تعالى الكافرين بالضلال البعيد في قوله: ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَصَدُّوا عَن سَبِيلِ اللَّهِ قَدْ ضَلُّوا ضَلَٰلًا بَعِيدًا﴾ [النساء: ١٦٧].

أي: إن الذين كفروا بالله تعالى صدوا عن سبيله قد بعدوا عن المنهج بعدًا عظيمًا شاسعًا[(٤)].

كما وصف الله تعالى الكافرين أيضًا بقوله: ﴿الَّذِينَ يَسْتَحِبُّونَ الْحَيَوٰةَ الدُّنْيَا عَلَى الْآخِرَةِ وَيَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ اللَّهِ وَيَبْغُونَهَا عِوَجًا أُولَٰٓئِكَ فِي ضَلَٰلٍ بَعِيدٍ﴾ [إبراهيم: ٣].

الضلال هنا هو عدولٌ عن طريق الحق، وقيل: يجوز أن يراد بالضلال البعيد، أي: ذي بعدٍ، أو فيه بعدٌ؛ لأن الضال يبعد عن

---

(١) انظر: لباب التأويل، الخازن ٣/ ١٨٨.
(٢) انظر: مدارك التنزيل، النسفي ٢/ ٤٠٨.
(٣) انظر: تفسير السمرقندي ٢/ ٥٦٠.
(٤) انظر: تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ٢/ ٤٧٦.

الطريق[1].

كما وصف الله تعالى قرين السوء بالضلال البعيد في قوله تعالى: ﴿قَالَ قَرِينُهُۥ رَبَّنَا مَآ أَطْغَيْتُهُۥ وَلَٰكِن كَانَ فِى ضَلَٰلٍۭ بَعِيدٍ﴾ [ق: ٢٧].

الضلال ثابت للإنسان الضال بالأصالة ملازم لتكوينه، والبعيد مستعارٌ للبالغ في قوة النوع حدًا لا يبلغ إليه إدراك العاقل بسهولة، كما لا تبلغ سير السائر إلى المكان البعيد إلا بمشقة أو بعيد الزمان، أي: قديم أصيل، والمعنى: إن تمكن الضلال منه يدل على أنه ليس فيه بتابع لما يمليه غيره عليه[2].

ويتضح هنا أن مصطلح الضلال البعيد في المواضع السابقة التي ذكر فيها يعني أحد خمسة احتمالات:

- إما أي ذي بعدٍ عن الحق والطريق المستقيم.
- وإما أنه ضلال قديم أصيل.
- وإما البعد عن الصواب.
- وإما الخروج عن الهدى والبعد عن القصد.
- وإما البعد عن الحق بعدًا عظيمًا.

ويتضح أيضًا أن للضلال البعيد أسبابًا، منها: استحباب الحياة الدنيا على الآخرة، والصد عن سبيل الله تعالى والكفر به، والشرك بالله، والتحاكم إلى الطاغوت، والكفر بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر، والدعاء من دون الله تعالى ما لا ينفع ولا يضر.

(١) انظر: لباب التأويل، الخازن ٣/ ٢٨.

(٢) انظر: التحرير والتنوير، ابن عاشور ٢٦/ ٣١٤.



أنواع الضلال

ورد في القرآن الكريم ما يبين أن الضلال منه ما كان عن عمدٍ يحاسب عليه المرء عند الله تعالى، ومنه ما كان عن جهلٍ ونسيان، وتوضيح ذلك فيما يأتي:

أولًا: ضلال التعمد:

وقد أخذ هذا الموضوع مساحةً في الخطاب القرآني، ومن أمثلته:

١ . ضلال قوم نوح عليه السلام.

قال تعالى: ﴿إِنَّكَ إِن تَذَرْهُمْ يُضِلُّوا عِبَادَكَ وَلَا يَلِدُوا إِلَّا فَاجِرًا كَفَّارًا﴾[نوح: ٢٧].

أي: إنك إن تركهم دون أن تهلكهم، فأبقيت أحدًا منهم حيًا، سيدعون عباد الله تعالى المؤمنين إلى الضلال، ولا يلدوا إلا كفرةً فجرةً من أمثالهم، وهذا تعليلٌ لدعائه عليهم جميعًا بالهلاك[١].

فسيدنا نوحٌ صلى الله عليه وسلم عرف أن قومه لن يؤمنوا، بل سيزدادون في الكفر، من خلال أمرين: الأول: النص القرآني، كما قال تعالى: ﴿وَأُوحِيَ إِلَىٰ نُوحٍ أَنَّهُ لَن يُؤْمِنَ مِن قَوْمِكَ إِلَّا مَن قَدْ آمَنَ فَلَا تَبْتَئِسْ بِمَا كَانُوا يَفْعَلُونَ﴾[هود: ٣٦].

والآخر: الاستقراء؛ فقد لبث فيهم ألف سنة إلا خمسين عامًا، تعرف على طباعهم وجربهم، حيث كان القوم يتوارثون عمليات التضليل، والتكذيب لنبي الله نوح صلى الله عليه وسلم، وقوله: ﴿وَلَا يَلِدُوا إِلَّا فَاجِرًا كَفَّارًا﴾، أي: أنهم يكونون في علمك كذلك، أو أنهم سيصيرون كذلك، ولا شك أن هذا الطلب من نبي الله نوح صلى الله عليه وسلم يحمل معنىً عظيمًا في الرحمة بذرية القوم التي ستأتي تباعًا إن لم ينالوا عقابهم؛ حتى لا تحاسب هذه الذرية على ممارسات التضليل[٢].

٢ . حرص أهل الكتاب على التضليل للنبي محمد صلى الله عليه وسلم.

قال تعالى: ﴿وَدَّت طَّائِفَةٌ مِّنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَوْ يُضِلُّونَكُمْ وَمَا يُضِلُّونَ إِلَّا أَنفُسَهُمْ وَمَا يَشْعُرُونَ﴾[آل عمران: ٦٩].

حيث تبين هذه الآية الكريمة أن فريقًا من أهل الكتاب كانوا يتمنون إضلال المؤمنين، وفتنتهم عن دينهم، بإلقاء الشبه التي توهن الاعتقاد[٣]، والحال أن وبال ضلال هؤلاء المضلين عائدٌ عليهم، وأما نفس الضلال فمحالٌ؛ لأنهم يضلون المؤمنين بالانتقال من الإيمان إلى الكفر، وهم لا يعرفون الإيمان قط[٤].

(١) انظر: مدارك التنزيل، النسفي ٣/ ٥٤٦، التفسير الوسيط، طنطاوي ١٥/ ١٢٥.

(٢) انظر: مفاتيح الغيب، الرازي ٣٠/ ٦٥٩.

(٣) انظر: المنتخب في تفسير القرآن الكريم، لجنة من علماء الأزهر ص٨١.

(٤) انظر: تفسير ابن عرفة ١/ ٣٧١.

٣. الوصف بالضلال لمن أمعن في الكفر.

قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بَعْدَ إِيمَـٰنِهِمْ ثُمَّ ٱزْدَادُوا۟ كُفْرًا لَّن تُقْبَلَ تَوْبَتُهُمْ وَأُو۟لَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلضَّآلُّونَ﴾ [آل عمران: ٩٠].

ومقصود هذه الآية فيه «أربعة تأويلات:

أحدها: أنهم اليهود كفروا بالمسيح، ثم ازدادوا كفرًا لمحمد، لن تقبل توبتهم عند موتهم، وهذا قول قتادة.

الثاني: أنهم أهل الكتاب لن تقبل توبتهم؛ لذنوبٍ ارتكبوها مع الإقامة على كفرهم، وهذا قول أبي العالية.

الثالث: أنهم قومٌ ارتدوا ثم عزموا على إظهار التوبة على طريق التورية، فأطلع الله نبيه على سريرتهم، وهذا قول ابن عباس.

الرابع: أنهم اليهود والنصارى كفروا بالنبي صلى الله عليه وسلم بعد إيمانهم قبل مبعثه، ثم ازدادوا كفرًا إلى حضور آجالهم، وهذا قول الحسن»[(١)].

والذي يترجح من خلال السياق القرآني أن رأي الحسن هو الأقرب إلى الصواب؛ ولذلك وصفوا بعد كل ما صدر منهم بأنهم هم الضالون[(٢)] الذين عدلوا عن المنهج الحق عمدًا وظلمًا.

(١) النكت والعيون، الماوردي ١/ ٤٠٨.
(٢) انظر: تفسير القرآن العزيز، ابن أبي زمنين ١/ ٣٠٢.

ثانيًا: ضلال الجهل والنسيان:

ورد ضلال الجهل والنسيان في القرآن الكريم من خلال جوانب عديدة، منها:

١. الضلال في حق النبي صلى الله عليه وسلم معناه الجهل بالأحكام الشرعية.

قال تعالى: ﴿وَوَجَدَكَ ضَآلًّا فَهَدَىٰ﴾ [الضحى: ٧].

ويترجح أن الضلال هنا يعني أن النبي محمدًا صلى الله عليه وسلم كان ضالًا جاهلًا عن علم الشرائع والأحكام في دين الله تعالى، فهداه الله تعالى إلى ذلك.

ودليل ذلك قوله تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ رُوحًا مِّنْ أَمْرِنَا ۚ مَا كُنتَ تَدْرِى مَا ٱلْكِتَـٰبُ وَلَا ٱلْإِيمَـٰنُ وَلَـٰكِن جَعَلْنَـٰهُ نُورًا نَّهْدِى بِهِۦ مَن نَّشَآءُ مِنْ عِبَادِنَا ۚ وَإِنَّكَ لَتَهْدِىٓ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾ [الشورى: ٥٢][(٣)].

٢. تعليم الله للمؤمنين شرائعهم حتى لا يضلوا.

قال تعالى: ﴿يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمْ أَن تَضِلُّوا۟ ۗ وَٱللَّهُ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌۢ﴾ [النساء: ١٧٦].

إن الله تعالى يذكر في هذه الآية الكريمة سبب تولي القرآن الكريم لبيان أحكام الميراث، وهو ألا يذهب الناس إلى طرقٍ

(٣) انظر: غاية الأماني، شهاب الدين الشافعي ص٤٠٤.

ضالةٍ بأمور، منها إهمال الميراث جملةً، وألا يعطوا أحدًا من الورثة شيئًا، وجعل الحرية للمورث يوصي بماله لمن يشاء من غير قيد، وفي ذلك ضلالٌ أي ضلالٍ، إذ يترك ورثته ضياعًا، ويعطي المال غيرهم، وحرمان من يشاء المورث وإعطاء من يشاء، وفي ذلك إثارة للبغضاء والعداوة(١).

وتأتي هذه الآية الكريمة في فاصلتها لتبين أنه تعالى يبين أحكامه التي يحتاجونها، ويشرحها فضلًا منه وإحسانًا؛ لكي يهتدوا ببيانه، ويعملوا بأحكامه، ولأن لا يضلوا عن الصراط المستقيم بسبب جهلهم وعدم علمهم(٢).

ورد عن أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: (ذروني ما تركتكم، فإنما هلك من كان قبلكم بكثرة سؤالهم، واختلافهم على أنبيائهم، فإذا أمرتكم بشيء فأتوا منه ما استطعتم، وإذا نهيتكم عن شيء فدعوه)(٣).

٣. الشعور بالضلال عند الصدمة.

قال تعالى: ﴿فَلَمَّا رَأَوْهَا قَالُوٓاْ إِنَّا لَضَآلُّونَ﴾ [القلم: ٢٦].

فإن هذه الآية جاءت في معرض الحديث عن ابتلاء أصحاب الجنة، حيث اجتهدوا في اجتماعاتهم السرية على أن يمنعوا الفقراء من حقهم في خيرات جنتهم، وتعاهدوا فيما بينهم أن يأتوا صباح اليوم التالي لمؤامرتهم، فيقطفوا جميع الثمار ويبيعوها أو يدخروها؛ حتى لا ينتفع الفقراء من هذا الخير، فأحرقت بأمر الله تعالى ليلًا، فلما رأوها في اليوم التالي قالوا: إنا لضالون عن الطريق، من قوة الصدمة، كأنهم لما رأوا جنتهم محترقة سبق إلى ذهنهم أنها ليست هي، وأنهم ضلوا الطريق، فلما تأملوا وعرفوا أنها هي قالوا: بل نحن من حرم خيرها؛ لشؤم عزمنا على البخل، وبسبب ما وقع منا من العزم على منع المساكين من خيرها، ولخساستنا وخباثة نفوسنا، وبعدما بان لهم ذلك، قال أعدلهم رأيًا وعقلًا على وجه التقريع والتشنيع لإخوانه: ألم أقل لكم وقت مشاورتكم على حرمان الفقراء هلا تذكرون الله تعالى بالخير، ولم لا تشكرون نعمه بالإنفاق على الفقراء(٤).

٤ . ضلال المرأة بنسيانها.

قال تعالى: ﴿فَإِن لَّمْ يَكُونَا رَجُلَيْنِ فَرَجُلٌ وَٱمْرَأَتَانِ مِمَّن تَرْضَوْنَ مِنَ ٱلشُّهَدَآءِ أَن تَضِلَّ إِحْدَىٰهُمَا فَتُذَكِّرَ إِحْدَىٰهُمَا ٱلْأُخْرَىٰ﴾ [البقرة:

(١) انظر: زهرة التفاسير، أبو زهرة ٤/ ٢٠٠١.
(٢) انظر: تيسير الكريم الرحمن، السعدي ص٢١٧.
(٣) أخرجه مسلم في صحيحه، كتاب الحج، باب فرض الحج مرة في العمر ٢/ ٩٧٥، رقم ١٣٣٧.

(٤) انظر: غرائب القرآن، النيسابوري ٦/ ٣٣٨، فتح القدير، الشوكاني ٥/ ٣٢٥.

[٢٨٢].

ووجه قوله: ﴿أَن تَضِلَّ إِحْدَاهُمَا فَتُذَكِّرَ إِحْدَاهُمَا الْأُخْرَىٰ﴾، أنه لما كان الضلال سبب الإذكار، وهو متقدم عليه صار لتعلق كل واحدٍ منهما بالآخر، أي: فتذكرها إن ضلت[١].

٥. ضلال المسلمين عن معرفة أحكام الدين قبل الإسلام.

قال تعالى: ﴿لَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَن تَبْتَغُوا فَضْلًا مِّن رَّبِّكُمْ ۚ فَإِذَا أَفَضْتُم مِّنْ عَرَفَاتٍ فَاذْكُرُوا اللَّهَ عِندَ الْمَشْعَرِ الْحَرَامِ ۖ وَاذْكُرُوهُ كَمَا هَدَاكُمْ وَإِن كُنتُم مِّن قَبْلِهِ لَمِنَ الضَّالِّينَ﴾[البقرة: ١٩٨].

أي: لا حرج عليكم في الشراء والبيع قبل الإحرام وبعده، فما دام الأمر كذلك فاذكروا الله تعالى بتوحيده وتعظيمه كما ذكركم بالهداية، وما كنتم من قبله إلا من الضالين، والضلال هنا بمعنى الجهل بالمعارف الحقيقية[٢].

وإن الشاهد هنا هو فاصلة الآية التي تطلب من المسلمين أن يذكروا الله تعالى؛ لهدايته لهم الإرشادية لأحكام الدين بعد هدايته التوفيقية للإسلام.

(١) انظر: تفسير الراغب الأصفهاني ١/ ٥٩٠.
(٢) انظر: جامع البيان، الطبري ٤/ ١٦٣، الوجيز، الواحدي ص١٥٧.

أسباب الضلال

ورد في القرآن الكريم ما يبين أسباب الضلالة، ومنها:

أولًا: مخالفة أمر الله تعالى ومعصيته:

ورد الحديث عن مخالفة أمر الله ومعصيته واضحًا في قوله تعالى: ﴿وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلَا مُؤْمِنَةٍ إِذَا قَضَى اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَمْرًا أَن يَكُونَ لَهُمُ الْخِيَرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْ ۗ وَمَن يَعْصِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَالًا مُّبِينًا﴾[الأحزاب: ٣٦].

فقد وردت هذه الآية بعد الآية التي سميت آية النساء؛ لما ثبت أن أم عمارة الأنصارية أتت النبي صلى الله عليه وسلم فقالت: ما أرى كل شيء إلا للرجال، وما أرى النساء يذكرن بشيء، فنزل قوله تعالى: ﴿إِنَّ الْمُسْلِمِينَ وَالْمُسْلِمَاتِ وَالْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ﴾[الأحزاب: ٣٥] الآية[٣].

وتأتي هذه الآية لتبين أنه ما صح وما استقام لرجل ولا امرأة من المؤمنين والمؤمنات إذا قضى رسول الله أن يختار رأيًا غير ما قضاه الله ورسوله[٤].

ولما كان الإيمان قد يدعى كذبًا لخفاء

(٣) أخرجه الترمذي في سننه، أبواب تفسير القرآن، باب ومن سورة الأحزاب ٥/ ٢٠٧، رقم ٣٢١١.
وصححه الألباني في صحيح وضعيف سنن الترمذي، ٧/ ٢١١.
(٤) انظر: إرشاد العقل السليم، أبو السعود ٧/ ١٠٤.

به، قال: ﴿لِمُؤْمِنٍ﴾ أي: عبد الله بن جحش وزيد، ﴿وَلَا مُؤْمِنَةٍ﴾، أي: زينب بنت جحش وغيرها، فعلق الأمر بالإيمان؛ إعلامًا بأن من اعترض غير مؤمن، وإن أظهر الإيمان بلسانه[1].

والخيرة هنا تعني أن يختاروا من أمرهم ما شاؤوا، بل يجب عليهم أن يجعلوا آراءهم واختيارهم تبعًا لرأيه عليه السلام، واختياره، والمقصود هنا كل مؤمن وكل مؤمنة؛ لوقوع ذلك في سياق النفي[2].

إن هذه الآية تبين أن من يعص الله ورسوله في أمر من الأمور، ويعمل برأيه، فخالف الكتاب والسنة، فقد ضل طريق الحق، وعدل عن الصراط المستقيم؛ فهو بين الانحراف عن سنن الصواب[3].

ثانيًا: عدم طاعة الرسول صلى الله عليه وسلم:

لقد برز عدم طاعة الرسول صلى الله عليه وسلم واضحًا في قوله تعالى: ﴿قُلْ أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ فَإِن تَوَلَّوْا فَإِنَّمَا عَلَيْهِ مَا حُمِّلَ وَعَلَيْكُم مَّا حُمِّلْتُمْ وَإِن تُطِيعُوهُ تَهْتَدُوا وَمَا عَلَى الرَّسُولِ إِلَّا الْبَلَاغُ الْمُبِينُ﴾ [النور: ٥٤].

تأتي هذه الآية في معرض الحديث عن المنافقين، بأنهم أقسموا بالله طاقة ما قدروا، لو أمرتنا أن نخرج من ديارنا ونسائنا وأموالنا لخرجنا، ولو أمرتنا بالجهاد لجاهدنا، فيقول الله تعالى لهم: لا تقسموا، فإن الأولى بكم من إيمانكم أن تطيعوا الطاعة المعروفة، والقول المعروف، بإخلاص القلب، ولا حاجة إلى اليمين، والمعنى: قد عرفت طاعتكم، وهي الكذب والتكذيب، أي: المعروف منكم الكذب دون الإخلاص، فالله تعالى خبير بما تعملون من طاعتكم بالقول، ومخالفتكم بالفعل[4].

لأن طاعة الله وطاعة الرسول بإخلاص الطاعة، وترك النفاق، فإن تولوا فإنما على نبينا محمد صلى الله عليه وسلم ما حمل من تبليغ الرسالة، وعليهم ما حملوا من الطاعة له، ثم يأتي هذا الشرط وهو إن تطيعوا رسولكم صلى الله عليه وسلم تهتدوا، وما على الرسول إلا التبليغ المبين[5].

وقد سبقت الإشارة إلى أن الهداية تأتي في مقابل الضلالة بكل جوانبها، ومن ثم فإن الاستدلال بهذه الآية يكون من باب المخالفة.

وقد كان بعض السلف يقول: من أَمَّرَ السنة على نفسه قولًا وفعلًا نطق بالحكمة،

(١) انظر: نظم الدرر، البقاعي ١٥/ ٣٥٤.
(٢) انظر: روح البيان، إسماعيل حقي ٧/ ١٧٧.
(٣) انظر: مراح لبيد، محمد بن عمر الجاوي ٢/ ٢٥٤.
(٤) انظر: الجامع لأحكام القرآن، القرطبي ١٢/ ٢٩٦.
(٥) انظر: الجامع لأحكام القرآن، القرطبي ١٢/ ٢٩٦

ومن أمر البدعة والهوى على نفسه قولًا وفعلًا نطق بالبدعة؛ لقوله تعالى: ﴿وَإِن تُطِيعُوهُ تَهْتَدُوا﴾[1].

ثالثًا: اتباع الهوى:

لقد ورد اتباع الهوى في آيات عديدة، منها:

قوله تعالى: ﴿قُلْ إِنِّي نُهِيتُ أَنْ أَعْبُدَ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ اللَّهِ قُل لَّا أَتَّبِعُ أَهْوَاءَكُمْ قَدْ ضَلَلْتُ إِذًا وَمَا أَنَا مِنَ الْمُهْتَدِينَ﴾ [الأنعام: ٥٦].

أي: قل إني صرفت وزجرت بما نصب لي من الأدلة وأنزل علي من الآيات في أمر التوحيد عن عبادة ما تعبدون من دون الله تعالى، أو ما تسمونها آلهة، وتأتي ﴿قُل لَّا أَتَّبِعُ أَهْوَاءَكُمْ﴾ تأكيدًا لقطع أطماعهم، وإشارة إلى علة الامتناع عن متابعتهم، واستجهالًا لهم، وبيانًا لمبدأ ضلالهم، فإن المطلوب لمن تحرى الحق أن يتبع الحجة ولا يقلد[2].

وقال تعالى: ﴿وَإِنَّ كَثِيرًا لَّيُضِلُّونَ بِأَهْوَائِهِم بِغَيْرِ عِلْمٍ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِالْمُعْتَدِينَ﴾ [الأنعام: ١١٩].

أي: وإن كثيرًا من الكافرين ليعدلون عن المنهج المستقيم، متسلحين بما تهواه أنفسهم من تحيل الميتة وتحريمها بغير علم يعتمدونها في ذلك، ثم تأتي الفاصلة القرآنية ﴿إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِالْمُعْتَدِينَ﴾، أي: بالمتجاوزين حدودهم، الذين تسلحوا بالهوى[3].

وقال تعالى: ﴿يَا دَاوُودُ إِنَّا جَعَلْنَاكَ خَلِيفَةً فِي الْأَرْضِ فَاحْكُم بَيْنَ النَّاسِ بِالْحَقِّ وَلَا تَتَّبِعِ الْهَوَىٰ فَيُضِلَّكَ عَن سَبِيلِ اللَّهِ إِنَّ الَّذِينَ يَضِلُّونَ عَن سَبِيلِ اللَّهِ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ بِمَا نَسُوا يَوْمَ الْحِسَابِ﴾ [ص: ٢٦].

أي: يا داود صلى الله عليه وسلم إنا جعلناك خليفةً في الأرض لتدبر الناس بأمرٍ نافذ الحكم فيهم، حيث يأمر الله تعالى أن يحكم بين الناس بالعدل، وألا يميل مع ما يشتهي إذا خالف أمر الله تعالى، فيضله ذلك الهوى عن دين الله تعالى وطريقه جل جلاله، ثم تأتي الفاصلة القرآنية لتبين أن الذين تركوا الإيمان بيوم الحساب، فضلوا عن هذا الدين لهم عذابٌ شديدٌ يوم القيامة[4].

وقال تعالى: ﴿أَفَرَأَيْتَ مَنِ اتَّخَذَ إِلَٰهَهُ هَوَاهُ وَأَضَلَّهُ اللَّهُ عَلَىٰ عِلْمٍ وَخَتَمَ عَلَىٰ سَمْعِهِ وَقَلْبِهِ وَجَعَلَ عَلَىٰ بَصَرِهِ غِشَاوَةً فَمَن يَهْدِيهِ مِن بَعْدِ اللَّهِ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ﴾ [الجاثية: ٢٣].

أي: إنما يأتمر بهواه فمهما رآه حسنًا فعله، ومهما رآه قبيحًا تركه، فيكون بذلك

(١) انظر: زاد المسير، ابن الجوزي ٣/ ٣٠٣.
(٢) انظر: أنوار التنزيل، البيضاوي ٢/ ١٦٤.
(٣) انظر: تفسير الجلالين، المحلي والسيوطي ص١٨٣.
(٤) انظر: لباب التأويل، الخازن ٤/ ٣٩.

قد استحق إضلال الله تعالى له على علم منه، بأنه يضله لعلمه أنه يستحق ذلك، أو أنه يضله الله بعد بلوغ العلم إليه، ولا شك أن الثاني يستلزم الأول، ولا ينعكس[(1)].

رابعًا: اتباع الشيطان:

لقد ورد اتباع الشيطان واضحًا في آياتٍ عديدة، منها:

قوله تعالى: ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يُجَٰدِلُ فِى ٱللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَيَتَّبِعُ كُلَّ شَيْطَٰنٍ مَّرِيدٍ ۝٣ كُتِبَ عَلَيْهِ أَنَّهُۥ مَن تَوَلَّاهُ فَأَنَّهُۥ يُضِلُّهُۥ وَيَهْدِيهِ إِلَىٰ عَذَابِ ٱلسَّعِيرِ﴾ [الحج: ٣، ٤].

حيث جاءت هذه الآيات إثر بيان عظيم شأن الساعة المنبئة عن البعث بيانًا لحال بعض المنكرين لها، حيث بينت أن بعض الناس من يجادل في شأن الله تعالى، ويقول فيه ما لا خير فيه من الأباطيل ملابسًا بغير علمٍ، أي: دون دليلٍ من القرآن الكريم أو من السنة النبوية، ويتبع فيما يتعاطاه من المجادلة، أو في كل ما يأتي، وما يذر من الأمور الباطلة، التي من جملتها اتباع كل عاتٍ متمرد متجرد للفساد، والمراد هنا إما رؤساء الكفر الذين يدعون من دونهم إلى الكفر؛ فهم شياطين الإنس، وإما إبليس وجنوده؛ فهم شياطين الجن[(2)].

وقال تعالى: ﴿وَدَخَلَ ٱلْمَدِينَةَ عَلَىٰ حِينِ غَفْلَةٍ مِّنْ أَهْلِهَا فَوَجَدَ فِيهَا رَجُلَيْنِ يَقْتَتِلَانِ هَٰذَا مِن شِيعَتِهِۦ وَهَٰذَا مِنْ عَدُوِّهِۦ ۖ فَٱسْتَغَٰثَهُ ٱلَّذِى مِن شِيعَتِهِۦ عَلَى ٱلَّذِى مِنْ عَدُوِّهِۦ فَوَكَزَهُۥ مُوسَىٰ فَقَضَىٰ عَلَيْهِ ۖ قَالَ هَٰذَا مِنْ عَمَلِ ٱلشَّيْطَٰنِ ۖ إِنَّهُۥ عَدُوٌّ مُّضِلٌّ مُّبِينٌ﴾ [القصص: ١٥].

إن هذه الآية تبين أن نبينا موسى صلى الله عليه وسلم بعد أن بلغ أشده واستوى وأوتي من الحكم والعلم الشيء الكثير -وأن هذا جزاء كل محسن في طاعته- قد دخل المدينة على حين غفلة من أهلها، إما وقت مقولته، أو غير ذلك من الأوقات التي بها يغفلون عن الانتشار، ﴿فَوَجَدَ فِيهَا رَجُلَيْنِ يَقْتَتِلَانِ﴾، أي: يتخاصمان ويتضاربان، ﴿هَٰذَا مِن شِيعَتِهِۦ﴾ من بني إسرائيل، ﴿وَهَٰذَا مِنْ عَدُوِّهِۦ﴾ من القبط، ﴿فَٱسْتَغَٰثَهُ ٱلَّذِى مِن شِيعَتِهِۦ عَلَى ٱلَّذِى مِنْ عَدُوِّهِۦ﴾؛ لأنه قد اشتهر وعلم الناس أنه من بني إسرائيل.

واستغاثته لموسى صلى الله عليه وسلم دليل على أنه صلى الله عليه وسلم بلغ مبلغًا يخاف منه، ويرجى من بيت المملكة والسلطان، فوكز الذي من عدوه استجابةً لاستغاثة الإسرائيلي، فأماته من تلك الوكزة؛ لشدتها وقوة موسى صلى الله عليه وسلم، فندم موسى عليه السلام لما جرى منه، وقال هذا من تزيين الشيطان، بوسوسته، فلذلك أجريت ما أجريت، بسبب عداوته البينة،

(١) انظر: تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ٧/ ٢٦٨.

(٢) انظر: إرشاد العقل السليم، أبو السعود ٦/ ٩٢.

وحرصه على الإضلال[1].

وقال تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ يَزْعُمُونَ أَنَّهُمْ آمَنُوا بِمَا أُنزِلَ إِلَيْكَ وَمَا أُنزِلَ مِن قَبْلِكَ يُرِيدُونَ أَن يَتَحَاكَمُوا إِلَى الطَّاغُوتِ وَقَدْ أُمِرُوا أَن يَكْفُرُوا بِهِ وَيُرِيدُ الشَّيْطَانُ أَن يُضِلَّهُمْ ضَلَالًا بَعِيدًا﴾ [النساء: ٦٠].

أي: ألم تر يا محمد صلى الله عليه وسلم إلى الذين يزعمون أنهم آمنوا بالقرآن والتوراة، ووصفهم بادعاء الإيمان بالقرآن؛ لتأكيد العجيب من حالهم، وتشديد التوبيخ والاستقباح؛ لبيان كمال المباينة بين دعواهم المقتضية حتمًا للتحاكم إلى الرسول صلى الله عليه وسلم، وبين ما صدر عنهم من مخالفة الأمر المحتوم، يريدون أن يتحاكموا إلى الطاغوت الداعي إلى الطغيان، بالحكم على خلاف المنزل إليك، والمنزل على من قبلك، فيعصون الله تعالى، ويطيعون الشيطان، ويريد الشيطان جنًا كان أو إنسًا أن يضلهم ضلالًا بعيدًا عن الحق والهدى[2].

وقال تعالى: ﴿وَلَأُضِلَّنَّهُمْ وَلَأُمَنِّيَنَّهُمْ وَلَآمُرَنَّهُمْ فَلَيُبَتِّكُنَّ آذَانَ الْأَنْعَامِ وَلَآمُرَنَّهُمْ فَلَيُغَيِّرُنَّ خَلْقَ اللَّهِ﴾ [النساء: ١١٩].

أي: لأحرفنهم عن دين الله تعالى إلى دين شرعه لهم إبليس كهيئة البحائر والسوائب[3]، وقيل: لأضلنهم عن الحق، ولأمنينهم الأماني الباطلة، كطول الحياة، وألا بعث ولا عقاب، ومعنى ﴿فَلَيُبَتِّكُنَّ﴾: يشقون آذان الأنعام؛ لتحريم ما أحل الله تعالى[4].

خامسًا: اتباع الكبراء والرؤساء:

قد برز اتباع الكبراء والرؤساء واضحًا في قوله تعالى: ﴿وَقَالُوا رَبَّنَا إِنَّا أَطَعْنَا سَادَتَنَا وَكُبَرَاءَنَا فَأَضَلُّونَا السَّبِيلَا﴾ [الأحزاب: ٦٧].

تبين هذه الآية الكريمة أن الكبراء والسادة هم الذين لقنوا الكافرين الأتباع، والتعبير عنهم بعنوان السيادة والكبر؛ لتقوية الاعتذار، وإلا فهم في مقام التحقير والإهانة، وقد قرئ «سادة»؛ و«سادات» على جمع الجمع -كما ورد عن ابن عامر الشامي-؛ للدلالة على الكثرة، ثم تأتي الفاصلة القرآنية لتبين اعتراف الأتباع بأن الكبراء والسادة الذين هم رؤساؤهم في الشرك والشر، صرفوهم عن طريق الإسلام والتوحيد، بما زينوه لهم من الكفر والشرك، ولا شك أن حال الأتباع حينما قالوا كانت معاناة، وقسوة، وشدة في العذاب في النار[5].

ويلاحظ في هذه الآية الكريمة أن الكفار

(١) انظر: تيسير الكريم الرحمن، السعدي ص٦١٣.

(٢) انظر: محاسن التأويل، القاسمي ٣/ ١٩٣.

(٣) انظر: الدر المنثور، السيوطي ٢/ ٦٨٨.

(٤) انظر: البحر المديد، ابن عجيبة ١/ ٥٦٢.

(٥) انظر: روح البيان، إسماعيل حقي ٧/ ٢٤٤، التفسير المظهري ٧/ ٣٨٦، الصحيح المسبور، حكمت ياسين ٤/ ١٤٦.

ينادون الله تعالى بصفة الربوبية؛ لأنهم يتحننون إليه، ويتوسلون إليه تعالى؛ لعل هذه الغمة تذهب عنهم، وتبين هذه الآية الكريمة أن الأتباع يقولون عن السادات والكبراء بأنهم أضلوهم السبيل؛ ليبينوا أنهم كانوا الحريصين على الإسلام، لكن قادة الكفر قد نصبوا المصائد والفخوخ والمشانق؛ حتى يحرفوهم عن الحق.

سادسًا: اتباع الآباء:

وقد ورد اتباع الآباء واضحًا في قوله تعالى: ﴿فَإِنَّهُمْ لَآكِلُونَ مِنْهَا فَمَالِئُونَ مِنْهَا الْبُطُونَ ﴿٦٦﴾ ثُمَّ إِنَّ لَهُمْ عَلَيْهَا لَشَوْبًا مِنْ حَمِيمٍ ﴿٦٧﴾ ثُمَّ إِنَّ مَرْجِعَهُمْ لَإِلَى الْجَحِيمِ ﴿٦٨﴾ إِنَّهُمْ أَلْفَوْا آبَاءَهُمْ ضَالِّينَ﴾ [الصافات: ٦٦-٦٩].

حيث إن الآية التاسعة والستين جاءت تعليلًا بما جازى الله تعالى الكافرين به من العذاب، وإبداءً للمناسبة، بينه وبين جرمهم، فإن جرمهم كان تلقيًا لما وجدوا عليه آباءهم من الشرك وشعبه، بدون نظر ولا اختيار لما يختاره العقل، فكان جزاؤهم أنهم يطعمون طعامًا مؤلمـًا، ويسقون شرابًا قذرًا، بدون اختيارٍ منهم، كما تلقوا دين آبائهم تقليدًا واعتباطًا[1].

فإن أولئك القوم وجدوا آباءهم على ضلالة، فهم على آثار آبائهم يسرعون، ولقد ضل عن قصد السبيل قبلهم من الأمم الخالية[2].

وبعد كل ما تقدم من بيان تقليدهم لآبائهم في الكفر، يتضح أنهم عريقون في الضلالة، وهم في الوقت ذاته مقلدون، لا يفكرون ولا يتدبرون، بل يطيرون معجلين يقفون خطى آبائهم الضالين غير ناظرين، ولا متعقلين، وقد كان ضلالهم بعد الإنذار والتحذير، وفي ذلك يقول تعالى: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا فِيهِم مُّنذِرِينَ ﴿٧٢﴾ فَانظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُنذَرِينَ﴾ [الصافات: ٧٢-٧٣][3].

(١) انظر: التحرير والتنوير، ابن عاشور ٢٣/ ١٢٦.

(٢) انظر: الموسوعة القرآنية، الأبياري ١١/ ٥٠، أوضح التفاسير، محمد الخطيب ص٥٤٧.

(٣) انظر: في ظلال القرآن، سيد قطب ٥/ ٢٩٩١.

مجالات الضلال

ويقصد بمجالات الضلال هنا تلك الجوانب التي يقع فيها انحراف وضلال، وهي:

أولًا: العقائد:

سنتناول هنا بيان ضلال الكافرين عن اتباع الدين، في أصوله ومعتقداته؛ حيث إن القرآن الكريم بين ضلالهم من خلال جوانب عديدة، منها:

١ . ضلالهم بالكفر بكل الدين مجمله ومفصله.

قال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ ءَامِنُواْ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَٱلْكِتَٰبِ ٱلَّذِى نَزَّلَ عَلَىٰ رَسُولِهِۦ وَٱلْكِتَٰبِ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ مِن قَبْلُ وَمَن يَكْفُرْ بِٱللَّهِ وَمَلَٰٓئِكَتِهِۦ وَكُتُبِهِۦ وَرُسُلِهِۦ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَٰلًۢا بَعِيدًا﴾ [النساء: ١٣٦].

والضلال هنا بعدٌ عن الحق، وقد جاء في رأس هذه الآية أمرٌ للمؤمنين بأن يؤمنوا بالله تعالى، أي: يثبتوا على الإيمان، كأن تقول للرجل الواقف: اثبت واقفًا، وقال البعض: هو خطابٌ للمنافقين، الذين آمنوا باللسان أن يؤمنوا بالقلب، وروي عن ابن عباس رضي الله عنهما أنه خطابٌ لأهل الكتاب، أي: أنهم كما آمنوا بموسى وعيسى -عليهما السلام-، يؤمرون في هذه الآية بأن يؤمنوا بمحمد، والكتاب الذي نزل على رسوله محمد صلى الله عليه وسلم، وهو القرآن، والكتاب الذي أنزل من قبل، أي: كل الكتب المنزلة من قبل القرآن[(١)].

٢ . الضلال بعبادة غير الله تعالى.

قال تعالى: ﴿وَلَمَّا سُقِطَ فِىٓ أَيْدِيهِمْ وَرَأَوْاْ أَنَّهُمْ قَدْ ضَلُّواْ قَالُواْ لَئِن لَّمْ يَرْحَمْنَا رَبُّنَا وَيَغْفِرْ لَنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ﴾ [الأعراف: ١٤٩].

ولما ندم الذين عبدوا العجل الذي وصف جل ثناؤه صفته عند رجوع موسى صلى الله عليه وسلم إليهم، واستسلموا لموسى صلى الله عليه وسلم، وحكمه فيهم، ورأوا أنهم قد جاروا عن قصد السبيل، وذهبوا عن دين الله تعالى، وكفروا بربهم، عندها قالوا تائبين إلى الله تعالى، منيبين إليه من كفرهم به: ﴿لَئِن لَّمْ يَرْحَمْنَا رَبُّنَا وَيَغْفِرْ لَنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ﴾[(٢)].

وفي هذه الآية دليلٌ على أن بني إسرائيل الذين اجتازوا البحر مع نبيهم موسى صلى الله عليه وسلم، ونجوا بفضل الله تعالى من فرعون وقومه، قد ضلوا حينما أخرج لهم السامري عجلًا جسدًا له خوارٌ، وقال لهم: هذا إلهكم وإله موسى، وبعد تلبسهم

---

(١) انظر: تفسير القرآن، السمعاني ١/ ٤٩٠، تفسير القرآن العزيز، ابن أبي زمنين ١/ ٤١٣.
(٢) انظر: جامع البيان، الطبري ١٣/ ١١٩.

بعبادته أرادوا أن يرجعوا إلى الله تعالى تائبين منيبين، وقبل أن يقبل الله تعالى توبتهم رجع موسى إلى قومه غضبان أسفًا؛ لأن الله تعالى كان قد أخبره أن قومه قد فتنوا، وأن السامري قد أضلهم؛ فكان حال رجوعه حال غضبٍ وأسف، فلا تنفع بني إسرائيل الشرائع ما داموا قد كفروا بالعقائد؛ ولذلك ألقى الألواح وفعل ما فعل بأخيه هارون، إذ إنه أوصاه قبل أن يذهب إلى ربه أن يصلح ولا يتبع سبيل المفسدين، فابتدره أخوه هارون صلى الله عليه وسلم قائلًا له: ﴿ابْنَ أُمَّ إِنَّ الْقَوْمَ اسْتَضْعَفُونِي وَكَادُوا يَقْتُلُونَنِي فَلَا تُشْمِتْ بِيَ الْأَعْدَاءَ وَلَا تَجْعَلْنِي مَعَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ﴾ [الأعراف: ١٥٠].

وعندها استغفر موسى صلى الله عليه وسلم له ولأخيه هارون صلى الله عليه وسلم وطلب أن يدخلا في رحمة الله تعالى.

وقد ورد في آياتٍ أخرى أنه ليس هنالك أضل ممن يدعو من دون الله تعالى من لا ينتصر ولا يستجيب، وذلك مثل قوله تعالى: ﴿وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّنْ يَدْعُو مِنْ دُونِ اللَّهِ مَنْ لَا يَسْتَجِيبُ لَهُ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ وَهُمْ عَنْ دُعَائِهِمْ غَافِلُونَ﴾ [الأحقاف: ٥].

والمراد: ليس هناك أضل ممن يقف أمام الأصنام والأوثان، ويطلب منهم الرزق والخير، وما شابه؛ لأنهم لا يمكن أن يستجيبوا له إلى يوم القيامة، فهم لا يسمعون، ولا يفهمون؛ إذ إنهم غافلون[1].

وقد وردت آية أخرى في السياق نفسه تبين أن الذي يختار الكفر بعد إيمانه فهو ضالٌ، قال تعالى: ﴿وَمَنْ يَتَبَدَّلِ الْكُفْرَ بِالْإِيمَانِ فَقَدْ ضَلَّ سَوَاءَ السَّبِيلِ﴾ [البقرة: ١٠٨].

حيث قيل في معنى هذه الآية: إنه من يتبدل الشدة بالرخاء فقد عدل عن السبيل[2]، وقيل: من يسأل النبي صلى الله عليه وسلم عما لا يعنيه بعد وضوح الحق فقد ضل سواء السبيل[3]، والراجح أن الكفر هنا ما هو مخرجٌ من الملة، وإن كان السياق القرآني حمالًا للمعاني السابقة.

٣. ضلال الكافرين في يأسهم من رحمة الله.

قال تعالى: ﴿قَالَ وَمَنْ يَقْنَطُ مِنْ رَحْمَةِ رَبِّهِ إِلَّا الضَّالُّونَ﴾ [الحجر: ٥٦].

حيث إن نبينا إبراهيم صلى الله عليه وسلم حين طلب من ضيوفه الملائكة بعدما بشروه بغلام عليم -وهو النبي إسحاق صلى الله عليه وسلم - أن يبينوا له بأي شيء يبشرون؟ فقالوا له: بشرناك بالصدق، فلا تكن من اليائسين من رحمة الله تعالى، فأجابهم بسؤال فيه دهشة واستغراب، ومن

(١) انظر: الكشف والبيان، الثعلبي ٩/ ٦.
(٢) انظر: تفسير القرآن العظيم، ابن أبي حاتم ١/ ٢٠٤.
(٣) انظر: معاني القرآن وإعرابه، الزجاج ١/ ١٩٣.

ييأس من رحمة ربه إلا الضالون الجاهلون الذين خسروا الدنيا والآخرة؟! حيث إن القنوط من رحمة الله تعالى كبيرةٌ، سيما إذا كان من جهة الولد[1].

٤. حكم الله تعالى على الضالين بأنهم لن يهتدوا.

قال تعالى: ﴿إِن تَحْرِصْ عَلَىٰ هُدَاهُمْ فَإِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي مَن يُضِلُّ ۖ وَمَا لَهُم مِّن نَّاصِرِينَ﴾ [النحل: ٣٧].

أي: إن تحرص يا محمد صلى الله عليه وسلم على هدى هؤلاء المشركين على الإيمان بالله تعالى، واتباع الحق، فإن من أضله الله تعالى لا هادي له، فلا تجهد نفسك في أمره، وبلغه ما أرسلت به؛ لتتم الحجة، ثم إنهم ما لهم من ناصرٍ ينصرهم من الله تعالى إذا أراد عقوبتهم[2].

٥. المفاصلة العقدية بين الحق والباطل.

قال تعالى: ﴿فَذَٰلِكُمُ اللَّهُ رَبُّكُمُ الْحَقُّ ۖ فَمَاذَا بَعْدَ الْحَقِّ إِلَّا الضَّلَالُ ۖ فَأَنَّىٰ تُصْرَفُونَ﴾ [يونس: ٣٢].

أي: هذا الدين كله الالتزام به هو الحق، وليس هؤلاء الذين جعلتموهم معه شركاء، فماذا بعد عبادة الله تعالى الحق إلا الضلال الذي هو عبادة الشيطان، فكيف تصرف عقولكم إلى عبادة من لا يرزق ولا يحيي ولا يميت؟![3].

ثانيًا: الأحكام الشرعية:

نتناول هنا بيان ضلال المضلين في الأحكام الشرعية، التي تعتبر المفصل للعقائد، التي سبق ذكر بعضها، ومن هذه الأحكام الشرعية: العبادات، والمعاملات.

وسيتم الوقوف على كل واحدٍ من هذين التفرعين، بما يعالج هذا الموضوع -إن شاء الله تعالى-.

أما العبادات: فقد وردت آية توضح ضلال المتمسكين بغير الله تعالى، وهم يظنون أن هذا خيرٌ لهم عند الله تعالى، قال الله عز وجل: ﴿وَيَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَضُرُّهُمْ وَلَا يَنفَعُهُمْ وَيَقُولُونَ هَٰؤُلَاءِ شُفَعَاؤُنَا عِندَ اللَّهِ ۚ قُلْ أَتُنَبِّئُونَ اللَّهَ بِمَا لَا يَعْلَمُ فِي السَّمَاوَاتِ وَلَا فِي الْأَرْضِ ۚ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ [يونس: ١٨].

أي: ومن شأن المعبود القدرة على النفع والضر، وليس هذا متوفرًا لدى الأوثان، التي هي جمادٌ لا تقدر على فعل أي شيء، فهلا تخبرون الله تعالى بكونهم شفعاء عنده، وهذا إنباء بما ليس بمعلوم الله تعالى، فإن قيل: كيف أنبأوا الله بما لا يعلم؟

(١) انظر: تفسير السمرقندي ٢/ ٢٥٨، معالم التنزيل، البغوي ٣/ ٦١.

(٢) انظر: جامع البيان، الطبري ١٧/ ٢٠٢.

(٣) انظر: الوجيز، الواحدي ص٤٩٧.

فالجواب هو أن هذا تهكمٌ بهم، وبما ادعوه من الحال الذي هو شفاعة الأصنام، وإعلام بأنه الذي أنبأوا به باطل؛ فكأنهم يخبرونه بشيء لا يتعلق علمه به، كما يخبر الرجل بما لا يعلمه[1].

وأما المعاملات: فقد ورد ذلك في آياتٍ تبين أن العلاقة بين الإنسان وربه ليست علاقة ضلال؛ لأن الله تعالى يبين الحق من الباطل؛ فإما أن يشكر الإنسان فيهتدي، وإما أن يكفر فيضل، قال تعالى: ﴿وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُضِلَّ قَوْمًا بَعْدَ إِذْ هَدَىٰهُمْ حَتَّىٰ يُبَيِّنَ لَهُم مَّا يَتَّقُونَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ﴾ [التوبة: ١١٥].

هذه الآية من تتمة ما تقدم من تأكيد مباينة المشركين، والبراءة منهم، وترك الاستغفار؛ وذلك لأنهم حقت عليهم الكلمة، حيث قامت عليهم الحجة بإبلاغ الرسول إليهم ما يتقون، ودلالته إياهم على الصراط السوي، فضلوا عنه فأضلهم الله، فاستحقوا عقابه، إنه تعالى عليمٌ بجميع الأشياء[2].

وليس من قبيل العادة في القرآن الكريم أن يصف الله تعالى المشركين بأنهم ضالون عن طريق الحق، وأن أحكامه تجري عليهم بعد أن هداهم للإسلام؛ حتى يبين لهم بالوحي صريحًا أو دلالةً ما يجب اتقاؤه من محظورات الدين، فلا ينزجر أحدٌ عما نهي عنه قبل إنزال الشرائع الحقة؛ لأنه لا يسمى ما صدر عنهم ضلالًا، ولا يؤاخذون به، فكأنه تسليةٌ للذين استغفروا للمشركين قبل ذلك، وفيه دليلٌ على أن الغافل غير مكلف بما لا يستند بمعرفته العقل[3].

ثم وردت آية أخرى في سياق الضلال في المعاملات، تبين العلاقة بين الناس بعضهم لبعض، بين فريق المؤمنين المهتدين، وبين فريق الكافرين الضالين، فقال تعالى: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ عَلَيْكُمْ أَنفُسَكُمْ ۖ لَا يَضُرُّكُم مَّن ضَلَّ إِذَا ٱهْتَدَيْتُمْ ۚ إِلَى ٱللَّهِ مَرْجِعُكُمْ جَمِيعًا فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ [المائدة: ١٠٥].

أي: الزموا أمر أنفسكم وإصلاحها، واحفظوها من ملابسة المعاصي والإصرار على الذنوب، فواجبٌ عليكم أنفسكم[4].

والضلال هنا ليس ضلال الكفر، ولكن في الضلال عن الحق في الإسلام؛ لأن من المسلمين من يقصرون فيجب دعوتهم إلى الحق، وإذا لم يلتزموا فعندها لا يضر من دعاهم هذه الضلالة التي هم فيها[5].

وقد وردت آية كريمة تبين أن المشركين حينما أقيمت عليهم الحجة بأمرهم بالإنفاق

(١) انظر: محاسن التأويل، القاسمي ٦/ ١٤.
(٢) انظر: المصدر السابق ٥/ ٥١٧.
(٣) انظر: إرشاد العقل السليم أبو السعود ٤/ ١٠٨.
(٤) انظر: المصدر السابق ٣/ ٨٧، مفاتيح الغيب، الرازي ١٢/ ٤٤٨.
(٥) انظر: تفسير القرآن العزيز، ابن أبي زمنين ٢/ ٥١.

في سبيل الله تعالى توطئةً لأمرهم بالإسلام إذا بهم يقلبون الحق ضلالًا، وهذه الآية هي قوله تعالى: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ أَنفِقُوا مِمَّا رَزَقَكُمُ اللَّهُ قَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِلَّذِينَ آمَنُوا أَنُطْعِمُ مَن لَّوْ يَشَاءُ اللَّهُ أَطْعَمَهُ إِنْ أَنتُمْ إِلَّا فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ﴾ [يس: ٤٧].

فإن هذه الآية تأتي في سياق الحديث عن المشركين الذين من الكفر ما بلغوا؛ حيث تبين أنهم إذا قيل لهم من قبل المؤمنين الداعين إلى الله تعالى: أنفقوا مما منحكم الله تعالى من الرزق، وهذا لإقامة الحجة عليهم؛ لبيان ضلالهم؛ إذ إنه ليس بعد الكفر ذنب، حينها يردون على المؤمنين بقولهم: إذا لم يشأ الله أن يطعمهم لم نطعمهم؟ ثم تأتي الفاصلة القرآنية لتبين أن المشركين وصلوا إلى عمىً عن الحقيقة؛ حتى قلبوا الموازين فقالوا للمؤمنين: ما أنتم إلا غارقون في الضلال البائن بينونةً واضحةً[١].

ثالثًا: الأخلاق:

ورد في القرآن الكريم ما يبين أن أهل الضلال لازمهم صفة البعد الكامل عن الأخلاق، كما أن القرآن الكريم بين أن الدعاة استخدموا مصطلح الضلالة في دعوتهم لأقوامهم، وسيتم الوقوف -إن شاء الله تعالى- هنا على بعض النماذج القرآنية لكل نقطة من النقطتين السابقتين، وذلك فيما يأتي:

١. استهزاء أهل الضلال بالرسول صلى الله عليه وسلم.

قال تعالى: ﴿وَإِذَا رَأَوْكَ إِن يَتَّخِذُونَكَ إِلَّا هُزُوًا أَهَٰذَا الَّذِي بَعَثَ اللَّهُ رَسُولًا ﴿٤١﴾ إِن كَادَ لَيُضِلُّنَا عَنْ آلِهَتِنَا لَوْلَا أَن صَبَرْنَا عَلَيْهَا وَسَوْفَ يَعْلَمُونَ حِينَ يَرَوْنَ الْعَذَابَ مَنْ أَضَلُّ سَبِيلًا﴾ [الفرقان: ٤١، ٤٢].

حيث يبين الله تعالى في هاتين الآيتين أن المشركين إذا رأوا النبي صلى الله عليه وسلم لا يتخذونه إلا هزوًا، متسائلين سؤالًا فيه عدم تقدير، أهذا الذي بعث الله رسولًا، ثم يتمادون في قلة أدبهم، وبشاعة ألفاظهم، وزيادة تعديهم على حدود الإنسانية، بقولهم: لقد كاد محمد صلى الله عليه وسلم أن يصرفنا عن طريق الحق، وعن عبادتنا، ولكننا حبسنا أنفسنا على عبادتها، ويبين الله تعالى أنهم سوف يعلمون حين يرون العذاب -وكانت يوم بدر- من أضل دينًا؟ أهم أم محمد صلى الله عليه وسلم[٢]، ويجوز أن يكون العذاب في الآخرة عند الله تعالى[٣].

٢. استخدام مصطلح الضلال في دعوة

(١) انظر: المصدر السابق ٤/ ٤٦.

(٢) انظر: الجامع لأحكام القرآن، القرطبي ١٣/ ٣٥.

(٣) انظر: تفسير القرآن العزيز، ابن أبي زمنين ٣/ ٢٦١.

الدعاة لأقوامهم.

وقد ورد ذلك في حق نبي الله تعالى موسى صلى الله عليه وسلم، قال تعالى: ﴿قَالَ فَعَلْتُهَآ إِذًا وَأَنَا۠ مِنَ ٱلضَّآلِّينَ﴾ [الشعراء: ٢٠].

أي: «قال موسى لفرعون: فعلت تلك الفعلة التي فعلت، أي: قتلت تلك النفس التي قتلت إذًا وأنا من الضالين. يقول: وأنا من الجاهلين قبل أن يأتيني من الله وحي بتحريم قتله علي»[(١)].

ولا شك أن هذا المصطلح يحمل بين جنباته تأدبًا عظيمًا من النبي موسى صلى الله عليه وسلم؛ إذ إنه حسم النقاش بكونه فعل تلك الفعلة، وكان من الجاهلين عن معرفة ذلك الحكم، فهو يبين أن عذره فيما فعل كونه جاهلًا، ولم تأته الرسالة بعد.

وقد ورد في القرآن الكريم ما يبين أن العبد الصالح الذي انتصر للرسل الثلاثة الذين كذبهم قومهم، قال لقومه: إن اتخذت آلهةً من دون الله تعالى إني إذًا لمن المنحرفين عن المنهج، والكافرين بالله، حيث قال تعالى: ﴿إِنِّيٓ إِذًا لَّفِي ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ﴾ [يس: ٢٤].

مظاهر الضلال

إن الضلال بكل جوانب معناه الشامل تتحدد له مظاهر، يحكم من خلالها على أن هذا المظهر دالٌّ على الضلال، وسيتم هنا -إن شاء الله تعالى- توضيح لكل مظهرٍ على حدة، من خلال الآتي:

أولًا: الشرك بالله تعالى:

إن الشرك بالله تعالى من الأمور التي يصل من خلالها الإنسان إلى الضلال الكبير، ويمكن توضيح هذه الظاهرة من خلال ما يأتي:

١. تفضيل الحياة الدنيا على الآخرة، والصد عن سبيل الله يؤدي إلى الضلال.

قال تعالى: ﴿وَجَعَلُواْ لِلَّهِ أَندَادًا لِّيُضِلُّواْ عَن سَبِيلِهِۦۗ قُلْ تَمَتَّعُواْ فَإِنَّ مَصِيرَكُمْ إِلَى ٱلنَّارِ﴾ [إبراهيم: ٣٠].

إن كفار قريش وأمثالهم ممن هم على طريقتهم نفسها قد جعلوا لله تعالى أمثالًا في العبادة، أو في التسمية، وكل هذا لأجل الإضلال عن طريق الحق[(٢)].

وإن الإضلال عن سبيل الله يعني الإضلال عن التوحيد، حيث يأمر الله تعالى نبيه صلى الله عليه وسلم أن يأمرهم على

(١) جامع البيان، الطبري ١٩/ ٣٤٠.

(٢) انظر: مدارك التنزيل، النسفي ١/ ١٧٣.

سبيل التوبيخ بأن يتمتعوا بشهواتهم وعبادة الأوثان، والأمر يحمل معنى التهديد أيضًا إيذانًا بأن المهدد عليه كالمطلوب للإفضاء إلى المهدد به، وأن الأمرين كائنان لا محالة، ولذلك علله بقوله: ﴿فَإِنَّ مَصِيرَكُمْ إِلَى ٱلنَّارِ﴾، وأن المخاطب لانهماكه فيه كالمأمور به من أمر المطاع(١).

٢. الإشراك بالله تعالى ضلالٌ بعيد.

قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِۦ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَآءُ ۚ وَمَن يُشْرِكْ بِٱللَّهِ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَٰلًۢا بَعِيدًا﴾ [النساء: ١١٦].

هذه الآية تعقيب على الآية السابقة؛ للإشارة إلى أن المراد باتباع غير سبيل المؤمنين اتباع سبيل الكفر، من شرك وغيره، فعقبه بالتحذير من الشرك(٢).

ومعنى الآية إذًا: فقد سلك غير طريق الحق، وضل عن الهدى، وبعد عن الصواب، وأهلك نفسه وخسرها في الدنيا والآخرة، وفاته سعادة الدارين(٣)، وإن كل ذنبٍ قابلٌ للغفران إلا الإشراك بالله تعالى، وعبادة غيره، ومعاندة رسول الله الحق، فإن الله تعالى من شأنه المغفرة إلا أن يشرك في عبادته، ويغفر ما دون ذلك لمن يشاء(٤).

(١) انظر: أنوار التنزيل، البيضاوي ٣/ ١٩٩.
(٢) انظر: التحرير والتنوير، ابن عاشور ٥/ ٢٠٢.
(٣) انظر: تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ٢/ ٤١٤.
(٤) انظر: المنتخب، لجنة من علماء الأزهر ص١٣٠.

ثانيًا: عبادة الأصنام والأوثان:

وقد برز ذلك واضحًا في آياتٍ، منها:

قوله تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَٰهِيمُ لِأَبِيهِ ءَازَرَ أَتَتَّخِذُ أَصْنَامًا ءَالِهَةً ۖ إِنِّىٓ أَرَىٰكَ وَقَوْمَكَ فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ﴾ [الأنعام: ٧٤].

أي: اذكر أيها الرسول لهؤلاء المشركين الذين تبين لك بالحجج بطلان شركهم، حين قال إبراهيم عليه السلام لأبيه آزر منكرًا عليه وعلى قومه شركهم وعاتبًا عليهم جميعًا عبادة الأصنام دون الله تعالى، ثم قال له: إني أراك وقومك الذين يعبدون هذه الأصنام في ضلال عن الصراط المستقيم؛ فهو ضلالٌ بينٌ لا شبهة فيه للهدى(٥).

وقال تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَٰهِيمُ رَبِّ ٱجْعَلْ هَٰذَا ٱلْبَلَدَ ءَامِنًا وَٱجْنُبْنِى وَبَنِىَّ أَن نَّعْبُدَ ٱلْأَصْنَامَ ﴿٣٥﴾ رَبِّ إِنَّهُنَّ أَضْلَلْنَ كَثِيرًا مِّنَ ٱلنَّاسِ ۖ فَمَن تَبِعَنِى فَإِنَّهُۥ مِنِّى ۖ وَمَنْ عَصَانِى فَإِنَّكَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ [إبراهيم: ٣٥، ٣٦].

وهذا دعاءٌ من نبينا إبراهيم صلى الله عليه وسلم لله تعالى أن يجعل مكة المكرمة بلدًا آمنًا، وأن يباعده الله تعالى وبنيه عن عبادة الأصنام، ثم تعلل الآية الثانية بأن هذه الأصنام أضلت عن الطريق المستقيم كثيرًا من الناس، وتأتي الفاصلة القرآنية لتدلل على تأدب نبينا إبراهيم صلى الله عليه وسلم في الطلب من الله تعالى لصالح بنيه، حيث

(٥) انظر: تفسير المراغي ٧/ ١٦٨.

يقول: من اتبع منهجي التوحيدي لله فهو مني، ومن عصاني بضلاله أو إضلاله عن الدين فيما دون الشرك فإنك غفور رحيم[1].

وقال تعالى: ﴿قَالَ لَقَدْ كُنتُمْ أَنتُمْ وَءَابَآؤُكُمْ فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ﴾ [الأنبياء: ٥٤].

أي: في ضلال بين واضح، وأي ضلال أبلغ من ضلالهم في الشرك وترك التوحيد، أي: فليس ما قلتم يصلح للتمسك به، وقد اشتركتم وإياهم في الضلال الواضح البين لأي أحد[2].

ثالثًا: الاستهزاء بالرسول صلى الله عليه وسلم:

ورد في القرآن الكريم ما يبين أن الكفار بلغوا من ضلالهم ما جعلهم يستهزئون برسلهم، وهناك نموذجان من هذا الاستهزاء:

١. الاستهزاء بنبي الله نوح صلى الله عليه وسلم.

قال تعالى: ﴿قَالَ ٱلْمَلَأُ مِن قَوْمِهِۦٓ إِنَّا لَنَرَىٰكَ فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ﴾ [الأعراف: ٦٠].

حيث رد الكفار - وهم أشراف القوم ورؤساؤهم، حيث سموا بالملأ؛ لما يلتمس عندهم من المعروف وجودة الرأي؛ أو لأنهم يملؤون العيون أبهة- على نبيهم نوح صلى الله عليه وسلم، حينما دعاهم إلى عبادة الله تعالى وحده، وبين لهم خوفه وشفقته عليهم من العذاب الأبدي، والشقاء السرمدي؛ لاستكبارهم وعدم انقيادهم له، وقدحهم فيه أعظم قدحٍ، ونسبوه إلى الضلال الذي هو عدول عن الطريق، ولم يكتفوا بمجرد الضلال، حتى جعلوه ضلالًا مبينًا واضحًا لكل أحد[3].

٢. دفع شبهة الضلال والإغواء عن الرسول صلى الله عليه وسلم.

قال تعالى: ﴿مَا ضَلَّ صَاحِبُكُمْ وَمَا غَوَىٰ﴾ [النجم: ٢].

فبعد أن أقسم الله تعالى بالقرآن الذي نزل على قلب النبي صلى الله عليه وسلم، وعبر عنه بالنجم يبين في هذه الآية أن النبي محمدًا الذي أنزل عليه القرآن، والذي هو من قريش التي تعرف نسبه، وشرفه فهو ليس بضالٍ ولا بمجنون، وليس بغويٍ يعتقد باطلًا، بل هو رشيد مرشد، دالٌ على الله تعالى، لم يتكلم بالقرآن عن هوى نفسه، ولا عن رأيه أصلًا، فما القرآن إلا وحيٌ من الله تعالى، يجدد إيحاؤه إليه صلى الله عليه وسلم وقتًا بعد وقت[4].

ولا شك أنهم قصدوا الاستهزاء بالرسول

---

(١) انظر: فتح القدير، الشوكاني ٣/ ١٣٤، ١٣٥.
(٢) انظر: تيسير الكريم الرحمن، السعدي ص٥٢٥.
(٣) انظر: المصدر السابق ص٢٩٢.
(٤) انظر: مراح لبيد، محمد بن عمر الجاوي ٢/ ٤٦٣.

صلى الله عليه وسلم، لكن هذه الآية جاءت لتدفع هذا الاستهزاء.

وقد سبقت الإشارة إلى آية أخرى، وهي قوله تعالى: ﴿وَإِذَا رَأَوْكَ إِن يَتَّخِذُونَكَ إِلَّا هُزُوًا أَهَٰذَا الَّذِي بَعَثَ اللَّهُ رَسُولًا ۝٤١ إِن كَادَ لَيُضِلُّنَا عَنْ آلِهَتِنَا لَوْلَا أَن صَبَرْنَا عَلَيْهَا وَسَوْفَ يَعْلَمُونَ حِينَ يَرَوْنَ الْعَذَابَ مَنْ أَضَلُّ سَبِيلًا﴾ [الفرقان: ٤١، ٤٢].

حيث يقول المشركون إذا رأوك رأي العين فيتخذونك مهزوءًا به: هل هذا الذي بعثه الله رسولًا؟! فقد قارب أن يضلنا عن عبادة الله، ولو لم نصبر عليها لصرفنا عنها، ثم تأتي الفاصلة القرآنية لتبين أنه سوف يعلم المشركون حين يأتيهم عذاب الله تعالى من أخطأ طريقًا[(١)].

رابعًا: تحليل ما حرم الله وتحريم ما أحل الله:

وقد ورد ذلك جليًا في قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا النَّسِيءُ زِيَادَةٌ فِي الْكُفْرِ يُضَلُّ بِهِ الَّذِينَ كَفَرُوا يُحِلُّونَهُ عَامًا وَيُحَرِّمُونَهُ عَامًا لِّيُوَاطِئُوا عِدَّةَ مَا حَرَّمَ اللَّهُ فَيُحِلُّوا مَا حَرَّمَ اللَّهُ زُيِّنَ لَهُمْ سُوءُ أَعْمَالِهِمْ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْكَافِرِينَ﴾ [التوبة: ٣٧].

فبعد أن بينت الآيات السابقة بعض أحكام الأشهر الحرم، وأنها أربعة، يوم خلق الله تعالى السماوات والأرض، وأن الله تعالى معيته مع المتقين، تبين هذه الآية الكريمة بأسلوب الحصر أن تأخير المحرم إلى صفر زيادة مبالغة في الكفر والإثم[(٢)]؛ فإن هذا التأخير عدولٌ عن المنهج الحق، من قبل الكافرين، حيث يحلونه إذا قاتلوا فيه، ويحرموا مكانه صفرًا، وأما إذا لم يقاتلوا فيه حرموه[(٣)].

وكأنهم يستهزئون بهذه الأشهر الحرم؛ فإن الذي التزموا به فقط هو موافقة عدة هذه الأشهر، وهي أنها أربعة خلال العام، فالمصيبة أنهم أحلوا ما حرم الله تعالى، وقد زين لهم عملهم السيئ، ثم تأتي الفاصلة لتقرير أن الله تعالى لا يكتب الهداية التوفيقية للقوم الذين وصلوا إلى مرحلة الكفر الخارج عن الملة، والمقصود هنا كفار قريش، رغم أن العبرة بعموم اللفظ لا بخصوص السبب.

خامسًا: القتل:

لقد برز ضلال القتل واضحًا في قوله تعالى: ﴿قَدْ خَسِرَ الَّذِينَ قَتَلُوا أَوْلَادَهُمْ سَفَهًا بِغَيْرِ عِلْمٍ وَحَرَّمُوا مَا رَزَقَهُمُ اللَّهُ افْتِرَاءً عَلَى اللَّهِ قَدْ ضَلُّوا وَمَا كَانُوا مُهْتَدِينَ﴾ [الأنعام: ١٤٠].

فقد بين الله تعالى في هذه الآية الكريمة

---

(١) انظر: معالم التنزيل، البغوي ٣/ ٤٤٧.

(٢) انظر: تفسير السمرقندي ٢/ ٥٧.

(٣) انظر: الوجيز، الواحدي ص٤٦٣.

أن كفار قريش وغيرهم ممن سار على نفس طريقتهم قد خسروا؛ لأنهم وأدوا بناتهم، وحرموا البحيرة بعقولهم، فقتلوا الأولاد سفهًا في الرأي خوف الفقر، وحجروا على أنفسهم في أموالهم، ولم يخشوا في ذلك الفقر، فأبان ذلك عن تناقض آرائهم، وكان من العرب من تقتل الولد سفهًا بغير حجة منهم في قتلهم، وهم ربيعة ومضر، وكانوا يقتلون لأجل الحمية، ومنهم من يقول: الملائكة بنات الله[1].

وتأتي الفاصلة القرآنية لتبين أن من فعل هذا قد ضل عن طريق الحق والرشاد، وما كان مهتديًا إلى طريق الصواب[2].

سادسًا: موالاة الأعداء:

لقد عالج القرآن الكريم هذا المظهر الذي هو علامةٌ دالةٌ على ضلال كل من وقع في شركه، وذلك من خلال الآتي:

١. دفع شبهة الموالاة للادعاء في حق الله.

قال تعالى: ﴿مَّآ أَشۡهَدتُّهُمۡ خَلۡقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ وَلَا خَلۡقَ أَنفُسِهِمۡ وَمَا كُنتُ مُتَّخِذَ ٱلۡمُضِلِّينَ عَضُدٗا﴾ [الكهف: ٥١].

أي: وما كنت متخذ المضلين أعوانًا[3].

وفي هذا بيان لقبح ما اقترفوه من ادعاء باطل.

٢. اعتراف الكافرين بأن المجرمين هم من أضلهم.

قال تعالى: ﴿وَمَآ أَضَلَّنَآ إِلَّا ٱلۡمُجۡرِمُونَ﴾ [الشعراء: ٩٩].

أي: وما دعانا إلى الضلال إلا المجرمون الأوائل ممن سبقنا[4].

٣. نهي الرسول صلى الله عليه وسلم عن طاعة أكثر أهل الأرض.

قال تعالى: ﴿وَإِن تُطِعۡ أَكۡثَرَ مَن فِي ٱلۡأَرۡضِ يُضِلُّوكَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِۚ إِن يَتَّبِعُونَ إِلَّا ٱلظَّنَّ وَإِنۡ هُمۡ إِلَّا يَخۡرُصُونَ﴾ [الأنعام: ١١٦].

إن أهل الله تعالى قليلون عددًا، وإن كانوا كثيرين وزنًا وخطرًا، وأما الأعداء ففيهم كثرة، فإن لاحظتهم يا محمد صلى الله عليه وسلم فتنوك، وإن صاحبتهم منعوك عن الحق وقلبوك[5]؛ لأن المشركين كانوا يدعون إلى عبادة الأوثان فما يتبعون بعبادتهم الأوثان إلا ادعاء آلهة بظن منهم[6]، وإن ما كان من ظنٍ في القرآن الكريم فهو يقين[7].

---

(١) انظر: الجامع لأحكام القرآن، القرطبي ٧/ ٩٦-٩٧.

(٢) انظر: لباب التأويل، الخازن ٢/ ١٦٣.

(٣) انظر: تفسير القرآن العزيز، ابن أبي زمنين ٣/ ٦٩.

(٤) انظر: الوجيز، الواحدي ص٧٩٢.

(٥) انظر: لطائف الإشارات، القشيري ١/ ٤٩٦.

(٦) انظر: تفسير القرآن العزيز، ابن أبي زمنين ٢/ ٩٣.

(٧) انظر: تفسير القرآن العظيم، ابن أبي حاتم

آثار الضلال في الدنيا والآخرة

إن للضلال آثارًا عظيمة تحل بكل ضالٍ في الدنيا والآخرة؛ إذ إن الله تعالى قد يمهلهم، لكنه قطعًا لا يهملهم، ويمكن تقسيم هذه الآثار إلى:

أولًا: آثار الضلال في الدنيا:

بالنظر في آيات القرآن الكريم التي أوردت موضوع الضلال يمكن الخروج بمعرفة آثار الضلال في الدنيا، ومن خلال جوانب، أهمها:

١. الضال يضيق صدره، ولا يتسع للهداية.

قال تعالى: ﴿وَمَن يُرِدْ أَن يُضِلَّهُۥ يَجْعَلْ صَدْرَهُۥ ضَيِّقًا حَرَجًا كَأَنَّمَا يَصَّعَّدُ فِى ٱلسَّمَآءِ﴾ [الأنعام: ١٢٥].

أي: شديد الضيق، كأنما يصعد في السماء؛ لشدته وثقله عليه[١].

٢. العذاب الأليم في الدنيا.

ومثال هذا ما لحق بقوم نوح صلى الله عليه وسلم وغيره من الغرق، وغير ذلك من العذابات؛ فقد قال الله تعالى عن قوم نوح عليه السلام: ﴿فَكَذَّبُوهُ فَأَنجَيْنَـٰهُ وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥ فِى ٱلْفُلْكِ وَأَغْرَقْنَا ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَـٰتِنَآ ۚ إِنَّهُمْ كَانُوا۟ قَوْمًا عَمِينَ﴾ [الأعراف: ٦٤].

أي: «فكذب نوحًا قومه إذ أخبرهم أنه لله رسولٌ إليهم، يأمرهم بخلع الأنداد، والإقرار بوحدانية الله، والعمل بطاعته، وخالفوا أمر ربهم، ولجوا في طغيانهم يعمهون، فأنجاه الله في الفلك والذين معه من المؤمنين به»[٢].

٣. الضالون من الإنس يوبخهم القرآن بأن الأنعام أعلى منهم شأنًا في الهداية.

قال تعالى: ﴿أَمْ تَحْسَبُ أَنَّ أَكْثَرَهُمْ يَسْمَعُونَ أَوْ يَعْقِلُونَ ۚ إِنْ هُمْ إِلَّا كَٱلْأَنْعَـٰمِ ۖ بَلْ هُمْ أَضَلُّ سَبِيلًا﴾ [الفرقان: ٤٤].

أي: «أخطأ طريقًا»[٣].

٤. الختم على سمع وقلب الضال، وكذلك الغشاوة على بصره.

قال تعالى: ﴿أَفَرَءَيْتَ مَنِ ٱتَّخَذَ إِلَـٰهَهُۥ هَوَىٰهُ وَأَضَلَّهُ ٱللَّهُ عَلَىٰ عِلْمٍ﴾ [الجاثية: ٢٣].

أي: أفرأيت الكافر الذي اتخذ دينه ما يهواه، وعدله الله عن المنهج المستقيم على ما سبق في علمه قبل أن يخلقه أنه ضالٌ[٤].

٥. الضال بغير علم يكون في الدنيا أسوأ الظالمين.

٤/ ١٣٧٥.

(١) انظر: الوجيز، الواحدي ص٣٧٤.

(٢) جامع البيان، الطبري ١٢/ ٥٠٢.

(٣) انظر: تفسير القرآن العزيز، ابن أبي زمنين ٣/ ٢٦٢.

(٤) انظر: الوجيز، الواحدي ص٩٩١.

قال تعالى: ﴿فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَىٰ عَلَى اللَّهِ كَذِبًا لِّيُضِلَّ النَّاسَ بِغَيْرِ عِلْمٍ ۗ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ﴾ [الأنعام: ١٤٤].

فإن الله تعالى بين أنه يوجد أظلم ممن كذب على الله تعالى، وافترى بتحريم شيء لم يحرمه الله تعالى؛ لأجل أن يضل الناس بجهلٍ، أو افتراء عليه جاهلًا بصدور التحريم[(١)].

٦. تمكن الشيطان من الضالين.

قال تعالى: ﴿كُتِبَ عَلَيْهِ أَنَّهُ مَن تَوَلَّاهُ فَأَنَّهُ يُضِلُّهُ وَيَهْدِيهِ إِلَىٰ عَذَابِ السَّعِيرِ﴾ [الحج: ٤].

فإن من جعل الشيطان وليًا له من دون الله تعالى فشأنه أن يضله ذلك الشيطان عن طريق الجنة، أو طريق الحق[(٢)].

٧. ضلال الأعمال للكافرين.

قال تعالى: ﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا فَتَعْسًا لَّهُمْ وَأَضَلَّ أَعْمَالَهُمْ﴾ [محمد: ٨].

وضلال الأعمال هنا: جعلها على غير هدىً واستقامة[(٣)]، وذلك من خلال إبطالها؛ لأنها كانت في طاعة الشيطان[(٤)].

(١) انظر: فتح البيان، القنوجي ٤/ ٢٦١.
(٢) انظر: إرشاد العقل السليم، أبو السعود ٦/ ٩٣.
(٣) انظر: محاسن التأويل، القاسمي ٨/ ٤٦٩.
(٤) انظر: التفسير الميسر، نخبة من أساتذة التفسير ص٥٠٧.

ثانيًا: آثار الضلال في الآخرة:

من آثار الضلال في الآخرة:

١. اعتراف الشيطان القرين بضلال من كان معه.

قال تعالى: ﴿قَالَ قَرِينُهُ رَبَّنَا مَا أَطْغَيْتُهُ وَلَٰكِن كَانَ فِي ضَلَالٍ بَعِيدٍ﴾ [ق: ٢٧].

أي: «قال شيطانه الذي كان معه في الدنيا: ربنا ما أضللته، ولكن كان في طريق بعيدٍ عن سبيل الهدى»[(٥)].

٢. العمى عن الهدى إلى الجنة يوم القيامة، ومن ثم دخول النار.

قال تعالى: ﴿وَمَن كَانَ فِي هَٰذِهِ أَعْمَىٰ فَهُوَ فِي الْآخِرَةِ أَعْمَىٰ وَأَضَلُّ سَبِيلًا﴾ [الإسراء: ٧٢].

أي: «من كان في الدنيا أعمى عن حجج الله تعالى الدالة على وجوده وعلمه وقدرته، فلم يؤمن به، ولم يعبده فهو في الآخرة أشد عمىً وأضل سبيلًا»[(٦)].

٣. يحشر الضالون يوم القيامة عميًا وصمًا وبكمًا.

قال تعالى: ﴿وَمَن يَهْدِ اللَّهُ فَهُوَ الْمُهْتَدِ ۖ وَمَن يُضْلِلْ فَلَن تَجِدَ لَهُمْ أَوْلِيَاءَ مِن دُونِهِ ۖ وَنَحْشُرُهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ عَلَىٰ وُجُوهِهِمْ عُمْيًا وَبُكْمًا وَصُمًّا ۖ مَّأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ ۖ كُلَّمَا خَبَتْ زِدْنَاهُمْ

(٥) المصدر السابق ص٥١٩.
(٦) أيسر التفاسير، الجزائري ٣/ ٢١٥.

سَعِيرًا﴾ [الإسراء: ٩٧].

فإن الإضلال هنا يعني: العدول عن المنهج؛ لفساد الطبع [١].

علاج الضلال

إن القرآن الكريم قد بين أن هذا المرض الخطير الذي يوصل مرتكبه إلى الخروج من الملة له علاج، لكنه يحتاج إلى صدقٍ في الطلب من الله تعالى لأن ينجيه من ذلك المرض، ويمكن تلخيص العلاج القرآني لهذا الضلال، من خلال الآتي:

١ . عدم اتباع الشيطان.

قال تعالى: ﴿وَإِذَا جَاءَهُمْ أَمْرٌ مِّنَ الْأَمْنِ أَوِ الْخَوْفِ أَذَاعُوا بِهِ ۖ وَلَوْ رَدُّوهُ إِلَى الرَّسُولِ وَإِلَىٰ أُولِي الْأَمْرِ مِنْهُمْ لَعَلِمَهُ الَّذِينَ يَسْتَنبِطُونَهُ مِنْهُمْ ۗ وَلَوْلَا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ لَاتَّبَعْتُمُ الشَّيْطَانَ إِلَّا قَلِيلًا﴾ [النساء: ٨٣].

والخطاب للجميع فإن الكل لولا فضل الله لاتبع الشيطان إلا القليل من أصحاب النبي صلى الله عليه وسلم [٢].

٢ . الرجوع إلى الله تعالى بصدق التوبة.

قال تعالى: ﴿وَالَّذِينَ لَا يَدْعُونَ مَعَ اللَّهِ إِلَٰهًا آخَرَ وَلَا يَقْتُلُونَ النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلَّا بِالْحَقِّ وَلَا يَزْنُونَ ۚ وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ يَلْقَ أَثَامًا ﴿٦٨﴾ يُضَاعَفْ لَهُ الْعَذَابُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَيَخْلُدْ فِيهِ مُهَانًا ﴿٦٩﴾ إِلَّا مَن تَابَ وَآمَنَ وَعَمِلَ عَمَلًا صَالِحًا فَأُولَٰئِكَ يُبَدِّلُ اللَّهُ سَيِّئَاتِهِمْ حَسَنَاتٍ

(١) انظر: المنتخب في تفسير القرآن الكريم، لجنة من علماء الأزهر ص٤٢٣.

(٢) انظر: تفسير القرآن العظيم، ابن أبي حاتم ٣/ ١٠١٧.

﴿وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا ۝٧٠ وَمَن تَابَ وَعَمِلَ صَٰلِحًا فَإِنَّهُۥ يَتُوبُ إِلَى ٱللَّهِ مَتَابًا﴾ [الفرقان: ٦٨-٧١].

فإن إخلاص التوحيد، ونبذ كل أثر للشرك في العبادة لله تعالى، والتنزه عن قتل النفوس التي حرم الله تعالى، والبعد عن الزنى الذي عليه إثم عظيم في الدنيا والآخرة إلا التائبين إلى الله تعالى عن الذنوب، الذين صدقوا في إيمانهم، وأتبعوا ذلك بالطاعات، والأعمال الصالحات، فهؤلاء يجعل الله لهم مكان السيئات الحسنات، فيثابون عليها أجزل الثواب، وهكذا مضى أمر الله تعالى، فإن من تاب من إثمه، وظهر أثر ذلك في إقباله على الطاعة، واجتنابه المعصية، فهو الذي يقبل الله توبته، وبها يرجع إلى ربه بعد نفاره[(١)].

٣. ذكر الله تعالى كثيرًا.

قال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱذْكُرُوا۟ ٱللَّهَ ذِكْرًا كَثِيرًا﴾ [الأحزاب: ٤١].

حيث «أمر سبحانه عباده بأن يستكثروا من ذكره، بالتهليل والتحميد والتسبيح والتكبير، وكل ما هو ذكر لله تعالى»[(٢)].

٤. طاعة الله تعالى، وطاعة الرسول صلى الله عليه وسلم.

قال تعالى: ﴿قُلْ أَطِيعُوا۟ ٱللَّهَ وَأَطِيعُوا۟ ٱلرَّسُولَ ۖ فَإِن تَوَلَّوْا۟ فَإِنَّمَا عَلَيْهِ مَا حُمِّلَ وَعَلَيْكُم مَّا حُمِّلْتُمْ ۖ وَإِن تُطِيعُوهُ تَهْتَدُوا۟ ۚ وَمَا عَلَى ٱلرَّسُولِ إِلَّا ٱلْبَلَٰغُ ٱلْمُبِينُ﴾ [النور: ٥٤].

«أي: أطيعوا طاعة من صميم قلوبكم، لا من ظاهر أقوالكم، وذكر الرسول مع الله؛ للإشارة إلى التلازم بينهما، وإلى أن طاعة الرسول واجبة على الأمة؛ لكيلا يتململ اليهود، والمنافقون من إجابة الرسول، زاعمين في نفوسهم الفاسدة الفصل بين طاعة الله وطاعة رسوله، فيعصون الرسول، ويحسبون أنهم يحسنون صنعًا، والخطاب للمنافقين ومن في قلوبهم مرض»[(٣)].

٥. اتباع سبيل المؤمنين.

قال تعالى: ﴿وَمَن يُشَاقِقِ ٱلرَّسُولَ مِنۢ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُ ٱلْهُدَىٰ وَيَتَّبِعْ غَيْرَ سَبِيلِ ٱلْمُؤْمِنِينَ نُوَلِّهِۦ مَا تَوَلَّىٰ وَنُصْلِهِۦ جَهَنَّمَ ۖ وَسَآءَتْ مَصِيرًا﴾ [النساء: ١١٥].

فإن سبيل المؤمنين هو دين الله تعالى[(٤)].

موضوعات ذات صلة

الاستقامة، الصد عن سبيل الله، الغلو، الفساد، الكفر، الهداية

(١) انظر: المصدر السابق ص٥٤٠.
(٢) فتح القدير، الشوكاني ٤/ ٣٣٠.
(٣) زهرة التفاسير، أبو زهرة ١٠/ ٥٢١٨.
(٤) انظر: تفسير القرآن العزيز، ابن أبي زمنين ١/ ٤٠٦.



عناصر الموضوع

مفهوم الطاعة

أولًا: المعنى اللغوي:

قال ابن فارس: «الطاء والواو والعين أصل صحيح واحد، يدل على الإصحاب والانقياد، يقال: طاعه يطوعه إذا انقاد معه، ومضى لأمره، وأطاعه بمعنى طاع له، ويقال لمن وافق غيره: قد طاوعه»[(١)].

وقال الليث: «الطوع: نقيض الكره، لتفعلنه طوعًا أو كرهًا، وطائعًا أو كارهًا، وطاع له إذا انقاد له، فإذا مضى لأمره فقد أطاعه، وإذا وافقه فقد طاوعه، قال: والطاعة: اسم من أطاعه إطاعة، والطواعية: اسم لما يكون مصدر المطاوعة، يقال: طاوعت المرأة زوجها طواعية»[(٢)].

يتبين مما سبق أن المعنى اللغوي للطاعة يدل على الاصطحاب و الانقياد وموافقة الغير.

ثانيًا: المعنى الاصطلاحي:

لم يبتعد المعنى الاصطلاحي للطاعة عن معناها اللغوي كثيرًا، بل دار في فلكها، فحول معاني الانقياد والامتثال واتباع الأمر واجتناب النهي يدور المعنى.

قال ابن عطية: «الطاعة: هي موافقة الأمر الجاري عند المأمور مع مراد الأمر»[(٣)].

وقال السيوطي: «الطاعة: امتثال أمر بات على حكم الواقعة»[(٤)].

ولخص ذلك كله الطاهر ابن عاشور بقوله: «الطاعة: امتثال الأمر والنهي»[(٥)].

(١) مقاييس اللغة، ابن فارس ٣/ ٤٣١.
(٢) تهذيب اللغة، الأزهري ٣/ ٦٦.
(٣) المحرر الوجيز، ابن عطية ١/ ٥٠٧.
(٤) مقاليد العلوم، السيوطي ص٧٥.
(٥) التحرير والتنوير ٩/ ٣٠٣.



الطاعة في الاستعمال القرآني

وردت مادة (طوع) في القرآن الكريم (١٣٠) مرة، يخص موضوع البحث منها (٧٣) مرة[١].

والصيغ التي وردت، هي:

الصيغة	عدد المرات	المثال
الفعل الماضي	١٤	﴿مَّن يُطِعِ الرَّسُولَ فَقَدْ أَطَاعَ اللَّهَ﴾ [النساء:٨٠]
الفعل المضارع	٢٩	﴿وَلَا تُطِعْ مَنْ أَغْفَلْنَا قَلْبَهُ عَن ذِكْرِنَا وَاتَّبَعَ هَوَاهُ﴾ [الكهف:٢٨]
فعل الأمر	٢١	﴿قُلْ أَطِيعُوا اللَّهَ وَالرَّسُولَ﴾ [آل عمران:٣٢]
المصدر	٧	﴿طَاعَةٌ وَقَوْلٌ مَّعْرُوفٌ﴾ [محمد:٢١]
اسم الفاعل	١	﴿فَقَالَ لَهَا وَلِلْأَرْضِ ائْتِيَا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا قَالَتَا أَتَيْنَا طَائِعِينَ ﴿١١﴾﴾ [فصلت:١١]
اسم المفعول	١	﴿ذِي قُوَّةٍ عِندَ ذِي الْعَرْشِ مَكِينٍ ﴿٢٠﴾ مُّطَاعٍ ثَمَّ أَمِينٍ ﴿٢١﴾﴾ [التكوير:٢٠-٢١]

وجاءت الطاعة في الاستعمال القرآني بمعناها اللغوي، وهو: الانقياد، لكن أكثر ما يقال في الائتمار فيما أمر[٢].

(١) انظر: المعجم المفهرس الشامل لألفاظ القرآن الكريم، عبد الله جلغوم، باب الطاء، ص٧٢٣-٧٢٦.
(٢) انظر: بصائر ذوي التمييز، الفيروزآبادي ٣/ ٥١٩.

الألفاظ ذات الصلة

١ العبادة:

العبادة لغة:

من الفعل عبد يعبد، عبادةً وعبوديةً، والمفعول: معبود، وعبد الله بمعنى وحده وأطاعه، وانقاد وخضع وذل له، والتزم شرائع دينه، وأدى فرائضه[١].

العبادة اصطلاحًا:

قال المناوي: العبادة فعل المكلف على خلاف هوى نفسه؛ تعظيمًا لربه، وقيل: هي الأفعال الواقعة على نهاية ما يمكن من التذلل والخضوع المتجاوز لتذلل بعض العباد لبعض، ولذلك اختصت بالرب،

وهي أخص من العبودية التي تعني مطلق التذلل[٢].

الصلة بين الطاعة و العبادة:

إن العبادة هي غاية الخضوع ولا تستحق إلا بغاية الإنعام، ولهذا لا يجوز أن يعبد غير الله تعالى، ولا تكون العبادة إلا مع المعرفة بالمعبود، والطاعة هي ذلك الفعل الواقع على حسب ما أراده المريد متى كان المريد أعلى رتبة ممن يفعل ذلك، وتكون للخالق والمخلوق، والعبادة لا تكون إلا للخالق[٣].

(١) انظر: معجم اللغة العربية المعاصرة، أحمد مختار ٢/ ١٤٤٨.
(٢) التوقيف على مهمات التعاريف، المناوي ص ٢٣٤.
(٣) انظر: الفروق اللغوية، العسكري ٢٢١.



٢ التطوع:

التطوع لغة:

الطاء والواو والعين أصلٌ صحيحٌ واحدٌ يدل على الإصحاب والانقياد. يقال: طاعه يطوعه، إذا انقاد معه ومضى لأمره [١].

التطوع اصطلاحًا:

التطوع في الأصل: تكلف الطاعة، وهو في التعارف التبرع بما لا يلزم كالتنفل [٢].

الصلة بين الطاعة والتطوع:

أصلهما من الطوع: الذي هو من الانقياد، والفرق بينهما أن الطاعة موافقة الإرادة في الفريضة، والنافلة والتطوع: التبرع بالنافلة خاصة [٣].

٣ العصيان:

العصيان لغة:

الخروج عن الطاعة [٤].

العصيان اصطلاحًا:

هو ترك الانقياد [٥].

الصلة بين الطاعة والعصيان:

العصيان ضد الطاعة، وهو الامتناع عن الانقياد، وترك أمر الله تعالى، والخروج عن طريق الحق، ويقابله الطاعة التي هي امتثال الأمر والنهي [٦].

(١) انظر: مقاييس اللغة، ابن فارس ٣/ ٤٣١.
(٢) انظر: المفردات، الراغب الأصفهاني ص٥٣٠.
(٣) انظر: الفروق اللغوية، العسكري ص٣٣٥.
(٤) انظر: تاج العروس، الزبيدي ٣٩/ ٥٨.
(٥) انظر: التعريفات، الجرجاني ص١٥١.
(٦) انظر: المعجم الوسيط، مجمع اللغة العربية ٢/ ٦٠٦.

الأساليب القرآنية في الحث على الطاعة

تنوعت أساليب القرآن في الحث على الطاعة، وفيما يأتي بيان لها:

أولًا: أسلوب الطلب (الأمر):

تنوعت أساليب القرآن في الحث على الطاعة، فتارة تأتي بصيغة الأمر، ويشمل ذلك استخدام اللفظ نفسه، كما في قوله تعالى: ﴿قُلْ أَطِيعُوا اللَّهَ وَالرَّسُولَ﴾ [آل عمران: ٣٢].

وقوله تعالى: ﴿وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَالرَّسُولَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ﴾ [آل عمران: ١٣٢].

وقوله تعالى: ﴿وَأَقِمْنَ الصَّلَاةَ وَآتِينَ الزَّكَاةَ وَأَطِعْنَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ﴾ [الأحزاب: ٣٣].

وقال تعالى على لسان أكثر من رسول لقومه: ﴿فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُونِ﴾ [الشعراء: ١٠٨-١١٠-١٢٦-١٣١-١٤٤-١٦٣-١٧٩]. [آل عمران: ٥٠]. [الزخرف: ٦٣].

وقال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَأُولِي الْأَمْرِ مِنْكُمْ﴾ [النساء: ٥٩].

أمر الله تعالى بطاعته وطاعة رسوله وذلك بامتثال أمرهما، الواجب والمستحب، واجتناب نهيهما. وأمر بطاعة أولي الأمر وهم: الولاة على الناس، من الأمراء والحكام والمفتين، فإنه لا يستقيم للناس أمر دينهم ودنياهم إلا بطاعتهم والانقياد لهم، طاعة لله ورغبة فيما عنده، ولكن بشرط ألا يأمروا بمعصية الله، فإن أمروا بذلك فلا طاعة لمخلوق في معصية الخالق. ولعل هذا هو السر في حذف الفعل عند الأمر بطاعتهم وذكره مع طاعة الرسول، فإن الرسول لا يأمر إلا بطاعة الله، ومن يطعه فقد أطاع الله، وأما أولو الأمر فشرط الأمر بطاعتهم أن لا يكون معصية[1].

ثانيًا: أسلوب النهي عن ضده:

تأكدت معاني الآيات الآمرة بطاعة الله ورسوله بذكر الآيات الناهية عن المعصية، والإعراض والتولي أيضًا، وهذا كله ضد الطاعة، وهذا النهي يأتي أحيانًا مذكورًا مع أوامر الطاعة؛ وذلك لتأكيد المعنى، والتحذير من المخالفة، ومثال ذلك قوله تعالى: ﴿وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَاحْذَرُوا فَإِنْ تَوَلَّيْتُمْ فَاعْلَمُوا أَنَّمَا عَلَى رَسُولِنَا الْبَلَاغُ الْمُبِينُ﴾ [المائدة: ٩٢].

إن الله عز وجل بعد أن أمر بطاعته وطاعة نبيه بين أن إعراض المعرض عن ذلك لن يضر به إلا نفسه، فقد أقيمت الحجج، وانتهت الأعذار، وأدى النبي رسالته، وبلغ ما أمر به.

قال الألوسي: «﴿فَإِن تَوَلَّيْتُمْ﴾ أي: أعرضتم، ولم تعملوا بما أمرتم به ﴿فَاعْلَمُوا﴾

(١) تيسير الكريم الرحمن، السعدي ص ١٨٣.

﴿أَنَّمَا عَلَىٰ رَسُولِنَا الْبَلَاغُ الْمُبِينُ﴾ أي: ولم يأل جهدًا في ذلك فقامت عليكم الحجة، وانتهت الأعذار، وانقطعت العلل، ولم يبق بعد ذلك إلا العقاب، وفي هذا -كما قال الطبرسي وغيره- من التهديد وشدة الوعيد ما لا يخفى»[(١)].

وقال ابن عاشور: «﴿فَإِن تَوَلَّيْتُمْ﴾ تفريع عن «أطيعوا» «واحذروا» والتولي هنا استعارة للعصيان، شبه العصيان بالإعراض والرجوع عن الموضع الذي كان به العاصي، بجامع المقاطعة والمفارقة، وكذلك يطلق عليه الإدبار، ففي حديث ابن صياد (ولئن أدبرت ليعقرنك الله)[(٢)]، أي: أعرضت عن الإسلام»[(٣)].

وهذا الأسلوب، أي: أسلوب الجمع بين الأمر بالطاعة، والتحذير والنهي عن التولي والإعراض؛ له أثر بالغ في توكيد المعنى عن المستمع؛ ولذا نجده قد تكرر في أكثر من آية، كما في قوله تعالى: ﴿قُلْ أَطِيعُوا اللَّهَ وَالرَّسُولَ ۖ فَإِن تَوَلَّوْا فَإِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْكَافِرِينَ﴾ [آل عمران: ٣٢].

وقال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَلَا تَوَلَّوْا عَنْهُ وَأَنتُمْ تَسْمَعُونَ﴾ [الأنفال: ٢٠].

وقال تعالى: ﴿قُلْ أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ ۖ فَإِن تَوَلَّوْا فَإِنَّمَا عَلَيْهِ مَا حُمِّلَ وَعَلَيْكُم مَّا حُمِّلْتُمْ﴾ [النور: ٥٤].

وقال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَلَا تُبْطِلُوا أَعْمَالَكُمْ﴾ [محمد: ٣٣].

وقال تعالى: ﴿وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ ۚ فَإِن تَوَلَّيْتُمْ فَإِنَّمَا عَلَىٰ رَسُولِنَا الْبَلَاغُ الْمُبِينُ﴾ [التغابن: ١٢].

وجاءت آيات أخرى تتوعد العصاة بالعذاب والخسران، وفي هذا نهي ضمني عن معصية الله ورسوله؛ لأنه طريق هلاك وضلال، ومن هذه الآيات قوله تعالى: ﴿وَمَن يَعْصِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَيَتَعَدَّ حُدُودَهُ يُدْخِلْهُ نَارًا خَالِدًا فِيهَا وَلَهُ عَذَابٌ مُّهِينٌ﴾ [النساء: ١٤].

هذه الآية جاءت بعد ذكر بعض أحكام الفرائض والمواريث؛ ولذلك ربط كثير من العلماء بينها وبين ما قبلها، فقال الطبري: «﴿وَمَن يَعْصِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ﴾ في العمل بما أمراه به من قسمة المواريث على ما أمراه بقسمة ذلك بينهم وغير ذلك من فرائض الله، مخالفًا أمرهما إلى ما نهياه عنه ﴿وَيَتَعَدَّ حُدُودَهُ﴾ يقول: ويتجاوز فصول طاعته التي جعلها تعالى فاصلة بينها وبين

---

(١) روح المعاني، الألوسي ٤/ ١٧.
(٢) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب المناقب، باب علامات النبوة في الإسلام ٤/ ٢٠٣، رقم ٣٦٢٠، ومسلم في صحيحه، كتاب الرؤيا، باب رؤيا النبي صلى الله عليه وسلم ٤/ ١٧٨٠، رقم ٢٢٧٣.
(٣) التحرير والتنوير، ابن عاشور ٧/ ٣١.

معصيته، إلى ما نهاه عنه من قسمة تركات موتاهم بين ورثتهم وغير ذلك من حدوده؛ يدخله نارًا باقيًا فيها أبدًا، لا يموت ولا يخرج منها أبدًا، وله عذاب مذلٌّ من عُذِّبَ به، مخزٍ له»[1].

وقال ابن الجوزي: «ومن يعص الله فلم يرض بقسمه يدخله نارًا، فإن قيل: كيف قطع للعاصي بالخلود؟ فالجواب: أنه إذا رد حكم الله، وكفر به؛ كان كافرًا مخلدًا في النار»[2].

وليس المراد بهذا أن يقتصر العقاب المذكور على من عصى الله ورسوله في أمر المواريث فحسب، بل الآية جاءت عامة لتشمل كل معصية لله ورسوله في شتى الحدود والأوامر.

يقول الأصفهاني: «كما وصف في مراعاة الحدود ثواب مراعيها، وصف في تضييعها عقاب متعديها، وأطلق القول فيهما ليكون عامًا في ذلك وفي غيره من الحدود التي بينها، وذكر في العذاب الهوان، كما ذكر في غيره الخزي، لما عرف من عادة كثير من الناس أن تقل مبالاتهم بالشدائد ما لم يضامها الهوان، حتى قالوا: المنية ولا الدنية، والنار ولا العار، فبين أنه يجمع لهم الأمران»[3].

(١) جامع البيان، الطبري ٨/ ٧١-٧٢.
(٢) زاد المسير، ابن الجوزي ١/ ٣٨١.
(٣) تفسير الراغب الأصفهاني ٣/ ١١٣٩.

ومثل هذا التوعد بالعذاب على المعصية والمخالفة العامة نجده في قوله تعالى: ﴿وَمَن يَعْصِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ فَإِنَّ لَهُۥ نَارَ جَهَنَّمَ خَـٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا﴾ [الجن: ٢٣].

وقال تعالى: ﴿لَّا تَجْعَلُوا۟ دُعَآءَ ٱلرَّسُولِ بَيْنَكُمْ كَدُعَآءِ بَعْضِكُم بَعْضًا ۚ قَدْ يَعْلَمُ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ يَتَسَلَّلُونَ مِنكُمْ لِوَاذًا ۚ فَلْيَحْذَرِ ٱلَّذِينَ يُخَالِفُونَ عَنْ أَمْرِهِۦٓ أَن تُصِيبَهُمْ فِتْنَةٌ أَوْ يُصِيبَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ [النور: ٦٣].

قال ابن عطية: «أمرهم بالحذر من عذاب الله ونقمته إذا خالفوا عن أمر نبيه صلى الله عليه وسلم، وقوله: ﴿يُخَالِفُونَ عَنْ أَمْرِهِۦٓ﴾ معناه: يقع خلافهم بعد أمره، وهذا كما تقول: كان المطر عن ريح، و«عن» هي لما عدا الشيء، و«الفتنة» في هذا الموضع الإخبار بالرزايا في الدنيا، وبالعذاب الأليم في الآخرة، ولا بد للمنافقين من أحد هذين ملكًا وخلفًا»[4].

وبين الله عز وجل أيضًا أن أوامره وأوامر نبيه من الأمور التي لا اختيار للمسلم فيها، بل يقبلها وينقاد إليها؛ لأن فيها مصلحة العبد في الدنيا والآخرة، حتى وإن جهل الحكمة من هذه الأوامر، فقال تعالى: ﴿وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلَا مُؤْمِنَةٍ إِذَا قَضَى ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥٓ أَمْرًا أَن يَكُونَ لَهُمُ ٱلْخِيَرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْ ۗ وَمَن يَعْصِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَـٰلًا مُّبِينًا﴾ [الأحزاب: ٣٦].

(٤) المحرر الوجيز، ابن عطية ٤/ ١٩٨.

قال الطبري: «لم يكن لمؤمن بالله ورسوله، ولا مؤمنة إذا قضى الله ورسوله في أنفسهم قضاء أن يتخيروا من أمرهم غير الذي قضى فيهم، ويخالفوا أمر الله وأمر رسوله وقضاءهما فيعصوهما، ومن يعص الله ورسوله فيما أمرا أو نهيا ﴿فَقَدْ ضَلَّ ضَلَالًا مُّبِينًا﴾ أي: فقد جار عن قصد السبيل، وسلك غير سبيل الهدي والرشاد»[1].

وفي سبب نزول هذه الآية خاصة، يذكر أهل التفسير سببين:

أحدهما: أن رسول الله صلى الله عليه وسلم انطلق يخطب زينب بنت جحش لزيد بن حارثة، فقالت: لا أرضاه، ولست بناكحته، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: (بلى فانكحيه، فإني قد رضيته لك) فأبت، فنزلت هذه الآية، وهذا المعنى مروي عن ابن عباس رضي الله عنهما ومجاهد وقتادة والجمهور.

وذكر بعض المفسرين أن عبد الله بن جحش أخا زينب كره ذلك كما كرهته زينب، فلما نزلت الآية رضيا وسلما[2].

لكن حتى إن صح سبب النزول المذكور فيبقى أن الآية عامة في جميع الأمور؛ وذلك أنه إذا حكم الله ورسوله بشيء، فليس لأحد مخالفته ولا اختيار لأحد ها هنا، ولا رأي ولا قول، كما قال تعالى: ﴿فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّىٰ يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لَا يَجِدُوا فِي أَنفُسِهِمْ حَرَجًا مِّمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا تَسْلِيمًا﴾ [النساء: ٦٥].

ولهذا شدد في خلاف ذلك، فقال: ﴿وَمَن يَعْصِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَالًا مُّبِينًا﴾ كقوله تعالى: ﴿فَلْيَحْذَرِ الَّذِينَ يُخَالِفُونَ عَنْ أَمْرِهِ أَن تُصِيبَهُمْ فِتْنَةٌ أَوْ يُصِيبَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾[النور: ٦٣][3].

ووردت آيات أخرى في ذم هؤلاء المتخلفين المعرضين عن طاعة الله ورسوله عليه الصلاة والسلام، كما في قوله تعالى: ﴿وَيَقُولُونَ آمَنَّا بِاللَّهِ وَبِالرَّسُولِ وَأَطَعْنَا ثُمَّ يَتَوَلَّىٰ فَرِيقٌ مِّنْهُم مِّن بَعْدِ ذَٰلِكَ وَمَا أُولَٰئِكَ بِالْمُؤْمِنِينَ ﴿٤٧﴾ وَإِذَا دُعُوا إِلَى اللَّهِ وَرَسُولِهِ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ إِذَا فَرِيقٌ مِّنْهُم مُّعْرِضُونَ ﴿٤٨﴾ وَإِن يَكُن لَّهُمُ الْحَقُّ يَأْتُوا إِلَيْهِ مُذْعِنِينَ ﴿٤٩﴾ أَفِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ أَمِ ارْتَابُوا أَمْ يَخَافُونَ أَن يَحِيفَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ وَرَسُولُهُ بَلْ أُولَٰئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ ﴿٥٠﴾﴾[النور: ٤٧-٥٠].

قال ابن كثير: «يخبر تعالى عن صفات المنافقين، الذين يظهرون خلاف ما يبطنون، يقولون قولًا بألسنتهم: ﴿آمَنَّا بِاللَّهِ وَبِالرَّسُولِ وَأَطَعْنَا ثُمَّ يَتَوَلَّىٰ فَرِيقٌ مِّنْهُم مِّن بَعْدِ ذَٰلِكَ﴾ أي: يخالفون أقوالهم بأعمالهم، فيقولون ما لا يفعلون؛ ولهذا قال تعالى: ﴿وَمَا أُولَٰئِكَ بِالْمُؤْمِنِينَ﴾.

(١) جامع البيان، الطبري ٢٠/ ٢٧١.
(٢) زاد المسير، ابن الجوزي ٣/ ٤٦٥.
(٣) تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ٦/ ٤٢٣.

وإذا طلبوا إلى اتباع الهدى فيما أنزل الله على رسوله، أعرضوا عنه واستكبروا في أنفسهم عن اتباعه، وهذه كقوله: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ يَزْعُمُونَ أَنَّهُمْ ءَامَنُوا بِمَا أُنزِلَ إِلَيْكَ وَمَا أُنزِلَ مِن قَبْلِكَ يُرِيدُونَ أَن يَتَحَاكَمُوا إِلَى الطَّاغُوتِ وَقَدْ أُمِرُوا أَن يَكْفُرُوا بِهِ وَيُرِيدُ الشَّيْطَانُ أَن يُضِلَّهُمْ ضَلَالًا بَعِيدًا ۝٦٠ وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْا إِلَى مَا أَنزَلَ اللَّهُ وَإِلَى الرَّسُولِ رَأَيْتَ الْمُنَافِقِينَ يَصُدُّونَ عَنكَ صُدُودًا﴾ [النساء: ٦٠-٦١].

وقال تعالى: ﴿وَإِن يَكُن لَّهُمُ الْحَقُّ يَأْتُوا إِلَيْهِ مُذْعِنِينَ﴾ [النور: ٤٩].

أي: وإذا كانت الحكومة لهم لا عليهم، جاؤوا سامعين مطيعين وهو معنى قوله: ﴿مُذْعِنِينَ﴾ وإذا كانت الحكومة عليهم أعرضوا ودعوا إلى غير الحق، وأحبوا أن يتحاكموا إلى غير النبي صلى الله عليه وسلم ليروج باطلهم، فإذعانهم أولًا لم يكن عن اعتقاد منهم أن ذلك هو الحق، بل لأنه موافق لهواهم؛ ولهذا لما خالف الحق قصدهم عدلوا عنه إلى غيره؛ ولهذا قال تعالى: ﴿أَفِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ أَمِ ارْتَابُوا أَمْ يَخَافُونَ أَن يَحِيفَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ وَرَسُولُهُ﴾ [النور: ٥٠].

يعني: لا يخرج أمرهم عن أن يكون في القلوب مرض لازم لها، أو قد عرض لها شك في الدين، أو يخافون أن يجور الله ورسوله عليهم في الحكم، وأيًا ما كان فهو كفر محض، والله عليم بكل منهم، وما هو عليه منطو من هذه الصفات.

وقوله: ﴿بَلْ أُولَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ﴾ [النور: ٥٠].

أي: بل هم الظالمون الفاجرون، والله ورسوله مبرآن مما يظنون ويتوهمون من الحيف والجور، تعالى الله ورسوله عن ذلك[١].

ثالثًا: الثناء على المطيعين:

الثناء على أصحاب بعض الأعمال أو المواقف من الأشياء التي لها أبلغ الأثر في نفوس هؤلاء العاملين، ترفع معنوياتهم، تحفزهم، تشجعهم، تعينهم على مواصلة عملهم؛ لذلك كان الثناء وسيلة تربوية، استخدمت في القرآن والسنة.

وممن أثنى الله عليهم في كتابه: المطيعون، فلقد وردت آيات عديدة في كتاب الله عز وجل تثني عليهم وتمدحهم، وتنعتهم بأحسن الصفات، فتارة تنعتهم بالإيمان، كما في قوله تعالى: ﴿ءَامَنَ الرَّسُولُ بِمَا أُنزِلَ إِلَيْهِ مِن رَّبِّهِ وَالْمُؤْمِنُونَ كُلٌّ ءَامَنَ بِاللَّهِ وَمَلَائِكَتِهِ وَكُتُبِهِ وَرُسُلِهِ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّن رُّسُلِهِ وَقَالُوا سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا غُفْرَانَكَ رَبَّنَا وَإِلَيْكَ الْمَصِيرُ﴾ [البقرة: ٢٨٥].

وسبب نزول هذه الآية: أنه لما نزلت

---

(١) تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ٦/ ٧٤.

على رسول الله صلى الله عليه وسلم: ﴿لِّلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ ۗ وَإِن تُبْدُوا مَا فِي أَنفُسِكُمْ أَوْ تُخْفُوهُ يُحَاسِبْكُم بِهِ اللَّهُ ۖ فَيَغْفِرُ لِمَن يَشَاءُ وَيُعَذِّبُ مَن يَشَاءُ ۗ وَاللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿٢٨٤﴾﴾ [البقرة: ٢٨٤].

اشتد ذلك على أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم، فأتوا رسول الله صلى الله عليه وسلم ثم بركوا على الركب، فقالوا: أي رسول الله، كلفنا من الأعمال ما نطيق، الصلاة والصيام والجهاد والصدقة، وقد أنزلت عليك هذه الآية ولا نطيقها، قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: (أتريدون أن تقولوا كما قال أهل الكتابين من قبلكم سمعنا وعصينا؟ بل قولوا: سمعنا وأطعنا غفرانك ربنا وإليك المصير) قالوا: سمعنا وأطعنا غفرانك ربنا وإليك المصير، فلما اقترأها القوم، ذلت بها ألسنتهم، فأنزل الله في إثرها: ﴿آمَنَ الرَّسُولُ بِمَا أُنزِلَ إِلَيْهِ مِن رَّبِّهِ وَالْمُؤْمِنُونَ ۚ كُلٌّ آمَنَ بِاللَّهِ وَمَلَائِكَتِهِ وَكُتُبِهِ وَرُسُلِهِ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّن رُّسُلِهِ ۚ وَقَالُوا سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا ۖ غُفْرَانَكَ رَبَّنَا وَإِلَيْكَ الْمَصِيرُ﴾ [البقرة: ٢٨٥].

فلما فعلوا ذلك نسخها الله تعالى، فأنزل الله عز وجل: ﴿لَا يُكَلِّفُ اللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا ۚ لَهَا مَا كَسَبَتْ وَعَلَيْهَا مَا اكْتَسَبَتْ ۗ رَبَّنَا لَا تُؤَاخِذْنَا إِن نَّسِينَا أَوْ أَخْطَأْنَا﴾ [البقرة: ٢٨٦].

«قال: نعم ﴿رَبَّنَا وَلَا تَحْمِلْ عَلَيْنَا إِصْرًا كَمَا حَمَلْتَهُ عَلَى الَّذِينَ مِن قَبْلِنَا﴾ [البقرة: ٢٨٦].

قال: نعم ﴿رَبَّنَا وَلَا تُحَمِّلْنَا مَا لَا طَاقَةَ لَنَا بِهِ﴾ قال: نعم ﴿وَاعْفُ عَنَّا وَاغْفِرْ لَنَا وَارْحَمْنَا ۚ أَنتَ مَوْلَانَا فَانصُرْنَا عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ﴾ [البقرة: ٢٨٦].

قال: نعم»[1].

فكان في هذا ثناء من الله عز وجل عليهم، وعلى طاعتهم وانقيادهم، وشهادة لهم من الله بالإيمان، وكفى بها شهادة، وكان هذا كله ثمرة لانقيادهم وطاعتهم لأمر نبيهم صلى الله عليه وسلم.

وفي آية أخرى ذكر الله سبحانه وتعالى المؤمنين والمؤمنات، فكان من صفاتهم أنهم مطيعون لله ولرسوله، فقال تعالى: ﴿وَالْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَاتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ ۚ يَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ وَيُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَيُطِيعُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ ۚ أُولَٰئِكَ سَيَرْحَمُهُمُ اللَّهُ ۗ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾ [التوبة: ٧١].

وتارة نجد الآيات تنعت المطيعين بالفائزين، كما في قوله تعالى: ﴿وَمَن يُطِعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَيَخْشَ اللَّهَ وَيَتَّقْهِ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْفَائِزُونَ﴾ [النور: ٥٢].

(١) أخرجه مسلم في الإيمان، باب بيان قوله تعالى: (وإن تبدوا ما في أنفسكم أو تخفوه)، ١/ ١١٥، رقم ١٢٥.

قال الطبري: «﴿وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ﴾ فيما أمره ونهاه، ويسلم لحكمهما له وعليه، ويخف عاقبة معصية الله ويحذره، ويتق عذاب الله بطاعته إياه في أمره ونهيه ﴿فَأُوْلَٰٓئِكَ﴾ أي: الذين يفعلون ذلك ﴿هُمُ ٱلۡفَآئِزُونَ﴾ برضا الله عنهم يوم القيامة، وأمنهم من عذابه»[1].

ومثل هذا المعنى نجده في قوله تعالى: ﴿يُصۡلِحۡ لَكُمۡ أَعۡمَٰلَكُمۡ وَيَغۡفِرۡ لَكُمۡ ذُنُوبَكُمۡۗ وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ فَقَدۡ فَازَ فَوۡزًا عَظِيمًا﴾ [الأحزاب: ٧١].

وتارة نجد الآيات تنعت المطيعين بالمفلحين، كما في قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا كَانَ قَوۡلَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ إِذَا دُعُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ لِيَحۡكُمَ بَيۡنَهُمۡ أَن يَقُولُواْ سَمِعۡنَا وَأَطَعۡنَاۚ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡمُفۡلِحُونَ﴾ [النور: ٥١].

قال الطبري: « المنجحون المدركون طلباتهم، بفعلهم ذلك، المخلدون في جنات الله»[2].

وتارة ينعت الله طاعة المطيعين بالخيرية والصواب، كما في قوله تعالى: ﴿وَلَوۡ أَنَّهُمۡ قَالُواْ سَمِعۡنَا وَأَطَعۡنَا وَٱسۡمَعۡ وَٱنظُرۡنَا لَكَانَ خَيۡرًا لَّهُمۡ وَأَقۡوَمَ﴾ [النساء: ٤٦].

قال الطبري: «ولو أن هؤلاء اليهود الذين وصف الله صفتهم قالوا لنبي الله: سمعنا يا محمد قولك، وأطعنا أمرك، وقبلنا ما جئتنا به من عند الله، واسمع منا، وانظرنا ما نقول، وانتظرنا نفهم عنك ما تقول لنا، لكان ذلك خيرًا لهم عند الله، «وأقوم» أي: وأعدل وأصوب في القول»[3].

رابعًا: بيان عاقبة المطيعين:

لأجل أن يتم الثبوت والتحسن في الاستجابات التي يقوم بها الفرد، لا بد من توفر عامل أطلق علماء النفس عليه عامل الجزاء، فالاستجابات إذا لم تؤد إلى نوعٍ من الترضية، أو الجزاء، أو الإشباع فإن الفرد لا يحاول تكرارها.

ولقد فطر الله الإنسان على حب المثوبة، وما فيها من لذة ونعيم؛ ولذا فإنه يرغب في ذلك، ويعمل من أجل تحقيقه، كما فطره أيضًا على بغض العقاب، وما يترتب عليه من ألم وشقاء؛ لذا فإنه يرهبه، وينفر منه.

ولهذا عني القرآن الكريم والسنة النبوية بالترغيب والترهيب، والثواب والعقاب كأسلوب مهم من أساليب التربية.

ويمتاز أسلوب الترغيب والترهيب، والثواب والعقاب في القرآن الكريم والسنة النبوية عن غيره من أساليب الثواب والعقاب في المناهج التربوية الأخرى

(١) جامع البيان، الطبري ١٩/ ٢٠٦.
(٢) المصدر السابق.
(٣) المصدر السابق ٨/ ٤٣٦.

-بأنه يعتمد على الإقناع والبرهان، ويكون مصحوبًا بتصوير فني رائع للثواب المرغب فيه، المتمثل في الجنة، وكذلك للعقاب المنتظر، المتمثل في جهنم أعاذنا الله منها- كما يعتمد الترغيب والترهيب في القرآن والسنة أيضًا على إثارة الانفعالات، وتربية العواطف الربانية؛ كعاطفة الخوف من الله تعالى، والتذلل والخشوع له سبحانه والطمع في رحمته، والأمل في ثوابه[1].

ومما يزيد من دافع الطاعة عند المؤمن: الثواب العاجل الذي يلقاه في الدنيا قبل الثواب الآجل في الآخرة، ففي الدنيا ينال المطيعون:

١. الهداية وإصابة للحق.

كما في قوله تعالى: ﴿وَإِن تُطِيعُوهُ تَهْتَدُوا۟ وَمَا عَلَى ٱلرَّسُولِ إِلَّا ٱلْبَلَٰغُ ٱلْمُبِينُ﴾ [النور: ٥٤].

وهذا نراه جليًا في حال هؤلاء الذين زينوا ظاهرهم وتعاملاتهم بطاعة الله ورسوله، وعمروا أسرارهم بمراقبة ربهم؛ فتراهم من أكثر الناس توفيقًا وسدادًا، وإصابة للحق، على اختلاف الأحوال والوقائع.

قال ابن الجوزي: «﴿وَإِن تُطِيعُوهُ﴾ يعني: رسول الله صلى الله عليه وسلم ﴿تَهْتَدُوا۟﴾ وكان بعض السلف يقول: من أمر السنة على نفسه قولًا وفعلًا نطق بالحكمة، ومن أمر البدعة والهوى على نفسه قولًا وفعلًا نطق بالبدعة، لقوله تعالى: ﴿وَإِن تُطِيعُوهُ تَهْتَدُوا۟﴾»[2].

وقال الطبري: «يقول تعالى ذكره: وإن تطيعوا -أيها الناس- رسول الله -فيما يأمركم وينهاكم- ترشدوا وتصيبوا الحق في أموركم ﴿وَمَا عَلَى ٱلرَّسُولِ إِلَّا ٱلْبَلَٰغُ ٱلْمُبِينُ﴾ يقول: وغير واجب على من أرسله الله إلى قوم برسالة إلا أن يبلغهم رسالته بلاغًا يبين لهم ذلك البلاغ عما أراد الله به، فليس على محمد -أيها الناس- إلا أداء رسالة الله إليكم، وعليكم الطاعة، وإن أطعتموه لحظوظ أنفسكم تصيبون، وإن عصيتموه بأنفسكم فتوبقون»[3].

وقال أبو السعود: «﴿وَإِن تُطِيعُوهُ﴾ أي: فيما أمركم به من الطاعة ﴿تَهْتَدُوا۟﴾ إلى الحق الذي هو المقصد الأصلي الموصل إلى كل خير، والمنجي من كل شرٍ»[4].

٢. النصر في الدنيا على الأعداء، والغنيمة والخير الكثير.

كما في قوله تعالى: ﴿قُل لِّلْمُخَلَّفِينَ مِنَ ٱلْأَعْرَابِ سَتُدْعَوْنَ إِلَىٰ قَوْمٍ أُو۟لِى بَأْسٍ شَدِيدٍ تُقَٰتِلُونَهُمْ أَوْ يُسْلِمُونَ ۖ فَإِن تُطِيعُوا۟ يُؤْتِكُمُ ٱللَّهُ أَجْرًا حَسَنًا﴾ [الفتح: ١٦].

---

(١) أصول التربية الإسلامية، عبد الرحمن النحلاوي، ص ٢٣٠.

(٢) زاد المسير، ابن الجوزي ٣/ ٣٠٣.

(٣) جامع البيان، الطبري ١٩/ ٢٠٧.

(٤) إرشاد العقل السليم، أبو السعود ٦/ ١٨٩.

ذهب جمعٌ من المفسرين إلى أن الأجر الحسن المذكور في الآية هو: الغنيمة والنصر في الدنيا، والجنة في الآخرة[1]. وعلى هذا يكون الأجر الحسن هنا من الثواب العاجل والآجل.

وقد رأينا في واقعنا كيف ينصر الله المسلمين ويظهرهم على أعدائهم، إذا ما اعتصموا بربهم، واتبعوا سنة نبيهم، ولو كانوا أقل عددًا وعتادًا منهم، ومثال ذلك ظهر جليًا في عبور المصريين، واقتحامهم لحاجز خط برليف اليهودي الصهيوني، يوم عبروا صائمين، وبأصوات كالرعد مكبرين: الله أكبر، الله أكبر، لقد طلبوا النصر من الله، وأعدوا لعدوهم ما استطاعوا من قوة -كما أمر الله- فحقق الله لهم وعده، فأرهبوا عدو الله وعدوهم، على الرغم من قلة عددهم وعتادهم.

٣. نزول الرحمات، وتحقق الأمن والأمان.

كما في قوله تعالى: ﴿وَأَقِيمُوا الصَّلَوٰةَ وَءَاتُوا الزَّكَوٰةَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ﴾ [النور: ٥٦].

وهذه الرحمة عامة تشمل الدنيا قبل الآخرة، فهي أيضًا من الثواب العاجل والآجل.

قال ابن عاشور: «﴿لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ﴾ أي: في الدنيا بتحقيق الوعد الذي من رحمته الأمن، وفي الآخرة بالدرجات العلى»[2].

وقال الطبري: «وأقيموا -أيها الناس- الصلاة بحدودها، فلا تضيعوها، وآتوا الزكاة التي فرضها الله عليكم أهلها، وأطيعوا رسول ربكم فيما أمركم ونهاكم؛ كي يرحمكم ربكم، فينجيكم من عذابه»[3].

أما المعصية وهجر الطاعة فإنها سبب لنزول العذاب على أصحابها؛ ولذا نرى المصائب والكوارث والحوادث تكثر في تلك البلاد التي تنتشر فيها المعاصي، وتقل فيها الطاعات، ويستهان فيها بأوامر الله ورسوله.

وأما في الآخرة: فالثمرة أعظم وأكبر؛ لأن هذا ثواب باقٍ لا يحول ولا يزول، ومن هذا الثواب المذكور:

- **المطيعون يأخذون أجورهم كاملة يوم القيامة، بلا نقص ولا ظلم.**

كما في قوله تعالى: ﴿وَإِن تُطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُۥ لَا يَلِتْكُم مِّنْ أَعْمَـٰلِكُمْ شَيْـًٔا﴾ [الحجرات: ١٤].

قال الطبري: «إن تطيعوا الله ورسوله أيها القوم، فتأتمروا لأمره وأمر رسوله، وتعملوا

(١) انظر: الجامع لأحكام القرآن، القرطبي ١٦/ ٢٧٣، أنوار التنزيل، البيضاوي ٥/ ١٢٩، إرشاد العقل السليم، أبو السعود ٨/ ١٠٩.

(٢) التحرير والتنوير، ابن عاشور ١٨/ ٢٨٩.

(٣) جامع البيان، الطبري ١٩/ ٢١٠.

بما فرض عليكم، وتنتهوا عما نهاكم عنه ﴿لَا يَلِتْكُم مِّنْ أَعْمَالِكُمْ شَيْئًا﴾ [الحجرات: ١٤].

أي: لا يظلمكم من أجور أعمالكم شيئًا، ولا ينقصكم من ثوابها شيئًا»[(١)].

● يثيب الله - عز وجل بمنه وفضله- المطيعين الجنة خالدين فيها أبدًا.

كما في قوله تعالى: ﴿وَمَن يُطِعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ يُدْخِلْهُ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ﴾ [الفتح: ١٧].

وقوله تعالى: ﴿وَمَن يُطِعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ يُدْخِلْهُ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَذَٰلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ﴾ [النساء: ١٣].

● ينزل الله عز وجل المطيعين المنازل العالية، والدرجات الرفيعة في الجنة.

كما في قوله تعالى: ﴿وَمَن يُطِعِ اللَّهَ وَالرَّسُولَ فَأُولَٰئِكَ مَعَ الَّذِينَ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِم مِّنَ النَّبِيِّينَ وَالصِّدِّيقِينَ وَالشُّهَدَاءِ وَالصَّالِحِينَ وَحَسُنَ أُولَٰئِكَ رَفِيقًا﴾ [النساء: ٦٩].

قال ابن الجوزي: «في سبب نزولها ثلاثة أقوال:

أحدها: أن ثوبان مولى رسول الله صلى الله عليه وسلم كان شديد المحبة للنبي صلى الله عليه وسلم، فرآه رسول الله يومًا فعرف الحزن في وجهه، فقال: (يا ثوبان، ما غير وجهك؟) قال: ما بي من وجع غير أني إذا لم أرك اشتقت إليك، فأذكر الآخرة، فأخاف أن لا أراك هناك، فنزلت هذه الآية[(٢)].

والثاني: أن أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم قالوا له: ما ينبغي أن نفارقك في الدنيا، فإنك إذا فارقتنا رفعت فوقنا، فنزلت هذه الآية.

والثالث: أن رجلًا من الأنصار جاء إلى النبي صلى الله عليه وسلم وهو محزون، فقال: (ما لي أراك محزونًا؟) فقال: يا رسول الله غدًا ترفع مع الأنبياء، فلا نصل إليك، فنزلت هذه الآية»[(٣)].

ولا يعني هذا قصر تلك الدرجة على هؤلاء الأصحاب فحسب، بل هي عامة -بإذن الله وفضله- في كل من حقق الشرط المذكور في أول الآية.

يقول الطبري: «ومن يطع الله والرسول بالتسليم لأمرهما، وإخلاص الرضا بحكمهما، والانتهاء إلى أمرهما، والانزجار عما نهيا عنه من معصية الله؛ فهو مع الذين أنعم الله عليهم بهدايته والتوفيق لطاعته في الدنيا من أنبيائه، وفي الآخرة إذا دخل

---

(١) المصدر السابق ٢٢/ ٣١٦-٣١٧.

(٢) أخرج نحوه الطبراني في الأوسط ١/ ١٥٢، رقم ٤٧٧ عن أم المؤمنين عائشة رضي الله عنها.
وصححه الألباني في السلسلة الصحيحة، ٦/ ١٠٤٤، رقم ٢٩٣٣.

(٣) زاد المسير، ابن الجوزي ١/ ٤٣٠ بتصرف يسير.

الجنة»(١).

وقال ابن كثير: «من عمل بما أمره الله ورسوله، وترك ما نهاه الله عنه ورسوله، فإن الله عز وجل يسكنه دار كرامته، ويجعله مرافقًا للأنبياء، ثم لمن بعدهم في الرتبة، وهم الصديقون، ثم الشهداء، ثم عموم المؤمنين، وهم الصالحون الذين صلحت سرائرهم وعلانيتهم»(٢).

وكل هذه الآيات وما سبقها من ثناء على المطيعين لله ورسله تبين كذب الكافرين الذين وعدوا أتباعهم بالخسران إن أطاعوا المرسلين؛ كما في قوله تعالى: ﴿وَقَالَ ٱلْمَلَأُ مِن قَوْمِهِ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَكَذَّبُوا۟ بِلِقَآءِ ٱلْـَٔاخِرَةِ وَأَتْرَفْنَٰهُمْ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا مَا هَٰذَآ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يَأْكُلُ مِمَّا تَأْكُلُونَ مِنْهُ وَيَشْرَبُ مِمَّا تَشْرَبُونَ ﴿٣٣﴾ وَلَئِنْ أَطَعْتُم بَشَرًا مِّثْلَكُمْ إِنَّكُمْ إِذًا لَّخَٰسِرُونَ﴾

[المؤمنون: ٣٣-٣٤].

(١) جامع البيان، الطبري ٨/ ٥٣٠.

(٢) تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ٢/ ٣٥٣.

أنواع الطاعة المحمودة

بين القرآن الكريم أنواع الطاعة المطلوبة من المؤمن الامتثال لها، وفيما يأتي بيان لها:

أولًا: الطاعة لله ولرسوله:

طاعة الله عز وجل طاعة مطلقة، فكل أوامر الله عز وجل يجب تنفيذها بقدر الاستطاعة، بدون قيد أو شرط أو تردد؛ لأنها أهم أنواع الطاعات، وأصل كل الطاعات، أمر الله بها عباده، ورتب على هذا الأمر الثواب العظيم لمن أطاع، والعقاب الأليم لمن عصى، وجعل الطاعة سمة من سمات المؤمنين لا تنفك عنهم كما مر بنا آنفًا.

وطاعة الرسول صلى الله عليه وسلم كذلك طاعة مطلقة؛ لأنه مبلغ عن الله، وطاعته طاعة لله عز وجل، وكذلك كل الرسل عليهم السلام.

والدليل على أن طاعة الرسول مطلقة؛ لأنها من طاعة الله:

قال تعالى: ﴿مَّن يُطِعِ ٱلرَّسُولَ فَقَدْ أَطَاعَ ٱللَّهَ وَمَن تَوَلَّىٰ فَمَآ أَرْسَلْنَٰكَ عَلَيْهِمْ حَفِيظًا﴾

[النساء: ٨٠].

فمن أطاع الرسول فقد أطاع الله، ومن عصاه فقد عصى الله، وما ذاك إلا لأنه لا ينطق عن الهوى، إن هو إلا وحي يوحى(٣).

ويؤكد هذا المعنى قوله عليه الصلاة

(٣) تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ٢/ ٣٦٣.

والسلام: (من أطاعني فقد أطاع الله، ومن عصاني فقد عصى الله)[1].

وكذلك أقر النبي صلى الله عليه وسلم خطيبًا قام عنده فقال: (من يطع الله ورسوله فقد رشد)[2].

كذلك من الأدلة على أن طاعة الرسول من طاعة الله:

قال تعالى: ﴿ وَمَآ أَرۡسَلۡنَا مِن رَّسُولٍ إِلَّا لِيُطَاعَ بِإِذۡنِ ٱللَّهِ ﴾ [النساء: ٦٤].

قال ابن عطية: «هذا تنبيه على جلالة الرسل، أي: فأنت يا محمد منهم، تجب طاعتك، وتتعين إجابة الدعوة إليك، و﴿بِإِذۡنِ ٱللَّهِ﴾ معناه بأمر الله، وحسنت العبارة بالإذن؛ إذ بنفس الإرسال تجب طاعته، وإن لم ينص أمر بذلك، والمعنى: وما أرسلنا بأمر الله أي بشريعته وعبادته من رسول إلا ليطاع»[3].

وقال ابن الجوزي: «قال الزجاج: «من» دخلت للتوكيد، والمعنى: وما أرسلنا رسولًا إلا ليطاع، وفي قوله: ﴿بِإِذۡنِ ٱللَّهِ﴾ قولان: أحدهما: أنه بمعنى: الأمر، قاله ابن عباس. والثاني: أنه الإذن نفسه، قاله مجاهد. وقال الزجاج: المعنى: إلا ليطاع بأن الله أذن له في ذلك»[4].

وقال ابن كثير: «﴿إِلَّا لِيُطَاعَ﴾ أي: فرضت طاعته على من أرسله إليهم»[5].

وقال أبو السعود: «وما أرسلنا رسولًا من الرسل لشيء من الأشياء إلا ليطاع بسبب إذنه تعالى في طاعته، وأمره المرسل إليهم بأن يطيعوه ويتبعوه؛ لأنه مؤدٍ عنه تعالى، فطاعته طاعة الله تعالى، ومعصيته معصيته تعالى، من يطع الرسول فقد أطاع الله، أو بتيسير الله تعالى وتوفيقه في طاعته»[6].

ومن هنا نعلم أن مما يدخل في باب الطاعة المطلقة: طاعة الأمم السابقة لرسلهم، فكل رسول بعث إلى قومه أمرهم بطاعته؛ وذلك لأن فيها هدايتهم وفلاحهم؛ ولأنها طاعة لله عز وجل في الأصل.

ولذا نقرأ في مواطن شتى من كتاب الله عز وجل، في ثنايا الحديث عن قصص الأنبياء والمرسلين، دعوتهم قومهم لطاعتهم، وقرنهم هذا الأمر بتقوى الله عز وجل، وكأن المعنى: أنهم إذا اتقوا

(١) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب الأحكام، باب قول الله تعالى: (أطيعوا الله وأطيعوا الرسول وأولي الأمر منكم)، ٩/ ٦١، رقم ٧١٣٧، ومسلم في صحيحه، كتاب الإمارة، باب وجوب طاعة الأمراء في غير معصية وتحريمها في المعصية، ٣/ ١٤٦٦، رقم ١٨٣٥.

(٢) أخرجه مسلم في صحيحه، كتاب الجمعة، باب تخفيف الصلاة والخطبة، ٢/ ٥٩٤، رقم ٨٧٠.

(٣) المحرر الوجيز، ابن عطية ٢/ ٧٤ بتصرف يسير.

(٤) زاد المسير، ابن الجوزي ١/ ٤٢٧، رقم ٤٢٨.

(٥) تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ٢/ ٣٤٧.

(٦) إرشاد العقل السليم، أبو السعود ٢/ ١٩٦.

الله تعالى كان من لوازم ذلك اتباع رسله وطاعتهم، ومن ذلك:

- قول نوح عليه السلام لقومه -وهو أول رسول لأهل الأرض-: ﴿فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُونِ (١٠٨) وَمَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَىٰ رَبِّ الْعَالَمِينَ (١٠٩) فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُونِ﴾ [الشعراء: ١٠٨-١١٠].
- وقول الله على لسانه أيضًا: ﴿قَالَ يَا قَوْمِ إِنِّي لَكُمْ نَذِيرٌ مُبِينٌ (٢) أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاتَّقُوهُ وَأَطِيعُونِ﴾ [نوح: ٢-٣].
- وقول هود عليه السلام لقومه: ﴿فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُونِ (١٢٦) وَمَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَىٰ رَبِّ الْعَالَمِينَ (١٢٧) أَتَبْنُونَ بِكُلِّ رِيعٍ آيَةً تَعْبَثُونَ (١٢٨) وَتَتَّخِذُونَ مَصَانِعَ لَعَلَّكُمْ تَخْلُدُونَ (١٢٩) وَإِذَا بَطَشْتُمْ بَطَشْتُمْ جَبَّارِينَ (١٣٠) فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُونِ﴾ [الشعراء: ١٢٦-١٣١].
- وقول صالح عليه السلام لقومه: ﴿فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُونِ (١٤٤) وَمَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَىٰ رَبِّ الْعَالَمِينَ (١٤٥) أَتُتْرَكُونَ فِي مَا هَاهُنَا آمِنِينَ (١٤٦) فِي جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ (١٤٧) وَزُرُوعٍ وَنَخْلٍ طَلْعُهَا هَضِيمٌ (١٤٨) وَتَنْحِتُونَ مِنَ الْجِبَالِ بُيُوتًا فَارِهِينَ (١٤٩) فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُونِ﴾ [الشعراء: ١٤٤-١٥٠].
- وقول لوط عليه السلام لقومه: ﴿فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُونِ﴾ [الشعراء: ١٦٣].
- وقول شعيب عليه السلام لقومه: ﴿فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُونِ﴾ [الشعراء: ١٧٩].
- وقول عيسى عليه السلام لقومه: ﴿وَجِئْتُكُمْ بِآيَةٍ مِنْ رَبِّكُمْ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُونِ﴾ [آل عمران: ٥٠]. ﴿قَدْ جِئْتُكُمْ بِالْحِكْمَةِ وَلِأُبَيِّنَ لَكُمْ بَعْضَ الَّذِي تَخْتَلِفُونَ فِيهِ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُونِ﴾ [الزخرف: ٦٣].
- وقال تعالى عن هارون عليه السلام: ﴿وَلَقَدْ قَالَ لَهُمْ هَارُونُ مِنْ قَبْلُ يَا قَوْمِ إِنَّمَا فُتِنْتُمْ بِهِ وَإِنَّ رَبَّكُمُ الرَّحْمَٰنُ فَاتَّبِعُونِي وَأَطِيعُوا أَمْرِي﴾ [طه: ٩٠].

المخاطبون بأمر الطاعة لله ورسوله:

وردت الآيات الكثيرة في القرآن الكريم تحث الناس جميعهم، مؤمنهم وكافرهم، ذكرهم وأنثاهم، على طاعة الله ورسوله، ومن الآيات التي خاطبت عند نزولها الكافرين -وإن كانت العبرة بعموم اللفظ فتشمل الجميع- قوله تعالى: ﴿قُلْ أَطِيعُوا اللَّهَ وَالرَّسُولَ فَإِنْ تَوَلَّوْا فَإِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْكَافِرِينَ﴾ [آل عمران: ٣٢].

فلقد ذكر العلماء في سبب نزول هذه الآية أقوالًا، ومردها جميعًا أنها تخاطب غير المسلمين، فنجد ابن الجوزي يقول: «في سبب نزولها ثلاثة أقوال:

أحدها: أن عبد الله بن أبي قال لأصحابه: إن محمدًا يجعل طاعته كطاعة الله، ويأمرنا

أن نحبه كما أحبت النصارى عيسى ابن مريم، فنزلت هذه الآية، هذا قول ابن عباس.

والثاني: أن النبي صلى الله عليه وسلم دعا اليهود إلى الإسلام، فقالوا: نحن أبناء الله وأحباؤه، ونحن أشد حبًا لله مما تدعونا إليه، فنزلت ﴿قُلۡ إِن كُنتُمۡ تُحِبُّونَ ٱللَّهَ﴾ [آل عمران: ٣١]. هذا قول مقاتل.

والثالث: أنها نزلت في نصارى نجران، قاله أبو سليمان الدمشقي»[1].

واختار الإمام الطبري السبب الثالث؛ فقال: «يعني بذلك جل ثناؤه: قل -يا محمد- لهؤلاء الوفد من نصارى نجران: أطيعوا الله والرسول محمدًا، فإنكم قد علمتم يقينًا أنه رسولي إلى خلقي، ابتعثته بالحق، تجدونه مكتوبًا عندكم في الإنجيل، فإن تولوا فاستدبروا عما دعوتهم إليه من ذلك، وأعرضوا عنه، فأعلمهم أن الله لا يحب من كفر بجحد ما عرف من الحق، وأنكره بعد علمه، وأنهم منهم، بجحودهم نبوتك، وإنكارهم الحق الذي أنت عليه، بعد علمهم بصحة أمرك، وحقيقة نبوتك»[2].

ومع ترجيح أي الأقوال في سبب نزول الآية فإن العبرة بعموم لفظها، فإن هذا «أمر لكل أحد من خاصٍ وعامٍ»[3].

وقال أبو السعود: « ﴿قُلۡ أَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَٱلرَّسُولَ﴾ أي: في جميع الأوامر والنواهي، فيدخل في ذلك الطاعة في أتباعه عليه الصلاة والسلام دخولًا أوليًا، وإيثار الإظهار على الإضمار بطريق الالتفات لتعيين حيثية الإطاعة والإشعار بعلتها؛ فإن الإطاعة المأمور بها إطاعته عليه الصلاة والسلام من حيث إنه رسول الله لا من حيث ذاته، ولا ريب في أن عنوان الرسالة من موجبات الإطاعة ودواعيها»[4].

ومن الآيات أيضًا التي خاطبت غير المسلمين -حال نزولها- بطاعة الله ورسوله قوله تعالى: ﴿قُلۡ أَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَأَطِيعُواْ ٱلرَّسُولَۖ فَإِن تَوَلَّوۡاْ فَإِنَّمَا عَلَيۡهِ مَا حُمِّلَ وَعَلَيۡكُم مَّا حُمِّلۡتُمۡۖ﴾ [النور: ٥٤].

قال ابن عطية: « ﴿قُلۡ أَطِيعُواْ ٱللَّهَ﴾ الآية مخاطبة لأولئك المنافقين وغيرهم من الكفار، وكل من يتعتى عن أمر محمد عليه السلام»[5].

وقال الطبري: «يقول تعالى ذكره: ﴿قُل﴾ يا محمد لهؤلاء المقسمين بالله ﴿جَهۡدَ أَيۡمَٰنِهِمۡ لَئِنۡ أَمَرۡتَهُمۡ لَيَخۡرُجُنَّۖ﴾ [النور: ٥٣]. وغيرهم من أمتك ﴿أَطِيعُواْ ٱللَّهَ﴾ أيها القوم فيما أمركم به، ونهاكم عنه ﴿وَأَطِيعُواْ ٱلرَّسُولَۖ﴾ فإن طاعته طاعة لله ﴿فَإِن تَوَلَّوۡاْ﴾ يقول: فإن تعرضوا وتدبروا عما أمركم به

(١) زاد المسير، ابن الجوزي ١/ ٢٧٤.
(٢) جامع البيان، الطبري ٦/ ٣٢٥.
(٣) تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ٢/ ٣٢.
(٤) إرشاد العقل السليم، أبو السعود ٢/ ٢٥.
(٥) المحرر الوجيز، ابن عطية ٤/ ١٩٢.

رسول الله صلى الله عليه وسلم، أو نهاكم عنه، وتأبوا أن تذعنوا لحكمه لكم وعليكم ﴿فَإِنَّمَا عَلَيْهِ مَا حُمِّلَ﴾ يقول: فإنما عليه فعل ما أمر بفعله من تبليغ رسالة الله إليكم على ما كلفه من التبليغ ﴿وَعَلَيْكُم مَّا حُمِّلْتُمْ﴾ يقول: وعليكم -أيها الناس- أن تفعلوا ما ألزمكم، وأوجب عليكم من اتباع رسوله صلى الله عليه وسلم، والانتهاء إلى طاعته فيما أمركم ونهاكم»[1].

وقال ابن عاشور: «ويختلف معنى ﴿أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ﴾ بين معاني الأمر بإيجاد الطاعة المفقودة، أو إيهام طلب الدوام على الطاعة على حسب زعمهم»[2].

ومن الآيات التي بينت أن الأوامر بهذه الطاعة المطلوبة شاملة للرجال والنساء على حد سواء؛ قوله تعالى: ﴿وَالْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَاتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ يَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ وَيُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَيُطِيعُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ أُولَٰئِكَ سَيَرْحَمُهُمُ اللَّهُ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾ [التوبة: ٧١].

كذلك وردت آيات تأمر نساء النبي صلى الله عليه وسلم ابتداء، والنساء بعدهن تبع لهن بالطاعة في أمور خاصة وأمور عامة؛ كما في قوله تعالى: ﴿وَقَرْنَ فِي بُيُوتِكُنَّ وَلَا تَبَرَّجْنَ تَبَرُّجَ الْجَاهِلِيَّةِ الْأُولَىٰ وَأَقِمْنَ الصَّلَاةَ وَآتِينَ الزَّكَاةَ وَأَطِعْنَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنكُمُ الرِّجْسَ أَهْلَ الْبَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيرًا﴾ [الأحزاب: ٣٣].

قال الطبري: «﴿وَأَطِعْنَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ﴾ فيما أمراكن ونهياكن»[3]. يعني من الأمور السابق ذكرها في هذه الآية والتي قبلها، فلقد نهاهن الله تعالى عن الخضوع واللين بالقول، وأمرهن بقول المعروف، ثم أمرهن بالتوقر والسكون في بيوتهن وأن لا يخرجن[4]، وألا يظهرن محاسنهن، وأمرهن بإقامة الصلاة، وإيتاء الزكاة، ثم أردف هذه الأوامر والنواهي بالأمر العام بطاعة الله ورسوله، فيدخل فيه ابتداء ما ذكر[5].

قال ابن كثير: «نهاهن أولًا عن الشر، ثم أمرهن بالخير، من إقامة الصلاة، وهي عبادة الله وحده لا شريك له، وإيتاء الزكاة، وهي الإحسان إلى المخلوقين، ثم قال: ﴿وَأَطِعْنَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ﴾ وهذا من باب عطف العام على الخاص»[6].

وهذه الأوامر والنواهي وإن كان المخاطب بها ابتداء نساء النبي صلى الله عليه وسلم؛ إلا أنها لا تتوقف عليهن وحدهن، فهي آداب أمر الله تعالى بها نساء

(١) جامع البيان، الطبري ١٩/ ٢٠٧.
(٢) التحرير والتنوير، ابن عاشور ١٨/ ٢٨٠.
(٣) جامع البيان، الطبري ٢٠/ ٢٦٢.
(٤) زاد المسير، ابن الجوزي ٣/ ٤٦١.
(٥) انظر: إرشاد العقل السليم، أبو السعود ٧/ ١٠٣.
(٦) تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ٦/ ٤١٠.

النبي صلى الله عليه وسلم، ونساء الأمة تبع لهن في ذلك[1].

فدلت هذه الآيات بمجموعها على أن المخاطب بالطاعة هم جميع البشر، مؤمنهم وكافرهم، ذكرهم وأنثاهم.

ميادين طاعة الله ورسوله:

تنوعت الأوامر بالطاعة الموجهة للمؤمنين، فتارة تأتي بأمور معينة محددة، وتارة تأتي مطلقة عامة في شتى الأمور، والأصل أن طاعة الله ورسوله -كما بينا- طاعة مطلقة في كل شيء جاء الأمر به، طالما وجدت الاستطاعة عند المكلف.

ومن الأمور الخاصة التي ورد الأمر بالطاعة فيها:

١. الأمر بالامتناع عن الخمر والميسر والأنصاب والأزلام، وهو أمر عام في القديم والحديث.

قال تعالى: ﴿وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَاحْذَرُوا فَإِن تَوَلَّيْتُمْ فَاعْلَمُوا أَنَّمَا عَلَىٰ رَسُولِنَا الْبَلَاغُ الْمُبِينُ﴾ [المائدة: ٩٢].

هذه الآية ربطها كثير من المفسرين بالآيتين اللتين قبلها مباشرة، وهما قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّمَا الْخَمْرُ وَالْمَيْسِرُ وَالْأَنصَابُ وَالْأَزْلَامُ رِجْسٌ مِّنْ عَمَلِ الشَّيْطَانِ فَاجْتَنِبُوهُ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ۝ إِنَّمَا يُرِيدُ الشَّيْطَانُ أَن يُوقِعَ بَيْنَكُمُ الْعَدَاوَةَ وَالْبَغْضَاءَ فِي الْخَمْرِ وَالْمَيْسِرِ وَيَصُدَّكُمْ عَن ذِكْرِ اللَّهِ وَعَنِ الصَّلَاةِ فَهَلْ أَنتُم مُّنتَهُونَ﴾ [المائدة: ٩٠-٩١].

قال الطبري: «﴿وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ﴾ في اجتنابكم ذلك، واتباعكم أمره فيما أمركم به من الانزجار عما زجركم عنه من هذه المعاني التي بينها لكم في هذه الآية وغيرها، وخالفوا الشيطان في أمره إياكم بمعصية الله في ذلك وفي غيره، فإنه إنما يبغي لكم العداوة والبغضاء بينكم بالخمر والميسر»[2].

وقال القرطبي: «﴿وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَاحْذَرُوا﴾ تأكيد للتحريم، وتشديد في الوعيد، وامتثال للأمر، وكف عن المنهي عنه، وحسن عطف ﴿وَأَطِيعُوا اللَّهَ﴾ لما كان في الكلام المتقدم معنى «انتهوا»، وكرر ﴿وَأَطِيعُوا﴾ في ذكر الرسول تأكيدًا»[3].

وليس المقصد بهذا الكلام أن يقتصر أمر الطاعة على أمر اجتناب الخمر والميسر

(١) المصدر السابق ٦/ ٤٠٨.
وإن كان الحكم يختلف في حقهن عن باقي النساء، فقد قال ابن عاشور في التحرير والتنوير ٢٢/ ١٠: «هذا أمر خصصن به، وهو وجوب ملازمتهن بيوتهن توقيرًا لهن، وتقوية في حرمتهن، فقرارهن في بيوتهن عبادة، وأن نزول الوحي فيها وتردد النبي صلى الله عليه وسلم في خلالها يكسبها حرمة...، وهذا الحكم وجوب على أمهات المؤمنين، وهو كمال لسائر النساء».

(٢) جامع البيان، الطبري ١٠/ ٥٧٤-٥٧٥.
(٣) الجامع لأحكام القرآن، القرطبي ٦/ ٢٩٣.

السابق لتلك الآية، وإنما يراد ما هو أعم وأوسع من ذلك، وهو مطلق الطاعة لله ولرسوله، ويدخل ابتداء في ذلك: الطاعة في هذا الاجتناب المذكور.

قال الألوسي: «﴿وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ﴾ عطف على «اجتنبوه» أي: أطيعوهما في جميع ما أمرا به ونهيا عنه، ويدخل فيه أمرهما ونهيهما في الخمر والميسر دخولًا أوليًا ﴿وَاحْذَرُوا﴾ أي: مخالفتهما في ذلك وهذا مؤكد للأمر الأول، وجوز أن يكون المراد أطيعوا فيما أمرا واحذروا عما نهيا فلا تأكيد، وجوز أيضًا أن لا يقدر متعلق للحذر، أي: وكونوا حاذرين خاشين، وأمروا بذلك؛ لأنهم إذا حذروا دعاهم الحذر إلى اتقاء كل سيئة، وعمل كل حسنة»[1].

وقال ابن عاشور: «عطفت جملة ﴿وَأَطِيعُوا﴾ على جملة ﴿فَهَلْ أَنتُم مُّنتَهُونَ﴾ وهي كالتذييل؛ لأن طاعة الله ورسوله تعم ترك الخمر والميسر والأنصاب والأزلام، وتعم غير ذلك من وجوه الامتثال والاجتناب، وكرر ﴿وَأَطِيعُوا﴾ اهتمامًا بالأمر بالطاعة، وعطف ﴿وَاحْذَرُوا﴾ على ﴿وَأَطِيعُوا﴾ أي: وكونوا على حذر، وحذف مفعول ﴿وَاحْذَرُوا﴾ لينزل الفعل منزلة اللازم؛ لأن القصد التلبس بالحذر في أمور الدين، أي: الحذر من الوقوع فيما يأباه الله ورسوله؛ وذلك أبلغ من أن يقال: واحذروهما؛ لأن الفعل اللازم يقرب معناه من معنى أفعال السجايا؛ ولذلك يجيء اسم الفاعل منه على زنة فعل كفرح ونهم»[2].

٢. الأمر بالتصرف في الأنفال والغنائم كما حدد الله في كتابه، وسن لهم رسول الله صلى الله عليه وسلم في سنته.

قال تعالى: ﴿يَسْأَلُونَكَ عَنِ الْأَنفَالِ قُلِ الْأَنفَالُ لِلَّهِ وَالرَّسُولِ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَصْلِحُوا ذَاتَ بَيْنِكُمْ وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾ [الأنفال: ١].

قال الطبري: «﴿وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ﴾ معناه: وانتهوا أيها القوم الطالبون الأنفال إلى أمر الله وأمر رسوله فيما أفاء الله عليكم، فقد بين لكم وجوهه وسبله ﴿إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾ يقول: إن كنتم مصدقين رسول الله فيما آتاكم به من عند ربكم»[3].

وقال ابن عطية: «﴿وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ﴾ لفظ عام، وسببه الأمر بالوقوف عند ما ينفذه رسول الله صلى الله عليه وسلم في الغنائم، وقوله: ﴿إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾ أي: كاملي الإيمان، كما تقول لرجل: إن كنت رجلًا فافعل كذا»[4].

وقال ابن الجوزي: «﴿وَأَطِيعُوا اللَّهَ

(١) روح المعاني، الألوسي ٤/ ١٧.

(٢) التحرير والتنوير، ابن عاشور ٧/ ٣٠.
(٣) جامع البيان، الطبري ١٣/ ٣٨٥.
(٤) المحرر الوجيز، ابن عطية ٢/ ٥٠٠.

﴿وَرَسُولَهُ﴾ أي: اقبلوا ما أمرتم به في الغنائم وغيرها»[1].

وكما ذكرنا في الأمر السابق أن العبرة بعموم الآيات يظل قائمًا، مع التأكيد على خصوص السبب، نقول هذا هنا أيضًا.

قال البيضاوي: «﴿وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾ فإن الإيمان يقتضي ذلك، أو إن كنتم كاملي الإيمان، فإن كمال الإيمان بهذه الثلاثة: طاعة الأوامر، والاتقاء عن المعاصي، وإصلاح ذات البين بالعدل والإحسان»[2].

وأيضا ورد الأمر بالتأكيد على نفس المعنى، وهو: الالتزام بما جاء في الكتاب والسنة بأمر الغنائم في قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَلَا تَوَلَّوْا عَنْهُ وَأَنتُمْ تَسْمَعُونَ﴾ [الأنفال: ٢٠].

قال ابن عطية: «الخطاب للمؤمنين المصدقين، جدد عليهم الأمر بطاعة الله والرسول، ونهوا عن التولي عنه، وهذا قول الجمهور، ويكون هذا متناصرًا مع قول من يقول: إن الخطاب بقوله: ﴿وَإِن تَنتَهُوا﴾ [الأنفال: ١٩] هو للمؤمنين، فيجيء الكلام من نمط واحد في معناه. وأما على قول من يقول إن المخاطبة بـ﴿وَإِن تَنتَهُوا﴾ هي للكفار؛ فيرى أن هذه الآية إنما نزلت بسبب اختلافهم في النفل، ومجادلتهم في الحق، وكراهيتهم خروج رسول الله صلى الله عليه وسلم وتفاخرهم بقتل الكفار، والنكاية فيهم»[3].

٣. الأمر بالثبات والالتزام بما أمر الله به ورسوله عند ملاقاة الأعداء، والصبر على قتالهم.

كما في قوله تعالى: ﴿وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَلَا تَنَازَعُوا فَتَفْشَلُوا وَتَذْهَبَ رِيحُكُمْ﴾ [الأنفال: ٤٦].

قال ابن كثير: «فأمر تعالى بالثبات عند قتال الأعداء، والصبر على مبارزتهم، فلا يفروا، ولا ينكلوا، ولا يجبنوا، وأن يذكروا الله في تلك الحال، ولا ينسوه، بل يستعينوا به، ويتكلوا عليه، ويسألوه النصر على أعدائهم، وأن يطيعوا الله ورسوله في حالهم ذلك، فما أمرهم الله تعالى به ائتمروا، وما نهاهم عنه انزجروا، ولا يتنازعوا فيما بينهم أيضًا، فيختلفوا فيكون سببًا لتخاذلهم وفشلهم»[4].

وقال ابن عاشور: «فأما طاعة الله ورسوله فتشمل اتباع سائر أحكام القتال المشروعة بالتعيين، مثل الغنائم، وكذلك ما يأمرهم به الرسول صلى الله عليه وسلم من آراء الحرب، كقوله للرماة يوم أحد: (لا تبرحوا

(١) زاد المسير، ابن الجوزي ٢/ ١٨٨.
(٢) أنوار التنزيل، البيضاوي ٣/ ٤٩.
(٣) المحرر الوجيز، ابن عطية ٢/ ٥١٣.
(٤) تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ٤/ ٧٢.

من مكانكم، ولو تخطفنا الطير)»[1][2].

وقال أبو السعود: «﴿وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ﴾ في كل ما تأتون، وما تذرون، فيندرج فيه ما أمروا به ها هنا اندراجًا أوليًا»[3].

وقال ابن عطية: «﴿وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ﴾ الآية: استمرار على الوصية لهم، والأخذ على أيديهم في اختلافهم في أمر بدر وتنازعهم و﴿فَتَفْشَلُوا﴾ نصب بالفاء في جواب النهي، قال أبو حاتم: «في كتاب عن إبراهيم «فتفشلوا» بكسر الشين! وهذا غير معروف»، وقرأ جمهور الناس ﴿وَتَذْهَبَ﴾ بالتاء من فوق، ونصب الباء، وقرأ هبيرة عن حفص عن عاصم «وتذهب ريحكم» بالتاء، وجزم الباء، وقرأ عيسى بن عمر «ويذهب» بالياء من تحت، ويجزم «يذهب» وقرأ أبو حيوة «ويذهب» بالياء من تحت، ونصب الباء، ورواها أبان وعصمة عن عاصم»[4].

وكذلك في هذا الصدد قوله تعالى: ﴿وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَالرَّسُولَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ﴾ [آل عمران: ١٣٢].

قال الطبري: «وقد قيل إن ذلك معاتبة من الله عز وجل أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم الذين خالفوا أمره يوم أحد، فأخلوا بمراكزهم التي أمروا بالثبات عليها»[5].

ولأن الأوامر في القرآن والسنة كثيرة لا تحصى وردت الآيات العامة المطلقة التي تحض على طاعة الله ورسوله في كل أمر، كما في قوله تعالى: ﴿ءَأَشْفَقْتُمْ أَن تُقَدِّمُوا بَيْنَ يَدَيْ نَجْوَاكُمْ صَدَقَاتٍ فَإِذْ لَمْ تَفْعَلُوا وَتَابَ اللَّهُ عَلَيْكُمْ فَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَاللَّهُ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ﴾ [المجادلة: ١٣].

وقوله تعالى: ﴿وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ فَإِن تَوَلَّيْتُمْ فَإِنَّمَا عَلَىٰ رَسُولِنَا الْبَلَاغُ الْمُبِينُ﴾ [التغابن: ١٢].

فعلى المؤمنين الطاعة في شتى مجالات حياتهم، فيما ورد عن الشارع فيه أمر أو نهي، ليس فقط في أداء عباداتهم، بل حتى في تجاراتهم، في تعاملاتهم، في حال حربهم وسلمهم، في نشاطهم وكسلهم، وأن يعلنوا انقيادهم وإذعانهم لما أمروا به.

قال ابن كثير: «أمر بطاعة الله ورسوله فيما شرع، وفعل ما به أمر، وترك ما عنه نهى وزجر.

قال الزهري: «من الله الرسالة، وعلى

---

(١) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب الجهاد والسير، باب ما يكره من التنازع والاختلاف في الحرب، وعقوبة من عصى إمامه، ٤/ ٦٥، رقم ٣٠٣٩.

(٢) التحرير والتنوير، ابن عاشور ١٠/ ٣٠.

(٣) إرشاد العقل السليم، أبو السعود ٤/ ٢٥.

(٤) المحرر الوجيز، ابن عطية ٢/ ٥٣٦. وانظر: الجامع لأحكام القرآن، القرطبي ٨/ ٢٤، أنوار التنزيل، البيضاوي ٣/ ٦٢.

(٥) جامع البيان، الطبري ٧/ ٢٠٦.

الرسول البلاغ، وعلينا التسليم»[1][2].

وأما إن أعرضوا عن ذلك: فلن يضر هذا الرسول الذي بلغ عن ربه، وإنما سيضر من أعرض وخالف النور الذي أتي به إليه.

قال أبو السعود: «﴿وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ﴾ كرر الأمر للتأكيد، والإيذان بالفرق بين الطاعتين في الكيفية، وتوضيح مورد التولي في قوله تعالى: ﴿فَإِن تَوَلَّيْتُمْ﴾ أي: عن إطاعة الرسول، وقوله تعالى: ﴿فَإِنَّمَا عَلَىٰ رَسُولِنَا الْبَلَاغُ الْمُبِينُ﴾ تعليل للجواب المحذوف، أي: فلا بأس عليه إذ ما عليه إلا التبليغ المبين، وقد فعل ذلك بما لا مزيد عليه»[3].

وقال ابن عاشور: «﴿وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ فَإِن تَوَلَّيْتُمْ فَإِنَّمَا عَلَىٰ رَسُولِنَا الْبَلَاغُ الْمُبِينُ﴾ عطف على جملة ﴿وَمَن يُؤْمِن بِاللَّهِ يَهْدِ قَلْبَهُ﴾ [التغابن:١١]. لأنها تضمنت أن المؤمنين متهيئون لطاعة الله ورسوله صلى الله عليه وسلم فيما يدعوانهم إليه من مصالح الأعمال، كما يدل عليه تذييل الكلام بقوله: ﴿وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ﴾ [التغابن:١١].

ولأن طلب الطاعة فرع عن تحقق الإيمان كما في حديث معاذ: أن النبي صلى الله عليه وسلم لما بعثه إلى اليمن قال له: (**إنك ستأتي قومًا أهل كتاب، فأول ما تدعوهم إليه، فادعهم إلى أن يشهدوا أن لا إله إلا الله، وأن محمدًا رسول الله، فإن هم أطاعوا لك بذلك فأخبرهم أن الله قد فرض عليهم صدقة**)[4]، وتفريع ﴿فَإِن تَوَلَّيْتُمْ﴾ تحذير من عصيان الله ورسوله صلى الله عليه وسلم، والتولي مستعار للعصيان، وعدم قبول دعوة الرسول.

ووصف البلاغ بـ﴿الْمُبِينُ﴾ أي: الواضح عذر للرسول صلى الله عليه وسلم بأنه ادعى ما أمر به على الوجه الأكمل قطعًا للمعذر عن عدم امتثال ما أمر به»[5].

وقد يكون هذا الإعراض عن الطاعة أيضًا، والولوج في بحار الكبائر والمعاصي: سببًا في بطلان العمل؛ لذا قال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَلَا تُبْطِلُوا أَعْمَالَكُمْ﴾ [محمد: ٣٣].

قال الطبري: «﴿أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ﴾ في أمرهما ونهيهما ﴿وَلَا تُبْطِلُوا أَعْمَالَكُمْ﴾ يقول: ولا تبطلوا بمعصيتكم

---

(١) أخرجه البخاري في صحيحه تعليقًا عن الزهري، كتاب التوحيد، باب قول الله تعالى: (يا أيها الرسول بلغ ما أنزل إليك)، ٩/ ١٥٤.

(٢) تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ٨/ ١٣٨.

(٣) إرشاد العقل السليم، أبو السعود ٨/ ٢٥٨.

(٤) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب الزكاة، باب لا تؤخذ كرائم أموال الناس في الصدقة، ٢/ ١١٩، رقم ١٤٥٨ واللفظ له، ومسلم في صحيحه، كتاب الإيمان، باب الأمر بالإيمان بالله ورسوله وشرائع الدين والدعاء إليه، ١/ ٥٠، رقم ١٩.

(٥) التحرير والتنوير، ابن عاشور ٢٨/ ٢٨٠.

إياهما، وكفركم بربكم ثواب أعمالكم، فإن الكفر بالله يحبط السالف من العمل الصالح»[1].

وقال ابن الجوزي: «﴿وَلَا تُبْطِلُوٓا۟ أَعْمَٰلَكُمْ﴾ اختلفوا في مبطلها على أربعة أقوال: أحدها: المعاصي والكبائر، قاله الحسن، والثاني: الشك والنفاق، قاله عطاء، والثالث: الرياء والسمعة، قاله ابن السائب، والرابع: بالمن»[2].

وأما القرطبي فقد ربط بين هذه الآية والتي قبلها فقال: «لما بين حال الكفار أمر المؤمنين بلزوم الطاعة في أوامره والرسول في سننه ﴿وَلَا تُبْطِلُوٓا۟ أَعْمَٰلَكُمْ﴾ أي: حسناتكم بالمعاصي، قاله الحسن، وقال الزهري: بالكبائر، ابن جريج: بالرياء والسمعة، وقال مقاتل والثمالي: بالمن، وفيه إشارة إلى أن الكبائر تحبط الطاعات، والمعاصي تخرج عن الإيمان»[3].

بقي هنا أخيرًا أن نقول: إن الأوامر التي يجب الطاعة فيها للرسول صلى الله عليه وسلم هي «ما أمر به ونهى عنه من أحكام الدين، وأما ما ليس داخلًا تحت التشريع فطاعة أمر الرسول صلى الله عليه وسلم فيه طاعة انتصاح وأدب، ألا ترى أن بريرة لم تطع رسول الله صلى الله عليه وسلم في مراجعة زوجها مغيث لما علمت أن أمره إياها ليس بعزم»[4] [5].

ثانيًا: الطاعة في غير معصية الله:

مر بنا فيما سبق أن طاعة الله عز وجل ورسوله طاعة مطلقة، وهناك طاعات أخرى دل عليها الكتاب العزيز، خاصة بأصناف معينة من الناس، إلا أن هذا النوع من الطاعة ليس مطلقًا كسابقه، بل هي مقيدة بقيد مهم، ألا وهو: قول رسول الله صلى الله عليه وسلم: (لا طاعة في معصية الله، إنما الطاعة في المعروف)[6].

---

(١) جامع البيان، الطبري ٢٢/ ١٨٧.

(٢) زاد المسير ٤/ ١٢٢.
وانظر: لباب النقول، السيوطي، ص ٨٣٣.

(٣) الجامع لأحكام القرآن، القرطبي ١٦/ ٢٥٤.

(٤) أخرج البخاري في صحيحه، كتاب الطلاق، باب شفاعة النبي صلى الله عليه وسلم في زوج بريرة، ٧/ ٤٨، رقم ٥٢٨٣ من حديث عبد الله بن عباس رضي الله عنهما أن زوج بريرة كان عبدًا يقال له: مغيث، كأني أنظر إليه يطوف خلفها يبكي ودموعه تسيل على لحيته، فقال النبي صلى الله عليه وسلم لعباس: يا عباس، ألا تعجب من حب مغيث بريرة، ومن بغض بريرة مغيثا؟! فقال النبي صلى الله عليه وسلم: لو راجعته قالت: يا رسول الله تأمرني؟ قال: إنما أنا أشفع قالت: لا حاجة لي فيه.

(٥) التحرير والتنوير، ابن عاشور ٢٦/ ١٢٦-١٢٧.

(٦) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب أخبار الآحاد، باب ما جاء في إجازة خبر الواحد الصدوق في الأذان والصلاة والصوم والفرائض والأحكام، ٩/ ٨٨، رقم ٧٢٥٧، ومسلم في صحيحه، كتاب الإمارة، باب وجوب طاعة الأمراء في غير معصية،

ومن أنواع هذه الطاعات المقيدة ما يلي:

١ . طاعة أولياء الأمور.

قال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَطِيعُوا۟ ٱللَّهَ وَأَطِيعُوا۟ ٱلرَّسُولَ وَأُو۟لِى ٱلْأَمْرِ مِنكُمْ ۖ فَإِن تَنَٰزَعْتُمْ فِى شَىْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى ٱللَّهِ وَٱلرَّسُولِ إِن كُنتُمْ تُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ ۚ ذَٰلِكَ خَيْرٌ وَأَحْسَنُ تَأْوِيلًا﴾ [النساء: ٥٩].

اختلف أهل العلم في المراد بأولي الأمر المذكورين في الآية، هل هم الولاة والأمراء أم العلماء والفقهاء أم غير ذلك؟

فرجح جماعة -ومنهم الطبري- أنهم الولاة والأمراء، فقال بعد أن ذكر الخلاف في ذلك: «وأولى الأقوال في ذلك بالصواب قول من قال: هم الأمراء والولاة لصحة الأخبار عن رسول الله صلى الله عليه وسلم بالأمر بطاعة الأئمة والولاة فيما كان لله طاعة، وللمسلمين مصلحة»[١].

وقال ابن عطية: «أمر بطاعته عز وجل، وهي امتثال أوامره ونواهيه، وطاعة رسوله، وطاعة الأمراء على قول الجمهور»[٢].

وقال ابن عاشور: «وتشمل طاعة الرسول عليه الصلاة والسلام طاعة أمرائه في حياته؛ لقوله: (ومن أطاع أميري فقد أطاعني)[٣]، وتشمل طاعة أمراء الجيوش بعد وفاة الرسول صلى الله عليه وسلم لمساواتهم لأمرائه الغائبين عنه في الغزوات والسرايا في حكم الغيبة عن شخصه»[٤].

ورجح آخرون -ويبدو أن هذا هو الأقوى والأرجح- وهو: أن المراد بأولي الأمر: الأمراء والعلماء.

قال ابن القيم: «وقد اختلفت الرواية عن الإمام أحمد في أولي الأمر، وعنه فيهم روايتان:

إحداهما: أنهم العلماء.

والثانية: أنهم الأمراء.

والقولان ثابتان عن الصحابة في تفسير الآية، والصحيح أنها متناولة للصنفين جميعًا، فإن العلماء والأمراء ولاة الأمر الذي بعث الله به رسوله، فإن العلماء ولاته حفظًا وبيانًا وذبًا عنه وردًا على من ألحد فيه وزاغ عنه، وقد وكلهم الله بذلك، فقال تعالى: ﴿فَإِن يَكْفُرْ بِهَا هَٰٓؤُلَآءِ فَقَدْ وَكَّلْنَا بِهَا قَوْمًا لَّيْسُوا۟ بِهَا بِكَٰفِرِينَ﴾ [الأنعام: ٨٩].

فيالها من وكالة أوجبت طاعتهم والانتهاء إلى أمرهم، وكون الناس تبعًا لهم،

وتحريمها في المعصية، ٣/ ١٤٦٩، رقم ١٨٤٠.

(١) جامع البيان، الطبري ٨/ ٥٠٢.

(٢) المحرر الوجيز، ابن عطية ٢/ ٧٠.

(٣) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب الأحكام، باب قول الله تعالى: (أطيعوا الله وأطيعوا الرسول وأولي الأمر منكم)، ٩/ ٦١، رقم ٧١٣٧، ومسلم في صحيحه، كتاب الإمارة، باب وجوب طاعة الأمراء في غير معصية وتحريمها في المعصية، ٣/ ١٤٦٦، رقم ١٨٣٥.

(٤) التحرير والتنوير، ابن عاشور ١٠/ ٣٠.

والأمراء ولاته قيامًا وعناية وجهادًا وإلزامًا للناس به، وأخذهم على يد من خرج عنه، وهذان الصنفان هما الناس وسائر النوع الإنساني تبع لها ورعية»[1].

وقد يغفل بعض الناس عن أهمية طاعة العلماء، ويقللون من خطر الخروج عن مشورتهم، فنجد كثيرًا من يتحدث عن وجوب طاعة الأمراء، وأهميته في تحقق الجماعة، واستتباب الأمن في المجتمع، وهذا حق، ولكنهم يغفلون عن أهمية طاعة العلماء، وحاجة الأمة كلها رؤساء وأمراء وعامة إليهم.

إن الخروج عن طاعة العلماء الربانيين، وترك مشورتهم مفسد للدنيا والآخرة، ولا يعني هذا تقديسهم أو التعصب لأقوال الرجال، ليس هذا إطلاقًا، بل متى ما عارض قولهم قول الله ورسوله رد، ولم يقبل، فقولهم معتبر، ورأيهم متبع؛ لأنهم يتبعون ما جاء من ربهم، ويبينونه للناس، فالله عز وجل جعل في كل زمان فترة من الرسل بقايا من أهل العلم يدعون من ضل إلى الهدى، ويصبرون منهم على الأذى، يحيون بكتاب الله الموتى، ويبصرون بنور الله أهل العمى، فكم من قتيل لإبليس قد أحيوه، وكم من ضال تائه قد هدوه، فما أحسن أثرهم على الناس، وأقبح أثر الناس عليهم، ينفون عن كتاب الله تحريف الغالين، وانتحال المبطلين، وتأويل الجاهلين، الذين عقدوا ألوية البدع، وأطلقوا عقال الفتنة.

أما أولو الأمر من الأمراء فطاعتهم واجبة ما دام أنهم يحكمون بكتاب الله تعالى وسنة رسوله صلى الله عليه وسلم، فالله سبحانه وتعالى قال: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَأُولِي الْأَمْرِ مِنكُمْ﴾ [النساء:٥٩].

فلم يقل: وأطيعوا أولي الأمر، بل عطف طاعتهم على طاعة الرسول؛ إذ أنه لا تجب طاعة أحدهم إلا إذا اندرجت تحت طاعة الرسول صلى الله عليه وسلم.

فطاعة أولي الأمر إذًا ليست طاعة مفردة مستقلة، بل طاعتهم طاعة مستثناة فيما لهم وعليهم، واجبة لهم ما دام أنهم يحكمون بكتاب الله وسنة رسوله صلى الله عليه وسلم؛ ففي الحديث عن رسول الله صلى الله عليه وسلم: **(السمع والطاعة على المرء المسلم فيما أحب وكره، ما لم يؤمر بمعصية، فإذا أمر بمعصية فلا سمع ولا طاعة)**[2].

٢ . طاعة الوالدين.

(١) زاد المهاجر إلى ربه، ابن قيم الجوزية ص٤١-٤٢.

(٢) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب الأحكام، باب السمع والطاعة للإمام مالم تكن معصية، ٩/ ٦٣، رقم ٧١٤٤ ومسلم في صحيحه، كتاب الإمارة، باب وجوب طاعة الأمراء في غير معصية، ٣/ ١٤٦٩، رقم ١٨٣٩.

قال تعالى: ﴿وَوَصَّيْنَا الْإِنسَانَ بِوَالِدَيْهِ حُسْنًا ۖ وَإِن جَاهَدَاكَ لِتُشْرِكَ بِي مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ فَلَا تُطِعْهُمَا ۚ إِلَيَّ مَرْجِعُكُمْ فَأُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ [العنكبوت: ٨].

وقال تعالى: ﴿وَإِن جَاهَدَاكَ عَلَىٰ أَن تُشْرِكَ بِي مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ فَلَا تُطِعْهُمَا ۖ وَصَاحِبْهُمَا فِي الدُّنْيَا مَعْرُوفًا ۖ وَاتَّبِعْ سَبِيلَ مَنْ أَنَابَ إِلَيَّ ۚ ثُمَّ إِلَيَّ مَرْجِعُكُمْ فَأُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ [لقمان: ١٥].

ذكر كثير من أهل التفسير أن هاتين الآيتين نزلتا في شأن سعد بن أبي وقاص؛ وذلك أنه قال عن نفسه: «أنزلت في أربع آيات» -فذكر قصة- فقالت أم سعد: أليس قد أمر الله بالبر؟ والله لا أطعم طعامًا، ولا أشرب شرابًا حتى أموت أو تكفر، قال: «فكانوا إذا أرادوا أن يطعموها شجروا فاها» فنزلت هذه الآية: ﴿وَوَصَّيْنَا الْإِنسَانَ بِوَالِدَيْهِ حُسْنًا﴾[١].

وقال ابن عطية بعد أن ذكر قصة سعد وغيرها: «ولا مرية أنها نزلت فيمن كان من المؤمنين بمكة يشقى بجهاد أبويه في شأن الإسلام أو الهجرة، فكان القصد بهذه الآية النهي عن طاعة الأبوين في مثل هذا؛ لعظم الأمر، وكثرة الخطر فيه مع الله تعالى، ثم إنه لما كان بر الوالدين وطاعتهما من الأمر الذي قررته الشريعة وأكدت فيه، وكان من القوي عندهم الملتزم؛ قدم الله تعالى النهي عن طاعتهما، وقوله: ﴿وَوَصَّيْنَا الْإِنسَانَ بِوَالِدَيْهِ حُسْنًا﴾ على معنى أنا لا نخل ببر الوالدين، لكنا لا نسلطه على طاعة الله لا سيما في معنى الإيمان»[٢].

وقال في موطن آخر: «وجملة هذا الباب: أن طاعة الوالدين لا تراعى في ركوب كبيرة، ولا في ترك فريضة على الأعيان، وتلزم طاعتهما في المباحات، وتستحسن في ترك الطاعات الندب»[٣].

وقال ابن عاشور: «والمقصود من الآية هو قوله: ﴿وَإِن جَاهَدَاكَ لِتُشْرِكَ بِي﴾ إلى آخره، وإنما افتتحت بـ﴿وَوَصَّيْنَا الْإِنسَانَ بِوَالِدَيْهِ حُسْنًا﴾ لأنه كالمقدمة للمقصود؛ ليعلم أن الوصاية بالإحسان إلى الوالدين لا تقتضي طاعتهما في السوء ونحوه؛ لقول النبي صلى الله عليه وسلم: (لا طاعة لمخلوق في معصية الخالق)[٤].

ولقصد تقرير حكم الإحسان للوالدين

(١) أخرجه الترمذي في سننه، أبواب تفسير القرآن، باب ومن سورة العنكبوت ٥/ ٣٤١، رقم ٣١٨٩.
قال الترمذي: «هذا حديث حسن صحيح».
وصححه الألباني في التعليقات الحسان على صحيح ابن حبان ١٠/ ١١٠.

(٢) المحرر الوجيز، ابن عطية ٤/ ٣٠٧- ٣٠٨.
(٣) المصدر السابق ٤/ ٣٤٩.
(٤) أخرجه أحمد في مسنده، ٢/ ٣٣٣، رقم ١٠٩٥.
وصححه الألباني في صحيح الجامع، ٢/ ١٢٥٠، رقم ٧٥٢٠.

في كل حال إلا في حال الإشراك، حتى لا يلتبس على المسلمين وجه الجمع بين الأمر بالإحسان للوالدين وبين الأمر بعصيانهما إذا أمرا بالشرك»[1].

٣. طاعة المرأة لزوجها.

قال تعالى: ﴿الرِّجَالُ قَوَّامُونَ عَلَى النِّسَاءِ بِمَا فَضَّلَ اللَّهُ بَعْضَهُمْ عَلَى بَعْضٍ وَبِمَا أَنْفَقُوا مِنْ أَمْوَالِهِمْ فَالصَّالِحَاتُ قَانِتَاتٌ حَافِظَاتٌ لِلْغَيْبِ بِمَا حَفِظَ اللَّهُ وَاللَّاتِي تَخَافُونَ نُشُوزَهُنَّ فَعِظُوهُنَّ وَاهْجُرُوهُنَّ فِي الْمَضَاجِعِ وَاضْرِبُوهُنَّ فَإِنْ أَطَعْنَكُمْ فَلَا تَبْغُوا عَلَيْهِنَّ سَبِيلًا إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلِيًّا كَبِيرًا﴾ [النساء: ٣٤].

قال الطبري: «﴿قَانِتَاتٌ﴾ يعني: مطيعات لله ولأزواجهن»[2].

وقال القرطبي: «﴿فَالصَّالِحَاتُ قَانِتَاتٌ حَافِظَاتٌ لِلْغَيْبِ﴾ هذا كله خبر، ومقصوده الأمر بطاعة الزوج والقيام بحقه في ماله، وفي نفسها في حال غيبة الزوج، وعن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: (خير النساء التي إذا نظرت إليها سرتك، وإذا أمرتها أطاعتك، وإذا غبت عنها حفظتك في نفسها ومالك)[3]، قال: وتلا هذه الآية: ﴿الرِّجَالُ قَوَّامُونَ عَلَى النِّسَاءِ﴾ إلى آخر الآية»[4].

وقال ابن كثير: «المرأة الناشز هي المرتفعة على زوجها، التاركة لأمره، المعرضة عنه، المبغضة له، فمتى ظهر له منها أمارات النشوز فليعظها وليخوفها عقاب الله في عصيانه؛ فإن الله قد أوجب حق الزوج عليها وطاعته، وحرم عليها معصيته لما له عليها من الفضل والإفضال، فإذا أطاعت المرأة زوجها في جميع ما يريد منها، مما أباحه الله له منها، فلا سبيل له عليها بعد ذلك، وليس له ضربها ولا هجرانها»[5].

(١) التحرير والتنوير، ابن عاشور ٢٠/ ٢١٣.
(٢) جامع البيان، الطبري ٨/ ٢٩٤.
(٣) أخرجه الطيالسي ٤/ ٨٧، رقم ٢٤٤٤، والنسائي في الكبرى، كتاب عشرة النساء، باب طاعة المرأة زوجها، ٨/ ١٨٤، رقم ٨٩١٢.
وصححه الألباني في صحيح الجامع، ١/ ٦٢٤، رقم ٣٢٩٩.
(٤) الجامع لأحكام القرآن، القرطبي ٥/ ١٧٠.
(٥) تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ٢/ ٢٩٤.

عاقبة الطاعة

أوضح القرآن عاقبة الطاعة في الدنيا والآخرة، وفيما يأتي بيان لها:

أولًا: عاقبة طاعة الله ورسوله:

طاعة الله ورسوله نبتة طيبة مباركة، تؤتي أكلها في الدنيا قبل الآخرة، فيحصل المؤمن جزاء عاجلًا قبل الجزاء الآجل، ففي الدنيا ينال الطائعون:

١. الهداية وإصابة للحق، كما في قوله تعالى: ﴿وَإِن تُطِيعُوهُ تَهْتَدُوا وَمَا عَلَى الرَّسُولِ إِلَّا الْبَلَاغُ الْمُبِينُ﴾ [النور: ٥٤].

٢. النصر في الدنيا على الأعداء، والغنيمة والخير الكثير، كما في قوله تعالى: ﴿قُل لِّلْمُخَلَّفِينَ مِنَ الْأَعْرَابِ سَتُدْعَوْنَ إِلَىٰ قَوْمٍ أُولِي بَأْسٍ شَدِيدٍ تُقَاتِلُونَهُمْ أَوْ يُسْلِمُونَ فَإِن تُطِيعُوا يُؤْتِكُمُ اللَّهُ أَجْرًا حَسَنًا﴾ [الفتح: ١٦].

٣. نزول الرحمات، وتحقق الأمن والأمان، كما في قوله تعالى: ﴿وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ﴾ [النور: ٥٦].

وأما في الآخرة: فالثمرة أعظم وأكبر؛ لأن هذا ثواب باقٍ، لا يحول ولا يزول، ومن هذا الثواب المذكور:

١. المطيعون يأخذون أجورهم كاملة يوم القيامة، بلا نقص ولا ظلم، كما في قوله تعالى: ﴿وَإِن تُطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ لَا يَلِتْكُم مِّنْ أَعْمَالِكُمْ شَيْئًا﴾ [الحجرات: ١٤].

٢. يثيب الله عز وجل بمنه وفضله المطيعين الجنة، خالدين فيها أبدًا، كما في قوله تعالى: ﴿وَمَن يُطِعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ يُدْخِلْهُ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ﴾ [الفتح: ١٧].

٣. ينزل الله عز وجل المطيعين المنازل العالية، والدرجات الرفيعة في الجنة، كما في قوله تعالى: ﴿وَمَن يُطِعِ اللَّهَ وَالرَّسُولَ فَأُولَٰئِكَ مَعَ الَّذِينَ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِم مِّنَ النَّبِيِّينَ وَالصِّدِّيقِينَ وَالشُّهَدَاءِ وَالصَّالِحِينَ وَحَسُنَ أُولَٰئِكَ رَفِيقًا﴾ [النساء: ٦٩].

ثانيًا: عاقبة طاعة الإنسان لإبليس:

الله عز وجل هو الخالق لهذا الكون، وهو الأعلم بما يصلح عباده، وما يفسدهم، وما ينفعهم وما يضرهم؛ ولذا فقد حذرهم تبارك وتعالى مما فيه ضرر أو هلاك أو شقاء لهم، وبين لهم العواقب، وقص عليهم القصص، كل ذلك حتى يمتثلوا أمره، ويحذروا مما حذرهم منه.

ومما حذر الله منه عباده: أن يتبعوا إبليس، أو خطواته، أو يتخذوه وليًا من دون الله؛ لأنه في الأصل عدو لهم، وعداوته

قديمة منذ خلق أبيهم آدم عليه السلام، يوم رفض السجود له، وأعلن عن حسده وبغضه، ونيته في إفساد ذريته.

قال تعالى: ﴿وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَٰٓئِكَةِ ٱسْجُدُوا۟ لِءَادَمَ فَسَجَدُوٓا۟ إِلَّآ إِبْلِيسَ قَالَ ءَأَسْجُدُ لِمَنْ خَلَقْتَ طِينًا ﴿٦١﴾ قَالَ أَرَءَيْتَكَ هَٰذَا ٱلَّذِى كَرَّمْتَ عَلَىَّ لَئِنْ أَخَّرْتَنِ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ لَأَحْتَنِكَنَّ ذُرِّيَّتَهُۥٓ إِلَّا قَلِيلًا﴾ [الإسراء: ٦١-٦٢].

ويقسم إبليس على ما يتنويه من شر للعباد، فيقول: ﴿قَالَ فَبِعِزَّتِكَ لَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٨٢﴾ إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمُ ٱلْمُخْلَصِينَ﴾ [ص: ٨٢-٨٣].

ويبين خطته وطريقه الذي سيسلكه، فقال لربه: ﴿لَأَقْعُدَنَّ لَهُمْ صِرَٰطَكَ ٱلْمُسْتَقِيمَ ﴿١٦﴾ ثُمَّ لَءَاتِيَنَّهُم مِّنۢ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ وَمِنْ خَلْفِهِمْ وَعَنْ أَيْمَٰنِهِمْ وَعَن شَمَآئِلِهِمْ وَلَا تَجِدُ أَكْثَرَهُمْ شَٰكِرِينَ﴾ [الأعراف: ١٦-١٧].

وقال: ﴿لَأَتَّخِذَنَّ مِنْ عِبَادِكَ نَصِيبًا مَّفْرُوضًا ﴿١١٨﴾ وَلَأُضِلَّنَّهُمْ وَلَأُمَنِّيَنَّهُمْ وَلَءَامُرَنَّهُمْ فَلَيُبَتِّكُنَّ ءَاذَانَ ٱلْأَنْعَٰمِ وَلَءَامُرَنَّهُمْ فَلَيُغَيِّرُنَّ خَلْقَ ٱللَّهِ﴾ [النساء: ١١٨-١١٩].

ويبين الله عز وجل لنا أن له أعوانًا من بني الإنس، يستخدمهم أيضًا لإغواء الناس وإضلالهم؛ فقال تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِىٍّ عَدُوًّا شَيَٰطِينَ ٱلْإِنسِ وَٱلْجِنِّ يُوحِى بَعْضُهُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ زُخْرُفَ ٱلْقَوْلِ غُرُورًا﴾ [الأنعام: ١١٢].

وقال: ﴿وَإِنَّ ٱلشَّيَٰطِينَ لَيُوحُونَ إِلَىٰٓ أَوْلِيَآئِهِمْ لِيُجَٰدِلُوكُمْ وَإِنْ أَطَعْتُمُوهُمْ إِنَّكُمْ لَمُشْرِكُونَ﴾ [الأنعام: ١٢١].

ولهذا وصفه الله عز وجل بأنه عدو ظاهر، لا تخفى عداوته، وأمرنا أن نعتبره كذلك؛ فلا ننقاد له؛ ولا نتبع خطواته، فقال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلشَّيْطَٰنَ لَكُمْ عَدُوٌّ فَٱتَّخِذُوهُ عَدُوًّا﴾ [فاطر: ٦].

وقال: ﴿وَلَا تَتَّبِعُوا۟ خُطُوَٰتِ ٱلشَّيْطَٰنِ إِنَّهُۥ لَكُمْ عَدُوٌّ مُّبِينٌ﴾ [البقرة: ١٦٨].

وقال: ﴿وَلَا تَتَّبِعُوا۟ خُطُوَٰتِ ٱلشَّيْطَٰنِ إِنَّهُۥ لَكُمْ عَدُوٌّ مُّبِينٌ﴾ [البقرة: ٢٠٨].

وقال: ﴿وَلَا تَتَّبِعُوا۟ خُطُوَٰتِ ٱلشَّيْطَٰنِ إِنَّهُۥ لَكُمْ عَدُوٌّ مُّبِينٌ﴾ [الأنعام: ١٤٢].

وقال: ﴿وَنَادَىٰهُمَا رَبُّهُمَآ أَلَمْ أَنْهَكُمَا عَن تِلْكُمَا ٱلشَّجَرَةِ وَأَقُل لَّكُمَآ إِنَّ ٱلشَّيْطَٰنَ لَكُمَا عَدُوٌّ مُّبِينٌ﴾ [الأعراف: ٢٢].

وقال: ﴿يَٰبَنِىٓ ءَادَمَ لَا يَفْتِنَنَّكُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ كَمَآ أَخْرَجَ أَبَوَيْكُم مِّنَ ٱلْجَنَّةِ يَنزِعُ عَنْهُمَا لِبَاسَهُمَا لِيُرِيَهُمَا سَوْءَٰتِهِمَآ إِنَّهُۥ يَرَىٰكُمْ هُوَ وَقَبِيلُهُۥ مِنْ حَيْثُ لَا تَرَوْنَهُمْ إِنَّا جَعَلْنَا ٱلشَّيَٰطِينَ أَوْلِيَآءَ لِلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ [الأعراف: ٢٧].

وقال: ﴿إِنَّ ٱلشَّيْطَٰنَ لِلْإِنسَٰنِ عَدُوٌّ مُّبِينٌ﴾ [يوسف: ٥].

وقال: ﴿إِنَّ ٱلشَّيْطَٰنَ كَانَ لِلْإِنسَٰنِ عَدُوًّا

﴿مُّبِينًا﴾ [الإسراء:٥٣].

وقال: ﴿وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَـٰٓئِكَةِ ٱسْجُدُوا۟ لِـَٔادَمَ فَسَجَدُوٓا۟ إِلَّآ إِبْلِيسَ كَانَ مِنَ ٱلْجِنِّ فَفَسَقَ عَنْ أَمْرِ رَبِّهِۦٓ ۗ أَفَتَتَّخِذُونَهُۥ وَذُرِّيَّتَهُۥٓ أَوْلِيَآءَ مِن دُونِى وَهُمْ لَكُمْ عَدُوٌّۢ ۚ بِئْسَ لِلظَّـٰلِمِينَ بَدَلًا﴾ [الكهف: ٥٠].

وقال: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَتَّبِعُوا۟ خُطُوَٰتِ ٱلشَّيْطَـٰنِ﴾ [النور: ٢١].

وقال: ﴿وَكَانَ ٱلشَّيْطَـٰنُ لِلْإِنسَـٰنِ خَذُولًا﴾ [الفرقان: ٢٩].

وقال: ﴿أَلَمْ أَعْهَدْ إِلَيْكُمْ يَـٰبَنِىٓ ءَادَمَ أَن لَّا تَعْبُدُوا۟ ٱلشَّيْطَـٰنَ ۖ إِنَّهُۥ لَكُمْ عَدُوٌّ مُّبِينٌ﴾ [يس: ٦٠].

﴿وَلَا يَصُدَّنَّكُمُ ٱلشَّيْطَـٰنُ ۖ إِنَّهُۥ لَكُمْ عَدُوٌّ مُّبِينٌ﴾ [الزخرف: ٦٢].

وحتى يكون العباد على حذر أكبر من ذلك العدو بين الله عز وجل لهم عاقبة اتباعه في الدنيا والآخرة.

ففي الدنيا:

- يضل العباد عن طريق الحق، ويوقعهم في الشرك والضلال.

قال تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ يَزْعُمُونَ أَنَّهُمْ ءَامَنُوا۟ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ وَمَآ أُنزِلَ مِن قَبْلِكَ يُرِيدُونَ أَن يَتَحَاكَمُوٓا۟ إِلَى ٱلطَّـٰغُوتِ وَقَدْ أُمِرُوٓا۟ أَن يَكْفُرُوا۟ بِهِۦ وَيُرِيدُ ٱلشَّيْطَـٰنُ أَن يُضِلَّهُمْ ضَلَـٰلًۢا بَعِيدًا﴾ [النساء: ٦٠].

قال الطبري: «﴿أَلَمْ تَرَ﴾ يا محمد بقلبك فتعلم ﴿إِلَى ٱلَّذِينَ يَزْعُمُونَ﴾ أنهم صدقوا بما أنزل إليك من الكتاب، وإلى الذين يزعمون أنهم آمنوا بما أنزل من قلبك من الكتب ﴿يُرِيدُونَ أَن يَتَحَاكَمُوٓا۟﴾ في خصومتهم ﴿إِلَى ٱلطَّـٰغُوتِ﴾ يعني إلى: من يعظمونه ويصدرون عن قوله، ويرضون بحكمه من دون حكم الله ﴿وَقَدْ أُمِرُوٓا۟ أَن يَكْفُرُوا۟ بِهِۦ﴾ يقول: وقد أمرهم الله أن يكذبوا بما جاءهم به الطاغوت الذي يتحاكمون إليه، فتركوا أمر الله، واتبعوا أمر الشيطان ﴿وَيُرِيدُ ٱلشَّيْطَـٰنُ أَن يُضِلَّهُمْ ضَلَـٰلًۢا بَعِيدًا﴾ يعني: أن الشيطان يريد أن يصد هؤلاء المتحاكمين إلى الطاغوت عن سبيل الحق والهدى، فيضلهم عنها ضلالًا بعيدًا، يعني: فيجور بهم عنها جورًا شديدًا»[1].

وقال تعالى: ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يُجَـٰدِلُ فِى ٱللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَيَتَّبِعُ كُلَّ شَيْطَـٰنٍ مَّرِيدٍ ۝٣ كُتِبَ عَلَيْهِ أَنَّهُۥ مَن تَوَلَّاهُ فَأَنَّهُۥ يُضِلُّهُۥ وَيَهْدِيهِ إِلَىٰ عَذَابِ ٱلسَّعِيرِ﴾ [الحج: ٣-٤].

قال ابن كثير: «يقول تعالى ذامًا لمن كذب بالبعث، وأنكر قدرة الله على إحياء الموتى، معرضًا عما أنزل الله على أنبيائه، متبعًا في قوله وإنكاره وكفره كل شيطان مريد، من الإنس والجن، وهذا حال أهل الضلال والبدع المعرضين عن الحق، المتبعين للباطل، يتركون ما أنزله الله على

(١) جامع البيان، الطبري ٨/ ٥٠٧.

رسوله من الحق المبين، ويتبعون أقوال رءوس الضلالة، الدعاة إلى البدع بالأهواء والآراء؛ ولهذا قال في شأنهم وأشباههم: ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يُجَٰدِلُ فِى ٱللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ﴾ أي: علم صحيح ﴿وَيَتَّبِعُ كُلَّ شَيْطَٰنٍ مَّرِيدٍ ۝٣ كُتِبَ عَلَيْهِ﴾ قال مجاهد: يعني الشيطان، كتب عليه كتابة قدرية ﴿أَنَّهُۥ مَن تَوَلَّاهُ﴾ أي: اتبعه وقلده ﴿فَأَنَّهُۥ يُضِلُّهُۥ وَيَهْدِيهِ إِلَىٰ عَذَابِ ٱلسَّعِيرِ﴾ أي: يضله في الدنيا، ويقوده في الآخرة إلى عذاب السعير، وهو الحار المؤلم المزعج المقلق»[1].

بل إن الشيطان قد يعيد الإنسان إلى الضلال والكفر مرة أخرى، بعد أن تبين له طريق الحق والهدى والرشاد، ويزين هذا الباطل لأتباعه، كما قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ٱرْتَدُّوا۟ عَلَىٰٓ أَدْبَٰرِهِم مِّنۢ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ ٱلْهُدَى ٱلشَّيْطَٰنُ سَوَّلَ لَهُمْ وَأَمْلَىٰ لَهُمْ﴾ [محمد: ٢٥].

قال الطبري: «إن الذين رجعوا القهقرى على أعقابهم كفارًا بالله من بعد ما تبين لهم الحق وقصد السبيل، فعرفوا واضح الحجة، ثم آثروا الضلال على الهدى عنادًا لأمر الله تعالى؛ الشيطان زين لهم ارتدادهم على أدبارهم، من بعد ما تبين لهم الهدى»[2].

يوقع أتباعه في الفواحش والموبقات، والبدع والمنكرات، ويصدهم عن ذكر الله وعن الصلاة.

كما قال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِنَّمَا ٱلْخَمْرُ وَٱلْمَيْسِرُ وَٱلْأَنصَابُ وَٱلْأَزْلَٰمُ رِجْسٌ مِّنْ عَمَلِ ٱلشَّيْطَٰنِ فَٱجْتَنِبُوهُ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ۝٩٠ إِنَّمَا يُرِيدُ ٱلشَّيْطَٰنُ أَن يُوقِعَ بَيْنَكُمُ ٱلْعَدَٰوَةَ وَٱلْبَغْضَآءَ فِى ٱلْخَمْرِ وَٱلْمَيْسِرِ وَيَصُدَّكُمْ عَن ذِكْرِ ٱللَّهِ وَعَنِ ٱلصَّلَوٰةِ ۖ فَهَلْ أَنتُم مُّنتَهُونَ﴾ [المائدة: ٩٠-٩١].

قال الطبري: «أي: إن شربكم الخمر، وقماركم على الجزر، وذبحكم للأنصاب، واستقسامكم بالأزلام، إثم ونتنٌ من تزيين الشيطان لكم، ودعائه إياكم إليه، وتحسينه لكم، لا من الأعمال التي ندبكم إليها ربكم، ولا مما يرضاه لكم، بل هو مما يسخطه لكم»[3].

وقال أيضًا: «إنما يريد لكم الشيطان شرب الخمر والمياسرة بالقداح، ويحسن ذلك لكم، إرادةً منه أن يوقع بينكم العداوة والبغضاء في شربكم الخمر، ومياسرتكم بالقداح؛ ليعادي بعضكم بعضًا، ويبغض بعضكم إلى بعض، فيشتت أمركم بعد تأليف الله بينكم بالإيمان، وجمعه بينكم بأخوة الإسلام، ويصرفكم بغلبة هذه الخمر بسكرها إياكم عليكم، وباشتغالكم بهذا الميسر، عن ذكر الله الذي به صلاح دنياكم وآخرتكم، وعن الصلاة التي فرضها عليكم ربكم»[4].

(١) تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ٥/ ٣٩٤.
(٢) جامع البيان، الطبري ٢٢/ ١٨٠-١٨١ بتصرف يسير.
(٣) المصدر السابق ١٠/ ٥٦٤.
(٤) المصدر السابق ١٠/ ٥٦٥.

وقال تعالى: ﴿وَلَا تَتَّبِعُوا خُطُوَاتِ الشَّيْطَانِ إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُبِينٌ ﴿١٦٨﴾ إِنَّمَا يَأْمُرُكُمْ بِالسُّوءِ وَالْفَحْشَاءِ وَأَنْ تَقُولُوا عَلَى اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾ [البقرة: ١٦٨-١٦٩].

قال ابن كثير: «أي: إنما يأمركم عدوكم الشيطان بالأفعال السيئة، وأغلظ منها الفاحشة كالزنا ونحوه، وأغلظ من ذلك وهو القول على الله بلا علم، فيدخل في هذا كل كافر، وكل مبتدع أيضًا»[١].

ومثل هذا المعنى يتأكد في قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّبِعُوا خُطُوَاتِ الشَّيْطَانِ وَمَنْ يَتَّبِعْ خُطُوَاتِ الشَّيْطَانِ فَإِنَّهُ يَأْمُرُ بِالْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ﴾ [النور: ٢١].

وقوله تعالى: ﴿الشَّيْطَانُ يَعِدُكُمُ الْفَقْرَ وَيَأْمُرُكُمْ بِالْفَحْشَاءِ﴾ [البقرة: ٢٦٨].

قال الطبري: «الشيطان يعدكم أيها الناس بأدائكم الصدقة والزكاة الواجبة عليكم في أموالكم أن تفتقروا، ويأمركم بالفحشاء، يعني: ويأمركم بمعاصي الله عز وجل، وترك طاعته»[٢].

وقال تعالى: ﴿اسْتَحْوَذَ عَلَيْهِمُ الشَّيْطَانُ فَأَنْسَاهُمْ ذِكْرَ اللَّهِ أُولَئِكَ حِزْبُ الشَّيْطَانِ أَلَا إِنَّ حِزْبَ الشَّيْطَانِ هُمُ الْخَاسِرُونَ﴾ [المجادلة: ١٩].

قال القرطبي: «أي: غلب الشيطان واستعلى عليهم بوسوسته في الدنيا، وقيل: قوي عليهم ﴿فَأَنْسَاهُمْ ذِكْرَ اللَّهِ﴾ والنسيان قد يكون بمعنى الغفلة، ويكون بمعنى الترك، والوجهان محتملان هنا ﴿أُولَئِكَ حِزْبُ الشَّيْطَانِ﴾ أي: طائفته ورهطه ﴿أَلَا إِنَّ حِزْبَ الشَّيْطَانِ هُمُ الْخَاسِرُونَ﴾ في بيعهم؛ لأنهم باعوا الجنة بجهنم، وباعوا الهدى بالضلالة»[٣].

* **يوقع العداوة بين المسلمين، ويثير الفتن والشكوك والحروب والنزاعات بينهم.**

قال تعالى: ﴿وَقُلْ لِعِبَادِي يَقُولُوا الَّتِي هِيَ أَحْسَنُ إِنَّ الشَّيْطَانَ يَنْزَغُ بَيْنَهُمْ إِنَّ الشَّيْطَانَ كَانَ لِلْإِنْسَانِ عَدُوًّا مُبِينًا﴾ [الإسراء: ٥٣].

قال الطبري: «أي: قل -يا محمد- لعبادي يقل بعضهم لبعض التي هي أحسن من المحاورة والمخاطبة، فإن الشيطان يسوء محاورة بعضهم بعضًا، ينزغ بينهم، يفسد بينهم، يهيج بينهم الشر، فإن الشيطان كان لآدم وذريته عدوًا، قد أبان لهم عداوته بما أظهر لآدم من الحسد، وغروره إياه حتى أخرجه من الجنة»[٤].

وهذا المعنى فطن إليه نبي الله يعقوب عليه السلام، فخشي على أبنائه من الشيطان أن يوقعهم في البغض والعداوة بينهم وبين يوسف؛ ولذا نصحه ألا يقص رؤياه الطيبة عليهم، فقال له: ﴿يَا بُنَيَّ لَا تَقْصُصْ رُؤْيَاكَ عَلَى إِخْوَتِكَ فَيَكِيدُوا لَكَ كَيْدًا إِنَّ الشَّيْطَانَ لِلْإِنْسَانِ

(١) تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ١/ ٤٧٩.
(٢) جامع البيان، الطبري ٥/ ٥٧١.
(٣) الجامع لأحكام القرآن، القرطبي ١٧/ ٣٠٦.
(٤) جامع البيان، الطبري ١٧/ ٤٦٩ بتصرف يسير.

عَدُوٌّ مُّبِينٌ﴾ [يوسف: ٥].

قال الطبري: «يقول يعقوب عليه السلام لابنه يوسف: يا بني لا تقصص رؤياك هذه على إخوتك، فيحسدوك ويبغوك الغوائل، ويناصبوك العداوة، ويطيعوا فيك الشيطان؛ فإن الشيطان لآدم وبنيه عدو، قد أبان لهم عداوته وأظهرها، فاحذر الشيطان أن يغري إخوتك بك بالحسد منهم لك، إن أنت قصصت عليهم رؤياك»[(١)].

ولهذا المعنى أيضًا نهى الله سبحانه وتعالى المؤمنين عن التناجي بالإثم والعدوان، وأن النجوى من فعل الشيطان ليدخل الحزن على بعض المؤمنين؛ فقال تعالى: ﴿إِنَّمَا ٱلنَّجْوَىٰ مِنَ ٱلشَّيْطَٰنِ لِيَحْزُنَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَلَيْسَ بِضَآرِّهِمْ شَيْـًٔا إِلَّا بِإِذْنِ ٱللَّهِ ۚ وَعَلَى ٱللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ ٱلْمُؤْمِنُونَ﴾ [المجادلة: ١٠].

أي: إنما النجوى -وهي المسارة- حيث يتوهم مؤمن بها سوءًا من تسويل الشيطان وتزيينه ﴿لِيَحْزُنَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟﴾ أي: ليسوءهم، وليس ذلك بضارهم شيئًا إلا بإذن الله، ومن أحس من ذلك شيئًا فليتوكل على الله، ويفوض جميع شئونه إلى عونه، ويستعيذ به من الشيطان ومن كل شر، فهو الذي سلط الشيطان بالوساوس ابتلاء للعبد وامتحانًا ولو شاء لصرفه عنه[(٢)].

ولهذا وردت السنة بالنهي عن التناجي، حيث يكون في ذلك تأذٍ على مؤمن، فقال صلى الله عليه وسلم: (إذا كنتم ثلاثة فلا يتناجى اثنان دون الآخر، حتى تختلطوا بالناس، من أجل أن يحزنه)[(٣)].

قال القرطبي: «أي: يقع في نفسه ما يحزن لأجله؛ وذلك بأن يقدر في نفسه أن الحديث عنه بما يكره، أو أنه لم يروه أهلًا ليشركوه في حديثهم، إلى غير ذلك من ألقيات الشيطان، وأحاديث النفس»[(٤)].

وهذه الخصومات والمشاحنات هو ما يسعى إليه إبليس بين المسلمين لإفساد العلاقات بينهم.

وقد قال صلى الله عليه وسلم: (إن الشيطان قد أيس أن يعبده المصلون في جزيرة العرب، ولكن في التحريش بينهم)[(٥)].

أي: الإيقاع بينهم بالخصومات والشحناء والحروب والفتن ونحوها.

---

(١) المصدر السابق ١٥/ ٥٥٨ بتصرف يسير.
(٢) انظر: الجامع لأحكام القرآن، القرطبي ١٧/ ٢٩٥، تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ٨/ ٤٤.
(٣) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب الاستئذان، باب إذا كانوا أكثر من ثلاثة فلا بأس بالمسارة والمناجاة، ٨/ ٦٥، رقم ٦٢٩٠، ومسلم في صحيحه، كتاب الآداب، باب تحريم مناجاة الاثنين دون الثالث بغير رضاه، ٤/ ١٧١٨، رقم ٢١٨٤.
(٤) الجامع لأحكام القرآن، القرطبي ١٧/ ٢٩٥.
(٥) أخرجه مسلم في صحيحه، كتاب صفة القيامة والجنة والنار، باب تحريش الشيطان وبعثه سراياه لفتنة الناس، ٤/ ٢١٦٦، رقم ٢٨١٢.

وأما في الآخرة:

فعاقبة اتباعه: الخسران المبين، والعذاب الأليم، ودخول جهنم وبئس المصير.

قال تعالى: ﴿وَمَن يَتَّخِذِ ٱلشَّيْطَٰنَ وَلِيًّا مِّن دُونِ ٱللَّهِ فَقَدْ خَسِرَ خُسْرَانًا مُّبِينًا ﴿١١٩﴾ يَعِدُهُمْ وَيُمَنِّيهِمْ ۖ وَمَا يَعِدُهُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ إِلَّا غُرُورًا ﴿١٢٠﴾ أُو۟لَٰٓئِكَ مَأْوَىٰهُمْ جَهَنَّمُ وَلَا يَجِدُونَ عَنْهَا مَحِيصًا﴾ [النساء: ١١٩-١٢١].

قال الطبري: «ومن يتبع الشيطان فيطيعه في معصية الله وخلاف أمره، ويواليه فيتخذه وليًا لنفسه ونصيرًا من دون الله: فقد هلك هلاكًا، وبخس نفسه حظها فأوبقها بخسًا مبينًا، يبين عن عطبه وهلاكه؛ لأن الشيطان لا يملك له نصرًا من الله إذا عاقبه على معصيته إياه في خلافه أمره، بل يخذله عند حاجته إليه، وإنما حاله معه ما دام حيًا ممهلًا بالعقوبة، كما وصفه الله جل ثناؤه بقوله: ﴿يَعِدُهُمْ وَيُمَنِّيهِمْ ۖ وَمَا يَعِدُهُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ إِلَّا غُرُورًا﴾ أي: يعد الشيطان المريد أولياءه أن يكون لهم نصيرًا ممن أرادهم بسوء، وظهيرًا لهم عليه، يمنعهم منه، ويدافع عنهم، ويمنيهم الظفر على من حاول مكروههم، والفلج عليهم[1]، وما يعد الشيطان أولياءه الذين اتخذوه وليًا من دون الله ﴿إِلَّا غُرُورًا﴾ يعني: إلا باطلًا.

فهؤلاء الذين اتخذوا الشيطان وليًا من دون الله مصيرهم الذين يصيرون إليه جهنم ﴿وَلَا يَجِدُونَ عَنْهَا مَحِيصًا﴾ أي: لا يجدون عن جهنم -إذا صيرهم الله إليها يوم القيامة- معدلًا يعدلون إليه»[2].

وقال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلشَّيْطَٰنَ لَكُمْ عَدُوٌّ فَٱتَّخِذُوهُ عَدُوًّا ۚ إِنَّمَا يَدْعُوا۟ حِزْبَهُۥ لِيَكُونُوا۟ مِنْ أَصْحَٰبِ ٱلسَّعِيرِ﴾ [فاطر: ٦].

قال الطبري: «يقول تعالى ذكره: ﴿إِنَّ ٱلشَّيْطَٰنَ﴾ الذي نهيتكم أيها الناس أن تغتروا بغروره إياكم بالله ﴿لَكُمْ عَدُوٌّ فَٱتَّخِذُوهُ عَدُوًّا﴾ يقول: فأنزلوه من أنفسكم منزلة العدو منكم، واحذروه بطاعة الله، واستغشاكم إياه حذركم من عدوكم الذي تخافون غائلته على أنفسكم، فلا تطيعوه، ولا تتبعوا خطواته، فإنه إنما يدعو حزبه، يعني: شيعته ومن أطاعه، إلى طاعته والقبول منه، والكفر بالله ﴿لِيَكُونُوا۟ مِنْ أَصْحَٰبِ ٱلسَّعِيرِ﴾ يقول: ليكونوا من المخلدين في نار جهنم التي تتوقد على أهلها»[3].

وقال تعالى: ﴿كَمَثَلِ ٱلشَّيْطَٰنِ إِذْ قَالَ لِلْإِنسَٰنِ ٱكْفُرْ فَلَمَّا كَفَرَ قَالَ إِنِّى بَرِىٓءٌ مِّنكَ إِنِّىٓ أَخَافُ ٱللَّهَ رَبَّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٦﴾ فَكَانَ

(١) الفلج: بفتحتين، الظفر والفوز والعلو على الخصم، يقال: فلج الرجل على خصمه وأفلج إذا ظهر عليه.
انظر: جمهرة اللغة، ابن دريد ١/ ٤٨٧.

(٢) جامع البيان، الطبري ٩/ ٢٢٤-٢٢٦ بتصرف.

(٣) المصدر السابق ٢٠/ ٤٣٩-٤٤٠.

﴿عَٰقِبَتَهُمَآ أَنَّهُمَا فِى ٱلنَّارِ خَٰلِدَيْنِ فِيهَا ۚ وَذَٰلِكَ جَزَٰٓؤُا۟ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ [الحشر: ١٦-١٧].

قال الطبري: «فكان عقبى أمر الشيطان والإنسان الذي أطاعه فكفر بالله أنهما خالدان في النار، ماكثان فيها أبدًا ﴿وَذَٰلِكَ جَزَٰٓؤُا۟ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ يقول: وذلك ثواب اليهود من النضير والمنافقين الذين وعدوهم النصرة، وكل كافر بالله ظالم لنفسه على كفره به؛ أنهم في النار مخلدون»[1].

وتزداد حسرة أتباع الشيطان حينما يجتمعون به في الآخرة في جهنم، فيقوم خطيبًا فيهم، كما أخبر الله عز وجل في كتابه: ﴿وَقَالَ ٱلشَّيْطَٰنُ لَمَّا قُضِىَ ٱلْأَمْرُ إِنَّ ٱللَّهَ وَعَدَكُمْ وَعْدَ ٱلْحَقِّ وَوَعَدتُّكُمْ فَأَخْلَفْتُكُمْ ۖ وَمَا كَانَ لِىَ عَلَيْكُم مِّن سُلْطَٰنٍ إِلَّآ أَن دَعَوْتُكُمْ فَٱسْتَجَبْتُمْ لِى ۖ فَلَا تَلُومُونِى وَلُومُوٓا۟ أَنفُسَكُم ۖ مَّآ أَنَا۠ بِمُصْرِخِكُمْ وَمَآ أَنتُم بِمُصْرِخِىَّ ۖ إِنِّى كَفَرْتُ بِمَآ أَشْرَكْتُمُونِ مِن قَبْلُ ۗ إِنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ [إبراهيم: ٢٢].

قال ابن كثير: «بعدما قضى الله بين عباده، فأدخل المؤمنين الجنات، وأسكن الكافرين الدركات، قام فيهم إبليس -لعنه الله- حينئذٍ خطيبًا ليزيدهم حزنًا إلى حزنهم، وغبنًا إلى غبنهم، وحسرة إلى حسرتهم، فقال: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ وَعَدَكُمْ وَعْدَ ٱلْحَقِّ﴾ أي: على ألسنة رسله، ووعدكم في اتباعهم النجاة والسلامة، وكان وعدًا حقًّا، وخبرًا صدقًا، وأما أنا فوعدتكم وأخلفتكم ﴿وَمَا كَانَ لِىَ عَلَيْكُم مِّن سُلْطَٰنٍ﴾ أي: ما كان لي عليكم فيما دعوتكم إليه من دليل ولا حجة على صدق ما وعدتكم به ﴿إِلَّآ أَن دَعَوْتُكُمْ فَٱسْتَجَبْتُمْ لِى﴾ بمجرد ذلك، هذا وقد أقامت عليكم الرسل الحجج والأدلة الصحيحة على صدق ما جاؤوكم به، فخالفتموهم فصرتم إلى ما أنتم فيه ﴿فَلَا تَلُومُونِى﴾ اليوم ﴿وَلُومُوٓا۟ أَنفُسَكُم﴾ فإن الذنب لكم، لكونكم خالفتم الحجج، واتبعتموني بمجرد ما دعوتكم إلى الباطل ﴿مَّآ أَنَا۠ بِمُصْرِخِكُمْ﴾ أي: بنافعكم ومنقذكم ومخلصكم مما أنتم فيه ﴿وَمَآ أَنتُم بِمُصْرِخِىَّ﴾ أي: بنافعي بإنقاذي مما أنا فيه من العذاب والنكال ﴿إِنِّى كَفَرْتُ بِمَآ أَشْرَكْتُمُونِ مِن قَبْلُ﴾.

قال قتادة: أي بسبب ما أشركتمون من قبل، وقال ابن جرير: يقول: إني جحدت أن أكون شريكًا لله عز وجل.

وهذا الذي قال هو الراجح، كما قال تعالى: ﴿وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّن يَدْعُوا۟ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَن لَّا يَسْتَجِيبُ لَهُۥٓ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ وَهُمْ عَن دُعَآئِهِمْ غَٰفِلُونَ ۝ وَإِذَا حُشِرَ ٱلنَّاسُ كَانُوا۟ لَهُمْ أَعْدَآءً وَكَانُوا۟ بِعِبَادَتِهِمْ كَٰفِرِينَ﴾ [الأحقاف: ٥-٦].

وقال: ﴿سَيَكْفُرُونَ بِعِبَادَتِهِمْ وَيَكُونُونَ

(١) المصدر السابق ٢٣/ ٢٩٧.

﴿عَلَيۡهِمۡ ضِدًّا﴾ [مريم: ٨٢].

وقوله: ﴿إِنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ أي: في إعراضهم عن الحق واتباعهم الباطل ﴿لَهُمۡ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾»[1].

ثالثًا: عاقبة طاعة الأتباع للمتبوعين:

أهل الباطل والضلال في تلك الحياة ينقادون لمن يماثلهم، ويطاوعون من يشابههم، ويظاهرهم على باطلهم ومعصيتهم، وقد سجل الله عز وجل ذلك عنهم في كتابه؛ فقال تعالى: ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمۡ قَالُواْ لِلَّذِينَ كَرِهُواْ مَا نَزَّلَ ٱللَّهُ سَنُطِيعُكُمۡ فِي بَعۡضِ ٱلۡأَمۡرِۖ وَٱللَّهُ يَعۡلَمُ إِسۡرَارَهُمۡ﴾ [محمد: ٢٦].

قال القرطبي: «إن المنافقين واليهود قالوا: ﴿لِلَّذِينَ كَرِهُواْ مَا نَزَّلَ ٱللَّهُ﴾ وهم مشركون ﴿سَنُطِيعُكُمۡ فِي بَعۡضِ ٱلۡأَمۡرِ﴾ أي: في مخالفة محمد، والتظاهر على عداوته، والقعود عن الجهاد معه، وتوهين أمره في السر، وهم إنما قالوا ذلك سرًا، فأخبر الله نبيه»[2].

وقد يكون تظاهرهم مع إخوانهم من أهل الباطل بالقول فقط، ويتخلفون حال الفعل؛ لما في قلوبهم من جبن وخوف ومحبة للدنيا، وليس محبة أو طاعة لله ورسوله، كما قال تعالى: ﴿أَلَمۡ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ نَافَقُواْ يَقُولُونَ لِإِخۡوَٰنِهِمُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِنۡ أَهۡلِ ٱلۡكِتَٰبِ لَئِنۡ أُخۡرِجۡتُمۡ لَنَخۡرُجَنَّ مَعَكُمۡ وَلَا نُطِيعُ فِيكُمۡ أَحَدًا أَبَدًا وَإِن قُوتِلۡتُمۡ لَنَنصُرَنَّكُمۡ وَٱللَّهُ يَشۡهَدُ إِنَّهُمۡ لَكَٰذِبُونَ﴾ [الحشر: ١١].

قال الطبري: «يقول تعالى ذكره لنبيه محمد صلى الله عليه وسلم: ألم تنظر بعين قلبك يا محمد، فترى إلى الذين نافقوا بعثوا إلى بني النضير حين نزل بهم رسول الله صلى الله عليه وسلم للحرب أن اثبتوا وتمنعوا، فإنا لن نسلمكم، ولئن أخرجتم من دياركم ومنازلكم، وأجليتم عنها لنخرجن معكم، فنجلى عن منازلنا وديارنا معكم، ولا نطيع أحدًا سألنا خذلانكم، وترك نصرتكم، ولكنا نكون معكم، وإن قاتلكم محمد صلى الله عليه وسلم ومن معه لننصرنكم معشر النضير عليهم.

والله يشهد إن هؤلاء المنافقين الذين وعدوا بني النضير النصرة على محمد صلى الله عليه وسلم لكاذبون في وعدهم إياهم ما وعدوهم من ذلك»[3].

وهذا الصنف من الناس -السابق ذكره- له عقل يميز به، ورأي ينفرد به؛ وليس له سيد أو كبير يقوده، بل قد يكون هو قائدًا لمن وراءه.

---

(١) تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ٤/ ٤٨٩- ٤٩٠ بتصرف يسير.

(٢) الجامع لأحكام القرآن، القرطبي ١٦/ ٢٥٠.

(٣) جامع البيان، الطبري ٢٣/ ٢٩٠-٢٩١ بتصرف.

وهناك صنف آخر من الناس في تلك الحياة أبى إلا أن يعيش متبوعًا، يترك عقله وناصيته بيد غيره، يحركه كيفما شاء، ويوجهه أينما أراد، ويا ليته فعل ذلك مع أقوام مهتدين راشدين، يأخذون بيده لطريق الحق والنجاة لكانت العاقبة أنفع له وأنجح، لكنه فعل ذلك مع أقوام ظالمين ضالين، ضلوا وأضلوا؛ فكانت عاقبة اتباعهم الخسران، والعذاب الأليم.

وتزداد حسرة هؤلاء المتبعين حينما يجتمعون بأسيادهم وكبرائهم في النار، فيرون أنهم لا يغنون عنهم من عذاب الله شيئًا، بل يرون من اتبعوهم يتبرؤون منهم، وعندها: يعضون أصابع الندم على ما قدموه في حياتهم من ولاء وطاعة لهم، ويودون أن لو عادوا إلى الدنيا ليتبرؤوا من كبرائهم كما تبرؤوا منهم في الآخرة، وحينما ييأسون من هذه الأماني؛ يتوجهون إلى الله بالدعاء أن يضاعف العذاب لمن كانوا سببًا في غوايتهم وضلالهم.

هذه المواقف والمشاعر نقلها لنا القرآن الكريم في غير موضع وآية، كما في قوله تعالى: ﴿وَلَوْ يَرَى الَّذِينَ ظَلَمُوا إِذْ يَرَوْنَ الْعَذَابَ أَنَّ الْقُوَّةَ لِلَّهِ جَمِيعًا وَأَنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعَذَابِ (١٦٥) إِذْ تَبَرَّأَ الَّذِينَ اتُّبِعُوا مِنَ الَّذِينَ اتَّبَعُوا وَرَأَوُا الْعَذَابَ وَتَقَطَّعَتْ بِهِمُ الْأَسْبَابُ (١٦٦) وَقَالَ الَّذِينَ اتَّبَعُوا لَوْ أَنَّ لَنَا كَرَّةً فَنَتَبَرَّأَ مِنْهُمْ كَمَا تَبَرَّءُوا مِنَّا كَذَلِكَ يُرِيهِمُ اللَّهُ أَعْمَالَهُمْ حَسَرَاتٍ عَلَيْهِمْ وَمَا هُمْ بِخَارِجِينَ مِنَ النَّارِ﴾ [البقرة: ١٦٥-١٦٧].

قال القرطبي: «يعني: السادة والرؤساء تبرؤوا ممن اتبعهم على الكفر، وقال طائفة: هم الشياطين المضلون تبرؤوا من الإنس، وقيل: هو عام في كل متبوع ﴿وَرَأَوُا الْعَذَابَ﴾ يعني التابعين والمتبوعين، قيل: بتيقنهم له عند المعاينة في الدنيا، وقيل: عند العرض والمسألة في الآخرة، قلت: كلاهما حاصل، فهم يعاينون عند الموت ما يصيرون إليه من الهوان، وفي الآخرة يذوقون أليم العذاب والنكال ﴿وَتَقَطَّعَتْ بِهِمُ الْأَسْبَابُ﴾ أي: الوصلات التي كانوا يتواصلون بها في الدنيا من رحم وغيره.

﴿وَقَالَ الَّذِينَ اتَّبَعُوا لَوْ أَنَّ لَنَا كَرَّةً﴾ أي: قال الأتباع: لو رددنا إلى الدنيا حتى نعمل صالحًا، ونتبرأ منهم ﴿كَمَا تَبَرَّءُوا مِنَّا﴾ والتبرؤ الانفصال ﴿كَذَلِكَ يُرِيهِمُ اللَّهُ أَعْمَالَهُمْ حَسَرَاتٍ عَلَيْهِمْ﴾ أي: كما أراهم الله العذاب كذلك يريهم الله أعمالهم ﴿حَسَرَاتٍ﴾ والحسرة: أعلا درجات الندامة على شيء فائت ﴿وَمَا هُمْ بِخَارِجِينَ مِنَ النَّارِ﴾ دليل على خلود الكفار فيها، وأنهم لا يخرجون منها»[1].

(١) الجامع لأحكام القرآن، القرطبي ٢/ ٢٠٦ بتصرف.

وقال تعالى: ﴿وَبَرَزُوا لِلَّهِ جَمِيعًا فَقَالَ الضُّعَفَاءُ لِلَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا إِنَّا كُنَّا لَكُمْ تَبَعًا فَهَلْ أَنْتُمْ مُغْنُونَ عَنَّا مِنْ عَذَابِ اللَّهِ مِنْ شَيْءٍ قَالُوا لَوْ هَدَانَا اللَّهُ لَهَدَيْنَاكُمْ سَوَاءٌ عَلَيْنَا أَجَزِعْنَا أَمْ صَبَرْنَا مَا لَنَا مِنْ مَحِيصٍ﴾ [إبراهيم: ٢١].

قال الطبري: «وظهر هؤلاء الذين كفروا بالله يوم القيامة من قبورهم، فصاروا بالبراز من الأرض ﴿جَمِيعًا﴾ يعني كلهم، ﴿فَقَالَ الضُّعَفَاءُ لِلَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا﴾ أي: فقال التباع منهم للمتبوعين، وهم الذين كانوا يستكبرون في الدنيا عن إخلاص العبادة لله، واتباع الرسل الذين أرسلوا إليهم ﴿إِنَّا كُنَّا لَكُمْ تَبَعًا﴾ أي: أنهم كانوا أتباعهم في الدنيا يأتمرون لما يأمرونهم به من عبادة الأوثان، والكفر بالله، وينتهون عما نهوهم عنه من اتباع رسل الله ﴿فَهَلْ أَنْتُمْ مُغْنُونَ عَنَّا مِنْ عَذَابِ اللَّهِ مِنْ شَيْءٍ﴾ يعنون: فهل أنتم دافعون عنا اليوم من عذاب الله من شيء؟

فقالت القادة على الكفر بالله لتباعها: ﴿لَوْ هَدَانَا اللَّهُ﴾ أي: لو بين الله لنا شيئًا ندفع به عذابه عنا اليوم؛ ﴿لَهَدَيْنَاكُمْ﴾ أي: لبينا ذلك لكم حتى تدفعوا العذاب عن أنفسكم؛ ولكنا قد جزعنا من العذاب، فلم ينفعنا جزعنا منه وصبرنا عليه ﴿سَوَاءٌ عَلَيْنَا أَجَزِعْنَا أَمْ صَبَرْنَا مَا لَنَا مِنْ مَحِيصٍ﴾ أي: ما لهم من مراغ يروغون عنه»[(١)].

وقال تعالى: ﴿يَوْمَ تُقَلَّبُ وُجُوهُهُمْ فِي النَّارِ يَقُولُونَ يَا لَيْتَنَا أَطَعْنَا اللَّهَ وَأَطَعْنَا الرَّسُولَا ۝٦٦ وَقَالُوا رَبَّنَا إِنَّا أَطَعْنَا سَادَتَنَا وَكُبَرَاءَنَا فَأَضَلُّونَا السَّبِيلَا ۝٦٧ رَبَّنَا آتِهِمْ ضِعْفَيْنِ مِنَ الْعَذَابِ وَالْعَنْهُمْ لَعْنًا كَبِيرًا﴾ [الأحزاب: ٦٦-٦٨].

قال ابن كثير: «يوم يسحب الكافرون في النار على وجوههم، وتلوى وجوههم على جهنم، يقولون وهم كذلك، يتمنون أن لو كانوا في الدار الدنيا ممن أطاع الله، وأطاع الرسول، كما أخبر الله عنهم في حال العرصات بقوله: ﴿وَيَوْمَ يَعَضُّ الظَّالِمُ عَلَى يَدَيْهِ يَقُولُ يَا لَيْتَنِي اتَّخَذْتُ مَعَ الرَّسُولِ سَبِيلًا ۝٢٧ يَا وَيْلَتَى لَيْتَنِي لَمْ أَتَّخِذْ فُلَانًا خَلِيلًا ۝٢٨ لَقَدْ أَضَلَّنِي عَنِ الذِّكْرِ بَعْدَ إِذْ جَاءَنِي وَكَانَ الشَّيْطَانُ لِلْإِنْسَانِ خَذُولًا﴾ [الفرقان: ٢٧-٢٩].

وقال تعالى: ﴿رُبَمَا يَوَدُّ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْ كَانُوا مُسْلِمِينَ﴾[الحجر: ٢].

وهكذا أخبر عنهم في حالتهم هذه أنهم يودون أن لو كانوا أطاعوا الله، وأطاعوا الرسول في الدنيا.

﴿وَقَالُوا رَبَّنَا إِنَّا أَطَعْنَا سَادَتَنَا وَكُبَرَاءَنَا فَأَضَلُّونَا السَّبِيلَا﴾ أي: اتبعنا السادة، وهم الأمراء والكبراء من المشيخة، وخالفنا

(١) جامع البيان، الطبري ١٦/ ٥٥٧-٥٥٨ بتصرف يسير.

الرسل، واعتقدنا أن عندهم شيئًا، وأنهم على شيء، فإذا هم ليسوا على شيء ﴿رَبَّنَآ ءَاتِهِمۡ ضِعۡفَيۡنِ مِنَ ٱلۡعَذَابِ﴾ أي: بكفرهم وإغوائهم إيانا ﴿وَٱلۡعَنۡهُمۡ لَعۡنٗا كَبِيرٗا﴾»[1].

وقال ابن عاشور: «والمعنى: يوم تقلب ملائكة العذاب وجوههم في النار بغير اختيار منهم، أو يجعل الله ذلك التقلب في وجوههم لتنال النار جميع الوجه، كما يقلب الشواء على المشوى لينضج على سواء، ولو كان لفح النار مقتصرًا على أحد جانبي الوجه لكان للجانب الآخر بعض الراحة.

وحرف «يا» في قوله: ﴿يَٰلَيۡتَنَآ﴾ للتنبيه لقصد إسماع من يرثى لحالهم، مثل ﴿يَٰحَسۡرَتَنَا﴾ [الأنعام: ٣١].

والتمني هنا كناية عن التندم على ما فات، وكذلك نحو: يا حسرتنا، أي: أن الحسرة غير مجدية، وقد علموا يومئذٍ أن ما كان يأمرهم به النبي صلى الله عليه وسلم هو تبليغ عن مراد الله منهم، وأنهم إذ عصوه فقد عصوا الله تعالى، فتمنوا يومئذٍ أن لا يكونوا عصوا الرسول المبلغ عن الله تعالى.

وقال تعالى: ﴿وَقَالُواْ رَبَّنَآ إِنَّآ أَطَعۡنَا سَادَتَنَا وَكُبَرَآءَنَا فَأَضَلُّونَا ٱلسَّبِيلَا۠ ٦٧ رَبَّنَآ ءَاتِهِمۡ ضِعۡفَيۡنِ مِنَ ٱلۡعَذَابِ وَٱلۡعَنۡهُمۡ لَعۡنٗا كَبِيرٗا﴾ [الأحزاب: ٦٧-٦٨].

جيء بهذه الجملة في صيغة الماضي؛ لأن هذا القول كان متقدمًا على قولهم: ﴿يَٰلَيۡتَنَآ أَطَعۡنَا ٱللَّهَ وَأَطَعۡنَا ٱلرَّسُولَا۠﴾ فذلك التمني نشأ لهم وقت أن مسهم العذاب، وهذا التنصل والدعاء اعتذروا به حين مشاهدة العذاب، وحشرهم مع رؤسائهم إلى جهنم.

قال تعالى: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا ٱدَّارَكُواْ فِيهَا جَمِيعٗا قَالَتۡ أُخۡرَىٰهُمۡ لِأُولَىٰهُمۡ رَبَّنَا هَٰٓؤُلَآءِ أَضَلُّونَا فَـَٔاتِهِمۡ عَذَابٗا ضِعۡفٗا مِّنَ ٱلنَّارِۖ قَالَ لِكُلّٖ ضِعۡفٞ وَلَٰكِن لَّا تَعۡلَمُونَ﴾ [الأعراف: ٣٨].

فدل على أن ذلك قبل أن يمسهم العذاب، بل حين رصفوا ونسقوا قبل أن يصب عليهم العذاب، ويطلق إليهم حر النار.

والسادة: عظماء القوم والقبائل مثل الملوك، والكبراء: جمع كبير، وهو عظيم العشيرة، وهم دون السادة؛ ولذلك قوبل قولهم: ﴿يَٰلَيۡتَنَآ أَطَعۡنَا ٱللَّهَ وَأَطَعۡنَا ٱلرَّسُولَا۠﴾ بقولهم: ﴿أَطَعۡنَا سَادَتَنَا وَكُبَرَآءَنَا﴾.

وجملة ﴿إِنَّآ أَطَعۡنَا سَادَتَنَا وَكُبَرَآءَنَا﴾ خبر مستعمل في الشكاية والتذمر، وهو تمهيد لطلب الانتصاف من سادتهم وكبرائهم، فالمقصود الإفضاء إلى جملة ﴿رَبَّنَآ ءَاتِهِمۡ ضِعۡفَيۡنِ مِنَ ٱلۡعَذَابِ﴾ ومقصود من هذا الخبر أيضًا الاعتذار والتنصل من تبعة ضلالهم بأنهم مغرورون مخدوعون، وهذا الاعتذار مردود عليهم بما أنطقهم الله به

(١) تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ٦/ ٤٨٣-٤٨٤ بتصرف يسير.

من الحقيقة؛ إذ قالوا: ﴿إِنَّآ أَطَعۡنَا سَادَتَنَا وَكُبَرَآءَنَا﴾.

فيتجه عليهم أن يقال لهم: لماذا أطعتموهم حتى يغروكم؟! وهذا شأن الدهماء أن يسودوا عليهم من يعجبون بأضغاث أحلامه، ويغرون بمعسول كلامه، ويسيرون على وقع أقدامه، حتى إذا اجتنوا ثمار أكمامه، وذاقوا مرارة طعمه، وحرارة أوامه[1]، عادوا عليه باللائمة، وهم الأحقاء بملامه.

وتقديم قولهم: ﴿إِنَّآ أَطَعۡنَا سَادَتَنَا وَكُبَرَآءَنَا﴾ اهتمام بما فيه من تعليل لمضمون قولهم: ﴿فَأَضَلُّونَا ٱلسَّبِيلَا﴾ لأن كبراءهم ما تأتى لهم إضلالهم إلا بتسبب طاعتهم العمياء إياهم، واشتغالهم بطاعتهم عن النظر والاستدلال فيما يدعونهم إليه من فساد، ووخامة مغبة، ويتسبب وضعهم أقوال سادتهم وكبرائهم موضع الترجيح على ما يدعوهم إليه الرسول صلى الله عليه وسلم»[2].

وقال تعالى: ﴿وَإِذۡ يَتَحَآجُّونَ فِي ٱلنَّارِ فَيَقُولُ ٱلضُّعَفَٰٓؤُاْ لِلَّذِينَ ٱسۡتَكۡبَرُوٓاْ إِنَّا كُنَّا لَكُمۡ تَبَعٗا فَهَلۡ أَنتُم مُّغۡنُونَ عَنَّا نَصِيبٗا مِّنَ ٱلنَّارِ ۝٤٧ قَالَ ٱلَّذِينَ ٱسۡتَكۡبَرُوٓاْ إِنَّا كُلّٞ فِيهَآ إِنَّ ٱللَّهَ قَدۡ حَكَمَ بَيۡنَ ٱلۡعِبَادِ﴾ [غافر: ٤٧-٤٨].

قال الطبري: «يقول تعالى: وإذ يتخاصمون في النار، وعنى بذلك: إذ يتخاصم الذين أمر رسول الله صلى الله عليه وسلم بإنذارهم من مشركي قومه في النار، فيقول الضعفاء منهم، وهم المتبعون على الشرك بالله ﴿إِنَّا كُنَّا لَكُمۡ تَبَعٗا﴾ تقول لرؤسائهم الذين اتبعوهم على الضلالة: إنا كنا لكم في الدنيا تبعًا على الكفر بالله ﴿فَهَلۡ أَنتُم مُّغۡنُونَ﴾ اليوم ﴿عَنَّا نَصِيبٗا مِّنَ ٱلنَّارِ﴾ يعنون: حظًا فتخففوه عنا، فقد كنا نسارع في محبتكم في الدنيا، ومن قبلكم أتينا، لولا أنتم لكنا في الدنيا مؤمنين، فلم يصبنا اليوم هذا البلاء.

فأجابهم المتبوعون بما أخبر الله عنهم ﴿قَالَ ٱلَّذِينَ ٱسۡتَكۡبَرُوٓاْ﴾ وهم الرؤساء المتبوعون على الضلالة في الدنيا: إنا أيها القوم وأنتم كلنا في هذه النار مخلدون، لا خلاص لنا منها ﴿إِنَّ ٱللَّهَ قَدۡ حَكَمَ بَيۡنَ ٱلۡعِبَادِ﴾ بفصل قضائه، فأسكن أهل الجنة الجنة، وأهل النار النار، فلا نحن مما نحن فيه من البلاء خارجون، ولا هم مما فيه من النعيم منتقلون»[3].

(١) أوم: الأوام، كغراب: العطش، أو حره، يقال: في جوفه أوامٌ وأوارٌ، وهو حرارة العطش. انظر: تاج العروس، الزبيدي ٣١/ ٢٥٣.

(٢) التحرير والتنوير، ابن عاشور ٢٢/ ١١٦-١١٨ بتصرف.

(٣) جامع البيان، الطبري ٢١/ ٣٩٨-٣٩٩ بتصرف يسير.

ولهذه الآيات التي سبقت وغيرها والتي تبين عاقبة ومغبة اتباع أهل الباطل والكفر، وتبرأهم ممن تبعوهم؛ حذر الله نبيه وأصحابه والمؤمنين من طاعتهم، أو الانقياد إليهم؛ وذلك في غير آية من كتابه الكريم، كما في قوله تعالى: ﴿وَلَا تُطِعْ مَنْ أَغْفَلْنَا قَلْبَهُۥ عَن ذِكْرِنَا وَٱتَّبَعَ هَوَىٰهُ وَكَانَ أَمْرُهُۥ فُرُطًا﴾ [الكهف: ٢٨].

وقوله تعالى: ﴿فَلَا تُطِعِ ٱلْكَـٰفِرِينَ وَجَـٰهِدْهُم بِهِۦ جِهَادًا كَبِيرًا﴾ [الفرقان: ٥٢].

وقوله تعالى: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِىُّ ٱتَّقِ ٱللَّهَ وَلَا تُطِعِ ٱلْكَـٰفِرِينَ وَٱلْمُنَـٰفِقِينَ﴾ [الأحزاب: ١].

وقوله تعالى: ﴿وَلَا تُطِعِ ٱلْكَـٰفِرِينَ وَٱلْمُنَـٰفِقِينَ وَدَعْ أَذَىٰهُمْ﴾ [الأحزاب: ٤٨].

وقوله تعالى: ﴿فَلَا تُطِعِ ٱلْمُكَذِّبِينَ﴾ [القلم: ٨].

وقوله تعالى: ﴿وَلَا تُطِعْ كُلَّ حَلَّافٍ مَّهِينٍ﴾ [القلم: ١٠].

وقوله تعالى: ﴿فَٱصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ وَلَا تُطِعْ مِنْهُمْ ءَاثِمًا أَوْ كَفُورًا﴾ [الإنسان: ٢٤].

وقوله تعالى: ﴿كَلَّا لَا تُطِعْهُ وَٱسْجُدْ وَٱقْتَرِب﴾ [العلق: ١٩].

وبين الله عز وجل لهم أن عاقبة اتباع هؤلاء وأمثالهم، ستئول بهم إلى كفر وضلال وخسران، فقال تعالى: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِن تُطِيعُوا۟ فَرِيقًا مِّنَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَـٰبَ يَرُدُّوكُم بَعْدَ إِيمَـٰنِكُمْ كَـٰفِرِينَ﴾ [آل عمران: ١٠٠].

وقال تعالى: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِن تُطِيعُوا۟ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ يَرُدُّوكُمْ عَلَىٰٓ أَعْقَـٰبِكُمْ فَتَنقَلِبُوا۟ خَـٰسِرِينَ﴾ [آل عمران: ١٤٩].

وقال تعالى: ﴿وَإِن تُطِعْ أَكْثَرَ مَن فِى ٱلْأَرْضِ يُضِلُّوكَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ ۚ إِن يَتَّبِعُونَ إِلَّا ٱلظَّنَّ وَإِنْ هُمْ إِلَّا يَخْرُصُونَ﴾ [الأنعام: ١١٦].

وهذا خلاف لما يزعمه أهل النفاق، الذين يقعدون عن طاعة الله ورسوله، من أن طاعتهم تؤول بأتباعهم لخير، كما قالوا في يوم أحد، فيما نقله الله عنهم في كتابه: ﴿ٱلَّذِينَ قَالُوا۟ لِإِخْوَٰنِهِمْ وَقَعَدُوا۟ لَوْ أَطَاعُونَا مَا قُتِلُوا۟ ۗ قُلْ فَٱدْرَءُوا۟ عَنْ أَنفُسِكُمُ ٱلْمَوْتَ إِن كُنتُمْ صَـٰدِقِينَ﴾ [آل عمران: ١٦٨].

قال الطبري: «فمعنى الآية: وليعلم الله المنافقين الذين قالوا لإخوانهم الذين أصيبوا مع المسلمين في حربهم المشركين بأحد يوم أحد فقتلوا هنالك من عشائرهم وقومهم ﴿وَقَعَدُوا۟﴾ هم عن القتال ﴿لَوْ أَطَاعُونَا﴾ أي: لو أطاعنا من قتل بأحد من إخواننا وعشائرنا ﴿مَا قُتِلُوا۟﴾ أي: ما قتلوا هنالك.

قال الله عز وجل لنبيه محمد صلى الله عليه وسلم: ﴿قُلْ﴾ يا محمد لهؤلاء القائلين هذه المقالة من المنافقين ﴿فَٱدْرَءُوا۟﴾ يعني: فادفعوا ﴿عَنْ أَنفُسِكُمُ ٱلْمَوْتَ إِن كُنتُمْ

﴿صَادِقِينَ﴾ فأنتم لا محالة ميتون»[1].

موضوعات ذات صلة:

الاتباع، الأمر، العبادة، محمد، النبوة

(١) جامع البيان، الطبري ٧/ ٣٨٢ بتصرف يسير.





عناصر الموضوع

مفهوم الطبع

أولًا: المعنى اللغوي:

أصل مادة (ط ب ع) تدل على معنيين:

الأول: نهاية ينتهي إليها الشيء حتى يختم عندها.

والثاني: طبع الإنسان وسجيته، أي: ما طبع عليه الإنسان في مأكله ومشربه، وسهولة أخلاقه وحزونتها، وعسرها ويسرها، وشدته ورخاوته، وبخله وسخائه[1].

وقيل: إنّ أصل الطبع: الصدأ، والوسخ، والدنس، يكثر على السيف وغيره، ثم استعير فيما يشبه ذلك من الأوزار والآثام وغيرهما من المقابح[2].

وقال الراغب: «الطبع: أن تصوّر الشيء بصورة مّا، كطبع السّكّة، وطبع الدّراهم، وهو أعم من الختم وأخص من النقش، ومنه قوله تعالى: ﴿فَطُبِعَ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ﴾ [المنافقون: ٣].

وبه اعتبر الطّبع والطبيعة التي هي السجية، فإن ذلك هو نقش النفس بصورة مّا، إمّا من حيث الخلقة، وإمّا من حيث العادة، وهو فيما ينقش به من حيث الخلقة أغلب»[3].

وأما مادة (ق ل ب) فتدل على معنيين:

الأول: خالص شيء وشريفه.

الثاني: رد شيء من جهة إلى جهة.

فمن الأول: قلب الإنسان، سمي بذلك؛ لأنه أخلص شيء فيه وأرفعه. وخالص كل شيء وأشرفه قلبه.

ومن الثاني: قَلَبْتُ الثوب قَلْبًا. وقلبت الشيء: كَبَبْتُه، وقَلَّبْتُه بيدي تقليبًا[4].

ثانيًا: المعنى الاصطلاحي:

الطبع اصطلاحًا: أثرٌ يثبت على الشيء بعد إحكام غلقه وسده، ويكون لازمًا له، لكيلا يدخل فيه شيء ولا يخرج منه شيء[5].

---

(١) انظر: مقاييس اللغة، ابن فارس ٣/ ٤٨٣، لسان العرب، ابن منظور ٨/ ٢٣٢.

(٢) انظر: مجاز القرآن، أبو عبيدة ٢/ ١٢٥، النهاية في غريب الحديث والأثر، ابن الأثير ٣/ ١٢٢.

(٣) المفردات، الراغب الأصفهاني ص٥١٥.

(٤) انظر: تهذيب اللغة، الأزهري ٩/ ١٤٣، مقاييس اللغة، ابن فارس ٥/ ١٧.

(٥) انظر: مفردات القرآن، الفراهي ص٣٤٩.



و(الطَّبَعُ) بتحريك الباء: الدنس، وقد حمل بعضهم قوله تعالى: ﴿طَبَعَ ٱللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ﴾ [النحل: ١٠٨]. على ذلك، ومعناه: دنّسه، ومن ذلك أيضًا: طبع الله على قلب الكافر؛ كأنه ختم عليه حتى لا يصل إليه هدى ولا نور، فلا يوفق لخير[١].

قال ابن عاشور: «الطبع: إحكام الغلق بجعل طين ونحوه على سد المغلوق بحيث لا ينفذ إليه مستخرج ما فيه إلا بعد إزالة ذلك الشيء المطبوع به، وقد يَسِمُون على ذلك الغلق بِسِمَة تترك رَسْمًا في ذلك المجعول، وتسمى الآلة الواسمة طابَعًا- بفتح الباء-»[٢].

والطبع: أثر يثبت في المطبوع ويلزمه فهو يفيد من معنى الثبات واللزوم ما لا يفيده الختم؛ ولهذا قيل: طبع الدرهم طبعًا، وهو الأثر الذي يؤثره فلا يزول عنه[٣].

والقلب اصطلاحًا: هو محل النفس والعقل والعلم والفهم والعزم. وسمي قلبًا لتقلبه في الأشياء بالخواطر والعزوم والاعتقادات والإرادات[٤].

وعرفه الجرجاني فقال: «هو لطيفة ربانية لها بهذا القلب الجسماني الصنوبري الشكل المودع في الجانب الأيسر من الصدر تعلق، وتلك اللطيفة هي حقيقة الإنسان، ويسميها الحكيم: النفس الناطقة، والروح باطنه، والنفس الحيوانية مركبة، وهي المدرك، والعالم من الإنسان، والمخاطب، والمطالب، والمعاتب»[٥].

والطبع على القلوب: «كناية عن بلوغها مستوى من القسوة وجفاف عواطف الخير، فهي لا تتأثر ببيان، ولا تستجيب لموعظة. فكأنها بيوت مقفلة مطبوع عليها، أو قطعة من المعدن قد علاها الصدأ فغشاها»[٦].

وثبت عن النبي صلى الله عليه وسلم قوله: (من ترك ثلاث جمع تهاونًا بها، طبع الله على قلبه)[٧]، أي: ختم عليه وغشاه ومنعه ألطافه[٨].

(١) انظر: الصحاح، الجوهري ٣/ ١٢٥٣، مقاييس اللغة ٣/ ٤٣٨، بصائر ذوي التمييز، الفيروزآبادي ٣/ ٤٩٥.
(٢) التحرير والتنوير ٦/ ١٧ - ١٨.
(٣) الفروق اللغوية، العسكري ص٧٣.
(٤) انظر: نزهة الأعين النواظر، ابن الجوزي ص٤٨٢.
(٥) انظر: التعريفات ص١٧٨.
(٦) صراع مع الملاحدة، الميداني ص٣٨٨.
(٧) أخرجه أحمد في مسنده، ٢٤/ ٢٥٥، رقم ١٥٤٩٨، وأبو داود في سننه، ٢/ ٢٨٥، رقم ١٠٥٢، والترمذي في سننه، ١/ ٦٣٠، رقم ٥٠٠.
وصححه الألباني في صحيح سنن أبي داود ٤/ ٢١٨، رقم ٩٦٥.
(٨) انظر: النهاية في غريب الحديث، ابن الأثير ٣/ ١١٢.

الطبع في الاستعمال القرآني

وردت مادة (طبع) في القرآن (١١) مرة[١].

والصيغ التي وردت، هي:

الصيغة	عدد المرات	المثال
الفعل الماضي	٦	﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ آمَنُوا ثُمَّ كَفَرُوا فَطُبِعَ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ﴾ [المنافقون:٣]
الفعل المضارع	٥	﴿كَذَٰلِكَ يَطْبَعُ اللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ قَلْبِ مُتَكَبِّرٍ جَبَّارٍ ۝٣٥﴾ [غافر:٣٥]

وجاء الطبع في القرآن بمعنى إحكام الإغلاق مع الختم[٢].

(١) انظر: المعجم المفهرس، محمد فؤاد عبد الباقي، ص٤٢٥، المعجم المفهرس الشامل، عبدالله جلغوم، ص٧١٩.

(٢) التحرير والتنوير ٦/١٧ - ١٨.



الألفاظ ذات الصلة

١ الختم:

الختم لغة:

الخاء والتاء والميم أصل واحد، وهو بلوغ آخر الشيء، وكثيرًا ما يفسر الختم بالطبع؛ لأن الطبع على الشيء لا يكون إلا بعد بلوغ آخره[(١)]. وقيل: الختم: هو التأثير في الطين ونحوه[(٢)].

الختم اصطلاحًا:

قال الكفوي: الختم في الاصطلاح: «قريب من (الكتم) لفظًا لتوافقهما في العين واللام، وكذا معنى؛ لأن الختم على الشيء يستلزم كتم ما فيه»[(٣)]. والختم: أصله في الحسيات، ومنه ختم الكتاب بالطين لتأمين إيصاله دون فض، واستعمل بتوسع في الختم المعنوي، ومنه الختم على القلوب[(٤)].

الصلة بين الختم والطبع:

لم يفرق اللغويون بين الختم والطبع، قال ابن منظور: الختم على القلب: أي: أن لا يفهم شيئًا ولا يخرج منه شيء كأنه طبع. وفي التنزيل العزيز: ﴿خَتَمَ ٱللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمۡ﴾ [البقرة: ٧]؛ هو كقوله: ﴿طَبَعَ ٱللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمۡ﴾ [النحل: ١٠٨]. فلا تعقل ولا تعي شيئًا[(٥)]، وقال الدامغاني: إنّ ختم كطبع[(٦)].

وقال الزجاج: معنى ختم في اللغة وطبع معنى واحد، وهو التغطية على الشيء، والاستيثاق من أن لا يدخله شيء[(٧)].

وفرّق العسكري بين الختم والطبع بقوله: «إن الطبع أثر يثبت في المطبوع ويلزمه، فهو يفيد من معنى الثبات واللزوم ما لا يفيده الختم، ولهذا قيل: طبع الدرهم طبعًا، وهو الأثر الذي يؤثره فلا يزول عنه، كذلك أيضًا قيل: طبع الإنسان؛ لأنه ثابت غير زائل. وقيل: طبع

---

(١) انظر: مقاييس اللغة ٢/ ٢٤٥.
(٢) انظر: تاج العروس ٢١/ ٤٣٩.
(٣) الكليات، الكفوي ص٤٣١.
(٤) قواعد التدبر الأمثل، عبد الرحمن حبنكة ص٤٦١.
(٥) انظر: لسان العرب ١٢/ ١٦٣.
(٦) الوجوه والنظائر، الدامغاني ص٢٠٦.
(٧) معاني القرآن وإعرابه ١/ ٨٢.

فلان على هذا الخلق إذا كان لا يزول عنه»[1].

وفرّق ابن القيم بين الختم والطبع فقال: قلت: الختم والطبع يشتركان فيما ذكر، ويفترقان في معنى آخر، وهو أن الطبع ختم يصير سجيّة وطبيعة، فهو تأثير لازم لا يفارق[2]، وبهذا يشير إلى أن الطبع أشد من الختم.

٢ الران:

الران لغة:

يقال: «الرّان والرّين» وهما لغتان، ويرجع معناه إلى الغلبة والرسوخ، قال أبو عبيدة: «﴿رَانَ عَلَىٰ قُلُوبِهِم﴾: غلب على قلبه»[3].

وقيل: إنّ أصل الرين: الطبع والتغطية، يقال: ران الذنب على قلبه يرين رينا وريونا: غلب عليه وغطاه[4]، وإلى ذلك ذهب الزجاج[5].

الران اصطلاحًا:

هو الطبع والدنس والصدأ، يغشى القلب ويغطيه من توالي الذنوب وكثرتها، ومنه قوله تعالى: ﴿كَلَّا ۖ بَلْ ۜ رَانَ عَلَىٰ قُلُوبِهِم﴾ [المطففين:١٤].

وهو الموضع الوحيد في القرآن الكريم الذي ذكر فيه (الران)، ومعنى الآية: أي صار ذلك كصدأ على جلاء قلوبهم فعمي عليهم معرفة الخير من الشر[6]. وقال الحسن ومجاهد: «هو الذنب على الذنب، حتى تحيط الذنوب بالقلب، وتغشاه فيموت القلب»[7].

الصلة بين الران والطبع:

قال مجاهد: الرين أيسر من الطبع، والطبع أيسر من الإقفال، والإقفال أشد من ذلك كله[8].

وقال ابن الأثير: كانوا يرون أن الطبع هو الرين[9]. وقال أبو معاذ النحوي: الرين: أن

(١) الفروق اللغوية ص٧٣.
(٢) التفسير القيم ص١١٥.
(٣) انظر: مجاز القرآن ٢/ ٢٨٩.
(٤) انظر: النهاية في غريب الحديث والأثر، ابن الأثير ٢/ ٢٩١، لسان العرب، ابن منظور ١٣/ ١٩٢.
(٥) انظر: معاني القرآن وإعرابه ٥/ ٢٩٩.
(٦) المفردات، الراغب ص٣٧٣.
(٧) انظر: مفاتيح الغيب، الرازي ٣١/ ٨٨.
(٨) انظر: النهاية في غريب الحديث والأثر، ٣/ ١٢٢.
(٩) المصدر السابق ٣/ ١١٢.



يسود القلب من الذنوب. والطبع: أن يطبع على القلب، وهو أشد من الرين، وهو الختم. قال: والإقفال أشد من الطبع، وهو أن يقفل على القلب[1].

وقال الزجاج: «يقال: ران على قلبه الذنب يرن رينا، إذ غشي على قلبه». قال: «والرين، كالصدأ يغشى القلب»[2].

قال ابن القيم: «وأما الرين والران: فهو من أغلظ الحجب على القلب وأكثفها»[3].

وقيل: إن الختم والطبع والرين ألفاظ تجري على شيء واحد، وهو: تغطية الشيء والحيلولة بينه وبين ما من شأنه أن يدخله ويمسه[4]. وإلى ذلك ذهب بعض اللغويين، قال ابن منظور: إنّ معنى «ران» في الآية: أي غلب وطبع وختم، وبنحوه قال ابن الأثير[5].

٣ الأكنة:

الأكنة لغة:

من الكنّ: وهو وقاء كل شيء وستره، والجمع أكنانٌ، قال الله تعالى: ﴿وَجَعَلَ لَكُم مِّنَ ٱلْجِبَالِ أَكْنَـٰنًا﴾ [النحل: ٨١].

والأكنّة جمع (أكنان): مفردها: كنان، وتعني: الأغطية. ومنه قوله تعالى: ﴿وَجَعَلْنَا عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً أَن يَفْقَهُوهُ﴾[الأنعام: ٢٥][6].

الأكنة على القلوب اصطلاحًا:

هي غطاء محكم على القلب يمنع الفهم ويحجب الهداية، وهي بهذا المعنى تتشابه مع معنى الطبع على القلوب. وقال الزجاج في قوله تعالى: ﴿وَقَالُوا۟ قُلُوبُنَا فِىٓ أَكِنَّةٍ﴾ [فصلت: ٥]. أي: في غلف، أي: ما تدعونا إليه لا يصل إلى قلوبنا لأنها في أغطية[7].

وقال الراغب: في معنى قوله تعالى: ﴿وَقَالُوا۟ قُلُوبُنَا فِىٓ أَكِنَّةٍ مِّمَّا تَدْعُونَآ إِلَيْهِ وَفِىٓ ءَاذَانِنَا وَقْرٌ وَمِنۢ بَيْنِنَا وَبَيْنِكَ حِجَابٌ فَٱعْمَلْ إِنَّنَا عَـٰمِلُونَ﴾ [فصلت: ٥].أي: في غفلة من هذا. وقيل: معناه: قلوبنا أوعية للعلم. وقيل: معناه: قلوبنا مغطاة[8].

(١) التفسير القيم، ابن القيم ١/ ٥٦٤.
(٢) معاني القرآن وإعرابه ٥/ ٢٩٩.
(٣) التفسير القيم ١/ ٥٦٤.
(٤) المنار، رشيد رضا ١/ ١٢١.
(٥) انظر: النهاية في غريب الحديث، ابن الأثير ٢/ ٢٩١، لسان العرب، ابن منظور ١٣/ ١٩٢.
(٦) انظر: الصحاح، الجوهري ٦/ ٢١٨٨، تاج العروس ٣٦/ ٦٣.
(٧) انظر: معاني القرآن، النحاس ٦/ ٢٤٢.
(٨) المفردات ص٦١٢.

الصلة بين الأكنة والطبع:

قال الراغب: إنّ الإنسان إذا تناهى في اعتقاد باطل، أو ارتكاب محظور، ولا يكون منه تلفت بوجه إلى الحق، يورثه ذلك هيئة تمرنه على استحسان المعاصي، وكأنما يختم بذلك على قلبه، وعلى ذلك قوله تعالى: ﴿أُولَٰئِكَ الَّذِينَ طَبَعَ اللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ وَسَمْعِهِمْ وَأَبْصَارِهِمْ﴾[النحل: ١٠٨].

وعلى هذا النحو استعارة الكنّ في قوله تعالى: ﴿وَجَعَلْنَا عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً أَن يَفْقَهُوهُ﴾[الأنعام: ٢٥]. فجعل معنى الأكنة يقوم مقام الختم والطبع[١].

٤ الغلف:

الغلف لغة:

قال ابن فارس: إن مفردة غلف تدل على غشاوة وغشيان شيء لشيء، وقلب أغلف: كأنما أغشي غلافًا، فهو لا يعي شيئًا. قال الله تعالى: ﴿وَقَوْلِهِمْ قُلُوبُنَا غُلْفٌ﴾[النساء: ١٥٥]. وقرأت: (غلف)، أي: أوعية للعلم. والقياس في ذلك كله واحد[٢]. وقيل في معنى: «غلف، أي: صم[٣]. وقيل أيضًا في تفسيرها: أي: في غطاء محجوبة عما تقول»[٤].

الغلف اصطلاحًا:

لا يختلف عن المعنى اللغوي، من حيث إنه غشاء وغطاء يحجب القلب عن الإيمان.

وتتفق دلالة الغلف مع دلالة الأكنة ويتشاركان المعاني نفسها، إلا إن بينهما فرقًا دقيقًا، وهو أن معنى: ﴿وَجَعَلْنَا عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً أَن يَفْقَهُوهُ﴾[الأنعام: ٢٥]. أي: مجموعة أغطية وأستار، واحدًا تلو الآخر حتى يحجب عنها الفهم والهداية والإيمان؛ بدلالة صيغة الجمع، وأما (غلف) وورودها بالصيغة نفسها، فتعني: أن هذه القلوب غطيت وأغشيت بأغلفة، وكأن القلب صار غلاف لنفسه، ولذا نجد الجملة مع الغلف استغنت عن حرف الجر، بعكس الأكنة حيث عديت بحرف الجر.

الصلة بين الغلف والطبع:

وجه التشابه في المعنى في قوله: ﴿قُلُوبُنَا غُلْفٌ﴾ مع قوله: ﴿وَطُبِعَ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ﴾، فهما يشتركان في المعنى من حيث عدم الانتفاع بالآيات والنذر؛ لإحاطة هذه القلوب بأغلفة

(١) انظر: المصدر السابق ص٢٧٥.
(٢) مقاييس اللغة ٤/ ٣٩٠.
(٣) لسان العرب، ابن منظور ٩/ ٢٧١.
(٤) انظر: الكليات، الكفوي ص٦٧٣.



وأغطية تمنع من وصول الإيمان، فقلوبهم لا تفقه علمًا، ولا تعي حقًّا، ويتفارقان من حيث الشدة، فالطبع أشد أثرًا في القلب من الأكنة والغلف.

ومن دلائل تقارب المعاني بين الغلف والطبع اقترانهما في سياق واحد كما في قوله تعالى في وصف قلوب الكفار: ﴿وَقَوْلِهِمْ قُلُوبُنَا غُلْفٌ﴾ [النساء: ١٥٥].

فذكر المفسرون فيه وجهين: أحدهما: أن (غلفًا) جمع غلاف، والمعنى على هذا أنهم قالوا: ﴿قُلُوبُنَا غُلْفٌ﴾، أي: أوعية للعلم، فلا حاجة بنا إلى علم سوى ما عندنا، فكذبوا الأنبياء بهذا القول. والثاني: أن (غلفًا) جمع أغلف وهو المتغطي بالغلاف، أي: بالغطاء، والمعنى على هذا أنهم قالوا: قلوبنا في أغطية، فهي لا تفقه ما تقولون[١]، فكان الجواب من الله تعالى بقوله: ﴿بَلْ طَبَعَ اللَّهُ عَلَيْهَا بِكُفْرِهِمْ فَلَا يُؤْمِنُونَ إِلَّا قَلِيلًا ﴿١٥٥﴾﴾ [النساء: ١٥٥]. فجاء بلفظ الطبع كنتيجة وعقاب وخاتمة، فهي ليست مغلفة بطبعها. إنما كفرهم جَرَّ عليهم أن يطبع الله على قلوبهم، فإذا هي صلدة جامدة مغطاة، لا تستشعر نداوة الإيمان ولا تتذوق حلاوته، فلا يقع منهم الإيمان، إلا قليلًا، ممن لم يستحق بفعله، أن يطبع الله على قلبه[٢].

٥ الأقفال:

الأقفال لغة:

جمع قفل، قال ابن فارس: القاف والفاء واللام أصل صحيح يدل على صلابة وشدة في شيء، ومنه القفل: سمي بذلك؛ لأن فيه شدًّا وشدة. يقال: أقفلت الباب فهو مقفل[٣]، ثم عبّر عن كلّ مانع للإنسان من تعاطي فعل، فيقال: فلان مقفلٌ عن كذا. وقيل للبخيل: مقفل اليدين، كما يقال: مغلول اليدين[٤].

الأقفال اصطلاحًا:

لفظ يستعار لمنع وصول الحق والإيمان إلى قلوب الكفرة والمنافقين المخبر عنهم بالختم. قال تعالى: ﴿أَمْ عَلَىٰ قُلُوبٍ أَقْفَالُهَا ﴿٢٤﴾﴾ [محمد: ٢٤].

والمقتفل من الناس: الذي لا يخرج من بين يديه خيرًا[٥].

(١) مفاتيح الغيب، الرازي ١١/ ٢٥٩.
(٢) انظر: في ظلال القرآن، سيد قطب ٢/ ٨٠١.
(٣) انظر: مقاييس اللغة ٥/ ١١٢.
(٤) انظر: المفردات، الراغب ص٦٨٠.
(٥) تهذيب اللغة، الأزهري ٩/ ١٣٤.

الصلة بين الأقفال والطبع:

الأقفال أشد أنواع الطبع على القلوب، قال مجاهد لما ذكر الرين والطبع قال: والإقفال أشد ذلك كله[1]. والأقفال: تحول بين القلوب وبين القرآن وبينها وبين النور، فإن استغلاق قلوبهم كاستغلاق الأقفال التي لا تسمح بالهواء والنور[2]. ويستلزم لإزالة هذه الأقفال تدبر القرآن الكريم فهو يزيل الغشاوة ويفتح النوافذ لدخول الإيمان، قال تعالى ﴿أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ الْقُرْآنَ أَمْ عَلَىٰ قُلُوبٍ أَقْفَالُهَا﴾ [محمد: ٢٤].

وفي مقام الألفاظ ذات الصلة بالطبع على القلوب يقول الشيخ عبد الرحمن حبنكة واصفًا الطبع والختم والران والأكنة والغلف والأقفال: «إنّ من فطرة الإنسان إذا هو عاند وأصر على الباطل بعد معرفة الحق المبين، وأعلن تكذيبه وكفره بالحق، أن يصاب قلبه بالصمم، وأن يتبلد حسه تجاه الحق والخير، فإذا ألقي عليه الهدى أعرض عنه، ولم يستمع إليه، ولم يدرك جوانب الحق فيه، ولم يتحرك وجدانه وضميره بعاطفة إيجابية نحو الخير، ويكون كالصخر الأصم الذي لا يقبل ندى معرفة، ولا يندى بعاطفة، فإذا وصل الإنسان إلى هذا المستوى من القسوة وجفاف عواطف الخير، فإنه يكون مغلف القلب، مسدود المنافذ، محجوبًا بحجاب غليظ، حتى يكون بمثابة البيت الذي أغلق بابه، وضرب عليه بالأقفال، ثم ختمت الأقفال بطابع الطين أو الشمع، إشعارًا بوصولها إلى غاية إقفالها أو بمثابة المعدن الذي يعلوه الصدأ حتى يغشيه تغشية تامة، ويحجبه حجبًا كاملًا، وهذا هو الران الذي يغشّي قلوب الكافرين المكذبين»[3].

(١) النهاية في غريب الحديث، ابن الأثير ٣/ ١١٢.
(٢) في ظلال القرآن، سيد قطب ٦/ ٣٢٩٧.
(٣) انظر: صراع مع الملاحدة ص٣٨٨.



أسباب الطبع

إن للطبع على القلوب أسبابًا كثيرة ومتنوعة قد يغفل عنها الإنسان، وقد ذكرها القرآن الكريم وبينها ووضحها مقرونة بالطبع والختم وما شابههما من المعاني، فالإنسان حين يعرض عن منهج الله والحق ويقترف الذنوب والمعاصي فسيمرض قلبه ويصيبه العمى والفساد، وتنكت فيه نكتة بعد نكتة، عندئذ يغلف ويحجب عن الهدى فلا يدرك الحق ولا يبصره، فيكون القلب منكوسًا مغلقًا لا تنفعه الآيات والنذر؛ لذا فإن معرفة أسباب الطبع في ضوء القرآن الكريم مهمة جدًّا للمسلم من أجل الحفاظ على قلبه السليم من أن يصيبه الران ويطبع عليه فيموت هذا القلب عن الوعي والسماع والفهم. ومن بين هذه الأسباب الكفر والنفاق، والعناد والتكبر والعدوان والجبروت، واتباع الهوى والشهوات، وعدم الانتفاع بآيات الله تعالى في الآفاق والأنفس، وسنعرض لها في المطالب الآتية.

أولًا: الكفر والنفاق:

لا شك أن من أهم أسباب الطبع على القلوب (الكفر والنفاق) والعياذ بالله، فهما الداء العقيم والشر المستطير، وإذا داوم عليهما الإنسان ختم على قلبه بالكفر والنفاق فلا يعي حقًّا، ولا يهتدي طريقًا، ولذلك لما ذكر الله تعالى في أوائل سورة البقرة صفات المؤمنين أتبعهم بصفات الكافرين فقال تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا سَوَاءٌ عَلَيْهِمْ ءَأَنذَرْتَهُمْ أَمْ لَمْ تُنذِرْهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ [البقرة: ٦].

فكان جزاء كفرهم بالله تعالى وبآياته أن قال: ﴿خَتَمَ اللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ وَعَلَىٰ سَمْعِهِمْ وَعَلَىٰ أَبْصَارِهِمْ غِشَاوَةٌ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾ [البقرة: ٧]. أي: ختم الله على قلوبهم بالكفر[(١)].

ثم إن الكافر لا يرعوي عن ضلالته لما سبق من شقاوته، وقد حكم الحقّ سبحانه بأن لا يفارق قلوب أعدائه ما فيها من الجهالة والضلالة، ولا يدخلها شيء من البصيرة والهداية. وقد وردت آية سورة البقرة ناعية على الكفار شناعة صفتهم وسماجة حالهم، فكان أن طبع الله على قلوبهم مجازاة لهم بكفرهم[(٢)].

قال الرازي في مناسبة الآية: إنه لما بين الله تعالى في الآية الأولى أنهم لا يؤمنون أخبر في هذه الآية بالسبب الذي لأجله لم يؤمنوا، وهو الختم، فكان الختم مانعًا لهم من الإيمان، والختم عبارة عن حصول الداعية القوية للكفر المانعة من حصول الإيمان، فعند حصول الداعية الراسخة القوية للكفر، صار القلب كالمطبوع على

(١) انظر: تفسير القرآن العظيم، ابن أبي حاتم ١/ ٤١.
(٢) انظر: الكشاف، الزمخشري ١/ ٥٠.

الكفر، وقال الحسن: الطبع عبارة عن بلوغ القلب في الميل في الكفر إلى الحد الذي كأنه مات عن الإيمان، فكما أن الإيمان حياة القلب فالكفر موته[1].

وقد وصف الله تعالى قلوب الكفار بعشرة أوصاف: الختم، والطبع، والضيق، والمرض، والرين، والموت، والقساوة، والانصراف، والحمية، والإنكار.

وفيما يأتي بعض الأمثلة:

فقال في الإنكار: ﴿قُلُوبُهُم مُّنكِرَةٌ وَهُم مُّسْتَكْبِرُونَ﴾ [النحل: ٢٢].

وقال في الحمية: ﴿إِذْ جَعَلَ الَّذِينَ كَفَرُوا فِي قُلُوبِهِمُ الْحَمِيَّةَ حَمِيَّةَ الْجَاهِلِيَّةِ﴾ [الفتح: ٢٦].

وقال في الانصراف: ﴿ثُمَّ انصَرَفُوا صَرَفَ اللَّهُ قُلُوبَهُم بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَّا يَفْقَهُونَ﴾ [التوبة: ١٢٧].

وقال في القساوة: ﴿فَوَيْلٌ لِّلْقَاسِيَةِ قُلُوبُهُم مِّن ذِكْرِ اللَّهِ﴾ [الزمر: ٢٢].

وقال في الموت: ﴿أَوَمَن كَانَ مَيْتًا فَأَحْيَيْنَاهُ﴾ [الأنعام: ١٢٢].

وقال في الرين: ﴿كَلَّا بَلْ رَانَ عَلَىٰ قُلُوبِهِم مَّا كَانُوا يَكْسِبُونَ﴾ [المطففين: ١٤].

وقال في المرض: ﴿فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ﴾ [البقرة: ١٠].

وقال في الضيق: ﴿وَمَن يُرِدْ أَن يُضِلَّهُ يَجْعَلْ صَدْرَهُ ضَيِّقًا حَرَجًا كَأَنَّمَا يَصَّعَّدُ فِي السَّمَاءِ﴾ [الأنعام: ١٢٥].

وقال في الطبع: ﴿فَطُبِعَ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ فَهُمْ لَا يَفْقَهُونَ﴾ [المنافقون: ٣].

وقال: ﴿بَلْ طَبَعَ اللَّهُ عَلَيْهَا بِكُفْرِهِمْ﴾ [النساء: ١٥٥].

وقال في الختم: ﴿خَتَمَ اللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ﴾ [البقرة: ٧][2].

فكل هذه النصوص القرآنية تدل على أن قلوب الكفار المعاندين، والمنافقين المكذبين في حجب عن البصيرة ومعرفة الحق والهداية، وذلك بسبب تماديهم في الكفر والغي واستغراقهم للذنوب والمعاصي، وهذه النتيجة من سنن الله الكونية التي حذر منها الناس، فقال: ﴿تِلْكَ الْقُرَىٰ نَقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنبَائِهَا ۚ وَلَقَدْ جَاءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِالْبَيِّنَاتِ فَمَا كَانُوا لِيُؤْمِنُوا بِمَا كَذَّبُوا مِن قَبْلُ ۚ كَذَٰلِكَ يَطْبَعُ اللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِ الْكَافِرِينَ﴾ [الأعراف: ١٠١].

وعقوبة الطبع إنما هو معنى يخلقه الله تعالى في القلب فيمنع من الإيمان به، ودليله قوله تعالى: ﴿كَذَٰلِكَ نَسْلُكُهُ فِي قُلُوبِ الْمُجْرِمِينَ ۝ لَا يُؤْمِنُونَ بِهِ﴾ [الحجر: ١٢-١٣].

وقال: ﴿وَجَعَلْنَا عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً أَن يَفْقَهُوهُ﴾

(١) انظر: مفاتيح الغيب ٢/ ٢٩١.

(٢) انظر: الجامع لأحكام القرآن، القرطبي ١/ ١٨٦.

[الأنعام: ٢٥]. أي: لئلا يفقهوه[١].

وجعل الراغب ثلاثة ذنوب للإنسان يقابلها ثلاث عقوبات في الدنيا، ومنها: الضلال، وهو أن يسبق إلى اعتقاد مذهب باطل، وأعظمه الكفر، فلا يكون تلفت منه بوجه إلى الحق، وذلك يورثه هيئة تمرنه على استحسانه المعاصي، واستقباحه الطاعات، وهو المعبر عنه بالطبع والختم في قوله: ﴿وَخَتَمَ عَلَىٰ سَمْعِهِۦ وَقَلْبِهِۦ﴾ [الجاثية:٢٣]. و﴿أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ طَبَعَ ٱللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ﴾ [النحل: ١٠٨].

وبالأقفال في قوله: ﴿أَمْ عَلَىٰ قُلُوبٍ أَقْفَالُهَآ﴾ [محمد: ٢٤]. إلى غير ذلك[٢].

والكفر الذي يوجب الختم هو: عبارة عن جحود ما صرّح به الكتاب المنزل أنه من عند الله، أو جحود الكتاب نفسه، أو النبي الذي جاء به[٣].

وبالجملة: إذا جحد ما علم من الدين بالضرورة بعدما بلغت الجاحد رسالة النبي صلى الله عليه وسلم بلاغًا صحيحًا، وعرضت عليه الأدلة على صحتها لينظر فيها فأعرض عن شيء من ذلك وجحده عنادًا أو تساهلًا أو استهزاءً فقد كفر، فيكون عقوبته الختم، وهذا التعبير مثل لمن تمكن الكفر في قلوبهم حتى فقدوا الدواعي والأسباب التي تعطفهم إلى النظر والفكر في أدلة الإيمان ومحاسنه، فلا يدخلها غير ما رسخ فيها[٤].

وقد أشار القرآن إلى الأسباب الباعثة على كفر الكافرين والتي يتولدّ عنها الطبع على قلوبهم ضمن سنن الله الثابتة، وهي ثلاثة أسباب:

السبب الأول: النفسية العدوانية، وفي الإشارة إلى هذا السبب يقول الله تعالى ﴿كَذَٰلِكَ نَطْبَعُ عَلَىٰ قُلُوبِ ٱلْمُعْتَدِينَ﴾ [يونس: ٧٤].

السبب الثاني: النفسية الجاهلة المنساقة مع الهوى، والتي لا تريد أن تعلم الحق خشية أن تنغص عليها المعرفة ما هي فيه من استغراق في الفجور، وفي الإشارة إلى هذا السبب يقول الله تعالى ﴿كَذَٰلِكَ يَطْبَعُ ٱللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِ ٱلَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [الروم: ٥٩].

السبب الثالث: النفسية المستكبرة الجبارة، وهذا أخطر الأسباب، ولذلك يكون الطبع بسببه عل كل قلب متكبّرٍ جبار، وفي الإشارة إلى هذا السبب يقول الله تعالى ﴿كَذَٰلِكَ يَطْبَعُ ٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ قَلْبِ مُتَكَبِّرٍ جَبَّارٍ﴾ [غافر: ٣٥]. أي: لا يقتصر على الطبع على بعض قلبه، بل يكون عليه جميعًا[٥].

(١) المصدر السابق ١/ ٨٧.
(٢) انظر: المفردات ص٢٧٥.
(٣) انظر: المنار، رشيد رضا ١/ ١١٨.
(٤) انظر: المصدر السابق ١/ ١١٨-١٢٠.
(٥) انظر: صراع مع الملاحدة، الميداني ص٣٩٠-٣٩١.

وأسند الله تعالى الختم والطبع على قلوبهم وعلى سمعهم إليه؛ لأنه بيان لسنته تعالى في أمثالهم، وعبّر عنه بالماضي للدلالة على أنه أمر قد فرغ منه، وهو لا يدل على أنهم مجبورون على الكفر، ولا على منع الله تعالى إياهم منه بالقهر، وإنما هو تمثيل لسنته تعالى في تأثير تمرنهم على الكفر وأعماله في قلوبهم بأنه استحوذ عليها وملك أمرها حتى لم يعد فيها استعداد لغيره، كما تقدم مثله عن الراغب، ويوضح ما قلناه قوله تعالى في سورة المنافقين: ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ ءَامَنُوا۟ ثُمَّ كَفَرُوا۟ فَطُبِعَ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ﴾ [المنافقون: ٣].

وقوله عن اليهود في سورة النساء: ﴿فَبِمَا نَقْضِهِم مِّيثَٰقَهُمْ وَكُفْرِهِم بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ وَقَتْلِهِمُ ٱلْأَنۢبِيَآءَ بِغَيْرِ حَقٍّ وَقَوْلِهِمْ قُلُوبُنَا غُلْفٌۢ ۚ بَلْ طَبَعَ ٱللَّهُ عَلَيْهَا بِكُفْرِهِمْ فَلَا يُؤْمِنُونَ إِلَّا قَلِيلًا﴾ [النساء: ١٥٥].

فذكر أن الطبع على قلوبهم إنما هو بسبب كفرهم وتلك المعاصي التي أسندها إليهم، وقوله تعالى في سورة الجاثية: ﴿أَفَرَءَيْتَ مَنِ ٱتَّخَذَ إِلَٰهَهُۥ هَوَىٰهُ وَأَضَلَّهُ ٱللَّهُ عَلَىٰ عِلْمٍ وَخَتَمَ عَلَىٰ سَمْعِهِۦ وَقَلْبِهِۦ وَجَعَلَ عَلَىٰ بَصَرِهِۦ غِشَٰوَةً فَمَن يَهْدِيهِ مِنۢ بَعْدِ ٱللَّهِ ۚ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ﴾ [الجاثية: ٢٣].

فذكر من فعله المسند إليه: أنه اتخذ إلهه هواه، ومن صار هواه معبوده لا يفيد معه شيء[(١)].

قال ابن القيم في حكم الطبع: «ومعلوم أن هذا ليس حكمًا يعم جميع الكفار، بل الذين آمنوا وصدقوا الرسل كان أكثرهم كفارًا قبل ذلك ولم يختم على قلوبهم وعلى أسماعهم، فهذه الآيات في حق أقوام مخصوصين من الكفار، فعل الله بهم ذلك عقوبة منه لهم في الدنيا بهذا النوع من العقوبة العاجلة، كما عاقب بعضهم بالمسخ قردة وخنازير وبعضهم بالطمس على أعينهم، فهو سبحانه يعاقب بالطمس على القلوب كما يعاقب بالطمس على الأعين وهو سبحانه قد يعاقب بالضلال عن الحق عقوبة دائمة مستمرة، وقد يعاقب به إلى وقت، ثم يعافي عبده ويهديه كما يعاقب بالعذاب كذلك»[(٢)].

وقال رحمه الله في موضع آخر في قوله تعالى: ﴿وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُضِلَّ قَوْمًۢا بَعْدَ إِذْ هَدَىٰهُمْ حَتَّىٰ يُبَيِّنَ لَهُم مَّا يَتَّقُونَ﴾ [التوبة: ١١٥]: «فهذا الإضلال عقوبة منه لهم، حين بين لهم فلم يقبلوا ما بيّنه لهم ولم يعملوا. فعاقبهم بأن أضلهم عن الهدى، وما أضل الله سبحانه أحدًا قط إلا من بعد هذا البيان»[(٣)].

وإذا عرفت هذا عرفت سر القدر، وزالت

(١) المنار ١/ ١٢٠-١٢١.
(٢) شفاء العليل ص٩١.
(٣) التفسير القيم ص٤٥.

عنك شكوك كثيرة وشبهات في هذا الباب وعلمت حكمة الله في إضلاله من يضله من عباده، والقرآن يصرح بهذا في غير موضع، كقوله تعالى: ﴿فَلَمَّا زَاغُوٓا۟ أَزَاغَ ٱللَّهُ قُلُوبَهُمْ﴾ [الصف: ٥].

﴿وَقَوْلِهِمْ قُلُوبُنَا غُلْفٌۢ ۚ بَلْ طَبَعَ ٱللَّهُ عَلَيْهَا بِكُفْرِهِمْ﴾ فالأول: كفر عناد، والثاني: كفر طبع[١].

وقال صاحب المنار في قوله تعالى: ﴿بَلْ طَبَعَ ٱللَّهُ عَلَيْهَا بِكُفْرِهِمْ﴾ أي: كان كفرهم الشديد وما له من الأثر القبيح في أخلاقهم وأعمالهم، سببًا للطبع على قلوبهم، أي: جعلها كالسكة المطبوعة - الدراهم مثلًا- في قسوتها، وتكيفها بطبعة خاصة لا تقبل غيرها من النقوش، فهم بجمودهم على ذلك الكفر التقليدي، ولوازمه لا ينظرون في شيء آخر نظر استدلال واعتبار، ولا يتأملون فيه تأمل الإخلاص والاستبصار، وإنما النظر والتأمل من الأمور الممكنة التي ينالها كسبهم، ويصل إليها اختيارهم، ولكنهم لا يختارون إلا ما ألفوا وتعودوا[٢].

وقال سيد قطب في تفسيره للآية: إنما هم كفرهم جرّ عليهم أن يطبع الله على قلوبهم، فإذا هي صلدة جامدة مغطاة، لا تستشعر نداوة الإيمان ولا تتذوق حلاوته، فلا يقع منهم الإيمان، إلا قليلًا، ممن لم يستحق بفعله، أن يطبع الله على قلبه. أي: أولئك الذين فتحوا قلوبهم للحق واستشرفوه، فهداهم الله إليه ورزقهم إياه[٣].

ومن أسباب الطبع على القلوب: النفاق، والنفاق: وهو الدخول في الشرع من باب والخروج عنه من باب، وعلى ذلك نبه الله تعالى بقوله: ﴿إِنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ هُمُ ٱلْفَٰسِقُونَ﴾ [التوبة: ٦٧]. أي: الخارجون من الشرع، وجعل الله المنافقين شرًّا من الكافرين. فقال: ﴿إِنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ فِى ٱلدَّرْكِ ٱلْأَسْفَلِ مِنَ ٱلنَّارِ وَلَن تَجِدَ لَهُمْ نَصِيرًا﴾ [النساء: ١٤٥][٤].

وقال الجرجاني: النفاق: «إظهار الإيمان باللسان، وكتمان الكفر بالقلب»[٥].

وقال تعالى في المنافقين: ﴿وَطُبِعَ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ فَهُمْ لَا يَفْقَهُونَ﴾ [التوبة: ٨٧].

ومثله في سورتهم، وقال سبحانه: ﴿وَنَطْبَعُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ فَهُمْ لَا يَسْمَعُونَ﴾ [الأعراف: ١٠٠].

أي: فهم بهذا الطبع لا يسمعون الحكم والنصائح سماع تفقه وتدبر واتعاظ، ﴿وَمَا تُغْنِى ٱلْءَايَٰتُ وَٱلنُّذُرُ عَن قَوْمٍ لَّا يُؤْمِنُونَ﴾ [يونس:١٠١] ما يراد منها؛ لأن قلوبهم قد

(١) المصدر السابق.
(٢) المنار، رشيد رضا ٦/ ١٥.
(٣) في ظلال القرآن ٢/ ٨٠١.
(٤) انظر: المفردات، الراغب الأصفهاني ص٨١٩.
(٥) التعريفات ٢٤٥.

ملئت بما يشغلهم عنها من آراء وأفكار وشهوات ملّكت عليها أمرها، حتى صرفتهم عن غيرها فجعلتهم من الأخسرين أعمالًا ﴿ٱلَّذِينَ ضَلَّ سَعْيُهُمْ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَهُمْ يَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ يُحْسِنُونَ صُنْعًا ۝١٠٤﴾ [الكهف: ١٠٤][(١)].

إذًا النفاق والكفر صنوان كلاهما سبب للطبع، وعبّر بالطبع عمّا خلق في قلوبهم من الريب والشك وختم عليهم به من الكفر والمصير إلى النار[(٢)].

وقال القرطبي في قوله تعالى: ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ ءَامَنُوا۟ ثُمَّ كَفَرُوا۟ فَطُبِعَ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ فَهُمْ لَا يَفْقَهُونَ﴾ [المنافقون: ٣]: «هذا إعلام من الله تعالى بأن المنافق كافر. أي: أقرّوا باللسان ثم كفروا بالقلب»[(٣)].

فالمنافقون عرفوا الإيمان، ولكنهم اختاروا العودة إلى الكفر. وما يعرف الإيمان ثم يعود إلى الكفر قلب فيه فقه، أو تذوق، أو حياة، وإلا فمن ذا الذي يذوق ويعرف، ويطلع على التصور الإيماني للوجود، وعلى التذوق الإيماني للحياة، ويتنفس في جو الإيمان الذكي، ويحيا في نور الإيمان الوضيء، ويتفيأ ظلال الإيمان الندية.

ثم يعود إلى الكفر الكالح الميت الخاوي المجدب الكنود؟ من ذا الذي يصنع هذا إلا المطموس الكنود الحقود، الذي لا يفقه ولا يحس ولا يشعر بهذا الفارق البعيد[(٤)].

وكان سبب الطبع على قلوب المنافقين إقدامهم على الأعمال السيئة المتعجب من سوئها، وهو استخفافهم بالأيمان ومراجعتهم الكفر مرة بعد أخرى، فرسخ الكفر في نفوسهم فتجرّأت أنفسهم على الجرائم وضريت بها، حتى صارت قلوبهم كالمطبوع عليها أن لا يخلص إليها الخير[(٥)].

قال ابن القيم في سياق حديثه عن المنافقين: «واعلم أنه كلما انقرض منهم طوائف خلفهم أمثالهم، فذكر أوصافهم لأوليائه ليكونوا منها على حذر. وبيّنها لهم فقال: ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ ءَامَنُوا۟ ثُمَّ كَفَرُوا۟ فَطُبِعَ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ﴾، فإنهم لما ردّوا الحق ورغبوا عنه عوقبوا بالطبع والرين وسلب العقل والفهم»[(٦)].

«وإنما كانت عاقبة هذه الطبقة في الدرك الأسفل من النار؛ لغلظ كفرهم، فإنهم خالطوا المسلمين وعاشروهم، وباشروا من أعلام الرسالة وشواهد الإيمان ما لم يباشره البعداء، ووصل إليهم من معرفته وصحته ما لم يصل إلى المنابذين بالعداوة، فإذا كفروا مع هذه المعرفة والعلم كانوا أغلظ كفرًا وأخبث قلوبًا، وأشد عداوة لله ولرسوله وللمؤمنين من البعداء عنهم، وإن

(١) المنار، رشيد رضا ٩/ ٢٨.
(٢) انظر: المحرر الوجيز، ابن عطية ٥/ ٣١٢.
(٣) الجامع لحكام القرآن ١٨/ ١٢٤.
(٤) في ظلال القرآن، سيد قطب ٦/ ٣٥٧٤.
(٥) التحرير والتنوير، ابن عاشور ٢٨/ ٢٣٧.
(٦) مفتاح دار السعادة ص١٠١.



كان البعداء متصدين لحرب المسلمين»[1].

ولهذا قال تعالى في المنافقين: ﴿صُمٌّ بُكۡمٌ عُمۡيٌ فَهُمۡ لَا يَرۡجِعُونَ﴾ [البقرة: ١٨].

وقال تعالى في الكفار ﴿صُمُّۢ بُكۡمٌ عُمۡيٞ فَهُمۡ لَا يَعۡقِلُونَ﴾ [البقرة: ١٧١]: فالكافر لم يعقل، والمنافق أبصر، ثم عمي وعرف، ثم تجاهل وأقرّ، ثم أنكر وآمن، ثم كفر، ومن كان هكذا كان أشد كفرًا وأخبث قلبًا وأعتى على الله ورسله، فاستحق الدرك الأسفل من النار[2].

ومن أسباب النفاق الذي يوجب الطبع على القلوب: عدم تدبر آيات الله تعالى، والإعراض عنها والكفر بها، قال تعالى: ﴿أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ ٱلۡقُرۡءَانَ أَمۡ عَلَىٰ قُلُوبٍ أَقۡفَالُهَآ﴾ [محمد: ٢٤].

والسياق يتحدث عن المنافقين، والأقفال استعارة لانغلاق القلب عن معرفة الحق، وإضافة الأقفال إلى القلوب للتنبيه على أن المراد بها ما هو للقلوب بمنزلة الأقفال للأبواب، ومعنى الآية أنه لا يدخل في قلوبهم الإيمان ولا يخرج منها الكفر والشرك؛ لأن الله سبحانه قد طبع عليها، والمراد بهذه القلوب قلوب هؤلاء المخاطبين، وهم المنافقون الذين قعدوا عن القتال[3].

ثانيًا: العناد والكبر:

ومن أسباب الطبع على القلوب، العناد والتكبر والتكذيب وعدم الإيمان بالله والرسول والطغيان، قال تعالى: ﴿ثُمَّ بَعَثۡنَا مِنۢ بَعۡدِهِۦ رُسُلًا إِلَىٰ قَوۡمِهِمۡ فَجَآءُوهُم بِٱلۡبَيِّنَٰتِ فَمَا كَانُواْ لِيُؤۡمِنُواْ بِمَا كَذَّبُواْ بِهِۦ مِن قَبۡلُۚ كَذَٰلِكَ نَطۡبَعُ عَلَىٰ قُلُوبِ ٱلۡمُعۡتَدِينَ﴾ [يونس: ٧٤].

قال ابن عطية: «إنهم بادروا رسلهم بالتكذيب كلما جاء رسول ثم لجّوا في الكفر وتمادوا فلم يكونوا ليؤمنوا بما سبق به تكذيبهم، وقال بعض العلماء: عقوبة التكذيب الطبع على القلوب. ثم ابتدأ بقوله تعالى: ﴿كَذَٰلِكَ نَطۡبَعُ﴾ أي كفعلنا هذا، و﴿ٱلۡمُعۡتَدِينَ﴾ هم الذين تجاوزوا طورهم واجترحوا ما لا يجوز لهم وهي هاهنا في الكفر»[4].

قال الطبري في قوله تعالى: ﴿كَذَٰلِكَ نَطۡبَعُ عَلَىٰ قُلُوبِ ٱلۡمُعۡتَدِينَ﴾ [يونس: ٧٤]: «يقول تعالى ذكره: كما طبعنا على قلوب أولئك فختمنا عليها، فلم يكونوا يقبلون من أنبياء الله نصيحتهم، ولا يستجيبون لدعائهم إيّاهم إلى ربهم، بما اجترموا من الذنوب واكتسبوا من الآثام، كذلك نطبع على قلوب من اعتدى على ربّه، فتجاوز ما أمره به من توحيده، وخالف ما دعاهم إليه رسلهم من طاعته، عقوبة لهم على معصيتهم ربّهم من

(١) طريق الهجرتين، ابن القيم ١/ ٤٠٣ - ٤٠٤.
(٢) انظر: المصدر السابق.
(٣) انظر: فتح القدير، الشوكاني ٥/ ٤٦.
(٤) المحرر الوجيز ٣/ ١٣٣.

هؤلاء الآخرين من بعدهم»[1].

وقال الشنقيطي: إن الله جل وعلا بين في آيات كثيرة من كتابه العظيم: أن تلك الموانع التي يجعلها على قلوبهم وسمعهم وأبصارهم، كالختم والطبع والغشاوة والأكنة، ونحو ذلك إنما جعلها عليهم جزاء وفاقًا لما بادروا إليه من الكفر وتكذيب الرسل، والإعراض عن آيات الله باختيارهم، فأزاغ الله قلوبهم بالطبع والأكنة ونحو ذلك[2].

ومعنى الاعتداء في الآية: أي أنهم لم ينظروا في آيات الله تعالى، وكفروا بما نزل إليهم من منهج، فهم أصحاب السبب في الطبع على القلوب بالاعتداء والإعراض. وجاء الطبع لتصميمهم على ما عشقوه وألفوه[3].

وترتب على إعراضهم عن الإيمان عنادًا واستكبارًا الطبع على القلوب، كما قال تعالى: ﴿كَذَٰلِكَ يَطْبَعُ ٱللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِ ٱلَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [الروم: ٥٩].

أي: مثل ذلك الختم وحجب الخير والحق يختم الله على قلوب الجهلة الذين لا يتعلمون ولا يعلمون حقيقة الآيات البينات في القرآن المجيد، لسوء استعدادهم، وإصرارهم على تقليد الأسلاف، واعتقاد الخرافات[4].

وفسر الاعتداء في الآية: أنه الظلم مع العناد والمجاوزة عن الحد الذي جعل[5].

وقيل: معناه: الشرك ومجاوزة الحلال إلى الحرام[6].

وأما السبب الآخر للطبع على القلوب فهو «الكبر»، قال تعالى واصفا المتكبر والجبار والمجادل بالباطل: ﴿ٱلَّذِينَ يُجَٰدِلُونَ فِىٓ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ بِغَيْرِ سُلْطَٰنٍ أَتَىٰهُمْ ۖ كَبُرَ مَقْتًا عِندَ ٱللَّهِ وَعِندَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ۚ كَذَٰلِكَ يَطْبَعُ ٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ قَلْبِ مُتَكَبِّرٍ جَبَّارٍ﴾ [غافر: ٣٥].

أي: كما طبع الله على قلوب هؤلاء المجادلين، فكذلك يطبع على قلب كل متكبر جبار، فيصدر عنه أمثال ما ذكر من الإسراف والارتياب والمجادلة بغير حق، وقرئ بتنوين قلب، فما بعده صفته. ووصف القلب بالتكبر والتجبر؛ لأنه منبعهما[7].

قال الطبري في معنى الطبع على القلب المتكبر: «كذلك يطبع الله على كل قلب متكبر على الله أن يوحده، ويصدّق رسله. (جبار) يعني: متعظم عن اتباع الحقّ»[8].

(١) جامع البيان ١٥/ ١٥٤.
(٢) انظر: أضواء البيان ٣/ ٣١١.
(٣) تفسير الشعراوي ١٠/ ٦١٢١.
(٤) التفسير المنير، الزحيلي ٢١/ ١٢٢.
(٥) تأويلات أهل السنة، الماتريدي ٦/ ٧١.
(٦) تفسير القرآن العزيز، ابن أبي زمنين ٢/ ٢٦٨.
(٧) الوسيط للقرآن، نخبة من علماء الازهر ٨/ ٦٣٧.
(٨) جامع البيان ٢١/ ٣٨٤.

وقال الماتريدي: ويطبع الله على كل من تعود التكبر والتجبر على الآيات والرسل[1].

قال الزمخشري: وقرئ: «قلبٍ»[2]، بالتنوين. ووصف القلب بالتكبر والتجبر، لأنه مركزهما ومنبعهما، ونحوه قوله عز وجل: ﴿فَإِنَّهُۥٓ ءَاثِمٞ قَلۡبُهُۥ﴾[البقرة: ٢٨٣].

وإن كان الآثم هو الجملة. ويجوز أن يكون على حذف المضاف. أي: على كل ذي قلب متكبر، تجعل الصفة لصاحب القلب[3]. وقيل: أي: بمثل هذا الطبع والختم على قلب المتكبرين والجبارين، من فرعون وقومه- يطبع الله على قلب كل متكبر جبار من أهل الشرك، الذين يلقون محمدًا بالشك والارتياب والتكذيب[4].

وقيل في معنى الآية: ويتجبرون على الضعفاء بالإذلال والتسخير، والإهانة والقتل بغير حق.

قال الشعبي وغيره: لا يكون الإنسان جبارًا حتى يقتل نفسين. وقال قتادة: آية الجبابرة القتل بغير حق. وقال مقاتل: «متكبِرٍ» عن قبول التوحيد جبّارٍ في غير حق. فهو في الأول يعادي الله، وفي الثاني يقسو على خلق الله[5].

وقد قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: (لا يدخل الجنة من كان في قلبه مثقال ذرة من كبر)[6].

ثالثًا: اتباع الهوى والشهوات:

ومن الأسباب التي توجب الطبع والختم على القلب اتباع الهوى والشهوات والشبهات. فالهوى ما خالط شيئًا إلا أفسده، فإن وقع في العلم أخرجه إلى البدعة، والضلالة، وصار صاحبه من جملة أهل الأهواء. وإن وقع الهوى في الزهد أخرج صاحبه إلى الرياء، ومخالفة السنة. فما قارن الهوى شيئًا إلا أفسده، وهو يسري في القلب والأعضاء سريان السم في القلب والأعضاء[7].

والهوى: هو ميل النفس إلى الشهوة. وسمي بذلك؛ لأنه يهوي بصاحبه في الدنيا إلى كل داهية، وفي الآخرة إلى الهاوية[8]. ولم يذكر الله تعالى الهوى في كتابه إلا ذمه.

والهوى قسمان: الأول: هوى الشبهات، والثاني: هوى الشهوات، فأما القسم الأول فهو أشد القسمين خطرًا؛ إذ ربما ترتّب عليه الخروج من الإسلام، وصاحبه بعيد عن

---

(١) تأويلات أهل السنة، ٩/ ٢٨.

(٢) في قوله تعالى: ﴿كَذَٰلِكَ يَطۡبَعُ ٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ قَلۡبِ مُتَكَبِّرٖ جَبَّارٖ﴾[غافر:٣٥].

(٣) الكشاف ٤/ ١٦٧.

(٤) التفسير القرآني للقرآن، عبد الكريم الخطيب ١٢/ ١٢٣٤.

(٥) انظر: التفسير المنير، الزحيلي ٢٤/ ١١٨.

(٦) أخرجه مسلم في صحيحه، ١/ ٩٣، رقم ٩١.

(٧) انظر: موسوعة فقه القلوب، التويجري ٤/ ٣٠٩٥.

(٨) انظر: المفردات، الراغب ٨٤٩.

التوبة؛ لأنه يعتقد أنه على صواب وهو ليس كذلك. وقد أخبر سبحانه وتعالى أن اتباع الهوى يضل عن سبيله فقال: ﴿يَٰدَاوُۥدُ إِنَّا جَعَلْنَٰكَ خَلِيفَةً فِى ٱلْأَرْضِ فَٱحْكُم بَيْنَ ٱلنَّاسِ بِٱلْحَقِّ وَلَا تَتَّبِعِ ٱلْهَوَىٰ فَيُضِلَّكَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَضِلُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌۢ بِمَا نَسُوا۟ يَوْمَ ٱلْحِسَابِ﴾ [ص: ٢٦][١].

وأخبر سبحانه وتعالى في موضع آخر أنه باتباع الهوى يطبع على قلب العبد فقال: ﴿أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ طَبَعَ ٱللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ وَٱتَّبَعُوٓا۟ أَهْوَآءَهُمْ﴾ [محمد: ١٦].

وجعل الله سبحانه وتعالى متبع الهوى بمنزلة عابد الوثن فقال تعالى: ﴿أَرَءَيْتَ مَنِ ٱتَّخَذَ إِلَٰهَهُۥ هَوَىٰهُ﴾ [الفرقان: ٤٣].

وقال سبحانه في موضع آخر ﴿أَفَرَءَيْتَ مَنِ ٱتَّخَذَ إِلَٰهَهُۥ هَوَىٰهُ﴾.

قال الحسن: هو المنافق لا يهوى شيئًا إلا ركبه، وقال أيضًا: المنافق عبد هواه لا يهوى شيئًا إلا فعله[٢].

قال الطبري في قوله تعالى: ﴿أَفَرَءَيْتَ مَنِ ٱتَّخَذَ إِلَٰهَهُۥ هَوَىٰهُ وَأَضَلَّهُ ٱللَّهُ عَلَىٰ عِلْمٍ وَخَتَمَ عَلَىٰ سَمْعِهِۦ وَقَلْبِهِۦ وَجَعَلَ عَلَىٰ بَصَرِهِۦ غِشَٰوَةً فَمَن يَهْدِيهِ مِنۢ بَعْدِ ٱللَّهِ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ﴾ [الجاثية: ٢٣]: «ومعنى ذلك: أفرأيت من اتخذ دينه بهواه، فلا يهوى شيئًا إلا ركبه، لأنه لا يؤمن بالله، ولا يحرّم ما حرّم، ولا يحلّل ما حلل، إنما دينه ما هويته نفسه يعمل به[٣]. وقيل: أي: هو مطواع لهوى النفس يتبع ما تدعوه إليه، فكأنه يعبده كما يعبد الرجل إلهه»[٤].

فهذا فريق من الناس قد اتخذ إلهه هواه، فهو يعبد أهواء نفسه، فيطيعها في أوامرها ونواهيها، ويسارع في تحقيق مطالبها وشهواتها، ولو كان في ذلك أذاه وضرّه وهلاكه، ومن اتخذ إلهه هواه فقد ضل سواء السبيل، ومن ضل بجنوحه واتباعه أهواء نفسه أضلّه الله، فحكم عليه بالضلال حكمًا مبينًا على علم بواقع حالة الضال، وإذا وصل الإنسان إلى هذا المستوى من الضلال واتباع الهوى قسا قلبه، وران عليه ما كسب من إثم، فحجب عن إدراك الحقائق الدينية الربانية، وغلّف بغلاف شامل، وختم على هذا الغلاف، وكان شأن أدوات المعرفة لديه كشأن قلبه، فيختم على سمعه أيضًا، فلا يستمع إلى نصيحة، ولا يتقبل موعظة من مواعظ الهداية الربانية، ويجعل على بصره غشاوة، فلا يرى آيات علم الله وحكمته وعدله المنبثّة في الوجود[٥].

قال الشعبي: إنما سمي الهوى هوى؛

(١) انظر: روضة المحبين، ابن القيم ص ٤٠٢.
(٢) انظر: المصدر السابق ص ٤٧٥-٤٧٦.
(٣) جامع البيان ٢٢/ ٧٥.
(٤) الكشاف، الزمخشري ٤/ ٢٩١.
(٥) انظر: صراع مع الملاحدة، الميداني ص٣٩٢- ٣٩٣.

لأنه يهوي بصاحبه في النار[1]. وقال ابن عباس: ما ذكر الله هوى في القرآن إلا ذمه[2]، قال الله تعالى: ﴿وَاتَّبَعَ هَوَاهُ فَمَثَلُهُ كَمَثَلِ الْكَلْبِ﴾ [الأعراف: ١٧٦].

وقال تعالى: ﴿وَاتَّبَعَ هَوَاهُ وَكَانَ أَمْرُهُ فُرُطًا﴾ [الكهف: ٢٨].

وقال تعالى: ﴿بَلِ اتَّبَعَ الَّذِينَ ظَلَمُوا أَهْوَاءَهُم بِغَيْرِ عِلْمٍ فَمَن يَهْدِي مَنْ أَضَلَّ اللَّهُ وَمَا لَهُم مِّن نَّاصِرِينَ﴾ [الروم: ٢٩].

وقال تعالى: ﴿وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّنِ اتَّبَعَ هَوَاهُ بِغَيْرِ هُدًى مِّنَ اللَّهِ﴾[القصص: ٥٠].

وقال تعالى: ﴿وَلَا تَتَّبِعِ الْهَوَىٰ فَيُضِلَّكَ عَن سَبِيلِ اللَّهِ﴾[ص: ٢٦].

وثبت في الحديث الصحيح عن حذيفة بن اليمان قال: سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول: **(تعرض الفتن على القلوب كالحصير عودًا عودًا، فأيُّ قلب أُشربها، نُكِتَ فيه نكتةٌ سوداء، وأيُّ قلب أنكرها، نُكِتَ فيه نُكتةٌ بيضاء، حتى تصير على قلبين، على أبيض مثل الصفا فلا تضره فتنة ما دامت السماوات والأرض، والآخر أسود مربادًا؛ كالكوز مجخيًّا، لا يعرف معروفًا، ولا ينكر منكرًا، إلا ما أشرب من هواه)**[3].

وروي عن شداد بن أوس عن النبي صلى الله عليه وسلم: **(الكيس من دان نفسه وعمل لما بعد الموت. والعاجز من أتبع نفسه هواها وتمنى على الله)**[4].

إن التعبير القرآني في قوله تعالى: ﴿أَفَرَأَيْتَ مَنِ اتَّخَذَ إِلَٰهَهُ هَوَاهُ﴾ يرسم نموذجًا عجيبًا للنفس البشرية حين تترك الأصل الثابت، وتتبع الهوى المتقلب وحين تتعبد هواها، وتخضع له، وتجعله مصدر تصوراتها وأحكامها ومشاعرها وتحركاتها. وتقيمه إلها قاهرًا لها، مستوليًّا عليها، تتلقى إشاراته المتقلبة بالطاعة والتسليم والقبول. يرسم هذه الصورة ويعجّب منها في استنكار شديد: ﴿أَفَرَأَيْتَ مَنِ اتَّخَذَ إِلَٰهَهُ هَوَاهُ﴾.

أفرأيته؟ إنه كائن عجيب يستحق الفرجة والتعجيب! وهو يستحق من الله أن يضله، فلا يتداركه برحمة الهدى. فما أبقى في قلبه مكانًا للهدى وهو يتعبد هواه المريض! ﴿وَأَضَلَّهُ اللَّهُ عَلَىٰ عِلْمٍ﴾ [الجاثية: ٢٣].

على علم من الله باستحقاقه للضلالة. أو

---

(١) أخرجه ابن أبي حاتم في تفسيره ٧/ ٢٤١٩.

(٢) انظر: الجامع لأحكام القرآن، القرطبي ١٦/ ١٦٧.

(٣) أخرجه مسلم في صحيحه، ١/ ١٢٨، رقم ١٤٤.

وذكر الشيخ محمد فؤاد عبد الباقي في شرحه لقوله: (كالكوز مجخيا) أي: قُلِبَ ونُكِّسَ حتى لا يعلق به خير ولا حكمة.

(٤) أخرجه أحمد في مسنده، ٢٨/ ٣٥٠، رقم ١٧١٢٣، والترمذي في سننه، ٤/ ٢١٩، رقم ٢٤٥٩.

وضعفه الألباني في السلسلة الضعيفة، ١١/ ٤٩٩، رقم ٥٣١٩.

على علم منه بالحق، لا يقوم لهواه ولا يصده عن اتخاذه إلهًا يطاع. وهذا يقتضي إضلال الله له والإملاء له في عماه ﴿وَخَتَمَ عَلَىٰ سَمْعِهِۦ وَقَلْبِهِۦ وَجَعَلَ عَلَىٰ بَصَرِهِۦ غِشَٰوَةً﴾ [الجاثية: ٢٣].

فانطمست فيه تلك المنافذ التي يدخل منها النور، وتلك المدارك التي يتسرب منها الهدى، وتعطلت فيه أدوات الإدراك بطاعة للهوى طاعته العبادة والتسليم ﴿فَمَن يَهْدِيهِ مِنۢ بَعْدِ ٱللَّهِ﴾[الجاثية: ٢٣][1].

وجملة القول: إنّ من سننه تعالى في البشر أن من يتبع هواه في أعماله، ويستمرّ على ذلك ويدمنه الزمن الطويل، تضعف إرادته في هواه حتى تذوب وتفنى فيه، فلا تعود تؤثر فيه المواعظ القولية، ولا العبر المبصرة ولا المعقولة، وهذه الحالة يعبر عنها بالختم والرين والطبع على القلب، والصمم والعمى والبكم[2].

رابعًا: عدم الانتفاع بآيات الله في الآفاق:

ومن أسباب الطبع على القلوب عدم الانتفاع بآيات الله تعالى. سواء كانت هذه الآيات منظورة في الكون الفسيح أو مسطورة في القرآن الكريم كقصص الأمم السالفة. وقد أرشد الله تعالى الناس إلى التأمل والتفكر والتدبر ليقيم الحجة على خلقه بآياته الكونية -الأفقية والنفسية-، لذا نجده سبحانه وتعالى في كتابه الكريم يكثر من الاستدلال على العلم والقدرة والحكمة بأحوال السماوات والأرض وتعاقب الليل والنهار وكيفية تبدل الضياء بالظلام وبالعكس، وأحوال الشمس والقمر والنجوم، وأمر بالنظر في ملكوت السماء والأرض وبالتفكر فيهما.

وإن من أعظم أسباب الضلال عدم تدبر القرآن وترك التفكر في حال الرسول وعدم النظر في ملكوت السموات والأرض وما خلق الله، قال تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَنظُرُوا۟ فِى مَلَكُوتِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا خَلَقَ ٱللَّهُ مِن شَىْءٍ وَأَنْ عَسَىٰٓ أَن يَكُونَ قَدِ ٱقْتَرَبَ أَجَلُهُمْ ۖ فَبِأَىِّ حَدِيثٍۭ بَعْدَهُۥ يُؤْمِنُونَ﴾ [الأعراف: ١٨٥].

إنّ القلب محل التدبر والتفكر بآيات الله تعالى: ﴿أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ ٱلْقُرْءَانَ أَمْ عَلَىٰ قُلُوبٍ أَقْفَالُهَآ﴾ [محمد: ٢٤].

أي: بل على قلوب أقفال تمنع من التدبر والتفكر، وبه يتدبر آيات الله الكونية الخلقية في الآفاق وفي الأنفس، قال الله تعالى: ﴿أَفَلَمْ يَسِيرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ فَتَكُونَ لَهُمْ قُلُوبٌ يَعْقِلُونَ بِهَآ أَوْ ءَاذَانٌ يَسْمَعُونَ بِهَا ۖ فَإِنَّهَا لَا تَعْمَى ٱلْأَبْصَٰرُ وَلَٰكِن تَعْمَى ٱلْقُلُوبُ ٱلَّتِى فِى ٱلصُّدُورِ﴾ [الحج: ٤٦].

فبيّن سبحانه وتعالى أن المعتبر في الانتفاع بالآيات الخلقية والكونية في

(١) في ظلال القرآن، سيد قطب ٥/ ٣٢٣٠.
(٢) المنار، رشيد رضا ٩/ ٥٢٩.

الأنفس والآفاق عقل القلوب وإبصارها.

قال الطبري: أفلم يسيروا هؤلاء المكذّبون بآيات الله والجاحدون قدرته في البلاد، فينظروا إلى مصارع ضربائهم من مكذّبي رسل الله الذين خلوا من قبلهم، كعاد وثمود وقوم لوط وشعيب، وأوطانهم ومساكنهم، فيتفكّروا فيها ويعتبروا بها ويعلموا بتدبرهم أمرها وأمر أهلها، سنة الله فيمن كفر وعبد غيره وكذّب رسله، فينيبوا من عتوّهم وكفرهم، ويكون لهم إذا تدبروا ذلك واعتبروا به وأنابوا إلى الحقّ ﴿قُلُوبٌ يَعْقِلُونَ بِهَآ﴾ حجج الله على خلقه وقدرته على ما بيّنا ﴿أَوْ ءَاذَانٌ يَسْمَعُونَ بِهَا﴾ يقول: أو آذان تصغي لسماع الحقّ فتعي[1].

وذكر الزمخشري لطيفة في هذه الآية حيث قال: قد تعورف واعتقد أنّ العمى على الحقيقة مكانه البصر، وهو أن تصاب الحدقة بما يطمس نورها. واستعماله في القلب استعارة ومثل، فلما أريد إثبات ما هو خلاف المعتقد من نسبة العمى إلى القلوب حقيقة ونفيه عن الأبصار، احتاج هذا التصوير إلى زيادة تعيين وفضل تعريف، ليتقرّر أنّ مكان العمى هو القلوب لا الأبصار، كما تقول: ليس المضاء للسيف ولكنه للسانك الذي بين فكيك، فقولك: «الذي بين فكيك» تقرير لما ادّعيته للسانه وتثبيت؛ لأنّ محلّ المضاء هو هو لا غير، وكأنك قلت: ما نفيت المضاء عن السيف وأثبته للسانك فلتة وسهوًا، بل تعمدنا ذلك تعمدًا[2].

لقد أظهر الله تعالى اليأس من إيمانهم، لأن القلوب قد عميت، فلا تبصر الدلائل الكونية، ولا البراهين العقلية فقال: ﴿فَإِنَّهَا لَا تَعْمَى ٱلْأَبْصَٰرُ وَلَٰكِن تَعْمَى ٱلْقُلُوبُ ٱلَّتِى فِى ٱلصُّدُورِ﴾ [الحج: ٤٦][3].

ومما يؤكد ضرورة العناية بالقلب أنه هو المطية التي يقطع بها العبد سفر الآخرة، فإن السير إلى الله تعالى سير القلوب لا سير الأبدان. يقول الحافظ ابن رجب: الاعتبار بلين القلوب وتقواها وتطهيرها عن الآثام فسفر الدنيا ينقطع بسير الأبدان وسفر الآخرة ينقطع بسير القلوب. وقال بعض العارفين: إن سير القلوب أبلغ من سير الأبدان. كم من واصل ببدنه إلى البيت وقلبه منقطع عن رب البيت، وكم من قاعد على فراشه في بيته وقلبه متصل بالمحل الأعلى[4].

فمجرّد سماع القصص، ورؤية الآثار، والعلم بالأمم الخالية التي عوقبت لإعراضها، لا خير يرجى من ذاك ما لم يكن معه عبرة توصل إلى التوبة والتقوى؛ لذا بيّن تعالى أنّ العمى الضّارّ هو عمى البصيرة؛ لأنّها قوة فقه العبر، والنفاذ إلى المغزى،

(١) جامع البيان ١٨/ ٦٥٧.

(٢) الكشاف ٣/ ١٦٢.

(٣) تفسير المراغي ١٧/ ١٢٣.

(٤) انظر: لطائف المعارف، ابن رجب ص٢٥١.

والتيقّن من الحق، والطمأنينة بالمعاينة القلبيّة؛ لذا بعدها يكون التذكر؛ لقوله تعالى: ﴿تَبْصِرَةً وَذِكْرَىٰ لِكُلِّ عَبْدٍ مُّنِيبٍ﴾ [ق: ٨].

فالتبصّر آلة البصر، والتذكرة آلة الذكر، وهما للعبد المنيب التائب، فيبصر مواقع الآيات، ومحال العبر؛ فيزول عنه العمى والغفلة فيتذكر؛ لأنّ التبصّر يوجب حصول صورة المدلول بعد الغفلة عنها، فيتذكّر فيكون من أولي الألباب، وهم أعلى من أولي الأبصار؛ لذا قيل: إن الله يحب ذا البصر النافذ عند ورود الشبهات، والعقل الكامل عند حلول الشهوات.

ومما تقدم نخلص إلى أنّ البصيرة خصّت بالعبرة، واللّبّ خصّ بالتذكّر، فالبصيرة نورٌ في القلب؛ لقوله تعالى: ﴿أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَتَكُونَ لَهُمْ قُلُوبٌ يَعْقِلُونَ بِهَا أَوْ آذَانٌ يَسْمَعُونَ بِهَا فَإِنَّهَا لَا تَعْمَى الْأَبْصَارُ وَلَٰكِن تَعْمَى الْقُلُوبُ الَّتِي فِي الصُّدُورِ﴾ [الحج: ٤٦].

فأمر بالسياحة في الأرض، وتأمّل آثار الأمم الغابرة، وما حلّ بها بعد أن عمرت في الأرض قرونًا، فذكر ما يتكامل به الاعتبار؛ لأنّ الرؤية لها حظٌّ عظيم في الاعتبار، مع الاستماع لقصص من مضى، ولكن لا يكمل الأمر إلّا بالتدبّر بالقلب، «وعقل ذلك؛ بأن يعقل التّوحيد بما حصل له من الاستبصار والاعتبار»[1].

طرق تجنب الطبع

من المعلوم أن قلب المرء هو منطلق أعماله، فبصلاحه تصلح الأعمال عند الله وتزكو، وبفساده تفسد ولا ينتفع بها، ومن ثم فإن من فقه المرء ورجاحة عقله أن يحرص على سلامة قلبه ويجنبه دنس الشرك والآثام والذنوب، ولابد للمسلم أن يسلك الطرق التي تجنبه الطبع على القلوب لا سيما عندما تشرئب الفتن ويعظم الجهل بدين الله. وستتحدث في المطالب الآتية عن أهم طرق تجنب الطبع والختم على القلوب، ومنها: الاستجابة لدواعي الحق سبحانه وتعالى في كتابه الكريم. ومعرفة الله تعالى والبصيرة في الدين. والانتفاع بآيات الله تعالى في الآفاق والأنفس، ومن ثم الاعتبار بالمصائب والمحن والشدائد فهي تمحص قلب المؤمن وتميز الخبيث من الطيب، لذلك ينبغي للمسلم أن يعرف هذه الطرق والوسائل كي يتجنب الطبع على قلبه.

أولًا: الاستجابة لدواعي الحق:

إن من أسباب شفاء القلوب من مرضها وتجنب الختم والطبع عليها الاستجابة لأوامر الله تعالى وما أنزله الله في كتابه.

قال تعالى: ﴿أَلَمْ يَأْنِ لِلَّذِينَ آمَنُوا أَن تَخْشَعَ قُلُوبُهُمْ لِذِكْرِ اللَّهِ وَمَا نَزَلَ مِنَ الْحَقِّ وَلَا يَكُونُوا

(١) حاشية الشهاب على تفسير البيضاوي، شهاب الدين الخفاجي، ١/ ٥٢٦.

﴿كَالَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِن قَبْلُ فَطَالَ عَلَيْهِمُ الْأَمَدُ فَقَسَتْ قُلُوبُهُمْ وَكَثِيرٌ مِّنْهُمْ فَاسِقُونَ﴾ [الحديد: ١٦].

فذكر الله تعالى وقراءة القرآن الكريم وتدبره والعمل بمقتضاه، تنجي القلب من قسوته وتجنبه الطبع والران الذي يصيبه.

قال ابن القيم رحمه الله: القرآن حياة القلوب، وشفاء لما في الصدور، فبالجملة لا شيء أنفع للقلب من قراءة القرآن بالتدبر، والتفكر، وهذا الذي يورث المحبة والشوق، والخوف، والرجاء، والإنابة، والتوكل، والرضى، والتفويض، والشكر، والصبر، وسائر الأحوال التي بها حياة القلب، وكماله، وكذلك يزجر عن جميع الصفات والأفعال المذمومة التي بها فساد القلب، وهلاكه، فلو علم الناس ما في قراءة القرآن بالتدبر لاشتغلوا بها عن كل ما سواها[(١)].

وقال الحافظ ابن رجب: وفي الآية إشارة إلى أن من قدر على إحياء الأرض بعد موتها بوابل القطر فهو قادر على إحياء القلوب الميتة القاسية بالذكر، عسى لمحة من لمحات عطفه ونفحة من نفحات لطفه وقد صلح من القلوب كل ما فسد[(٢)].

وقال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اسْتَجِيبُوا لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمْ لِمَا يُحْيِيكُمْ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يَحُولُ بَيْنَ الْمَرْءِ وَقَلْبِهِ وَأَنَّهُ إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ﴾ [الأنفال: ٢٤].

قال الطبري: أي: استجيبوا للحق الذي جاءكم من الله عن طريق رسوله صلى الله عليه وسلم فإن الله تعالى أملك لقلوب عباده من أنفسهم، وأنه يحول بينهم وبينها إذا شاء، حتى لا يقدر ذو قلب أن يدرك به شيئًا من إيمان أو كفر، أو أن يعي به شيئًا، أو أن يفهم، إلا بإذنه ومشيئته. وذلك أن «الحول بين الشيء والشيء»، إنما هو الحجز بينهما، وإذا حجز جل ثناؤه بين عبد وقلبه في شيء أن يدركه أو يفهمه، لم يكن للعبد إلى إدراك ما قد منع الله قلبه إدراكه سبيلٌ[(٣)].

وقيل في معنى الآية: إنه سبحانه قريب من قلبه لا تخفى عليه خافية. فهو بينه وبين قلبه. قال ابن القيم: وكان هذا أنسب بالسياق؛ لأن الاستجابة أصلها بالقلب فلا تنفع الاستجابة بالبدن دون القلب، فإن الله سبحانه بين العبد وبين قلبه. فيعلم هل استجاب له قلبه، وهل أضمر ذلك أو أضمر خلافه[(٤)].

قال ابن القيم: إنّ الحياة النافعة إنما تحصل بالاستجابة لله ورسوله، فمن لم تحصل له هذه الاستجابة فلا حياة له وإن كانت له حياة بهيمية مشتركة بينه وبين أرذل

(١) انظر: مفتاح دار السعادة ١/ ١٨٧.
(٢) انظر: لطائف المعارف ص٣١٧.
(٣) جامع البيان ١٣/ ٤٧١.
(٤) انظر: التفسير القيم، ابن القيم ١/ ٣٠١.

الحيوانات، فالحياة الحقيقية الطيبة هي حياة من استجاب لله والرسول ظاهرًا وباطنًا، فهؤلاء هم الأحياء وإن ماتوا، وغيرهم أموات وإن كانوا أحياء الأبدان، ولهذا كان أكمل الناس حياة أكملهم استجابة لدعوة الرسول والتي تتمثل بالإسلام والإيمان والقرآن والجهاد في سبيل الله[1]. فمن استجاب فاز ونجا، ومن ترك الاستجابة عاقبه الله تعالى بأن يحول بينه وبين قلبه فلا يقدر على الاستجابة بعد ذلك، فيطبع ويختم على قلبه[2].

قال سيد قطب في تفسير قوله تعالى: ﴿وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يَحُولُ بَيْنَ الْمَرْءِ وَقَلْبِهِ﴾ [الأنفال: ٢٤]: ويا لها من صورة رهيبة مخيفة للقدرة القاهرة اللطيفة. ﴿يَحُولُ بَيْنَ الْمَرْءِ وَقَلْبِهِ﴾ فيفصل بينه وبين قلبه ويستحوذ على هذا القلب ويحتجزه، ويصرفه كيف شاء، ويقلبه كما يريد. وصاحبه لا يملك منه شيئًا وهو قلبه الذي بين جنبيه! إنها صورة رهيبة حقًّا يتمثلها القلب في النص القرآني، ولكن التعبير البشري يعجز عن تصوير إيقاعها في هذا القلب، ووصف هذا الإيقاع في العصب والحس! إنها صورة تستوجب اليقظة الدائمة، والحذر الدائم، والاحتياط الدائم. اليقظة لخلجات القلب وخفقاته ولفتاته والحذر من كل هاجسة فيه وكل ميل مخافة أن يكون انزلاقا والاحتياط الدائم للمزالق والهواتف والهواجس.. والتعلق الدائم بالله سبحانه مخافة أن يقلب هذا القلب في سهوة من سهواته، أو غفلة من غفلاته، أو دفعة من دفعاته.

ولقد كان رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو رسول الله المعصوم يكثر من دعاء ربه: «اللهم يا مقلب القلوب ثبت قلبي على دينك»[3]. فكيف بالناس، وهم غير مرسلين ولا معصومين؟! إنها صورة تهز القلب حقًّا ويجد لها المؤمن رجفة في كيانه حين يخلو إليها لحظات، ناظرًا إلى قلبه الذي بين جنبيه، وهو في قبضة القاهر الجبار وهو لا يملك منه شيئًا، وإن كان يحمله بين جنبيه ويسير! صورة يعرضها على الذين آمنوا وهو يناديهم: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اسْتَجِيبُوا لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمْ لِمَا يُحْيِيكُمْ﴾[الأنفال: ٢٤].

ليقول لهم: إن الله قادر على أن يقهركم على الهدى- لو كان يريد- وعلى الاستجابة التي يدعوكم إليها هذه الدعوة، ولكنّه سبحانه يكرمكم فيدعوكم لتستجيبوا عن طواعية تنالون عليها الأجر وعن إرادة

(١) انظر: الفوائد ص٨٨-٨٩.
(٢) انظر: شفاء العليل، ابن القيم ص٣١.

(٣) أخرجه أحمد في مسنده، ١٩/ ١٦٠، رقم ١٢١٠٧.
وصححه الألباني في سلسلة الأحاديث الصحيحة، ٥/ ١٢٦، رقم ٢٠٩١.

تعلو بها إنسانيتكم وترتفع إلى مستوى الأمانة التي ناطها الله بهذا الخلق المسمى بالإنسان. أمانة الهداية المختارة وأمانة الخلافة الواعية، وأمانة الإرادة المتصرفة عن قصد ومعرفة[1].

ثانيًا: معرفة الله والبصيرة في الدين:

أما السبب الثاني من أسباب شفاء القلوب وصلاحها وحياتها وصحتها وتجنب الطبع أو الختم عليها هو أن يستقرّ فيها معرفة الله تعالى وعظمته، ومحبته وخشيته والإنابة إليه. قال سعيد بن إسماعيل رحمه الله: «صلاح القلب من أربع خصال: التواضع لله، والفقر إلى الله، والخوف من الله، والرجاء لله»[2].

ومعرفة الله سبحانه وتعالى تكون بالقلب والعقل معًا، فالتفكر في مخلوقات الله يكون بالعقل، ثم ينتقل من دائرة العقل إلى دائرة اليقين بالقلب، وقد قرنت الآيات القرآنية التفكر في خلق السماوات والأرض - وهذا يكون بالعقل - بالتوجه القلبي لذكر الله وعبادته فقال تعالى: ﴿إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلَافِ الَّيْلِ وَالنَّهَارِ لَآيَاتٍ لِأُولِي الْأَلْبَابِ ﴿١٩٠﴾ الَّذِينَ يَذْكُرُونَ اللَّهَ قِيَامًا وَقُعُودًا وَعَلَى جُنُوبِهِمْ وَيَتَفَكَّرُونَ فِي خَلْقِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَذَا بَاطِلًا سُبْحَانَكَ فَقِنَا عَذَابَ النَّارِ﴾ [آل عمران: ١٩٠ - ١٩١].

يقول الإمام ابن القيم رحمه الله: «الرب تعالى يدعو عباده في القرآن إلى معرفته من طريقين: أحدهما: النظر في مفعولاته، والثاني التفكر في آياته وتدبرها، فتلك آياته المشهودة، وهذه آياته المسموعة المعقولة»[3].

ولمعرفة الله عزوجل دور كبير في إخضاع القلب له سبحانه؛ لأنه بقدر المعرفة تكون العبودية، فنحن نحتاج لمعرفة الله عز وجل لتزداد خشيتنا له، وخوفنا منه، ورجاؤنا فيه، وتوكلنا عليه وغير ذلك من ألوان العبودية، وقد سأل موسى عليه السلام ربه: «يا رب أي عبادك أخشى لك؟ فقال: أعلمهم بي»[4].

وما أنزل القرآن الكريم وما بعث الرّسل إلا لشيء واحد كل شيء يندرج فيه، ألا وهو أن يعرّف بالرب تبارك وتعالى وأعظم التعريف برب العالمين جل جلاله توحيده، فما توحيده إلا ناجم عن المعرفة الحقة به، وقال أحمد بن عاصم: «من كان بالله أعرف كان من الله أخوف»[5]. فأصل الدين معرفة الله؛ لأنك إذا عرفت الله، ثم عرفت أمره

(١) في ظلال القرآن ٣/ ١٤٩٥.
(٢) انظر: حلية الأولياء، أبو نعيم ١/ ٢٤٤.
(٣) الفوائد ١/ ٢٠.
(٤) أخرجه ابن المبارك في الزهد ص٧٥.
(٥) انظر: نضرة النعيم، مجموعة باحثين ٨/ ٣٤٥٤.

فإنك تتفانى في طاعته.

فالقلوب إذا لم يحركها معرفة الله عز وجل وتعظيمه، فإنّ العطب سيتمكن منها، والطبع والران سيكسوها، يقول ابن رجب رحمه الله: «فلا صلاح للقلوب حتى تستقر فيها معرفة الله وعظمته ومحبته وخشيته ومهابته ورجاؤه والتوكل عليه، وتمتلئ من ذلك، وهذا هو حقيقة التوحيد، وهو معنى (لا اله إلا الله)، فلا صلاح للقلوب حتى يكون إلهها الذي تألهه وتعرفه وتحبه وتخشاه هو الله وحده لا شريك له»[(١)].

وعن أنس رضي الله عنه عن النبي صلى الله عليه وسلم قال: (لا يستقيم إيمان عبد حتى يستقيم قلبه)[(٢)]. والمراد باستقامة إيمانه: استقامة أعمال جوارحه، فإن أعمال جوارحه لا تستقيم إلا باستقامة القلب، ومعنى استقامة القلب: أن يكون ممتلئًا من محبة الله، ومحبة طاعته، وكراهة معصيته[(٣)].

يقول ابن القيم: «فكيف بالمحبة التي هي حياة القلوب وغذاء الأرواح؟ وليس للقلب لذة ولا نعيم ولا فرح ولا حياة إلا بها، وإذا فقدها القلب كان ألمه أعظم من ألم العين إذا فقدت نورها، بل فساد القلب إذا خلا من محبة فاطره وبارئه»[(٤)].

فمن أعظم وسائل علاج القلب وصحته وسلامته من الأمراض: أن يمتلئ قلب الإنسان بمحبة الله.

يقول ابن القيم رحمه الله: فالقلب لا يفلح ولا يصلح ولا ينعم ولا يتلذذ ولا يسكن، إلا بعبادة ربه وحبه، والإنابة إليه، ولو حصل له جميع ما يلتذ به من المخلوقات لم يطمئن إليها، ولم يسكن إليها، بل لا تزيده إلا فاقةً وقلقًا حتى يظفر بما خلق له، وهي له: من كون الله وحده نهاية مراده، وغاية مطالبه، وكلما تمكنت محبة الله من القلب وقويت فيه أخرجت منه تألّهه لما سواه وعبوديته له[(٥)].

فالمسلم لا بد أن يعبد الله على بصيرة؛ لأنها تقوده إلى الفهم الثاقب الصحيح في دين الله كونها أساس السعادة ومنبع الخير، وتكمن أهمية البصيرة في دين الله عزوجل باكتساب الثقة في النفس والطمأنينة وانشراح الصدر.

ولأهمية البصيرة في الدين فقد جعلها ابن القيم رحمه الله المنزلة الثانية من منازل ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾ حيث يقول:

(١) انظر: جامع العلوم والحكم ١/ ٢١١.
(٢) أخرجه أحمد في مسنده، ٢٠/ ٣٤٣، رقم ١٣٠٤٨.
قال الشيخ شعيب الأرناؤوط: إسناده ضعيف لضعف علي بن مسعدة الباهلي.
(٣) انظر: جامع العلوم والحكم ١/ ٢١١.
(٤) الجواب الكافي، ص٢٣٣.
(٥) انظر: إغاثة اللهفان، ابن القيم ٢/ ١٩٨.

«فالبصيرة نور يقذفه الله في القلب، يرى به حقيقة ما أخبرت به الرسل، كأنه يشاهده رأي العين، فيتحقق مع ذلك انتفاعه بما دعت إليه الرسل، وتضرره بمخالفتهم، وهذا معنى قول بعض العارفين: البصيرة تحقق الانتفاع بالشيء والتضرر به»[1].

ولقد ذكر الله عز وجل البصيرة في كتابه العزيز بل وربطها بمقام الدعوة الذي هو من أجل المقامات حيث قال عزوجل: ﴿قُلْ هَٰذِهِۦ سَبِيلِىٓ أَدْعُوٓا۟ إِلَى ٱللَّهِ ۚ عَلَىٰ بَصِيرَةٍ أَنَا۠ وَمَنِ ٱتَّبَعَنِى ۖ وَسُبْحَٰنَ ٱللَّهِ وَمَآ أَنَا۠ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ﴾ [يوسف: ١٠٨].

جاء في لسان العرب: البصيرة الحجة والاستبصار من الشيء. والبصر نفاذ في القلب، وبصر القلب نظره وخاطره، والبصيرة هي عقيدة القلب[2].

وقال الراغب الأصفهاني: يقال لقوة القلب المدركة: بصيرة وبصر، وجمع البصر أبصار، وجمع البصيرة بصائر، ومنه ﴿عَلَىٰ بَصِيرَةٍ﴾ أي: معرفة وتحقق[3].

وذكر الكفوي رحمه الله أن البصيرة: «قوة في القلب تدرك بها المعقولات، وقوة القلب المدركة بصيرة»[4].

وقال القرطبي: أي: «على يقين وحق»[5].

وقال البيضاوي: «أي: بيان وحجة واضحة غير عمياء»[6].

وقال الإمام البغوي: «البصيرة هي المعرفة التي تميز بها الحق والباطل»[7].

وقال الإمام البقاعي ﴿عَلَىٰ بَصِيرَةٍ﴾ أي: «حجة واضحة من أمري، بنظري الأدلة القاطعة والبراهين الساطعة، وترك التقليد الدال على الغباوة والجمود، لأن البصيرة المعرفة التي يتميز بها الحق من الباطل دينًا ودنيا بحيث يكون كأنه يبصر المعنى بالعين»[8].

فالبصيرة هي الدليل الواضح من غير لبس فيه، الذي يعصم الإنسان من الزلل والشطط والانحراف، ويهديه الى جادة الصواب ويصحح سلوكه، والبصيرة هي الدين والبيان، وهي العلم الذي تميز به الحق والباطل، بل هي النور الذي يبصر به القلب والحجة التي تدرك بها الحقائق العملية.

والبصيرة فعلها ووظيفتها التبصر، وهذه درجة قبل التذكر، فهي نور في القلب يبصر به، فيقوم في قلبه شواهد الحق ويرى حقيقة ما يبلغه ويخبر به عن طريق الرسل، فالبصيرة هي ما يخلصك من الحيرة، فمن

(١) انظر: مدارج السالكين ١/ ١٤٣.
(٢) انظر: لسان العرب، ٤/ ٦٥.
(٣) انظر: المفردات ص١٢٧.
(٤) الكليات ص٢٤٧.
(٥) الجامع لأحكام القرآن ٩/ ٢٧٤.
(٦) أنوار التنزيل ٣/ ١٧٨.
(٧) معالم التنزيل ٤/ ٢٨٢.
(٨) نظم الدرر ١٠/ ٢٤٢.

عرفها ورزقها وذاقها فإنه يسير في حياته على هدى من ربه ويقين، من غير شك ولا شبهة ولا اضطراب.

فهناك بصر وبصيرة، وهناك رؤية عينية ورؤية قلبية، فقد يمر الإنسان ببصره على كثير من الآيات والدلائل على القدرة الإلهية ولا يحسّ بها ولا يدرك حقيقتها؛ لأن بصيرته مظلمة، ولأن قلبه أعمى، وقد تنكشف الحقائق فيراها أمامه جلية واضحة، يراها بقلبه، يراها ببصيرته، التي في أعماق نفسه، فيدرك أبعادها ويفهم دقائقها فيعرف ما ورائها من حكمة.

والبصيرة في الدين من أعظم ما يرزق به المتقي، حيث تكون له بصيرة وفرقان يفرّق به بين الحق والباطل وأن يكون له نورًا يضيء دربه فيحذر الشر ويرجو الخير.

وختامًا يمكن القول: إن معرفة الله والبصيرة في الدين هي خير دواء للقلوب من أمراضها؛ لأنها تجعل القلب دائم الحضور مع الله، حتى يصبح القلب حيًّا أبيض يشعّ النور من جنباته؛ لأن البصيرة في الدين هي الرؤية الإيمانية التي تضيء القلوب بنور الإيمان، فيرى الوجود بعين البصيرة لا بعين البصر، لأن القلب البصير أصبح يعقل ويدرك فتتكشف أمامه الحقائق كما يسلط النور على الأشياء فتتضح وسط الظلمة.

ثالثًا: لزوم التقوى والعمل الصالح:

ومن أوجه التقوى: تنزيه القلب عن الذنوب، وهذه هي الحقيقة في التقوى، ألا ترى في قوله تعالى: ﴿وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَيَخْشَ ٱللَّهَ وَيَتَّقْهِ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْفَآئِزُونَ﴾ [النور: ٥٢].

فالملاحظ هنا أن الله تعالى ذكر الطاعة والخشية ثم ذكر التقوى، فعلم بهذا أن حقيقة التقوى بمعنى غير الطاعة والخشية، وهي تنزيه القلب عن ذنب لم يسبق منك مثله[(١)].

وأما المعنى الاصطلاحي للتقوى فقد عرفها العلماء بتعاريف عديدة فمن ذلك قال الإمام ابن القيم رحمه الله: «وأما التقوى: فحقيقتها العمل بطاعة الله إيمانًا واحتسابًا، أمرًا ونهيًا، فيفعل ما أمر الله به، إيمانًا بالأمر وتصديقًا بوعده، ويترك ما نهى الله عنه إيمانًا بالناهي وخوفًا من وعيده»[(٢)]. وقال الإمام ابن عطية: التقوى: أن تجعل بينك وبين عذاب الله وقاية[(٣)].

ومما قيل في حقيقة التقوى: ما قاله طلق بن حبيب: «التقوى عمل بطاعة الله، على نور من الله، رجاء رحمة الله، وأن تترك معصية الله، على نور من الله، خيفة عذاب

(١) انظر: بصائر ذوي التمييز، الفيروزآبادي ٥/ ٢٥٨.
(٢) الرسالة التبوكية ١/ ١٣.
(٣) انظر: المحرر الوجيز، ١/ ٢٣٠.

الله»[1].

قال الحافظ الذهبي معلقًا على قول طلق: في التقوى: «أبدع وأوجز، فلا تقوى إلا بعمل، ولا عمل إلا بتروٍّ من العلم والإتباع، ولا ينفع ذلك إلا بالإخلاص لله، لا ليقال: فلان تارك للمعاصي بنور الفقه، إذ المعاصي يفتقر اجتنابها إلى معرفتها، ويكون الترك خوفًا من الله، لا ليمدح بتركها، فمن دوام على هذه الوصية فقد فاز»[2].

وسأل عمر بن الخطاب أبي بن كعب رضي الله عنهما عن التقوى فقال: أما سلكت طريقًا ذا شوك؟ قال: نعم. قال: فما عملت؟ قال: شمّرت واجتهدت، قال: فذلك التقوى[3].

وخير لباس يتزود به العبد الصالح لمرحلة الآخرة هو التقوى والعمل الصالح، مما يؤكد هذا الكلام قوله تعالى: ﴿يَٰبَنِيٓ ءَادَمَ قَدۡ أَنزَلۡنَا عَلَيۡكُمۡ لِبَاسٗا يُوَٰرِي سَوۡءَٰتِكُمۡ وَرِيشٗاۖ وَلِبَاسُ ٱلتَّقۡوَىٰ ذَٰلِكَ خَيۡرٞۚ ذَٰلِكَ مِنۡ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ لَعَلَّهُمۡ يَذَّكَّرُونَ﴾ [الأعراف: ٢٦].

فبعد أن تمنن الله عز وجل على عباده بأن جعل لهم من اللباس والريش، ما يستر به العورات، دلّهم على أفضل لباس، وهو ما يواري عورات الظاهر والباطن ويتجمل به وهو لباس التقوى[4]. قال ابن عباس رضي الله عنهما في قوله تعالى: ﴿وَلِبَاسُ ٱلتَّقۡوَىٰ ذَٰلِكَ خَيۡرٞ﴾: «هو العمل الصالح»[5].

وقيل: السمت الحسن في الوجه[6]. وقيل: ما علمه الله عزوجل وهدي به، وقيل: ستر العورة للصلاة، التي هي التقوى. وقيل: الحياء[7].

وقد جمع الإمام الطبري رحمه الله بين هذه المعاني جميعًا وعلّل ذلك بقوله: «لأن من اتقى الله كان به مؤمنًا، وبما أمره به عاملًا، ومنه خائفًا، وله مراقبًا، ومن أن يرى عندما يكرهه مستحيًا، ومن كان كذلك ظهرت آثار الخير فيه، فحسن سمته وهديه، ورئيت عليه بهجة الإيمان ونوره»[8].

والتقوى كما ذكر القرآن الكريم أصلها في القلب، وثمرتها على الجوارح بأداء الفرائض والنوافل واجتناب المحرمات، والتقوى في الحقيقة تقوى القلوب لا تقوى الجوارح؛ لأن العبد إنما يقطع منازل السير إلى الله بقلبه وهمته لا ببدنه[9]. قال تعالى: ﴿وَمَن يُعَظِّمۡ شَعَٰٓئِرَ ٱللَّهِ فَإِنَّهَا مِن تَقۡوَى

---

(١) أخرجه ابن المبارك في الزهد ص٤٧٣.
(٢) سير أعلام النبلاء ٤/ ٦٠١.
(٣) انظر: الجامع لأحكام القرآن، القرطبي ٢٠/ ٣٢، منهج القرآن في تربية الرجال، عبد الرحمن عميرة ص٩٩.
(٤) انظر: التحرير والتنوير، ابن عاشور ٨/ ٧٥.
(٥) انظر: النكت والعيون، الماوردي ٢/ ٢١٤.
(٦) انظر: زاد المسير، ابن الجوزي ٢/ ١١٠.
(٧) انظر: النكت والعيون، الماوردي ٢/ ٢١٤.
(٨) جامع البيان ١٢/ ٣٧١.
(٩) انظر: الفوائد، ابن القيم ص١٤١.

﴿الْقُلُوبِ﴾ [الحج: ٣٢].

يقول سيد قطب: «إن التقوى زاد القلوب والأرواح منه تقتات، وبه تتقوى وترف وتشرف، وعليه تستند في الوصول والنجاة وأولوا الألباب هم أول من يدرك التوجيه إلى التقوى وخير من ينتفع بهذا الزاد»[(١)].

والتقوى للقلب كجهاز المناعة للبدن، فكلاهما يدرك ويواجه أسباب المرض، وتنشأ التقوى من الإيمان بالله وخشيته والعلم بما أنزله من أحكام وحدود، فبالتقوى يدرك القلب إلقاءات الشيطان بسرعة، فإذا همّ بالذنب أو أصابه تذكر وعد الله ووعيده، وأبصر غواية الشيطان، فيستغفر الله من قريب، وبهذا يقي نفسه التعرض لسخط الله وعقابه، أما غير التقي فيترك الفتنة تدمر قلبه كما تدمر الجراثيم عضوًا في الجسد لضعف جهاز المناعة[(٢)]، قال تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ اتَّقَوْا إِذَا مَسَّهُمْ طَائِفٌ مِنَ الشَّيْطَانِ تَذَكَّرُوا فَإِذَا هُمْ مُبْصِرُونَ ۝٢٠١﴾ [الأعراف: ٢٠١].

فإذا ما طاف الشيطان بالمس للذين اتقوا تذكروا خالق الشيطان وخالقهم، وتذكروا منهج الله الذي يصادم شهواتهم، وتذكروا إن عين الله تراهم ولا تغفل عنهم[(٣)].

فالتقوى تجعل القلب نورًا لكشف الشبهات، ويزيل الوساوس والأوهام، ويثبّت الأقدام على الطريق الشائك الطويل، بل إنها لتجعل قلب المؤمن مرجعًا عند التباس الأمور، واضطراب الموازين والأفهام، وهي تجعل في قلب المؤمن فرقانًا يكشف له معالم الطريق إلى الله، ولا يعرف هذه الحقيقة إلا من ذاقها وأخلص في التعامل معها، وغمرت مخافة الله وتقواه فؤاده[(٤)].

والتقوى تفتح مغاليق القلوب، قال تعالى: ﴿وَاتَّقُوا اللَّهَ وَيُعَلِّمُكُمُ اللَّهُ﴾ [البقرة: ٢٨٢].

وهداية القرآن لا تكون بغير ذوي النفوس التقية، والقلوب الزكية تتوقى الضلالة، وتتجنب سبل الغواية، وبالتقوى يكون الفرقان بين الحق والباطل، وبها العرفان الذي تتجلى به الأمور، والنور الذي يشرح به الصدور.

قال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَآمِنُوا بِرَسُولِهِ يُؤْتِكُمْ كِفْلَيْنِ مِنْ رَحْمَتِهِ وَيَجْعَلْ لَكُمْ نُورًا تَمْشُونَ بِهِ وَيَغْفِرْ لَكُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ [الحديد: ٢٨].

وقال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنْ تَتَّقُوا اللَّهَ يَجْعَلْ لَكُمْ فُرْقَانًا وَيُكَفِّرْ عَنْكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ﴾ [الأنفال: ٢٩].

فالتقوى هي فرقان القلب و(الفرقان)

---

(١) في ظلال القرآن ١/ ١٩٧.

(٢) انظر: مدارج السالكين، ابن القيم ٣/ ٨٨.

(٣) انظر: تفسير الشعراوي ٨/ ٤٥٣٨.

(٤) انظر: في ظلال القرآن، سيد قطب ٣/ ١٤٩٩.

هو: «النصر؛ لأنه يفرق بين الحق والباطل»[1]. وعن ابن عباس رضي الله عنهما ﴿فُرْقَانًا﴾: «مخرجًا، وزاد مجاهد في الدنيا والآخرة»[2].

وحقيقة التقوى أنها حالة قلبية، تقوم على خشية الله ومراقبته، وتعظيم أمره ونهيه، تبعث صاحبها على فعل ما يحب الله ويرضى، والمسارعة فيه، واجتناب ما يسخطه والبعد عنه، ومحلها القلب، والقلب يضخّ آثارها على سائر الجوارح والأعضاء، كما يضخّ الدم من القلب، فينشر في سائر الجسد، فتعمل أجهزته، وتحيا به خلاياه[3].

قال أبو حاتم: «العاقل يدبر أحواله بصحة الورع، ويمضي لسانه بلزوم التقوى؛ لأن ذلك أول شعب العقل، وليس إليه سبيل إلا بصلاح القلب»[4].

واعتبر القرآن الكريم القلب مركزًا لسلسلة من الإلهامات والإلقاءات الإلهية، حيث إن كل إنسان وفي أي مستوى محافظ على طهارته القلبية، وعامل منقذ لها، فإن هذا المركز سيكون طريقًا للخلاص من جميع الأمراض ولا سيما الطبع على القلوب.

وكما أن القلب يتعرض للأمراض والعلل، فإن هذا القلب يحصل له من الأحوال الإيمانية، والمقامات التعبدية، من الصفحات المحمودة مثل: اللين، والإخبات، والخشوع، والإخلاص، والحب، والتقوى، والثبات، والخوف والرجاء والإنابة، والنتيجة سلامة القلب التي قال عنها الخالق سبحانه: ﴿إِلَّا مَنْ أَتَى ٱللَّهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ﴾ [الشعراء: ٨٩].

فالحياة الإيمانية صفة قلب صاحبه أبيض.

فالتقوى هي الدواء لكل الأمراض التي يصاب بها القلب كالجهل والنفاق والحقد والتكبر وغير ذلك، والتقوى هي العلاج الوحيد الواقي من هذه الأمراض، فهي تزيد مرآة القلب جلاءً وإشراقًا، ونورًا وضياءً حتى يتلألأ[5].

فالواجب على العاقل أن لا ينسى تعاهد قلبه بترك ورود السبب الذي يورث القساوة له عليه؛ لأنه بصلاح الملك تصلح الجنود، وبفساده تفسد الجنود، فإذا اهتم بإحدى الخصلتين تجنب أقربها عن هواه، وتوخى أبعدها من الردى، فلا بد من إصلاح السرائر، وترك إفساد الضمائر، والواجب على العاقل الاهتمام بإصلاح سريرته، والقيام بحراسة

(١) الكشاف، الزمخشري ٢/ ١٥٤.

(٢) انظر: تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ٤/ ٤٣، أضواء البيان، الشنقيطي ٢/ ٥٢

(٣) انظر: موسوعة فقه القلوب، التويجري ٦/ ٨٧.

(٤) روضة العقلاء، ابن حبان ص ٣٠.

(٥) انظر: إحياء علوم الدين، الغزالي ٣/ ١٢

قلبه عند إقباله وإدباره، وحركته وسكونه، لأن تكدر الأوقات، وتنقص اللذات، لا يكون إلا عند فساده[1].

قال مالك بن دينار رحمه الله: إن القلب إن لم يكن فيه حزن خرب، كما يخرب البيت إذا لم يكن فيه ساكن، وإنّ قلوب الأبرار تغلي بأعمال البر، وإن قلوب الفجار تغلي بأعمال الفجور، والله يرى همومكم، فأنظروا ما همومكم ؟ رحمكم الله[2].

والمتأمل لآيات القران الكريم يجد أن الله عز وجل ربط عدم السماع بالطبع بالذنوب، فقال تعالى ﴿لَّوْ نَشَآءُ أَصَبْنَٰهُم بِذُنُوبِهِمْ ۚ وَنَطْبَعُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ فَهُمْ لَا يَسْمَعُونَ﴾ [الأعراف: ١٠٠].

كما ربط السماع بالتقوى فقال تعالى: ﴿وَاتَّقُوا اللَّهَ وَاسْمَعُوا﴾[المائدة: ١٠٨].

وخلاصة المقال: إن القلب إذا زاد نوره بالتقوى والعمل الصالح ينيب إلى الله، ويحب الطاعات ويكره المعاصي، وبالإيمان وبتقوى الله وامتثال أوامره في كل حال يزيد نور القلب، وبالكفر والمعاصي يزيد ظلام القلب والطبع عليه[3]؛ لأن التقوى هي التي تحبب الوازع الديني في النفس، فلا يحتاج صاحبها بعد ذلك إلى رقيب أو حسيب، فهي كالحاجز للمسلم من كل شر وسوء، والدافعة إلى كل خير.

رابعًا: الانتفاع بآيات الله في الآفاق والأنفس:

ومن الأسباب الأخرى التي تؤدي إلى شفاء القلوب من أمراضها وتمنع الطبع عليها الانتفاع بآيات الله في الآفاق والأنفس، إذ إن التفكر في مخلوقات الله تعالى والتدبر والتأمل في كتاب الكون المفتوح، وتتبع قدرة الله المبدعة وهي تحرّك هذا الكون، وتقلب صفحاته من شأنه أن يجعل القلب دائم الصلة بالله، فيملؤه بالخوف والرجاء والتعظيم والتوكل والاستسلام لله عز وجل.

إن التفكر والانتفاع بآيات الله في الآفاق والأنفس ومعرفة الله عزوجل، إنما ينشأ من توجيه القلب إلى الله تعالى وإيقاظه لرؤية آلائه، أمام هذا الخلق الهائل العجيب، من خلال رؤية مخلوقاته، وعجائب قدرته وبديع صنعه، ورؤية آثار رحمته ومظاهر قدرته، وقوته وبطشه في إهلاك الظالمين على مرّ القرون والأزمان[4].

وآيات الله في الآفاق والأنفس، تعدّ بابًا واسعًا من أبواب الإيمان الحق بالله تعالى، وطريقًا إلى خشيته وطاعته، فالباحث في العلم يوقن، والمتأمل في الكون يشعر حينما

---

(١) انظر: أمراض القلوب وشفاؤها، ابن تيمية ص٤٢.
(٢) انظر: مفتاح دار السعادة، ابن القيم ١/ ١٢٤
(٣) انظر: موسوعة فقه القلوب، التويجري ١/ ٣.
(٤) انظر: المصدر السابق ٣/ ٣١.

يقرأ آيات القرآن الكريم المتعلقة بخلق الكون والإنسان، يوقن بأن القرآن الكريم مستحيل أن يأتي به بشر، ومصداق هذا قوله تعالى: ﴿سَنُرِيهِمْ آيَاتِنَا فِي الْآفَاقِ وَفِي أَنفُسِهِمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ الْحَقُّ ۗ أَوَلَمْ يَكْفِ بِرَبِّكَ أَنَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ﴾ [فصلت: ٥٣].

إن القرآن الكريم يدعونا إلى التأمل والتدبر والنظر في آيات الله تعالى في عالم الطبيعة والخلق -آفاق الكون وأغوار النفس- ويعد هذا النظر والتفكر جديرًا بأهل الفكر والألباب وأصحاب الضمائر الحية والقلوب السليمة، وكثيرًا ما تأتي اللفتات الكريمة في القرآن الكريم إلى آيات الله وعظيم صنعه، وكريم لطفه وإحسانه، ثم تذيل هذه الآيات بقوله: ﴿أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾ [المؤمنون:٨٠]، ﴿أَفَلَا تَذَكَّرُونَ﴾ [يونس:٣].

قال تعالى: ﴿إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَالْفُلْكِ الَّتِي تَجْرِي فِي الْبَحْرِ بِمَا يَنفَعُ النَّاسَ وَمَا أَنزَلَ اللَّهُ مِنَ السَّمَاءِ مِن مَّاءٍ فَأَحْيَا بِهِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا وَبَثَّ فِيهَا مِن كُلِّ دَابَّةٍ وَتَصْرِيفِ الرِّيَاحِ وَالسَّحَابِ الْمُسَخَّرِ بَيْنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾ [البقرة:١٦٤].

وقال تعالى: ﴿وَهُوَ الَّذِي مَدَّ الْأَرْضَ وَجَعَلَ فِيهَا رَوَاسِيَ وَأَنْهَارًا ۖ وَمِن كُلِّ الثَّمَرَاتِ جَعَلَ فِيهَا زَوْجَيْنِ اثْنَيْنِ ۖ يُغْشِي اللَّيْلَ النَّهَارَ ۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾ [الرعد: ٣].

وشفاء القلوب من الطبع عليها إنما يكون بتحصين القلوب بالإيمان واليقين من خلال تفكر الإنسان بآيات الله في الآفاق والأنفس والانتفاع بها، فالإيمان هو الذي يفتح القلوب لتلقي الأصداء، والأضواء، ورؤية النعيم والآلاء، يقول الإمام ابن القيم: كلما قوي الإيمان وازداد نوره في القلب، أحسّ المرء بانشراح في صدره، وتضائل شعوره بالضيق، فإذا ما استمرّ النور في دخول القلب، ازدادت مساحة الإيمان فيه، وشيئًا فشيئًا تصبح مساحة الإيمان في القلب أكثر فأكثر اتساعًا من غيرها، فيحدث حدث مهم ومادي يشعر به المرء في لحظة سعيدة من لحظات عمره، ألا وهو شعوره بتحرك قلبه في صدره حركة سريعة ومضطربة، وهذا ما يسمى بولادة القلب الحي أو الولادة الثانية[1].

فالإيمان له آثار ايجابية في حياة الإنسان، والقلب إذا استنار بنور الإيمان انعكست آثار ذلك على الإنسان، فترى الطمأنينة تملأ قلبه، وهذا الإيمان يجعل الإنسان في رقابة على نفسه من داخله.

إن تأمل آيات الله في الآفاق والأنفس يوقظ القلوب، ويفتح مغاليقها، ويوجه القلب إلى تعظيم مبدع هذا الكون.

(١) انظر: شفاء العليل ١٠٧.

قال تعالى: ﴿إِنَّ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ لَآيَاتٍ لِّلْمُؤْمِنِينَ ۝ وَفِي خَلْقِكُمْ وَمَا يَبُثُّ مِن دَابَّةٍ آيَاتٌ لِّقَوْمٍ يُوقِنُونَ ۝ وَاخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَمَا أَنزَلَ اللَّهُ مِنَ السَّمَاءِ مِن رِّزْقٍ فَأَحْيَا بِهِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا وَتَصْرِيفِ الرِّيَاحِ آيَاتٌ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾ [الجاثية: ٣ - ٥].

إنّ آيات الله في الكون لا تتجلى عن حقيقتها إلا للقلوب الذاكرة العابدة، فالذين يذكرون الله قيامًا وقعودًا ويتفكرون في خلق السماوات والأرض، واختلاف الليل والنهار، هم الذين تنفتح لبصائرهم الحقائق الكبرى المنطوية في خلق السماوات والأرض، بخلاف الكثير من الناس الذين يمّرون على آيات الله تعالى، وهم عنها غافلون، فلا قلب يعقل، ولا عين تبصر، ولا آذان تسمع، ولا فؤاد يهتز، ولا ضمير ينيب.

قال تعالى عن هذا الصنف من الناس: ﴿وَلَقَدْ ذَرَأْنَا لِجَهَنَّمَ كَثِيرًا مِّنَ الْجِنِّ وَالْإِنسِ ۖ لَهُمْ قُلُوبٌ لَّا يَفْقَهُونَ بِهَا وَلَهُمْ أَعْيُنٌ لَّا يُبْصِرُونَ بِهَا وَلَهُمْ آذَانٌ لَّا يَسْمَعُونَ بِهَا ۚ أُولَٰئِكَ كَالْأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ ۚ أُولَٰئِكَ هُمُ الْغَافِلُونَ﴾ [الأعراف: ١٧٩].

أما أصحاب القلوب السليمة من الأمراض فهي تحيا مع آيات الله بآذان صاغية، وعيون راعية، وقلوب واعية.

قال تعالى: ﴿وَالَّذِينَ إِذَا ذُكِّرُوا بِآيَاتِ رَبِّهِمْ لَمْ يَخِرُّوا عَلَيْهَا صُمًّا وَعُمْيَانًا﴾ [الفرقان: ٧٣].

فهو ينظر إليها بعقله، وينتفع بهديها ويستضيء بنورها، فهو ينظر الى آيات الله على أنها ناطقة بوجود الله ووحدانيته، بل هي أبلغ بيان ينطق بصفات الله تعالى وعظيم آلائه.

وقد أثنى الله سبحانه وتعالى على عباده المتفكرين في مخلوقاته ومدحهم؛ لأن تفكّرهم فيها أوصلهم إلى شهادته بأنه تعالى لم يخلقهم باطلًا بل أحدث في قلوبهم مزيدًا من الخشية والإنابة.

قال تعالى: ﴿إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ لَآيَاتٍ لِّأُولِي الْأَلْبَابِ ۝ الَّذِينَ يَذْكُرُونَ اللَّهَ قِيَامًا وَقُعُودًا وَعَلَىٰ جُنُوبِهِمْ وَيَتَفَكَّرُونَ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَٰذَا بَاطِلًا سُبْحَانَكَ فَقِنَا عَذَابَ النَّارِ﴾ [آل عمران: ١٩٠ - ١٩١].

والمعنى: تدبروا أيها الناس واعتبروا، فيما أنشأته فخلقته من السماوات والأرض، لمعاشكم وأقواتكم وأرزاقكم، وفيما عقّبت بينه من الليل والنهار، فجعلتهما يختلفان ويعتقبان عليكم، تتصرفون في هذا لمعاشكم، وتسكنون في هذا لراحة أجسامكم، معتبر ومدكر، وآيات واعظات، لمن كان منكم ذا لب وعقل[(١)].

قال الرازي: «اعلم أن المقصود من هذا الكتاب الكريم جذب القلوب، والأرواح

(١) انظر: جامع البيان، الطبري ٧/ ٤٧٣.

من الاشتغال بالخلق إلى الاستغراق في معرفة الحق، فلما طال الكلام في تقرير الأحكام، والجواب على شبهات المبطلين، عاد إلى إنارة القلوب بذكر ما يدل على التوحيد، والإلهية، والكبرياء، والجلال، فذكر هذه الآيات»[1].

فالتفكر يذهب الغفلة ويحدث في القلب الخشية، كما يحدث الماء للزرع النبات، وما جليت القلوب بمثل الأحزان ولا استنارت بمثل الفكرة، إذ إن التفكر في أمر الله هو من عمل القلوب[2].

وما أحسن ما قاله الزمخشري في وصف أولي الألباب بقوله: «الذين يفتحون بصائرهم للنظر والاستلال والاعتبار، ولا ينظرون إليها نظر البهائم غافلين عما فيها من عجائب الفطر»[3].

والقرآن الكريم يوجه القلوب والأنظار توجيهًا مكررًا مؤكدًا إلى هذا الكتاب المفتوح الذي لا تفتأ صفحاته تقلب، فتبتدي في كل صفحة آية موصية، تستجيش في الفطرة السلمية إحساسًا بالحق المستمر في صفحات هذا الكتاب، وأولوا الإدراك الصحيح هم الذين يتفكرون بآيات الله وينتفعون بها ولا يقيمون الحواجز، ولا يغلقون المنافذ بينهم وبين هذه الآيات، فهم يتوجهون الى الله بقلوبهم قيامًا وقعودًا وعلى جنوبهم، فتتفتح بصائرهم، وتشف مداركهم، وتتصل بحقيقة الكون التي أودعها الله إياه[4].

وأولوا الألباب هم الذين ينظرون ويستفيدون ويهتدون ويستحضرون عظمة الله ويتذاكرون حكمته وفضله وجليل نعمه في جميع أحوالهم، وهم الذين لا يغفلون عن الله تعالى في عامة أوقاتهم؛ لأن قلوبهم مطمئنة بذكره تعالى ومراقبته، وخص الخالق سبحانه وتعالى في هذه الآيات أولي الألباب، وهم أصحاب العقول، لأنهم هم المنتفعون بها، الناظرون إليها بعقولهم وقلوبهم لا بأبصارهم[5].

كما أن في خلق الله تعالى للإنسان آية للمتوسمين، وعبرة للمعتبرين، وعظة للمتعظين.

يقول سبحانه: ﴿وَفِىٓ أَنفُسِكُمْ ۚ أَفَلَا تُبْصِرُونَ﴾ [الذاريات: ٢١].

أي: أفلا تنظرون نظر من يعتبر في اختلاف الألسنة والألوان، والتفاوت في العقول والإفهام، واختلاف الأعضاء، وتعدد وظائف كل منها على وجه يحتار فيه اللب، ويدهش منه العقل[6].

يقول سيد قطب: «وهذا المخلوق

(١) مفاتيح الغيب ٩/ ٤٥٨.
(٢) انظر: الكشاف ١/ ٤٥٤.
(٣) المصدر السابق ١/ ٤٥٢.
(٤) انظر: في ظلال القرآن، سيد قطب ١/ ٥٤٤.
(٥) انظر: تفسير المراغي ٤/ ١٦٢.
(٦) انظر: المصدر السابق ٢٦/ ١٨٠.

الإنساني هو العجيبة الكبرى في الأرض، ولكنه يغفل عن قيمته وعن أسراره الكامنة في كيانه، حين يغفل قلبه عن الإيمان وحين يحرم نعمة اليقين»[(١)].

والنص القرآني يريد أن يوقظ القلب البشري للتأمل والتدبر واستجلاء العجائب، غير أنه لا يدرك هذه العجائب إلا القلب العامر باليقين، فلمسة اليقين هي التي تحيي القلوب[(٢)].

يقول ابن القيم: «لما كان أقرب الأشياء إلى الإنسان نفسه دعاه خالقه وبارئه ومصوّره وفاطره من قطرة ماء إلى التبصر والتفكر في نفسه، فإذا تفكّر الإنسان في نفسه استنارت له آيات الربوبية وسطعت له أنوار اليقين واضمحلّت عنه غمرات الشك والريب، وانقشعت عنه ظلمات الجهل، فإنه إذا نظر في نفسه وجد آثار التدبير فيه قائمات، وأدلة التوحيد على ربه ناطقات، شاهدة لمدبره، دالة عليه، مرشدة إليه»[(٣)].

فلا بد للمسلم صاحب القلب الحي أن يتأمل في آيات الله في الآفاق والأنفس وأن ينتفع بها؛ لأن الله تعالى فضّله عن باقي خلقه بنعمة القلب والعقل، والسمع والبصر، والفؤاد، فالإنسان الحي هو من أحيا قلبه بالتدبر والتفكر والانتفاع من ذلك؛ لأن في ذلك شفاء للقلوب المريضة.

إذ ليس الهدف من نزول القرآن الكريم التلاوة والتلفظ باللسان، بل لكي تكون آياته منبعًا للفكر والتدبر وسببًا ليقظة الوجدان.

قال تعالى: ﴿كِتَٰبٌ أَنزَلْنَٰهُ إِلَيْكَ مُبَٰرَكٌ لِّيَدَّبَّرُوٓاْ ءَايَٰتِهِۦ وَلِيَتَذَكَّرَ أُوْلُواْ ٱلْأَلْبَٰبِ﴾ [ص: ٢٩].

وتدبر القرآن الكريم هو تحديق نظر القلب إلى معانيه، وجمع الفكر على تدبره وتعقله، إذ إن قلب المتدبر للقرآن، ينتابه تطلّع وتشرّق، كما ينتاب المريض شعور بالبحث عن العلاج، أو كما ينتاب الحائر شعور بالبحث عن الدلالة والهداية.

خامسًا: الاعتبار بالمصائب والمحن:

ومن أسباب شفاء القلوب من مرضها وتجنب الطبع عليها هو الاعتبار بالمصائب والمحن التي تمرّ بها القلوب عند الشدائد، إذ إنّ للقلوب أهمية عظيمة عند الشدائد والمحن، وينبغي للمسلم أن تكون تصرفاته صحيحة غير طائشة، بل يجب أن تكون منضبطة بنور شريعة الإسلام، ولابد لنور القلوب أن يشعشع في قلوب المسلمين أوقات الشدائد.

فالمؤمن الذي يريد أن يتجنب الطبع على قلبه لا بد له أن يستحضر في عقله أنواع المصائب والمحن ويقدر وقوعها،

(١) في ظلال القرآن ٦/ ٣٣٧٩.
(٢) المصدر السابق ٦/ ٣٣٧٩.
(٣) التبيان في أقسام القرآن ص٣٠٣.

وعلى تقديرها ووقوعها يرضى بها؛ لأن الرضا بقضاء الله تعالى واجب، فعند وقوعها لا يستعظمها، بل تكون له عبرة يتعظ بها، بخلاف الجاهل فإنه يكون غافلًا عن تلك المعارف فعند وقوع المصائب يعظم تأثيرها في قلبه، بخلاف قلب المؤمن الذي يكون دائمًا منشرحًا بنور معرفة الله تعالى، والقلب إذا كان مملوءًا من هذه المعارف، لم يتّسع للأحزان الواقعة بسبب أحوال الدنيا، وسيكون قلبه سليمًا من جميع أمراض القلوب، أما قلب الجاهل فإنه خال من معرفة الله تعالى، فلا جرم يصير مملوءًا من الأحزان الواقعة بسبب مصائب الدنيا.

والقلوب السليمة حينما تسمع القصص وترى أثار الأمم الخالية التي عاقبها الله تعالى لإعراضها، حتمًا ستكون هذه المشاهد عبرة لها وموعظة، قال تعالى واصفًا هذه القلوب السليمة: ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَذِكْرَىٰ لِمَن كَانَ لَهُ قَلْبٌ أَوْ أَلْقَى السَّمْعَ وَهُوَ شَهِيدٌ﴾ [ق: ٣٧].

قال ابن زيد في تفسير قوله تعالى: ﴿لِمَن كَانَ لَهُ قَلْبٌ﴾ أي: قلب يعقل ما قد سمع من الأحاديث التي ضرب الله بها من عصاه من الأمم[1]. وبين ابن أبي زمنين أن الخطاب هنا هو خاص بقلب المؤمن[2]. الذي صرف قلبه إلى التفهم، فهو في حضور دائم مع الله ولا يغفل عنه طرفة عين.

وقال السمرقندي في تفسيره للآية: «أي: لمن كان له عقل؛ لأن محل العقل هو القلب»[3]. فكنى بالقلب؛ لأنه موضعه.

وقال الزمخشري في قوله تعالى: ﴿لِمَن كَانَ لَهُ قَلْبٌ﴾ أي: «لمن كان له قلب واع؛ لأن من لا يعي قلبه فكأنه لا قلب له»[4].

قال يحيى بن معاذ: القلب قلبان، قلب محشّ بأشغال الدنيا حتى إذا حضر أمر من أمور الآخرة لم يدر ما يصنع، وقلب قد احتشى بأهوال الآخرة حتى إذا حضر أمر من أمور الدنيا لم يدر ما يصنع لذهاب قلبه في الآخرة[5].

وفسر الرازي قوله تعالى: ﴿لِمَن كَانَ لَهُ قَلْبٌ﴾ بأن المراد: قلب موصوف بالوعي، أي: لمن كان له قلبًا سليمًا أدرك الحقائق وتفكر كما ينبغي، فكأنه تعالى قال: إن في ذلك لذكرى وعبرة لمن يصلح أن يقال: له قلب، وحينئذ فمن لا يتذكّر ولا يتعظ لا قلب له أصلًا، كما في قوله تعالى: ﴿صُمٌّ بُكْمٌ عُمْيٌ﴾ [البقرة: ١٨].

حيث لم تكن آذانهم وألستهم وأعينهم مفيدة لما يطلب منها، كذلك من لا يتذكر كأنه لا قلب له، كالجمادات لها صور وليس

(١) انظر: جامع البيان، الطبري ٢/ ٣٧٣.
(٢) انظر: تفسير القرآن العزيز ٤/ ٢٧٨
(٣) انظر: تفسير السمرقندي ٣/ ٣٣٨.
(٤) الكشاف ٤/ ٣٩١.
(٥) انظر: الجامع لأحكام القرآن، القرطبي ١٧/ ٢٣.

لها قلوب للذكر ولا لسان للشكر[1].

وفي قوله تعالى: ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَذِكْرَىٰ لِمَن كَانَ لَهُۥ قَلْبٌ أَوْ أَلْقَى ٱلسَّمْعَ وَهُوَ شَهِيدٌ﴾ لطيفة حيث أتى الخالق عزوجل بـ (أو) لتقسيم المتذكر إلى تال وسامع، أو إلى فقيه ومتعلم، أو إلى عالم كامل الاستعداد لا يحتاج لغير التأمل فيما عنده، وقاصر محتاج للتعلم، فيتذكر إذا أقبل بكليته، وأزال الموانع بأسرها، وفي تنكير (قلب) وإبهامه، تفخيم وإشعار بأنّ كل قلب لا يتفكر ولا يتدبر، فهو ليس بقلب[2].

فالمانع من التأثير والاعتبار هو سهو القلب وغيبته عن تعقل، وصاحب القلب الحي لا يمكن أن يتأثر بأي مرض من أمراض القلوب، بل سيكون هو القلب الناجي من جميع الأمراض لا سيما الطبع؛ لأنه قلب حي ذكي زكي، إذا ورد عليه شيء من آيات الله تذكر بها وانتفع فارتفع؛ لأنه يعقل عن الله، كما قال تعالى: ﴿لِّيُنذِرَ مَن كَانَ حَيًّا وَيَحِقَّ ٱلْقَوْلُ عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ﴾ [يس: ٧٠]. أي: حي القلب واعيه[3].

ولما كان القلب هو محل الإيمان والكفر، ومركز الهداية والضلال، فإنه يتعرض للمواقف الكبيرة التي تظهر حقيقته؛ لأن الله تعالى يمتحن هذه القلوب ليقيم الحجة على أصحابها، يمتحنها بالابتلاء والاختبار والفتنة، وهذا قانون إلهي واضح قال تعالى: ﴿أَحَسِبَ ٱلنَّاسُ أَن يُتْرَكُوٓا۟ أَن يَقُولُوٓا۟ ءَامَنَّا وَهُمْ لَا يُفْتَنُونَ﴾ [العنكبوت: ٢].

والقتال والجهاد في سبيل الله نوع من أنواع الامتحان والابتلاء، وفي معركة أحد عندما خالف الرماة الأوامر طلبًا للغنيمة، تحوّل النصر إلى هزيمة، فتسرّب اليأس إلى قلوب المنافقين، بينما ثبت المؤمنون في الميدان إلى جانب النبي صلى الله عليه وسلم، هذا الاختبار كشف عن صدق المؤمنين وكذب المنافقين، وهنا بدأ التشكيك من قبل المنافقين: ﴿يَقُولُونَ لَوْ كَانَ لَنَا مِنَ ٱلْأَمْرِ شَيْءٌ مَّا قُتِلْنَا هَٰهُنَا﴾ [آل عمران: ١٥٤].

وهذا هو الهاجس الذي يجيش في النفوس التي لم تخلص لله وللعقيدة حينما تصطدم في موقعة من المواقع بالهزيمة، وحينما تعاني آلام الهزيمة، وهنا يجيئهم التصحيح العميق للأمر كله، أمر الحياة والموت، ولأمر الحكمة الكامنة وراء الابتلاء[4].

قال تعالى: ﴿قُل لَّوْ كُنتُمْ فِى بُيُوتِكُمْ لَبَرَزَ ٱلَّذِينَ كُتِبَ عَلَيْهِمُ ٱلْقَتْلُ إِلَىٰ مَضَاجِعِهِمْ ۖ وَلِيَبْتَلِىَ

(١) انظر: مفاتيح الغيب ٢٨ / ١٥٠.
(٢) انظر: أنوار التنزيل، البيضاوي ٣/ ٣٦٩، محاسن التأويل، القاسمي ٩/ ٣٠.
(٣) تيسير الكريم الرحمن، السعدي ص٦٩٨.
(٤) انظر: مفهوم العقل والقلب في القرآن والسنة، محمد الجوزو، ص٢٢٦-٢٢٧.

اللَّهُ مَا فِي صُدُورِكُمْ وَلِيُمَحِّصَ مَا فِي قُلُوبِكُمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ ﴾ [آل عمران: ١٥٤].

قال ابن الجوزي في الآية: «إبانة ما في القلوب من الاعتقاد لله ولرسوله وللمؤمنين»[١].

فليس كالمحنة محك يكشف ما في الصدور ويصهر ما في القلوب، فينفي عنها الزيف والرياء، ويكشفها على حقيقتها بلا طلاء[٢].

وجعل الابتلاء وهو الامتحان والاختبار بالسراء والضراء للصدور، أما التمحّيص فهو التطهير والتصفية[٣]. فالابتلاء يكون سببًا في تمحيص ما في القلوب، وذاك أن الابتلاء لا يكون إلا للظاهر، أما التمحيص فللباطن، فهو كالتزكية والتطهير[٤].

فالقلوب هي محلّ الابتلاء والتمحيص، ومحل الأقوال والأعمال، ولهذه القلوب شأنًا عظيمًا عند الله تبارك وتعالى، كيف لا والقلب هو الذي إذا كان حيًّا، فإن الجسد يحيا، وإذا مات مات الجسد.

ولمّا كان القلب هو المخاطب وهو السعيد وهو الشقي، فلا سعادة للعبد ولا لذّة ولا قرب من الله تعالى ولا مناجاة، ولا

(١) زاد المسير ١/ ٣٣٨.
(٢) انظر: في ظلال القرآن، سيد قطب ١/ ٤٩٦.
(٣) الكليات، الكفوي ١/ ٣٤.
(٤) انظر: المفردات، الراغب ص٧٦١.

شفاء من جميع أمراض القلوب إلا بصلاح قلبه، فصلاح القلوب هو الذي ينجيها من الطبع عليها.

يقول شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله: «وأصل صلاح القلب هو حياته واستنارته»[٥]. فقلب المؤمن عبارة عن مصباح يضيء.

يقول تعالى: ﴿أَوَمَن كَانَ مَيْتًا فَأَحْيَيْنَاهُ وَجَعَلْنَا لَهُ نُورًا يَمْشِي بِهِ فِي النَّاسِ كَمَن مَّثَلُهُ فِي الظُّلُمَاتِ لَيْسَ بِخَارِجٍ مِّنْهَا﴾ [الأنعام: ١٢٢].

يقول ابن مسعود رضي الله عنه لرجل: «داو قلبك، فإن حاجة الله إلى العباد صلاح قلوبهم»[٦].

فالمؤمن في قلبه مصباح يضيء ويجعله يميز بين الشبهات والدلائل الواضحات، وبين الهدى والضلال، بل إن هذا المصباح عبارة عن فرقان يفرق بين الحق والباطل، فقلب المؤمن يدفع الفتن والشهوات لسلامته وصفائه، فيزداد إشراقه وبياضه، وتزداد مناعته من الذنوب والمعاصي والشهوات والشبهات، وبالتالي يكون سليمًا صحيحًا من جميع الأمراض لا سيما الطبع على القلوب.

(٥) أمراض القلوب وشفاؤها ٨.
(٦) إحياء علوم الدين، الغزالي ٣/ ٣٣٩.

نتائج الطبع على القلوب

للطبع على القلوب نتائج وخيمة ذكرها الله تعالى في كتابه، وهذه العقوبة إنما هي نتيجة لأعمال الإنسان بعد إنذاره وتحذيره، ومعلوم أن قلب الإنسان ينال من الطبع على قلبه بقدر تلوثه بالذنوب والمعاصي، وعلى هذا الأساس فإن الموانع والحجب التي تضرب على القلب تعطل حواس الإنسان كالسمع والبصر، فتمنعه من الإدراك؛ لأن الطبع على القلوب يقترن به الطبع على الاسماع والأبصار؛ لأنها أهم منافذ القلوب، وكأن الله تعالى بهذا الطبع سد عنهم طرق هذه الحواس، فغدوا لا ينتفعون بها ﴿فَإِنَّهَا لَا تَعْمَى الْأَبْصَارُ وَلَكِن تَعْمَى الْقُلُوبُ الَّتِي فِي الصُّدُورِ﴾ [الحج: ٤٦].

وكذلك ينتج عن طبع القلوب البقاء على الكفر وعدم الإيمان بالله تعالى، ومن نتائجه أيضًا الجهل وعدم الفهم والعلم، واتباع الهوى والشهوات والإصرار على المنكرات.

أولًا: تعطيل وسائل المعرفة:

إن من أفظع النتائج السلبية والوخيمة التي تحصل بعد الطبع على القلوب هو تعطيل وسائل المعرفة والإدراك من السمع والبصر وغير ذلك، والقرآن الكريم حينما يتحدث عن القلب يصفه بأنه المنظم لكل السلوك البشري والمتحكم بكل تصرفات الإنسان، بل هو المتحكم بكل وسائل الإدراك الأخرى.

فالإبصار لا يتم إلا عن طريقه، والسمع لا يكون إلا بعد إذنه، والتعقل والتفقه لا يكتمل إلا بكون القلب حاضرًا.

قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ ذَرَأْنَا لِجَهَنَّمَ كَثِيرًا مِّنَ الْجِنِّ وَالْإِنسِ لَهُمْ قُلُوبٌ لَّا يَفْقَهُونَ بِهَا وَلَهُمْ أَعْيُنٌ لَّا يُبْصِرُونَ بِهَا وَلَهُمْ آذَانٌ لَّا يَسْمَعُونَ بِهَا أُولَئِكَ كَالْأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ أُولَئِكَ هُمُ الْغَافِلُونَ﴾ [الأعراف: ١٧٩].

والمعنى أن لهؤلاء الذين ذرأهم الله لجهنم - والعياذ بالله- من خلقه لهم قلوب لا يتفكّرون بها في آيات الله ولا يتدبرون بها أدلته الوحدانية، ووصفهم بأنهم ﴿لَا يَفْقَهُونَ بِهَا﴾ لإعراضهم عن الحق، وتركهم التدبر، فهم لهم ﴿أَعْيُنٌ لَّا يُبْصِرُونَ بِهَا﴾ أي: لهم أعين لا ينظرون بها إلى آيات الله وأدلته فيتأملونها ويتفكروا فيها، فيعملوا بها صحة ما تدعوهم إليه رسلهم، وفساد ما هم عليه مقيمون من الشرك بالله ﴿وَلَهُمْ آذَانٌ لَّا يَسْمَعُونَ بِهَا﴾ آيات الله، فيعتبروا فيها، ولكنهم يعرضون عنها[1].

فالآية القرآنية الكريمة تشير إلى أن وسائل المعرفة من السمع والبصر وغير ذلك قد تعطلّت؛ لأنهم انشغلوا بما استحوذ

(١) انظر: جامع البيان، الطبري ١٣/ ٢٧٨.

عليهم من شهواتهم، فصارت عقولهم لا تفكّر في شيء غيره، وتخطط للحصول على الشهوة، وكذلك العيون لا ترى، إلا ما يستهويها، وكذلك الآذان، وكل منهم يرى، غير مراد الرؤية ويسمع غير مراد السمع.

والفرق بين فقه القلوب ورؤية العين وسماع الآذان، أن فقه القلب هو فهم القضايا التي تنتهي إليها الإدراكات، إذ إن لكل وسيلة إدراكًا، وهي من المحسات، وبعد أن تتكون المحسات يمتلك الإنسان خميرة علمية في قلبه وتنضج لتصير قضية عقلية منتهية ومسلمًا بها، فكل الحواس إذن تربي المعاني عند الإنسان، وحين تربي المعاني في النفس الإنسانية تتكون القضايا التي تستقر في القلب[1]، لذلك يمتن الحق سبحانه وتعالى على خلقه بأنه علمهم فقال: ﴿وَٱللَّهُ أَخْرَجَكُم مِّنۢ بُطُونِ أُمَّهَـٰتِكُمْ لَا تَعْلَمُونَ شَيْـًٔا وَجَعَلَ لَكُمُ ٱلسَّمْعَ وَٱلْأَبْصَـٰرَ وَٱلْأَفْـِٔدَةَ ۙ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ [النحل: ٧٨].

قال ابن كثير بعد أن ذكر منّة الله تعالى على عباده بإيجادهم: ثم بعد هذا يرزقهم تعالى السمع الذي به يدركون الأصوات، والأبصار التي بها يحسون المرئيات، والأفئدة وهي العقول التي مركزها القلب على الصحيح[2].

فالقلوب توصل إلى عملية التفقه والتعقل، والأعين عن طريقها تصل إلى الإبصار، والأذن أول خطوة للوصول إلى عملية السمع، ولهذا نجد أن الخالق سبحانه وتعالى نفى عن الكفار السمع والبصر والعقل، لعدم انتفاعهم بها كما قال سبحانه: ﴿لَهُمْ قُلُوبٌ لَّا يَفْقَهُونَ بِهَا وَلَهُمْ أَعْيُنٌ لَّا يُبْصِرُونَ بِهَا وَلَهُمْ ءَاذَانٌ لَّا يَسْمَعُونَ بِهَآ ۚ أُو۟لَـٰٓئِكَ كَٱلْأَنْعَـٰمِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ ۚ أُو۟لَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلْغَـٰفِلُونَ﴾.

فهم يسمعون ويبصرون بالحواس الظاهرة، وبها قامت عليهم الحجة، ولا يسمعون ولا يبصرون بالحواس الباطنة، التي هي سماع القلب، التي هي روح حاسة السمع، والتي هي حظ القلب، ولو سمعوه من هذه الجهة لحصلت لهم الحياة الطيبة في الدنيا والآخرة[3].

قال شيخ الإسلام: «والقلب الحي المنّور، فإنه لما فيه من النور يسمع ويبصر ويعقل، والقلب الميت فإنه لا يسمع ولا يبصر»[4].

ومن المعلوم أن الإدراك قواه ثلاثة هي: السمع والبصر والفؤاد، وكلها من شأن النفس المدركة بالقلب. لذا قال الإمام الغزالي: (اعلم أن محل العلم هو

(١) انظر: تفسير الشعراوي ٧/ ٤٤٧٦.
(٢) تفسير القرآن العظيم ٤/ ٥٩٠.
(٣) انظر: موسوعة فقه القلوب، التويجري ٥/ ٢٧.
(٤) أمراض القلوب وشفاؤها ٩.

القلب»[1].

ورأى كذا لما يعلم بالقلب ولا يرى بالعين، ولكنهم خصوه بما يراه القلب بعد فكر وتأمل، وطلب لمعرفة وجه الصواب مما تتعارض فيه الأدلة[2]. فالتعقل والسمع في الحقيقة من شأن القلب الذي هو النفس المدركة.

يقول شيخ الإسلام: «فصاحب العلم في حقيقة الأمر هو القلب، وإنما سائر الأعضاء حجبته له ترسل إليه الأخبار ما لم يكن ليأخذه بنفسه، فمدار الأمر على القلب»[3]. وتأثر القلب بما يراه ويسمعه أعظم من تأثره بما يلمسه ويذوقه ويشمه؛ لأن هذه الثلاثة هي أهم طرق العلم وهي السمع والبصر والعقل[4]، يقول ابن القيم: «فإن القلب إذا فسد فسد السمع والبصر، بل أصل فسادهما من فساده»[5].

نستنتج من ذلك أن فهم المسموع أو المرئي إنما يكون بالقلب، والخطاب الإلهي موجه لفهمه، ومعجزاته المخلوقة جعلت مبصرة، ليفهم وجه الاستدلال منها، لذا كان كل إثبات أو مدح للسمع أو البصر إنما هو لإدراك الغاية من المسموع والمبصر، وإلا صارت هذه القوى لا تتجاوز درجة الإحساس والشعور، وهذا نصيب البهائم، فهي ذات سمع وبصر وقلب لكن لم تمنح الفؤاد، وهو من القلب.

فتأمل تشبيه الخالق سبحانه وتعالى للكفار بالأنعام بأن لكل واحد منهم قلبًا وأذنًا وعينًا، غير أنها معطّلة عن الفقه والسمع والبصر، فقلب البهيمة ينقصه فؤاد، وقلب الكافر يلزمه إعماله ليكتمل، فهؤلاء الكفار أبدانهم حية تسمع الأصوات وترى الأشخاص، ولكن حياة البدن بدون حياة القلب من جنس حياة البهائم[6]. فالسمع والبصر والفؤاد محتوى ضمن كل هو القلب.

فالقلب هو المدخل الوحيد إلى مراكز الإدراك في العقل البشري؛ لأن القلب له أكثر من مهمة يقوم بها، فبالإضافة إلى مهمته كعضو إحساس تابع لمركزه في الدماغ، فإنه أيضًا متحكم في كل وسائل الإدراك الأخرى، فالإبصار لا يتم إلا عن طريقه، والسمع لا يكون إلا بعد إذنه، والتفقه والتعقل لا يكتمل إلا بكون القلب حاضرًا، لذلك يقول الحق سبحانه واصفًا أهمية القلب في كل عمليات الإدراك: ﴿أَوَلَمْ

---

(1) إحياء علوم الدين ٣/ ١٣.
(2) انظر: إعلام الموقعين، ابن القيم ١/ ٥٣.
(3) الفتاوى الكبرى، ٥/ ٥٠.
(4) انظر: موسوعة فقه القلوب، التويجري ٥/ ٢٧.
(5) مفتاح دار السعادة ص٤٦٧.
(6) انظر: القلوب وآفاتها، صلاح الدين علي ص٦٠

﴿يَهْدِ لِلَّذِينَ يَرِثُونَ الْأَرْضَ مِنْ بَعْدِ أَهْلِهَا أَنْ لَوْ نَشَاءُ أَصَبْنَاهُمْ بِذُنُوبِهِمْ وَنَطْبَعُ عَلَى قُلُوبِهِمْ فَهُمْ لَا يَسْمَعُونَ﴾ [الأعراف: ١٠٠].

قال الطبري في تفسير قوله تعالى: ﴿وَنَطْبَعُ عَلَى قُلُوبِهِمْ﴾ أي: «لا يسمعون موعظة ولا تذكيرًا، سماع منتفع بها»[١].

فالطبع على القلوب لا يستعمل إلا في الشر، والمراد أن هذه القلوب وصلت من الفساد إلى حالة لا تقبل معها خيرًا، كالهدى والإيمان والعلم النافع الذي هو فقه الأمور ولبابها، وإنما يحصل الطبع بالإصرار على الشرور والمعاصي[٢].

يقول الشعراوي: وجعل الطبع على القلوب نتيجة للاختيار؛ لأن القلوب وعاء اليقين الإيماني، فحين يملأ إنسان وعاء اليقين بالكفر، فهذا يعني: أنه عشق الكفر وجعله عقيدة عنده[٣].

وكذلك قوله تعالى: ﴿أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَتَكُونَ لَهُمْ قُلُوبٌ يَعْقِلُونَ بِهَا أَوْ آذَانٌ يَسْمَعُونَ بِهَا فَإِنَّهَا لَا تَعْمَى الْأَبْصَارُ وَلَكِنْ تَعْمَى الْقُلُوبُ الَّتِي فِي الصُّدُورِ﴾ [الحج: ٤٦].

هذه الآية من سورة الحج تشير بصورة واضحة وجلية إلى حقيقة مفادها أن القلب يمثل المدخل إلى العقول بكل معانيه وخاصة مراكز الإدراك (السمع والأبصار والأفئدة) فالقلب هو المدخل الوحيد إلى مراكز الإدراك في العقل البشري.

يقول ابن عطية في تفسيره لهذه الآية: «وهذه الآية تقتضي أن العقل في القلب، وذلك هو الحق، ولا ينكر أن للدماغ اتصالًا بالقلب يوجب فساد العقل متى اختلّ الدماغ»[٤]. وفي قوله: ﴿فَإِنَّهَا لَا تَعْمَى الْأَبْصَارُ﴾ لفظ مبالغة كأنه قال: ليس العمى عمى العين، وإنما العمى حق العمى عمى القلب[٥]. وبيّن القاسمي أنّ المعنى ليس الخلل في مشاعرهم، وإنما هو في عقولهم بإتباع الهوى والانهماك في الغفلة[٦].

والله تعالى جعل العمى للعين عدم إدراك المرئيات واستقبال الصور، والجهل عمى القلب، أي فقدان لبصيرته، ﴿وَلَكِنْ تَعْمَى الْقُلُوبُ الَّتِي فِي الصُّدُورِ﴾ أي: الإدراك التام إنما يكون بالقلب، وتعطله بعمى القلب، والعمى لا يطلق إلا على البصر، فكانت الأبصار في (أولي الأبصار) فهي إحدى قوى القلب لرؤية الحق وفهم الحجة، فالعمى هنا أصاب بصيرة القلب.

ثم لما كان التعقل والسمع في الحقيقة من شأن القلب، أي: النفس المدركة، وهو الذي يبعث الإنسان إلى متابعة ما يعقله أو يسمعه من ناصحه، عدّ الله تعالى إدراك

---

(١) جامع البيان ١٢/ ٥٨.
(٢) انظر: المنار، محمد رشيد رضا ٩/ ٢٨.
(٣) انظر: تفسير الشعراوي ٧/ ٤٢٦٤.
(٤) المحرر الوجيز، ابن عطية ٤/ ١٢٧.
(٥) المصدر السابق ٤/ ١٢٧.
(٦) انظر: محاسن التأويل، القاسمي ٧/ ٢٥١.

القلب رؤية له ومشاهدة، ومن لا يعقل ولا يسمع أعمى القلب[1]، كأنه قال تعالى: لا عمى في أبصارهم فإنهم يرون بها، لكنّ العمى في قلوبهم[2]، فأبصارهم وإن كانت سالمة لا عمى بها، ولكن العمى الحقيقي هو عمى القلوب، فعمى الأبصار ليس بشيء إذ قيس بعمى القلوب والبصائر[3].

فالقلب هو العاقل والمدبر والمتفقه والعالم والسامع والمبصر، فهو الذي يدرك ما يتلقى من الحواس، وتعطّله تعطل للحواس، فالأذن تنقل المسموعات له، وخاصية السمع، بمعنى: إدراك المسموع وفهمه هي بالقلب، والعين تنقل المرئيات للقلب، وخاصية التبصر، بمعنى: إدراك المرئي وفهمه هي بالقلب، فمهمة القلب التعقل والتدبر والتفكر والسمع، والبصيرة والنظر والتأمل والفهم، بل هو النفس المدركة.

فمن الحقائق المطلقة التي ذكرها القرآن الكريم وأكدها في كثير من آياته أن القلب هو مركز العاطفة، والتفكر، والتعقل، والذاكرة، والقرآن الكريم دقيق في كلماته فقال: ﴿فَتَكُونَ لَهُمْ قُلُوبٌ يَعْقِلُونَ بِهَآ﴾ [الحج: ٤٦].

فالذي يفهم ويعقل هو القلب وليس الدماغ، وكذلك قوله تعالى: ﴿لَهُمْ قُلُوبٌ لَّا يَفْقَهُونَ بِهَا﴾ [الأعراف: ١٧٩].

فهو يخاطب فينا مركز الإدراك والفهم وهو القلب، وليس الدماغ؛ لأن القلب هو مركز الإيمان والعقيدة، والفهم والإدراك، فالقلب هو مناط المسؤولية، والذي يحرم نعمة الفهم والإدراك هو الذي يطبع الله على قلبه[4].

لذلك يمكن القول: إن الطبع على القلوب يقترن به الطبع على الأسماع والأبصار؛ لأنها أهم منافذ القلوب إلى مواد المعارف التي تأتي من خارج كيان الإنسان[5].

ولذلك قال الله تعالى في شأن من شرح بالكفر صدرًا في سورة النحل: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ طَبَعَ ٱللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ وَسَمْعِهِمْ وَأَبْصَٰرِهِمْ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْغَٰفِلُونَ ۝١٠٨ لَا جَرَمَ أَنَّهُمْ فِي ٱلْأٓخِرَةِ هُمُ ٱلْخَٰسِرُونَ﴾ [النحل: ١٠٨ - ١٠٩].

فالخالق عز وجل صرف عنهم طريق الهدى وكأنه بهذا الطبع سدّ عنهم طرق هذه الحواس، حتى لا ينتفعوا بها في اعتبار وتأمل[6]. فهو أغلقها عن قبول الحق،

(١) إعراب القرآن وبيانه، محيي الدين أحمد درويش ٧/ ٥٩٩.
(٢) مفاتيح الغيب، الرازي ٢٣/ ٢٣٣.
(٣) انظر: تفسير المراغي ١٧/ ١٢٣.
(٤) انظر: مفهوم العقل والقلب في القرآن والسنة، محمد الجوزو، ص ١٧٨-١٨٨.
(٥) انظر: صراع مع الملاحدة، الميداني ص ٣٩٠.
(٦) انظر: المحرر الوجيز، ابن عطية ٣/ ٤٢٥.

ذلك لأن القلب هو الوعاء الذي تصبّ فيه الحواس التي هي وسائل الإدراكات المعلومية، وأهمها السمع والبصر، فبالسمع تسمع الوحي والتبليغ من الله، وبالبصر ترى دلائل قدرة الله في كونه وعجيب صنعه مما يلفتك إلى قدرة الله، ويدعوك للإيمان به سبحانه، فإذا ما انحرفت هذه الحواس عمّا أراده الله منها، وبدل أن تمد القلب بدلائل الإيمان تعطّلت وظيفتها[(١)].

ثانيًا: عدم الإيمان:

ومن نتائج الطبع على القلوب هو عدم الإيمان بالله تعالى والبقاء على الكفر، فالختم، والطبع، والغشاوة، والقفل، هي عقوبات للكفار والمنافقين في الدنيا، وقعت عليهم بسبب سوء أعمالهم وعدم قبولهم الحق، وهذه العقوبات لم يفعلها الله تعالى بعبده من أول وهلة حين أمره بالإيمان، ودعاه إليه، وإنما عاقبه الله بها بعد تكرار الدعوة منه للكفار، وتكرار الإعراض منهم، والمبالغة في الكفر والعناد، فحينئذ يطبع الله على قلوبهم ويختم عليها، فلا تقبل الهدى بعد ذلك.

يقول محمد التويجري: «والإعراض والكفر الأول لم يكن مع ختم وطبع، بل كان منهم اختيارًا، فلما تكرر منهم صار طبيعة وسجية»[(٢)].

قال تعالى: ﴿تِلْكَ ٱلْقُرَىٰ نَقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنۢبَآئِهَا ۚ وَلَقَدْ جَآءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ فَمَا كَانُوا۟ لِيُؤْمِنُوا۟ بِمَا كَذَّبُوا۟ مِن قَبْلُ ۚ كَذَٰلِكَ يَطْبَعُ ٱللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِ ٱلْكَٰفِرِينَ﴾ [الأعراف: ١٠١].

فأوضح الله تعالى في هذا النص القرآني أن من سنن كونه الطبع على قلوب الكافرين، فهو نتيجة تحصل بسبب ما يكسب الكافرون بكفرهم وجحودهم من ذنوب، وبسبب طول الأمل عليهم وهم مكذبون[(٣)].

قال الطبري: هذه القرى التي ذكرت لك يا محمد أمرها وأمر أهلها يعني: قوم نوح وعاد وثمود وقوم لوط وشعيب نقص عليك من أنبائها، فنخبرك عنها وعن أخبار أهلها، وما كان من أمرهم وأمر رسل الله التي أرسلت اليهم، لتعلم أنّا ننصر رسلنا والذين آمنوا في الحياة الدنيا على أعدائنا وأهل الكفر بنا، ويعلم مكذبوك من قومك ما عاقبة أمر من كذّب رسل الله، فيرتدعوا عن تكذيبك، كما طبع الله على قلوب هؤلاء الذين كفروا بربهم وعصوا رسله من هذه الامم التي قصصنا عليك نبأهم يا محمد، في هذه السورة، حتى جاءهم بأس الله فهلكوا به، كذلك يطبع الله على قلوب

(١) انظر: تفسير الشعراوي ١٣/ ٨١٤.

(٢) موسوعة فقه القلوب ٤/ ٦٣.

(٣) انظر: صراع مع الملاحدة، الميداني ص٣٨٨.

الكافرين، الذين كتب عليهم أنهم لا يؤمنون أبدًا من قومك[(١)].

قال ابن عباس والسدي: يعني: فما كان هؤلاء الكفار الذين أهلكناهم ليؤمنوا عند إرسال الرسل بما كذّبوا من قبل، يوم أخذ ميثاقهم حين أخرجهم من ظهر آدم، فأقرّوا باللسان وأضمروا التكذيب، فقد كان في علم الله تعالى أنهم لا يؤمنون بالرسل، بسبب تكذيبهم بالحق أول ما ورد عليهم؛ لأن شؤم المبادرة إلى تكذيب الرسل سبب للطبع على القلوب والإبعاد عن الهدى[(٢)].

وصيغة ﴿فَمَا كَانُوا لِيُؤْمِنُوا﴾ تفيد مبالغة النفي بلام الجحود الدالة على أن حصول الإيمان كان منافيًا لحالهم من التصلّب في التصميم على الكفر والطبع على قلوبهم فلا تلين شكيمتهم بالآيات والنذر[(٣)].

فهؤلاء الكفار كان ينقصهم القلب المفتوح، والحس المرهف والتوجه إلى الهدى، كان ينقصهم الفطرة الحية التي تستقبل وتنفعل، فلما لم يوجهوا قلوبهم إلى موجبات الهدى ودلائل الإيمان طبع الله على قلوبهم وأغلقها، فما عادت تتلقى ولا تنفعل ولا تستجيب[(٤)].

إن اللجاج في الكفر والإصرار عليه هو الذي حجب عنهم النور الإلهي، ولم يوفقهم الله إلى الإيمان بسبب أنهم كذبوا من قبل فكان تكذيبهم سببًا لأن يمنعوا الإيمان.

وقوله تعالى: ﴿كَذَٰلِكَ يَطْبَعُ اللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِ الْكَافِرِينَ﴾ [الأعراف: ١٠١].

أي: كما طبع الله على قلوب الأمم الخالية التي أهلكها، كذلك يطبع على قلوب الكفار الذين كتب عليهم أن لا يؤمنوا من قومك يا محمد صلى الله عليه وسلم[(٥)].

قال الرازي: «أي: إن لم نهلكهم بالعقاب نطبع على قلوبهم فهم لا يسمعون ولا يتعظون ولا ينزجرون»[(٦)]. وهذا الطبع على القلوب ليس قهرًا منه تعالى، ولكن لاستبطان الكفر وإخفائه في قلوبهم[(٧)].

وبيّن صاحب المنار أن مثل هذا الذي وصف من عناد هؤلاء وإصرارهم على ضلالهم، وعدم تأثير الدلائل والبينات في عقولهم، يكون الطبع على قلوب الذين صار الكفر صفة لازمة لهم، بحسب سنة الله تعالى في أخلاق البشر وشؤونهم، وذلك بأن يأنسوا بالكفر وأعماله، حتى تستحوذ

(١) جامع البيان ١٢/ ٧.
(٢) انظر: معالم التنزيل، البغوي ٣/ ٢١٦، تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ٣/ ٤٥٣.
(٣) انظر: الكشاف، الزمخشري ٢/ ١٣٥، التحرير والتنوير، ابن عاشور ٩/ ٣٠.
(٤) انظر: في ظلال القرآن ٣/ ١٣٤٢.
(٥) انظر: مفاتيح الغيب، الرازي ١٤/ ٣٢٣، الجامع لأحكام القرآن، القرطبي ٧/ ٢٥٥.
(٦) مفاتيح الغيب ١٤/ ٣٢٣.
(٧) انظر: تفسير الشعراوي ٧/ ٤٢٦٦.

أوهامه على أفكارهم، ويملأ حب شهواته جوانب قلوبهم، ويصير وجدانًا تقليديًا لهم، لا يقبلون فيه بحثًا ولا يسمعون فيه نقدًا، فيكون كالسّكّة التي طبعت في أثناء لين معدنها بصهره وإذابته ثم جمدت، فلا تقبل نقشًا ولا شكلًا آخر[1].

وفي نص آخر بين الله تبارك وتعالى أن سبب الطبع على قلوب اليهود إنما هو بكفرهم، فقال تعالى: ﴿فَبِمَا نَقْضِهِم مِّيثَاقَهُمْ وَكُفْرِهِم بِآيَاتِ اللَّهِ وَقَتْلِهِمُ الْأَنبِيَاءَ بِغَيْرِ حَقٍّ وَقَوْلِهِمْ قُلُوبُنَا غُلْفٌ ۚ بَلْ طَبَعَ اللَّهُ عَلَيْهَا بِكُفْرِهِمْ فَلَا يُؤْمِنُونَ إِلَّا قَلِيلًا﴾ [النساء: ١٥٥].

وهذه الآية القرآنية الكريمة تسجل على اليهود أولًا: نقضهم للمواثيق، ثم تسجّل عليهم ثانيًا: كفرهم بآيات الله، وتسجل عليهم ثالثًا: قتلهم الأنبياء بغير حق (فقد قتلوا زكريا ويحيى) وغيرهما من رسل الله، ولا شك أن قتل الأنبياء عليهم الصلاة والسلام يدل على شناعة جريمة قتلهم وعلى توغلهم في الجحود والعناد والفجور، وسجّل عليهم، رابعًا: قولهم قلوبنا غلف، يعني: عليها غشاوة وأغطية، عما تدعونا إليه، فلا نفقه ما تقول ولا نعقله، فكان العقاب على هذه الجرائم العظيمة أن طبع الله على قلوب هؤلاء اليهود[2].

وقد ردّ الله تعالى عليهم بقوله: ﴿بَلْ طَبَعَ اللَّهُ عَلَيْهَا بِكُفْرِهِمْ فَلَا يُؤْمِنُونَ إِلَّا قَلِيلًا﴾.

والطبع معناه: إحكام الغلق على الشيء وختمه بحيث لا ينفذ إليه شيء آخر، والمعنى: أن هؤلاء القائلين إن قلوبهم غلف كاذبون فيما يقولون، وتخليهم عن مسؤولية الكفر ليس صحيحًا؛ لأن كفرهم ليس سببه أن قلوبهم قد خلقت مغطّاه بأغطية تحجب عنها الحق - كما يزعمون - بل الحق أن الله تعالى ختم عليها، وطمس معالم الحق فيها، بسبب كفرهم وأعمالهم القبيحة[3].

فكلما تكاثرت الذنوب طبع على القلوب، وليس الطبع على القلوب مرضًا عاديًا، بل هو من مضاعفات الأمراض الخطيرة كالكفر والنفاق والشرك وغيرها، يقول ابن تيمية رحمه الله: «والله سبحانه جعل مما يعاقب به الناس على الذنوب سلب الهدى والعمل النافع»[4]. ويقول ابن القيم: «إن الله عاقب الكفار بأمور تمنعهم من الإيمان وذكر منها: الختم والطبع والأكنة»[5].

وقد خان اليهود الأمانة، ونقضوا العهود، وأفسدوا في الأرض، فطبع الله على قلوبهم. يقول ابن القيم: «إن الطبع والإبعاد عن توفيقه وفضله إنما كان بكفرهم الذي

(١) انظر: المنار، محمد رشيد رضا ٩/ ٣٠.
(٢) انظر: جامع البيان، الطبري ٩/ ٣٦٣، مفاتيح الغيب، الرازي ١١/ ٢٥٨.
(٣) انظر: الوسيط، محمد سيد طنطاوي ٣/ ٣٧٦.
(٤) مجموع الفتاوى ١٤/ ٥٢.
(٥) شفاء العليل ص٩٣.

اختاروه لأنفسهم وآثروه على الإيمان، فعاقبهم عليه بالطبع، والمعنى لم نخلق قلوبًا لا تعي، ولا تفقه ثم نأمرهم بالإيمان وهم لا يفقهونه، بل اكتسبوا أعمالًا عاقبناهم عليها بالطبع على القلوب والختم عليها»[١].

إن كفرهم بالحق بعد أن علموه كان سببًا لطبع الله على قلوبهم ﴿بَلْ طَبَعَ اللَّهُ عَلَيْهَا بِكُفْرِهِمْ﴾ حتى صارت غلفًا، والغلف جمع أغلف، وهو القلب الذي قد غشيه غلاف كالسيف الذي في غلافه، ولا ريب أن القلب إذا طبع عليه أظلمت صورة العلم فيه وانطمست[٢].

فهو سبحانه قد خلق القلوب على الفطرة، بحيث تتمكن من اختيار الخير والشر، إلا أن هؤلاء اليهود قد أعرشوا عن الخير إلى الشر، واختاروا الكفر على الإيمان نتيجة انقيادهم لأهوائهم وشهواتهم، فالله تعالى طبع على قلوبهم بسبب إيثارهم سبيل الغي على سبيل الهدى والرشد، فصاروا لا يؤمنون إلا قليلًا.

وقوله تعالى: ﴿إِلَّا قَلِيلًا﴾ أي: أن هذا إيمانهم لا قيمة له عند الله تعالى؛ لأن الإيمان ببعض الأنبياء والكفر ببعضهم، يعدّه الإسلام كفرًا بالكل، فلا يؤمنون إلا قليلًا هم عدد قليل كعبد الله بن سلام وأشباهه[٣].

يمكن أن نستنج مما سبق أن هذه العقوبة إنما وقعت في حق أقوام مخصوصين معاندين من الكفار، فعل الله بهم ذلك عقوبةً منه لهم في الدنيا وبهذا النوع من العقوبة العاجلة، كما عاقب بعضهم بالمسخ قردة وخنازير، وبعضهم بالطمس على أعينهم، وبعضهم بخسف ديارهم، فهو سبحانه يعاقب بالطمس على القلوب كما يعاقب بالطمس على الأعين، كما أن هذه القلوب التي عاقبها بالطبع عليها هي ليست قلوب مغلقه بطبعها، وإنما هم بكفرهم جرّ عليهم أن يطبع الله على قلوبهم، فإذا هي صلدة، لا تستشعر نداوة الإيمان ولا تتذوق حلاوته.

ثالثًا: عدم العلم والفقه:

لا شك أن الجهل وعدم العلم شر محض على الإنسان، وآثاره وخيمة، ونتائجه خطيرة، فما عبد غير الله تعالى إلا بسبب الجهل وعدم العلم، ذلك أن الجهل يعني: خلو النفس من العلم، فعندما ينتشر الجهل ويغيب الإيمان عن القلوب يصبح الجهل هو المتحكم بالنفس والمتسيّد عليها.

قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ ضَرَبْنَا لِلنَّاسِ فِي هَٰذَا الْقُرْآنِ مِن كُلِّ مَثَلٍ ۚ وَلَئِن جِئْتَهُم بِآيَةٍ

(١) المصدر السابق ص٩٣

(٢) انظر: مفتاح دار السعادة، ابن القيم ص٩٩-١٠٠

(٣) انظر: محاسن التأويل، القاسمي ٣/ ٣٩١.

﴿لَيَقُولَنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ إِنۡ أَنتُمۡ إِلَّا مُبۡطِلُونَ ۝٥٨ كَذَٰلِكَ يَطۡبَعُ ٱللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِ ٱلَّذِينَ لَا يَعۡلَمُونَ﴾ [الروم: ٥٨ - ٥٩].

هذه الآية أكدت على أن الله تعالى ضرب للناس في هذا القرآن من كل مثل حكيم، من شأنه أن يهدي القلوب إلى الحق، ويرشد النفوس إلى ما يسعدها، فتارة يضرب المثل بآيات الآفاق والأنفس، وتارة بالوعد والوعيد، وتارة بالأمر والنهي، وتارة بالبشرى والإنذار، وتارة بالاستدلال، ورغم هذا البيان، فإن فريقًا من الجاهلين والغافلين يجحدون بآيات الله تعالى، ويقولون على سبيل التطاول والتبجح: ﴿إِنۡ أَنتُمۡ إِلَّا مُبۡطِلُونَ﴾، يقول الكفار: ما أنتم معشر المؤمنين إلا متّبعون للباطل بما يدعوكم إليه الرسول صلى الله عليه وسلم[١].

والحقيقة إن هذا القول الذي صدر منهم إنما هو بسبب جهلهم وبعدهم عن الحق، وقد بين الإمام ابن القيم رحمه الله أن الجهل نوعان: الأول: عدم معرفة الحق، والثاني: عدم العمل بموجبه ومقتضاه، وكلاهما له ظلمة ووحشة في القلب، فكما أن العلم يوجب نورًا، وأنسًا، فالجهل يوجب ظلمة ويوقع وحشة[٢]. وهذه الآية تشمل الأمرين كلاهما.

ثم يعقّب الخالق سبحانه على هذا التطاول والغرور في القول من قبل هؤلاء الجهلة بقوله تعالى: ﴿كَذَٰلِكَ يَطۡبَعُ ٱللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِ ٱلَّذِينَ لَا يَعۡلَمُونَ﴾.

وهذا دليل على أن أسوأ أحوال الإنسان عندما يطبع على قلبه لكثرة جهله، فيصبح لا يفهم ولا يعقل شيئًا، فيختم الله على قلوب الذين لا يعلمون حقيقة ما تأتيهم به يا محمد من عند الله من هذه العبر والعظات والآيات البينات فلا يفقهون عن الله حجة، ولا يفهمون عنه ما يتلو عليهم من آي كتابه؛ فهم لذلك في طغيانهم يترددون[٣].

ونبه الخالق سبحانه على كثرة المطبوع عليهم بجمع الكثرة فقال: ﴿عَلَىٰ قُلُوبِ ٱلَّذِينَ لَا يَعۡلَمُونَ﴾. أي: لا يجددون -أي: لعدم القابلية- العلم بأن لا يطلبوا علم ما يجهلونه مما حققه هذا الكتاب من علوم الدنيا والآخرة رضًى منهم بما عندهم من جهالات سموها دلالات، وضلالات ظنوها هدايات وكمالات[٤].

يقول ابن عاشور: «والطبع على القلب: تصيّيره غير قابل لفهم الأمور الدينية وهو الختم»[٥].

فهم لجهلهم وكفرهم طبع الله على

---

(١) انظر: الجامع لأحكام القرآن، القرطبي ١٤/ ٤٩، روح المعاني، الألوسي ١١/ ٦٠.
(٢) انظر: مدارج السالكين ١/ ٤٦٧.

(٣) انظر: جامع البيان، الطبري ٢٠/ ١٢٠، تفسير المراغي ٢١/ ٦٨.
(٤) انظر: نظم الدرر، البقاعي ١٥/ ١٣٦.
(٥) التحرير والتنوير ٢١/ ١٣٤.

قلوبهم فلا يدخلها خير؛ لأنها قلوب جاهلة، قلوب مشمئزة من ذكر الله، قلوب مقفلة لا يخترقها التدبر ولا التفهم، وهي قلوب زائفة منحرفة، بل هي قلوب عمياء، أصبحت لا تدرك الأشياء على حقيقتها، بل ترى الحق باطلًا والباطل حقًّا[(١)].

والآية في الحقيقة تشير إلى أسوأ أنواع الجهل وهو الجهل (المركب) الجهل الذي يحسبه صاحبه علمًا، ولا يصغي لمن أراد إيقاظه من غفلة الجهل هذه[(٢)]. فالخالق سبحانه طبع على قلوب هؤلاء الجهلة الذين لا يطلبون العلم، ويصرّون على خرافات اعتقدوها. يقول الدكتور وهبة الزحيلي: «فإن الجهل المركب يمنع إدراك الحق، ويوجب تكذيب المحق»[(٣)]. فهذا الصنف من الناس لا يعلمون ولا يعملون على إزالة جهلهم، لتوهمهم أنهم ليسوا بجهلاء، وهذا أسوأ أنواع الجهل؛ لأنه جهل مركب، إذ إن صاحبه يجهل أنه جاهل.

ولا بد من الإشارة إلا أن الطبع على قلوب هؤلاء لا يكون إلا بعد استنفاذ كل وسائل الدعوة، فإن لم يستجيبوا فلا أمل في هدايتهم ولا جدوى من سماعهم يقول الشعراوي: فإذا قلت: إذا كان الحق سبحانه قد وصفهم بأنهم لا يعلمون، فلماذا يطبع على قلوبهم؟ ولماذا يحاسبهم؟ فأجاب بقوله: «لأن عدم العمل نتيجة تقصيرهم، فالحق سبحانه أقام لهم الأدلة والآيات الكونية الدالة على وجوده تعالى، فلم ينظروا في هذه الآيات، ولم يستدلّوا بالأدلة على وجود الخالق القادر سبحانه، وضرورة البلاغ عن الله، إذن: فعدم علمهم نتيجة غفلتهم وتقصيرهم»[(٤)].

هكذا هم أهل الكفر يكذّبون بكل آية، ولا يكتفون بالتكذيب، بل يتطاولون على أهل العلم الصحيح، فيقولون عنهم: إنهم مبطلون، فهؤلاء الذين لا يعلمون، مطموسو القلوب، لا تتفتح بصيرتهم لإدراك آيات الله، متطاولون على أهل العلم والهدى، ومن ثم يستحقّون أن يطمس الله على بصيرتهم، وأن يطبع على قلوبهم، لما يعلمه سبحانه وتعالى عن تلك البصائر وهذه القلوب[(٥)].

ويمكن أن نستنتج مما سبق أن هذه الآية القرآنية فيها دليل على وجوب طلب العلم الشرعي الذي هو معرفة الله تعالى بأسمائه وصفاته؛ لأن من عرف ربه حق المعرفة رقّ قلبه، ومن جهل حق ربه قسا قلبه، ولا يكون القلب قاسيًا إلا إذا كان صاحبه من أجهل العباد بالله عز وجل، وكلما عظم الجهل

(١) انظر: تيسير الكريم الرحمن، السعدي ٦٤٥.
(٢) انظر: روح المعاني، الألوسي ١١/ ٦١.
(٣) انظر: التفسير المنير، الزحيلي ٢١/ ١٢٢.
(٤) تفسير الشعراوي ١٩/ ١١٥٥٦.
(٥) انظر: في ظلال القرآن ٥/ ٢٧٧٨.

بالله وبحقوقه كان العبد أكثر جرأة على حدود الله ومحارمه، وكلّما وجد الشخص يديم التفكير في ملكوت الله، ويتذكر نعم الله عليه وجد في قلبه رقة، والخالق سبحانه طبع على قلوب هؤلاء الجهال بسبب معارضة الحق ومعاندته، فهم بسبب جهلهم فقدوا العلم النافع الذي يرشد إلى الحق ويجنب الباطل؛ لأن ذنوبهم غطّت القلوب وغشيتها حتى ذهب النور عنها فبقت في ظلمة، فالجهل هو العقبة التي تحول بين المسلمين وبين كمالهم وسعادتهم؛ لأن جميع الجرائم في المجتمع إنما تكون ناتجة عن ظلمة القلوب وعدم البصيرة لجهل أصحابها.

رابعًا: الاستمرار والإصرار على إتباع الهوى:

ومن نتائج الطبع على القلوب هو الاستمرار والإصرار على إتباع الهوى، و(الهوى) هو محبة الإنسان الشيء وغلبته على قلبه[1]، فهو دافع داخل الإنسان يحركه الى ما يحب ويشتهي. قال تعالى: ﴿وَنَهَى النَّفْسَ عَنِ الْهَوَى﴾ [النازعات:٤٠].

أي: عن شهواتها وما تدعو إليه من معاصي الله عز وجل[2].

لذلك فإن اتباع الهوى يطمس نور العقل، ويعمي بصيرة القلب، ويصد عن اتباع الحق، ويضل عن الطريق المستقيم، فلا تحصل بصيرة العبرة معه ألبته، والعبد إذا اتبع هواه فسد رأيه ونظره، فأرته نفسه الحسن في صورة القبيح، والقبيح في صورة الحسن، فالتبس عليه الحق بالباطل، فأنى له الانتفاع بالتذكر، أو بالتفكر، أو بالعظة، فكلما ضعف نور الإيمان في القلب كلما كانت الغلبة للهوى[3].

وأخبر الله سبحانه وتعالى أن باتباع الهوى يطبع الله على قلوب العباد بقوله: ﴿وَمِنْهُم مَّن يَسْتَمِعُ إِلَيْكَ حَتَّىٰ إِذَا خَرَجُوا مِنْ عِندِكَ قَالُوا لِلَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ مَاذَا قَالَ آنِفًا أُولَٰئِكَ الَّذِينَ طَبَعَ اللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ وَاتَّبَعُوا أَهْوَاءَهُمْ﴾ [محمد: ١٦].

فقد ذمّ الخالق سبحانه في هذه الآية الذين اتبعوا أهوائهم؛ لأنهم لا يستفيدون مما يسمعون، ولا يتأثرون بموعظة، ولا يعون أو يعقلون ما يرشدون به. يقول الطبري: ومن هؤلاء الكفار يا محمد ﴿مَّن يَسْتَمِعُ إِلَيْكَ﴾ وهو المنافق، يستمع ما تقول فلا يعيه ولا يفهمه، تهاونًا منه بما تتلو عليه من كتاب ربك، تغافلًا عما تقوله، وتدعو إليه من الإيمان[4].

(١) انظر: لسان العرب، ابن منظور ١٥/ ٣٧٢.
(٢) انظر: تفسير الجلالين، جلال الدين المحلي وجلال الدين السيوطي ص٧٩١.
(٣) انظر: مدار السالكين، ابن القيم ١/ ٤٤٧.
(٤) انظر: جامع البيان، الطبري ٢٢/ ١٦٩.

فالخالق سبحانه ذكر بأن هؤلاء يستمعون القرآن الذي هو غاية الإعجاز والبلاغة والبيان، ولكن يحال بينهم وبين سماعه، فإذا خرجوا بعد سماعه، يقولون لمن أوتي العلم ﴿مَاذَا قَالَ ءَانِفًا﴾ كأنهم ما سمعوا أصلًا، والذي حال بينهم وبين الفهم ما ذكره الله عنهم أنهم اتبعوا أهواءهم، فطبع الله على قلوبهم، وطمس على معرفتهم حيث اتبعوا أهواءهم، فلم يستفيدوا، فالهوى هو الذي أعماهم وأصمهم، وفي ذلك دلالة واضحة على أن الهوى مانع من موانع الانتفاع بالقرآن.

وقوله تعالى: ﴿أُولَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ طَبَعَ ٱللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ﴾ [محمد: ١٦].

أي: أولئك المنافقون الذين هذه صفتهم هم القوم الذين ختم الله على قلوبهم، فلم يؤمنوا، ولم يهتدوا إلى الحق، واتبعوا شهواتهم، وأهواءهم في الكفر والعناد، بسبب استحبابهم الضلالة على الهداية، فهم لما تركوا اتباع الحق أمات الله قلوبهم فلم تفهم ولم تعقل، فعند ذلك اتبعوا أهواءهم في الباطل، فصاروا لا يعقلون حقًّا، ولا يفهمون حديثًا[(١)].

قال السعدي: «أي: ختم على قلوبهم، وسدّ أبواب الخير التي تصل إليه بسبب إتباعهم أهواءهم التي لا يهوون فيها إلا الباطل»[(٢)].

وجيء باسم الإشارة (أولئك) بعد ذكر صفاتهم تشهيرًا بهم، وجيء بالموصول وصلتيه خبرًا عن اسم الإشارة، لإفادة أن هؤلاء المتميزين بهذه الصفات، هم أشخاص الفريق المتقرر بين الناس، أنهم فريق مطبوع على قلوبهم؛ لأنه قد تقرر عند المسلمين أن الذين صمموا على الكفر هم قد طبع الله على قلوبهم، وأنهم متبعون لأهوائهم[(٣)]. وهذا الصنف من الناس لا يهتدون ولا يؤمنون مهما أنذروا بالآيات القرآنية، وشاهدوا من الآيات الكونية، ومهما سمعوا وعاينوا من المعجزات النبوية الواضحة[(٤)].

وعن علي رضي الله عنه أنه قال: «وأما اتباع الهوى فيصدّ عن الحق»[(٥)].

يقول ابن تيمية: «واتباع الهوى يصّد عن التصديق بالحق واتباع ما أوجبه العلم به، وهذه حال عامة المكذبين مثل مكذبي محمد صلى الله عليه وسلم وموسى صلى الله عليه وسلم وغيرهما، فإنهم علموا صدقهما علمًا يقينيًّا لما ظهر من آيات الصدق ودلائله الكثيرة، لكن اتباع الهوى

(١) انظر: لباب التأويل، الخازن ٤/ ١٤٤، التفسير المنير، الزحيلي ٦/ ١٠٩.

(٢) تيسير الكريم الرحمن ص٧٨٦.

(٣) انظر: التحرير والتنوير ٢٦/ ١٠١.

(٤) انظر: الإبانة، العكبري ١/ ١٨٩.

(٥) انظر: الجواب الكافي، ابن القيم ص٤٢.

صد عن الحق»[1].

والهوى حينما يغلب على القلب ويقهره فلا ينتفع القلب بفائدة قط، بل يصبح كريشة في مهب الرياح أينما ذهبت انكفأت معها، وتدور المعركة بين القلب والهوى، فكلما قوي القلب انقهر الهوى، وحينما يضعف القلب يستأسر الهوى ولا يرجى منه نفع أو فائدة[2].

قال ابن الجوزي: «اعلم أن مطلق الهوى يدعو إلى اللذّة الحاضرة من غير فكر في عاقبة، ويحثّ على نيل الشهوات عاجلًا، وإن كانت سببًا للألم والأذى في العاجل، ومنع لذات في الآجل، فأما العاقل فانه ينهى نفسه عن لذة تعقب ألمًا، وشهوة تورث ندمًا، وكفى بهذا القدر مدحًا للعقل وذمًّا للهوى»[3].

فكلما قوي القلب ودفع الهوى عند أول محنة صقل وثبت وعظم فيه الإيمان وبدأ شعاعه فيه يدب، وفي حال ضعف القلب وهجوم الهوى وانتصاره على القلب تكون الظلمة ويقع السواد حتى يسقط القلب بالكلية، يقول ابن القيم: «فإن العلم نور الله يقذفه في قلب عبده، والهوى والمعصية رياح عاصفة تطفيء ذلك النور ولا بد أن تضعفه»[4].

وإن من أعظم أضرار الهوى حينما يتمكن من القلب أن يهوي بصاحبه في لجج الفتن، فلا يرى حقًا إلا ما وافق هواه، ولا يرى باطلًا إلا ما ينكر هواه.

يقول ابن القيم: «فإن اتباع الهوى يعمي عين القلب، فلا يميز بين السنة والبدعة أو ينكسه فيرى البدعة سنة والسنة بدعة»[5].

ويقول في موضع آخر: «أن اتّباع الهوى يغلق عن العبد أبواب التوفيق، ويفتح عليه أبواب الخذلان»[6].

ومن كل ما تقدم يمكن أن نستنتج أن الاستمرار على اتباع الهوى يفسد القلب، ويطمس نوره، ويعمي بصره، ويحول بينه وبين السلامة، وأن الأمة التي يتبع فيها الهوى، يشيع فيها الحمق والقصور العقلي، كما تبين لنا أن الطبع على القلوب هو نتيجة حاصلة من إتباع الهوى، فالذي يهوي ويتبع الهوى، يضع على عينيه غشاوة، وفي أذنه وقر، فإذا سدّت الآذان، وغشيت العين، أصبح القلب مغلقًا مطبوعًا عليه، فلا فهم صحيح ولا قصد حسن.

موضوعات ذات صلة:

التفكر، الغفلة، القلب، الكفر، المرض

(١) النبوات، ٢/ ٦٥٨.
(٢) انظر: القلوب وآفاتها، صلاح الدين علي ٩٢.
(٣) ذم الهوى، ص١٢.
(٤) إعلام الموقعين ٤/ ١٧٢.
(٥) الفوائد ص١٠١.
(٦) روضة المحبين ص٤٧٩.